سعيد حوى

الأساس في التفسير

المجلد الثامن

وفيه تفسير المجموعتين الأوليين من قسم المثاني
وتشمل من سور:
العنكبوت، الروم، لقمان، السجدة، الأحزاب، سبأ، فاطر، يس
الصافات، ص

دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع

سعيد حوّى

الأساس في التفسير

المجلد الثامن

وفيه تفسير المجموعتين الأوليين من قسم المثاني
وتشملان سور:
العنكبوت، الروم، لقمان، السجدة، الأحزاب، سبأ، فاطر، يس
الصافات، ص

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ وَآلِهِ وَأَصْحَابِهِ

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا، إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع
لصاحبها
عبد القادر محمود البكار

القاهرة ص.ب : ١٦١ غورية . ت : ٩٣٥٦٤٤
حلب ص.ب : ١٨٩٣ . هـ : ١٧٧٦٤
بيروت ص.ب : ١٣٥٣٣٧

الطبعة الأولى

١٤٠٥ هـ = ١٩٨٥ م

القِسْمُ الثّالِثُ مِن أقسامِ القُرآن

قِسْمُ المثاني

وَيتضَمّن سُوَر

العَنكبُوت ، الرُّوم ، لقمان ، السّجدَة ، الأحزاب ، سَبَأ ، فاطِر ، يسٓ ،

الصّافات ، صٓ ، الزُمَر ، غافِر ، فُصّلت ، الشُورى ،

الزُخرف ، الدخان ، الجاثية ،

الأحقاف ، محمد ، الفتح ،

الحُجرات .

قٓ .

قال ابن كثير : (قال أبو عبيد : حدثنا هشام بن إسماعيل الدمشقي عن أحمد ابن شعيب عن سعيد بن بشير عن قتادة عن أبي المليح عن واثلة بن الأسقع عن النبي ﷺ قال : « أُعطيت السبع الطوَل مكان التوراة ، وأُعطيت المئين مكان الإنجيل ، وأُعطيت المثاني مكان الزبور ، وفُضّلت بالمفصّل » . هذا حديث غريب وسعيد بن أبي بشير فيه لين . وقد رواه أبو عبيد الله عن عبد الله بن صالح عن الليث عن سعيد بن أبي هلال قال : بلغنا أن رسول الله ﷺ قال ، فذكره ، والله أعلم . أقول : وقد وصف الغماري هذا الحديث بالحسن) أ.هـ .

....

ومن خلال دراستنا للقرآن نجد فعلاً أن للقرآن أقساماً :

فالقسم الأول الذي يشمل السبع الطوال ، تجده يشكل نوعاً من التكامل والتفصيل .

والقسم الثاني المبدوء بسورة يونس ، والمنتهي بسورة القصص ، يشكّل نوعاً من التكامل والتفصيل .

إنك عندما تبدأ تتلو سورة يونس تحسُّ من خلال أوائل السورة أنك أمام قسم جديد ، وعندما تنتهي من سورة القصص تجد نفسك أنك أمام قسم جديد يبدأ بـ ﴿ الٓمٓ ﴾ ... .

إلا أنَّ أيّ قسم لاحق لا يعني انفصالاً عن قسم سابق بل كل قسم يفصِّل معاني على حسب نظام مُعيَّن ، ونسق مُعيَّن ، هو النسق الذي خص الله عز وجل به سورة البقرة ، مع تكامل الأقسام مع بعضها .

وقد رأينا أن الحديث الشريف الذي مرّ معنا قد ذكر أربعة أقسام : قسم الطوَل ، وقسم المئين ، وقسم المثاني ، وقسم المفصّل ، وفي اجتهادنا أنّه بسورة القصص ينتهي القسم الثاني – قسم المئين الذي جاء بعد قسم الطوَل – وبقي عندنا قسم المثاني ، وقسم المفصّل ، وللعلماء خلاف حول المفصّل من أين يبدأ . قال صاحب نيل الأوطار : (قال في الضياء : هو من سورة محمد ﷺ إلى آخر القرآن .. وذكر في القاموس أقوالاً عشرة : من الحجرات إلى آخره ..... أو من الجاثية ، أو القتال ، أو قٓ ،

أو الصافات ، أو الصف ، أو تبارك ، أو الفتح ، أو الأعلى ، أو الضحى ، ونسب بعض هذه الأقوال إلى من قال بها قال : وسُمّي مفصلاً لكثرة الفصول بين سُوَره أو لقلة المنسوخ) وقال في مراقي الفلاح - أحد كتب الحنفية - : (والمفصّل هو السبع السابع ، وقيل : أوله - عند الأكثرين - من سورة الحجرات ، وقيل : من سورة محمد ﷺ ، أو من الفتح ، أو من قٓ . فالطوال (أي طوال المفصّل) من مبدئه إلى البروج ، وأوساطه منها إلى ﴿ **لم يكن** ﴾ وقصاره منها إلى آخره ...) .

ومن الاختلاف الكثير في المفصّل نعلم أنّ المسألة اجتهادية ، وأكثر الأقوال أن المفصّل من بعد الحجرات ، وعلى هذا القول فإن (قٓ) تكون من المفصّل إلا أننا نستبعد ذلك ؛ لأنّنا نرى أن (قٓ) جزء مما قبلها ؛ فهي امتداد للحواميم ؛ بدليل أن سورة الشورى مبدوءة بـ ﴿ **حمٓ عٓسٓقٓ** ﴾ وسنبرهن على هذا الموضوع فيما بعد ، ومن ثَمَّ فإنَّنا نرى أن المفصّل هو من بعد (قٓ) فهو إذن من سورة (الذاريات) فهو يشمل أربعة أجزاء ونيِّفاً ، وذلك يعدل السبع إلا قليلاً من مجموع القرآن .

....

ولا شك أنّ الأقوال القائلة بأن بداية المفصّل من (الضحى) أو من (الأعلى) ليست صحيحة ، لأنّه من المتعارف عليه أن سورة الملك يطلق عليها اسم (تبارك المفصّل) ، وقد ورد ذلك في بعض الأحاديث ، وأن الأقوال القائلة بأنّ ابتداء المفصّل من (إنا فتحنا) ، أو من سورة محمد ﷺ مردودة ؛ لأنّها قبل (قٓ) وهذا موضوع سنراه فيما بعد مع أدلته ، وكذلك القول بأن بداية المفصّل من الجاثية مردود ؛ لأن الجاثية من الحواميم ، فهي جزء من مجموعة ، بل هي آتية في وسط مجموعة وليست بداية لقسم .

....

إنّ المفصّل في اجتهادنا يبدأ بسورة الذاريات ، وسنُبرهن على ذلك أكثر من مرَّة ، وعلى هذا فالقسم الثالث من أقسام القرآن - والمسمّى بالمثاني - يكون من سورة العنكبوت إلى نهاية سورة (قٓ) .

....

ومن تسمية القسم الثالث بالمثاني ندرك أن هناك معاني ستُثنّىٰ وتثنّى فيه . ومن ثَمَّ

فإننا سنلاحظ – كما لاحظنا في القسم الثاني – أنه مؤلف من مجموعات ، كل مجموعة تؤدّي دورها فيه ضمن السياق القرآني العام .

....

ونحب ابتداءً أن نسجّل ملاحظات ، ندرك من خلالها لِمَ سُمي هذا القسم بالمثاني ، إنّك تجد في المجموعة الأولى من هذا القسم والتي هي – كما سنرى – تمتدّ من سورة العنكبوت حتى نهاية سورة (يسٓ) أربع سور مبدوءة بـ ﴿ الٓمٓ ﴾ ، بينما قسم الطوَل لم ترد فيه ﴿ الٓمٓ ﴾ إلا مرّتين ، مرة في سورة البقرة ، ومرة في سورة آل عمران .

وفي هذه المجموعة ترد سورتان مبدوءتان بـ ﴿ **الحمد لله** ﴾ بينما لا نجد في قسم الطوَل إلا سورة واحدة هي الأنعام مبدوءة بـ ﴿ **الحمد لله** ﴾ ، ولا تجد في قسم المئين إلا سورة واحدة مبدءوة بـ ﴿ **الحمد لله** ﴾ هي الكهف .

ونجد في قسم المثاني سبع سور مبدوءة بـ ﴿ حمٓ ﴾ ؛ مما يشير إلى وحدة الزمرة ، ووحدة معانيها . من مثل هذه الملاحظات نعرف بعض السّر في تسمية هذا القسم بالمثاني .

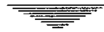
....

لقد استْأنسنا في تحديدنا لأقسام القرآن بنصوص وبعلامات ثمّ بالمعاني ، فمثلاً وجود ﴿ الٓمٓ ﴾ في بداية سورة العنكبوت ، وعدد آيات سورة القصص ، كل ذلك كان عاملاً من عوامل تحديد بداية قسم المثاني ، ونهاية قسم المئين ، والمعاني هي التي أكملت الدليل كما رأينا وكما سنرى .

يتألف قسم المثاني من خمس مجموعات ، كل مجموعة تفصّل في سورة البقرة نوع تفصيل ، فهي تبدأ في تفصيل الآية الأولى منها ثمّ وثمّ ، ثـمّ تأتي المجموعة الثانية ، فتبدأ التفصيل من البداية وهكذا ، وذلك كذلك سبب من أسباب تسمية هذا القسم بالمثاني ، وسنرى كيف أن المعاني هي التي ستحدّد لنا بدايات المجموعات ونهاياتها . ولنبدأ بعرض المجموعة الأولى من قسم المثاني .

المجموعة الأولى

من القسم الثالث من أقسام القرآن
المسمَّى بقسم المثاني
وتشمل سور :
العنكبوت ، والروم ، ولقمان ، والسجدة ،
والأحزاب ، وسبأ ، وفاطر ،
ويسٓ



كلمة في المجموعة الأولى من قسم المثاني :

تفصّل هذه المجموعة في سورة البقرة ككل مجموعة ، فالسور الأربع الأول منها تفصّل في مقدمة سورة البقرة ؛ فكما أنّ سورة آل عمران مبدءوة بـ ﴿ **الٓمٓ** ﴾ وفصّلت مقدمة سورة البقرة ، فكذلك هذه السور الأربع كلها مبدءوة بـ ﴿ **الٓمٓ** ﴾ ، فإنّها تفصّل مقدمة سورة البقرة ، وامتداداتها في السورة ، ثم تأتي سورة الأحزاب ، فتفصّل الحيّز الذي فصّلته سورتا النساء ، والمائدة بآن واحد ، أي أنها تفصّل من سورة البقرة من قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم ..** ﴾ (الآية : ٢١) إلى ﴿ **أولئك هم الخاسرون** ﴾ أي : إلى نهاية الآية (٢٧) فهي تفصّل ما فصّلته سورتا النساء والمائدة ، ولكنّه تفصيل جديد وبشكل جديد سنراه .

ثم تأتي سورتا سبأ وفاطر ، فتفصلان ما فصلته سورة الأنعام ، أي : تفصلان قوله تعالى : ﴿ **كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون * هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسوّاهُن سبع سمٰوات وهو بكل شيء عليم** ﴾ (البقرة : ٢٨ ، ٢٩) .

سورة سبأ تفصل بشكل رئيسي الآية الأولى ، وسورة فاطر تفصل بشكل رئيسي الآية الثانية ، وتتكاملان مع بعضهما في تفصيل الآيتين ، ولكن بشكل جديد سنراه .

ثم تأتي سورة (يس) لتفصّل آية في أعماق سورة البقرة ، فتفصل ما فصلته (الطاسينات) وهو قوله تعالى : ﴿ **تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين** ﴾ (البقرة : ٢٥٢) ولكنه تفصيل جديد وبشكل جديد سنراه .

ومن التفصيل الذي سنراه في هذه المجموعة الأولى من قسم المثاني ندرك سراً من أسرار تسمية هذا القسم باسم المثاني . فما من سورة منه إلا وهي تثنّي تفصيل معنى من المعاني .

فمقدمة سورة البقرة فُصِّلت من قبل ، وها هنا يثنى تفصيلها . وهكذا قل في آيات أخرى قد فُصّلت من قبل ، وسنرى أن مجموعات هذا القسم كثيرة ، وكلها تثنى فيها بعض المعاني ، وبعض التفصيل مرّة بعد مرّة .

....

وهذه المجموعة تتكامل مع بعضها بحيث تؤدّي معنى متكاملاً ، فهي مع أدائها دوراً في التفصيل الكلي للقرآن فإنّ لها دورها المستقل الذي تؤدّيه بحكم أنّها مجموعة متكاملة . وهكذا كل مجموعة من مجموعات الأقسام . وهكذا كل قسم من الأقسام .

فالمجموعة داخل القسم لها دورها المستقل ، والقسم بالنسبة للقرآن له دوره المستقل ، ولكن المجموعة تؤدّي دورها في تكامل القسم ، والقسم يؤدّي دوره في تكامل القرآن ، ومن خلال هذا يظهر تشابه القرآن مع هذا الكون في حيثية من الحيثيات [١] . إنّ هذا القرآن يشبه هذا الكون فهذا أثر قدرة الله ، وهذا أثر صفة الكلام لله ، فكما أن في هذا الكون تكاملاً وتناسقاً فيهما تظهر وحدته ، فكذلك هذا القرآن فيه تكامل وتناسق فيهما تظهر وحدته ، وكما أنّ الوحدة الكونية لا تنفي وحدة المجموعات ، ولا تنفي أن تؤدّي هذه المجموعات دوراً مستقلاً ضمن الوحدة الكلية ، فكذلك الوحدة الكلية في القرآن لا تنفي وحدة الأقسام ، ووحدة المجموعات التي تؤدّي دوراً خاصاً ضمن الوحدة الكلية .

....

وقد شرحنا موضوع التناسق والتكامل في الكون في كتابنا (الله جل جلاله) تحت عنوان ظاهرة الوحدة . فكل جزء في الكون يُكمّل الآخر ، ثمّ مرجع الأشياء كلها إلى وحدة كلية ، وضمن هذه الوحدة الكلية تجد آلافاً من الوحدات تؤلف فيما بينها كُلًّا متكاملاً ، فكذلك هذا القرآن .

وكما أنك تستطيع من خلال أجزاء هذا الكون أن توجد ملايين المركبات ، أو تفرز الشيء الواحد وتضمّه إلى بعضه فيخرج معك آلاف الأشياء ، فكذلك هذا القرآن ، إذا ركبت بعض مواضيعه إلى بعضها تجد ملايين المواضيع ، وإذا فرزت مواضيعه كُلًّا على انفراد تجد ملايين المواضيع وهكذا ، فما أحمق الذين يقترحون أن يكون القرآن على غير ما هو عليه ، أو يعترضون على ما هو عليه ، وما أحمق اعتراضهم على أنه لم تكن المواضيع القرآنية الواحدة بجانب بعضها . إنّ استخراج المواضيع ذات الصبغة الواحدة قد تُرك للجهد البشري على مدى العصور ؛ لأن المواضيع التي ينبغي أن تدرج بجانب بعضها تختلف باختلاف العصور ، واحتياجات البشر فيها لا تتناهى ، فإذا كان

---

(١) لكن الكون مخلوق ، والقرآن كلام الله الأزلي .

القرآن يحوي كل المواضيع غير المتناهية التي تحتاجها البشرية ، كما أن الكون يحوي كل الأشياء التي تحتاجها البشرية . وإذا كانت الوحدة فيه كالوحدة في هذا الكون ، فذلك دليل أنه من عند الله ، وهو موضوع سنكرر الكلام فيه شيئاً فشيئاً حتى نعرف أبعاده .

....

في هذا الكون تجد مجموعات ضمن الوحدة الكلية ، كالمجموعة الشمسية بالنسبة لمجرّاتها ، وتجد أقساماً تضم مجموعات كالمجرّة بالنسبة للكون ، وتجد الكون بمجموع مجرّاته ، والمجموعة الشمسية تتألف من أجزاء كل جزء يشكّل وحدة مستقلة ضمن وحدة أكبر منها ، وفي الجزء تجد وحدات أصغر منها ، لها دورها المستقل ضمن وحدة كلية ، فكذلك هذا القرآن ، الآية ضمن السورة ، والسورة ضمن المجموعة ، والمجموعة ضمن القسم ، والقسم ضمن القرآن ، لكلٍّ دوره المستقل ، مع أدائه دوره في الوحدة الأكبر منه ، وهكذا نجد هذه المجموعة التي بين أيدينا ، فلكل سورة منها محلّها ضمن مجموعتها ، ومجموعتها تؤدّي دوراً مستقلاً ضمن إطار وحدة القسم ، والقسم كله يؤدّي دوراً .

....

تبدأ المجموعة بسور أربع تتحدث عن الإيمان وأثره العملي ، وتبيّن أبعاده ، وتأتي سورة الأحزاب لتأمر بمراعاة معان كثيرة هي بمثابة الطريق للوصول إلى المعاني المذكورة في السور الأربع ، وما تحدّثت عنه السور الخمس يوصل إلى مقام الشكر ، ومن ثَمَّ تأتي سورة سبأ ، لتتحدث عن الشكر ، وشروط حصوله . ثم تأتي سورة فاطر ، لتبين نقطة البداية في طريق الشكر . ثم تأتي سورة يس ، لتكمّل البناء ضمن الكلام عن مهمة الرسل الذين رسموا طريق الشكر .

....

وقد كان علينا من قبل أن نتحدّث عن موضوع الدور المستقل للسورة ضمن المجموعة ، والدور المستقل للمجموعة ضمن القسم ، ولكنّا أخرنا الكلام عن ذلك حتى لا يتشعّب الحديث ، ولعلّنا بمناسبة الكلام عن هذه المجموعة نوفّي هذا الموضوع حقّه ، لأن هذه المجموعة تكاد تكون نموذجاً واضحاً على ذلك .

....

والملاحظ أنّ سوراً أربعاً في هذه المجموعة تبدأ بـ ﴿ الٓمٓ ﴾ وهذا يشير إلى أنّها تفصّل في مقدّمة سورة البقرة ، وسنرى ذلك بشكل واضح ، كما سنرى أنّ تفصيل كل من السور الأربع لهذه المقدّمة يكمّل تفصيل الأخرى ، فسورة (العنكبوت) مثلاً تفصّل في قضايا الإيمان بالغيب وبالكتاب ، ومستلزمات ذلك بشكل أخصّ ، بينما سورة (الروم) تفصّل في قضايا الإيمان باليوم الآخر بشكل أخصّ ، وكلّ من السور الأربع تفصّل في جانب من مقدّمة سورة البقرة ، وفي امتدادات ذلك في سورة البقرة نفسها ، لذلك نلاحظ أن كُلّاً من السور الأربع قد فصّل في مقدمة سورة البقرة ، وفي آيات منها قد جاءت بعد ذلك ، وكل ذلك سنراه تفصيلاً إن شاء الله .

سورة العنكبوت

وهي السورة التاسعة والعشرون بحسب الرسم القرآني
وهي السورة الأولى من المجموعة الأولى من قسم المثاني
وآيَاتها تسع وستون آية
وهي مكية

وهي السورة الأولى من زمرة (الٓمٓ)
في قسم المثاني

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه

ربنا تقبل منا، إنك أنت السميع العليم

نُقول في سورة العنكبوت :

قال صاحب الظلال في تقديمه لسورة العنكبوت :

(سورة العنكبوت مكية . وقد ذكرت بعض الروايات أن الإحدى عشرة آية الأولى مدنية . وذلك لذكر (الجهاد) فيها وذكر (المنافقين) .. ولكننا نرجّح أن السورة كلها مكية . وقد ورد في سبب نزول الآية الثامنة أنها نزلت في إسلام سعد ابن أبي وقاص كما سيجيء . وإسلام سعد كان في مكة بلا جدال . وهذه الآية ضمن الآيات الإحدى عشرة التي قيل إنها مدنية . لذلك نرجّح مكية الآيات كلها . أما تفسير ذكر الجهاد فيها فيسير . لأنها واردة بصدد الجهاد ضد الفتنة . أي جهاد النفس لتصبر ولا تُفْتن . وهذا واضح في السياق . وكذلك ذكر النفاق فقد جاء بصدد تصوير حالة نموذج من الناس .

والسورة كلها متماسكة في خط واحد منذ البدء إلى الختام .

إنها تبدأ بعد الحروف المقطّعة بالحديث عن الإيمان والفتنة ، وعن تكاليف الإيمان الحقة التي تكشف عن معدنه في النفوس . فليس الإيمان كلمة تقال باللسان ، إنما هو الصبر على المكاره والتكاليف في طريق هذه الكلمة المحفوفة بالمكاره والتكاليف .

ويكاد هذا أن يكون محور السورة وموضوعها ؛ فإن سياقها يمضي بعد ذلك المطلع يستعرض قصص نوح وإبراهيم ولوط وشعيب عليهم السلام ، وقصص عاد وثمود وقارون وفرعون وهامان ، استعراضاً سريعاً يصوِّر ألواناً من العقبات والفتن في طريق الدعوة إلى الإيمان . على امتداد الأجيال .

ثم يُعقّب على هذا القصص وما تكشّف فيه من قوى مرصودة في وجه الحق والهدى ، بالتصغير من قيمة هذه القوى والتهوين من شأنها ، وقد أخذها الله جميعاً :

﴿ فكلّاً أخذنا بذنبه ، فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ، ومنهم من أخذته الصيحة ، ومنهم من خسفنا به الأرض ، ومنهم من أغرقنا ﴾ .

ويضرب لهذه القوى كلها مثلاً مصوراً يجسِّم وَهَنَها وتفاهتها :

﴿ مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً ، وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون ﴾ .

ويربط بعد ذلك بين الحق الذي في تلك الدعوات والحق الذي في خلق السماوات والأرض ؛ ثم يوحّد بين تلك الدعوات جميعاً ودعوة محمد - ﷺ - فكلها من عند الله . وكلها دعوة واحدة إلى الله . ومن ثَمَّ يمضي في الحديث عن الكتاب الأخير وعن استقبال المشركين له ؛ وهم يطلبون الخوارق غير مكتفين بهذا الكتاب وما فيه من رحمة وذكرى لقوم يؤمنون . ويستعجلون بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين . ويتناقضون في منطقهم : ﴿ **ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله !** ﴾ . ﴿ **ولئن سألتهم من نزل من السماء ماءً فأحيا به الأرض بعد موتها ليقولن الله !** ﴾ . ﴿ **فإذا ركبوا في الفلك دَعَوُا الله مخلصين له الدين** ﴾ . ولكنهم مع هذا كله يشركون بالله ويفتنون المؤمنين .

وفي ثنايا هذا الجدل يدعو المؤمنين إلى الهجرة فراراً بدينهم من الفتنة ، غير خائفين من الموت ، إذ ﴿ **كل نفس ذائقة الموت ثم إلينا ترجعون** ﴾ . غير خائفين من فوات الرزق : ﴿ **وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم** ﴾ .

ويختم السورة بتمجيد المجاهدين في الله وطمأنتهم على الهدى وتثبيتهم : ﴿ **والذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سُبُلنا ، وإن الله لمع المحسنين** ﴾ . فيلتئم الختام مع المطلع وتتضح حكمة السياق في السورة ، وتماسك حلقاتها بين المطلع والختام ، حول محورها الأول وموضوعها الأصيل) .

وقال الألوسي في تقديمه لسورة العنكبوت :

(أخرج ابن الضريس ، والنحاس ، وابن مردويه ، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس رضي تعالى عنهما أنها نزلت بمكة . وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن الزبير نحو ذلك ، وروى القول بأنها مكية عن الحسن وجابر وعكرمة . وعن بعضهم أنها آخر ما نزل بمكة . وفي البحر عن الحبر ، وقتادة أنها مدنية . وقال يحيى بن سلام : هي مكية إلا من أولها إلى قوله ﴿ **وليعلمن المنافقين** ﴾ وذكر ذلك الجلال السيوطي في الإتقان ولم يَعْزُه ، وأنه لما أخرجه ابن جرير في سبب نزولها ثم قال : قلت : ويضم إلى ذلك ﴿ **وكأين من دآبة** ﴾ الآية لما أخرجه ابن أبي حاتم في سبب نزولها وسيأتي إن شاء الله تعالى الكلام في ذلك . وهي تسع وستون آية بالإجماع ، كما قال الداني والطبرسي . وذكر الجلال في وجه اتصالها بما قبلها أنه تعالى أخبر في أول السورة السابقة عن فرعون أنه ﴿ **علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبّح**

أبناءهم ويستحيي نساءهم ﴾ وافتتح هذه بذكر المؤمنين الذين فتنهم الكفار وعذبوهم على الإيمان ، بعذاب دون ما عذّب به فرعون بني إسرائيل بكثير ، تسلية لهم بما وقع لمن قبلهم وحثّاً على الصبر ، ولذا قيل هنا ﴿ **ولقد فتنّا الذين من قبلهم** ﴾ وأيضاً لما كان في خاتمة الأولى الإشارة إلى هجرة النبي ﷺ أي في قوله تعالى : ﴿ **إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد** ﴾ على بعض الأقوال ، وفي خاتمة هذه الإشارة إلى هجرة المؤمنين بقوله تعالى : ﴿ **يا عبادي الذين آمنوا إن أرضي واسعة** ﴾ ناسب تاليهما) .

كلمة في سورة العنكبوت ومحورها :

تبدأ السورة بـ﴿ **الٓمٓ** ﴾ فهي كآل عمران تفصّل في مقدمة سورة البقرة ، وتفصّل ما استكن في هذه المقدمة من معان . ففي مقدمة سورة البقرة حديث عن المتقين ، وعن الكافرين ، وعن المنافقين . وفي سورة العنكبوت حديث عن المؤمنين ، والكافرين ، والمنافقين . وفي مقدمة سورة البقرة كلام عن الإيمان بالغيب . وتبدأ سورة العنكبوت بالكلام عن الامتحان لتحقيق الإيمان وتتحدث السورة مرَّة ومرَّة عن الإيمان :

إن سورة البقرة مبدوءة بقوله تعالى :

﴿ **الٓمٓ * ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين * الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ...** ﴾ .

ونلاحظ أنه قد جاء في سورة العنكبوت قوله تعالى :

﴿ **والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرنَّ عنهم سيئاتهم ولنجزينّهم أحسن الذي كانوا يعملون** ﴾ (الآية : ٧) .

﴿ **والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنّهم في الصالحين** ﴾ (الآية : ٩) .

﴿ **والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوئنَّهم من الجنة غُرَفاً تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها نعم أجر العاملين * الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون** ﴾
(الآيتان : ٥٨ ، ٥٩)

ونلاحظ أن آخر آية في السورة هي قوله تعالى :

﴿ **والذين جاهدوا فينا لنهدينَّهم سُبُلَنا وإن الله لمع المحسنين** ﴾ .

ومما مَرَّ نلاحظ أن الكلام عن الإيمان ، وما لأهله ، وعن الطريق لتحقيق الإيمان يأخذ حيِّزاً كبيراً في السورة .

....

ونجد في السورة قوله تعالى :

﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أُوذِيَ في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ولئن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم أو ليس الله بأعلم بما في صدور العالمين * ولَيَعْلَمَنَّ الله الذين آمنوا ولَيَعْلَمَنَّ المنافقين ﴾ فالسورة إذن تتحدث عن مظهر من مظاهر النفاق وعلامة من علاماته ، وصلة ذلك بمقدمة سورة البقرة واضحة .

﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين ... ﴾ .
(الآية : ٨)

....

وفي السورة قوله تعالى :

﴿ وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء إنهم لكاذبون * وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم وليسألن يوم القيامة عمّا كانوا يفترون ﴾ (الآيتان : ١٢ ، ١٣) .

وفي السورة قوله تعالى :

﴿ والذين كفروا بآيات الله ولقائه أولئك يئسوا من رحمتي وأولئك لهم عذاب أليم ﴾ (الآية : ٢٣) .

فمما تقدم ندرك أن السورة تتحدث عن المتقين والكافرين والمنافقين من خلال التفاعل اليومي لعملية السير المستمرة لأهل الإيمان ، وما يحدث خلال ذلك . فالسورة عرض حركي لقضية الإيمان والكفر والنفاق ، وهي كذلك عرض لما استكن في مقدمة سورة البقرة . ومن ثَمَّ ندرك أن قضية التفصيل في السياق القرآني العام ليست عملية تكرار لمعان ، بل عملية تفصيل ، وليس تفصيلاً بالمعنى البشري للتفصيل ، بل هو تفصيل عجيب هو أثر علم الله المحيط .

....

إننا نجد في هذه الزمرة من سور هذه المجموعة تفصيلاً لمقدمة سورة البقرة . ولكن كل سورة تفصّل شيئاً في المقدمة نوع تفصيل ، أو تفصّل أثراً عن معنى في المقدمة نوع تفصيل ، أو تفصّل معنى مستكناً في المقدمة نوع تفصيل ، ولكل سورة روحها الخاصة بها ، وسياقها الخاص بها وأسلوبها . وفي ذلك آية على أن هذا القرآن جَلّ أن يكون بشري المصدر .

تتألف سورة العنكبوت من مقدّمة ومقطعين :

تتحدّث المقدمة عن ابتلاء المؤمنين ، وعقوبة الكافرين ثمّ تسير على وتيرة واحدة ، متحدّثة عن أهل الإيمان وعن الكافرين إلى نهايتها ولذلك يتكرّر اسم الموصول فيها معطوفاً بعضه على بعض :

﴿ **من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت وهو السميع العليم** ﴾ (آية : ٥)

﴿ **ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه إن الله لغني عن العالمين** ﴾ (آية : ٦)

﴿ **والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنُكفرنّ عنهم سيئاتهم** ﴾ (آية : ٧)

﴿ **والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنّهم في الصالحين** ﴾ (آية : ٩)

﴿ **والذين كفروا بآيات الله ولقائه أولئك يئسوا من رحمتي ..** ﴾ (آية : ٢٣)

﴿ **والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوّئنّهم من الجنة غرفاً ..** ﴾ (آية : ٥٨)

﴿ **والذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سُبُلنا وإن الله لمع المحسنين** ﴾ (آية : ٦٩)

لاحظ أن الآية السادسة هي ﴿ **ومن جاهد** ﴾ وأن آخر آية في السورة هي ﴿ **والذين جاهدوا فينا** ﴾ ، فالجهاد كلمة مشتركة بين الآيتين ، فالسورة تكاد تكون مقطعاً واحداً ، ولكن آثرنا أن نعرضها على أنّها مقدّمة ومقطعان لسهولة العرض ، خاصّة وأن المقطع الأول يغلب عليه التقرير ، بينما يبدأ المقطع الثاني بأمر ونهي : ﴿ **اتل ما أوحي إليك من الكتاب** ﴾ ، ﴿ **ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن** ﴾ .

....

يتألف المقطع الأول من مجموعتين ، كل منهما مرتبطة بمقدمة السورة :

ابن أبي مُعيط ، وحنظلة بن وائل ، وأنظارهم من صناديد قريش ، وفي البحر أن الآية - وإن نزلت على سبب - فهي تعم جميع من يعمل السيئات من كافر ومسلم) .

فوائد :

١ - بمناسبة الآيات السابقة قال النّسفي : (قال ابن عطاء : يتبيّن صدق العبد من كذبه في أوقات الرخاء والبلاء ، فمن شَكر في أيام الرّخاء ، وصبر في أيام البلاء ، فهو من الصادقين ، ومن بطر في أيام الرخاء ، وجزع في أيام البلاء فهو من الكاذبين)

٢ - وعند قوله تعالى : ﴿ **أَحَسِبَ الناس أن يُتركوا أن يقولوا آمنّا وهم لا يفتنون** ﴾ قال الألوسي :

(والمراد إنكار حسبانهم أن يتركوا غير مفتونين بمجرد أن يقولوا آمنا ، واستبعاد له ، وتحقيق أنه تعالى يمتحنهم بمشاق التكاليف ، كالمهاجرة ، والمجاهدة ، ورفض الشهوات ، ووظائف الطاعات ، وفنون المصائب في الأنفس والأموال ، ليتميز المخلص من المنافق ، والراسخ في الدين من المتزلزل فيه ؛ فيعامل كلٌّ بما يقتضيه ، ويجازيهم سبحانه بحسب مراتب أعمالهم ، فإن مجرد الإيمان - وإن كان عن خلوص - لا يقتضي غير الخلاص من الخلود في النار .

وذكر بعضهم أنه سبحانه لو أثاب المؤمن يوم القيامة من غير أن يفتنه في الدنيا لقال الكافر المعذّب : ربي لو أنك كنت فتنته في الدنيا لكفر مثلي فإيمانه الذي تثيبه عليه مما لايستحق الثواب له فبالفتنة يلجم الكافر عن مثل هذا القول ، ويعوّض المؤمن بدلها ما يعوّض ، بحيث يتمنى لو كانت فتنته أعظم مما كانت ، والآية على ما أخرج عبد ابن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن الشعبي نزلت في أناس كانوا بمكة قد أقروا بالإسلام ، فكتب إليهم أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من المدينة لما نزلت آية الهجرة ، أنه لا يقبل منكم إقرار ولا إسلام حتى تهاجروا ، فخرجوا عامدين إلى المدينة ، فاتبعهم المشركون فردوهم ، فنزلت فيهم هذه الآية ، فكتبوا إليهم أُنزلت فيكم آية كذا وكذا فقالوا : نخرج فإن اتبعنا أحد قاتلناه ، فخرجوا فاتبعهم المشركون فقاتلوهم فمنهم من قتل ، ومنهم من نجا ، فأنزل الله تعالى فيهم ﴿ **ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فُتنوا ثم جاهدوا وصبروا إن ربك من بعدها لغفور رحيم** ﴾ . (النحل : ١١) .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج قال : سمعت ابن عمير وغيره يقولون : كان أبو جهل يعذب عمار بن ياسر وأمه ، ويجعل على عمار درعاً من حديد في اليوم الصائف ، وطعن في فرج أمه برمح ، ففي ذلك نزلت ﴿ **أحسب الناس** ﴾ الخ ، وقيل : نزلت في مهجع مولى عمر بن الخطاب قتل ببدر ، فجزع عليه أبواه وامرأته ، وقال فيه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « سيد الشهداء مهجع ، وهو أول من يدعى إلى باب الجنة » ، وقيل : نزلت في عياش أخي أبي جهل ، غدر وعذب ليرتد كما سيأتي خبره إن شاء الله تعالى ، وفسر الناس بمن نزلت فيهم الآية ، وقال الحسن : الناس هنا المنافقون) .

٣ - وفي آيات المقدّمة قال صاحب الظلال :

(إن الإيمان ليس كلمة تقال إنما هو حقيقة ذات تكاليف ؛ وأمانة ذات أعباء ؛ وجهاد يحتاج إلى صبر ، وجهد يحتاج إلى احتمال . فلا يكفي أن يقول الناس : آمنا . وهم لا يتركون لهذه الدعوى ، حتى يتعرضوا للفتنة فيثبتوا عليها ويخرجوا منها صافية عناصرهم خالصة قلوبهم . كما تفتن النارُ الذهبَ لتفصل بينه وبين العناصر الرخيصة العالقة به - وهذا هو أصل الكلمة اللغوي وله دلالته وظله وإيحاؤه - وكذلك تصنع الفتنة بالقلوب .

هذه الفتنة على الإيمان أصل ثابت ، وسنة جارية ، في ميزان الله سبحانه :

﴿ **ولقد فتنا الذين من قبلهم ، فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين** ﴾ .

والله يعلم حقيقة القلوب قبل الابتلاء ؛ ولكن الابتلاء يكشف في عالم الواقع ما هو مكشوف لعلم الله ، مغيب عن علم البشر ؛ فيحاسب الناس إذن على ما يقع من عملهم لا على مجرد ما يعلمه سبحانه من أمرهم . وهو فضل من الله من جانب ، وعدل من جانب ، وتربية للناس من جانب ، فلا يأخذوا أحداً إلا بما استعلن من أمره ، وبما حققه فعله . فليسوا بأعلم من الله بحقيقة قلبه ! .

ونعود إلى سنة الله في ابتلاء الذين يؤمنون وتعريضهم للفتنة حتى يعلم الذين صدقوا منهم ويعلم الكاذبين .

إن الإيمان أمانة الله في الأرض ، لا يحملها إلا من هم لها أهل وفيهم على حملها قدرة ، وفي قلوبهم تجرد لها وإخلاص . وإلا الذين يؤثرونها على الرّاحة والدعة ، وعلى

الأمن والسلامة ، وعلى المتاع والإغراء . وإنها لأمانة الخلافة في الأرض ، وقيادة الناس إلى طريق الله ، وتحقيق كلمته في عالم الحياة . فهي أمانة كريمة ؛ وهي أمانة ثقيلة ؛ وهي من أمر الله يضطلع بها الناس ؛ ومن ثَمَّ تحتاج إلى طراز خاص يصبر على الابتلاء .

ومن الفتنة أن يتعرض المؤمن للأذى من الباطل وأهله ؛ ثم لا يجد النصير الذي يسانده ويدفع عنه ، ولا يملك النصرة لنفسه ولا المنعة ؛ ولا يجد القوة التي يواجه بها الطغيان . وهذه هي الصورة البارزة للفتنة ، المعهودة في الذهن حين تذكر الفتنة . ولكنها ليست أعنف صور الفتنة . فهناك فتن كثيرة في صور شتى ، ربما كانت أمر وأدهى .

هناك فتنة الأهلِ والأحبّاء الذين يخشى عليهم أن يصيبهم الأذى بسببه ، وهو لا يملك عنهم دفعاً . وقد يهتفون به ليسالم أو ليستسلم ؛ وينادونه باسم الحب والقرابة ، واتقاء الله في الرحم التي يعرضها للأذى أو الهلاك . وقد أُشير في هذه السورة إلى لون من هذه الفتنة مع الوالدين وهو شاق عسير .

وهناك فتنة إقبال الدنيا على المبطلين ، ورؤية الناس لهم ناجحين مرموقين ، تهتف لهم الدنيا ، وتصفّق لهم الجماهير ، وتتحطّم في طريقهم العوائق ، وتصاغ لهم الأمجاد ، وتصفو لهم الحياة . وهو مهمل منكر لا يحس به أحد ، ولا يحامي عنه أحد ، ولا يشعر بقيمة الحق الذي معه إلا القليلون من أمثاله الذين لا يملكون من أمر الحياة شيئاً .

وهنالك فتنة الغربة في البيئة والاستيحاش بالعقيدة ، حين ينظر المؤمن فيرى كل ما حوله وكل مَن حوله غارقاً في تيار الضلالة ؛ وهو وحده موحش غريب طريد .

وهناك فتنة من نوع آخر قد نراها بارزة في هذه الأيام . فتنة أن يجد المؤمن أمماً ودولاً غارقة في الرذيلة ، وهي مع ذلك راقية في مجتمعها ، متحضرة في حياتها ، يجد الفرد فيها من الرعاية والحماية ما يناسب قيمة الإنسان . ويجدها غنية قوية ، وهي مُشاقة لله ! .

وهنالك الفتنة الكبرى . أكبر من هذا كله وأعنف . فتنة النفس والشهوة . وجاذبية الأرض ، وثقلة اللحم والدم ، والرغبة في المتاع والسلطان ، أو في الدعة والاطمئنان . وصعوبة الاستقامة على صراط الإيمان والاستواء على مرتقاه ، مع المعوقات والمثبِّطَات في أعماق النفس ، وفي ملابسات الحياة ، وفي منطق البيئة ، وفي تَصورات

أهل الزمان ! .

فإذا طال الأمد ، وأبطأ نصر الله ، كانت الفتنة أشد وأقسى . وكان الابتلاء أشد وأعنف . ولم يثبت إلا من عصم الله . وهؤلاء هم الذين يحققون في أنفسهم حقيقة الإيمان ، ويُؤتمنون على تلك الأمانة الكبرى ، أمانة السماء في الأرض ، وأمانة الله في ضمير الإنسان .

وما بالله — حاشا لله — أن يعذب المؤمنين بالابتلاء ، وأن يؤذيهم بالفتنة . ولكنه الإعداد الحقيقي لتحمُّل الأمانة . فهي في حاجة إلى إعداد خاص لا يتم إلا بالمعاناة العملية للمشاق ؛ وإلا بالاستعلاء الحقيقي على الشهوات ، وإلا بالصبر الحقيقي على الآلام ، وإلا بالثقة الحقيقية في نصر الله أو في ثوابه ، على الرغم من طول الفتنة وشدة الابتلاء .

والنفس تصهرها الشدائد فتنفي عنها الخبث ؛ وتستجيش كامن قواها المذخورة فتستيقظ وتتجمع . وتطرقها بعنف وشدة فيشتد عودها ويصلب ويصقل . وكذلك تفعل الشدائد بالجماعات ، فلا يبقى صامداً إلا أصلبها عوداً ، وأقواها طبيعة ، وأشدها اتصالاً بالله ، وثقة فيما عنده من الحسنيَيْن : النصر أو الأجر ، وهؤلاء هم الذين يسلَّمون الراية في النهاية . مؤتمنين عليها بعد الاستعداد والاختبار .

وإنهم ليتسلمون الأمانة وهي عزيزة على نفوسهم بما أدوا لها من غالي الثمن ؛ وبما بذلوا لها من الصبر على المحن ؛ وبما ذاقوا في سبيلها من الآلام والتضحيات . والذي يبذل من دمه وأعصابه ، ومن راحته واطمئنانه ، ومن رغائبه ولذاته . ثم يصبر على الأذى والحرمان ؛ يشعر — ولا شك — بقيمة الأمانة التي بذل فيها ما بذل ؛ فلا يسلمها رخيصة بعد كل هذه التضحيات والآلام .

فأما انتصار الإيمان والحق في النهاية فأمر تكفّل به وعد الله . وما يشك مؤمن في وعد الله . فإن أبطأ فلحكمة مقدّرة ، فيها الخير للإيمان وأهله . وليس أحد بأغير على الحق وأهله من الله . وحسب المؤمنين الذين تصيبهم الفتنة ، ويقع عليهم البلاء ، أن يكونوا هم المختارين من الله ، ليكونوا أمناء على حق الله . وأن يشهد الله لهم بأن في دينهم صلابة فهو يختارهم للابتلاء :

جاء في الصحيح : « أشد الناس بلاء الأنبياء ، ثم الصالحون ، ثم الأمثل فالأمثل ،

يُبتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان في دينه صلابة زيد له في البلاء » ..

وأما الذين يفتنون المؤمنين ، ويعملون السيئات ، فما هم بمفلتين من عذاب الله ولا ناجين . مهما انتفخ باطلهم وانتفش ، وبدا عليه الانتصار والفلاح . وعد الله كذلك وسنته في نهاية المطاف :

﴿ أم حَسِب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا ؟ ساء ما يحكمون ! ﴾ .

فلا يحسبن مفسد أنه مفلت ولا سابق ، ومن يحسب هذا فقد ساء حكمه ، وفسد تقديره ، واختل تصوُّره . فإن الله الذي جعل الابتلاء سنة ليمتحن إيمان المؤمن ويميز بين الصادقين والكاذبين ؛ هو الذي جعل أخذ المسيئين سُنّة لا تتبدل ولا تتخلف ولا تحيد) .

كلمة في السياق :

صَحَّحت الآيات السابقة تَصَوُّرين هامّين . الأول : تصور من يظن أن الإيمان لا يرافقه امتحان . والثاني : تصور الكافر أنّه إذا لم يُمتحن فإنه يفلت من عذاب الله عز وجل . فالآيات إذن تصحّح مفاهيم ، وتقرر سنناً لها علاقة بقضية الإيمان والكفر ، وارتباط ذلك بمقدمة سورة البقرة واضح : **﴿ الٓمٓ * ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين * الذين يؤمنون بالغيب ﴾** فالإيمان ليس مجرد دعوى ، وكي لا يقول قائل : ما دام الإيمان كذلك فلنتخلَّ عن الإيمان ، فقد بيّن الله عز وجل أن تصور الكافر أنّه يفوت الله - خطأ أكبر .

ولما كان تصحيح هذا التصور مهماً جداً ، فقد ورد هذا التصحيح في سورة البقرة في قوله تعالى : **﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضرّاء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب ﴾** إلا أن التصحيح الوارد في سورة البقرة ورد في سياق الأمر بالدخول في الإسلام كله ، لأنه هو الذي تترتب عليه المحن الحقيقية ، وهو علامة الشكر الصادق على الإسلام ، وهو الذي تكون عاقبته الظفر ، أما هنا فقد ورد في سياق التفصيل المباشر لمقدمة سورة البقرة ليفيد أنّ دعوى الإيمان يترتب عليها الامتحان .

وههنا نذكّر بشيء :

قلنا : إنّ كلّ سورة في القرآن - ما عدا سورتي الفاتحة والبقرة - لها محور

في سورة البقرة ، وأنّ السورة عندما تفصّل في محورها فإنها تفصّل في هذا المحور وفي امتدادات معانيه الألصق به وقد رأينا أنّه في سورة البقرة جاءت المقدمة ، وجاء بعدها الأمر بالتوحيد ، ثم جاء بعد ذلك الأمر بتبشير الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، ثمّ جاء بعد آيات كثيرة قوله تعالى : ﴿ **أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولَمَّا يأتكم مَثَل الذين خلوا من قبلكم** ... ﴾ ونلاحظ هنا أنّ سورة العنكبوت تفصّل في هذا وغيره ، ضمن محورها الخاص .

ولننتقل إلى المقطع الأول :

يتألف المقطع الأوّل من مجموعتين : مجموعة تتحدّث عن المعاني المجردة ، ومجموعة تضرب الأمثال ، وسنعرض المجموعتين كُلّاً على حِدَة :



المجموعة الأولى من المقطع الأول

وتمتد من الآية (٥) إلى نهاية الآية (١٣) وهذه هي :

مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَـَٔاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَن جَـٰهَدَ
فَإِنَّمَا يُجَـٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟
ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ
﴿٧﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَـٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ
عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٩﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا
بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ
لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ
ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ ﴿١١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟
سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَـٰيَـٰكُمْ وَمَا هُم بِحَـٰمِلِينَ مِنْ خَطَـٰيَـٰهُم مِّن شَىْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ
﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟
يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾

التفسير :

﴿ **من كان يرجو** ﴾ أي : يأمل أو يخاف ﴿ **لقاء الله** ﴾ أي : ثوابه أو عقابه

﴿ **فإن أجل الله** ﴾ المضروب للثواب والعقاب ﴿ **لآت** ﴾ لا محالة ، فَلْيُبادر للعمل الصالح الذي يصدّق رجاءه عز وجل ويحقّق أمله ﴿ **وهو السميع** ﴾ لما يقوله عباده ﴿ **العليم** ﴾ بما يفعلونه ، فلا يفوته شيء ما ﴿ **ومن جاهد** ﴾ نفسه بالصبر على طاعة الله ، وجاهد الشيطان بدفع وساوسه ، وجاهد الكفار لإعلاء كلمة الله ﴿ **فإنما يجاهد لنفسه** ﴾ لأن منفعة ذلك ترجع إليها ﴿ **إنّ الله لغني عن العالمين** ﴾ وعن طاعتهم ومجاهدتهم ، وإنّما أمر ونهى رحمةً لعباده . ثم أخبر تعالى أنه - مع غناه عن الخلائق جميعهم ومع بره وإحسانه بهم - يجازي الذين آمنوا وعملوا الصالحات أحسن الجزاء ، بأن يكفّرَ عنهم أسوأ الذي عملوا ، ويجزيهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون ، فيقبل القليل من الحسنات ، ويثيب عليها الواحدة بعشر أمثالها ، إلى سَبْعمائة ضعف ، ويجزي على السيئة بمثلها ، أو يعفو ويصفح ﴿ **والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفِّرن عنهم سيئاتهم** ﴾ أي الشرك والمعاصي بالإيمان والتوبة ﴿ **ولنجزينّهم أحسنَ الذي كانوا يعملون** ﴾ أي أحسن جزاء أعمالهم في الإسلام .

نَقْل :

عند قوله تعالى : ﴿ **ومن جاهد فإنّما يجاهد لنفسه** ﴾ قال صاحب الظلال رابطاً بين ذكر الجهاد هنا ، وذكر الابتلاء في مقدّمة السورة :

(فلا يقفنّ أحد في وسط الطريق ، وقد أمضى في الجهاد شوطاً يطلب من الله ثمن جهاده ويَمُنّ عليه وعلى دعوته ، ويستبطىء المكافأة على ما ناله فإن الله لا يناله من جهاده شيء . وليس في حاجة إلى جهد بشر : ﴿ **إن الله لغني عن العالمين** ﴾ وإنما هو فضل من الله أن يعينه في جهاده ، وأن يستخلفه في الأرض به ، وأن يأجره في الآخرة بثوابه) .

كلمة في السياق :

دلتنا المقدمة على أن الإيمان يرافقه امتحان . وأن علامة الصدق في الإيمان النجاح في الامتحان . ودلنا قوله تعالى في المجموعة ﴿ **من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت** ﴾ على أن هدف المؤمن هو ثواب الله في اليوم الآخر ، فمن كان له هدف في الإيمان غير ذاك فإنه ليس من أهل حقيقة الإيمان ، كما دلت آية ﴿ **ومن جاهد فإنما يجاهد**

لنفسه ﴾ على أنّ الإيمان لا بدّ أن يُرافقه جهاد ، وأن مصلحة الجهاد لا تعود إلا على صاحبها . أما الله عز وجل فغني عن العالمين . وبهذا قررت السورة أن الإيمان يلازمه الصبر على الامتحان ، ويلازمه رجاء الله واليوم الآخر ، ويلازمه الجهاد . فمن فاته الصبر ، أو رجاء الله واليوم الآخر ، أو الجهاد بمعناه الواسع العريض ، فإنه ليس من أهل الصدق في الإيمان . وبعد إذ تَقَرر هذا كله ، أعلمنا الله ما أعده لمن اجتمع له الإيمان والعمل الصالح . وصلة هذه المعاني بمقدمة سورة البقرة واضحة ، وخاصة بقوله تعالى : ﴿ **الذين يؤمنون بالغيب** ﴾ فعلامة الصدق بالإيمان بالغيب النجاح في الامتحان ، وأن لا يريد الإنسان بعمله إلا وجه الله ، وأن يجاهد نفسه وشيطانه وأعداء الله عز وجل ، فالإيمان بالغيب لا بد أن يأخذ مداه العملي في مثل هذا ، ثم الإيمان بالغيب لا بد أن يرافقه عمل صالح فذلك علامة على استقراره في القلب ، وبتقرير ما أعد الله لمن آمن وعمل صالحاً ، جاء أوان أن يعرض الله عز وجل علينا أمره في شأن الوالدين ، فمن أعظم أبواب الامتحان الوالدان ، ومن أعظم الأعمال الصالحة برهما .

....

﴿ **ووصينا الإنسان بوالديه حُسناً** ﴾ لأنهما سبب وجود الإنسان ، ولهما عليه غاية الإحسان . فالوالد بالإنفاق ، والوالدة بالإشفاق ، والوصية في الآية تفيد الأمر ، أي وأمرنا الإنسان . وقوله ﴿ **حُسْنا** ﴾ أي فعلاً ذا حُسْن ، أو فعلاً هو الحُسْن بعينه ؛ لفرط جماله وكماله ﴿ **وإن جاهداك** ﴾ أيها الإنسان ﴿ **لتشرك بي ما ليس لك به علم** ﴾ أي لا علم لك بإلهيته ، أي وإن جاهداك لتشرك بالله شيئاً لا يصح أن يكون إلهاً وكل ما سوى الله كذلك ﴿ **فلا تطعهما** ﴾ أي في ذلك ؛ إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ﴿ **إليّ مرجعكم** ﴾ أي مرجع من آمن ومن أشرك ، فأجازيكم حق جزائكم ﴿ **فأنبئكم بما كنتم تعملون** ﴾ قال النسفي : (وفي ذكر المرجع وعيد وتحذير من متابعتهما على الشرك ، وحث على الثبات والاستقامة في الدين) وإذن فمع الوصية بالرأفة والرحمة ، والإحسان إلى الوالدين ، في مقابلة إحسانهما المتقدم بيّن الله عز وجل أنّه إنْ حَرِصا على أنْ تتابعهما على دينهما إذا كانا مشركين فإياك وإياهما ، فلا تطعهما في ذلك ؛ فإنّ مرجعكم أيها الناس إليَّ يوم القيامة ، فيجزيك الله أيها المؤمن بإحسانك إليهما ، وصبرك على دينك ، ويحشرك مع الصالحين ، لا في زمرة والديك ، وإن كنت

أقرب الناس إليهما في الدنيا ، فإن المرء إنما يُحشر يوم القيامة مع من أحب حباً دينياً . ومن ثَمَّ أتبع هذه الآية قوله تعالى : ﴿ **والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنَّهم في الصالحين** ﴾ أي في جملتهم .

فوائد :

١ - عند قوله تعالى ﴿ **ووصينا الإنسان بوالديه حُسناً** ﴾ قال الألوسي :

(والآية نزلت في سعد بن أبي وقاص ، وذلك أنه رضي الله عنه حين أسلم قالت أمه حمنة بنت أبي سفيان بن أمية بن عبد شمس : يا سعد بلغني أنك صبأت ، فوالله لا يظلني سقف بيت من الضح والريح ، وأن الطعام والشراب عليَّ حرام حتى تكفر بمحمد - صلى الله تعالى عليه وسلم - ، وكان أحب ولدها إليها ، فأبى سعد ، وبقيت ثلاثة أيام كذلك ، فجاء سعد إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فشكا إليه ، فنزلت هذه الآية ، والتي في لقمان ، والتي في الأحقاف ، فأمره رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن يداريها ويترضّاها بالإحسان .

وروى أنها نزلت في عياش بن أبي ربيعة المخزومي ، وذلك أنه هاجر مع عمر ابن الخطاب رضي الله تعالى عنهما متوافقين حتى نزلا المدينة ، فخرج أبو جهل ابن هشام ، والحرث بن هشام أخواه لأمه أسماء بنت مخرمة امرأة من بني تميم من بني حنظلة ، فنزلا بعياش وقالا له : إن من دين محمد صلة الأرحام ، وبر الوالدين ، وقد تركت أمك لا تطعم ولا تشرب ولاتأوي بيتاً حتى تراك ، وهي أشد حباً لك منا ، فاخرج معنا وفتلا منه في الذروة والغارب ، فاستشار عمر رضي الله تعالى عنه فقال هما يخدعانك ، ولك عليَّ أن أقسِّم مالي بيني وبينك ، فمازالا به حتى أطاعهما وعصى عمر رضي الله عنه ، فقال عمر رضي الله تعالى عنه : أما إذ عصيتني فخذ ناقتي فليس في الدنيا بعير يلحقها ، فإن رابك منهم ريب فارجع ، فلما انتهوا إلى البيداء قال أبو جهل : إن ناقتي قد كلَّت فاحملني معك ، قال : نعم . فنزل ليوطىء لنفسه له ، فأخذاه فشدّاه وثاقا وجلده كل واحد مائة جلدة ، وذهبا به إلى أمه ، فقالت لا تزال بعذاب حتى ترجع عن دين محمد صلى الله تعالى عليه وسلم فنزلت) .

وقال ابن كثير عند الآية نفسها :

(وروى الترمذي عند تفسير هذه الآية ... عن سماك بن حرب قال : سمعت

مصعب بن سعد يحدّث عن أبيه سعد قال: نزلت فيّ أربع آيات، فذكر قصته وقال: قالت أم سعد أليس الله قد أمرك بالبر؟ والله لا أطعم طعاماً، ولا أشرب شراباً، حتى أموت أو تكفر، قال: فكانوا إذا أرادوا أن يطعموها شجروا فاها، فنزلت ﴿ **ووصينا الإنسان بوالديه حسناً * وإن جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما** ﴾).

٢ - بمناسبة قوله تعالى: ﴿ **لندخلنّهم في الصالحين** ﴾ قال النسفي:

(والصلاح من أبلغ صفات المؤمنين وهو متمنى الأنبياء عليهم السلام قال سليمان عليه السلام: ﴿ **وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين** ﴾. [النمل: ١٩] وقال يوسف عليه السلام: ﴿ **توفني مسلماً وألحقني بالصالحين** ﴾ [يوسف: ١٠١]، أي: في مدخل الصالحين وهو الجنة).

كلمة في السياق:

من أصعب الامتحانات التي يمرّ بها المؤمن المجاهد موقف والديه منه، ومن أصعب الأمور أن يتصرَّف التصرف المناسب في مثل هذا الموطن، ومن ثَمَّ ألزم الله المؤمن هنا بشيئين: الإحسان، وعدم الطاعة في المعصية وهما أمران لايستطيعهما معاً إلا موفّق، ومن ثَمَّ ذكر الله عز وجل في هذا السياق ما أعده لمن آمن وعمل صالحاً، وعلى هذا فإن السياق - حتى الآن - يعرض علينا علامات الصدق في الإيمان، وهي الصبر على الامتحان، ورجاء ثواب الله، والجهاد، والعمل الصالح، والإحسان إلى الوالدين، مع الرفض لكل أمر فيه معصية لله، وإذا كان هذا الشأن مع الوالدين، فمن باب أولى أن يكون الأمر كذلك مع غيرهما. إن السورة حتى الآن إذن تعرض علينا في سياقها الرئيسي علامات الصدق في الإيمان بالغيب التي هي الصفة الأولى من صفات المتقين، كما عُرِضت في مقدّمة سورة البقرة وقد آن الأوان لنتحدّث شيئاً ما عن مقدمة سورة البقرة:

عرضت مقدمة سورة البقرة صفات المتقين. ثم تحدثت عن الكافرين. ثم عرضت صفات المنافقين، وعندما تكلّمت عن صفات المتقين بدأت بصفة الإيمان ﴿ **الذين يؤمنون بالغيب** ﴾.

وعندما تحدّثت عن المنافقين بدأت بكذبهم في دعوى الإيمان:

﴿ **ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين * يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون * في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون** ﴾ .

وكما رأينا فإن سورة العنكبوت بدأت في الكلام عن علامة الصدق في الإيمان والكذب به ﴿ **فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين** ﴾ وسار السياق ليحدّثنا عن علامات الصدق في الإيمان ، مع التبشير لأهل ذلك ، وها نحن بعد ذلك قد وصلنا إلى أن يعطينا السياق علامة الإيمان الكاذب ، وهو السقوط في الامتحان ، وكما بدأ الحديث في مقدمة سورة البقرة عن المنافقين ، بقوله تعالى : ﴿ **ومن الناس ...** ﴾ فهنا يبدأ كذلك بقوله : ﴿ **ومن الناس ...** ﴾ .

....

﴿ **ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله** ﴾ قال النسفي : (أي إذا مسّه أذى من الكفار جزع من ذلك كما يجزع من عذاب الله تعالى) . وقال ابن كثير : (إذا جاءتهم محنة وفتنة في الدنيا اعتقدوا أن هذا من نقمة الله تعالى بهم ، فارتدوا عن الإسلام) . ﴿ **ولئن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم** ﴾ أي وإذا نصر الله المؤمنين ومكّنهم وغنّمهم اعترضوهم ، وقالوا : إنّا كنّا معكم ، أي متابعين لكم في دينكم ، ثابتين عليه بثباتكم ، فأعطونا نصيبنا من الغنْم ﴿ **أَوَليس الله بأعلم بما في صدور العالمين** ﴾ أي أوليس الله بأعلم بما في قلوبهم ، وما تكنّه ضمائرهم ، وإن أظهروا الموافقة ؟ أي هو أعلم بما في صدور العالمين ، من العالمين بما في صدورهم ، ومن ذلك ما في صدور هؤلاء من النفاق ، وما في صدور المؤمنين من الإخلاص ، ثم وعد المؤمنين ، وأوعد المنافقين بقوله : ﴿ **وليعلمنَّ الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين** ﴾ . قال ابن كثير : (أي وليختبر الله الناس بالضراء والسراء ؛ ليتميّز هؤلاء من هؤلاء ، من يطيع الله في الضراء والسّراء ، ومن يطيعه في حظ نفسه) . وقال صاحب الظلال بمناسبة هاتين الآيتين اللتين تتحدّثان عن نموذج من الناس يراه الإنسان كثيراً :

(ذلك النموذج من الناس ، يعلن كلمة الإيمان في الرخاء يحسبها خفيفة الحمل ، هينة المؤونة ، لا تكلف إلا نطقها باللسان ، ﴿ **فإذا أوذي في الله** ﴾ بسبب الكلمة التي قالها وهو آمن معافى ﴿ **جعل فتنة الناس كعذاب الله** ﴾ فاستقبلها في جزع ،

واختلّت في نفسه القيم ، واهتزت في ضميره العقيدة ؛ وتصوّر أن لا عذاب بعد هذا الأذى الذي يلقاه ، حتى عذاب الله ؛ وقال في نفسه : ها هو ذا عذاب شديد أليم ليس وراءه شيء ، فعلام أصبر على الإيمان ، وعذاب الله لا يزيد على ما أنا فيه من عذاب ؟ وإن هو إلا الخلط بين أذى يقدر على مثله البشر ، وعذاب الله الذي لا يعرف أحد مداه .

هذا موقف ذلك النموذج من الناس في استقبال الفتنة في ساعة الشدة .

﴿ ولئن جاء نصر من ربك ليقولن : إنا كُنّا معكم ﴾ !

إنا كنا معكم .. وذلك كان موقفهم في ساعة العسرة من التخاذل والتهافت والتهاوي ، وسوء التصوير وخطأ التقدير . ولكن حين يجيء الرخاء تنبعث الدعوى العريضة . وينتفش المنزوون المتخاذلون ، ويستأسد الضعفاء المهزومون ، فيقولون : **﴿ إنا كنا معكم ﴾** ! **﴿ أَوَليس الله بأعلم بما في صدور العالمين ﴾** .

أوليس يعلم ما تنطوي عليه تلك الصدور من صبر أو جزع ، ومن إيمان أو نفاق ؟ فمن الذي يخدعه هؤلاء وعلى مَن يموِّهون ؟

﴿ وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين ﴾ .

وليكشفنهم فيعرَفون ؛ فما كانت الفتنة إلا ليتبين الذين آمنوا ويتبين المنافقون .

ونقف لحظة أمام التعبير القرآني الدقيق وهو يكشف عن موضع الخطأ في هذا النموذج من الناس حين يقول : **﴿ جعل فتنة الناس كعذاب الله ﴾** .

فليست الغلطة أن صبرهم قد ضعف عن احتمال العذاب ، فمثل هذا يقع للمؤمنين الصادقين في بعض اللحظات - وللطاقة البشرية حدود - ولكنهم يظلون يفرقون تفرقة واضحة في تصورهم وشعورهم بين كل ما يملكه البشر لهم من أذى وتنكيل ، وبين عذاب الله العظيم ؛ فلا يختلط في حسِّهم أبداً عالم الفناء الصغير ، وعالم الخلود الكبير ، حتى في اللحظة التي يتجاوز عذاب الناس لهم مدى الطاقة ، وجهد الاحتمال ... إن الله في حسّ المؤمن لا يقوم له شيء ، مهما تجاوز الأذى طاقته واحتماله .. وهذا هو مفرق الطريق بين الإيمان في القلوب والنفاق) .

كلمة في السياق :

بهاتين الآيتين أعطانا الله عز وجل الميزان الذي يُعرف به الصادق من الكاذب ، والمؤمن من المنافق ، ترك الإسلام خوف الإيذاء ، أو عند الإيذاء ، وليس المراد بذلك الترك الاضطراري مع بقاء الصدر منشرحاً بالإسلام ، وهكذا نجد السياق حتى الآن قد فصّل لنا من مقدمة سورة البقرة موضوع علامة الصدق بالإيمان بالغيب ، والكذب فيه . والآن يصل السياق إلى الحديث عن المحاولات التي يحاولها الكافرون لصرف أهل الإيمان .

....

﴿ **وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتّبعوا سبيلنا** ﴾ أي ارجعوا عن دينكم إلى ديننا واتّبعوا طريقنا الذي نحن عليه ﴿ **ولْنحمل خطاياكم** ﴾ أي وعلينا وفي رقابنا آثامكم إن كانت لكم آثام في ذلك ، كما يقول القائل : افعل هذا وخطيئتك في رقبتي ، قال الله تكذيباً لهم ﴿ **وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء إنهم لكاذبون** ﴾ أي فيما قالوه إنهم يحملون عن أولئك خطاياهم ، فإنّه لا يحمل أحد وزر أحد ﴿ **وليحملُنّ** ﴾ أي هؤلاء الدعاة إلى الكفر ﴿ **أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم** ﴾ أي أوزار أنفسهم ، وأوزاراً أُخر ، بسبب ما أضلّوا من الناس ، من غير أن ينقص من أوزار أولئك شيئاً ﴿ **وَلَيُسأَلُنَّ يوم القيامة عَمَّا كانوا يفترون** ﴾ أي يختلقون من الأكاذيب والأباطيل .

فـوائـد :

١ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وليحملُنَّ أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم ...** ﴾ قال ابن كثير : (وفي الصحيح : « من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتّبعه إلى يوم القيامة من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه إلى يوم القيامة ، من غير أن ينقص من آثامهم شيئاً » . وفي الصحيح : « ما قتلت نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها ، لأنه أوّل من سَنَّ القتل » . وقوله تعالى : ﴿ **وليسئلن يوم القيامة عمّا كانوا يفترون** ﴾ أي يكذبون ويختلقون من البهتان ، وقد ذكر ابن أبي حاتم ههنا حديثاً فروى عن أبي أمامة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ بلّغ ما أرسل به ثم قال : « إياكم والظلم ، فإنّ الله يعزم يوم القيامة فيقول : وعزتي وجلالي لا يجوزني اليوم ظلم ، ثم ينادي مناد فيقول :

أين فلان بن فلان ؟ فيأتي يتبعه من الحسنات أمثال الجبال ، فيشخص الناس إليها أبصارهم ، حتى يقوم بين يدي الرحمن عز وجل ، ثم يأمر المنادي فينادي : من كانت له تِباعة أو ظُلامة عند فلان بن فلان فهلمّ ، فيقبلون حتى يجتمعوا قياماً بين يدي الرحمن ، فيقول الرحمن : اقضوا عن عبدي ، فيقولون : كيف نقضي عنه ؟ فيقول : خذوا لهم من حسناته ، فلا يزالون يأخذون منها حتى لا يبقى منها حسنة وقد بقي من أصحاب الظلامات . فيقول : اقضوا عن عبدي فيقولون : لم يبق له حسنة ، فيقول : خذوا من سيئاتهم فاحملوها عليه ثم فزّع النبي ﷺ بهذه الآية الكريمة ﴿ **وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم وليسئلن يوم القيامة عما كانوا يفترون** ﴾ » . وهذا الحديث له شاهد في الصحيح من غير هذا الوجه : « إن الرجل ليأتي يوم القيامة بحسنات أمثال الجبال ، وقد ظلم هذا ، وأخذ مال هذا ، وأخذ من عرض هذا ، فيأخذ هذا من حسناته ، وهذا من حسناته ، فإذا لم تبق له حسنة ، أخذ من سيئاتهم فطرح عليه » وروى ابن أبي حاتم عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال : قال لي رسول الله ﷺ : « يا معاذ إن المؤمن يسئل يوم القيامة عن جميع سعيه ، حتى عن كحل عينيه ، وعن فتات الطينة بأصبعيه ، فلا ألفينك تأتي يوم القيامة وأحد أسعد بما أتاك الله منك ») .

٢ - وقال الألوسي عند قوله تعالى : ﴿ **وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتّبعوا سبيلنا ولْنحمل خطاياكم** ﴾ :

(والآية على ما أخرج جماعة عن مجاهد نزلت في كفار قريش ، قالوا لمن آمن منهم : لا نُبعث نحن ولا أنتم فاتبعونا ، فإن كان عليكم شيء فعلينا . وأخرج ابن أبي شيبة . وابن المنذر عن ابن الحنفية قال : كان أبو جهل وصناديد قريش يتلقون الناس إذا جاءوا إلى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم يسلمون يقولون : إنه يحرِّم الخمر ، ويحرّم الزنا ، ويحرّم ما كانت تصنع العرب ، فارجعوا فنحن نحمل أوزاركم . فنزلت هذه الآية ، وقيل : قائل ذلك أبو سفيان بن حرب . وأمية بن خلف قالا لعمر رضي الله تعالى عنه : إن كان في الإقامة على دين الآباء إثم فنحن نحمله عنك .

وقيل : قائله الوليد بن المغيرة ، ونسبة ما صدر عن الواحد للجمع شائعة ، وقد تقدم الكلام غير مرة في وجه ذلك) .

كلمة في السياق :

دلتنا الآيات السابقة من سورة العنكبوت على أن الكافرين لا يتركون سبيلاً لصرف أهل الإيمان عن دينهم إلا فعلوه ، من دعوة باللسان ، إلى الإيذاء بكل أنواع الإيذاء ، وأن المؤمن الصادق هو الذي يستمر على الإسلام والإيمان ، متجاوزاً أمثال هذه الفتن والمحن كلها ، وأن المنافق يسقط لأوّل صدمة أو محنة . ولذلك كله صلة بمقدمة سورة البقرة التي حدثتنا عن الإيمان والكفر والنفاق فهنا نجد أن هذه الآيات تحدّثنا عن الإيمان والنفاق والكفر ، عن الكفر وجهده ضد الإيمان . وعن الإيمان الصادق وآثاره العملية ، وعن الإيمان الكاذب وعلاماته . وفي سياق ذلك عرفنا حكمة الامتحان والفتنة ، وهي أن يتميّز المؤمن الصادق من الكاذب ، وصلة هذه المعاني بمقدمة سورة البقرة مما لا يخفى . والآن وبعد أن تقررت المعاني السابقة ، يأتي دور التمثيل ، فيستغرق هو والتعليق عليه بقية المقطع الأول من السورة .

☆ ☆ ☆

المجموعة الثانية من المقطع الأول

وتمتدّ من الآية (١٤) إلى نهاية الآية (٤٤) وهذه هي :

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ
ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ
﴿١٥﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ۖ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ
﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن
دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ
إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا
ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ
عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ
ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ۖ وَإِلَيْهِ
تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ
مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن
رَّحْمَتِى وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ
حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا

ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ
يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن
نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾ * فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ
ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ
وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ
لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ
لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ
قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ
ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا
مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟
نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ
أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا
مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ
ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ
يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ

ٱلْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى
دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ
ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُواْ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ
وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُواْ سَٰبِقِينَ
﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ
وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن
كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ
ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾
إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ
نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ
بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾

التفسير :

﴿ **ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً** ﴾ قال ابن كثير : وظاهر السياق من الآية أنه مكث في قومه يدعوهم إلى الله ألف سنة إلا خمسين عاماً ﴿ **فأخذهم الطوفان** ﴾ الطوفان : هو ما أطاف وأحاط بكثرة وغلبة من سيل ، أو ظلال ليل ، أو نحوهما ، والمراد به هنا السيل ﴿ **وهم ظالمون** ﴾ أنفسهم بالكفر ﴿ **فأنجيناه** ﴾ أي نوحاً ﴿ **وأصحاب السفينة** ﴾ أي الذين آمنوا بنوح ﴿ **وجعلناها** ﴾ أي السفينة ، أو الحادثة ، أو القصّة ﴿ **آية** ﴾ أي عبرة وعظة

﴿ **للعالمين** ﴾ يتّعظون بها .

فوائد :

١ - قال الألوسي في الفاء في قوله تعالى : ﴿ **فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً** ﴾ : (والفاء للتعقيب ، فالمتبادر أنّه عليه السلام لبث في قومه عقيب الإرسال المدّة المذكورة ، وقد جاء مصرّحاً به في بعض الآثار ...) ثمّ بعد كلام قال الألوسي :

(وقال ابن عطية : يحتمل أن يكون ما ذكر الله عز وجل مدة إقامته عليه السلام من لدن مولده إلى غرق قومه ، وقيل : يحتمل أن يكون ذلك جميع عمره عليه السلام ، ولا يخفى أن المتبادر من الفاء التعقيبية ما تقدم ؛ وجاء في بعض الآثار أنه عليه السلام أطول الأنبياء عليهم السلام عمراً . أخرج ابن أبي الدنيا في كتاب ذم الدنيا عن أنس ابن مالك قال : « جاء ملك الموت إلى نوح عليهما السلام فقال : يا أطول النبيين عمراً كيف وجدت الدنيا ولذتها ؟ قال : كرجل دخل بيتاً له بابان فقال وسط الباب هنيهة ، ثم خرج من الباب الآخر » ، ولعل ما عليه النظم الكريم في بيان مدة لبثه عليه السلام للدلالة على كمال العدد ، وكونه متعيناً نصاً دون تجوز ، فإن تسعمائة وخمسين قد يطلق على ما يقرب منه ، ولما في ذكر الألف من تخييل طول المدة ، لأنها أول ما تقرع السمع ، فإن المقصود من القصة تسلية رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وتثبيته على ما كان عليه من مكابدة ما يناله من الكفرة ، وإظهار ركاكة رأي الذين يحسبون أنهم يتركون بلا ابتلاء ، واختلاف المميزين لما في التكرير في مثل هذا الكلام من البشاعة ، والنكتة في اختيار السنَة أولاً : أنها تطلق على الشدة ، والجدب ، بخلاف العام ، فناسب اختيار السنة لزمان الدعوة الذي قاسى عليه السلام فيه ما قاسى من قومه) .

وقال صاحب الظلال :

(والراجح أن فترة رسالته عليه السلام التي دعا فيها قومه كانت ألف سنة إلا خمسين عاماً . وقد سبقتها فترة قبل الرسالة غير محددة ، وأعقبتها فترة كذلك بعد النجاة من الطوفان غير محددة . وهو عمر طويل مديد ، يبدو لنا الآن غير طبيعي ولا مألوف في أعمار الأفراد . ولكننا نتلقّاه من أصدق مصدر في هذا الوجود - وهذا وحده برهان صدقه - فإذا أردنا له تفسيراً فإننا نستطيع أن نقول : إن عدد البشرية يومذاك كان قليلاً ومحدوداً ، فليس ببعيد أن يعوض الله هذه الأجيال عن كثرة العدد

طول العمر ، لعمارة الأرض وامتداد الحياة . حتى إذا تكاثر الناس وعمرت الأرض لم يعد هناك داع لطول الأعمار . وهذه الظاهرة ملحوظة في أعمار كثير من الأحياء . فكلما قَلّ العدد وقلّ النسل طالت الأعمار ، كما في النسور ، وبعض الزواحف كالسلحفاة . حتى ليبلغ عمر بعضها مئات الأعوام . بينما الذباب الذي يتوالد بالملايين لا تعيش الواحدة منه أكثر من أسبوعين . والشاعر يعبر عن هذه الظاهرة بقوله :

بغاث الطير أكثرها فراخاً وأم الصقر مقلاة نزور

ومن ثَمَّ يطول عمر الصقر . وتقل أعمار بغاث الطير . ولله الحكمة البالغة . وكل شيء عنده بمقدار) .

قال ابن كثير : (قال الثوري عن سلمة بن كهيل عن مجاهد قال :

قال لي ابن عمر : كم لبث نوح في قومه ؟ قال : قلت ألف سنة إلا خمسين عاماً . قال : فإن الناس لم يزالوا في نقصان من أعمارهم وأحلامهم وأخلاقهم إلى يومك هذا :

٢ - تذكر التوراة الحالية المحرفة في الإصحاح التاسع : (وعاش نوح بعد الطوفان ثلاث مئة وخمسين سنة ، فكانت كل أيام نوح تسع مئة وخمسين سنة ومات) . وهذه الرواية أخذ بها قتادة ، وقد رأينا أنّها إحدى روايات نقلها الألوسي ، قال ابن كثير : وقال قتادة : يقال إن عمره كله ألف سنة إلا خمسين عاماً ، لبث فيهم قبل أن يدعوهم ثلثمائة سنة ، ودعاهم ثلاث مائة ، ولبث بعد الطوفان ثلاث مائة سنة وخمسين عاماً . قال ابن كثير : وهذا قول غريب) .

أقول : ظاهر السياق أنه لبث فيهم يدعوهم إلى الله قبل الطوفان (٩٥٠) عاماً ولا تصلح روايات التوراة الحالية للاعتماد حتى نصرف النّص عن ظاهره من أجلها ، فمن قرأ سفر التكوين الذي فيه هذه الرواية رأى فيه من الطامّات والسخافات والبلايا ما لا يهضمه عقل ولا نقل ، كما ذكرنا ذلك في أكثر من مكان من هذا التفسير خاصّة وهذا المكتوب لم يكتب إلا بعد مئات السنين كما أثبتنا ذلك في هذا التفسير فأنّى يطمئن إلى ما فيه .

٣ - كنا ذكرنا في مقدمة هذا التفسير كيف أنّ حفريات ما بين النّهرين ذكرت أن سلالات ملكية حكمت آلاف السنين ومن خلال هذه الروايات يُفهم أن بعض ملوك تلك المرحلة كانوا يعمّرون وسطياً أكثر من ألف عام ، وذكرنا هناك النقول ،

وذكرنا اسم صاحبها ، وههنا ننقل ما ذكره العقاد في كتابه (إبراهيم أبو الأنبياء) قال : (وفي متحف أشمول بإنجلترا أسماء الأسر التي حكمت بابل من بعد الطوفان إلى أيام سراجون ، وقد جاء في الألواح التي حفظت أسماءها أن الأسرة الأولى تولى منها الملك ثلاثة وعشرون ملكاً ، وكانت مدّة حكمهم جميعاً أربعة وعشرين ألف سنة وخمسمائة وعشر سنوات) [ص ١٧٠] ثم يذكر العقاد بعد ذلك كلاماً عن أحد ملوك تلك المنطقة واسمه (دنقي) أو (شلقي) وكيف أنّه فرض على النّاس عبادته وقال : (ولم يكن دنقي بالوحيد الذي فرض عبادته على البلاد كلها ، بل كان هذا شأن جميع الملوك التي أخضعوها لسلطان واحد) أقول : ودنقي هذا كانت عاصمته (أور) بلد الخليل عليه السلام كما يذكر العقاد ، ويبدو أنّ واحداً من حكامها الذين ادّعوا الربوبية هو نمروذ إبراهيم .

٤ - وقد تحدّث العقاد عن قصة الطوفان كما روتها ألواح عثر عليها في بلاد الرافدين فقال : (والباقي من ألواح هذه القصة في المتحف البريطاني يحكيها على هذا المثال :

(ابن بيتاً واصنع سفينة تحفظ النبات والحيوان ، واخزن البذور واخزن معها بذور الحياة من كل نوع تحمله السفينة ، وليكن طولها ستمائة قدم في ستين عرضاً .. وتدخل السفينة وتحكم إغلاقها ، وتضع في وسطها الحبوب والمتاع والأزواد والخدم والجند ، وتضع فيها كذلك أجناس الوحش لتحفظ ذريتها ..) .

(... وقال الله ليلاً ! إني سأرسل السماء مدراراً ، فادخل إلى جوف السفينة واغلق عليك بابها ، وتغطى وجه الأرض ، وهلك كل ما عليه من الأحياء ، وفار الماء حتى بلغ السماء ، ولم ينتظر أخ أخاه ، ولم يعرف جار جاره . ستة أيام وست ليال ، والريح تعصف والأنواء تطغى ، ثم كان اليوم السابع فانقطع المطر ، وسكنت العاصفة التي ماجت كموج الزلزال . سكنت العاصفة وانحسر البحر وانتهى الطوفان ، وعجّ البحر بعد ذلك عجيجه ، واستحال الناس طيناً وطفت أجسادهم على وجه الماء)

(ثم استوت السفينة على جبل نيزار .. وأرسلت أنا الحمامة فذهبت وعادت ولم تجد من مقر تهبط عليه ، فأرسلت عصفور السمانة فعاد وما هبط على مكان ، وأرسلت الغراب فراح ينهش الجثث الطافية ولم يرجع ، ثم أطلقت الحيوانات في الجهات الأربع ، وبنيت على رأس الجبل مذبحاً فقربت لديه قرباناً وفرقته في آنية سبعة ، وفرشت

حوله الريحان ، وشمت الأرباب رائحة جيدة فاجتمعت على القربان ، ونظرت أعاظم الأرباب من بعيد ، وارتفعت أقواس السحاب تحييها عند اقترابها) .

وقد علم المنقّبون أن هذه القصة منسوخة من مصدر قديم أقدم منها ، فهذه الألواح لا يقل تاريخها عن ألفين وخمسمائة سنة ، والمصدر الذي نقلت منه يرجع إلى أوائل الألف الثالثة قبل الميلاد .

وعلم المنقّبون في جميع آثار الأرض التي كشفت في العالم القديم أو العالم الجديد أن قصة الطوفان عامة لا تنفرد بها الآثار البابلية ، ولا يقل تاريخها في القدم عن تاريخها) . ا.هـ كلام العقاد .

أقول : لاحظ كلمة العقاد حول إجماع روايات العالم القديم ، حول حادثة الطوفان ، ولاحظ أن هذه الرواية قد داخلها التحريف لوجود الشرك فيها ، وكما ترى فهي منقولة عن ألواح أقدم منها بمئات السنين ، ثمّ إن حادثة الطوفان على حسب روايات أحافير وادي الرافدين تدل على أنّها كانت قبل ذلك بآلاف كثيرة من السنين ، ولقد جاءنا الله عز وجل في أمرها بالحق الصراح ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلْفه .

٥ - في قوله تعالى : ﴿ **وجعلناها آية للعالمين** ﴾ قال ابن كثير : (أي وجعلنا تلك السفينة باقية إما عينها كما قال قتادة : إنها بقيت إلى أول الإسلام على جبل الجودي ، أو نوعها جعله للناس تذكرة لنعمه على الخلق كيف أنجاهم من الطوفان) .
أقول :

إن كثيراً من المؤشرات في عصرنا تدل على أنّ السفينة نفسها باقية حتى الآن في منطقة على جبال أرارات ، وقد استطاعت الأقمار الصناعية أن تصوّر المكان . ومن قبل ذلك استطاع بعض سكان أرمينيا أن يصل إلى السفينة ، إلا أنّ الاتحاد السوفياتي يرغب أن يسدل على هذا الموضوع ، ستاراً من الصمت ، لأن في وجود السفينة آية يستدل بها أهل الإيمان ، وهو ضد الإيمان وأهله ، وما ذكرته عن تصوير الأقمار الصناعية . والكلام الذي نقل عن بعض سكان أرمينيا سمعته مرة في السجن من إذاعة إسرائيل ، ولم يتح لي أن أسجل تاريخ السماع .

كلمة في السياق :

نلاحظ أن بداية السورة تحدثت عن الامتحان ، ثم سار السياق فأشعرنا أنّ النصر في النهاية لأهل الإيمان . وجاءت بعد ذلك قصة نوح عليه السلام لترينا مقدار صبر الأنبياء ، وقوة استمرارهم مع شدة الظروف ، وكيف أن العاقبة تكون لهم ، ومن ثَمَّ ذكرت الآيتان اللتان مرّتا بقاء نوح يدعو قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً ، مع شدّة المقاومة والاستهزاء والامتحان والفتنة ، هذا الزمن الطويل ، ومع ذلك كان الصبر ، وكان مع الصبر النصر ، فهذا أول نموذج على صبر أهل الإيمان على الامتحان ، ولهذا لم يرد تحديد للمدة التي قضاها نوح عليه السلام إلا في هذه السورة . وفي قوله تعالى : ﴿ **ألف سنة إلا خمسين عاماً** ﴾ نكتة عَبّر عنها النسفي فقال : (ولم يقل تسعمائة وخمسين سنة ؛ لأنّه لو قيل ذلك لجاز أن يتوهم إطلاق هذا العدد على أكثره ، وهذا التوهم زائل هنا ، فكأنه قيل تسعمائة وخمسين سنة كاملة ، وافية العدد ، إلّا أن ذلك أخصر وأعذب لفظاً ، وأملأ بالفائدة ، ولأن القصة سيقت لما ابتلي به نوح عليه السلام من أمّته ، وما كابده من طول المصابرة تسلية لنبينا عليه الصلاة والسلام ، فكان ذكر الألف أفخم وأوصل إلى الغرض) .

ولنعد إلى التفسير . فبعد التمثيل بقصة نوح عليه السلام يضرب الله المثل بإبراهيم :

....

﴿ **وإبراهيم** ﴾ أي واذكر إبراهيم ﴿ **إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه** ﴾ أي أخلصوا له العبادة والخوف ﴿ **ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون** ﴾ أي إذا فعلتم ذلك حصل لكم الخير في الدنيا والآخرة ، واندفع عنكم الشرّ في الدنيا والآخرة . ﴿ **إنما تعبدون من دون الله أوثاناً** ﴾ أي أصناماً ﴿ **وتخلقون إفكاً** ﴾ أي وتصنعون كذباً . واختلاقهم الإفك تسميتهم الأوثان آلهة وشركاء لله ﴿ **إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً** ﴾ أي لا يستطيعون أن يرزقوكم شيئاً من الرزق ﴿ **فابتغوا عند الله الرزق** ﴾ فإنه هو الرزاق وحده لا يرزق غيره ؛ فاطلبوا الرزق منه عز وجل وحده ﴿ **واعبدوه** ﴾ وحده ﴿ **واشكروا له** ﴾ على ما أنعم به عليكم ﴿ **إليه تُرجعون** ﴾ أي يوم القيامة فيجازي كل عامل بعمله ﴿ **وإن تكذّبوا فقد كَذّب أُمَمٌ من قبلكم** ﴾ كقوم نوح وإدريس ﴿ **وما على الرسول إلا البلاغ المبين** ﴾ أي وإن تكذبوني فلا تضروني بتكذيبكم ؛ فإنّ الرسل قبلي قد كذّبتهم أممهم

وما ضرّوهم ، وإنّما ضرّوا أنفسهم حيث حلّ بهم العذاب بسبب تكذيبهم ، وأمّا الرّسول فقد تم أمره حَيث بلّغ البلاغ المبين ، الذي زال معه الشك ، وهو اقترانه بآيات الله ومعجزاته . أي وإن كنت مُكَذَّباً فيما بينكم ، فلي في سائر الأنبياء أسوة ، حيث كُذِّبوا ، وعلى الرسول أن يبلّغ ، وما عليه أن يُصَدَّق أو يكذَّب .

كلمة في السياق :

يلاحظ أنّه قد جاء في وسط قصة إبراهيم عليه السلام الآية السابقة ، وست آيات بعدها . ثم يأتي قوله تعالى : ﴿ **فما كان جواب قومه** ... ﴾ فهل هذه الآيات السبع من جملة قول إبراهيم عليه السلام لقومه ؟ وهذا الذي رجّحه ابن كثير فقال : (والظاهر من السياق أنّ كُلّ هذا من كلام إبراهيم الخليل عليه السلام ، يحتج عليهم لإثبات المعاد لقوله بعد هذا كله : ﴿ **فما كان جواب قومه** ﴾ لكن ابن جرير يرى أن هذه الآيات السبع اعتراضية) . وذكر النسفي الاحتمالين . وحاول الربط بين الآيات وما قبلها في حالة كونها اعتراضية ، دون أن يرجِّح أحد الاحتمالين على الآخر . قال : (فإن قلت فالجمل الاعتراضية لا بد لها من اتصال بما وقعت معترضة فيه ، فلا نقول : مكة وزيد قائم خير بلاد الله ، قلت : نعم وبيانه أن إيراد قصة إبراهيم عليه السلام ليس إلا إرادة للتنفيس عن رسول الله ﷺ ، وأن تكون مسلاة له بأن أباه إبراهيم عليه السلام كان مبتلىً بنحو ما ابتلي به من شرك قومه ، وعبادتهم الأوثان ، فاعترض بقوله : وإن تكذبوا على معنى : إنكم يا معشر قريس إن تكذبوا محمداً ﷺ فقد كذب إبراهيمَ قومُه ، وكلُ أمة نبيها ، لأن قوله ﴿ **فقد كذَّب أمم من قبلكم** ﴾ لا بد من تناوله لأمة إبراهيم ، وهو كما ترى اعتراض متصل ، ثم سائر الآيات بعدها من توابعها لكونها ناطقة بالتوحيد ودلائله ، وهدم الشرك وتوهين قواعده ، وصفة قدرة الله تعالى وسلطانه ووضوح حُجّته وبرهانه) .

أقول : إن الذي أرجحه أن الآية الأولى من هذه الآيات السبع هي من تتمة قول إبراهيم عليه السلام وهي : ﴿ **وإن تكذبوا فقد كَذّب أمم من قبلكم وما على الرسل إلا البلاغ المبين** ﴾ والآيات الست بعدها اعتراضية هي من باب الإنكار عليهم وعلى أمثالهم ، وإقامة حجّة عليهم وعلى أمثالهم . فهي تعليق من الله عز وجل على ما ذكر من قصة نوح وإبراهيم عليهما السلام ، تؤدّي غرضاً في السياق القريب فلنلاحظ ما يلي :

قبل قصة نوح وإبراهيم عليهما السلام ورد قوله تعالى : ﴿ **وقال الذين كفروا**

للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولْنَحمل خطاياكم وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء إنهم لكاذبون * وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون ﴾ وجاءت بعد ذلك قصة نوح وقصة إبراهيم عليهما السلام وقلنا : إن القصص في هذا السياق تأتي للتمثيل لكل المعاني السابقة من امتحان لأهل الإيمان ، إلى كون العاقبة لهم ، إلى غير ذلك ، وهي في الوقت نفسه مرتبطة ارتباطاً مباشراً بما قبلها من قول الكافرين للذين آمنوا : ﴿ **اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم** ... ﴾ . ففي ذكر عاقبة قوم نوح ، وفي دعوة إبراهيم عليه السلام التي لا هوادة فيها ، استمرار للرد على قول الكافرين . ومجيء الآيات الست الآن في وسط قصة إبراهيم يشير إلى أن المعاني المذكورة فيها معان ذكرها إبراهيم ، أو هي معان تصلح للتعليق على قصة إبراهيم لارتباطها بما قبلها مباشرة . فلْنر الآيات :

....

﴿ **أو لم يروا** ﴾ أي قد رأوا ذلك وعلموه ﴿ **كيف يبدىء الله الخلق ثم يعيده** ﴾ فيستدلوا بذلك على صحة ما دعاهم إليه الرسل من أمر المعاد ﴿ **إن ذلك** ﴾ أي الإعادة ﴿ **على الله يسير** ﴾ أي سهل ﴿ **قل** ﴾ يا محمد - وإن كان من كلام إبراهيم فتقديره - : وأوحينا إليه أن قل ﴿ **سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق** ﴾ على كثرتهم واختلاف أحوالهم ، وفي ذلك أمر بتعلّم علم المستحاثات وإيجاد متاحفه ، كما سنرى في الفوائد . ﴿ **ثم الله ينشىء النشأة الآخرة** ﴾ قال النسفي : (وهذا دليل على أنهما نشأتان ، وأن لكل واحدة منهما إنشاء أي ابتداء واختراع وإخراج من العدم إلى الوجود ، غير أن الآخرة إنشاء بعد إنشاء مثله ، والأولى ليست كذلك ، والقياس أن يقال : كيف بدأ الله الخلق ثم ينشىء النشأة الآخرة . لأن الكلام معهم وقع في الإعادة ، فلما قررهم في الإبداء بأنه من الله احتج عليهم بأن الإعادة إنشاء مثل الإبداء ، فإذا لم يعجزه الابتداء وجب أن لا يعجزه الإعادة ، فكأنه قال : ثم ذلك الذي أنشأ النشأة الأولى هو الذي ينشىء النشأة الآخرة ، فللتنبيه على هذا المعنى أبرز اسمه وأوقعه مبتدأ) . ﴿ **إن الله على كل شيء قدير** ﴾ أي قادر ﴿ **يعذّب من يشاء** ﴾ بالخذلان ﴿ **ويرحم من يشاء** ﴾ بالهداية أو يعذب من يشاء بالحرص ويرحم من يشاء بالقناعة ، أو أن تعذيبه ورحمته بسوء الخُلق وحسنه ، أو بالإعراض عن الله ، وبالإقبال عليه ، أو بمتابعة البدع ، وبملازمة السُّنة ﴿ **وإليه تقلَبون** ﴾ أي تُردّون وترجعون يوم القيامة ﴿ **وما أنتم بمعجزين** ﴾ ربكم . أي لا تفوتونه إن هربتم من حكمه وقضائه

﴿ **في الأرض** ﴾ الفسيحة ﴿ **ولا في السماء** ﴾ التي هي أفسح منها وأبسط ﴿ **وما لكم من دون الله من ولي** ﴾ يتولى أموركم ﴿ **ولا نصير** ﴾ أي ولا ناصر يمنعكم من عذابه ﴿ **والذين كفروا بآيات الله** ﴾ أي بدلائله على وحدانيته ، وكتبه ، ومعجزاته ﴿ **ولقائه** ﴾ أي باليوم الآخر ﴿ **أولئك يئسوا من رحمتي** ﴾ أي من جنتي ﴿ **وأولئك لهم عذاب أليم** ﴾ قال ابن كثير : أي موجع شديد في الدنيا والآخرة .

كلمة في السياق :

لفتت هذه الآيات النظر إلى رؤية البداية والنهاية ، فمن رأى البداية والنهاية عَبَد الله وشكره ، ولم يطلب الرزق إلا منه . وهي الدعوة التي ركّز عليها إبراهيم عليه السلام . كما لفتت الآيات النظر إلى طلاقة المشيئة الإلهية في الرحمة والعذاب . وهذا يقتضي عبادة وشكراً ، وطلباً منه وحده . كما لفتت الآيات النظر إلى عدم فوات الإنسان الله في السماء والأرض . وفي ذلك دفع للعبادة والشكر ، وطلب الرزق من الله وحده . وختمت الآيات بإيئاس الكافرين من رحمة الله ، واستحقاقهم العذاب ، وفي ذلك دفع نحو العبادة والشكر ، فارتباط الآيات فيما مضى من قصة إبراهيم عليه السلام واضح ، كما أن في الآيات رداً على الكافرين في قولهم : ﴿ **اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم** ... ﴾ فلو أن الكافرين رأوا البداية والنهاية ، وعرفوا طلاقة المشيئة الإلهية في الرحمة والعذاب ، وعرفوا عدم فواتهم لله ، وعرفوا أن رحمته لا ينالها كافر ، وأن العذاب آتٍ ، لو عرفوا هذا ، ما تجرّأوا على الكفر والتكفير . ثم يعودُ السياق إلى قصة إبراهيم عليه السلام :

﴿ **فما كان جواب قومه** ﴾ أي قوم إبراهيم حين دعاهم إلى الإيمان ﴿ **إلا أن قالوا** ﴾ أي قال بعضهم لبعض ﴿ **اقتلوه أو حَرِّقوه** ﴾ فاتفقوا على تحريقه بعد أن قامت عليهم الحجة ، ولزمهم البرهان فعدلوا ، شأن الطغاة إلى استعمال عزّ السلطان ضد الإيمان ﴿ **فأنجاه الله من النار** ﴾ حين قذفوه فيها ﴿ **إن في ذلك** ﴾ أي في فعلهم وفعل الله ﴿ **لآيات لقوم يؤمنون** ﴾ أما الكافرون فإنهم لا ينتفعون بآيةٍ أبداً .

....

كلمة في السياق :

فيما قصّه الله عز وجل علينا من قصة إبراهيم عليه السلام نموذج للمحنة والفتنة التي يختبر الله بها عباده ، ونموذج على نصرة الله لعباده المؤمنين ، ونموذج لثبات المؤمنين

الصادقين ، وانسجام ذلك مع السياق الخاص للسورة واضح ، ومحل ذلك في تفصيل قضية الإيمان والكفر - التي هي محور السورة - واضح كذلك ، ومن ثَمَّ ختمت آخر آية مرَّت معنا بقوله تعالى : ﴿ **إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون** ﴾ .

ولنعد إلى التفسير :

....

﴿ **وقال** ﴾ إبراهيم لقومه ﴿ **إنما اتّخذتم من دون الله أوثاناً مَوَدّة بينكم في الحياة الدنيا** ﴾ أي لتتوادُّوا بينكم ، وتتواصلوا لاجتماعكم على عبادتها واتفاقكم عليها ، كما يتفق الناس على مذهب ، فيكون ذلك سبب تحابّهم ﴿ **ثم يوم القيامة** ﴾ ينعكس الحال فتصبح هذه الصداقة والمودة بغضاً وشنآناً ، ولذلك قال : ﴿ **يكفر بعضكم ببعض** ﴾ أي تتجاحدون ما كان بينكم ﴿ **ويلعنُ بعضُكم بعضاً** ﴾ أي يلعن الأتباع المتبوعين ، والمتبوعون الأتباع ﴿ **ومأواكم النار** ﴾ أي هي مأوى العابد والمعبود ، والتابع والمتبوع ﴿ **وما لكم من ناصرين** ﴾ ينصرونكم أو ينقذونكم من عذاب الله .

كلمة في السياق :

١ - قال إبراهيم عليه السلام قبل المحنة لقومه :

﴿ **إنّما تعبدون من دون الله أوثاناً وتخلقون إفكاً** ﴾ .

وقال عليه السلام بعد المحنة :

﴿ **إنّما اتخذتم من دون الله أوثاناً مودّة بينكم في الحياة الدنيا ثمّ يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً ومأواكم النار ...** ﴾ .

فالدّعوة واحدة ، والموقف واحد ، قبل المحنة وبعدها ، وفي ذلك درس للمؤمنين فالمؤمن لا تتغيّر حاله قبل المحنة وبعدها ، على خلاف الكاذب المنافق الذي يترك دين الله لأدنى فتنة يتعرّض لها .

وصلة هذا الموضوع بسياق السورة واضحة :

﴿ **أحَسِبَ الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون** ﴾ .

﴿ **ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أُوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله** ﴾ .

٢ – جاء قبل قصة نوح وإبراهيم عليهما السلام قوله تعالى :

﴿ وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتّبعوا سبيلنا وَلْنحمِل خطاياكم ... ﴾ .

وفي قصة إبراهيم :

﴿ وقال إنّما اتخذتم من دون الله أوثاناً مودّة بينكم في الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً ومأواكم النار ﴾ .

والصلة بين الآيتين قائمة مما يؤكد ما ذكرناه ، من أنّ هذه القصص تأتي كنماذج على معان جاءت من قبل .

وقبل أن نسْتمر في عرض القصص نحب أن نَذكر بعض الفوائد حول مامَرّ :

فـوائـد :

١ – بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **يعذّب من يشاء ويرحم من يشاء** ﴾ ذكر ابن كثير الحديث الذي رواه أهل السنن : « إن الله لو عذب أهل سماواته ، وأهل أرضه لعذّبهم وهو غير ظالم لهم » . أقول : وهذا الحديث دليل لعلماء التوحيد في تقسيمهم الواجب ، والجائز ، والمستحيل في حق الله ، إلى عقلي ، وشرعي . فقد يكون الشيء جائزاً عقلاً على الله ، ولكنه واجب شرعي . فجائز عقلاً تعذيب المطيع ، ولكن لورود الشرع أن الله لا يعذّب من أطاعه أصبح تعذيب المطيع مستحيل الوقوع بإخبار الشارع جلّ وعلا .

٢ – في قوله تعالى : ﴿ **قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق** ﴾ معجزة من معجزات القرآن ، ودليل على أنّ هذا القرآن يسع الزمان والمكان ، وذلك أن الأمر بالسير في الأرض والنظر في كيفية بدء الخلق فيه إشارة إلى ضرورة دراسة علم المستحاثات . (أي علم دراسة الحياة في طبقات الأرض) ؛ لمعرفة نشوئها وتطورها وهو علم حديث النّشأة في تاريخ العالم ، والأمر القرآني في مداه الواسع يشمل البحث عن أول نوع من أنواع الحياة ظهرت على الأرض ، وتحقيق الأمر يقتضي إيجاد متاحف للمستحاثات ، حتى يراها من يسير في الأرض بقصد الاعتبار ، إن وجود مثل هذه النّصوص في القرآن الكريم لدليل واضح على أنّ القرآن من عند الله .

قال صاحب الظلال في قوله تعالى :

﴿ **قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق** ﴾ .

(إنَّ التعبير هنا بلفظ الماضي ﴿ **كيف بدأ الخلق** ﴾ بعد الأمر بالسير في الأرض لينظروا كيف بدأ الخلق . يثير في النفس خاطراً معيناً .. ترى هنالك في الأرض ما يدل على نشأة الحياة الأولى ، وكيفية بدء الخليقة فيها . كالحفريات التي يتتبعها بعض العلماء اليوم ليعرفوا منها خط الحياة ؛ كيف نشأت ! وكيف انتشرت ؟ وكيف ارتقت ؟ – وإن كانوا لم يصلوا إلى شيء في معرفة سر الحياة : ما هي ؟ . ومن أين جاءت إلى الأرض ؟ وكيف وجد فيها أول كائن حي ؟ – ويكون ذلك توجيهاً من الله للبحث عن نشأة الحياة الأولى ، والاستدلال به عند معرفتها على النشأة الآخرة ..

ويقوم بجانب هذا الخاطر خاطر آخر . ذلك أن المخاطبين بهذه الآية أول مرة لم يكونوا مؤهّلين لمثل هذا البحث العلمي الذي نشأ حديثاً ؛ فلم يكونوا بمستطيعين يومئذ أن يصلوا من ورائه إلى الحقيقة المقصودة به – لو كان ذلك هو المقصود – فلا بد أن القرآن كان يطلب منهم أمراً آخر داخلاً في مقدورهم ، يحصلون منه على ما يُيَسِّر لهم تصور النشأة الآخرة . ويكون المطلوب حينئذ أن ينظروا كيف تبدأ الحياة في النبات والحيوان والإنسان في كل مكان . ويكون السير في الأرض – كما أسلفنا – لتنبيه الحواس والمشاعر برؤية المشاهد الجديدة ، ودعوتها إلى التأمل والتدّبر في آثار قدرة الله على إنشاء الحياة التي تبرز في كل لحظة من لحظات الليل والنهار .

وهناك احتمال أَهَمّ يتمشى مع طبيعة هذا القرآن ؛ وهو أنه يوجّه توجيهاته التي تناسب حياة الناس في أجيالهم جميعاً ، ومستوياتهم جميعاً ، وملابسات حياتهم جميعاً ، ووسائلهم جميعاً . ليأخذ كل منها بما تؤهله له ظروف حياته ومقدراته . ويبقى فيها امتداد يصلح لقيادة الحياة ونموها أبداً . ومن ثَمَّ لا يكون هناك تعارض بين الخاطرين . هذا أقرب وأولى ﴿ **إن الله على كل شيء قدير** ﴾ ...) .

٣ – في قوله تعالى : ﴿ **وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء** ﴾ معجزة قرآنية عظمىٰ ، فذكرُ السماء في الآية هو أثر العلم بأنّ الإنسان سيصعد إلى السماء ، ومن ثَمَّ يخاطبه الله أنك لن تعجزني في أرضي ولا في سمائي ، ودليل الإعجاز القطعي أن كلمة (في السماء) لم ترد في سورة الشورى في قوله تعالى : ﴿ **وما أنتم بمعجزين في الأرض وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير** ﴾ إن ذكر (في السماء) في هذه السورة لمعجزة من معجزات هذا القرآن تدلّ على أنّ الله المحيط علماً بكل شيء

هو الذي أنزله .

٤ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **فأنجاه الله من النار** ﴾ قال ابن كثير :

(وذلك أنهم حشدوا في جمع أحطاب عظيمة مدة طويلة ، وحوّطوا حولها ، ثم أضرموا فيها النار ، فارتفع لها لهب إلى عنان السماء ، ولم توقد نار قط أعظم منها ، ثم عمدوا إلى إبراهيم فكتّفوه ، وألقوه في كفة المنجنيق ، ثم قذفوه فيها ، فجعلها الله عليه برداً وسلاماً ، وخرج منها سالماً بعد ما مكث فيها أياماً ، ولهذا وأمثاله جعله الله للناس إماماً . فإنه بذل نفسه للرحمن ، وجسده للنيران ، وسخا بولده للقربان ، وجعل ماله للضيفان ، ولهذا اجتمع على محبته جميع أهل الأديان) .

٥ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **ومأواكم النار وما لكم من ناصرين** ﴾ قال ابن كثير : (وهذا حال الكافرين ، وأما المؤمنون فبخلاف ذلك . روى ابن أبي حاتم عن أم هانىء أخت علي بن أبي طالب قالت : قال لي النبي ﷺ : « أخبرك أن الله تعالى يجمع الأولين والآخرين يوم القيامة في صعيد واحد ، فمن يدري أين الطرفين ؟ قالت : قلت : الله ورسوله أعلم - ثم ينادي مناد من تحت العرش يا أهل التوحيد فيشرئبُّون - قال أبو عاصم : يرفعون رؤوسهم - ثم ينادي يا أهل التوحيد ، ثم ينادي الثالثة : يا أهل التوحيد إن الله قد عفا عنكم - قال - فيقول الناس قد تعلق بعضهم ببعض في الظلمات الدنيا - يعني المظالم - ثم ينادي ياأهل التوحيد ليعفُ بعضكم عن بعض وعلى الله الثواب ») .

....

ولنعد إلى التفسير :

﴿ **فآمن له** ﴾ أي لإبراهيم ﴿ **لوط** ﴾ قال ابن كثير : (يقال : إنه ابن أخي إبراهيم ، يقولون : هو لوط بن هاران بن آزر ﴿ **وقال** ﴾ إبراهيم ﴿ **إني مهاجر إلى ربي** ﴾ فهاجر كما قال النسفي من كوثى وهي من سواد الكوفة إلى حران ، ثم منها إلى فلسطين وهي من برية الشام ، ومن ثَمَّ قالوا : لكل نبي هجرة ، ولإبراهيم هجرتان . وكان معه في هجرته لوط وسارة ، وقد تزوّجها إبراهيم . وعلى هذا فمعنى ﴿ **إلى ربي** ﴾ أي إلى حيث أمرني ربي بالهجرة إليه ﴿ **إنّه هو العزيز** ﴾ الذي يمنعني من أعدائي ﴿ **الحكيم** ﴾ الذي لا يأمرني إلا بما هو خير ﴿ **ووهبنا له إسحاق** ﴾ ولداً

﴿ **ويعقوب** ﴾ ولد ولد . قال النسفي : ولم يذكر إسماعيل لشهرته . قال ابن كثير : لمّا فارق قومه أقرّ الله عينه بوجود ولد صالح نبي ، وَوُلِدَ له ولد صالح نبي في حياة جدّه . ﴿ **وجعلنا في ذريته** ﴾ أي في ذرية إبراهيم ﴿ **النبوة والكتاب** ﴾ أي جنس الكتاب يعني : التوراة والإنجيل والزبور والفرقان . قال ابن كثير : (هذه خِلْعة سنية عظيمة ، مع اتخاذ الله إياه خليلاً وجعلِه للناس إماماً ، أن جعل في ذريته النبوة والكتاب فلم يوجد نبي بعد إبراهيم عليه السلام إلا وهو من سلالته . فجميع أنبياء بني إسرائيل من سلالة يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم حتى كان آخرهم عيسى بن مريم ، فقام في ملئهم مبشراً بالنّبي العربي القرشي الهاشمي ، خاتم الرسل على الإطلاق ، وسيد ولد آدم في الدنيا والآخرة ، الذي اصطفاه الله من صميم العرب العرباء ، من سلالة إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام . ولم يوجد نبي من سلالة إسماعيل سواه ﷺ .

﴿ **وآتيناه أجره في الدنيا** ﴾ من ثناء حسن ، وصلاة عليه إلى آخر الدهر ، ومحبة أهل الملل له ، وغير ذلك . ﴿ **وإنّه في الآخرة لمن الصالحين** ﴾ أي من أهل الجنة . قال ابن كثير : (أي جمع الله له بين سعادة الدنيا الموصولة بسعادة الآخرة ، فكان له في الدنيا الرزق الواسع الهني ، والمنزل الرحب ، والمورد العذب ، والزوجة الحسنة الصالحة ، والثناء الجميل ، والذكر الحسن وكل أحد يحبه ويتولاه ... مع القيام بطاعة الله من جميع الوجوه) .

كلمة في السياق :

إن في قصة إبراهيم عليه السلام نموذجاً على امتحان الله عباده المؤمنين ، وعلى تكفيره لسيئاتهم ، وإثابته إياهم ، وإدخالهم في الصالحين ، وعلى نصرته لهم في الدنيا والآخرة . وهي المعاني التي تعرضت لها السورة في جولتها الأولى ، وكانت قصة إبراهيم عليه السلام نموذجاً لبعض مضامين معانيها ، وهذا من مظاهر صلة قصة إبراهيم بالسياق الخاص للسورة ، وفي قصة إبراهيم نموذج على الإيمان الصادق بالغيب ، وهذا مظهر من مظاهر صلة القصة بمحور السّورة من سورة البقرة ، ولا ننسى أنّ من امتدادات مقدّمة سورة البقرة في السورة قصّة إبراهيم عليه السلام هناك ، وههنا تأتي قصة إبراهيم كذلك ، وفيها تفصيلات جديدة .

الفوائد :

١ – بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **فآمن له لوط** ﴾ قال ابن كثير :

(لكن يقال : كيف الجمع بين هذه الآية وبين الحديث الوارد في الصحيح : « أن إبراهيم حين مَرّ على ذلك الجبار فسأل إبراهيمَ عن سارة ما هي منه فقال أختي ، ثم جاء إليها فقال لها : إني قد قلت له إنك أختي ، فلا تكذبيني فإنه ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك ، فأنت أختي في الدين » وكأن المراد من هذا – والله أعلم – أنه ليس على الأرض زوجان على الإسلام غيري وغيرك ، فإن لوطاً عليه السلام آمن به من قومه وهاجر معه إلى بلاد الشام ، ثم أُرسل في حياة الخليل إلى أهل سدوم وأقام بها ، وكان من أمرهم ما تقدم وما سيأتي) .

٢ – وبمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وقال إني مهاجر إلى ربي** ﴾ قال ابن كثير :

(قال قتادة : هاجرا من كوثى وهي من سواد الكوفة إلى الشام ، وقال : وذكر لنا أن نبي الله ﷺ قال : « إنها ستكون هجرة بعد هجرة ، ينحاز أهل الأرض إلى مُهاجَر إبراهيم ، ويبقى في الأرض شرار أهلها حتى تلفظهم أرضهم وتقذرهم روح الله عز وجل ، وتحشرهم النار مع القردة والخنازير ، وتبيت معهم إذا باتوا ، وتقيل معهم إذا قالوا وتأكل ما سقط منهم ») .

ثمّ قال ابن كثير :

(وقد أسند الإمام أحمد هذا الحديث فرواه مطولاً من حديث عبد الله بن عمرو ابن العاص عن شَهْر بن حوشب قال : لما جاءتنا بيعة يزيد بن معاوية قدمت الشام فأُخبرت بمقام يقومه نوف البكالي ، فجئته إذ جاء رجل ، فانتبذ الناس ، وعليه خميصة وإذا هو عبد الله بن عمرو بن العاص ، فلما رآه نوف أمسك عن الحديث فقال عبد الله : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إنها ستكون هجرة بعد هجرة فينحاز الناس إلى مهاجر إبراهيم لا يبقى في الأرض إلا شرار أهلها فتلفظهم أرضهم ، تقذَرهم نفسُ الرحمن ، تحشرهم النار مع القردة والخنازير ، فتبيت معهم إذا باتوا ، وتقيل معهم إذا قالوا ، وتأكل من تخلّف منهم » ، قال : وسمعت رسول الله ﷺ يقول : « سيخرج أناس من أمتي من قبل المشرق ، يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم ، كلما خرج منهم قرن قطع ، كلما خرج منهم قرن قطع – حتى عدها زيادة على عشرة مرات – كلما خرج

منهم قرن قطع حتى يخرج الدجال في بقيتهم » . ورواه الإمام أحمد عن أبي داود وعبد الصمد كلاهما عن هشام الدستوائي عن قتادة به ، وقد رواه أبو داود في سننه فقال في كتاب الجهاد (باب ما جاء في سكنى الشام) : عن شهر بن حوشب عن عبد الله بن عمرو قال : سمعت النبي ﷺ يقول : « ستكون هجرة بعد هجرة ، فخيار أهل الأرض ألزمهم مهاجر إبراهيم ، ويبقى في الأرض شرار أهلها تلفظهم أرضوهم وتقذرهم نفس الرحمن ، وتحشرهم النار مع القردة والخنازير » . وروى الإمام أحمد عن شهر بن حوشب قال : سمعت عبد الله بن عمرو يقول : لقد رأيتنا وما صاحب الدينار والدرهم بأحق به من أخيه المسلم ، ثم لقد رأيتنا بآخرة الآن والدينار والدرهم أحب إلى أحدنا من أخيه المسلم ، ولقد سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لئن اتبعتم أذناب البقر ، وتبايعتم بالعينة ، وتركتم الجهاد في سبيل الله ، ليلزمنكم الله مذلة في أعناقكم لا تنزع منكم حتى ترجعوا إلى ما كنتم عليه ، وتتوبوا إلى الله تعالى » ، وسمعت رسول الله ﷺ يقول : « لتكونن هجرة بعد هجرة إلى مهاجر أبيكم إبراهيم حتى لا يبقى في الأرض إلا شرار أهلها ، وتلفظهم أرضهم وتقذرهم روح الرحمن ، وتحشرهم النار مع القردة والخنازير ، تقيل حيث يقيلون ، وتبيت حيث يبيتون ، وما سقط منهم فلها » ، ولقد سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يخرج قوم من أمتي يسيئون الأعمال ، يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم – قال يزيد لا أعلمه إلا قال – يحقر أحدكم علمه مع علمهم ، يقتلون أهل الإسلام ، فإذا خرجوا فاقتلوهم ، ثم إذا خرجوا فاقتلوهم ، ثم إذا خرجوا فاقتلوهم ، فطوبى لمن قتلهم ، وطوبى لمن قتلوه ، كلما طلع منهم قرن قتله الله » فردد ذلك رسول الله ﷺ عشرين مرة أو أكثر وأنا أسمع ، وروى الحافظ أبو بكر البيهقي بسنده عن نافع ، عن عبد الله بن عمر : أن رسول الله ﷺ قال : « سيهاجر أهل الأرض هجرة بعد هجرة إلى مهاجر إبراهيم ، حتى لا يبقى إلا شرار أهلها ، تلفظهم الأرضون ، وتقذرهم روح الرحمن ؛ وتحشرهم النار مَعَ القردة والخنازير ، تبيت معهم حيث باتوا ، وتقيل معهم حيث قالوا ، لها ما سقط منهم » غريب من حديث نافع . والظاهر أن الأوزاعي قد رواه عن شيخ له من الضعفاء والله أعلم . وروايته من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص أقرب إلى الحفظ .

ولنعد إلى التفسير .

....

﴿ **ولوطاً** ﴾ أي واذكر لوطاً ﴿ **إذ قال لقومه إنكم لتأتون الفاحشة** ﴾ أي الفعلة البالغة في القبح وهي : اللواطة ﴿ **ما سبقكم بها من أحد من العالمين** ﴾ هذه جملة مقرّرة لفحاشة تلك الفعلة ، كأن قائلاً قال : لمَ كانت فاحشة ؟ فقيل : لأن أحداً قبلهم لم يقدم عليها ﴿ **أئِنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل** ﴾ أي بالقتل وأخذ المال ، كما هو عمل قطاع الطريق ﴿ **وتأتون في ناديكم** ﴾ أي مجلسكم . ولا يقال للمجلس ناد إلا ما دام فيه أهله ﴿ **المنكر** ﴾ أي تفعلون ما لا يليق من الأقوال والأفعال في مجالسكم التي تجتمعون فيها ، لا ينكر بعضكم على بعض شيئاً . واختلفت أقوال المفسرين في هذا المنكر الذي يفعلونه في ناديهم . قال النسفي في تفسيره : (أي المضارطة ، والمجامعة ، والسباب ، والفحش في المزاح ، والخذف بالحصى ، ومضغ العلك ، والفرقعة ...) . ﴿ **فما كان جواب قومه إلا أن قالوا ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين** ﴾ أي فيما تعدنا من نزول العذاب . وهذا من كفرهم واستهزائهم وعنادهم . ولهذا استنصر عليهم نبي الله فـ : ﴿ **قال ربِّ انصرني** ﴾ بإنزال العذاب ﴿ **على القوم المفسدين** ﴾ الذين يفسدون الناس بحملهم على ما كانوا عليه من المعاصي والفواحش ﴿ **ولما جاءت رسلُنا إبراهيم بالبشرى** ﴾ أي بالبشارة لإبراهيم بالولد والنّافلة يعني : إسحٰق ويعقوب ﴿ **قالوا إنا مهلكوا أهل هذه القرية** ﴾ أي قرية سدوم ﴿ **إنّ أهلها كانوا ظالمين** ﴾ هذا يفيد أن الظلم قد استمر منهم في الأيام السالفة ، وهم عليه مصرّون ، وظلمهم كفرهم ، وأنواع معاصيهم ﴿ **قال** ﴾ إبراهيم ﴿ **إن فيها لوطاً** ﴾ أي أتهلكونهم وفيهم من هو بريء من الظلم وهو لوط ﴿ **قالوا** ﴾ أي الملائكة ﴿ **نحن أعلم** ﴾ منك ﴿ **بمن فيها لَنُنَجِّيَنّه وأهلَه إلا امرأته كانت من الغابرين** ﴾ أي من الهالكين لأنها كانت تمالئهم على كفرهم وبغيهم وأفعالهم ، ثم ساروا من عنده فدخلوا على لوط في صورة شبّان حسان ﴿ **ولما أن جاءت رسلُنا لوطاً سِيء بهم** ﴾ أي ساءه مجيئهم . والتركيب يفيد أنه بمجرد أن أحسّ بمجيئهم فاجأته المساءة ، من غير ريث ؛ خيفة عليهم من قومه أن يتناولوهم بالفجور ﴿ **وضاق بهم ذرعاً** ﴾ أي وضاق بشأنهم وبتدبير أمرهم ذرعُه ، أي طاقته . والمعنى : أنه اغتمّ بأمرهم ، فهو إن أضافهم خاف عليهم من قومه ، وإن لم يضفهم خشي عليهم منهم ﴿ **وقالوا لا تخف ولا تحزن إنّا مُنجُوك وأهلك** ﴾ أي وننجي أهلك ﴿ **إلا امرأتك كانت من الغابرين** ﴾ أي من الهالكين ﴿ **إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزاً** ﴾ أي عذاباً ﴿ **من السماء بما كانوا يفسقون** ﴾ أي بفسقهم وخروجهم عن طاعة الله ورسوله

﴿ **ولقد تركنا منها** ﴾ أي من القرية ﴿ **آية بيِّنة** ﴾ أي واضحة . قال ابن كثير : (وذلك أنّ جبريل عليه السلام اقتلع قراهم من قرار الأرض ، ثم رفعها إلى عنان السماء ، ثم قلبها عليهم ، وأرسل الله عليهم حجارة من سجيل منضود ، مسوَّمة عند ربك ، وما هي من الظالمين ببعيد ، وجعل الله مكانها بحيرة خبيثة منتنة ، وجعلهم عبرة إلى يوم التناد ، وهم من أشد الناس عذاباً يوم المعاد) ﴿ **لقوم يعقلون** ﴾ فمن عقل عرف الآية واتّعظ بها .

فائدة :

قال الألوسي عند قوله تعالى : ﴿ **وتأتون في ناديكم المنكر** ﴾ :

(أخرج أحمد ، والترمذي وحسنه ، والحاكم وصححه ، والطبراني ، والبيهقي في الشعب ، وغيرهم عن أم هانىء بنت أبي طالب قالت : « سألت رسول الله ﷺ عن قوله تعالى : ﴿ **وتأتون في ناديكم المنكر** ﴾ فقال : « كانوا يجلسون بالطريق فيخذفون أبناء السبيل ويسخرون منهم » وعن مجاهد ، ومنصور ، والقاسم بن محمد ، وقتادة ، وابن زيد : هو إتيان الرجال في مجالسهم يرى بعضهم بعضاً . وعن مجاهد أيضاً : هو لعب الحمام ، وتطريف الأصابع بالحناء ، والصفير ، والخذف ، ونبذ الحياء في جميع أمورهم . وعن ابن عباس : هو تضارطهم وتصافعهم فيها ، وفي رواية أخرى عنه هو الخذف بالحصى ، والرمي بالبنادق ، والفرقعة ، ومضغ العلك ، والسواك بين الناس ، وحل الإزار ، والسباب ، والفحش في المزاح . ولم يأت في قصة لوط عليه السلام أنه دعا قومه إلى عبادة الله تعالى ، كما جاء في قصة إبراهيم ، وكذا في قصة شعيب الآتية ؛ لأن لوطاً كان من قوم إبراهيم ، وفي زمانه ، وقد سبقه إلى الدعاء لعبادة الله تعالى وتوحيده ، واشتهر أمره عند الخلق ، فذكر لوط عليه السلام ما اختص به من المنع من الفاحشة وغيرها ، وأما إبراهيم وشعيب عليهما السلام فجاءا بعد انقراض من كان يعبد الله عز وجل ويدعو إليه سبحانه ، فلذلك دعا كل منهما قومه إلى عبادته تعالى كذا في البحر) .

كلمة في السياق :

لقد رأينا أن مقدمة السورة تحدثت عن سنة الله في امتحان أهل الإيمان ، ثم تحدّثت عن كون الكافرين لا يفلتون من عذاب الله ﴿ **أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا ساء ما يحكمون** ﴾ ثم سار السياق حتى وصل إلى قصة لوط عليه السلام

التي فيها نموذج للمؤمن الصادق ، الذي يحمل دعوة الله في كل الظروف . ونموذج على كون الكافرين لا يفلتون ، ونموذج على نوع من نصر الله للمؤمنين ، والآن تأتي قصة شعيب عليه السلام لنرى فيها نموذجاً لما يدعو إليه الرسل ، ونموذج على كون الكافرين لا يفلتون من عذاب الله :

....

﴿ **وإلى مدين** ﴾ أي وأرسلنا إلى مدين ﴿ **أخاهم شعيباً فقال يا قوم اعبدوا الله وارجوا اليوم الآخر** ﴾ أي وافعلوا ما ترجون به الثواب في العاقبة أو خافوه ﴿ **ولا تعثَوْا في الأرض مفسدين** ﴾ أي قاصدين الفساد ﴿ **فكذبوه فأخذتهم الرجفة** ﴾ أي الزلزلة الشديدة ﴿ **فأصبَحُوا في دارهم** ﴾ أي بلدهم وأرضهم ﴿ **جاثمين** ﴾ أي ميِّتين ، أو باركين على الركب ، ميتين . قال ابن كثير متحدثاً عن شعيب عليه السلام : (نهاهم عن العيث في الأرض بالفساد : وهو السعي فيها والبغي على أهلها ؛ وذلك أنهم كانوا ينقصون المكيال والميزان ، ويقطعون الطريق على الناس ، وهذا مع كفرهم بالله ورسوله ، فأهلكهم الله عز وجل برجفة عظيمة ، زلزلت عليهم بلادهم ، وصيحة أخرجت القلوب من حناجرهم . وعذاب يوم الظلّة الذي أزهق الأرواح من مستقرها ، إنه كان عذاب يوم عظيم ، وقد تقدمت قصتهم مبسوطة في سورة الأعراف وهود والشعراء) .

وبعد قصة شعيب يحدّثنا الله عز وجل عمّا فعل بعاد وثمود وقارون وفرعون وهامان . وفي ذلك مثل على أنّ الكافرين لا يفوتون الله عز وجل .

﴿ **وعاداً وثمود** ﴾ أي وأهلكنا عاداً وثمود ﴿ **وقد تبين لكم** ﴾ إهلاكهم ﴿ **من** ﴾ جهة ﴿ **مساكنهم** ﴾ إذا نظرتم إليها عند مروركم بها ﴿ **وزَيَّن لهم الشيطان أعمالَهم** ﴾ من الكفر والمعاصي ﴿ **فصدّهم عن السبيل** ﴾ أي الطريق المستقيم الذي أمروا بسلوكه وهو الإيمان بالله ورسله ، والاستسلام لله في حكمه ﴿ **وكانوا مستبصرين** ﴾ أي عقلاء متمكّنين من النظر ، وتمييز الحق من الباطل ، ولكنّهم لم يفعلوا ، أو كانوا مستبصرين بالمعنى الذي يطلقه الكفرة على أنفسهم بأنّهم مستنيرون ، إلا أن استبصارهم لم يكن إلّا في أمر ظواهر الدنيا فقط ﴿ **وقارون وفرعون وهامان** ﴾ أي وأهلكنا هؤلاء ﴿ **ولقد جاءهم موسى بالبينات** ﴾ أي بالمعجزات والدلائل الواضحات ﴿ **فاستكبروا في الأرض وما كانوا سابقين** ﴾

أي وما كانوا فائتين ، أدركهم أمر الله فلم يفوتوه .

كلمة في السياق :

في قوله تعالى ﴿ **وما كانوا سابقين** ﴾ دليل لما ذكرناه من أن السياق يعرض علينا الآن نموذجاً ومثلاً على كون الكافرين لا يفوتون الله عز وجل ، وهو المعنى الذي ورد في مقدمة السورة ﴿ **أم حَسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا ساء ما يحكمون** ﴾ لاحظ ﴿ **أن يسبقونا** ﴾ في المقدمة ﴿ **وما كانوا سابقين** ﴾ في آخر آية مرّت معنا .

....

﴿ **فكُلّاً أخذنا بذنبه** ﴾ فيه دليل على أن الله عز وجل لا يأخذ إلا بذنب ﴿ **فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً** ﴾ هي الريح العاصف التي فيها حصباء ، وهي لقوم لوط وعاد ﴿ **ومنهم من أخذته الصيحة** ﴾ فأخمدت منهم الأصوات والحركات ، وهم مدين وثمود ﴿ **ومنهم من خسفنا به الأرض** ﴾ يعني قارون ﴿ **ومنهم من أغرقنا** ﴾ يعني قوم نوح وفرعون وهامان ﴿ **وما كان الله ليظلمهم** ﴾ أي ليعاقبهم بغير ذنب ﴿ **ولكن كانوا أنفسهم يظلمون** ﴾ بالكفر والطغيان .

....

كلمة في السياق :

نلاحظ أنّ مقدمة السورة تحدّثت عن سنة الله في امتحان المؤمنين ، وعن كون الكافرين لا يسبقون الله ، بل سيلحقهم عذابه ، ثمّ تحدّثت المجموعة الأولى عن خصائص الإيمان الصادق ودواعيه ، وعن علامات الإيمان الكاذب وما يدلّ عليه ، كما حدثتنا عن محاولة الكافرين أن يصرفوا المؤمنين عن الإيمان . ثم جاء دور ضرب المثل ، فانصبّت الأمثال على توضيح نقطتين رئيسيتين : ثبات المؤمنين وصبرهم على الامتحان ، ولحاق عقوبات الله بالكافرين ، وكلّ ذلك شديد التلاحم مع بعضه ، وبعد ضرب الأمثال بوقائع من تاريخ الإنسان ، يأتي الآن مثل ، ثمّ تأتي بعده تقريرات : وللمثل علاقة بكون الكافرين لا يفوتون الله عز وجل ولا يعجزونه .

....

﴿ **مثل الذين اتّخذوا من دون الله أولياء** ﴾ أي آلهة يعني مثل من أشرك بالله الأوثان في الضعف وسوء الاختيار ﴿ **كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً** ﴾ أي كمثل العنكبوت فيما تتّخذه لنفسها من بيت ، فإنّ ذلك بيت لا يدفع عنها الحرّ والبرد ، ولا يقي ما تقي البيوت ، فكذلك الأوثان لا تنفعهم في الدنيا والآخرة ﴿ **وإنّ أوْهَن البيوت لَبيت العنكبوت** ﴾ فلا بيت أوهن من بيتها ﴿ **لو كانوا يعلمون** ﴾ أنّ هذا مثَلهم ، وأنّ أمر دينهم بالغ هذه الغاية من الوَهَن . وقيل مثل المشرك الذي يعبد الوثن بالقياس إلى المؤمن الذي يعبد الله مثل عنكبوت تتخذ بيتاً ، بالإضافة إلى رجل يبني بيتاً بآجرّ وجص ، أو ينحته من صخر ، وكما أن أوهن البيوت إذا استقريْتها بيتاً بيتاً بيت العنكبوت . كذلك أضعف الأديان إذا استقريْتها ديناً ديناً عبادة غير الله . ﴿ **إن الله يعلم ما يدعون** ﴾ أي الذي يعبدونه ﴿ **من دونه من شيء** ﴾ ﴿ **وهو العزيز** ﴾ أي الغالب الذي لا شريك له ﴿ **الحكيم** ﴾ في ترك المعاجلة بالعقوبة ، وفيه تجهيل لهم حيث عبدوا جماداً لا علم له ، ولا قدرة ، وتركوا عبادة القادر القاهر على كل شيء ، الحكيم الذي يفعل بحكمة وتدبير . قال ابن كثير في الآيتين : (هذا مثل ضربه الله تعالى للمشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله ، يرجون نصرهم ، ورزقهم ، ويتمسّكون بهم في الشدائد ، فهم في ذلك كبيت العنكبوت في ضعفه ووهنه ، فليس في أيدي هؤلاء من آلهتهم إلا كمن يتمسك ببيت العنكبوت ، فإنه لا يجدي عنه شيئاً . فلو علموا هذا الحال لما اتخذوا من دون الله أولياء ، وهذا بخلاف المؤمن المسلم قلبه لله وهو مع ذلك يحسن العمل في اتباع الشرع ، فإنه متمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها لقوتها وثباتها . ﴿ **وتلك الأمثال نضربها للناس** ﴾ نبيّنها للناس ﴿ **وما يعقلها إلا العالمون** ﴾ أي يفهمها ويتدبّرها إلا الراسخون في العلم المتضلّعون منه ، قال النسفي في قوله تعالى ﴿ **وما يعقلها إلا العالمون** ﴾ : (به وبأسمائه وصفاته ، أي لا يعقل صحتها وحسنها ، ولا يفهم فائدتها إلا هم ؛ لأن الأمثال والتشبيهات إنما هي الطرق إلى المعاني المستورة ، حتى تبرزها وتصورها للأفهام كما صور هذا التشبيه الفرق بين حال المشرك وحال الموحد ، وعن النبي ﷺ أنه تلا هذه الآية فقال : « العالم من عقل عن الله فعمل بطاعته واجتنب سخطه » ودلت الآية على فضل العلم على العقل) ، ﴿ **خلق الله السمٰوات والأرض بالحق** ﴾ أي محقاً ، يعني لم يخلقهما باطلاً بل لحكمة . يعني لا على وجه العبث واللعب ﴿ **إن في ذلك لآية للمؤمنين** ﴾ أي لدلالة واضحة على أنه تعالى المتفرد بالخلق والتدبير والإلهية ، وخَصّ المؤمنين بالذّكر لانتفاعهم وحدهم بالآيات .

نَقْل :

قال صاحب الظلال في الآيات الأخيرة ومحلها في السياق :

(والآن . وعلى مصارع العتاة البغاة من الكفرة والظلمة والفسقة على مدار القرون ... والآن . وبعد الحديث في مطالع السورة عن الفتنة والابتلاء والإغراء .. الآن يضرب المثل لحقيقة القوى المتصارعة في هذا المجال .. إن هنالك قوة واحدة هي قوة الله . وما عداها من قوة الخلق فهو هزيل واهن ، من تعلق به أو احتمى ، فهو كالعنكبوت الضعيفة تحتمي ببيت من خيوط واهية . فهي وما تحتمي به سواء :

﴿ مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً ، وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون * إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء وهو العزيز الحكيم * وتلك الأمثال نضربها للناس ، وما يعقلها إلا العالمون ﴾ ..

إنه تصوير عجيب صادق لحقيقة القوى في هذا الوجود . الحقيقة التي يغفل عنها الناس أحياناً ، فيسوء تقديرهم لجميع القيم ، ويفسد تصورهم لجميع الارتباطات ، وتختل في أيديهم جميع الموازين . ولا يعرفون إلى أين يتوجهون . ماذا يأخذون وماذا يَدَعُون ؟

وعندئذ تخدعهم قوة الحكم والسلطان يحسبونها القوة القادرة التي تعمل في هذه الأرض ، فيتوجهون إليها بمخاوفهم ورغائبهم ، ويخشونها ويفزعون منها ، ويترضَوْنها ليكفُّوا عن أنفسهم أذاها ، أو يضمنوا لأنفسهم حماها !

وتخدعهم قوة المال ، يحسبونها القوة المسيطرة على أقدار الناس وأقدار الحياة . ويتقدمون إليها في رغب وفي رهب ؛ ويسعون للحصول عليها ليستطيلوا بها ويتسلّطوا على الرقاب كما يحسبون !

وتخدعهم قوة العلم يحسبونها أصل القوة وأصل المال ، وأصل سائر القوى التي يصول بها من يملكها ويجول ، ويتقدمون إليها خاشعين كأنهم عباد في المحاريب !

وتخدعهم هذه القوى الظاهرة . تخدعهم في أيدي الأفراد وفي أيدي الجماعات وفي أيدي الدول ، فيدورون حولها ، ويتهافتون عليها ، كما يدور الفَرَاش على المصباح ،

وكما يتهافت الفراش على النار !

وينسون القوة الوحيدة التي تخلق سائر القوى الصغيرة ، وتملكها ، وتمنحها ، وتوجهها ، وتسخّرها كما تريد ، حيثما تريد .

وينسون أن الالتجاء إلى تلك القوى سواء كانت في أيدي الأفراد ، أو الجماعات ، أو الدول .. كالْتجاء العنكبوت إلى بيت العنكبوت ... حشرة ضعيفة رخوة واهنة لا حماية لها من تكوينها الرخو ، ولا وقاية لها من بيتها الواهن .

وليس هنالك إلا حماية الله ، وإلا حماه ، وإلا ركنه القوي الركين .

هذه الحقيقة الضخمة هي التي عنى القرآن بتقريرها في نفوس الفئة المؤمنة ، فكانت بها أقوى من جميع القوى التي وقفت في طريقها ؛ وداست بها على كبرياء الجبابرة في الأرض ودكّت بها المعاقل والحصون .

لقد استقرت هذه الحقيقة الضخمة في كل نفس ، وعمرت كل قلب ، واختلطت بالدم ، وجرت معه في العروق ، ولم تعد كلمة تقال باللسان ، ولا قضية تحتاج إلى جدل . بل بديهة مستقرة في النفس ، لا يجول غيرها في حس ولا خيال .

قوة الله وحدها هي القوة . وولاية الله وحدها هي الولاية . وما عداها فهو واهن ضئيل هزيل ؛ مهما علا واستطال ، ومهما تجبّر وطغى ، ومهما ملك من وسائل البطش والطغيان والتنكيل .

إنها العنكبوت : وما تملك من القوى ليست سوى خيوط العنكبوت ﴿ **وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون** ﴾ .

وإن أصحاب الدعوات الذين يتعرّضون للفتنة والأذى . وللإغراء والإغواء . لَجديرون أن يقفوا أمام هذه الحقيقة الضخمة ولا ينسوها لحظة ، وهم يواجهون القوى المختلفة . هذه تضربهم وتحاول أن تسحقهم . وهذه تستهويهم وتحاول أن تشتريهم .. وكلها خيوط العنكبوت في حساب الله ، وفي حساب العقيدة حين تصح العقيدة ، وحين تعرف حقيقة القوى وتحسن التقويم والتقدير .

﴿ **إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء** ﴾ .

إنهم يستعينون بأولياء يتخذونهم من دون الله والله يعلم حقيقة هؤلاء الأولياء .

وهي الحقيقة التي صورت في المثل السابق .. عنكبوت تحتمي بخيوط العنكبوت !

﴿ **وهو العزيز الحكيم** ﴾ هو وحده العزيز القادر القاهر الحكيم المدبر لهذا الوجود .

﴿ **وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون** ﴾ .

فلقد اتخذها جماعة من المشركين المغلقي القلوب والعقول مادة للسخرية والتهكّم . وقالوا : إن رب محمد يتحدث عن الذباب والعنكبوت . ولم يهز مشاعرهم هذا التصوير العجيب لأنهم لا يعقلون ولا يعلمون ﴿ **وما يعقلها إلا العالمون** ﴾ .

* * *

ثم يربط تلك الحقيقة الضخمة التي قدمها بالحق الكبير في تصميم هذا الكون كله على طريقة القرآن في ربط كل حقيقة بذلك الحق الكبير :

﴿ **خلق الله السماوات والأرض بالحق . إن في ذلك لآية للمؤمنين** ﴾ .

وهكذا تجيء هذه الآية عقب قصص الأنبياء ، وعقب المثل المصور لحقيقة القوى في الوجود ، متناسقة معها مرتبطة بها ، بتلك الصلة الملحوظة . صلة الحقائق المتناثرة كلها بالحق الكامن في خلق السماوات والأرض ؛ والذي قامت به السماوات والأرض ، في ذلك النظام الدقيق الذي لا يتخلّف ولا يبطيء ولا يختلف ولا يصدم بعضه بعضاً ، لأنه حق متناسق لا عوج فيه !

﴿ **إن في ذلك لآية للمؤمنين** ﴾ .

الذين تتفتّح قلوبهم لآيات الله الكونية المبثوثة في تضاعيف هذا الكون وحناياه) ..

كلمة في السياق :

إن المثل المضروب في الآيات الأخيرة يبيّن أنّ أحداً لا يحمي الكافرين من الله ، وبالتالي فإنّهم لا يفوتونه ، وبهذا يكون السياق قد اكتمل في تبيان قضية الصدق في الإيمان ، وقضية أن الكافرين لا يفوتون الله . وختمت الآيات - كما رأينا - بقوله تعالى : ﴿ **خلق الله السماوات والأرض بالحق ..** ﴾ وهذا الختام يضيء على المقطع كله ، ففيه تعليل لسبب الامتحان ، وتعليل لتعذيب الكافرين ، فالله عز وجل لم يخلق السمٰوات والأرض عبثاً .

وبعد ذلك يأتي المقطع الثاني ويبدأ بالأمر بتلاوة القرآن ، وإقامة الصلاة ، وإدامة الذكر وهي زاد المؤمن في العبور إلى الله .

....

فائدة :

بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون** ﴾ قال ابن كثير : (روى الإمام أحمد ... عن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال : عقلت عن رسول الله ﷺ ألف مَثَل ، وهذه منقبة عظيمة لعمرو بن العاص رضي الله عنه . حيث يقول الله تعالى : ﴿ **وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون** ﴾) .

أقول : إن فيما ذكره عمرو بن العاص لدرساً بليغاً إذ دلّ على أن الرسول ﷺ كان يكثر من ضرب الأمثال إلى حد كبير لتقريب المعاني إلى الأذهان وتعميقها في القلوب ، وهو درس يجب أن يعرفه الدعاة إلى الله .

كلمة في المقطع الأول من السورة :

قلنا : إنّ سورة العنكبوت تفصّل في مقدمة سورة البقرة . ومقدمة سورة البقرة - كما نعرف - وصفت المتقين والكافرين والمنافقين ، لاحظ الآن ما يلي :

بدأت سورة البقرة بقوله تعالى :

﴿ **الٓمٓ * ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين** ﴾ .

﴿ **الذين يؤمنون بالغيب** ﴾ وقد بدأت سورة العنكبوت بعرض علامة الإيمان الصادق ، ثمّ تحدَّثت عن علامة الإيمان الكاذب ، وعن موقف الكافرين من أهل الإيمان ، ومثّلت لأمّهات المعاني ، وكل ذلك قد رأيناه ، وارتباطه بما ذكرناه من أوائل سورة البقرة واضح ، وبعد قوله تعالى في سورة البقرة ﴿ **الذين يؤمنون بالغيب** ﴾ جاء قوله تعالى : ﴿ **ويقيمون الصلاة** ﴾ ونلاحظ الآن أن بداية المقطع الثاني هي ﴿ **اتل ما أُوحي إليك من الكتاب وأقم الصلاة** ﴾ وبعد الكلام عن إقام الصلاة في مقدمة سورة البقرة جاء قوله تعالى : ﴿ **ومما رزقناهم ينفقون** ﴾ ولا نجد حديثاً عنها في سورة العنكبوت ، ولكن يوجد في السورة كلام عن العمل الصالح ، وبعد الكلام عن الإنفاق في مقدمة سورة البقرة يأتي قوله تعالى ﴿ **والذين يؤمنون بما أُنزل إليك**

وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون ﴾ . ونجد في المقطع الثاني من سورة العنكبوت قوله تعالى : ﴿ **وقولوا آمنا بالذي أُنزل إلينا وأُنزل إليكم** ... ﴾ ثم يأتي في خاتمة وصف المتقين من مقدمة سورة البقرة قوله تعالى : ﴿ **أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون** ﴾ .

ونجد في سورة العنكبوت قوله تعالى : ﴿ **والذين جاهدوا فينا لنهدينَّهم سُبُلنا وإن الله لَمع المحسنين** ﴾ .

ومن هذا العرض المبدئي السريع نعلم كيف أن سورة العنكبوت تفصّل في مقدمة سورة البقرة نوع تفصيل . وسنرى ذلك . وإنما استعجلنا في عرض هذه المعاني ليكون الدارس على بينة في معرفة الخط العام للسورة . والسورة بمجموعها تتألف من مقدمة ، ومقطعين . وقد مَرّ معنا مقدّمة السورة ، والمقطع الأول منها ، ولم يبق معنا إلا المقطع الثاني ، وهذا أوان عرضه .

☆ ☆ ☆

المقطع الثاني

ويمتدّ من الآية (٤٥) إلى نهاية الآية (٦٩) أي إلى نهاية السورة . وهذا هو :

اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ ۖ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ
وَالْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾ ۞ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ
إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا
وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَا
إِلَيْكَ الْكِتَابَ ۚ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۖ وَمِنْ هَٰؤُلَاءِ مَن يُؤْمِنُ
بِهِ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا
تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ
أُوتُوا الْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن
رَّبِّهِ ۖ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ
الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ
بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا
بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٥٢﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى
لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ ۚ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ

جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوۡمَ يَغۡشَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ
أَرۡجُلِهِمۡ وَيَقُولُ ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٥٥﴾ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ
فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ غُرَفٗا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ نِعۡمَ
أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٖ لَّا
تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ
يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن
سَأَلۡتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِ مَوۡتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلِ
ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٦٣﴾ وَمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَهۡوٞ وَلَعِبٞۚ وَإِنَّ
ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلۡفُلۡكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ
مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ إِذَا هُمۡ يُشۡرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ
وَلِيَتَمَتَّعُواْۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴿٦٦﴾ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا حَرَمًا ءَامِنٗا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنۡ
حَوۡلِهِمۡۚ أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَكۡفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ
كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓۚ أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَٱلَّذِينَ

جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٦٩﴾

بين يدي المقطع الثاني :

يتألف المقطع الثاني من مقدّمة ، ومجموعتين ، وخاتمة :

المقدمة وهي آية واحدة ، وفيها أمران : أمر بالتلاوة ، وأمر بالصلاة . وفيها حض على ذكر الله ، وهذه الثلاث هي زاد الطريق في المحنة .

المجموعة الأولى وتبدأ بقوله تعالى : ﴿ **ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن** ﴾ .

وتنتهي بقوله تعالى : ﴿ **والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون** ﴾ .

والمجموعة الثانية وتبدأ بقوله تعالى : ﴿ **ويستعجلونك بالعذاب** ... ﴾ .

وتنتهي بقوله تعالى : ﴿ **أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون** ﴾ .

لاحظ التشابه بين خاتمتي المجموعتين :

إن المجموعتين تبيِّنان لنا كيف نعالج مواقف الكافرين ، وكيف نردّ عليها ثمّ تأتي خاتمة المقطع ، وفيها تبيان لظلم الكافرين ، وتبيان لطريق الهداية .

التفسير :

مقدّمة المقطع الثاني

﴿ **اتل ما أوحي إليك من الكتاب** ﴾ تقرُّباً إلى الله تعالى بقراءة كلامه ، ولتقف على ما أمر به ونهى عنه . ويدخل في الأمر - والله أعلم - تلاوته للبلاغ ﴿ **وأقم الصلاة** ﴾ أي دم على إقامتها ﴿ **إن الصلاة تنهى عن الفحشاء** ﴾ أي الفعلة القبيحة كالزنا مثلاً ﴿ **والمنكر** ﴾ هو ما ينكره الشرع والعقل . قال ابن كثير : (يعني أن الصلاة تشتمل على شيئين : على ترك الفواحش ، والمنكرات ، أي مواظبتها تحمل على ترك ذلك) ﴿ **ولَذِكر الله أكبر** ﴾ ، للعلماء في هذا المقام كلام كثير وظاهر النص أن الذكر الدائم لله أكبر في النهي عن الفحشاء والمنكر من مجرد ذكر الله في الصلاة

وحدها ﴿ **والله يعلم ما تصنعون** ﴾ من الخير والطاعة ، فيثيبكم أحسن الثواب ، قال الألوسي في تفسير قوله تعالى ﴿ **وَلَذِكر الله أكبر** ﴾ بعد أن ذكر اتجاهات للعلماء في الآية : (وقيل : أي ولذكر العبد لله تعالى أكبر من سائر أعماله ، وروي عن جماعة من السلف ما يقتضيه . أخرج أحمد في الزهد . وابن المنذر عن معاذ بن جبل قال : ما عمل آدمي عملاً أنجى له من عذاب الله تعالى من ذكر الله تعالى ، قالوا : ولا الجهاد في سبيل الله تعالى ، ولا أن يضرب بسيفه حتى ينقطع ، لأن الله تعالى يقول في كتابه : ﴿ **ولذكر الله أكبر** ﴾ .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن جرير عن أبي الدرداء قال : (ألا أخبركم بخير أعمالكم ، وأحبها إلى مليككم ، وأسماها في درجاتكم ، وخير من أن تغزوا عدوكم فيضربوا رقابكم وتضربوا رقابهم ، وخير من إعطاء الدنانير والدراهم ؟ قالوا : وما هو يا أبا الدرداء ؟ قال : ذكر الله تعالى ﴿ **ولذكر الله أكبر** ﴾) . وأخرج ابن جرير عن سلمان أنه سُئل أي العمل أفضل ؟ قال : أما تقرأ القرآن ؟ ﴿ **ولذكر الله أكبر** ﴾ لا شيء أفضل من ذكر الله . ونسب في البحر إلى أبي الدرداء ، وسلمان رضي الله تعالى عنهما القول الذي ذكرناه أولاً عمن سمعت . ولعل ذلك إحدى روايتين عنهما . وجاء عن ابن عباس أيضاً رواية تشعر بأن المراد بذكر الله تعالى ذكر العبد له سبحانه .

أخرج سعيد بن منصور . وابن أبي شيبة . وابن المنذر . والحاكم في الكنى . والبيهقي في شعب الإيمان عن عنترة قال : قلت لابن عباس رضي الله تعالى عنهما أي العمل أفضل ؟ قال : ذكر الله أكبر ، وما قعد قوم في بيت من بيوت الله تعالى يدرسون كتاب الله ويتعاطونه بينهم إلا أظلتهم الملائكة بأجنحتها ، وكانوا أضياف الله تعالى ماداموا فيه حتى يفيضوا في حديث غيره ، وما سلك رجل طريقاً يلتمس فيه العلم إلا سَهَّل الله تعالى له طريقاً إلى الجنة) .

كلمة في السياق :

بعد أن بيّن الله عزّ وجلّ أنّه لابدّ من فتنة وامتحان ؛ ليتميّز الصادق من الكاذب . جاء هذا الأمر الذي يأمر بتلاوة القرآن والصلاة والذكر ، وكأنه يدلنا على الزاد في المحنة أو على طريقة تلقيها للنجاح في تجاوزها : تلاوة القرآن فإنها الزاد المذكّر ، وإقامة الصلاة والمحافظة عليها فإنّها نعم المعين ، قال تعالى : ﴿ **واستعينوا بالصبر والصلاة** ﴾ [البقرة : ٤٥] وذكر الله الدائم فإنّه نعم الأنيس ﴿ **فاذكروني أذكركم** ﴾

[البقرة : ١٥٢] وكلّ من دخل في نوع من أنواع المحن عرف أهمّية هذه الثلاثة في تجاوز المحنة ، ولقد رأينا بعض إخوتنا يمرون على محنة فيخرجون منها أصلب عوداً ، لأخذهم هذا الزاد ، في الوقت الذي كان يجنّ ، أو يتحطم ، أو يكفر آخرون ، لقلة الزاد ، إذا أدركنا أنّ هذه الثلاث هي زاد المسلم في المحنة ، عرفنا محلّ هذه الآية في السياق الخاص للسورة . وأمّا محل الآية في السياق العام فإنّ السّورة - كما قلنا - تفصّل في مقدمة سورة البقرة : فصّلت في المرحلة الأولى في موضوع الإيمان بالغيب ، ثم فصّلت ههنا في موضوع إقامة الصلاة ، وحكمتها ، وسنرى أنّها ستفصّل في جزء آخر من المقدمة .

ولنستمر في التفسير .

المجموعة الأولى من المقطع الثاني

﴿ **ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن** ﴾ أي إلا بالخصلة التي هي أحسن للثواب ، وهي مقابلة الخشونة باللين ، والغضب بالكظم ﴿ **إلا الذين ظلموا منهم** ﴾ فأفرطوا في الاعتداء والعناد ، ولم يقبلوا النّصح ، ولم ينفع فيهم الرفق ، فاستعملوا معهم الغلظة . والآية تدلّ على جواز المناظرة مع الكفرة في الدين . وعلى جواز تعلّم العلم الذي به نستطيع أن نقيم به الحجة ﴿ **وقولوا آمنّا بالذي أُنزل إلينا وأُنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون** ﴾ في هذا تعليم لنا لنوع الكلام الذي ينبغي أن نقوله أثناء عملية الجدال بالتي هي أحسن . أن نعلن لهم إيماننا بالوحي الذي أنزله الله ، ومن ذلك إيماننا بالتوراة والإنجيل والزبور ، وإيماننا بالله ربنا وربهم . وأن نعلن مع ذلك إسلامنا لله وحده .

كلمة في السياق :

١ - قلنا : إنّ سورة العنكبوت تفصّل في مقدّمة سورة البقرة وامتدادات معانيها الأكثر لصوقاً بها ، ولنتذكر الآن أنّه قد جاء في مقدمة سورة البقرة قوله تعالى ﴿ **والذين يؤمنون بما أُنزل إليك وما أُنزل من قبلك** ﴾ (البقرة : ٤) ثم جاء قوله تعالى ﴿ **قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أُنزل إلى إبراهيم** ﴾ (البقرة : ١٣٦) إلى قوله تعالى ﴿ **لا نفرِّق بين أحد منهم ونحن له مسلمون** ﴾ ثم جاء أيضاً ﴿ **فولّوا وجوهكم شطره لئلّا يكون للناس عليكم حجة إلا الذين ظلموا منهم فلا تخشوهم واخشوني ولأتمّ نعمتي عليكم ...** ﴾ (البقرة : ١٥٠) تذكّر هذا كله ثمّ تأمل

الآية التي مرّت معنا آنفاً: **﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون﴾** إنك إذا تأملت هذه الآية وتأملت ماذكرناه من سورة البقر فإنك تجد واضحاً ماذكرناه من أنّ سورة العنكبوت تفصّل في مقدمة سورة البقرة، وفي امتدادات معانيها الأشدّ لصوقاً بها.

٢ - لقد جاء النهي عن مجادلة أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن في سياق هذه السورة التي تتحدث - في سياقها الرئيسي - عن الامتحان، وذلك يفيد أنّ علينا ألّا نتخلى عن آدابنا في كل الظروف، ومن ذلك طريقة خطابنا لأهل الكتاب في المحنة وفيما قبلها وفيما بعدها.

نقول : ....

عند قوله تعالى :

﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم، وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون﴾ ...
قال صاحب الظلال :

(إن دعوة الله التي حملها نوح - عليه السلام - والرسل بعده حتى وصلت إلى خاتم النبيين محمد - ﷺ - لَهي دعوة واحدة من عند إله واحد، ذات هدف واحد، هو ردّ البشرية الضالة إلى ربها، وهدايتها إلى طريقه، وتربيتها بمنهاجه. وإن المؤمنين بكل رسالة لإخوة للمؤمنين بسائر الرسالات : كلهم أمة واحدة، تعبد إلهاً واحداً. وإن البشرية في جميع أجيالها لصنفان اثنان : صنف المؤمنين وهم حزب الله. وصنف المشاقّين لله وهم حزب الشيطان، بغضّ النظر عن تطاول الزمان وتباعد المكان. وكل جيل من أجيال المؤمنين هو حلقة في تلك السلسلة الطويلة الممتدة على مدار القرون.

هذه هي الحقيقة الضخمة العظيمة الرفيعة التي يقوم عليها الإسلام؛ والتي تقررها هذه الآية من القرآن؛ هذه الحقيقة التي ترفع العلاقات بين البشر عن أن تكون مجرد علاقة دم أو نسب، أو جنس، أو وطن، أو تبادل، أو تجارة. ترفعها عن هذا كله لتصلها بالله، ممثلة في عقيدة واحدة تذوب فيها الأجناس والألوان؛ وتختفي فيها القوميات والأوطان؛ ويتلاشى فيها الزمان والمكان. ولا تبقى إلا العروة الوثقى في الخالق الديان.

ومن ثَمَّ يكشف المسلمين عن مجادلة أهل الكتاب إلا بالحسنى ؛ لبيان حكمة مجيء الرسالة الجديدة ، والكشف عما بينها وبين الرسالات قبلها من صلة ، والإقناع بضرورة الأخذ بالصورة الأخيرة من صور دعوة الله ، الموافقة لما قبلها من الدعوات ، المكملة لها وفق حكمة الله وعلمه بحاجة البشر .. ﴿ **إلا الذين ظلموا منهم** ﴾ فانحرفوا عن التوحيد الذي هو قاعدة العقيدة الباقية ؛ وأشركوا بالله وأخلوا بمنهجه في الحياة . فهؤلاء لا جدال معهم ولا محاسنة . وهؤلاء هم الذين حاربهم الإسلام عندما قامت له دولة في المدينة .

وإن بعضهم ليفتري على رسول الله - ﷺ - أنه حاسن أهل الكتاب وهو في مكة مطارَد من المشركين . فلما أن صارت له قوة في المدينة حاربهم ، مخالفاً كل ما قاله فيهم وهو في مكة ! وهو افتراء ظاهر يشهد هذا النص المكي عليه . فمجادلة أهل الكتاب بالحسنى مقصورة على من لم يظلم منهم ، ولم ينحرف عن دين الله . وعن التوحيد الخالص الذي جاءت به جميع الرسالات .) .

وقال الألوسي في الآية نفسها :

(﴿ **وَلَا تُجَـٰدِلُوا أَهْلَ الْكِتَـٰبِ** ﴾ من اليهود والنصارى ، وقيل : من نصارى نجران ﴿ **إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** ﴾ أي بالخصلة التي هي أحسن كمقابلة الخشونة باللين ، والغضب بالكظم ، والمشاغبة بالنصح ، والسورة بالأناة كما قال سبحانه : ﴿ **ادفع بالتي هي أحسن** ﴾ . ﴿ **إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ** ﴾ بالإفراط في الاعتداء والعناد ، ولم يقبلوا النصح ، ولم ينفع فيهم الرفق فاستعملوا معهم الغلظة ، وأخرج ابن جرير عن مجاهد أن الذين ظلموا هم الذين أثبتوا الولد والشريك ، أو قالوا يد الله تعالى مغلولة ، أو الله سبحانه فقير ، أو آذوا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهذه الغلظة التي تفهم الآية الإذن بها لا تصل إلى القتال لأولئك الظالمين من أهل الكتاب على أي وجه من الوجوه المذكورة كان ظلمهم ؛ لأن ظاهر كون السورة مكية أن هذه الآية مكية ، والقتال في المشهور لم يشرع بمكة ، وليست الغلظة محصورة فيه كما لا يخفى ، وقيل المعنى : ولا تجادلوا الداخلين في الذمة المؤدّين للجزية إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا فنبذوا الذمة ومنعوا الجزية فإن أولئك مجادلتهم بالسيف . وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم عن مجاهد ما يقرب منه ، وتعقب بأن السورة مكية والحرب والجزية مما شرع بالمدينة ، وكون الآية بياناً لحكم آت بعد بعيد ، وأيضاً

لا قرينة على التخصيص) .

ولنعد إلى التفسير :

﴿ **وكذلك أنزلنا إليك الكتاب** ﴾ أي ومثل ذلك الإنزال أنزلنا إليك الكتاب أي أنزلناه مصدقاً لسائر الكتب السماوية ، أو كما أنزلنا الكتب إلى مَنْ قبلك أنزلنا إليك الكتاب . قال ابن جرير : يقول الله تعالى : كما أنزلنا الكتب على مَنْ قبلك يا محمد من الرسل ، كذلك أنزلنا إليك الكتاب . ﴿ **فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به** ﴾ أي الذين أخذوا الكتاب السابق فتلوه حق تلاوته يؤمنون بهذا القرآن . وينطبق هذا على عبد الله بن سلام ، وسلمان الفارسي وأمثالهما ، ﴿ **ومن هؤلاء** ﴾ يعني العرب ﴿ **منْ يؤمن به** ﴾ أي بالقرآن ﴿ **وما يجحد بآياتنا** ﴾ مع ظهورها ، وزوال الشبهة عنها ﴿ **إلا الكافرون** ﴾ أي إلا المتوغّلون في الكفر ، المصمّمون عليه ﴿ **وما كنتَ تتلو** ﴾ أي تقرأ ﴿ **من قبله** ﴾ أي من قبل القرآن ﴿ **من كتاب ولا تخطّه بيمينك** ﴾ أي ما كنت قرأت كتاباً من الكتب ولا كنت كاتباً ﴿ **إذاً لارتاب المبطلون** ﴾ أي لو كان شيء من ذلك ، أي من التلاوة والخط لارتاب المبطلون من أهل الكتاب ، وقالوا : الذي نجد نعته في كتبنا أُمّي لا يكتب ولا يقرأ ، وليس به ، أو لارتاب الكافرون وقالوا : لعلّه تعلّمه أو كتبه بيده ، وقد سمّاهم مبطلين لإنكارهم نبوّته . قال ابن كثير في الآية : (أي لو كنت تحسنها « أي الكتابة والقراءة » لارتاب بعض الجهلة من الناس فيقول : إنّما تعلّم هذا من كتب قبله مأثورة عن الأنبياء ، مع أنهم قالوا ذلك مع علمهم بأنّه أُمّي لا يحسن الكتابة) ﴿ **بل هو** ﴾ أي القرآن ﴿ **آيات بيِّنات** ﴾ أي واضحات الدلالة على الحق أمراً ونهياً وخبراً ﴿ **في صدور الذين أُوتوا العلم** ﴾ أي في صدور العلماء به وحفّاظه ، وهما من خصائص القرآن ، كون آياته بيِّنات الإعجاز ، وكونه محفوظاً في الصدور ﴿ **وما يجحد بآياتنا** ﴾ الواضحة ﴿ **إلا الظالمون** ﴾ أي المتوغّلون في الظلم . قال ابن كثير : أي ما يكذّب بها ، ويبخس حقّها ، ويردّها إلا الظالمون ، أي المعتدون المكابرون ، الذين يعلمون الحق ويحيدون عنه ﴿ **وقالوا** ﴾ أي الكافرون ﴿ **لولا** ﴾ أي هلّا ﴿ **أُنزل عليه آيات من ربه** ﴾ أي مثل النّاقة والعصا ﴿ **قل إنّما الآيات عند الله** ﴾ ينزل أيتها شاء ، ولست أملك شيئاً منها ﴿ **وإنّما أنا نذير مبين** ﴾ أي كُلّفت الإنذار وإبانته بما أعطيت من الآيات ، وليس لي أن أقول أُنزل عليَّ آية كذا ، دون آية كذا ، مع علمي أنّ المراد

من الآيات ثبوت الدلالة ، والآيات كلها في حكم آية واحدة في ذلك ، ثمّ قال تعالى مبيناً كثرة جهلهم ، وسخافة عقولهم ، حيث طلبوا آيات تدلّهم على صدق محمّد ﷺ فيما جاءهم ، وقد جاءهم بالكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، الذي هو أعظم من كل معجزة ، إذ عجزت الفصحاء والبلغاء عن معارضته ، بل عن معارضة عشر سور من مثله ، بل عن معارضة سورة منه . فقال تعالى : ﴿ **أَوَلَمْ يكْفِهِم** ﴾ آية مغنية عن سائر الآيات ، إن كانوا طالبين للحق ، غير متعنّتين ﴿ **أنّا أنزلنا عليك الكتاب يُتلىٰ عليهم** ﴾ أي هذا القرآن الذي تدوم تلاوته عليهم في كل مكان وزمان ، فلا يزال معهم آية ثابتة ، لا تزول كما تزول كل آية بعد كونها ، أو تكون في مكان دون مكان . قال ابن كثير : (أي أو لم يكفهم آية أنا أنزلنا عليك الكتاب العظيم الذي فيه خبر ما قبلهم ونبأ ما بعدهم ، وحكم ما بينهم ، وأنت رجل أمي لا تقرأ ولا تكتب ، ولم تخالط أحداً من أهل الكتاب ، فجئتهم بأخبار ما في الصحف الأولى ببيان الصواب مما اختلفوا فيه ، وبالحق الواضح البين الجلي ﴿ **إن في ذلك** ﴾ أي في هذه الآية المستمرّة لكل مكان وزمان ، إلى آخر الدهر ﴿ **لَرَحْمة** ﴾ أي لنعمة عظيمة ، وأي رحمة أعظم من الرحمة ببيان الحق وإزاحة الباطل ﴿ **وذكرى** ﴾ أي وتذكرة ﴿ **لقوم يؤمنون** ﴾ دون المتعنتين ، وإنّما كان القرآن مذكّراً ، لما فيه من ذكر حلول النّقمات ، ونزول العقاب بالمكذبين والعاصين ، ولما فيه من ذكر الله وأسمائه وصفاته واليوم الآخر ، وغير ذلك) .

﴿ **قل كفىٰ بالله بيني وبينكم شهيداً** ﴾ أي شاهداً يصدق ما أدّعيه من الرسالة وذلك بإنزاله هذا القرآن عليّ ﴿ **يعلم ما في السمٰوات والأرض** ﴾ فهو مطّلع على أمري وأمركم ، وعالم بحقّي وحقكم ، وعالم بما تفيضون فيه من التكذيب ، ويعلم ما أقول لكم من إخباري عنه بأنه أرسلني ، فلو كنت كاذباً عليه لانتقم مني ، وإنّما أنا صادق فيما أخبرتكم به ، ولهذا أيّدني بالمعجزات الواضحات ، والدلائل القاطعات ﴿ **والذين آمنوا بالباطل** ﴾ وهو ما يعبدون من دون الله ﴿ **وكفروا بالله** ﴾ وآياته ﴿ **أولئك هم الخاسرون** ﴾ أي المغبونون في صفقتهم حيث اشتروا الكفر بالإيمان فهم الخاسرون يوم القيامة . وسيجزيهم على ما فعلوا ، ويقابلهم على ما صنعوا في تكذيبهم بالحق واتّباعهم الباطل ، ذلك أنّهم كذبوا برسل الله ، مع قيام الأدلّة على صدقهم ، وآمنوا بالطواغيت والأوثان بلا دليل فسيجزيهم على ذلك إنه حكيم عليم .

كلمة في السياق :

١ - قلنا إن سورة العنكبوت تفصّل في مقدّمة سورة البقرة وامتدادات معانيها لاحظ ما يلي : جاء في مقدّمة سورة البقرة قوله تعالى : ﴿ **والذين يؤمنون بما أُنزل إليك وما أُنزل من قبلك** ﴾ (البقرة : ٤) ومن امتدادات هذا المعنى في سورة البقرة قوله تعالى : ﴿ **الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حقّ تلاوته أولئك يؤمنون به ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون** ﴾ (البقرة : ١٢١) لاحظ صلة ذلك بقوله تعالى ههنا ﴿ **وكذلك أنزلنا إليك الكتاب فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به** ﴾ ولاحظ قوله تعالى هنا ﴿ **والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون** ﴾ لاحظ كلمة (الخاسرون) هنا ولاحظها في آية سورة البقرة .

٢ - في سورة البقرة ورد وصف المتقين ﴿ **والذين يؤمنون بما أُنزل إليك وما أُنزل من قبلك** ﴾ (البقرة : ٤) وههنا يأتي البرهان والدّليل على أنّ هذا القرآن من عند الله ، وأنه يستحيل أن يكون من عند محمّد ﷺ وأنّ هذا القرآن آية كافية للدلالة على صحة رسالة محمّد ﷺ .

٣ - في سياق النهي عن جدال أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن دلّنا الله عز وجل على ما نقيم به الحجة على أهل الكتاب وغيرهم في هذه الآيات .

٤ - تأتي هذه الآيات لتقيم الحجّة فتثبّت قلوب أهل الإيمان في سياق السورة التي تتحدث عن الامتحان ، فالإيمان عند المحنة قد يتزلزل ، فجاءت مؤكداته ودلائله لتثبّت .

٥ - وكما أنّ مقدمة سورة البقرة حدّثتنا عن المؤمنين والكافرين ، فكذلك هذه السورة تحدّثنا عن الكافرين ، وتقيم الحجة عليهم ، هذا مع أنّ أصنافاً من الكافرين لم يعد الإنذار يؤثّر فيهم ، كما قالت مقدّمة سورة البقرة ﴿ **إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تُنذرهم لا يؤمنون** ﴾ (البقرة : ٦) فهم يفرون من الحجج ، ومن مظاهر فرارهم من الحجج ما سنراه في الآيات اللاحقة .

فلنعد إلى التفسير .

....

المجموعة الثانية من المقطع الثاني

﴿ **ويستعجلونك** ﴾ أي الكافرون ﴿ **بالعذاب** ﴾ أن يحل بهم ﴿ **ولولا أجل مُسمّى** ﴾ هو يوم القيامة أو وقت فنائهم بآجالهم ﴿ **لجاءهم العذاب** ﴾ أي عاجلاً . والمعنى : ولولا أجل قد سمّاه الله ، وبيَّنه في اللوح لعذابهم ، والحكمة تقتضي تأخيره إلى ذلك الأجل المسمّى ، لجاءهم العذاب عاجلاً ﴿ **وليأتينّهم** ﴾ العذاب في الأجل المسمى ﴿ **بغتة** ﴾ أي فجاءة ﴿ **وهم لا يشعرون** ﴾ بوقت مجيئه ﴿ **يستعجلونك بالعذاب وإن جهنّم لمحيطة بالكافرين** ﴾ أي يستعجلون العذاب وهو واقع بهم لا محالة ﴿ **يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم** ﴾ فالنار تغشاهم وتغطّيهم ، وتحيط بهم من كل جهاتهم ، وهذا أبلغ في العذاب الحسي ﴿ **ويقول** ﴾ الله عز وجل تهديداً وتقريعاً وتوبيخاً ، ليجتمع لهم العذاب الحسي والمعنوي ﴿ **ذوقوا ما كنتم تعملون** ﴾ أي جزاء أعمالكم .

كلمة في السياق :

١ - لاحظ صلة هذه الآيات بمقدّمة سورة البقرة :

﴿ **إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون * ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم** ﴾ . إنّ الآيات هنا ترينا كيف يفر الكافرون من الحجج إلى طلب العذاب ، كما أنّها تبيّن لنا ماهيّة العذاب العظيم الذي سيحيق بأهل النّار ﴿ **وإن جهنّم لمحيطة بالكافرين يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم** ﴾ .

٢ - بعد أن بيّن الله في المجموعة الأولى من المقطع الثاني خسار أهل الباطل ، بيّن في هذه الآيات الثلاث ماهيّة خسارهم وبيّن جهلهم إذ يستعجلون العذاب وهو آت وما أشدّه . فالصلة بين الآيات الثلاث الأخيرة ، وما جاء قبلها مباشرة واضحة . فلنر صلتها بسياق السورة .

بدأت السورة بقوله تعالى :

﴿ **الٓمٓ * أحَسِبَ الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون * ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين * أم حسب الذين**

يعملون السيئات أن يسبقونا ساء ما يحكمون ﴾ .

إن مقدّمة السورة عرضت علينا ظناً خاطئاً يمكن أن يقع فيه بعض المؤمنين . وعرضت علينا ظناً خاطئاً يقع فيه الكافرون ، وسارت السورة كما رأينا حتى وصلت إلى الآيات الثلاث ، لتعرض علينا كيف أنّ الكافرين يستعجلون بالعذاب الذي وُعدوا به ، وكيف أنّ هذا العذاب آت لا محالة . وفي ذلك درس لأهل الإيمان أن يتحمّلوا لأداء المحنة ، لأنّها مهما كانت قاسية فعذاب الله في الآخرة أشدّ ، وهكذا نجد أنّ هذه الآيات تؤدّي أكثر من دور في محلّها .

وإذ وصل السياق إلى ما وصل إليه ، فإن آيات تأتي الآن تخاطب المؤمنين خطاباً مباشراً ، فيه إشارة إلى الهجرة ، ومحلّ ذلك في سياق السورة التي تتحدث عن الامتحان لا يخفى ؛ فالهجرة قد تكون فرض المحنة ، أو أثراً عنها ، وهي في نفسها نوع امتحان ، إذا اضطر إليها المؤمنون . فلنر الآيات :

﴿ **يا عبادي الذين آمنوا إن أرضي واسعة فإيّاي فاعبدون** ﴾ . قال ابن كثير : (هذا أمر من الله تعالى لعباده المؤمنين بالهجرة من البلد الذي لا يقدرون فيه على إقامة الدين ، إلى أرض الله الواسعة ، حيث يمكن إقامة الدين ، بأن يوحّدوا الله ، ويعبدوه كما أمرهم) . وقال النسفي : (يعني أن المؤمن إذا لم يتسهّل له العبادة في بلد هو فيه ، ولم يتمشّ له أمر دينه ، فليُهاجر عنه إلى بلد يقدّر أنّه فيه أسلم قلباً ، وأصحّ ديناً ، وأكثر عبادة ...) فالمعنى : إنّ أرضي واسعة فإن لم تخلصوا العبادة لي في أرض ، فأخلصوها في غيرها . وإن لم تستطيعوا العبادة في أرض ، فهاجروا إلى أخرى ﴿ **كل نفس ذائقة الموت** ﴾ أي واجدة مرارته وكربه كما يجد الذائق طعم المذوق ، وهذا تشجيع للنفس على الهجرة ، لأنّ النّفس إذا تيقنت بالموت سهل عليها مفارقة وطنها ﴿ **ثمّ إلينا تُرجعون** ﴾ بعد الموت للثواب والعقاب . قال ابن كثير في الآية : (أي أينما كنتم يدرككم الموت ؛ فكونوا في طاعة الله ، وحيث أمركم الله ، فهو خير لكم ، فإنّ الموت لا بدّ منه ، ولا محيد عنه ، ثمّ إلى الله المرجع والمآب ، فمن كان مطيعاً له جازاه أفضل الجزاء ، ووافاه أتمّ الثواب ، ولهذا قال تعالى : ﴿ **والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوئنهم** ﴾ أي لننزلنهم ﴿ **من الجنّة غرفاً** ﴾ أي منازل عالية في الجنة ﴿ **تجري من تحتها الأنهار** ﴾ على اختلاف أصنافها من ماء وخمر وعسل ولبن ، يصرّفونها ويجرونها حيث شاؤوا ، كما قال ابن كثير ﴿ **خالدين فيها** ﴾ أي ماكثين فيها

أبداً ﴿ **نعم أجر العاملين** ﴾ أي نعمت هذه الغُرَف أجراً على أعمال المؤمنين ﴿ **الذين صبروا** ﴾ على مفارقة الأوطان ، وعلى أذى المشركين ، وعلى المحن والمصائب ، وعلى الطاعات ، وعن المعاصي ﴿ **وعلى ربهم يتوكَّلون** ﴾ في أحوالهم كلها ، في دينهم ودنياهم ، ولم يتوكّلوا في جميع ذلك إلا على الله .

كلمة في السياق :

١ - إنّ الكلام عن الهجرة في سياق هذه السورة التي تبدأ بالكلام عن الامتحان لتحقيق الإيمان واضح المدلول . فالمحنة المستمرة قد يحتاج أصحابها إلى الهجرة ، وقد تكون مصلحة الدّعوة نفسها في الهجرة ، ومن ثَمَّ فقد تحدث الله عنها هنا ، وفتح الباب إليها ، وشجّع عليها بما أعدّ لأهلها .

٢ - نلاحظ أنّ قوله تعالى : ﴿ **والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوئنهم من الجنة غرفاً تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها نعم أجر العاملين * الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون** ﴾ قد جاء في سياق التشجيع على الهجرة ، غير أنّ الآيتين قد بدئتا بالواو التي تشير إلى العطف . وعلى هذا فإنّها معطوفة على أمثالها في سياق السورة .

٣ - بدأت السورة بقوله تعالى : ﴿ **الٓمٓ * أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون * وَلقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين * أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا ساء ما يحكمون** ﴾ (الآيات : ١-٤)

ثم جاء قوله تعالى : ﴿ **من كان يرجوا لقاء الله فإن أجل الله لآت وهو السميع العليم * ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه إن الله لغني عن العالمين * والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنكفرن عنهم سيئاتهم ولنجزينهم أحسن الذي كانوا يعملون** ﴾ (الآيات : ٥ - ٧) ثم بعد آية ورد قوله تعالى :

﴿ **والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم في الصالحين** ﴾ (الآية : ٩) .

ثمّ جاء قوله تعالى (في الآية : ٥٨) : ﴿ **والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوئنهم من الجنة غُرَفاً تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها نعم أجر العاملين * الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون** ﴾ .

فهذا يشير إلى أن الآية الأخيرة معطوفة على ما قبلها ، فهي وما قبلها ممّا عطفت

عليه تحدّد خصائص أهل الإيمان الصادق ، وتبشرهم وتبين لهم طريق النجاح في الامتحان . ويؤكّد هذا المعنى أنّ آخر آية في السورة هي :

﴿ **والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سُبُلنا وإن الله لمع المحسنين** ﴾ لاحظ صلتها بالآية الخامسة ﴿ **ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه** ﴾ فالآية الأخيرة تحدّد طريق الهداية ، وهي معطوفة على مثيلاتها في السورة ، وهي ومثيلاتها تدل على الطريق .

ولنعد الآن إلى التفسير :

بَعد أن تحدّثت السورة عن الهجرة ، وشجّعت عليها ذكرت الصبر والتوكل ، فهما زادا المهاجر ﴿ **الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون** ﴾ . فالهجرة تحتاج إلى صبر ، وتحتاج إلى توكل ، ولمّا كان أهم ما يفكّر فيه المهاجر هو الرزق ، فقد جاء الكلام عن الرزق في هذا السياق :

....

﴿ **وكأيّن من دابة** ﴾ أي وكم من دابة ، والدابة : كل نفس دبت على وجه الأرض ، عقلت أو لم تعقل ﴿ **لا تحمل رزقها** ﴾ أي لا تطيق أن تحمله لضعفها عن حمله ، أو لا تدّخره ، وإنما تصبح فيرزقها الله ﴿ **الله يرزقها وإياكم** ﴾ أي لا يرزق تلك الدوابّ الضعاف إلا الله ، ولا يرزقكم أيضاً أيها الأقوياء إلا هو ، وإن كنتم مطيقين لحمل أرزاقكم وكسبها ، لأنّه لو لم يقدّركم ولم يقدّر لكم أسباب الكسب لكنتم أعجز من الدواب التي لا تحمل ﴿ **وهو السميع** ﴾ لأقوال عباده ومنها قولهم نخشى الفقر والعيْلة ﴿ **العليم** ﴾ بما في ضمائركم وحركاتكم وسكناتكم . قال النسفي في سبب نزول الآية : (لما أمر رسول الله ﷺ مَن أسلم من مكة بالهجرة خافوا الفقر والضيْعة فنزلت) وكلام النسفي هذا يدل على ما ذهبنا إليه من أن ارتباط هذه الآيات بالذي قبلها من حيث صلة موضوع الرزق بموضوع الهجرة . ﴿ **ولئن سألتهم** ﴾ أي سألت هؤلاء المشركين ﴿ **مَن خلق السموٰات والأرض** ﴾ على ما هي عليه ﴿ **وسخّر الشمس والقمر** ﴾ أي ومَن سخّر الشمس والقمر ﴿ **ليقولُنَّ الله فأنى يؤفكون** ﴾ أي فكيف يُصرَفون عن توحيد الله مع إقرارهم بهذا كله . والآية هذه – مع أنها تقيم الحجة على الكافرين الذين يضطهدون المسلمين حتى يضطروهم إلى الهجرة – فهي درس للمسلمين في قضية الرزق والتوكل على الله . فالله الذي خلق

السموٰات والأرض ، وسخّر الشمس والقمر ، لا يعجزه أن يرزقكم أيها المهاجرون في سبيل الله ؛ فتوكلوا عليه . والدليل على أن الآية فيها هذا المعنى ذكر الرزق في الآية اللاحقة ﴿ **الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له** ﴾ أي يبسط لمن يشاء ، ويضيّق على من يشاء ﴿ **إن الله بكل شيء عليم** ﴾ فهو يعلم ما يصلح العباد وما يفسدهم . فإذا كان موضوع القبض والبسط بيد الله فعليه فليتوكّل عباده ، وليطيعوا أمره ﴿ **ولئن سألتهم من نزّل من السماء ماءً فأحيا به الأرض مِنْ بعد موتها ليقولُنَّ الله** ﴾ أي هم مقرون بذلك ﴿ **قل الحمد لله** ﴾ شكراً له على نعمه ، وعلى إنزاله الماء لإحياء الأرض ، أو قل الحمد لله على أنْ رزقك أن تُقرّ بنحو ما أقروا به ، ثم نفعك ذلك في توحيد الله ، ونفي الشركاء عنه ، ولم يكن إقراراً عاطلاً عن العمل كإقرار المشركين ﴿ **بل أكثرهم لا يعقلون** ﴾ أي لا يتدبرون بما فيهم من العقول فيما يريهم الله من الآيات ، ويقيم عليهم من الدلالات ﴿ **وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب** ﴾ اللّهو : ما يتلذّذ به الإنسان فيلهيه ساعة ، ثمّ ينقضي . وفي النّص إخبار من الله عن حقارة الدنيا وزوالها وانقضائها ، وأنها لا دوام لها ، وغاية ما فيها لهو ولعب ﴿ **وإن الدّار الآخرة لهي الحيوان** ﴾ أي الحياة الدائمة الدوام الحق الذي لا زوال له ولا انقضاء ، بل هي مستمرة أبد الآباد ﴿ **لو كانوا يعلمون** ﴾ ولكن الكافر لا علم عنده إلا بظواهر الدنيا .

كلمة في السياق :

إن الآيات الأخيرة تؤدّي أكثر من غرض في سياقها . فهي تخدم قضية الهجرة في الكلام عن كون الله وحده هو الرزاق ؛ فليطمئن المهاجر ، وهي تخدم قضية الهجرة في كونها تلفت النظر إلى حقيقة الحياة الدنيا بالنسبة للآخرة ، وهذا محلّها في السياق القريب ، وأمّا محلّ الآيات في سياق السّورة : فمن حيث إنّ السورة تتحدّث عن كون الكافرين يفتنون المؤمنين ويؤذونهم فيسقط في الامتحان الكاذبون والمنافقون ، لأسباب شتى ، من جملتها الرزق ، ومن جملتها العذاب ، فالآيات هذه بينت أن الرزق بيد الله ، وأن الدنيا كلها بجنب الآخرة لا تساوي شيئاً . فلا تكن الدنيا أو الرزق عاملاً من عوامل الفتنة . ولْنعد إلى التفسير :

....

﴿ **فإذا ركبوا في الفلك** ﴾ أي مع أنّهم على ما وُصفوا به من الشرك والعناد ،

فإذا ركبوا في السفينة ﴿ **دَعَوا الله مخلصين له الدين** ﴾ أي كائنين في صورة من يخلص الدين لله من المؤمنين ، حيث لا يذكرون إلا الله ، ولا يدعون معه إلهاً آخر ﴿ **فلما نجّاهم إلى البرِّ** ﴾ وأَمِنوا ﴿ **إذا هم يشركون** ﴾ أي عادوا إلى الشرك ﴿ **ليكفروا بما آتيناهم وليتمتَّعوا** ﴾ أي لكي يكفروا ، ولكي يتمتعوا . والمعنى : يعودون إلى شركهم ليكونوا بالعود إلى شركهم كافرين بنعمة النّجاة ، قاصدين التمّتع بها ، والتلذّذ لا غير ، على خلاف عادة المؤمنين المخلصين ؛ فإنّهم يشكرون نعمة الله إذا أنجاهم ، ويجعلون نعمة النجاة ذريعة إلى ازدياد الطاعة ، لا إلى التلذّذ والتّمتع ﴿ **فسوف يعلمون** ﴾ سوء تدبيرهم عند تدميرهم .

كلمة في السياق :

في هذه الآية إقامة حجة على المشركين من خلال موقف من مواقفهم وهم في ساعة اضطرار ، كما أنّ في الآية تبكيتاً لهم على تناقضهم ، فالآية تضيف حجة جديدة إلى حجج التوحيد ، لتصبّ في النّهاية في معنى سنراه :

....

﴿ **أوَلم يروا** ﴾ أي المشركون ﴿ **أنا جعلنا** ﴾ مكة ﴿ **حرماً** ﴾ أي ممنوعاً مصوناً ﴿ **آمناً** ﴾ أي يأمن داخله ﴿ **ويُتخطَّفُ الناس من حولهم** ﴾ أي يستلبون قتلاً وسبياً ﴿ **أفبالباطل يؤمنون** ﴾ أي أفبالشيطان والأصنام يؤمنون ﴿ **وبنعمة الله يكفرون** ﴾ أي وبرسول الله ﷺ وبما جاء به يكفرون ! .

كلمة في السياق :

بدأ المقطع الثاني بقوله تعالى : ﴿ **اتل ما أُوحي إليك من الكتاب وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون * ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذي أُنزل إلينا وأُنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون** ﴾ .

ثم جاءت مجموعة أولى بُدئت بقوله تعالى : ﴿ **وكذلك أنزلنا إليك الكتاب** ... ﴾ .

وَخُتمت بقوله تعالى : ﴿ **والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون** ﴾ .

ثم جاءت مجموعة ثانية بُدئت بقوله تعالى :

﴿ **ويستعجلونك بالعذاب** ... ﴾ .

وختمت بقوله تعالى : ﴿ **أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون** ﴾ .

لاحظ التشابه بين الخاتمتين :

﴿ **والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله** ﴾ .

﴿ **أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون** ﴾ .

فالسياق كله يقوّي موضوع الإيمان ويقيم الحجج على صدق رسول الله ﷺ ، وعلى صحة نسبة هذا القرآن إلى الله تعالى ، وعلى التوحيد . فإذ كان محور السورة يدور حول قضية الإيمان ، فإن المقطع الثاني في مجموعتيه يقيم البرهان على ذلك ، وحتى لا يغيب عن أحد ارتباط الإيمان الصادق بآثاره التي تحدث عنها المقطع الأول ، فإنه في ثنايا المقطع الثاني وجد كلام مرتبط بآثار الإيمان الواردة في المقطع الأول ، وهو ما رأيناه من كلام عن الهجرة والصبر والتوكل .. ، وهكذا نجد أنّ الوشائج التي تربط بين الآيات ، والمجموعات ، ومقطعي السورة ، ومقدّمتها ، كثيرة .

وقد بقيت عندنا آيتان من السورة هما خاتمة المقطع الثاني فلنر الآية الأولى منهما :

....

خاتمة المقطع الثاني

﴿ **ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً** ﴾ أي لا أحد أظلم ممن كذب على الله ؛ فقال إن الله أوحى إليه ولم يوح إليه شيء ، ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله ، ومن جعل لله شريكاً ﴿ **أو كذّب بالحق** ﴾ أي بنبوة محمد ﷺ والكتاب ﴿ **لمّا جاءه أليس في جهنم مثوى للكافرين** ﴾ هذا تقرير لمكوثهم في النار ، يعني ألا يثوون فيها وقد افتروا مثل هذا التكذيب على الله ، وكذّبوا بالحق مثل هذا التكذيب . أو المعنى : ألم يصح عندهم أنّ في جهنم مثوى للكافرين حين اجترأوا مثل هذه الجراءة .

كلمة في السياق :

وهكذا حكم الله على أهل الباطل بأنهم أظلم الخلق ، وأنّ جهنم مثوى لهم . والآية

- كما ترى - تصل بسبب إلى قوله تعالى في المحور ﴿ **والذين يؤمنون بما أُنزل إليك وما أُنزل من قبلك** ﴾ (البقرة : ٤) إذ إنَّها تبيّن أنّه لا يوجد أظلم ممّن لم يؤمن بالحق الذي أنزله الله على محمّد عليه الصلاة والسلام ، كما أنّ قوله تعالى قبل ذلك :

﴿ **وما الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون** ﴾ . يصل بسبب إلى قوله تعالى في مقدمة سورة البقرة : ﴿ **وبالآخرة هم يوقنون** ﴾ (البقرة : ٤) وقد بقيت معنا آية في السورة تربط مقدمة السورة بنهايتها ، وتفصّل في المحور وهذه هي :

....

﴿ **والذين جاهدوا فينا** ﴾ أي في حقنا ومن أجلنا ولوجهنا خالصاً ، وقد أطلق المجاهدة ليتناول كل ما تجب مجاهدته من النفس والشيطان وأعداء الدين ﴿ **لنهدينّهم سُبُلَنا** ﴾ أي لنبصّرنّهم طُرقنا في الدنيا والآخرة ، أَوْ لنزيدنّهم هداية إلى سُبل الخير وتوفيقاً ﴿ **وإن الله لَمع المحسنين** ﴾ بالنصرة والمعونة في الدنيا ، وبالثواب والمغفرة في العقبىٰ .

كلمة في السياق :

١ - بدأت مقدمة السورة بتصحيح تصورين : تصور المؤمنين في ظنهم أنّهم لا يُبتَلون ، وتصور الكافرين في ظنهم أنهم لا يُعاقبون . ثم جاء قوله تعالى :

﴿ **من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت وهو السميع العليم * ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه إن الله لغني عن العالمين** ﴾ .

ثم سار السياق حتى ختمت السورة بهذه الآية التي ترينا الجزاء العاجل لمن جاهد في الله ، وهكذا نجد أن أوائل السورة مرتبط بآخرها ﴿ **والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سُبُلنا وإن الله لمع المحسنين** ﴾ . آية قالت للمؤمن : إنّ منفعة جهادك عائدة عليك ، والآية الأخيرة تقول له : إذا جاهدت فإني سأمنحك وأعطيك وأنصرك ، وهكذا بيّنت السورة أن الجهاد خُلق المسلم ، وأن الامتحان مرتبط بالإيمان ، وأن الصبر هو علامة صدق المؤمن ، قال عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح : « فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن ، ليس وراء ذلك من الإيمان حبّة خردل » .

٢ - رأينا أنّ سورة العنكبوت فصّلت في مقدمة سورة البقرة : ففصّلت في موضوع الإيمان بالغيب ، وإقام الصلاة ، والإيمان بما أُنزل على رسول الله ﷺ ، وهذا كله قد رأيناه . والآن لنلاحظ ملاحظة أخيرة : لقد ختم الكلام عن المتقين في أوائل سورة البقرة بقوله تعالى : ﴿ **أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون** ﴾ (البقرة : ٥) ونلاحظ أنّ آخر آية في سورة العنكبوت كانت ﴿ **والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا** ﴾ لاحظ كلمة الهداية المشتركة بين آخر آية في سورة العنكبوت وآخر آية في الآيات التي وصفت المتقين في سورة البقرة .

إنّ آخر آية في سورة العنكبوت دلّتنا على أنّ الهداية تحتاج إلى مجاهدة . ومن هنا ندرك أنّ تفصيل سورة العنكبوت لمقدمة سورة البقرة تفصيل ذو طعم خاص ، فإذا كانت الآيات هناك قد وصفت المتقين ، فهذه السورة تضع قواعد وموازين وعلامات ، وتبيّن حِكَماً ومواصفات وضروريات للتحقق بالصفات .

ولا يفوتنا هنا أن نؤكد على التسلسل في السّورة في موضوع تفصيل آيات المحور ، فالمقطع الأول فصّل في موضوع آثار الإيمان بالغيب ، والمقطع الثاني فصّل في موضوع الصلاة والإيمان بالكتاب كله ، وفي الطريق إلى الهداية ، ولننقل الآن بعض الفوائد حول المقطع الثاني :

فوائد :

١ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر** ﴾ قال ابن كثير : (وقد جاء في الحديث من رواية عمران بن الحصين قال : سئل النبي ﷺ عن قول الله : ﴿ **إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر** ﴾ قال : « من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر ، فلا صلاة له » . وعن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد بها من الله إلا بعداً » . وروى ابن جرير ... عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ **إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر** ﴾ قال : فمن لم تأمره صلاته بالمعروف ، وتنهاه عن المنكر ، لم يزدد بصلاته من الله إلا بعداً . فهذا موقوف . روى ابن جرير ... عن ابن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال : « لا صلاة لمن لم يطع الصلاة » وطاعة الصلاة أن تنهاه عن الفحشاء والمنكر . قال ابن جرير : وقال سفيان ﴿ **قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك** ﴾ قال : فقال سفيان : أي والله تأمره وتنهاه) .

٢ - وبمناسبة قوله تعالى : ﴿ **ولذكر الله أكبر** ﴾ قال ابن كثير :(وقال علي ابن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ **ولذكر الله أكبر** ﴾ يقول : ولذكر الله لعباده أكبر إذا ذكروه من ذكرهم إياه . وكذا روى غير واحد عن ابن عباس وبه قال مجاهد وغيره : وروى ابن أبي حاتم عن رجل عن ابن عباس ﴿ **ولذكر الله أكبر** ﴾ قال : ذكر الله عند طعامك وعند منامك، قلت : فإن صاحباً لي في المنزل يقول غير الذي تقول ، قال : وأي شيء يقول ؟ قلت : قال : يقول الله تعالى ﴿ **فاذكروني أذكركم** ﴾ فلذكر الله إيانا أكبر من ذكرنا إياه ، قال : صدق . وروى أيضاً عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ **ولذكر الله أكبر** ﴾ قال : لها وجهان . قال : ذكر الله عند ما حزب . قال : وذكر الله إياكم أعظم من ذكركم إياه . وروى ابن جرير ... عن عبد الله بن ربيعة قال : قال لي ابن عباس هل تدري ما قوله تعالى : ﴿ **ولذكر الله أكبر** ﴾ ؟ قال : قلت نعم . قال : فما هو ؟ قلت : التسبيح والتحميد والتكبير في الصلاة وقراءة القرآن ونحو ذلك ، قال : لقد قلت قولاً عجيباً ، وما هو كذلك ، ولكنّه إنّما يقول ذكر الله إياكم عند ما أمر به أو نهى عنه إذا ذكرتموه أكبر من ذكركم إيّاه . وقد روي هذا من غير وجه عن ابن عباس ، وروي أيضاً عن ابن مسعود ، وأبي الدرداء ، وسلمان الفارسي وغيرهم واختاره ابن جرير) .

وقال النسفي : (أي والصلاة أكبر من غيرها من الطاعات ، وإنما قال ولذكر الله ؛ ليستقل بالتعليل كأنه قال : والصلاة أكبر لأنها ذكر الله ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما ولذكر الله إياكم برحمته أكبر من ذكركم إياه بطاعته ، وقال ابن عطاء : ذكر الله لكم أكبر من ذكركم له الآن ؛ لأن ذكره بلا علة ، وذكركم مشوب بالعلل والأماني ، ولأن ذكره لا يفنى ، وذكركم لا يبقى ، وقال سلمان : ذكر الله أكبر من كل شيء وأفضل ، فقد قال عليه الصلاة والسلام : « ألا أنبئكم بخير أعمالكم ، وأزكاها عند مليككم ، وأرفعها في درجاتكم ، وخير من إعطاء الذهب والفضة ، وأن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم ؟ » قالوا وما ذاك يا رسول الله ؟ قال : « ذكر الله » . وسئل : أي الأعمال أفضل قال : « أن تفارق الدنيا ولسانك رطب بذكر الله » أو ذكر الله أكبر من أن تحويه أفهامكم وعقولكم ، أو ذكر الله أكبر من أن تلقى معه معصية ، أو ذكر الله أكبر في النهي عن الفحشاء والمنكر من غيره) .

أقول : وإنني أميل إلى الظاهر في فهم الآية أن ذكر الله الدائم أثره في النهي

عن الفحشاء والمنكر أكبر من كل شيء ، والصلاة ذكر ، وهي أعظم الذكر ، فهي وحدها تستقل بالنهي عن الفحشاء والمنكر ، والذكر معها يؤدّي إلى نتيجة أكبر ، ولا يعني هذا أن الذكر بدون صلاة يؤدي دوره كاملاً ، لأن الله لا يقبل نافلة ما لم تؤدّ الفريضة .

٣ - قال تعالى : ﴿ **اتل ما أُوحي إليك من الكتاب وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر** ﴾ إن هذه الآية في سياقها تفيد أن زاد المؤمن المجاهد تلاوة القرآن والصلاة والذكر ، وأن زاد المؤمن في حياته تلاوة القرآن والصلاة والذكر ، وأن هذه الثلاث زاده في محنته ، ومن ثَمَّ فعلى المربِّين أن يعوِّدوا المسلم من لحظة الابتداء على تلاوة القرآن والصلاة والذكر ، فلا يمر يوم بدون تلاوة قرآن ، ولا يمر يوم إلا وقد أخذ القلب حظه من الصلاة ، فرائضها ، ونوافلها ، ولا يمر يوم إلا وقد أقام المسلم فيه أوراده المأثورة ، من استغفار ، وصلاة على الرسول ﷺ ، وتهليل ، وغير ذلك . وهو موضوع يعرف المسلم تفصيلاته من كتابنا (جند الله ثقافة وأخلاقاً) وفي رسالة (المأثورات) للأستاذ البنا ما يشفي .

٤ - عند قوله تعالى : ﴿ **ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذي أُنزل إلينا وأُنزل إليكم وإلٰهنا وإلٰهكم واحد ونحن له مسلمون** ﴾ . قال ابن كثير : (قال قتادة وغير واحد : هذه الآية منسوخة بآية السيف ، ولم يبق معهم مجادلة ، وإنما هو الإسلام أو الجزية أو السيف . وقال آخرون : بل هي باقية محكمة لمن أراد الاستبصار منهم في الدين ؛ فيجادَل بالتي هي أحسن ليكون أنجع فيه ، كما قال تعالى : ﴿ **ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة** ﴾ الآية . [النحل : ١٢٥] وقال تعالى لموسى وهارون حين بعثهما إلى فرعون : ﴿ **فقولا له قولاً ليناً لعله يتذكّر أو يخشى** ﴾ [طه : ٤٤] . وهذا القول اختاره ابن جرير وحكاه عن ابن زيد وقوله تعالى : ﴿ **إلا الذين ظلموا منهم** ﴾ أي حادوا عن وجه الحق ، وعموا عن واضح المحجّة ، وعاندوا وكابروا ، فحينئذ ينتقل من الجدال إلى الجلاد ، ويقاتَلون بما يمنعهم ويردعهم . قال الله عز وجل : ﴿ **لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد** ﴾ إلى قوله : ﴿ **إن الله قوي عزيز** ﴾ [الحديد : ٢٥] . قال جابر : أمرنا من خالف كتاب الله أن نضربه بالسيف. قال مجاهد ﴿ **إلا الذين ظلموا منهم** ﴾ : يعني أهل

الحرب ، ومن امتنع منهم من أداء الجزية . وقوله تعالى : ﴿ **وقولوا آمنا بالذي أُنزل إلينا وأُنزل إليكم** ﴾ يعني إذا أخبروا بما لا نعلم صدقه ولا كذبه فهذا لا نقدم على تكذيبه ، لأنه قد يكون حقاً ، ولا تصديقه فلعله أن يكون باطلاً ، ولكن نؤمن به إيماناً مجملاً ، معلّقاً على شرط ، وهو أن يكون منزلاً لا مبدّلاً ولا مؤوّلاً . روى البخاري رحمه الله ... عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : كان أهل الكتاب يقرؤون التوراة بالعبرانية ، ويفسّرونها بالعربية لأهل الإسلام ، فقال رسول الله ﷺ : « لا تصدّقوا أهل الكتاب ولا تكذّبوهم ، وقولوا آمنّا بالذي أُنزل إلينا وأُنزل إليكم ، وإلهنا وإلهكم واحد ، ونحن له مسلمون » . وهذا الحديث تفرّد به البخاري . روى الإمام أحمد ... عن أبي نملة الأنصاري أنه بينا هو جالس عند رسول الله ﷺ جاءه رجل من اليهود فقال : يا محمد هل تتكلم هذه الجنازة ؟ فقال رسول الله ﷺ : « الله أعلم » قال اليهودي : أنا أشهد أنها تتكلم ، فقال رسول الله ﷺ : « إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدّقوهم ولا تكذبوهم ، وقولوا : آمنا بالله وكتبه ورسله ، فإن كان حقاً لم تكذّبوهم ، وإن كان باطلاً لم تصدّقوهم » . (قال ابن كثير) : وأبو نملة هذا هو عمارة ، وقيل عمار ، وقيل عمرو بن معاذ بن زرارة الأنصاري رضي الله عنه . ثم ليعلم أن أكثر ما يتحدثون به غالبه كذب وبهتان ، لأنه قد دخله تحريف ، وتبديل ، وتغيير ، وتأويل ، وما أقل الصدق فيه ، ثم ما أقل فائدة كثير منه ، لو كان صحيحاً . روى ابن جرير ... عن ابن مسعود قال : لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء ؛ فإنّهم لن يهدوكم وقد ضلّوا ، إما أن تكذّبوا بحق ، أو تصدقوا بباطل ، فإنه ليس أحد من أهل الكتاب إلا وفي قلبه تالية (أي بقية) تدعوه إلى دينه كتالية المال ، وروى البخاري ... عن ابن عباس قال : كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء وكتابكم الذي أُنزل إليكم على رسول الله ﷺ أحدث ، تقرؤونه محضاً لم يشب ، وقد حدثكم أن أهل الكتاب بدّلوا وغيّروا ، وكتبوا بأيديهم الكتاب ، وقالوا : هو من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً ؟ ألا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم ؟ لا والله ما رأينا منهم رجلاً يسألكم عن الذي أُنزل عليكم . وروى البخاري وأبو اليمان ... عن حميد بن عبد الرحمن أنّه سمع معاوية يحدّث رهطاً من قريش بالمدينة وذكر كعب الأحبار فقال : إن كان من أصدق هؤلاء المحدثين الذين يحدثون عن أهل الكتاب ، وإن كنا مع ذلك لنبلو عليه الكذب . قال ابن كثير : (معناه أن يقع منه الكذب لغة من غير قصد ، لأنّه يحدّث عن صحف هو يحسن بها الظن ، وفيها أشياء موضوعة ومكذوبة ، لأنهم لم يكن في ملتهم

فاعبدون ﴾ قال ابن كثير : (هذا أمر من الله لعباده المؤمنين بالهجرة من البلد الذي لا يقدرون فيه على إقامة الدين ، إلى أرض الله الواسعة ، حيث يمكن إقامة الدين ، بأن يوحِّدوا الله ويعبدوه كما أمرهم . ولهذا قال تعالى : **﴿ يا عبادي الذين آمنوا إن أرضي واسعة فإياي فاعبدون ﴾** . روى الإمام أحمد ... عن أبي يحيىٰ مولى الزبير ابن العوام قال : قال رسول الله ﷺ : « البلاد بلاد الله ، والعباد عباد الله . فحيثما أصبت خيراً فأقم » . ولهذا لما ضاق على المستضعفين بمكة مقامهم بها خرجوا مهاجرين إلى أرض الحبشة ؛ ليأمنوا على دينهم هناك ، فوجدوا خير المنزلين هناك أصحمة النجاشي ملك الحبشة رحمه الله تعالى ، فآواهم وأيّدهم بنصره ، وجعلهم سيوماً ببلاده ، ثم بعد ذلك هاجر رسول الله ﷺ والصحابة الباقون إلى المدينة النبوية يثرب المطهرة) .

١٠ - بمناسبة قوله تعالى : **﴿ لنبوئنّهم من الجنة غُرَفاً ﴾** قال ابن كثير : (روى ابن أبي حاتم ... عن أبي مالك الأشعري أن رسول الله ﷺ حدّثه : « أنّ في الجنّة غرفاً يُرى ظاهرها من باطنها ، وباطنها من ظاهرها . أعدّها الله تعالى ، لمن أطعم الطعام ، وأطاب الكلام ، وتابع الصلاة والصيام ، وقام بالليل والناس نيام ») .

١١ - بمناسبة قوله تعالى : **﴿ وكأيِّن من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم ﴾** قال ابن كثير : (وقد قال الشافعي في جملة كلام له في الأوامر : كقول النبي ﷺ : « سافروا تصحوا وترزقوا » روى البيهقي ... عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « سافروا تصحوا وتغنموا » قال : ورويناه عن ابن عباس . وقال الإمام أحمد ... عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « سافروا تربحوا ، وصوموا تصحوا ، واغزوا تغنموا » وقد ورد مثل حديث ابن عمر عن ابن عباس مرفوعاً ، وعن معاذ بن جبل موقوفاً ، وفي لفظ : « سافروا مع ذوي الجد والميسرة » . قال : ورويناه عن ابن عباس) .

١٢ - بمناسبة قوله تعالى : **﴿ فإذا ركبوا في الفلك دَعَوُا الله مخلصين له الدين ﴾** قال ابن كثير : (وقد ذكر محمد بن إسحق ، عن عكرمة بن أبي جهل ، أنه لما فتح رسول الله ﷺ مكة ذهب فارّاً منها . فلما ركب في البحر ليذهب إلى الحبشة اضطربت بهم السفينة ، فقال أهلها : يا قوم أخلصوا لربكم الدعاء ؛ فإنه لا ينجي ههنا إلا هو . فقال عكرمة : والله لئن كان لا ينجي في البحر غيره ، فإنه لا ينجي في البّر أيضاً غيره ، اللهم لك عليّ عهد لئن خرجتُ لأذهبن فَلأضعنّ يدي في يد محمد

فلأجدنّه رؤوفاً رحيماً ، فكان كذلك) .

١٣ - عند قوله تعالى : ﴿ **والذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سبلنا** ﴾ قال ابن كثير : (﴿ **والذين جاهدوا فينا** ﴾ يعني الرسول ﷺ وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين ﴿ **لنهدينّهم سبلنا** ﴾ أي لنبصّرنّهم سبلنا ، أي طرقنا في الدينا والآخرة . روى ابن أبي حاتم ... عن عباس الهمداني أبو أحمد من أهل عكافي قول الله تعالى : ﴿ **والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين** ﴾ قال : الذين يعملون بما يعلمون ، يهديهم الله لما لا يعلمون ، قال أحمد بن أبي الحواري فحدثت به أبا سليمان الداراني فأعجبه وقال : ليس ينبغي لمن ألهم شيئاً من الخير أن يعمل به حتى يسمعه في الأثر ، فإذا سمعه في الأثر عمل به ، وحمد الله حتى وافق ما في قلبه) .

وقال النسفي : (وعن الداراني : والذين جاهدوا فيما علموا لنهدينهم إلى ما لم يعلموا ، فقد قيل : من عمل بما علم وفق لما لا يعلم . وقيل : إن الذي نرى من جهلنا بما لا نعلم إنما هو لتقصيرنا فيما نعلم . وعن فضيل : والذين جاهدوا في طلب العلم لنهدينهم سبل العمل به . وعن سهل : والذين جاهدوا في إقامة السنة لنهدينهم سُبل الجنة . وعن ابن عطاء : جاهدوا في رضانا لنهدينهم الوصول إلى محل الرضوان ، وعن ابن عباس : جاهدوا في طاعتنا لنهدينهم سبل ثوابنا ، وعن الجنيد : جاهدوا في التوبة لنهدينهم سبل الإخلاص ، أو جاهدوا في خدمتنا لنفتحن عليهم سبل المناجاة معنا ، والأنس بنا ، أو جاهدوا في طلبنا تحرّياً لرضانا لنهدينهم سبل الوصول إلينا) .

أقول : إن مَن فهم هذه الآية في محلها وسياقها ، وعرف معناها ، وعمل بمقتضاها ، حصّل خيراً كثيراً . وتأمّل فيما يأتي :

قال رسول الله ﷺ في الحديث الحسن : « والمجاهد من جاهد نفسه في ذات الله » وجهاد النفس : حملها على أمر الله في كل شيء . ومن ذلك جهاد الشيطان ، وجهاد العدو . والآية تبيّن أن من جاهد في ذات الله هداه الله إلى سبله الموصّلة إليه . ليكن هذا منك على ذكر ، وامض معي .

قال تعالى في سورة القتال : ﴿ **والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم** ﴾ (الآية : ١٧) إن هذه الآية تبيّن أنّ التقوى منحة من الله ومكافأة منه للعبد على اهتدائه . اجمع بين هذه الآية والآية السابقة تكون النتيجة : التقوى تأتي بعد الهداية ، والهداية تأتي كأثر

عن المجاهدة ، فالطريق إذن مجاهدة ، يكافىء الله عليها بهداية . وهداية يكافىء الله عليها بتقوى ، فنقطة البداية إذن مجاهدة النفس ، ولا شك أنّ ممّا يعين على مجاهدة النفس تلاوة القرآن ، والصلاة ، والذكر . قال عليه الصلاة والسلام لمن سأله مرافقته في الجنة : « أعني على نفسك بكثرة السجود » وكثرة السجود تعني كثرة الصلاة ، وكثرة الصلاة تعني كثرة الذكر ، وقراءة القرآن .

تأمّل معي الآن مقدمة سورة البقرة :

﴿ الٓمٓ * ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين * الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون * والذين يؤمنون بما أُنزل إليك وما أُنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون * أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون ﴾ .

ألست تجد في هذه الآيات وصفاً للتقوى وأهلها وأركانها ؟

فإذا كان الأمر كذلك ، وكان الطريق إلى التقوى هو مجاهدة النفس كما رأينا ، فإنّ ذلك وحده كاف للتدليل على مجموعة أمور :

١ - على صلة سورة العنكبوت بالآيات الأولى من سورة البقرة .

٢ - وعلى أنّ سورة العنكبوت تعتبر درساً في موضوع التحقق بالتقوى . ولعلّك بذلك تدرك مظهراً من مظاهر الكمال في هذا القرآن وسراً من أسرار الإعجاز .

وبمناسبة الكلام عن آية المجاهدة نقول : إن ختم الآية بقوله تعالى : **﴿ وإن الله لمع المحسنين ﴾** يفيد أنه بقدر ما يكون الإحسان يكون التوفيق والفتح والهداية .

١٤ - سورة العنكبوت مكية ، والجهاد المفروض في مكة هو جهاد النفس وجهاد الكافرين باللسان ، ثم فرض الله الجهاد باليد في المدينة ، والملاحظ أن كلمة الجهاد التي وردت مرّتين في سورة العنكبوت لم تقيّد بنوع من أنواع الجهاد . ممّا يشير إلى أنّ كلّ ما يدخله الله تحت كلمة الجهاد يدخل في ذلك ، ولكن تبقى مجاهدة النفس هي المراد الأول في الآية ، ولا شك أن الجهاد باليد هو نوع من مجاهدة النفس إذ إنّ حمل النفس على الموت في سبيل الله من أعظم أنواع المجاهدة ، ومن هذا ندرك أنّ المؤمن لا يَصْدُق في إيمانه إلا بجهاد : للنفس وللشيطان ولأعداء الله ، وهذا الذي يدل عليه الحديث الصحيح : « ما من نبي بعثه الله في أمّة قبلي إلا كان له من أمّته حواريون

وأصحاب يأخذون بسنّته ، ويقتدون بأمره ، ثمّ إنّها تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون ، ويفعلون ما لا يؤمرون ، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن ، ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل » أخرجه مسلم عن ابن مسعود .

كلمة أخيرة في سورة العنكبوت :

رأينا من خلال عرضنا للسورة أن السورة تفصّل قوله تعالى من سورة البقرة : ﴿ **الٓمٓ * ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين * الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون * والذين يؤمنون بما أُنزل إليك وما أُنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون * أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون** ﴾ (البقرة : ١ - ٤) وكان تفصيلها أن فصّلت في لوازم الإيمان بالغيب فذكرت :

الامتحان ، ورجاء لقاء الله ، والجهاد ، والعمل الصالح ، وبر الوالدين ، والصبر على الأذى ، وعدم الخضوع لتأثيرات الكافرين .

وفصّلت في لوازم الإيمان بالكتب السماوية كلها فذكرت :

عدم مجادلة أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن .

وفصّلت في الطريق لتحقيق الإيمان الصادق ، وتحقيق التقوى : فذكرت تلاوة القرآن ، وإقامة الصلاة ، والذكر ، والعمل الصالح ، والصبر ، والتوكل ، والمجاهدة ، والإحسان .

وفصّلت في إقامة الحجّة على أنّ هذا القرآن من عند الله .

وفصّلت في تبيان نِعَم الله ، وما تقتضيه في موازين الإيمان ، ورسمت الطريق لتحقيق الإيمان ابتداءً بالجهاد ، وتوسطاً بالصبر ، وانتهاءً بالهجرة والصبر والتوكل .

....

وكما فصّلت في صفات المتقين فصّلت في ما يقابل ذلك من الكفر ، والنفاق ، وهي المواضيع التي تحدّثت عنها مقدمة سورة البقرة .

فعرفنا علامة النفاق ، وعرفنا بعض لوازم الكفر وآثاره .

وعرفنا بعض ما أعدّ الله للمؤمنين ، وبعض ما أعدّ للكافرين .

وعرفنا الفارق الكبير بين ما يركن إليه أهل الإيمان ، وبين ما يركن إليه أهل الكفر :

﴿ مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون ﴾ .

....

هذه المعاني وغيرها موجودة في سورة العنكبوت ، وهي نوع تفصيل لمقدمة سورة البقرة ، وسورة العنكبوت هي واحدة من أربع سور في هذه المجموعة كلها مبدوء بـ ﴿ الٓمٓ ﴾ وهذه السور الأربع كلّها تفصّل في مقدمة سورة البقرة ، وكل منها يفصّل في هذه المقدمة تفصيلاً يكمّل تفصيل الآخر ؛ فسورة العنكبوت فصّلت في موضوع لوازم الإيمان بالغيب ، والكتاب ، بشكل أخصّ . وسنرى أنّ سورة الروم تفصّل في موضوع الإيمان باليوم الآخر بشكل أخص . وهكذا كل سورة من هذه السور الأربع . وقد رأينا من قبل أن سورتا طه والأنبياء فصّلتا مقدمة سورة البقرة . ومن قبل رأينا سورة يونس فصّلت في مقدمة سورة البقرة . ومن قبلها رأينا سورة آل عمران فصّلت في مقدمة سورة البقرة ، وكل منها فصّل في هذه المقدمة تفصيلاً يكمّل تفصيل الآخر .

إن هذا الترابط والتناسق والتكامل والصلة والوحدة في هذا القرآن لكافٍ في أن يعرف الإنسان استحالة كون هذا الكتاب من عند بشر . فكيف إذا كان هذا واحداً من آلاف من مظاهر الإعجاز في هذا القرآن ؟ نسأل الله ألا يضلّنا ، ونسأله أن يفتح علينا في فهم كتابه ، وأن يتوفانا على الإيمان ، ويدخلنا الجنة ، ويزحْزِحنا عن النار ، ويغفر ويستر .

....

إن سورة العنكبوت عالجت أهم قضيتين يخطىء الناس فيهما :

القضية الأولى : أن الإيمان لا يرافقه امتحان وهو فهم خاطىء لازلنا نراه عند بني الإنسان ، إذ يظنّون أن الدخول في الإسلام لا يرافقه خوف ولا أذى ، ولا تقتير

رزق ، ولا غير ذلك من معاني الابتلاء . بل إنّ بعض الناس يعتبرون وجود مثل هذه الأشياء علامة على الخطأ في السير ، فما أكثر جهلهم ؟ لقد بيّنت السورة خطأ هذا التصور وعالجته .

القضية الثانية : ظن الكافر أنّه يفوت الله ، فلا يناله عقابه في دنيا ، أو في أخرى ومعالجة هذه القضية لها صلة بمعالجة القضية الأولى لأنّه قد يقول قائل : مادمت إذا دخلت في الإسلام فسأمتحن ، وسأعذّب ، وسأوذى ، وسيسلّط الله عليّ ، فلأبق على الكفر ، ومن ثَمَّ بيّن الله عز وجل أن ابتلاء الله للمؤمنين في الدنيا أهون بكثير من عقاب الله عز وجل للكافرين في الدنيا والآخرة .

لقد عالجت السورة هاتين القضيتين في سياقها الخاص معالجة كاملة إنْ في العرض أو في ذكر الأمثلة ، أو في الدلالة على الطريق والعمل . ولقد غفل الناس في عصرنا عن كثير من مضامين هذه السورة . فبدلاً من أن يعتبروا الامتحان ظاهرة عاديّة أصبحوا يعتبرون الامتحان علامة خطأ على السير ، وصاروا ينافقون فراراً من الامتحان مقلّدين إخوانهم المنافقين الأوّلين ، بل إنّ بعض أولئك نافقوا عند الإيذاء ، وبعض هؤلاء ينافق قبل وجود الإيذاء ، ثمّ إنّ هناك غفلة عند الكثيرين عن التحقّق في المعاني التي تعرّضت لها السورة ، والتي هي زاد الطريق من المجاهدة ، وبر الوالدين في غير معصية ، والهجرة ، والصبر ، والتوكل ، والجمع بين تلاوة القرآن والذكر ، وإقام الصلاة ، والحذر من الدعوات الكافرة وأهلها .

....

ونحب هنا أن نؤكّد على ناحية ذكرناها أثناء التفسير وهي أنّ على المربي أن يبدأ بالعلم ، وأن يركّز في الابتداء على التلاوة ، والصلاة ، والذكر ، والتركيز على التلاوة يقتضي تعليم علم التجويد ، والتركيز على الصلاة يقتضي تعليم فقهها ، والتركيز على الذكر يقتضي دراسة الأذكار المسنونة . كما يقتضي إيجاد الأجواء المناسبة ، والبيئة المناسبة التي تجعل مريد وجه الله عز وجل ينصهر في هذه الأشياء الثلاثة ، إنّنا إذا صهرنا المسلم في لحظة إقباله بهذه المعاني الثلاثة نكون قد وضعناه في طريق الجنة بإذن الله .

....

إنّ قضية الإيمان هي أغلى القضايا وأعظمها ، وسورة العنكبوت فصّلت في هذه

القضية في سياقها الرئيسي ، وركزتها لتكون مدخلاً إلى السورة التي تأتي بعدها ، ولتكون أساساً لها ، ومن ثَمَّ فإنك تلاحظ أن سورة العنكبوت تحدّثت في بدايتها عن الامتحان والإيذاء . وقالت : ﴿ **ولئن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم** ﴾ وهذه سورة الروم تقول في بدايتها ﴿ **ينصر من يشاء** ﴾ وفي أواخرها ﴿ **وكان حقاً علينا نصر المؤمنين** ﴾ ومن هذه الملاحظة نعرف كيف تكمّل السور الأربع المبدوءة بـ ﴿ **الٓمٓ** ﴾ في هذه المجموعة بعضها ، وكيف أنها كلها تصبّ في مصبّ واحد ، وتفصّل مقاماً واحداً هو مقدّمة سورة البقرة .



سورة الروم

وهـي السـورة الثـلاثـون بحسـب الرسـم القرآنـي
وهي السـورة الثانيـة من المجمـوعة الأولى من
قسم المثاني ، وآياتها ستون آية
وهـي مكيـــة

وهي السورة الثانية من زمرة (الٓمٓ)
في قسم المثاني

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ وَآلِهِ وَأَصْحَابِهِ

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا، إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

قال الألوسي رحمه الله في تقديمه لسورة الروم :

(مكية ، كما روي عن ابن عباس ، وابن الزبير رضي الله تعالى عنهم ، بل قال ابن عطية ، وغيره : لا خلاف في مكيتها ، ولم يستثنوا منها شيئاً ، وقال الحسن : هي مكية إلا قوله تعالى : ﴿ **فسبحان الله حين تمسون** ﴾ الآية ، وهو خلاف مذهب الجمهور ، والتفسير المرضي كما سيأتي إن شاء الله تعالى بيانه . وآيها ستون ، وعند بعض تسع وخمسون . ووجه اتصالها بالسورة السابقة على ما قاله الجلال السيوطي أنها ختمت بقوله تعالى : ﴿ **والذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سبلنا** ﴾ وافتتحت هذه بوعد من غُلب من أهل الكتاب بالغلبة والنصر ، وفرح المؤمنين بذلك ، وأن الدولة لأهل الجهاد فيه ، ولا يضرهم ما وقع لهم من قبل ذلك من هزيمة ، هذا مع تواخيها لما قبلها في الافتتاح بـ (آلمّ) ولا يخفى أن قتال أهل الكتاب ليس من المجاهدة في الله عز وجل ، وبذلك تضعف المناسبة ، ومن وقف على أخبار سبب النزول ظهر له أن ما افتتحت به هذه السورة متضمناً نصرة المؤمنين بدفع شماتة أعدائهم المشركين ، وهم لم يزالوا مجاهدين في الله تعالى ولأجله ولوجهه عز وجل ، ولا يضر عدم جهادهم بالسيف عند النزول ، وهذا في المناسبة أوجَه فيما أرى من الوجه الذي ذكره الجلال . فتأمل) .

وقال صاحب الظلال في تقديمه للسورة :

(نزلت الآيات الأولى من هذه السورة بمناسبة معيّنة . ذلك حين غلبت فارس على الروم فيما كانت تضع يدها من جزيرة العرب . وكان ذلك في إبان احتدام الجدل حول العقيدة بين المسلمين السابقين إلى الإسلام في مكة قبل الهجرة والمشركين .. ولما كان الروم في ذلك الوقت أهل كتاب ، دينهم النصرانية ، وكان الفرس غير موحّدين ، ديانتهم المجوسية ، فقد وجد المشركون من أهل مكة في الحادث فرصة لاستعلاء عقيدة الشرك على عقيدة التوحيد ، وفألاً بانتصار ملة الكفر على ملة الإيمان .

ومن ثَمَّ نزلت الآيات الأولى من هذه السورة تبشّر بغلبة أهل الكتاب من الروم في بضع سنين غلبة يفرح لها المؤمنون ، الذين يودّون انتصار ملّة الإيمان من كل دين .

ولكن القرآن لم يقف بالمسلمين وخصومهم عند هذا الوعد ، ولا في حدود ذلك الحادث . إنما كانت هذه مناسبة لينطلق بهم إلى آفاق أبعد وآماد أوسع من ذلك الحادث الموقوت ، وليصلهم بالكون كله ، وليربط بين سنة الله في نصر العقيدة السماوية والحق

الكبير الذي قامت عليه السماوات والأرض وما بينهما ، وليصل بين ماضي البشرية وحاضرها ومستقبلها . ثم يستطرد بها إلى الحياة الأخرى بعد هذه الحياة الدنيا ، وإلى العالم الآخر بعد عالم الأرض المحدود . ثم يطوف بهم في مشاهد الكون ، وفي أغوار النفس ، وفي أحوال البشر ، وفي عجائب الفِطَر .. فإذا هم في ذلك المحيط الهائل الضخم الرحيب يطّلعون على آفاق من المعرفة ترفع حياتهم وتطلقها ، وتوسع آمادها وأهدافها ، وتخرجهم من تلك العزلة الضيقة . عزلة المكان والزمان والحادث . إلى فسحة الكون كله : ماضيه وحاضره ومستقبله ، وإلى نواميس الكون وسننه وروابطه .

ومن ثَمَّ يرتفع تصورهم لحقيقة الارتباطات وحقيقة العلاقات في هذا الكون الكبير . ويشعرون بضخامة النواميس التي تحكم هذا الكون ، وتحكم فطرة البشر ، ودقة السنن التي تصرّف حياة الناس وأحداث الحياة ، وتحدد مواضع النصر ومواضع الهزيمة ، وعدالة الموازين التي تقدّر بها أعمال الخلق ، ويقوّم بها نشاطهم في هذه الأرض ، ويلقون على أساسها الجزاء في الدنيا والآخرة .

وفي ظل ذلك التصوّر المرتفع الواسع الشامل تتكشف عالمية هذه الدعوة وارتباطها بأوضاع العالم كله من حولها - حتى وهي ناشئة في مكة محصورة بين شعابها وجبالها - ويتسع مجالها فلا تعود مرتبطة بهذه الأرض وحدها ، إنما هي مرتبطة كذلك بفطرة هذا الكون ونواميسه الكبرى ، وفطرة النفس البشرية وأطوارها ، وماضي هذه البشرية ومستقبلها . لا على هذه الأرض وحدها ، ولكن كذلك في العالم الآخر الوثيق الصلة بها والارتباط .

وكذلك يرتبط قلب المسلم بتلك الآفاق والآماد ؛ ويتكيف على ضوئها شعوره وتصوره للحياة والقيم ؛ ويتطلع إلى السماء والآخرة ؛ ويتلفت حواليه على العجائب والأسرار ، وخلفه وقدامه على الحوادث والمصائر . ويدرك موقفه هو وموقف أمته في ذلك الخضم الهائل ؛ ويعرف قيمته هو وقيمة عقيدته في حساب الناس وحساب الله ، فيؤدّي حينئذ دوره على بصيرة ، وينهض بتكاليفه في ثقة وطمأنينة واهتمام) .

كلمة في سورة الروم ومحورها :

قلنا إن محور السور الأربع : (العنكبوت ، والروم ، ولقمان ، والسجدة)

هو مقدمة سورة البقرة ، وقلنا : إنّ كلاً من هذه السور تفصِّل في المقدمة تفصيلاً ، يكمّل بعضه بعضاً . وقلنا : إنّ سورة العنكبوت فصّلت في موضوع الإيمان بالغيب وآثاره ، وموضوع الإيمان بالكتاب ، ولم تتوسّع في موضوع الإيمان باليوم الآخر ، وههنا نلاحظ أنّ السياق الرئيسي لسورة الروم يكاد يكون منصبّاً على موضوع اليوم الآخر . فالآية (٧) تقول : ﴿ **يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون** ﴾ والآية (١٢) تقول : ﴿ **ويوم تقوم الساعة يُبْلِسُ المجرمون** ﴾ والآية (١٤) تقول : ﴿ **ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون** ﴾ . والآية (٥٥) تقول : ﴿ **ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون** ﴾ .

وتتحدث السورة عن الله عز وجل بما يذكّر بالآخرة :

فالآية (١١) تقول : ﴿ **الله يبدأ الخلق ثم يعيده ثم إليه ترجعون** ﴾ .

والآية (٢٧) تقول : ﴿ **وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى في السمٰوات والأرض وهو العزيز الحكيم** ﴾ .

والآية (٤٠) تقول : ﴿ **الله الذي خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء سبحانه وتعالى عما يشركون** ﴾ .

والآية (٥٠) تقول : ﴿ **فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها إن ذلك لمحيي الموتى وهو على كل شيء قدير** ﴾ .

ولاحظ الآن هذه الملاحظة : وهي أن الآيات التي وصفت المتقين من سورة البقرة قالت في جملة ما قالت : ﴿ **وبالآخرة هم يوقنون** ﴾ .

وهذه آخر آية في سورة الروم تقول :

﴿ **ولا يستخفنّك الذين لا يوقنون** ﴾ . لاحظ كلمة (يوقنون) في المكانين .

. . . .

فالسورة تكمّل سورة العنكبوت وتفصّل بشكل أخص من مقدمة سورة البقرة ما لم تتوسع فيه سورة العنكبوت في تفصيلها لهذه المقدمة .

. . . .

ومن الملاحظ أن هناك شَبهاً بين آخر آية في سورة يونس التي فصّلت كذلك في مقدمة سورة البقرة وبين آخر آية في سورة الروم .

فآخر آية في سورة يونس هي : ﴿ **واتّبع ما يوحى إليك واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين** ﴾ .

وآخر آية في سورة الروم : ﴿ **فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفنّك الذين لا يوقنون** ﴾ .

وهذا يؤكّد أن طريقتنا في فهم الوحدة القرآنية والسياق القرآني صحيحة . فليس في كلامنا في هذا الشأن افتئاتاً على القرآن بغير علم بل هو شيء تقودنا إليه المعاني .

....

قلنا أثناء الكلام عن سورة العنكبوت : إن سورة العنكبوت فصّلت بشكل أخص قوله تعالى من مقدمة سورة البقرة :

﴿ **الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ...** ﴾ .

﴿ **والذين يؤمنون بما أُنزل إليك وما أُنزل من قبلك** ﴾ .

وههنا نقول :

إنّ سورة الروم تفصّل بشكل أخص قوله تعالى من مقدّمة سورة البقرة :

﴿ **وبالآخرة هم يوقنون * أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون** ﴾.

لاحظ أنّ في الآية الأخيرة من مقدمة سورة البقرة وعداً هو :

﴿ **وأولئك هم المفلحون** ﴾ .

ولاحظ أنّ آخر آية في سورة الروم فيها ذكر للوعد :

﴿ **فاصبر إن وعد الله حق** ﴾ .

....

إنّ من عجائب القرآن ما ورد في بداية سورة الروم ، فإنّ فيها وعداً أن ينصر الله الروم على الفرس وهو وعد قد تحقق بعد نزول السورة بفترة ، وقد دلّل الله عزّ وجل

على وقوع وعده هذا بوقوع وعده في اليوم الآخر . ثم سار السياق للتدليل على اليوم الآخر ، ومن ثَمَّ نجد في بداية السورة :

﴿ **وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون * يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون** ﴾ .

وتختم السورة بقوله تعالى :

﴿ **فاصبر إنّ وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون** ﴾ . ومن عرف هذه النقطة فقد أدرك السياق الرئيسي لسورة الروم .

....

ولا نريد أن نستبق الكلام عن تفصيلات السياق ، وإنّما نتكلم هنا ضمن الحدود التي نعرف بها السورة ومحورها بشكل مجمل . وقد اتضح مما ذكرناه الموضوع الرئيسي لسورة الروم ، واتضح لنا محورها . وسنرى التفصيلات أثناء شرحها . ولنتذكر قبل أن ننتقل إلى عرض سورة الروم :

الآيات الأولى من سورة البقرة التي هي محور هذه السور الأربع :

﴿ **الٓمٓ * ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين** ﴾ .

﴿ **الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون** ﴾ .

﴿ **والذين يؤمنون بما أُنزل إليك وما أُنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون * أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون** ﴾ .

....

تتألف سورة الروم من مقدمة وأربعة مقاطع ، والمقاطع الأربعة كل منها مبدوء بلفظ الجلالة (الله) والمقدمة تتألف من مجموعتين .

الأرض ... ﴾ : (بدأت السورة بالأحرف المقطعة : (ألف . لام . ميم) التي اخترنا في تفسيرها أنها للتنبيه إلى أن هذا القرآن - ومنه هذه السورة - مصوغ من مثل هذه الأحرف ، التي يعرفها العرب ؛ وهو مع هذا معجز لهم ، لا يملكون صياغة مثله ، والأحرف بين أيديهم ، ومنها لغتهم .

ثم جاءت النبوءة الصادقة الخاصة بغلبة الروم في بضع سنين . وقد روى ابن جرير - بإسناده - عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال : كانت فارس ظاهرة على الروم . وكان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم ؛ وكان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس ، لأنهم أهل كتاب ، وهم أقرب إلى دينهم . فلما نزلت : ﴿ **الٓمٓ * غُلبت الروم * في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون * في بضع سنين** ﴾ . قالوا : يا أبا بكر . إن صاحبك يقول : إن الروم تظهر على فارس في بضع سنين . قال : صدق . قالوا : هل لك أن نقامرك ؟ فبايعوه على أربع قلائص إلى سبع سنين . فمضت السبع ولم يكن شيء . ففرح المشركون بذلك ، فشق على المسلمين ؛ فذكر ذلك للنبي - ﷺ - فقال : « ما بضع سنين عندكم ؟ » قالوا : دون العشر . قال : « اذهب فزايدهم وازدد سنتين في الأجل » . قال : فما مضت السنتان حتى جاءت الركبان بظهور الروم على فارس . ففرح المؤمنون بذلك .

وقد وردت في هذا الحادث روايات كثيرة اخترنا منها رواية الإمام ابن جرير . وقبل أن نتجاوز الحادث إلى ما وراءه في السورة من التوجيهات نحب أن نقف أمام بعض إيحاءاته القوية .

وأول هذه الإيحاءات ذلك الترابط بين الشرك والكفر في كل مكان وزمان أمام دعوة التوحيد والإيمان . ومع أن الدول قديماً لم تكن شديدة الاتصال . والأمم لم تكن وثيقة الارتباط كما هو الشأن في عصرنا الحاضر . مع هذا فإن المشركين في مكة كانوا يحسّون أن انتصار المشركين في أي مكان على أهل الكتاب هو انتصار لهم ، وكان المسلمون كذلك يحسون أن هناك ما يربطهم بأهل الكتاب ، وكان يسوءهم أن ينتصر المشركون في أي مكان ؛ وكانوا يدركون أن دعوتهم وأن قضيتهم ليست في عزلة عما يجري في أنحاء العالم من حولهم ، ويؤثّر في قضية الكفر والإيمان .

وهذه الحقيقة البارزة هي التي يغفل عنها الكثيرون من أهل زماننا ، ولا ينتبهون إليها كما انتبه المسلمون والمشركون في عصر رسول الله ﷺ منذ حوالي أربعة عشر

قرناً . ومن ثَمَّ ينحصرون داخل حدود جغرافية أو جنسية ؛ ولا يدركون أن القضية في حقيقتها هي قضية الكفر والإيمان ؛ وأن المعركة في صميمها هي المعركة بين حزب الله وحزب الشيطان .

وما أحوج المسلمين اليوم في جميع بقاع الأرض أن يدركوا طبيعة المعركة وحقيقة القضية ؛ فلا تلهيهم عنها تلك الأعلام الزائفة التي تتستّر بها أحزاب الشرك والكفر ، فإنهم لا يحاربون المسلمين إلا على العقيدة ، مهما تنوّعت العلل والأسباب .

والإيحاء الآخر هو تلك الثقة المطلقة في وعد الله ، كما تبدو في قولة أبي بكر - رضي الله عنه - في غير تلعثم ولا تردد ، والمشركون يعجبونه من قول صاحبه ؛ فما يزيد على أن يقول : صدق . ويراهنونه فيراهن وهو واثق . ثم يتحقق وعد الله ، في الأجل الذي حدده : ﴿ **في بضع سنين** ﴾ .. وهذه الثقة المطلقة على هذا النحو الرائع هي التي ملأت قلوب المسلمين قوة ويقيناً وثباتاً في وجه العقبات والآلام والمحن ، حتى تمت كلمة الله ، وحقّ وعد الله .وهي عدة كل ذي عقيدة في الجهاد الشاق الطويل .

والإيحاء الثالث هو في تلك الجملة المعترضة في مساق الخبر ، من قول الله سبحانه : ﴿ **لله الأمر من قبل ومن بعد** ﴾ . والمسارعة برد الأمر كله لله . في هذا الحادث وفي سواه . وتقرير هذه الحقيقة الكلية ، لتكون ميزان الموقف وميزان كل موقف . فالنصر والهزيمة ، وظهور الدول ودثورها ، وضعفها وقوتها . شأنه شأن سائر ما يقع في هذا الكون من أحداث ومن أحوال ، مرده كله إلى الله ، يصرّفه كيف شاء ، وفق حكمته ووفق مراده . وما الأحداث والأحوال إلا آثار لهذه الإرادة المطلقة ، التي ليس لأحد عليها من سلطان) .

٣ - وقال صاحب الظلال عند قوله تعالى : ﴿ **لله الأمر من قبل ومن بعد** ﴾ إلى ﴿ **ينصر من يشاء** ﴾ :

(فالأمر له من قبل ومن بعد . وهو ينصر من يشاء . لا مقيد لمشيئته سبحانه . والمشيئة التي تريد النتيجة هي ذاتها التي تيسِّر الأسباب . فلا تعارض بين تعليق النصر بالمشيئة ووجود الأسباب . والنواميس التي تصرّف هذا الوجود كله صادرة عن المشيئة الطليقة . وقد أرادت هذه المشيئة أن تكون هناك سنن لا تتخلّف ؛ وأن تكون هناك

نظم لها استقرار وثبات . والنصر والهزيمة أحوال تنشأ عن مؤثِّرات ، وفق تلك السنن التي اقتضتها تلك المشيئة الطليقة .

والعقيدة الإسلامية واضحة ومنطقية في هذا المجال . فهي ترد الأمر كله إلى الله . ولكنها لا تعفي البشر من الأخذ بالأسباب الطبيعية التي من شأنها أن تظهر النتائج إلى عالم الشهادة والواقع . أما أن تتحقق تلك النتائج فعلاً أو لا تتحقق فليس داخلاً في التكليف ، لأن مرد ذلك في النهاية إلى تدبير الله . ولقد ترك الأعرابي ناقته طليقة على باب مسجد رسول الله ﷺ ودخل يصلّي قائلاً : (توكلت على الله) فقال له رسول الله ﷺ : « اعقلها وتوكّل » . فالتوكّل في العقيدة الإسلامية مقيّد بالأخذ بالأسباب ، ورد الأمر بعد ذلك إلى الله) .

٤ - وبمناسبة قوله تعالى ﴿ **وهم عن الآخرة هم غافلون** ﴾ قال صاحب الظلال : (والغفلة عن الآخرة تجعل كل مقاييس الغافلين تختل ؛ وتؤرجح في أكفّهم ميزان القيم ؛ فلا يملكون تصور الحياة وأحداثها وقيمها تصوراً صحيحاً ؛ ويظل علمهم بها ظاهراً سطحياً ناقصاً ، لأن حساب الآخرة في ضمير الإنسان يغيِّر نظرته لكل ما يقع في هذه الأرض . فحياته على الأرض إن هي إلا مرحلة قصيرة من رحلته الطويلة في الكون . ونصيبه في هذه الأرض إن هو إلا قدر زهيد من نصيبه الضخم في الوجود . والأحداث والأحوال التي تتم في هذه الأرض إن هي إلا فصل صغير من الرواية الكبيرة . ولا ينبغي أن يبني الإنسان حكمه على مرحلة قصيرة من الرحلة الطويلة ، وقدر زهيد من النصيب الضخم ، وفصل صغير من الرواية الكبيرة !

ومن ثَمَّ لا يلتقي إنسان يؤمن بالآخرة ويحسب حسابها ، مع آخر يعيش لهذه الدنيا وحدها ولا ينتظر ما وراءها . لا يلتقي هذا وذاك في تقدير أمر واحد من أمور هذه الحياة ، ولا قيمة واحدة من قيمها الكثيرة ؛ ولا يتّفقان في حكم واحد على حادث أو حالة أو شأن من الشؤون . فلكل منهما ميزان ، ولكل منهما زاوية للنظر ، ولكل منهما ضوء يرى عليه الأشياء والأحداث والقيم والأحوال .. هذا يرى ظاهراً من الحياة الدنيا ؛ وذلك يدرك ما وراء الظاهر من روابط وسنن ، ونواميس شاملة للظاهر والباطن ، والغيب والشهادة ، والدنيا والآخرة ، والموت والحياة ، والماضي والحاضر والمستقبل ، وعالم الناس والعالم الأكبر الذي يشمل الأحياء وغير الأحياء .. وهذا هو الأفق البعيد الواسع الشامل الذي ينقل الإسلامُ البشريةَ إليه ؛ ويرفعها فيه إلى المكان

الكريم اللائق بالإنسان . الخليفة في الأرض . المستخلف بحكم ما في كيانه من روح الله) . أي روح خلقها الله ونسبها لذاته تشريفاً .

كلمة في السياق :

هذه الآيات مدخل إلى السورة . فمن خلال رؤية صِدق الله عز وجل في تحقق موعوده الذي ذكرته هذه الآيات وهو انتصار الروم على الفرس . يذكّر الله عز وجل الخلق بأن وعده كله لا بد أن يتحقق ، ومن ذلك وعده بقيام الساعة . فَذِكْرُ الله عز وجل موضوع الروم - وهو معجزة - مدخل للكلام عن وعده الكبير بإقامة اليوم الآخر ، ومدخل للكلام عن اليوم الآخر . ومن ثَمَّ نلاحظ أن السياق يبدأ بعد ذلك بإثارة تفكير الإنسان للوصول إلى الإيقان بالآخرة كما سنرى في قوله تعالى : ﴿ **أوَلَمْ يتفكّروا في أنفسهم** ... ﴾ وقبل أن ننتقل إلى المجموعة الثانية من مقدمة السورة فلنذكر بعض الفوائد المتعلّقة بما مرّ .

فوائد :

١ - ذكر ابن كثير روايات كثيرة حول موضوع إنزال الآيات الأولى من سورة الروم ، وفيها رهان أبي بكر والمشركين ، ونحن نجتزىء من مجموع كلامه مقدّمة كلامه والرواية الأولى من رواياته ، قال : (نزلت هذه الآيات حين غلب سابور ملك الفرس على بلاد الشام ، وما والاها من بلاد الجزيرة ، وأقاصي بلاد الروم ، فاضطر هرقل ملك الروم حتى ألجأه إلى القسطنطينية ، وحاصره فيها مدة طويلة ، ثم عادت الدولة لهرقل كما سيأتي . وروى الإمام أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : ﴿ **الٓمٓ * غلبت الروم في أدنى الأرض** ﴾ قال : غُلبت وغَلبت ، وقال : كان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم لأنهم أصحاب أوثان . وكان المسلمون يحبّون أن تظهر الروم على فارس لأنهم أهل كتاب ، فذكر ذلك لأبي بكر ، فذكره أبو بكر لرسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : « أما إنهم سَيَغْلِبون » فذكره أبو بكر لهم فقالوا : اجعل بيننا وبينك أجلاً فإن ظهرنا كان لنا كذا وكذا ، وإن ظهرتم كان لكم كذا وكذا ، فجعل أجل خمس سنين ، فلم يظهروا ، فذكر أبو بكر لرسول الله ﷺ فقال : « ألا جعلتها إلى دون - أراه قال - لعشر » قال سعيد بن جبير : البضع : ما دون العشر ، ثم ظهرت الروم بعد ، قال : فذلك قوله : ﴿ **الٓمٓ * غُلبت الروم * في أدنى الأرض**

وهم من بعد غلبهم سيغلبون ﴾ إلى قوله ﴿ **وهو العزيز الرحيم** ﴾ .

وقد علّق النسفي على مقدمة سورة الروم وموضوع رهان أبي بكر بقوله :

(وهذه آية بينة على صحة نبوّته ﷺ وأنّ القرآن من عند الله ، لأنّها إنباء عن علم الغيب ، وكان ذلك قبل تحريم القمار ، هذا عن قتادة . ومن مذهب أبي حنيفة ومحمّد : أنّ العقود الفاسدة كعقد الربا وغيره جائزة في دار الحرب بين المسلمين والكفار ، وقد احتجّا على صحة ذلك بهذه القصة) .

٢ - قال ابن كثير : (وكانت نصرة الروم على فارس يوم وقعة بدر في قول طائفة كثيرة من العلماء كابن عباس والثوري والسدي وغيرهم ، وقد ورد في الحديث الذي رواه الترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم والبزار من حديث الأعمش عن عطية عن أبي سعيد قال : لما كان يوم بدر ظهرت الروم على فارس ، فأعجب ذلك المؤمنين ، ففرحوا به ، وأنزل الله : ﴿ **ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم** ﴾ . وقال الآخرون : بل كان نصر الروم على فارس عام الحديبية) .

أقول : وعلى القول بأن انتصار الروم على فارس كان سنة بدر ففي الآيات ثلاثة إنباءات عن الغيب : أن الروم سيغلبون ، وأن ذلك كائن خلال بضع سنين ، وأنّ عام نصرهم سيكون نصراً للمسلمين أيضاً . وكل ذلك على خلاف ما يتوقعه المتوقعون ساعة نزول النّص ، فهذه من أعظم معجزات القرآن التي تدل على أنه من عند الله .

٣ - في قوله تعالى عن الكافرين : ﴿ **يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا** ﴾ نوع من الإخبار عن الواقع الذي يزداد وضوحه على مدى المستقبل ، فهو نوع من الإخبار بالغيب . وها أنت ترى في عصرنا كيف أن الكافرين عرفوا من ظواهر الحياة الدنيا ومظاهرها الكثير ، ولكنهم في أمور الغيب والآخرة ، والدين والسلوك متناقضون جاهلون جاهليون .

وبمناسبة هذه الآية قال ابن كثير : (قال الحسن البصري : والله ليبلغ من أحدهم بدنياه أنّه يقلّب الدرهم على ظفره فيخبرك بوزنه وما يحسن أن يصلي . وقال ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ **يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون** ﴾ يعني الكفار يعرفون عمران الدنيا وهم في أمر الدين جُهّال) .

المجموعة الثانية من المقدمة

وتمتد من الآية (٨) إلى نهاية الآية (١٠) وهذه هي :

أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴿٨﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾

كلمة في السياق :

هذه المجموعة تكاد تكون تعليقاً على الآية الأخيرة في المجموعة الأولى من المقدمة ؛ فالآية الأخيرة قالت عن الكفار ﴿ **يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون** ﴾ ثمّ قامت هذه الآيات لتهيّج على التفكير ولتبعث على النّظر .

التفسير :

﴿ **أوَلم يتفكروا في أنفسهم** ﴾ أي : أوَ لم يثبتوا التّفكر في أنفسهم ، أو : أوَ لم يتفكروا في أنفسهم التي هي أقرب إليهم من غيرها من المخلوقات ، وهم أعلم بأحوالها منهم بأحوال ما عداها ، فيتدبروا ما أودعها الله ظاهراً وباطناً ، من غرائب الحكمة الدالة على التدبير دون الإهمال ، وأنه لا بدّ لها من الانتهاء إلى وقت تُجازى فيه على الإحسان إحساناً وعلى الإساءة مثلها ، حتى يعلموا عند ذلك أن سائر الخلائق كذلك أمرها ، جار على الحكمة في التدبير ، وأنه لا بد لها من الانتهاء إلى ذلك الوقت : ﴿ **ما خلق الله السموٰات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى** ﴾ أي أفلم

يتفكروا فيعلموا هذين الشيئين : أنّ الله خلق السمٰوات والأرض وما بينهما ، مقرونة بالحق ، مصحوبة بالحكمة ، وبتقدير أجل مسمّىً لا بدّ لها من أن تنتهي إليه ، وهو قيام الساعة ، ووقت الحساب والثواب والعقاب ، والمعنى : أن من تفكر في خلق السمٰوات والأرض وما بينهما ، لا بد أن يصل إلى هاتين النتيجتين : أن السمٰوات والأرض مخلوقة لحكمة ، وأن لهما أجلاً فلا يمكن أن يبقى نظام هذا الكون على ما هو عليه إلى ما لا نهاية وذلك لا يختلف عليه اثنان من علماء الكون الآن . فمن نظر نظرة صحيحة في الكون لا بدّ أن يصل إلى هذه النّتيجة : أنّه مصنوع بالحق ، وأنّ له أجلاً ، وهذا وهذا يقتضيان وجود اليوم الآخر . ومن ثَمَّ ختم الله عز وجل الآية بقوله : ﴿ **وإن كثيراً من الناس بلقاء ربهم** ﴾ أي بالبعث والجزاء ﴿ **لكافرون** ﴾ أي لجاحدون . وبعد أن أقام الحجة على مجيء اليوم الآخر وعظ الكافرين بقوله :

﴿ **أَوَلم يسيروا في الأرض** ﴾ قال ابن كثير : أي بأفهامهم وعقولهم ونظرهم وسماع أخبار الماضين . وقال النسفي : هو تقرير لسيرهم في البلاد ... ﴿ **فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم** ﴾ كيف دُمّروا واستؤصلوا كعاد وثمود وغيرهم من الأمم العاتية ﴿ **كانوا أشدّ منهم قوة** ﴾ بأجسامهم ﴿ **وأثاروا الأرض** ﴾ أي وحرثوها ﴿ **وعمروها** ﴾ أي وعمرها هؤلاء المدمّرون ﴿ **أكثر مما عمروها** ﴾ أي أكثر مما عمرها هؤلاء المكذبون ﴿ **وجاءتهم رسلهم بالبينات** ﴾ فلم يؤمنوا فأهلكوا ﴿ **فما كان الله ليظلمهم** ﴾ أي فما كان تدميره إياهم ظلماً لهم ﴿ **ولكن كانوا أنفسهم يظلمون** ﴾ أي ولكنهم ظلموا أنفسهم حيث عملوا ما أوجب تدميرهم ﴿ **ثم كان عاقبة الذين أساؤوا السوأىٰ** ﴾ أي إنهم عوقبوا في الدنيا ثم كانت عاقبتهم العقوبة التي هي أسوأ العقوبات في الآخرة وهي النار التي أُعدت للكافرين ﴿ **أن كذّبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزؤون** ﴾ أي ثم كان عاقبة الكافرين النار لتكذيبهم بآيات الله واستهزائهم بها .

فوائد :

١ - السوأى : هي تأنيث الأسوأ وهو الأقبح ، كما أن الحسنى تأنيث الأحسن .

٢ - في قوله تعالى عن الماضين : ﴿ **كانوا أشدّ منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها** ﴾ مظهر من مظاهر الإعجاز في هذا القرآن ، إذ تجد النص يسع الزمان والمكان ، فعندما ننظر إلى أن التفاضل بين قوة قريش وإثارتها الأرض

وعمارتها ، وبين ثمود وعاد ، فإن التفاضل قائم ، وهذا أضيق ما يفهم به النص ، وفي عصرنا حيث عرفنا من آثار الأقدمين الكثير ، نجد أن النص ينطبق على الحياة البشرية كلها ، فمن رأى سدَّ الصين والأهرامات ، وآثار النوبة ، وبقايا آثار الرومان ، وشبكة المياه الجوفية في بلاد الشام ، وعَرف أن هناك مناطق - هي الآن قاحلة - كانت من أخصب بقاع الدنيا ، عرف أن إثارة الماضين للأرض ، وعمارتهم لها ، كانت أكثر ، وهذا شيء وموضوع التقدّم الصناعي شيء آخر ..

٣ - إنّ من مظاهر الإعجاز في القرآن أنك لا تجد فيه أثراً للضعف البشري ، وأنّك تحس أنّ صاحب هذا الكلام محيط علماً بكلّ شيء ، وأنّ كثيراً من الأمور ما كانت لتكون فيه لولا أنّه من عند الله ، فلو أنّ هذا القرآن من عند محمّد ﷺ - كما يزعم الكافرون - لما وجد فيه مثل هذا الإخبار عن مستقبل الصراع بين فارس والرّوم ، إنّ محمّداً ﷺ - وهو أعقل خلق الله - ما كان ليعرض نفسه ودعوته لامتحان لولا أنّ الأمر ربانيّ المصدر ، والذين يشتغلون في قضايا البيان يعرفون الحدود التي يمكن أن تنطلق فيها آفاق الإنسان ، فكتاب يتحدّث عن البحث عن نشأة الحياة : ﴿ **قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق** ﴾ ويتحدث عن القدماء بحق وصدق ﴿ **كانوا أشدّ منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها** ﴾ ويتحدّث عن الكليّات ، كما يتحدّث عن الجزئيات ، لا يمكن أن يكون أثراً عن الجزيرة العربية أبداً ، في أيّ منطق عاقل .

ادرس الإنتاج البشري المعاصر فكم من إنسان ينطلق في عصرنا للحديث عن الكليات الكبرى ؟ وإذا وجدت بعض من يتكلم ، فما هي حدود كلامه ، وفي أي جانب ؟

أما القرآن الكريم فالأمر فيه مختلف تماماً وهذه كذلك بعض مظاهر الإعجاز .

....

كلمة في السياق :

١ - استدلت المجموعة الأولى من مقدمة سورة الروم بوقوع موعود الله في شأن الروم على وقوع موعوده في شأن الساعة ؛ فقدمت السورة بذلك الدليل الأول على اليوم الآخر . إنّ اليوم الآخر قد وعد الله عز وجل به ، وكل وعد لله لا بدّ من أن

يتحقق ، وفي قصة الروم نموذج ، ومع قوّة هذا الدليل فإن موقف أكثر الخلق من اليوم الآخر الكفر والغفلة . ومن ثَمَّ أقام الله عز وجل الحجة عليهم مرة ثانية ، ووعظهم في المجموعة الثانية .

٢ - في المجموعة الأولى من المقدمة ذكر أن أكثر الناس لا يعرفون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا . وفي المجموعة الثانية ذكر مظهراً من مظاهر المعرفة الظاهرة الكثيرة للحياة الدنيا عند الماضين ، وكيف أنهم عوقبوا ودمّروا وكان مصيرهم النار ، وفي ذلك موعظة وإقامة حجة . وهكذا أقام الله الحجة بعد الحجة على مجيء اليوم الآخر في المقدمة ، وها نحن بعد المقدمة أمام ظاهرة تتكرّر : إنّك تجد آيات في السورة مبدوءة باسم الجلالة (الله) .

﴿ **الله يبدأ الخلق ثم يعيده ثم إليه ترجعون** ﴾ [آية : ١١] .

ثم تجد الآية (٤٠) تقول : ﴿ **الله الذي خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء سبحانه وتعالى عما يشركون** ﴾ .

ثم تجد الآية (٤٨) تقول : ﴿ **الله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفاً فترى الودق يخرج من خلاله ...** ﴾ .

ثم تجد الآية (٥٤) تقول : ﴿ **الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير** ﴾ .

وفي كل مرة تجد آية مبدوءة باسم الجلالة (**الله**) تجد حجة جديدة في موضوع اليوم الآخر ، فكأن السورة بعد المقدمة مؤلفة من مقاطع : علامة المقطع ابتداؤه بكلمة (الله) ، وهذا يفيد أن موضوع اليوم الآخر مرتبط بموضوع الإيمان بالله ومعرفته ، فهما موضوعان لا ينفصلان كما أثبتنا ذلك في كتابنا (الإسلام) من سلسلة الأصول الثلاثة في فصله الأخير . فإذا اتضح هذا نقول : إن السورة تتألف من مقدمة وأربعة مقاطع .

المقدمة هي ما رأيناه والمقاطع الأربعة كل منها مبدوء بلفظ الجلالة (الله) وموضوعها الرئيسي هو اليوم الآخر . فلنر المقطع الأوّل من السّورة .

المقطع الأول

ويمتد من الآية (١١) إلى نهاية الآية (٣٩) وهذا هو :

المجموعة الأولى

ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ
ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُا۟ وَكَانُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ
﴿١٣﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْءَاخِرَةِ
فَأُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ
﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ
ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ
تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾

المجموعة الثانية

وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ
ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً
وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ

ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبۡتِغَآؤُكُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ
لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ
مَآءٗ فَيُحۡيِۦ بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنۡ
ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ بِأَمۡرِهِۦۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمۡ دَعۡوَةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ إِذَآ
أَنتُمۡ تَخۡرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي
يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ
وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٢٧﴾

المجموعة الثالثة

ضَرَبَ لَكُم مَّثَلٗا مِّنۡ أَنفُسِكُمۡۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم مِّن
شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ فَأَنتُمۡ فِيهِ سَوَآءٞ تَخَافُونَهُمۡ كَخِيفَتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ
ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ فَمَن يَهۡدِي
مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ
ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ
لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٠﴾ مُنِيبِينَ إِلَيۡهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ
﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾

المجموعة الرابعة

وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً
إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ
﴿٣٤﴾ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَآ
أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُواْ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ
يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ
لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ذَٰلِكَ
خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ
فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ
هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾

تفسير المجموعة الأولى

﴿ **الله يبدأ الخلق** ﴾ أي ينشئهم ﴿ **ثم يعيده** ﴾ أي يحييهم بعد الموت . أي كما هو قادر على بداءة الخلق فهو قادر على إعادته ﴿ **ثم إليه ترجعون** ﴾ يوم القيامة فيجازي كل عامل بعمله .

كلمة في السياق :

بهذه الآية أقام الله الحجة على مجيء اليوم الآخر ، فما دام الله عز وجل هو الذي بدأ الخلق - وهذه مسلّمة تقوم عليها الأدلة كلها كما برهنّا على ذلك في كتابنا (الله

جل جلاله) في ظاهرة الحدوث - فهو عز وجل قادر على إعادته . ومن ثَمَّ فهو قادر على إعادة البشر ، ومن ثَمَّ فهم راجعون إليه ، فإذا استقر ذلك ، وقامت الحجة يحدثنا الله عز وجل الآن عن مآل الكافرين المجرمين ، ثم عن مآلهم ومآل المؤمنين :

﴿ **ويوم تقوم الساعة يُبْلِسُ** ﴾ أي ييئس ويتحيّر ، ويفتضح ويكتئب ﴿ **المجرمون** ﴾ أي المشركون ﴿ **ولم يكن لهم من شركائهم** ﴾ أي من الذين عبدوهم من دون الله ﴿ **شفعاء** ﴾ أي ما شفعت فيهم هذه الآلهة التي كانوا يعبدونها من دون الله تعالى ، وكفروا بهم وخذلوهم أحوج ما كانوا إليهم ﴿ **وكانوا بشركائهم كافرين** ﴾ أي يكفرون بآلهتهم ويجحدونها يوم القيامة ، أو وكانوا في الدنيا كافرين بسبب هذه الآلهة المزعومة ﴿ **ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون** ﴾ أي يتفرق الناس إلى مسلمين وكافرين . قال قتادة : هي والله الفرقة التي لا اجتماع بعدها ، يعني : إنه إذا رفع هذا إلى عليين ، وخفض هذا إلى أسفل سافلين فتلك الفرقة ﴿ **فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم في روضة** ﴾ أي في جنة ﴿ **يُحْبَرون** ﴾ أي يسرون . قال مجاهد وقتادة أي : ينعمون . وقال يحيىٰ بن أبي كثير : يعني سماع الغناء . قال ابن كثير : والحبرة أعمّ من هذا كله ﴿ **وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة** ﴾ أي بالبعث ﴿ **فأولئك في العذاب محضرون** ﴾ أي مقيمون لا يغيبون عنه ولا يخفف عنهم ، ثم لما ذكر الوعد والوعيد أتبعه بذكر ما يوصل إلى الوعد وينجي من الوعيد ﴿ **فسبحان الله** ﴾ المراد بالتسبيح ظاهره الذي هو تنزيه الله عن السوء ، والثناء عليه بالخير في هذه الأوقات لما يتجدّد فيها من نِعَم الله الظاهرة . أو المراد بالتسبيح الإشارة إلى الصلوات في هذه الأوقات ﴿ **فسبحان الله حين تمسون** ﴾ دخل في ذلك صلاة المغرب والعشاء ﴿ **وحين تصبحون** ﴾ أي في صلاة الفجر ﴿ **وله الحمد في السمٰوات والأرض** ﴾ حقاً له على المميزين كلهم من أهل السمٰوات والأرض أن يحمدوه ﴿ **وعشياً** ﴾ أي صلاة العصر ﴿ **وحين تُظهرون** ﴾ أي صلاة الظهر ﴿ **يُخرج الحيّ من الميت** ﴾ أي يُخرج النطفة من الغذاء الذي أصله تراب وهواء ، أو يُخرج المؤمن من الكافر ﴿ **ويخرج الميت من الحي** ﴾ كالخلايا الميتة من الجسد الحي أو الكافر من المؤمن ﴿ **ويحيي الأرض** ﴾ بالنبات ﴿ **بعد موتها** ﴾ أي يبسها ﴿ **وكذلك تُخرَجون** ﴾ أي ومثل ذلك الإخراج تخرجون من قبوركم ، والمعنى : إن الإبداء والإعادة يتساويان في قدرة من هو قادر على إخراج الميت من الحي وعكسه .

كلمة في السياق :

١ - بدأ المقطع بقوله تعالى : ﴿ **الله يبدأ الخلق ثم يعيده ثم إليه ترجعون** ﴾ وانتهت المجموعة الأولى منه وهي ما مر بقوله تعالى : ﴿ **يُخرج الحي من الميت ويُخرج الميت من الحي ويُحيي الأرض بعد موتها وكذلك تُخرجون** ﴾ بدأت المجموعة بالتدليل على اليوم الآخر . وانتهت بالتدليل على اليوم الآخر . وذكرت في الوسط حال الكافرين والمؤمنين يوم القيامة . وذكّرت باستحقاق الله عز وجل التسبيح والتقديس والحمد . فدلت بذلك على طريق النجاة . والتذكير بتقديس الله في هذا السياق فيه إشارة إلى أن في إقامة اليوم الآخر نعمة عظيمة جليلة خطيرة إذ وجود اليوم الآخر مظهر من مظاهر عدل الله وحكمته . وأثر عن كرمه وانتقامه ، فاقتضى ذلك من المكلّف تسبيحاً وحمداً .

٢ - إنّ سورة الروم وإن كانت تفصّل بشكل رئيسي في قوله تعالى من مقدمة سورة البقرة ﴿ **وبالآخرة هم يوقنون** ﴾ إلا أنّها مع ذلك تفصّل في المقدمة كلها ، فالكلام عن الله عز وجل له صلة بقوله تعالى : ﴿ **الذين يؤمنون بالغيب** ﴾ والكلام عن الصلوات الخمس في قوله تعالى : ﴿ **فسبحان الله حين تمسون** ... ﴾ له صلة بقوله تعالى : ﴿ **ويقيمون الصلاة** ﴾ ... فما أعظم هذا القرآن الذي وصفه الله عز وجل بقوله : ﴿ **ولقد وصّلنا لهم القول لعلّهم يتذكرون** ﴾ [القصص : ٥١] .

٣ - لمّا كان الإيمان باليوم الآخر فرع الإيمان بالله ، ولمّا كان التدليل على وجود الله وصفاته وأسمائه هو الأساس في التدليل على اليوم الآخر ، فإن المجموعة الثانية في هذا المقطع ، تأتي لتعرض علينا بعض آيات الله الدالّة عليه لتبني عليها ما يعمّق الإيمان باليوم الآخر .

وقبل أن نرى المجموعة الثانية من المقطع الأول فلننقل بين يدي ذلك هذا النقل :

نقل :

قال صاحب الظلال بين يدي الآية التي مرّت معنا والآيات التي ستمر في المجموعة الثانية ما يلي :

(إنها جولة ضخمة هائلة ، لطيفة عميقة ، بعيدة الآماد والأغوار . جولة تطوّف بالقلب البشري في الأمسيات والأصباح ، والسماوات والأرض ، والعشي والأظهار ،

وتفتح هذا القلب لتدبّر الحياة والموت والعمليات الدائبة في النشوء والدثور . وترتد به إلى نشأة الإنسان الأولى ، وإلى ما رُكب في فطرته من ميول ونوازع ، وقوى وطاقات ، وما يقوم بين زوجيه من علائق وروابط ، وفق تلك الميول والنوازع وهذه القوى والطاقات . وتوجهه إلى آيات الله في خلق السماوات والأرض واختلاف الألسنة والألوان وفقاً لاختلاف البيئة والمكان . وإلى تدبّر ما يعتري الكائن البشري من نوم ويقظة وراحة وكد . وإلى ما يعتري الكون من ظواهر البرق والمطر ، وما تثيره في نفوس البشر من خوف وطمع ، وفي بنية الأرض من حياة وازدهار . وتمضي هذه الجولة العجيبة في النهاية بالقلب البشري إلى قيام السماوات والأرض في هذا كله بأمر الله ؛ وإلى توجه من في السماوات والأرض كلهم لله . وتنتهي بالحقيقة التي تتجلى حينئذ واضحة هينة يسيرة : إن الله هو يُبدىء ويعيد . والإعادة أهون عليه . وله المثل الأعلى في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم) .

وهذا أوان عرض المجموعة الثانية من المقطع الأول .



تفسير المجموعة الثانية

﴿ **ومن آياته** ﴾ الدالة على عظمته وكمال قدرته ﴿ **أن خلقكم من تراب** ﴾ أنه خلق أباكم آدم من تراب ، وخلقكم من تراب إذ خلقكم من غذاء ، وخلق الغذاء من تراب ﴿ **ثم إذا أنتم بشر تنتشرون** ﴾ أي تتصرَّفون فيما فيه معاشكم ﴿ **ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها** ﴾ أي حواء خُلقت من ضلع آدم عليه السلام ، والنّساء بعدها كذلك خُلقن من أصلاب الرجال ، أو من شكل أنفسكم وجنسها لا من جنس آخر ، وذلك لِمَا بين الجنس الواحد من الإلف والسكون ، وما بين الجنسين المختلفين من التنافر ﴿ **وجعل بينكم مودَّة ورحمة** ﴾ قال النسفي : التوادّ والتراحم بسبب الزواج ، وعن الحسن : المودة كناية عن الجماع والرحمة كناية عن الولد وقيل : المودة للشابّة والرحمة للعجوز . وقيل : المودة والرحمة من الله . والفرك من الشيطان : أي بغض المرأة زوجها ، وبغض الزوج المرأة ﴿ **إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون** ﴾ فيعلمون بتفكّرهم أن قوام الدنيا بوجود التناسل ، والتناسل يحتاج إلى عواطف وأنّ وجود هذا وتدبيره لا يمكن أن يكون إلا بالله ﴿ **ومن آياته** ﴾ الدالة على قدرته العظيمة ﴿ **خلق السمٰوات والأرض واختلاف ألسنتكم** ﴾ أي

اللغات ، أو أجناس النطق وأشكاله ﴿ **وألوانكم** ﴾ كالسواد والبياض وغيرهما ، فلاختلاف ذلك وقع التعارف ، وإلا فلو تشاكلت واتفقت لوقع التجاهل والالتباس ، ولتعطّلت المصالح ، وفي ذلك آية بيّنة حيث ولدوا من أب واحد وهم مع الكثرة التي لا يعلمها إلا الله متفاوتون ﴿ **إنّ في ذلك لآيات للعالمين** ﴾ فالعالمون يعلمون أنّ في ذلك دلالات كثيرة على الله عز وجل ﴿ **ومن آياته** ﴾ الدالّة على عظمته ﴿ **منامكم بالليل والنّهار وابتغاؤكم من فضله** ﴾ أي ومن آياته منامكم بالليل وابتغاؤكم من فضله بالنهار ﴿ **إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون** ﴾ سماع تدبّر بآذان واعية . **فهؤلاء** يرون في وجود الليل والنهار آيات كثيرة تدل على الله ﴿ **ومن آياته** ﴾ الدالة عليه ﴿ **يريكم البرق خوفاً وطمعاً** ﴾ أي خائفين وطامعين ﴿ **وينزّل من السماء** ﴾ أي من السحاب ﴿ **ماءً** ﴾ أي مطراً ﴿ **فيحيي به الأرض بعد موتها إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون** ﴾ أي الذين يستعملون عقولهم فلا يعطّلونها ، فمن تفكر بعقله في موضوع البرق وإنزال المطر ، رأى في ذلك آيات كثيرة تدلّه على الله ﴿ **ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره** ﴾ أي بإقامته وتدبيره وحكمته ﴿ **ثم إذا دعاكم** ﴾ للبعث ﴿ **دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون** ﴾ أي من قبوركم . والمعنى : ومن آياته قيام السمٰوات والأرض واستمساكها بغير عمد ، ثم خروج الموتى من القبور إذا دعاهم دعوة واحدة : يا أهل القبور اخرجوا . والمراد سرعة وجود ذلك من غير توقّف ، وإنّما جرى العطف على قيام السمٰوات والأرض بكلمة (ثمّ) بياناً لعظم ما يكون من ذلك الأمر واقتدار الله على مثله بأن يأمر أهل القبور بالقيام فلا تبقى نسمة من الأولين والآخرين إلا قامت تنظر ﴿ **وله مَنْ في السمٰوات والأرض كل له قانتون** ﴾ أي منقادون أو مقرون بالعبودية ﴿ **وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه** ﴾ أي البعث أيسر عليه عندكم ، لأن الإعادة عندكم أسهل من الإنشاء ، فَلِمَ أنكرتم الإعادة ﴿ **وله المثل الأعلى** ﴾ أي وله الوصف الأعلى الذي ليس لغيره ، وقد عُرف به ووُصف ﴿ **في السمٰوات والأرض** ﴾ على ألسنة الخلائق ، وألسنة الدلائل ، وهو أنه القادر الذي لا يعجز عن شيء من إنشاء وإعادة وغيرهما من المقدورات ﴿ **وهو العزيز** ﴾ أي القاهر لكل مقدور ﴿ **الحكيم** ﴾ الذي يجري كل فعل على مقتضى حكمته وعلمه .

نُقُول :

١ - عند قوله تعالى : ﴿ **ومن آياته خلق السمٰوات والأرض** ﴾ قال صاحب الظلال : (وآية خلق السماوات والأرض كثيراً ما يُشار إليها في القرآن ، وكثيراً ما نمرُّ

عليها سراعاً دون أن نتوقف أمامها طويلاً .. ولكنها جديرة بطول الوقوف والتدبر العميق .

إن خلق السماوات والأرض معناه إنشاء هذا الخلق الهائل الضخم العظيم الدقيق ؛ الذي لا نعرف عنه إلا أقل من القليل . هذا الحشد الذي لا يحصى من الأفلاك والمدارات والنجوم والكواكب والسدم والمجرات . تلك التي لا تزيد أرضنا الصغيرة عن أن تكون ذرة تائهة بينها تكاد أن تكون لا وزن لها ولا ظل ! ومع الضخامة الهائلة ذلك التناسق العجيب بين الأفلاك والمدارات والدورات والحركات ؛ وما بينها من مَسَافات وأبعاد تحفظها من التصادم والخلل والتخلف والاضطراب ؛ وتجعل كل شيء في أمرها بمقدار .

ذلك كله من ناحية الحجم العام والنظام ، فأما أسرار هذه الخلائق الهائلة وطبائعها وما يستكن فيها وما يظهر عليها ؛ والنواميس الكبرى التي تحفظها وتحكمها وتصرفها .. فهذا كله أعظم من أن يلم به الإنسان ؛ وما عرف عنه إلا أقل من القليل . ودراسة هذا الكوكب الصغير الضئيل الذي نعيش على سطحه لم يتم منها حتى اليوم إلا القليل !

هذه لمحة خاطفة عن آية خلق السماوات والأرض التي نمُرُّ عليها سراعاً . بينما نتحدّث طويلاً . وطويلاً جداً . عن جهاز صغير يركبه علماء الإنسان ؛ ويحتفظون فيه بالتناسق بين أجزائه المختلفة ، لتعمل كلها في حركة منتظمة دون تصادم ولا خلل فترة من الزمان ! ثم يستطيع بعض التائهين الضالين المنحرفين أن يزعم أن هذا الكون الهائل المنظم الدقيق العجيب وُجد واستمر بدون خالق مدبّر . ويجد من يستطيع أن يسمع لهذا الهراء من العلماء) .

٢ — عند قوله تعالى ﴿ **وله مَنْ في السمٰوات والأرض كلٌّ له قانتون** ﴾ قال صاحب الظلال : (ولقد نرى أن الكثيرين من الناس لا قانتين ولا عابدين . ولكن هذا التقرير إنّما يعني خضوع كل من في السماوات والأرض لإرادة الله ومشيئته التي تصرفهم وفق السنة المرسومة التي لا تتخلف ولا تحيد . فهم محكومون بهذه السنة ، ولو كانوا عصاة كافرين . إنّما تعصي عقولهم وتكفر قلوبهم ولكنهم مع هذا محكومون بالنّاموس ، مأخوذون بالسنة ، يتصّرف فيهم خالقهم وفق ما يريد تصرفه بباقي العبيد وهم لا يملكون إلا الخضوع والقنوت) .

٣ - للعلماء في أفعل التفضيل في قوله تعالى : ﴿ **وهو الذي يبدأ الخلق ثمّ يعيده وهو أهون عليه** ﴾ أكثر من اتجاه فبعضهم يرى أنّ (أهون) هنا بمعنى (هيّن) وإذن فليست (أهون) هنا آتية للتفضيل ، ومن العلماء من قال بأنّها للتفضيل ، والذين ذهبوا بأنّها للتفضيل فسّروا الآية التّفسير المناسب لذلك وهذا نموذج لتفسيرهم :

قال الألوسي :

(و « أهون » للتفضيل أي والإعادة أسهل على الله تعالى من المبدأ ، والأسهلية على طريقة التمثيل بالنسبة لما يفعله البشر مما يقدرون عليه ، فإن إعادة شيء من مادته الأولى أهون عليهم من إيجاده ابتداء ، والمراد التقريب لعقول الجهلة المنكرين للبعث وإلا فكل الممكنات بالنسبة إلى قدرته تعالى عز وجل سواء ، فكأنه قيل : وهو أهون عليه بالإضافة إلى قدركم والقياس على أصولكم) .

كلمة في السياق :

وهكذا دلّلت الآيات على وجود الله من خلال عرضها آياته التي تدل عليه ، وعلى كمال قدرته ، ثم قررت مرة ثالثة في هذا المقطع سهولة إعادة الخلق عليه . فعرّفتنا الآيات على الله وأقامت الحجة على مجيء اليوم الآخر .

ولقد رأينا من خلال السياق أن موضوع اليوم الآخر مرتبط بموضوع معرفة الله عز وجل ، وعلى هذا فلا يكون الخلل في التصورات عن اليوم الآخر إلا بسبب الخلل في معرفة الله عز وجل ، وأعظم خلل في معرفة الله هو الشرك ، لذلك كان هو العامل الأكبر في اختلال تصورات الإنسان عن اليوم الآخر . إنّ الملحد الذي أشرك بالله الطبيعة إذ خلع عليها صفات الله ، يكفر باليوم الآخر . والمشرك الذي آمن بإله مزعوم يأخذ عن سدنته وكهنته تسري إليه بسبب ذلك المغالطاتُ عن اليوم الآخر . ومن ثَمَّ تأتي الآن مجموعتان كل مجموعة تقيم الحجة على الشرك وأهله . والملاحظ أنّ في كلّ من المجموعتين إقامة حجة وأوامر ، فكلّ من المجموعتين منتهٍ بأوامر منبثقة عن التوحيد ومن هنا نفهم أن طاعة الأمر في الإسلام أثر عن الإيمان ، فالتوحيد يستتبع إيماناً بالله واليوم الآخر ، والإيمان بالله واليوم الآخر يستتبع طاعة والتزاماً ، والملاحظ أنّ الأوامر في المجموعة القادمة تنصبّ على جوانب في الإيمان والصلاة . وأن الأوامر في المجموعة التالية تنصب على الإنفاق ، وكل ذلك في سياق السورة التي تعمّق موضوع الإيمان باليوم الآخر ، فسياق السورة يربط بين الإيمان باليوم الآخر ، والصلاة والإنفاق ،

وكل ذلك منسجم مع موضوع الآيات الأولى من سورة البقرة :

﴿ الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ﴾ .

﴿ والذين يؤمنون بما أُنزل إليك وما أُنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون ﴾ .

فلنر المجموعتين الثالثة والرابعة من المقطع الأول .



تفسير المجموعة الثالثة

﴿ **ضرب لكم مثلاً من أنفسكم** ﴾ أي تشهدونه وتفهمونه من أقرب شيء منكم وهي أنفسكم ﴿ **هل لكم ممّا ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواء** ﴾ أي هل يرضى أحدكم أن يكون عبده شريكاً له في ماله ، فهو وهو فيه سواء أي متساوون ﴿ **تخافونهم كخيفتكم أنفسكم** ﴾ أي تخافون معاشر السادة عبيدكم فيها ، فلا تمضون فيها حكماً دون إذنهم خوفاً من لائمة تلحقكم من جهتهم ، كخيفتكم أنفسكم . أي كما يخاف بعض الأحرار بعضاً فيما هو مشترك بينهم ، فإذا لم ترضوا بذلك لأنفسكم فكيف ترضون لرب الأرباب ، ومالك الأحرار والعبيد ، أن تجعلوا بعض عبيده له شركاء . قال أبو مجلز : إن مملوكك لا تخاف أن يقاسمك مالك ، وليس له ذاك . كذلك الله لا شريك له . والمعنى : إن أحدكم يأنف من ذلك ، فكيف تجعلون لله الأنداد من خلقه ؟ .

قال ابن كثير : هذا مثل ضربه الله تعالى للمشركين به العابدين معه غيره ، الجاعلين له شركاء ، وهم مع ذلك معترفون أن شركاءه من الأصنام والأنداد عبيد له ، ملك له كما كانوا يقولون : (لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك ؟؟ ..) فنبه الله بهذا المثل على براءته تعالى ، ونزاهته عن الشريك ﴿ **كذلك** ﴾ أي مثل هذا التفصيل ﴿ **نفصّل الآيات** ﴾ أي نبيّنها لأنّ التمثيل يكشف المعاني ويوضّحها ﴿ **لقوم يعقلون** ﴾ أي يتدبرون الأمثال . ثم قال تعالى : ﴿ **بل اتّبع الذين ظلموا** ﴾ أنفسهم بما أشركوا ﴿ **أهواءهم** ﴾ أي في عبادتهم الأنداد ﴿ **بغير علم** ﴾ أي جاهلين ﴿ **فمن يهدي من أضل الله** ﴾ أي من أضله الله ، أي فلا أحد يهديهم إذا كتب الله ضلالهم ﴿ **وما لهم من ناصرين** ﴾ من العذاب . أي ليس لهم من قدرة الله منقذ ولا مجير ، لأنّه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن .

نقل :

قال صاحب الظلال عند قوله تعالى : ﴿ **ضرب لكم مثلاً من أنفسكم : هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواء ، تخافونهم كخيفتكم أنفسكم ؟ كذلك نُفصّل الآيات لقوم يعقلون** ﴾ :

(ضرب هذا المثل لمن كانوا يتخذون من دون الله شركاء خلقاً من خلقه : جناً أو ملائكة أو أصناماً أو أشجاراً . وهم لا يرتضون أن يشاركهم مواليهم في شيء مما تحت أيديهم من مال . ولا يسوون عبيدهم بأنفسهم في شيء من الاعتبار . فيبدو أمرهم عجباً . يجعلون لله شركاء من عبيده وهو الخالق الرازق وحده . ويأنفون أن يجعلوا لأنفسهم من عبيدهم شركاء في مالهم . ومالهم ليس من خلقهم إنما هو من رزق الله . وهو تناقض عجيب في التصور والتقدير .

وهو يفصّل لهم هذا المثل خطوة خطوة ﴿ **ضرب لكم مثلاً من أنفسكم** ﴾ ليس بعيداً عنكم ، ولا يحتاج إلى رحلة أو نقلة لملاحظته وتدبره ﴿ **هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواء ؟** ﴾ . وهم لا يرضون أن يشاركهم ما ملكت أيمانهم في شيء من الرزق فضلاً عن أن يساووهم فيه ﴿ **تخافونهم كخيفتكم أنفسكم** ﴾ . أي تحسبون حسابهم معكم كما تحسبون حساب الشركاء الأحرار ، وتخشون أن يجوروا عليكم ، وتتحرجوا كذلك من الجور عليهم ، لأنهم أكفاء لكم وأنداد ؟ هل يقع شيء من هذا في محيطكم القريب وشأنكم الخاص ؟ وإذا لم يكن شيء من هذا يقع فكيف ترضونه في حق الله وله المثل الأعلى ؟

وهو مثل واضح بسيط حاسم لا مجال للجدل فيه ، وهو يرتكن إلى المنطق البسيط وإلى العقل المستقيم : ﴿ **كذلك نفصّل الآيات لقوم يعقلون** ﴾) .

كلمة في السياق :

رأينا أن السياق قد سار حتى استقر على إقامة الحجة على الشرك بعد أن عرّف على الله ، وأقام الأدلة على أن اليوم الآخر حق ، وإذا استقر هذا كله يأتي الآن التوجيه بوجوب إقامة الوجه لدين الله وحده .

﴿ **فأقم وجهك للدين حنيفاً** ﴾ أي مائلاً عن الأديان كلها إلى الدين الحق ، أي فقوّم وجهك له ، وعدّله غير ملتفت عنه يميناً ولا شمالاً . قال النسفي : وهو تمثيل

لإقباله على الدين ، واستقامته عليه ، واهتمامه بأسبابه ، فإنّ من اهتم بالشيء عقد عليه طرفه وسدّد إليه نظره ، وقوّم له وجهه ﴿ **فطرة الله** ﴾ أي خلقة الله ﴿ **التي فطر الناس عليها** ﴾ أي خلقهم عليها ﴿ **لا تبديل لخلق الله** ﴾ أي ما ينبغي أن تبدّل تلك الفطرة أو تغيّر . والمعنى : إن إقامة الوجه للدين حنيفاً ، هذا هو الذي ينسجم مع الفطرة التي فطر النّاس عليها ، وأنّه لا أحد يستطيع أن يبدّل خلق الله ، فالفطرة البشرية منسجمة أبداً مع إقامة الدين لله حنيفاً ﴿ **ذلك الدين القيّم** ﴾ أي المستقيم . أي التمسّك بالشريعة والفطرة السليمة هو الدين القيم المستقيم ، أو الدين المستقيم هو الدين المتجاوب مع الفطرة البشرية المنسجم معها . وعلى هذا فمعنى الآية : أن الله خلق عباده قابلين للتوحيد والإسلام ، غير نائين عنه ، ولا منكرين له ، لكونه مجاوباً للعقل ، مساوقاً للنظر الصحيح ، حتى لو تُركوا لما اختاروا عليه ديناً آخر ، ومن غوى منهم فبإغواء شياطين الجن والإنس ﴿ **ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾ حقيقة ذلك فأكثر الخلق جاهلون أن الفطرة البشرية لا تنسجم إلا مع إقامة الوجه للدين حنيفاً . ثم أتمّ الله عز وجل الأمر والتوجيه بقوله : ﴿ **منيبين إليه** ﴾ أي راجعين إليه والمعنى : الزموا فطرة الله منيبين إليه أو فأقيموا وجوهكم للدين حنيفين منيبين إليه ، لأنّ الأمر له عليه الصلاة والسلام أمر لأمّته ، والأمر بالإنابة إليه في هذا السياق يوحي أن الإنابة إلى الله هي الخُلق الدائم المنسجم مع الفطرة ﴿ **واتقوه** ﴾ أي خافوه وراقبوه ﴿ **وأقيموا الصلاة** ﴾ أي أدوها في أوقاتها ، محافظين على فرائضها وسننها وآدابها ﴿ **ولا تكونوا من المشركين** ﴾ أي ممّن يشرك به غيره في العبادة ، بل كونوا من الموحِّدين المخلصين له العبادة لا يريدون بها سواه ﴿ **من الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعاً** ﴾ أي فرقاً كل واحدة تشايع إمامها الذي أضلّها ، أي لا تكونوا من المشركين الذين قد فرّقوا دينهم أي بدّلوه وغيّروه ، وآمنوا ببعض وكفروا ببعض . قال ابن كثير : وقرأ بعضهم : فارقوا دينهم أي تركوه وراء ظهورهم ، وهؤلاء كاليهود ، والنصارى ، والمجوس ، وعبدة الأوثان ، وسائر أهل الأديان الباطلة ، مما عدا أهل الإسلام ﴿ **كل حزب بما لديهم فرحون** ﴾ أي كل حزب منهم فرح بمذهبه مسرور يجد باطله حقاً . وقد دلّت الآية على أن الشرك رأس العلل : منه يحدث تفريق الدين والتفرق ، ومنه تنشأ العصبية للباطل .

كلمة في السياق :

الإيمان بالكتاب والإيمان باليوم الآخر ، يدخلان في الإيمان بالغيب ، بل رأس الإيمان

بالغيب الإيمان بالله واليوم الآخر ، وقد سار سياق سورة الروم معمّقاً الإيمان بالله واليوم الآخر ، حتى وصل إلى الأمر بإقامة الوجه للدين حنيفاً ، ثم أمر بالصلاة ، وها هي مجموعة أخرى تأتي ، وفيها أمر بالإنفاق ، ولذلك صلته بقوله تعالى في مقدمة سورة البقرة : ﴿ **الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون** ﴾ ولكن هذا التفصيل جاء في سياق السّورة الخاص الذي ينصبّ التفصيل فيه انصباباً أولياً على الإيمان باليوم الآخر .

☆ ☆ ☆

تفسير المجموعة الرابعة من المقطع الأول

﴿ **وإذا مسَّ الناس ضرّ** ﴾ أي شدّة من هزال أو مرض أو قحط أو غير ذلك ﴿ **دعوا ربهم منيبين إليه** ﴾ أي يعودون إلى ذروة التوحيد : وهو الدّعاء مع الإنابة ﴿ **ثم إذا أذاقهم منه رحمة** ﴾ أي خلاصاً من الشدة ﴿ **إذا فريق منهم بربهم يشركون** ﴾ في العبادة ﴿ **ليكفروا بما آتيناهم** ﴾ من النّعم ﴿ **فتمتعوا** ﴾بكفركم وهو أمر وعيد ﴿ **فسوف تعلمون** ﴾ وبال تمتعكم ، وبهذا أقام الله الحجة على المشركين من مواقفهم المتناقضة . فتارة موحدون ، وتارة مشركون ، يشركون في الرّخاء ، ويوحّدون في الشدة ، إن توحيدهم في الشدة دليل على أنهم مفتقرون إلى الله وحده ، وذلك من أعظم الأدلة على وجود الفطرة البشرية ، وعلى أنّها موحّدة في الأصل . وبعد أن هددهم على شركهم تابع السياق إقامة الحجة عليهم ﴿ **أم أنزلنا عليهم سلطاناً** ﴾ أي حجة ﴿ **فهو يتكلم بما كانوا به يشركون** ﴾ قال ابن كثير : وهذا استفهام إنكار ، أي لم يكن لهم شيء من ذلك ، فكيف يشركون ، ولا سلطان لهم من الله على الشرك وهم مفتقرون إلى الله وحده ، ولا يدعون غيره في الأزمات ، وبعد أن أقام السياق الحجةَ على فساد الشرك وإبطاله ، تابع السياقُ الحديثَ عن طبيعة الإنسان التي لا يلائمها إلا التوحيد .

﴿ **وإذا أذقنا الناس رحمة** ﴾ أي نعمة من مطر أو سعة أو صحة أو غير ذلك ﴿ **فرحوا بها** ﴾ أي بطروا بسببها ﴿ **وإن تصبهم سيئة** ﴾ أي بلاء من جدب أو ضيق أو مرض ﴿ **بما قدمت أيديهم** ﴾ أي بسبب شؤم معاصيهم ﴿ **إذا هم يقنطون** ﴾ من الرحمة . وهكذا نجد الطبيعة البشرية في حال نأيها عن الله مريضة في النّعمة والنّقمة . ومن ثَمَّ قال الله عز وجل : ﴿ **أوَلم يروا أنّ الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر** ﴾ أي ويضيّق . قال النسفي : أنكر عليهم بأنهم قد علموا بأنه القابض الباسط ، فما لهم

يقنطون من رحمته ، وما هم لا يرجعون إليه تائبين عن المعاصي التي عوقبوا بالشدّة من أجلها ، حتى يعيد إليهم رحمته . أقول : أو فما هم لا يتوبون ويرجعون إلى الله ، ويثقون بالله في الشدة ، ويشكرونه في الرخاء ، والله هو القابض الباسط ﴿ **إن في ذلك** ﴾ في البسط والقبض ﴿ **لآيات لقوم يؤمنون** ﴾ وهكذا أقامت الآيات الحجة على الشرك من خلال توحيد الإنسان لله في الشدة . ومن خلال عدم إعطاء الله سلطاناً لأحد في الشرك ، ومن خلال طبيعة الإنسان التي لا يواتيها إلا التوحيد ، ومن خلال ظاهرتي القبض والبسط في الرزق .

كلمة في السياق :

من إقامة الحجة على المشركين بالتوحيد يصل السياق في الآيات الآتية إلى الأمر بالإنفاق . وقد كان الجسر الذي عبر عليه السياق من التوحيد إلى الإنفاق هو آية ﴿ **أولم يَرَوْا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر** ﴾ فما دام الله هو الباسط القابض ؛ فأنفقوا في سبيله ، وما دام الله هو المنعم ؛ فأنفقوا في سبيله .

....

﴿ **فآت ذا القربى حقه** ﴾ أي اعط قريبك حقه من البرّ والصّلة ﴿ **والمسكين وابن السبيل** ﴾ أي اعطهما نصيبهما من الصدقة ، وابن السبيل هو المسافر المحتاج إلى نفقته وما يحتاج إليه في سفره ﴿ **ذلك** ﴾ إيتاء هؤلاء حقوقهم ﴿ **خير للذين يريدون وجه الله** ﴾ أي يقصدون بمعروفهم إياه ﴿ **وأولئك هم المفلحون** ﴾ في الدنيا والآخرة .

كلمة في السياق :

جاء في مقدمة سورة البقرة قوله تعالى : ﴿ **الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون** ﴾ ثم جاء قوله تعالى : ﴿ **والذين يؤمنون بما أُنزل إليك وما أُنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون** ﴾ ثم جاء قوله تعالى : ﴿ **أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون** ﴾ .

وقد رأينا أن سياق سورة الروم فصّل في قضية الإيمان بالله واليوم الآخر . ثم أمر بالصلاة . ثم فصّل في التوحيد . ثم أمر بالإنفاق بعد أن علل للأمر به وختم الآية بقوله تعالى : ﴿ **وأولئك هم المفلحون** ﴾ فهذه هي نفس الخاتمة التي ختمت بها الآيات الأولى من مقدمة سورة البقرة . ثم تأتي الآن آية أخيرة في المجموعة الأخيرة ، وفي المقطع

كله تبيّن وضع الطرفين المتقابلين : الربا والإنفاق عند الله فالربا هو مظهر الشح والبخل والجشع ، والإنفاق هو مظهر زكاة النفس وطهارتها وكرمها .

....

﴿ **وما آتيتم من رباً ليربوا في أموال الناس فلا يربوا عند الله** ﴾ أي وما أعطيتم أكلة الربا من رباً ليربوا في أموالهم ﴿ **فلايربوا عند الله** ﴾ أي فلا يزكو عند الله ولا يبارك فيه ، أو ما أعطيتم من مال بالربا ليزداد في أموال الناس ، فإنه لا يزداد عند الله بل الله يمحقه ، ولنا عودة على الآية في الفوائد ﴿ **وما آتيتم من زكاة** ﴾ أي من صدقة ﴿ **تريدون وجه الله** ﴾ أي تريدون بها وجهه خالصاً لا تطلبون بها مكافأة ولا رياء ولا سمعة ﴿ **فأولئك هم المضعفون** ﴾ أي هم ذوو الإضعاف من الحسنات . أي فأهلها هم الذين يضاعف لهم الثواب يعطون بالحسنة عشر أمثالها إلى ما شاء الله ، وبهذا انتهى المقطع الأول في السورة .

فوائد :

١ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون * وله الحمد في السموٰات والأرض وعشياً وحين تظهرون** ﴾ قال ابن كثير :

(وروى الإمام أحمد عن سهل بن معاذ بن أنس الجهني عن أبيه عن رسول الله ﷺ أنه قال : « ألا أخبركم لم سمّى الله إبراهيم خليله « الذي وفّىٰ ؟ » لأنه كان يقول كلّما أصبح وكلّما أمسى : سبحان الله حين تمسون وحين تصبحون ، وله الحمد في السموٰات والأرض وعشياً وحين تظهرون » . وروى الطبراني عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ قال : « من قال حين يصبح : سبحان الله حين تمسون وحين تصبحون ، وله الحمد في السموٰات والأرض وعشياً وحين تظهرون ، الآية بكمالها ، أدرك ما فاته في يومه ، ومن قالها حين يمسي أدرك ما فاته في ليلته ») .

٢ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون** ﴾ قال ابن كثير : (وروى الإمام أحمد عن أبي موسى قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض ، فجاء بنو آدم على قدر الأرض ، جاء منهم الأبيض والأحمر والأسود ، وبين ذلك ، والخبيث والسهل والحزن ، وبين ذلك ») .

٣ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم**

من فضله ﴾ . قال ابن كثير : روى الطبراني عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال : أصابني أرق من الليل فشكوت ذلك إلى رسول الله ﷺ فقال : « قل : اللهم غارت النجوم ، وهدأت العيون ، وأنت حي قيوم ، يا حي يا قيوم أَنِمْ عيني ، وأهدىء ليلي » فقلتها فذهب عني .

٤ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وله من في السمٰوات والأرض كلٌّ له قانتون** ﴾ قال ابن كثير : وفي حديث دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد مرفوعاً : « كل حرف في القرآن يذكر فيه القنوت فهو الطاعة » .

٥ - في قوله تعالى : ﴿ **وهو أهون عليه** ﴾ من آية ﴿ **وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه** ﴾ قال النسفي : (وقال أبو عبيدة والزجاج وغيرهما : (الأهون بمعنى الهين فيوصف به الله عز وجل ، وكان ذلك على الله يسيراً ، كما قالوا الله أكبر أي كبير ، والإعادة في نفسها عظيمة ، ولكنها هوِّنت بالقياس إلى الإنشاء ، أو هو أهون على الخلق من الإنشاء ، لأن قيامهم بصيحة واحدة أسهل من كونهم نطفاً ، ثم علقاً ، ثم مضغاً ، إلى تكميل خلقهم) .

٦ - وعند قوله تعالى : ﴿ **وله المثل الأعلى في السمٰوات والأرض** ﴾ قال ابن كثير : قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس كقوله تعالى : ﴿ **ليس كمثله شيء** ﴾ وقال قتادة : مثله : أنه لا إله إلا هو ، ولا رب غيره ، وقال مثل هذا ابن جرير . فهو العزيز الذي لا يغالب ولا يمانع ، بل قد غلب كل شيء ، وقهر كل شيء بقدرته وسلطانه ، الحكيم في أقواله وأفعاله ، شرعاً وقدَراً ، وعن مالك في تفسيره المروي عنه عن محمد بن المنكدر في قوله تعالى : ﴿ **وله المثل الأعلى** ﴾ قال : « لا إله إلا الله » .

٧ - وقال ابن كثير في قوله تعالى : ﴿ **ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره** ﴾ كقوله تعالى : ﴿ **ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه** ﴾ [الحج : ٦٥] . وقوله : ﴿ **إن الله يمسك السمٰوات والأرض أن تزولا** ﴾ [فاطر : ٤١] . وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا اجتهد في اليمين قال : والذي تقوم السماء والأرض بأمره ، أي : هي قائمة ثابتة بأمره لها ، وتسخيره إياها ، ثم إذا كان يوم القيامة بدّلت الأرض غير الأرض والسمٰوات ، وخرجت الأموات من قبورها أحياء بأمره تعالى ، ودعائه إياهم .

أقول : مراده بكلمة (ثابتة) أي وجودها ثابت وليس مراده عدم الحركة .

٨ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها** ﴾ قال ابن كثير : يقول تعالى : فسدِّد وجهك ، واستمر على الدين الذي شرعه الله لك ، من الحنيفية ملة إبراهيم عليه السلام الذي هداك الله لها ، وكمّلها لك غاية الكمال ، وأنت مع ذلك لازم فطرتك السليمة ، التي فطر الله الخلق عليها ، فإنّه تعالى فطر خلقه على معرفته وتوحيده ، وأنه لا إله غيره كما تقدم عند قوله تعالى : ﴿ **وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ؟ قالوا بلى** ﴾ (الأعراف : ١٧٢) وفي الحديث : « إني خلقت عبادي حنفاء فاجتالتهم الشياطين عن دينهم » . وسنذكر في الأحاديث أن الله تعالى فطر خلقه على الإسلام ، ثم طرأ على بعضهم الأديان الفاسدة ، كاليهودية ، والنصرانية ، والمجوسية . وقوله تعالى : ﴿ **لا تبديل لخلق الله** ﴾ قال بعضهم معناه : لا تبدّلوا خلق الله ؛ فتغيّروا الناس عن فطرتهم التي فطرهم الله عليها ، فيكون خبراً بمعنى الطلب كقوله تعالى : ﴿ **ومَنْ دخله كان آمناً** ﴾ [آل عمران : ٩٧] وهو معنى حسن صحيح ، وقال آخرون هو خبر على بابه ومعناه : أنه تعالى ساوى بين خلقه كلهم في الفطرة على الجبلّة المستقيمة ، لا يولد أحد إلا على ذلك ، ولا تفاوت بين الناس في ذلك . ولهذا قال ابن عباس ، وإبراهيم النخعي ، وسعيد بن جبير ، ومجاهد ، وعكرمة ، وقتادة ، والضحاك ، وابن زيد ، في قوله : ﴿ **لا تبديل لخلق الله** ﴾ أي لدين الله ، وقال البخاري قوله : ﴿ **لا تبديل لخلق الله** ﴾ لدين الله ، خُلُق الأوّلين : دين الأولين ، الدّين والفطرة : الإسلام . وبسنده عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من مولود يولد إلا على الفطرة ، فأبواه يهوِّدانه ، أو ينصِّرانه ، أو يمجِّسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسّون فيها من جدعاء » . ثم يقول : ﴿ **فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم** ﴾ ورواه مسلم . روى الإمام أحمد ... عن الأسود بن سريع قال : أتيت رسول الله - ﷺ - وغزوت معه فأصبت ظفراً ، فقاتل الناس يومئذ حتى قتلوا الولدان ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال : « ما بال أقوام جاوزهم القتل اليوم حتى قتلوا الذريّة » . فقال رجل : يا رسول الله أما هم أبناء المشركين ؟ فقال : « لا إنما خياركم أبناء المشركين » ثم قال : « لا تقتلوا ذرية لا تقتلوا ذرية » . وقال : « كل نسمة تولد على الفطرة حتى يعرب عنها لسانها فأبواها يهودانها أو ينصرانها » . ورواه النسائي . روى الإمام أحمد ... عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : « كل مولود يولد على الفطرة

حتى يعرب عنه لسانه فإذا عبّر عنه لسانه إما شاكراً وإما كفوراً » . روى الإمام أحمد ... عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ سئل عن أولاد المشركين فقال : « الله أعلم بما كانوا عاملين إذ خلقهم » . وروى الإمام أحمد ... عن ابن عباس قال : أتى عليّ زمان وأنا أقول أولاد المسلمين مع المسلمين ، وأولاد المشركين مع المشركين ، حتى حدّثني فلان عن فلان أن رسول الله ﷺ سئل عن أولاد المشركين فقال : « الله أعلم بما كانوا عاملين » . قال : فلقيت الرجل فأخبرني فأمسكت عن قولي ، ومنهم عياض بن حمار المجاشعي .روى الإمام أحمد ... عن عياض ابن حمار أن رسول الله ﷺ خطب ذات يوم فقال في خطبته : « إنّ ربّي عزّ وجلّ أمرني أن أعلمكم ما جهلتم ، مِمّا علمني في يومي هذا : كل مال نحلته عبادي حلال . وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم ، وإنهم أتتهم الشياطين فأضلتهم عن دينهم ، وحَرَّمتْ عليهم ما أُحللتُ لهم ، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزِّل به سلطاناً ، ثمّ إنّ الله عزّ وجلّ نظر إلى أهل الأرض فمقتهم ، عربهم وعجمهم ، إلا بقايا من أهل الكتاب ، وقال : إنما بعثتك لأبتليك وأبتلي بك ، وأنزلت عليك كتاباً لا يغسله الماء تقرؤه نائماً ويقظانَ ، ثم إن الله أمرني أن أحرّقَ قريشاً ، فقلت : يا رب ، إذاً يثلغوا رأسي فيدعوه خبزة ، قال : استخرجهم كما استخرجوك ، واغزهم نغزك ، وأنفق فسننفق عليك ، وابعث جيشاً نبعث خمسة أمثاله ، وقاتل بمن أطاعك من عصاك . قال : وأهل الجنة ثلاثة : ذو سلطان مقسط متصدق موفق ، ورجل رحيم رقيق القلب لكل ذي قربى ومسلم ، ورجل عفيف متعفّف ذو عيال – قال – وأهل النار خمسة : الضعيف الذي لا زَبْرَ له ، الذين هم فيكم تبعاً ، لا يبتغون أهلاً ولا مالاً ، والخائن الذي لا يخفى له طمع وإن دقّ إلا خانه ، ورجل لا يصبح ولا يمسي إلا وهو يخادعك عن أهلك ومالك ، وذكر البخيل والكذّاب ، والشنطير : الفحاش » .

أقول : ينبغي أن يلاحظ القارىء بدقة قوله عليه الصلاة والسلام : « وقاتل بمن أطاعك مَنْ عصاك » فإنها كلمة دلالتها كبيرة ، فليتق الله مسلم أن يكون ذا ورع كاذب ، أو أن يكون خارجياً ، يكفّر حيث لا كفر ، ويقتل حيث لا يحل .

٩ – بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **ولا تكونوا من المشركين** ﴾ قال ابن كثير : روى ابن جرير ... عن يزيد بن أبي مريم قال : مرّ عمر رضي الله عنه بمعاذ بن جبل فقال عمر : ما قوام هذه الأمة ؟ قال معاذ : ثلاث وهن المنجيات : الإخلاص وهي الفطرة

﴿ **فطرة الله التي فطر الناس عليها** ﴾ والصلاة وهي الملّة ، والطاعة وهي العصمة ، فقال عمر : صدقت .

وهكذا لخّص معاذ قوام الإسلام بأنه الإخلاص . والصلاة . والطاعة . وهي كلمة جامعة فبدون إخلاص لا قبول ، وبدون صلاة فلا إيمان ، وبدون طاعة فلا جماعة ، وبدون جماعة فلا عصمة « وإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية » .

١٠ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وإذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون** ﴾ . قال ابن كثير : هذا إنكار على الإنسان من حيث هو ، إلا من عصمه الله ووفّقه ، فإن الإنسان إذا أصابته نعمة بطر . وقال ﴿ **ذهب السيئات عني إنه لفرح فخور** ﴾ [هود : ١٠] أي يفرح في نفسه ، ويفخر على غيره ، وإذا أصابته شدة قنط وأيس أن يحصل له بعد ذلك خير بالكلية . قال الله تعالى : ﴿ **إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات** ﴾ أي صبروا في الضراء ، وعملوا الصالحات في الرخاء ، كما ثبت في الصحيح : « عجباً للمؤمن لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيراً له ، إن أصابته سرّاء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضرّاء صبر فكان خيراً له » .

١١ - ذكرنا عند قوله تعالى : ﴿ **وما آتيتم من ربا ليربوا في أموال الناس فلا يربوا عند الله** ﴾ وجهين مِمّا تحتمله الآية . وذكر ابن كثير : وجهاً آخر لم يذكره غيره . وهذا كلامه : قال : أي من أعطى عطية يريد أن يرد عليه الناس أكثر مما أهدى لهم ، فهذا لا ثواب له عند الله - بهذا فسره ابن عباس ، ومجاهد ، والضحاك ، وقتادة ، وعكرمة ، ومحمد بن كعب ، والشعبي - وهذا الصنيع مباح وإن كان لا ثواب فيه ، إلا أنه قد نهى عنه رسول الله ﷺ خاصة . قاله الضحاك ، واستدل بقوله تعالى : ﴿ **ولا تمنن تستكثر** ﴾ [المدثر : ٦٠] أي لا تعط العطاء تريد أكثر منه ؛ وقال ابن عباس : الربا رباءان ، فربا لا يصح ، يعني ربا البيع ، وربا لا بأس به ، وهو هدية الرجل يريد فضلها وأضعافها . ثم تلا هذه الآية ﴿ **وما آتيتم من ربا ليربوا في أموال الناس فلا يربوا عند الله** ﴾ وإنما الثواب عند الله في الزكاة . ولهذا قال تعالى : ﴿ **وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضْعِفُون** ﴾ أي الذين يضاعف الله لهم الثواب والجزاء ، كما جاء في الصحيح : « وما تصدّق أحد بعدل تمرة من كسب طيّب إلا أخذها الرحمن بيمينه ، فيربيها لصاحبها كما يربي أحدكم فُلوّه

- أو فصيله - حتى تصير التمرة أعظم من أُحد » .

....

والآن فلننتقل إلى المقطع الثاني في السورة . وكما بدأ المقطع الأول بقوله تعالى : ﴿ الله ﴾ فإن المقطع الثاني يبدأ كذلك . وكما بدأ المقطع الأول بالكلام عن قدرة الله على الخلق والإعادة فكذلك المقطع الثاني ، مع زيادة معان تربط بداية المقطع بما قبلها ، فلنذكر المقطع الثاني ثم نتحدث عنه .

☆ ☆ ☆

المقطع الثاني

ويمتد من الآية (٤٠) إلى نهاية الآية (٤٧) وهذا هو :

ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن
ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ
بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾
قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم
مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ
يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ
﴿٤٤﴾ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ
﴿٤٥﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ
ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ
رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا
نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾

التفسير :

﴿ **الله الذي خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم** ﴾ أي هو المختص بالخلق والرزق ، والإماتة والإحياء ، والخلق والرزق والإماتة كلها مشاهدة للإنسان ، وكلها مما يدرك الإنسان قدرة الله فيه . وهذا يدل الإنسان على قدرة الله على الإحياء الثاني

يوم القيامة ﴿ **هل من شركائكم** ﴾ أي من معبوديكم الذي زعمتم أنهم شركاء لله ﴿ **من يفعل من ذلكم** ﴾ أي من الخلق والرزق والإماتة والإحياء ﴿ **من شيء** ﴾ من تلك الأفعال ، فلم يجيبوا عجزاً ، فقال تعالى استبعاداً ﴿ **سبحانه وتعالى عما يشركون** ﴾ . قال ابن كثير : (أي تعالى ، وتقدّس ، وتنزَّه وتعاظم ، وجلّ وعزّ عن أن يكون له شريك أو نظير أو مساوٍ ، أو ولد أو والد ، بل هو الأحد الفرد الصمد ، الذي لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد) .

كلمة في السياق :

هذه الآية قد لخّصت المعاني الرئيسية في السورة ، من تقرير أن الله هو المبدىء والمعيد ، وأنّ الخلق راجعون إليه ، وأنّه هو الرزاق ، وأن المشركين لا حجة لهم ، وأنّ الشركاء لله منفيّون ، وأنّه منزّه عن أقوال المشركين فيما ذهبوا إليه من الشّرك ، وهي معان تؤكّد ما تمّ تفصيله من قبل . والآن تأتي آية تبيّن الآثار الفظيعة للشرك على الحياة البشرية ، ثم تأتي آية تأمر بالاعتبار بحال المشركين السابقين ، ثم تأتي آية تؤكّد الأمر بإقامة الوجه لدين الله ؛ استعداداً لليوم الآخر ، ثم يبّن الله حكمة اليوم الآخر ، ثم تأتي آيتان يختم بهما المقطع وسنرى محلّهما من السياق . فلنر تتمة المقطع .

....

﴿ **ظهر الفساد في البر والبحر** ﴾ قال مجاهد : فساد البر : قتل ابن آدم ، وفساد البحر : أخذ السفينة غصباً . وروى مالك عن زيد بن أسلم : أن المراد بالفساد ههنا الشرك . قال ابن كثير : وفيه نظر . أقول : إن الفساد أثر الشرك ، وهذا الذي يدلّنا عليه السياق ﴿ **بما كسبت أيدي الناس** ﴾ أي بسبب معاصيهم وشركهم ﴿ **ليذيقهم بعض الذي عملوا** ﴾ أي ليذيقهم وبال بعض أعمالهم في الدنيا قبل أن يعاقبهم بجميعها في الآخرة ﴿ **لعلهم يرجعون** ﴾ عمّا هم عليه من المعاصي . وهكذا فهمنا من الآية أن كل فساد يقع في الأرض سببه الانحراف عن أمر الله ، وسببه الشرك والكفر ، وأن الفساد عذاب جعله الله ليدرك الإنسان خطأه في السير والشرك ، ومن عرف عالمنا ومآسيه أدرك حاجة الإنسان إلى الإسلام . قال النسفي : (ثمّ أكّد الله عزّ وجلّ تسبيب المعاصي لغضب الله ونكاله بقوله : ﴿ **قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل كان أكثرهم مشركين** ﴾ أمرهم بأن يسيروا فينظروا كيف أهلك الله الأمم ، وأذاقهم سوء العاقبة بمعاصيهم ، وبذلك استقر أن الشرك والمعاصي يترتب

عنهما فساد عريض في الحياة البشرية ، وأن في ذلك عذاباً للإنسان ، وأن الشرك والمعاصي بهما يستحقّ الإنسان عذاب الله ، ثمّ يأتي الآن أمر هو بمثابة التأكيد للأمر الذي ورد في المقطع السابق ﴿ **فأقم وجهك للدّين القيم** ﴾ أي البليغ الاستقامة ، الذي لا يتأتّى فيه عوج ﴿ **من قبل أن يأتي يوم لا مَرَدّ له من الله** ﴾ أي من قبل أن يأتي من الله يوم لا يرده أحد ، أو لا يرده هو بعد أن يجيء به ، أي لا مرد له من جهته ﴿ **يومئذ يصّدعون** ﴾ أي يتصدَّعُون أي يتفرقون ﴿ **مَنْ كفر فعليه كفره** ﴾ أي فعليه وبال كفره ﴿ **ومن عمل صالحاً فلأنفسهم يمهَدُون** ﴾ أي يسوون لأنفسهم ما يسوّيه الذي يمهّد لنفسه فراشه ويوطئه ، لئلا يصيبه في مضجعه ما ينغّص عليه مرقده من نتوء وغيره . والمعنى أنّه يمهد لهم الجنة بسبب أعمالهم فأضيف إليهم . ثم علل الله عز وجل لما مَرّ بقوله : ﴿ **ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله** ﴾ أي من عطائه ﴿ **إنه لا يحب الكافرين** ﴾ ومع هذا فهو العادل الذي لا يجور . دلّ ذلك على أن حكمة وجود يوم القيامة هو مجازاة المؤمنين العاملين في الدرجة الأولى . اللهم اجعلنا منهم .

كلمة في السياق :

١ - لاحظنا أنه في المقطع السابق أقيمت الحجة على الشرك ، ثم صدرت أوامر ، وههنا أقيمت الحجة على الشرك ، وذكرت آثاره السيئة في الحياة البشرية عامة ، وعلى أهله خاصة ، ثمّ صدرت أوامر ، والملاحظ أن أمراً متشابهاً قد ورد في المقطعين وهو : ﴿ **فأقم وجهك للدين حنيفاً** ﴾ إلا أن ورود الأمر في كل مرة كان في سياق . ففي المرة الأولى صدر الأمر بإقامة الوجه للدين لأن هذا هو الوضع الذي ينسجم مع الفطرة البشرية ، وفي المرة الثانية صدر الأمر بإقامة الوجه للدين استعداداً لليوم الآخر . فالتوحيد يقتضي إقامة الوجه لدين الله ، واليوم الآخر يقتضي إقامة الوجه لدين الله .

٢ - نلاحظ أن المقطع الأول بدىء بمعانٍ قريبة من معاني المقطع الثاني ، مع زيادة في بداية المقطع الثاني لها علاقة بالرزق ، وهي الصلة المباشرة التي تصل بداية المقطع الثاني بنهاية المقطع الأول .

كانت بداية المقطع الأول : ﴿ **الله يبدأ الخلق ثم يعيده ثم إليه ترجعون** ﴾ وكانت بداية المقطع الثاني :﴿ **الله الذي خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم ...** ﴾ وما قبل بداية المقطع الثاني كانت الآيات التي تتحدث عن الرزق والإنفاق :

﴿ **أَوَلَمْ يروا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر** ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ **فآت ذا القربى** ... ﴾ .

٣ - نلاحظ أن الكلام عن التفريق الذي يحدث يوم القيامة بين الكافرين والمؤمنين قد تكرر في المقطعين ، مع زيادة في المقطع الثاني . هذه الزيادة تفيد أنّ حكمة مجيء اليوم الآخر هي أن يجزي المؤمنين على إيمانهم وعملهم الصالح .

وقد بقيت آيتان لكل منهما محله في السياق القريب .

فلنر كلًّا من الآيتين :

....

﴿ **ومن آياته** ﴾ التي تدلّ على وجوده ، وكمال قدرته ﴿ **أن يرسل الرياح مبشّرات** ﴾ أي يرسلها للبشارة بالغيث ﴿ **وليذيقكم من رحمته** ﴾ أي ولإذاقتكم الرحمة ، وهي نزول المطر ، وحصول الخصب الذي يتبعه ، والروح الذي يرافق هبوب الريح وزكاء الأرض وغير ذلك ﴿ **ولتجريَ الفلك** ﴾ في البحر عند هبوبها ﴿ **بأمره** ﴾ أي بتدبيره أو بتكوينه ﴿ **ولتبتغوا من فضله** ﴾ أي بتجارة البحر والسير من إقليم لإقليم ﴿ **ولعلكم تشكرون** ﴾ أي ولتشكروا نعمة الله فيها .

....

كلمة في السياق :

يُلاحظ أن المقطع الأول ذكر مجموعة من الآيات كلها مبدوء بقوله تعالى : ﴿ **ومن آياته** ... ﴾ وههنا وجدت آية واحدة مبدوءة بقوله تعالى : ﴿ **ومن آياته** ... ﴾ فكلّ من المقطعين يدلّل على الله في سياقه . والآن فلنتساءل ما محلّ هذه الآية في السياق القريب ؟

إن التدليل على وجود الله عز وجل ، وعلى كمال قدرته ، في سياق الكلام عن الله واليوم الآخر ، سنّة مطردة في هذا القرآن ، ولكن هذه الآية جاءت هنا بعد الأمر ﴿ **فأقم وجهك للدين حنيفاً** ... ﴾ مما يشير إلى أنّ الآية تحقّق أكثر من غرض فكما أنها دلّلت على الله لتأكيد مجيء اليوم الآخر ، فقد جاءت في سياقها لتشير إلى أنّ إقامة الوجه لدين الله يقتضيه الشكر لله على نعمه ، التي منها ما تحدثت عنه الآية ،

ولذلك فقد ختمت الآية بقوله تعالى : ﴿ **ولعلكم تشكرون** ﴾ وهكذا نفهم من مجموع السورة : أن التوحيد يقتضي إقامة الوجه لدين الله ، وأن اليوم الآخر يقتضي إقامة الوجه لدين الله ، وأن الشكر لله يقتضي إقامة الوجه لدين الله . وبهذا عرفنا محل الآية في السياق القريب للسورة ، ومحلها في سياق السورة العام . فلنر الآية الأخيرة في المقطع الثاني .

....

﴿ **ولقد أرسلنا من قبلك رسلاً إلى قومهم فجاؤوهم بالبينات** ﴾ أي بالمعجزات الواضحات ، والدلائل المبصرات ، فآمن قوم بهم ، وكفر قوم ﴿ **فانتقمنا من الذين أجرموا** ﴾ أي كفروا . وانتقام الله منهم كان بالإهلاك في الدنيا ﴿ **وكان حقاً علينا نصر المؤمنين** ﴾ أي هو حق أوجبه الله على نفسه ؛ تكرّماً وتفضّلاً . ومن السياق نفهم أن نصرة الله لرسله قد تكون في الانتقام من أعدائهم بإهلاكهم .

....

كلمة في السياق :

رأينا في مقدمة سورة الروم قوله تعالى : ﴿ **ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم** ﴾ . والآن يأتي قوله تعالى : ﴿ **وكان حقاً علينا نصر المؤمنين** ﴾ . فالكلام عن النصر جزء من سياق السورة التي تحدّثت عنها مقدمتها . ولكن ما محل الآية الأخيرة في السياق القريب ؟ إن الآية آتية في سياق الأمر ﴿ **فأقم وجهك للدين حنيفاً** ﴾ وهذا يفيد أن إقامة الوجه لدين الله هي الخير ، وفيها النصر ، لا كما يتوهمه بعض الناس ، أن إقامة الوجه لدين الله تعني الخسارة ، كما أنها تشير إلى أن ما ورد قبلها من آيات هي من نوع البيّنات ، فهي تهديد للكافرين بعد أن وُعظوا بقوله تعالى : ﴿ **قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل كان أكثرهم مشركين** ﴾ .

فوائد :

١ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **الله الذي خلقكم ثم رزقكم ...** ﴾ قال ابن كثير : روى الإمام أحمد ... عن حَبَّة وسواء ابني خالد قالا : دخلنا على النبي ﷺ وهو يصلح

شيئاً فأعناه فقال : « لا تيأسا من الرزق ما تهزهزت رؤوسكما ؛ فإنّ الإنسان تلده أمه أحمر ليس عليه قشرة ، ثم يرزقه الله عز وجل » .

٢ - في قوله تعالى : ﴿ **ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس** ﴾ اتجاهان :

الأول : أنّ المراد بالفساد هنا هو ما يترتب على المعاصي والشرك من آثار سيئة ثمرتها العذاب والحياة النكد .

والثاني : أن المراد به نقص البركات في البر والبحر . وقد رجّحنا الأول أثناء التفسير . وقد قال ابن كثير في الآية : أي بأن النقص في الزروع والثمار بسبب المعاصي . وقال أبو العالية : من عصى الله في الأرض فقد أفسد في الأرض ؛ لأن صلاح الأرض والسماء بالطاعة . ولهذا جاء في الحديث الذي رواه أبو داود : « لَحدٌّ يُقام في الأرض أحب إلى أهلها من أن يُمطروا أربعين صباحاً » ، والسبب في هذا أن الحدود إذا أقيمت انكف الناس ، أو أكثرهم ، أو كثير منهم عن تعاطي المحرمات ، وإذا تركت المعاصي كان سبباً في حصول البركات من السماء والأرض . ولهذا إذا نزل عيسى بن مريم عليه السلام في آخر الزمان يحكم بهذه الشريعة المطهرة في ذلك الوقت ، من قتل الخنزير ، وكسر الصليب ، ووضع الجزية : وهو تركها ؛ فلا يقبل إلا الإسلام أو السيف ، فإذا أهلك الله في زمانه الدّجال وأتباعه ، ويأجوج ومأجوج ، قيل للأرض أخرجي بركتك ، فيأكل من الرمانة الفئام من الناس ، ويستظلون بقحفها ، ويكفي لبن اللقحة الجماعة من الناس ، وما ذاك إلا ببركة تنفيذ شريعة محمد ﷺ ، فكلما أقيم العدل كثرت البركات والخير . ولهذا ثبت في الصحيحين « أن الفاجر إذا مات يستريح منه العباد والبلاد ، والشجر والدواب » .

٣ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وكان حقاً علينا نصر المؤمنين** ﴾ قال ابن كثير : وروى ابن أبي حاتم ... عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما من امرىء مسلم ، يردّ عن عرض أخيه ، إلا كان حقاً على الله أن يردّ عنه نار جهنّم يوم القيامة » .

٤ - رأينا في بداية السورة مظهراً من مظاهر نصر الله وهو الغلبة العسكرية ، ومن سياق قوله تعالى : ﴿ **وكان حقاً علينا نصر المؤمنين** ﴾ نفهم أن من مظاهر نصر الله الانتقام المباشر من الكافرين . ومن الحديث الذي ذكرناه في الفائدة السابقة نفهم

أنّ نصرة الله للمؤمنين كائنة لا محالة ، وعلى هذا فنصرة الله للمؤمنين كائنة . ولكن صورها كثيرة . فقد ينصرهم بتعذيب خصومهم ، وقد ينصرهم بتسليطهم على عدوّهم .

كلمة في المقطع الثاني :

إن المقطع الثاني أضاف تفصيلاً جديداً لقوله تعالى : ﴿ **والذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون** ﴾ . إن في تعريفنا على الله ، أو في التدليل عليه ، أو في وجوب إقامة الدين لوجه الله ، أو في آثار الإيمان ، أو فيما أعد الله للمؤمنين الصالحين . ﴿ **ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله إنه لا يحب الكافرين** ﴾ . وكل ذلك ضمن سياق السورة الخاص . والآن يأتي مقطع جديد قصير مبدوء بكلمة ﴿ **الله** ﴾ كبداية المقطعين السابقين وعلى نفس النّسق .

☆ ☆ ☆

المقطع الثالث

ويمتدّ من الآية (٤٨) إلى نهاية الآية (٥٣) وهذا هو :

ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَـٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَـٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَـٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَـٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾

التفسير :

﴿ **الله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً** ﴾ عن البحر وغيره ﴿ **فيبسطه** ﴾ أي السحاب ﴿ **في السماء** ﴾ أي في سمت السماء وشقّها أي في الجوّ ﴿ **كيف يشاء** ﴾ أي على الوضع الذي يريده ﴿ **ويجعله كِسَفاً** ﴾ أي قطعاً . أي يجعله منبسطاً يأخذ وجه السماء مرة ، ويجعله قطعاً متفرّقة غير منبسطة مرة ﴿ **فترى الودق** ﴾ أي المطر ﴿ **يخرج من خلاله** ﴾ أي من ثناياه ﴿ **فإذا أصاب به** ﴾ أي بالمطر ﴿ **من يشاء من عباده** ﴾ بأن أصاب بلادهم وأراضيهم ﴿ **إذا هم يستبشرون** ﴾ أي يفرحون أي لحاجتهم إليه يفرحون بنزوله عليهم ، ووصوله إليهم ﴿ **وإن كانوا من قبل أن يُنزَّل عليهم** ﴾ أي المطر ﴿ **من قبله** ﴾ كرّر للتأكيد . ومعنى التوكيد فيها الدلالة على أن عهدهم بالمطر قد تطاول ، فاستحكم يأسهم ، فكان

الاستبشار على قدر اغتمامهم بذلك ﴿ **لَمبْلِسين** ﴾ أي آيسين ﴿ **فانظر إلى آثار رحمة الله** ﴾ أي المطر ﴿ **كيف يحيي الأرض** ﴾ بالنبات وأنواع الثمار ﴿ **بعد موتها إن ذلك** ﴾ أي الله ﴿ **لمحيي الموتىٰ** ﴾ يعني أن ذلك القادر الذي يحيي الأرض بعد موتها هو الذي يحيي الناس بعد موتهم . فهذا استدلال بإحياء الموات على إحياء الأموات ﴿ **وهو على كل شيء قدير** ﴾ أي وهو على كل شيء من المقدورات قادر ، والبعث من جملة المقدورات بدليل الإنشاء ﴿ **ولئن أرسلنا ريحاً فرأوْه** ﴾ أي فرأَوْا أثر رحمة الله ، لأن رحمة الله هي الغيث ، وأثرها النبات ﴿ **مصفرّاً** ﴾ أي فرأوا النبات مصفرّاً بعد اخضراره ، أو فرأوا السّحاب مصفراً ، لأنّ السّحاب الأصفر لا يمطر ﴿ **لظلّوا من بعده** ﴾ أي من بعد اصفراره ﴿ **يكفرون** ﴾ أي يجحدون ما نقدم إليهم من النعم . قال النسفي : (ذمّهم الله تعالى بأنه إذا حبس عنهم المطر قنطوا من رحمته ، وضربوا أذقانهم على صدورهم مبلِسين ، فإذا أصابهم برحمته ، ورزقهم المطر ، استبشروا ، فإذا أرسل ريحاً فضرب زروعهم بالصفار ضجوا ، وكفروا بنعمة الله فهم في جميع هذه الأحوال على الصفة المذمومة ، وكان عليهم أن يتوكلوا على الله وفضله فقنطوا ، وأن يشكروا نعمته ويحمدوه عليها ففرحوا ، وأن يصبروا على بلائه فكفروا) .

﴿ **فإنّك لاتُسْمع الموتىٰ** ﴾ أي موتى القلوب . فكأن هؤلاء في حكم الموتى ، فلا تطمع أن يقبلوا منك ﴿ **ولا تسمع الصُّمَّ الدّعاء** ﴾ أي النداء ﴿ **إذا ولَّوا مدبرين** ﴾ إذا ذهبوا معرضين . قال النسفي : (فإن قلت : الأصم لا يسمع مقبلاً أو مدبراً فما فائدة هذا التخصيص ؟ قلت : هو إذا كان مقبلاً يفهم بالرمز والإشارة ، فإذا ولّى لا يسمع ولا يفهم بالإشارة) ﴿ **وما أنت بهادِ العمي** ﴾ أي عمى القلوب ﴿ **عن ضلالتهم** ﴾ التي هم عليها ﴿ **إن تُسمع** ﴾ أي ما تسمع ﴿ **إلا من يؤمن بآياتنا** ﴾ أي القرآن ﴿ **فهم مسلمون** ﴾ أي خاضعون منقادون مستجيبون مطيعون ، فأولئك هم الذين يسمعون الحق ويتّبعونه . وهذا حال المؤمنين . والأول مثل الكافرين .

كلمة في المقطع الثالث والسياق :

١ – نلاحظ أنّ الآية الأولى في المقطع الذي مَرّ معنا متصلة المعنى بالآية التي قبل الأخيرة من المقطع السابق عليه . فالآية قبل الأخيرة من ذلك المقطع هي :

﴿ **ومن آياته أن يرسل الرياح مبشِّرات وليذيقكم من رحمته ولتجري الفلك**

بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾ .

ثم تأتي آية : ﴿ **ولقد أرسلنا من قبلك رسلاً إلى قومهم فجاؤوهم بالبينات فانتقمنا من الذين أجرموا وكان حقاً علينا نصر المؤمنين** ﴾ .

ثم جاء قوله تعالى : ﴿ **الله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كِسَفاً** ... ﴾ إن الصلة بين هذه الآية وتلك واضحة . فالمعنى واحد ، ولكن سيق المعنى هناك للتدليل على وجود الله ، وسيق هنا للتذكير باليوم الآخر ، ولكن لِمَ وجدت الآية الوسطى بينهما ؟

إنّ الآيتين تضيئان على الآية التي جاءت بينهما . فنفهم من ذلك أنّه كما أن المطر تسبقه رياح مبشرات - وقد يأتي بعد احتباس - فكذلك نصر الله يأتي بعد ترقب واحتباس .

وإذ أخذ الله على اليائسين من رحمته يأسهم في موضوع المطر ، فقد أعطى الله درساً للمؤمنين بألا ييأسوا من النّصر دون أن يخاطبهم بذلك مباشرة . وعلى هذا فما ذكره الله عز وجل في سورة البقرة ﴿ **حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب** ﴾ (البقرة : ٢١٤) صراحة قد ذكّر الله به المؤمنين هنا بشكل ضمني . ومما مر نعلم أن بين بداية المقطع الثالث ونهاية المقطع الثاني صلة واضحة .

٢ - كما أقام الله الحجج في المقطع الأول والثاني على مجيء اليوم الآخر . فقد أقام في المقطع الثالث الحجّة على ذلك ، ثمّ إنّه بعد أن أقام الحجة على ذلك في الآيات الثلاث الأُوَل انتقل السياق ليحدّثنا عن الطبيعة الكافرة الجحود التي لا ينفعها حجّة ، ولا تنفع معها آية . وقد وصفهم الله عزّ وجلّ بالموت والصّمم والعمى ؛ تعزية لرسوله ﷺ وتسلية له ، كما بيّن من هم الذين يستفيدون من الآيات ، وهم المؤمنون بآيات الله . وهذا يذكّرنا بقوله تعالى في الآيات الأولى من سورة البقرة ﴿ **والذين يؤمنون بما أُنزل إليك وما أُنزل من قبلك** ﴾ (البقرة : ٤) . إذ تبيّن الآية الأخيرة علامة الإيمان بالآيات وهي الإسلام ﴿ **إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون** ﴾ .

٣ - رأينا أن السورة في سياقها الرئيسي تتحدّث عن اليوم الآخر مباشرة أو من خلال الحديث عن الله ، والإيمان بالله واليوم الآخر من أهمّ أركان الإيمان بالغيب . وقد حدّثنا المقطع الثالث عن الله ، وعن اليوم الآخر ، وعن الكفر والإيمان ،

وحدد طبيعة الكفر من موت وعمى وصمم وهذا يعني أن المؤمنين هم الأحياء السامعون المبصرون . ولم يبق عندنا في السورة إلا مقطع واحد هو المقطع الرابع والأخير وهو خاتمة السورة وقبل أن نذكره فلنذكر بعض فوائد المقطع الثالث .

فوائد :

١ - إن في قوله تعالى عن الرياح ﴿ **الله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً** ﴾ لمعجزة من معجزات القرآن . فلو أن إنساناً استطاع أن يرى الرياح وهي تثير ذرات البخار ، ولو استطاع أن يرى ذرات البخار أول أخذ الرياح لها ، لما رأى أشبه منها بذرات الغبار وهي تثيرها الرياح ، فاستعمال لفظ ﴿ **تثير** ﴾ في هذا المقام معجزة لمن تأمّل .

٢ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **الله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً** ﴾ قال ابن كثير : (روى ابن أبي حاتم ... عن عبد الله بن عمرو قال : الرياح ثمانية : أربعة منها رحمة ، وأربعة منها عَذَاب ، فأما الرحمة : فالناشرات ، والمبشّرات ، والمرسلات ، والذاريات ، وأما العذاب : فالعقيم ، والصرصر - وهما في البر - والعاصف ، والقاصف - وهما في البحر - فإذا شاء سبحانه وتعالى حرّكه بحركة الرحمة ، فجعله رخاء ورحمة ، وبشرى بين يدي رحمته ، ولاقحاً للسحاب ، يلقّحه بحمله الماء كما يلقّح الذكر الأنثى بالحمل ، وإن شاء حرّكه بحركة العذاب ، فجعله عقيماً ، وأودعه عذاباً أليماً ، وجعله نقمة على من يشاء من عباده ، فيجعله صرصراً ، وعاتياً ، ومفسداً لما يمرّ عليه ، والرياح مختلفة في مهابّها : صبا ودبور وجنوب وشمال ، وفي منفعتها وتأثيرها أعظم اختلاف ؛ فريح لينة رطبة تغذي النبات وأبدان الحيوان ، وأخرى تجففه ، وأخرى تهلكه وتعطبه ، وأخرى تشدُّه وتصلّبه ، وأخرى توهنه وتضعفه) .

أقول : في هذا المقام يذكر ابن كثير حديثاً حول الرياح التي أهلكت عاداً ، وأنها من الأرض الثانية . وقال عنه : هذا حديث غريب ، ورفعه منكر ، والأظهر أنه من كلام عبد الله بن عمرو رضي الله عنه ، وإنما أشرنا إلى ذلك ليعلم أنّه باطل المعنى ، منكر السند غريبه .

٣ - عند قوله تعالى : ﴿ **فإنك لا تسمع الموتى ...** ﴾ ذكر ابن كثير تحقيقاً وسبب التحقيق أنّ الآية أرادت أنهم موتى القلوب ، ولا ينفي هذا أن الموتى يسمعون من عالم الأحياء لكنّه وجد مَن فهم هذا النص على ظاهره فاقتضى ذلك تحقيق

ابن كثير. قال ابن كثير: (وقد استدلت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بهذه الآية ﴿ **فإنك لا تسمع الموتى** ﴾ على توهيم عبد الله بن عمر في روايته مخاطَبة النبي ﷺ القتلى الذين ألقوا في قليب بدر، بعد ثلاثة أيام، ومعاتبته إياهم وتقريعه لهم، حتى قال له عمر: يا رسول الله: ما تخاطب من قوم قد جَيَّفوا؟ فقال: « والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكن لا يجيبون ». وتأوّلته عائشة على أنه قال: « إنهم الآن ليعلمون أن ما كنت أقول لهم حق ». وقال قتادة: أحياهم الله له حتى سمعوا مقالته تقريعا وتوبيخا ونقمة، والصحيح عند العلماء رواية عبد الله بن عمر لما لها من الشواهد على صحتها من وجوه كثيرة، من أشهر ذلك ما رواه ابن عبد البر مصححاً له عن ابن عباس مرفوعاً: « ما من أحد يمر بقبر أخيه المسلم كان يعرفه في الدنيا فيسلم عليه إلا رَدّ الله عليه روحه حتى يرد عليه السلام ». وثبت عنه ﷺ لأمته إذا سلموا على أهل القبور أن يسلموا عليهم سلام من يخاطبونه، فيقول المسلم: السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وهذا خطاب لمن يسمع ويعقل، ولولا هذا الخطاب لكانوا بمنزلة خطاب المعدوم والجماد، والسلف مجمعون على هذا. وقد تواترت الآثار عنهم بأن الميت يعرف بزيارة الحي ويستبشر. فروى ابن أبي الدنيا في كتاب القبور عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: « ما من رجل يزور قبر أخيه، ويجلس عنده إلا استأنس به، ورد عليه، حتى يقوم ». وروي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: إذا مَرّ الرجل بقبر يعرفه فسلم عليه رد عليه السلام؛ وقد شرع السلام على الموتى، والسلام على من لم يشعر ولا يعلم بالمسلِّم محال. وقد علّم النبي ﷺ أمته إذا رأوا القبور أن يقولوا: سلام عليكم أهل الديار من المؤمنين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، يرحم الله المستقدمين منا ومنكم والمستأخرين، نسأل الله لنا ولكم العافية، فهذا السلام والخطاب والنداء، لموجود يسمع، ويخاطَب، ويعقل ويرد، وإن لم يسمع المسلِّم الرد والله أعلم).

ولننتقل إلى المقطع الرابع والأخير.

☆ ☆ ☆

المقطع الرابع

ويمتدّ من الآية (٥٤) إلى نهاية الآية (٦٠) أي إلى نهاية السورة . وهذا هو :

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ
قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ (٥٤) وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ
الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ (٥٥) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ
وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ
كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٥٦) فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ
(٥٧) وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ
الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ (٥٨) كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا
يَعْلَمُونَ (٥٩) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ (٦٠)

التفسير :

﴿ **الله الذي خلقكم من ضعف** ﴾ أي من النُطَف حتى حال الشباب ﴿ **ثم جعل من بعد ضعف قوّة** ﴾ يعني حال الشباب ، وبلوغ الأشدّ ﴿ **ثم جعل من بعد قوّة ضعفاً وشيبة** ﴾ يعني حال الشيخوخة والهرم ﴿ **يخلق ما يشاء** ﴾ من ضعف وقوّة ، وشباب وشيبة ﴿ **وهو العليم** ﴾ بأحوالهم ﴿ **القدير** ﴾ على تغييرهم . قال النسفي : (وهذا الترديد في الأحوال أبْيَن دليل على الصانع العليم القدير) ﴿ **ويوم تقوم الساعة** ﴾ أي القيامة ، سمِّيت بذلك لأنّها تقوم في آخر ساعة من ساعات الدنيا ، أو لأنّها تقع بغتة ﴿ **يقسم** ﴾ أي يحلف ﴿ **المجرمون** ﴾ أي الكافرون ﴿ **ما لبثوا** ﴾ أي في القبور ، أو في الدنيا ﴿ **غير ساعة** ﴾ استقلّوا مدّة لبثهم في القبور أو في الدنيا ؛

لهول يوم القيامة ، وطول مقامهم في شدائدها ، أو ينسون أو يَكذِبُون ، وهو الذي يدلّ عليه السّياق . قال ابن كثير : (يخبر تعالى عن جهل الكفار في الدنيا والآخرة ؛ ففي الدنيا فعلوا ما فعلوا من عبادة الأوثان ، وفي الآخرة يكون منهم جهل عظيم أيضاً ، فمنه إقسامهم بالله أنهم ما لبثوا غير ساعة واحدة في الدنيا ، ومقصودهم بذلك عدم قيام الحجة عليهم ، وأنهم لم يُنظَروا حتى يُعذر إليهم) . ﴿ **كذلك كانوا يؤفكون** ﴾ أي يصرفون ، أي مثل ذلك الصرف كانوا يُصرَفون عن الصدق إلى الكذب في الدنيا ﴿ **وقال الذين أُوتوا العلم والإيمان** ﴾ قال النسفي : هم الأنبياء والملائكة والمؤمنون ﴿ **لقد لبثتم في كتاب الله** ﴾ أي في علم الله المثبت في اللوح ، أو في حكم الله وقضائه ﴿ **إلى يوم البعث** ﴾ لا كما زعمتم من لبثكم القصير ، ردّوا عليهم ما قالوه وحلفوا عليه ، وأطلعوهم على الحقيقة . قال ابن كثير : (أي فيرد عليهم المؤمنون العلماء في الآخرة ، كما أقاموا عليهم حجة الله في الدنيا) . ثمّ وصلوا ذلك بتقريعهم على إنكار البعث بقولهم ﴿ **فهذا يوم البعث** ﴾ وتقدير الكلام : إن كنتم منكرين البعث فهذا يوم البعث الذي أنكرتموه ﴿ **ولكنكم كنتم** ﴾ في الدنيا ﴿ **لا تعلمون** ﴾ أنه حق لتفريطكم في طلب الحق واتباعه ﴿ **فيومئذ** ﴾ أي يوم القيامة ﴿ **لا ينفع الذين ظلموا** ﴾ أي كفروا ﴿ **معذِرَتُهم** ﴾ أي اعتذارهم عمّا فعلوا ﴿ **ولا هم يُسْتَعْتَبون** ﴾ أي لا يقال لهم : ارضوا ربكم بتوبة ، من قولك استعتَبَني فلان فأعتبته ، أي استرضاني فأرضيته .

كلمة في السياق :

١ - إن الصلة بين الآيات التي مرّت معنا واضحة ، فقوله تعالى : ﴿ **الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوَّة ...** ﴾ يشير إلى الزمن الطويل المتراخي الذي يقضيه الإنسان على الأرض ، بما يكفيه للاعتبار ومع ذلك ، فإنّه يوم القيامة يقسم أنه لم يعش إلا ساعة ، وهذه الساعة - في زعمه - لم تكن كافية لتقوم عليه الحجّة . وقد كذب .

٢ - في قوله تعالى : ﴿ **الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوَّة ثم جعل من بعد قوَّة ضعفاً وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير** ﴾ دليل على وجود الله من خلال انتقال الإنسان من حال إلى حال ، كما يراه في نفسه ، فهذا لا يمكن أن يكون لولا أن الله العليم القدير هو الذي يفعل ذلك ، إنّ هذا تقتضيه بداهة

الفطرة التي تحسُّ بقانون السببية في أعماقها . كما أن في الآية تذكيراً بعلم الله وقدرته ، فعلم الله المحيط بالأشياء لا تغيب عنه ذرات الإنسان وقدرة الله الكاملة لا يعجزها أن تعيد هذا الإنسان . ومن ثَمَّ فبعد هذه الآية مباشرة جاء الكلام عن اليوم الآخر . فالمقطع إذن كبقية المقاطع ؛ من حيث إنه حديث عن الله واليوم الآخر بل إنك لتجد تشابهاً كاملاً بين بداية المقطع هنا وبداية المقطع الأول ،لاحظ أنّه قد جاء في بداية المقطع الأول :

﴿ **الله يبدأ الخلق ثم يعيده ثم إليه ترجعون ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون ...** ﴾ ولاحظ هنا ﴿ **الله الذي خلقكم ...** ﴾ ﴿ **ويوم تقوم الساعة ...** ﴾ .

٣ - إن الصلة بين الآيات التي مَرّت معنا من المقطع الرابع ، وبين ما قبلها مباشرة واضحة . فبعد أن حدثنا الله عز وجل عن صمم الكافرين وعماهم ، وموت قلوبهم ، وعظ الإنسان هذه الموعظة البليغة . فذكّره بعجزه أولاً ، وعجزه آخراً . وذكّره بتنقيله له من حال إلى حال . وذكّره بما سيقوله يوم القيامة ، وكل ذلك ليتعظ هذا الإنسان ويتذكّر . ولذلك نجد الآية التي تأتي بعد هذا مباشرة هي قوله تعالى : ﴿ **ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل** ﴾ فَلْنَمْض في التفسير :

....

﴿ **ولقد ضربنا للنّاس في هذا القرآن من كل مَثَل** ﴾ أي قد بيّنا لهم الحقّ ووضّحناه لهم ، وضربنا لهم من الأمثال ليستبينوا الحق ويتّبعوه ﴿ **ولئن جئتهم بآية ليقولَنَّ الذين كفروا إن أنتم إلا مبطلون** ﴾ أي لو رأوا أي آية كانت - سواء كانت باقتراحهم أو غيره - لا يؤمنون بها ، ويعتقدون أنها سحر وباطل . قال النسفي في الآية : (أي ولقد وصفنا لهم كل صفة كأنها مثل في غرابتها ، وقصصنا عليهم كل قصة عجيبة الشأن ، كصفة المبعوثين يوم القيامة وقصتهم ، وما يقولون ، وما يقال لهم ، وما لا ينفع من اعتذارهم ، ولا يسمع من استعتابهم ، ولكنهم لقسوة قلوبهم إذا جئتهم بآية من آيات القرآن قالوا : جئتنا بزور وباطل) .

﴿ **كذلك يَطبَع الله على قلوب الذين لا يعلمون** ﴾ أي مثل ذلك الطبْع : وهو الختم يطبع الله على قلوب الجهلة الذين علم الله منهم اختيار الضلال ، حتى إنّهم ليسمّون الأشياء بأضدادها فيسمّون المحقّ مبطلاً ، والظالم عادلاً ، والعادل ظالماً ،

... عن عطية العوفي قال : قرأت على ابن عمر ﴿ **الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفاً** ﴾ فقال : ﴿ **الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفاً** ﴾ ثم قال : قرأت على رسول الله ﷺ كما قرأت عَليَّ ، فأخذَ عليّ كما أخذتُ عليكَ ، ورواه أبو داود والترمذي وحسَّنه من حديث فضيل به ، ورواه أبو داود من حديث عبد الله بن جابر عن عطية عن أبي سعيد بنحوه) . هذه الرواية تفيد أن الرسول ﷺ كان إذا أقرأ أحداً حرفاً من أحرف القرآن السبعة كان يتشدّد فيه . وإذا كانت القراءات السبع الآن هي بقية الأحرف السبعة فينبغي لقارىء القرآن أن يقرأ على قراءة من القراءات ، لا أن يخلط بينها ، وليس حراماً ، ولكنه مخالفة للسنة ، إلا في مقام تعليم أو لغرض صحيح .

٢ - من قوله تعالى : ﴿ **وقال الذين أوتوا العلم والإيمان** ﴾ نفهم أنه لا بد من علم ، ولا بد من إيمان . فعلم بلا إيمان لا قيمة له بل هو الكفر ، وإيمان بلا علم تعريض النفس للضلالة . ومن ثم فعلى المربِّين أن يلاحظوا ذلك ، فيسيروا بالطالب في هذا وهذا ، وللأسف فقد مرّت فترات انفصل فيها السير العلمي عن السير الإيماني ، فصرت تجد الشيخ الذي يسلك بالمريد طريق الإيمان دون أن يقدم له علماً ، أو الشيخ الذي يعلّم دون أن يربي الإيمان . وصارت المسألة وكأنها صراع بين صوفية وفقهاء ، ولا كمال إلا في تصوُّف صحيح محرر ، وفقه مدلّل ، يقيّد ذلك كله التزام كامل بنصوص الكتاب والسنة .

٣ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **فاصبر إنّ وعد الله حق ...** ﴾ يذكر ابن كثير هذه القصة قال : (قال سعيد عن قتادة : نادى رجل من الخوارج علياً رضي الله عنه وهو في صلاة الغداة فقال : ﴿ **ولقد أُوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين** ﴾ [الزمر : ٦٥] فأنصت له عليٌّ حتى فهم ما قاله ، فأجابه وهو في الصلاة : ﴿ **فاصبر إنّ وعد الله حق ولا يستخفَّنَّك الذين لا يوقنون** ﴾) .

٤ - بمناسبة الكلام عن سورة الروم قال ابن كثير :

(ما روي في فضل هذه السورة الشريفة واستحباب قراءتها في الفجر)

روى الإمام أحمد ... عن شيبان أبا روح يحدث عن رجل من أصحاب النبي ﷺ

أن رسول الله ﷺ صلى بهم الصبح فقرأ فيها الروم فأوهم ، فلما انصرف قال : « إنّه يلبّس علينا القرآن ، فإنّ أقواماً منكم يصلون معنا لا يحسنون الوضوء ، فمن شهد منكم الصلاة معنا فليحسن الوضوء » . وهذا إسناد حسن ومتن حسن ، وفيه سِرٌّ عجيب . ونبأ غريب ، وهو أنه ﷺ تأثّر بنقصان وضوء من ائتم به . فدلّ ذلك على أن صلاة المأموم متعلقة بصلاة الإمام) .

كلمة أخيرة في سورة الروم :

إن سورة الروم ، هي وسورة العنكبوت ، وسورة لقمان ، وسورة الٓمٓ السجدة ، كلها تفصّل في مقدمة سورة البقرة . وقد رأينا كيف فصّلت سورة العنكبوت لهذه المقدمة ، وعرضنا سورة الروم ، ورأينا كذلك كيف فصّلت في هذه المقدمة .

....

وقد رأينا أنّ سورة الروم تتألف من مقدمة ، وأنّ المقدمة والمقاطع الأربعة فصّلت في موضوع الإيمان بالله واليوم الآخر ، وما يقتضيه الإيمان بالله واليوم الآخر ، وفصّلت في مواضيع أخرى من مقدمة سورة البقرة .

....

إلّا أنّ الذي أخذ الحيّز الرئيسي من السورة هو موضوع اليوم الآخر ؛ إذ هو الذي انصبّ عليه السّياق الرئيسي من السورة ، بل لاحظنا أنّه لارتباط موضوع الإيمان باليوم الآخر ، بموضوع الإيمان بالله ، جاء الكلام عن اليوم الآخر في سياق الكلام عن الله عز وجل .

....

جاء في مقدّمة سورة البقرة قوله تعالى : ﴿ **وبالآخرة هم يوقنون** ﴾ وقد ختمت سورة الرّوم بقوله تعالى : ﴿ **ولا يستخفنك الذين لا يوقنون** ﴾ فكأنها تفصّل بشكل رئيسي ذلك الجزء من المقدمة ، ولكن لما كان الإيمان باليوم الآخر يقتضي الإيمان بالله ، ويقتضي إقامة الوجه لدين الله ، ويقتضي إقامة الصلاة ، ويقتضي الإنفاق ، ويقتضي الإيمان بالكتاب ؛ فمن ثَمَّ عالجت السورة هذه المعاني في سياقها . فكما ارتبط موضوع الإيمان باليوم الآخر بما قبله في مقدمة سورة البقرة ، فقد ارتبط كذلك الكلام عن هذه

القضايا في سورة الروم . ومن ثَمَّ قلنا إن السورة تفصيل للآيات الأولى من سورة البقرة : ﴿ **الٓمٓ * ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين * الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون * والذين يؤمنون بما أُنزل إليك وما أُنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون * أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون** ﴾ (البقرة : ١ - ٥) .

....

إن المعاني التي تعرَّضت لها مقدمة سورة البقرة معان متداخلة مع بعضها ، متواصلة فيما بينها ، مترابطة في مواضيعها . ومن ثم تجد هذه السور الأربع كل سورة تفصّل من هذه المقدمة موضوعاً رئيسياً ، ولكنّها تتحدّث عنه رابطة إيَّاه بغيره من معاني المقدّمة ، ومن ثَمَّ تلاحظ أن كل سورة من السورة الأربع التي تؤلّف زمرة ﴿ **الٓمٓ** ﴾ في هذا القسم تفصّل موضوعاً من مواضيع المقدمة بشكل رئيسي ، وتتعرض لصلة هذا الموضوع بغيره من مواضيع المقدمة بشكل ما ، بحيث تغطي السور الأربع المقدمة بشكل متكامل .

....

فصّلت سورة العنكبوت في موضوع أثر الإيمان بالغيب وبالكتاب بشكل رئيسي ، وفصّلت سورة الروم في موضوع الإيمان باليوم الآخر بشكل رئيسي ، وسنرى أن سورة لقمان ستفصّل من المقدمة موضوعاً بشكل رئيسي ، وسنرى أن سورة السجدة تفصّل من المقدمة موضوعاً بشكل رئيسي ، وكلها تضع الأساس والهدف الذي تأتي سورة الأحزاب لتفصّل في طريق السير لتحقيقه ، فكما أن مقدمة سورة البقرة عرضت الأساس والهدف ، وجاءت الآيات بعدها : ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم ...** ﴾ لتفصّل في طريق السير لتحقيقه فكذلك هذه السور وسورة الأحزاب .

....

إن مقدمة سورة البقرة عرضت لما ينبغي التحلي به ، والتخلي عنه ، وبعد المقدمة جاء الأمر الذي يبيّن طريق التخلي والتحلي . والسور الأربع من هذه المجموعة عرضت لما ينبغي التحلي به والتخلي عنه . وستأتي سورة الأحزاب لتدلّ على الطريق الذي ينبغي سلوكه للتحقّق والتخلّق .

سورة لقمان

وهي السورة الحادية والثلاثون بحسب الرسم القرآني
وهي السورة الثالثة من المجموعة الأولى من قسم المثاني
وآياتها أربع وثلاثون آية
وهي مكية

وهي السورة الثالثة من زمرة (الٓمٓ)
في قسم المثاني

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه

ربنا تقبل منا، إنك أنت السميع العليم

قال الألوسي في تقديمه لسورة لقمان :

(أخرج ابن الضريس . وابن مردويه . والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : أنزلت سورة لقمان بمكة ، ولا استثناء في هذه الرواية . وفي رواية النحاس في تاريخه عن استثناء ثلاث آيات منها وهي ﴿ **ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام** ﴾ إلى تمام الثلاث فإنها نزلت بالمدينة ، وذلك أنه صلى الله تعالى عليه وسلم لما هاجر قال له أحبار اليهود : بلغنا أنك تقول : ﴿ **وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً** ﴾ أعنيتنا أم قومك ؟ قال : « كُلّاً عنيت » فقالوا : إنك تعلم أننا أوتينا التوراة ، وفيها بيان كل شيء فقال عليه الصلاة والسلام : « ذلك في علم الله تعالى قليل » فأنزل الآيات .

ونقل الداني عن عطاء ، وأبو حيان عن قتادة أنهما قالا : هي مكية إلا آيتين هما ﴿ **ولو أن ما في الأرض** ﴾ إلى آخر الآيتين ، وقيل : هي مكية إلا آية وهي قوله تعالى : ﴿ **الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة** ﴾ فإن إيجابهما بالمدينة ، وأنت تعلم أن الصلاة فرضت بمكة ليلة الإسراء ، كما في صحيح البخاري وغيره ، فما ذكر من أن إيجابهما بالمدينة غير مُسَلَّم ، ولو سلم فيكفي كونهم مأمورين بها بمكة ولو ندباً ، فلا يتم التقريب فيها ، نعم المشهور أن الزكاة إيجابها بالمدينة ، فلعل ذلك القائل أراد أن إيجابهما معاً تحقق بالمدينة ، لا أن إيجاب كل منهما تحقق فيها ، ولا يضر في ذلك أن إيجاب الصلاة كان بمكة ، وقيل : إن الزكاة إيجابها كان بمكة كالصلاة ، وتقدير الأنصباء هو الذي كان بالمدينة ؛ وعليه فلا تقريب فيهما .
وآيها ثلاث وثلاثون في المكي والمدني ، وأربع وثلاثون في عدد الباقين .

وسبب نزولها على ما في البحر : أن قريشاً سألت عن قصة لقمان مع ابنه ، وعن بر والديه فنزلت . ووجه مناسبتها لما قبلها على ما فيه أيضاً أنه قال تعالى فيما قبل : ﴿ **ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل** ﴾ (الروم : ٥٨) وأشار إلى ذلك في مفتتح هذه السورة ، وأنه كان في آخر ما قبلها ﴿ **ولئن جئتهم بآية** ﴾ (الروم : ٥٨) وفيها ﴿ **وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبراً** ﴾ وقال الجلال السيوطي : ظهر لي في اتصالها بما قبلها مع المؤاخاة في الافتتاح بـ (الٓمٓ) أن قوله تعالى : ﴿ **هدى ورحمة للمحسنين الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون** ﴾ متعلق بقوله تعالى فيما قبل : ﴿ **وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد**

لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث ﴾ (الروم : ٥٦) الآية . فهذا عين إيقانهم بالآخرة ، وهم المحسنون الموصوفون بما ذكر ، وأيضاً ففي كلتا السورتين جملة من الآيات وابتداء الخلق .

وذكر في السابقة ﴿ **في روضة يحبرون** ﴾ وقد فسر بالسماع وذكر هنا ﴿ **ومن الناس من يشتري لهو الحديث** ﴾ وقد فسر بالغناء وآلات الملاهي . اهـ.

وسيأتي - إن شاء الله تعالى - الكلام في ذلك ، وأقول في الاتصال أيضاً : إنه قد ذكر فيما تقدم قوله تعالى : ﴿ **وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه** ﴾ (الروم : ٢٧) وهنا قوله سبحانه : ﴿ **ما خلقكم ولا بعثكم إلا كَنَفْس واحدة** ﴾ وكلاهما يفيد سهولة البعث وقرر ذلك هنا عز قائلاً : ﴿ **إن الله سميع بصير** ﴾ وذكر سبحانه هناك قوله تعالى : ﴿ **وإذا مَسَّ الناس ضر دعوا ربهم منيبين إليه ثم إذا أذاقهم منه رحمة إذا فريق منهم بربهم يشركون** ﴾ (الروم : ٣٣) ، وقال عز وجل هنا : ﴿ **وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد** ﴾ فذكر سبحانه في كل من الآيتين قسماً لم يذكره في الأخرى إلى غير ذلك .

وما ألطف هذا الاتصال من حيث إن السورة الأولى ذكر فيها مغلوبية الروم ، وغلبتهم المبنيتين على المحاربة ، بين ملكين عظيمين من ملوك الدنيا تحاربا عليها وخرجا بذلك عن مقتضى الحكمة ، فإن الحكيم لا يحارب على دنيا دنية لا تعدل عند الله تعالى جناح بعوضة ، وهذه ذكر فيها قصة عبد مملوك - على كثير من الأقوال - حكيم زاهد في الدنيا ، غير مكترث بها ، ولا ملتفت إليها ، أوصى ابنه بما يأبى المحاربة ، ويقتضي الصبر والمسالمة ، وبين الأمرين من التقابل ما لا يخفى .) .

وقال صاحب الظلال في تقديمه لسورة لقمان :

(جاء هذا القرآن الكريم ليخاطب الفطرة البشرية بمنطقها . نزله الذي خلق هذه الفطرة ، والذي يعلم ما يصلح لها وما يصلحها ، ويعلم كيف يخاطبها ، ويعرف مداخلها ومساربها . جاء يعرض على هذه الفطرة الحقيقة المكنونة فيها من قبل ؛ والتي تعرفها قبل أن تخاطَب بهذا القرآن ، لأنها قائمة عليها أصلاً في تكوينها الأول .. تلك هي حقيقة الاعتراف بوجود الخالق وتوحيده ، والتوجه إليه وحده بالإنابة والعبادة مع موكب الوجود كله المتجه إلى خالقه بالحمد والتسبيح .. إنما تغشى على الفطرة غواش من دخان هذه الأرض ؛ وتغمرها غمرات من فورة اللحم والدم ؛ وتنحرف بها

عن الطريق دفعات من الهوى والشهوة . هنا يجيء هذا القرآن ليخاطب الفطرة بمنطقها الذي تعرفه ؛ ويعرض عليها الحقيقة التي غفلت عنها بالأسلوب الذي تألفه ؛ ويقيم على أساس هذه الحقيقة منهاج الحياة كله ، مستقيماً مع العقيدة ، مستقيماً مع الفطرة ، مستقيماً على الطريق إلى الخالق الواحد المدبر الخبير ..) .

كلمة في سورة لقمان ومحورها :

إن سورة لقمان تفصّل - كزمرتها - في مقدمة سورة البقرة ، حتى إن مقدمتها لتكاد تكون نفس الآيات الأولى من مقدمة سورة البقرة ، مع تركيز خاص حول الاهتداء بكتاب الله ، ومن ثَمَّ تحدّثنا عن الموقف المقابل والأسباب النفسية لذلك ، وإذ تصف الآية الأولى هذا القرآن بالحكمة ، وإذ كان في ذلك دعوة لاتّباع كتاب الله ، فإنّ الكلام عن حكمة الله ، وعن إيتاء الله الحكمة لخلقه ، يأخذ حيّزاً من السّورة ، وكأنه يشير إلى أن مقتضى اتّصاف الله بالحكمة أن يكون كتابه حكيماً ، وإذ كان كتابه حكيماً فإن ذلك يقتضي من الإنسان اتّباعه .

....

وفي وسط السورة يأتي الكلام عن لقمان ، وإيتائه الحكمة ، ويعرض الله لنا نماذج من وصاياه الحكيمة ، التي تنسجم مع موضوع السورة ، ليحدثنا الله بعد ذلك عن نِعَمه التي تقتضي شكراً ، والشكر لا يكون إلا باتّباع كتاب الله ، وهكذا من خلال الكلام عن الحكمة والنّعمة ، تعمّق السورة موضوع اتّباع الكتاب والشروط اللازمة لهذا الاتّباع ، وقصة لقمان في الوسط تأتي لتضيء على ما قبلها وما بعدها ، وتأتي لتكون نموذجاً لما قبلها وما بعدها . ومن ثم فدورها كبير في السورة ، ومع تعميق اتّباع الكتاب من خلال الحكمة والنعمة تختتم السورة بالكلام عن علم الله المحيط ، وذلك من خلال ذكر مفاتح الغيب التي لا يعلمها إلا الله ، وفي هذا كذلك دعوة لاتّباع كتاب الله ، فإذا كان الله تعالى وحده هو الذي يعلم الغيب فهذا يعني أنّه لا أحكم منه ولا أعلم ، ومن ثَمَّ فلا أحكم من كتابه .

....

إن مقدمة سورة البقرة تتألف من عشرين آية قسم منها في المتقين ، وقسم منها في الكافرين ، وقسم منها في المنافقين . وكل صفة للمتقين يقابلها صفة للكافرين

أو صفة للمنافقين . ونلاحظ في هذه السور الأربع أنّها تعمّق في سياقها الرئيسي موضوعاً من موضوعات الآيات الواردة في المتقين ، وتتحدث خلال ذلك عما يقابل ذلك . ومن ثَمَّ فإن السور الأربع - وإن كانت في سياقها الرئيسي - تفصّل في الآيات الأولى لمقدمة سورة البقرة ، فإنّها تفصّل - في الحقيقة - في مقدمة سورة البقرة كلها . ومن ثَمَّ نجد في سورة العنكبوت كلاماً عن الكافرين والمنافقين ، ونجد في سورة الروم كلاماً عن الكافرين ، ونجد في سورتي لقمان والسجدة كلاماً عن الكافرين . فالتفصيل في النهاية لمقدمة سورة البقرة كلها ، أي للعشرين آية الأولى من سورة البقرة .

....

إنّك لتجد في سورة لقمان نموذجاً كاملاً على هذا الذي ذكرناه ، وهو أنّ التفصيل للآيات الأولى من المقدمة تفصيل للمقدمة كلها . إذ تجد في سورة لقمان - كما في سورة البقرة - آيات في المتقين ، يعقبها كلام مبدوء بقوله تعالى : ﴿ **ومن الناس ...** ﴾ وهي نفس الكلمة التي ذكرت في بداية الكلام عن المنافقين في مقدمة سورة البقرة ، فكأن الكلام عن المنافقين دمج في الكلام عن الكافرين في سورة لقمان ؛ لأنّ : الكفر والنفاق شيء واحد في النهاية .

....

وكما رأينا أنّه من خلال الكلام عن الله عز وجل قرّرت سورة الروم في سياقها موضوع اليوم الآخر ، وبقية المواضيع . فإنّ سورة لقمان كذلك تقرّر مواضيعها من خلال الكلام عن الله عز وجل . فنقطة البداية الصحيحة إذن دائماً هي المعرفة الصحيحة لله ، وقبل هذه المعرفة الصحيحة فكل شيء يبقى في غير محله . وكل تصوّر يكون فيه قصور .

....

كنّا ذكرنا من قبل أنّ أي سورة عندما تفصّل في محور من سورة البقرة فإنّها تفصّل في هذا المحور ، وفي امتدادات معانيه في سورة البقرة ، ولقد جاء في سورة البقرة قوله تعالى : ﴿ **ومن يُؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً** ﴾ (الآية : ٢٦٩) وإيتاء الله الحكمة مرتبط بإيتائه الكتاب ، ومرتبط بتوفيق الله للإنسان وسورة لقمان تفصّل في هذا وهذا ، فقد وصف الله كتابه بالحكمة ، وأعطانا نموذجاً على إيتائه الحكمة لعبد من عباده ﴿ **ولقد**

آتينا لقمان الحكمة ﴾ ففي السورة نموذج للحكمة في الكتاب ، ونموذج للحكمة عند الحكيم ، وفي السّورة تعريف لنا على ماهيّة الحكمة ، وفي السّورة بيان لما ينبغي أن يقابل الإنسان به نعمة الحكمة من شكر .

وسنرى أثناء عرضنا للسورة مزيد بيان .

....

تتألف سورة لقمان من ثلاثة مقاطع فلنبدأ عرض المقطع الأول منها .

المقطع الأول من سورة لقمان

ويمتدّ من الآية (١) إلى نهاية الآية (١١) وهذا هو مع البسملة :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾
ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ
هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ
ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ
مُّهِينٌ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ
وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ
﴿٨﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ
تَرَوْنَهَا وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ
ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ
ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾

التفسير :

﴿ **الٓمٓ تلك آيات** ﴾ أي هذه آيات ﴿ **الكتاب** ﴾ أي القرآن ﴿ **الحكيم** ﴾ أي ذي الحكمة ، وكيف لا يكون حكيماً وهو كتاب الله الحكيم . فهو حكيم

في أحكامه ، وحكيم في معالجاته ، وحكيم في ترتيب آياته ، وحكيم في ترتيب سوره ، وحكيم في ألفاظه ، وحكيم في طريقة مخاطباته ، وحكيم فيما تحتمله آياته من وجوه ، وحكيم في مرونة ألفاظه حتى تسع الزمان والمكان ، وحكيم في كونه يضع كل شيء في محله ، ويجعل أهله يضعون الأشياء في مواضعها ﴿ **هدى ورحمة للمحسنين** ﴾ فهو هاد ، وهو الرحمة ، ولكن لمن اتصف بصفة الإحسان ،فهؤلاء يهديهم في كل شيء ، فينالون رحمة الله في الدنيا والآخرة ، فيخرجون من كل ظلمة وعذاب ، ولا عذاب كالحيرة والشكّ ، ثم وصف الله المحسنين بقوله : ﴿ **الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون** ﴾ دلّ هذا على أنّه لا إحسان إلا بإقامة صلاة ، وإيتاء زكاة ، وإيقان بالآخرة . فإذا وجدت هذه وجد الإحسان ، ووجد الاهتداء بالقرآن ، فنال أصحاب ذلك رحمة الله ﴿ **أولئك على هدى من ربهم** ﴾ أي على بصيرة وبيّنة ومنهج واضح جليّ ﴿ **وأولئك هم المفلحون** ﴾ في الدنيا والآخرة .

كلمة في السياق :

قلنا إنّ محور سورة لقمان هو الآيات الأولى من مقدمة سورة البقرة : ﴿ **الٓمٓ * ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين * الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون * والذين يؤمنون بما أُنزل إليك وما أُنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون * أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون** ﴾ (البقرة : ١ - ٥) .

لاحظ الصلة الكاملة بين مقدمة سورة لقمان ومقدمة سورة البقرة ثم لاحظ أنّ الفوارق تخدم قضية التفصيل فلنلاحظ :

جاء في مقدمة سورة البقرة قوله تعالى : ﴿ **الٓمٓ * ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين * الذين يؤمنون بالغيب** ﴾ يقابل هذا في سورة لقمان ﴿ **الٓمٓ * تلك آيات الكتاب الحكيم * هدى ورحمة للمحسنين** ﴾ لقد جاء وصف القرآن في سورة لقمان بأنّه حكيم ، وكونه حكيماً فهذا يفيد أنّه من عند الله بلا ريب . ونلاحظ أنه في سورة البقرة ورد قوله : ﴿ **هدى للمتقين** ﴾ بينما في سورة لقمان قال : ﴿ **هدى ورحمة للمحسنين** ﴾ فالقرآن للمتقين هدى . ولكنه للمحسنين هدى ورحمة . وعلى هذا فمن لم يتحقق بمقام الإحسان « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » لا يأخذ حظّه الكامل من رحمة الله بهذا القرآن . ونلاحظ أن : ﴿ **الذين يؤمنون**

بالغيب ﴾ لم تتعرّض لها سورة لقمان ؛ لأن قضية الإيمان تحدّثت عنها سورة العنكبوت ، ومن قبل سورة آل عمران ، ولأن إقامة الصلاة والإنفاق هما الرمز العملي على الإيمان بالغيب فكان الكلام عنهما كلاماً عنه . ونلاحظ التشابه بين قوله تعالى في سورة البقرة ﴿ **ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون** ﴾ وبين قوله تعالى في سورة لقمان ﴿ **الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة** ﴾ مع فارق هو أنه في سورة البقرة ذكر الإنفاق بشكل عام ، وههنا ذكر إيتاء الزكاة ، مما يدل على أن إيتاء الزكاة ركن الإنفاق . ثم نلاحظ أنه في سورة البقرة قد ورد : ﴿ **والذين يؤمنون بما أُنزل إليك وما أُنزل من قبلك** ﴾ إلا أنه في سورة لقمان لم يذكر هذا ؛ لأن هذا الموضوع تحدثت عنه سورة العنكبوت ، وسورة آل عمران .

ثم نلاحظ التشابه الكامل بين قوله تعالى في سورة البقرة :

﴿ **وبالآخرة هم يوقنون * أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون** ﴾ وقوله تعالى في خاتمة الآيات التي مرّت معنا من سورة لقمان ﴿ **وهم بالآخرة هم يوقنون * أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون** ﴾ إذ وردت الألفاظ نفسها .

....

ولنمض في التفسير :

﴿ **ومن الناس من يشتري لهو الحديث** ﴾ أي يشتري كلّ كلام يصدّ عن آيات الله واتّباع سبيله ، والاشتراء : إمّا من الشّراء ، وإمّا من الاستبدال والاختيار ﴿ **ليضل** ﴾ أي ليصدّ النّاس ﴿ **عن سبيل الله** ﴾ أي عن الدخول في الإسلام ، واستماع القرآن ﴿ **بغير علم** ﴾ أي جهلاً منه بما عليه من الوزر بذلك ﴿ **ويتخذها هزواً** ﴾ أي ويتخذ سبيل الله هزواً ، يستهزيء بها ﴿ **أولئك لهم عذاب مهين** ﴾ أي مذل . فكما استهانوا بآيات الله وسبيله ، فإنهم يهانون يوم القيامة في العذاب الدائم المستمر ﴿ **وإذا تتلىٰ** ﴾ أي تقرأ ﴿ **عليه** ﴾ أي على هذا المشتري لهو الحديث ﴿ **آياتنا** ﴾ أي القرآن ﴿ **ولّى مُستكبراً** ﴾ أي أعرض عن تدبرّها متكبرّاً ، رافعاً نفسه عن الإصغاء إلى القرآن . قال ابن كثير : (إذا تليت عليه الآيات القرآنية ولّى عنها ، وأعرض وأدبر ، وتصامم – وما به من صمم – كأنّه ما سمعها ؛ لأنّه يتأذّى بسماعها ؛ إذ لا انتفاع له بها ولا أرب له فيها ﴿ **كأن لم يسمعها كأنّ في أُذنَيْه وقراً** ﴾ أي ثقلاً .

أي فالسماع وعدمه في حقّه سواء ﴿ **فبشّره بعذاب أليم** ﴾ يوم القيامة ، فكما تألّم بسماع كتاب الله وآياته . فإنّه سيناله العذاب الأليم يوم القيامة .

كلمة في السياق :

بعد الآيات الأولى من مقدمة سورة البقرة ورد قوله تعالى :

﴿ **إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون * ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم** ﴾ (البقرة : ٦ ، ٧) .

والصلة واضحة بين هاتين الآيتين وبين قوله تعالى : ﴿ **ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزواً أولئك لهم عذاب مهين * وإذا تُتلىٰ عليه آياتنا ولّىٰ مستكبراً كأن لم يسمعها كأنّ في أذنيه وقراً فبشّره بعذاب أليم** ﴾ .

وفي آيات سورة لقمان زيادة تفصيل حول الطبيعة الكافرة ، والسلوك الكافر ، والتصّرف الكافر . إنّ الصلة واضحة بين سورة لقمان ومحورها ، هذا مع أنّ لسورة لقمان سياقها الخاص ؛ لقد بدأت سورة لقمان بوصف القرآن بأنه حكيم ، ثم تحدّثت عمن يهتدي به ، ثم تحدّثت عن موقف الكافرين من هذا القرآن . وتحدّثت عمّا أعدّ الله للمؤمنين وما أعد للكافرين ، وكان حديثها عمّا أعدّ الله للمؤمنين بقولها ﴿ **وأولئك هم المفلحون** ﴾ والآن يأتي السياق ليفصّل هذا الفلاح . فلنمض في التفسير .

﴿ **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات** ﴾ اجتمع لهم الإيمان والعمل الصالح من صلاة وإنفاق ﴿ **لهم جنات النعيم** ﴾ أي الجنات التي يتنعّمون فيها بأنواع الملاذّ والمسارّ من المآكل ، والمشارب ، والملابس ، والمساكن ، والمراكب ، والنّساء ، والنّضرة ، والسّماع الذي لم يخطر ببال أحد ﴿ **خالدين فيها** ﴾ أي وهم في ذلك مقيمون دائماً ، لا يظعنون ولا يبغون عنها حولاً ﴿ **وعْدَ الله حقّاً** ﴾ أي هذا كائن لا محالة لأنه من وعد الله ، والله لا يخلف الميعاد ؛ لأنه الكريم المنّان ، الفعّال لما يشاء ، القادر على كل شيء ﴿ **وهو العزيز** ﴾ الذي قهر كل شيء ودان له كل شيء ﴿ **الحكيم** ﴾ في أقواله وأفعاله ، الذي جعل القرآن هدى للمؤمنين .

كلمة في السياق :

١ — بعد إنذار الكافرين جاءت هاتان الآيتان لتبشّر المؤمنين وتلك سُنَّة من سنن هذا القرآن .

٢ — من الملاحظ أن المنحى الرئيسي للسورة هو الكلام عن حكمة هذا القرآن . وقد استقرت الآيتان على الحكمة إذ ختمت بقوله تعالى : ﴿ **وهو العزيز الحكيم** ﴾ . ومن ثَمَّ نجد الآن الآيات اللاحقة تتحدث عما يبرهن على حكمة الله الذي أنزل هذا القرآن ﴿ **وهو العزيز الحكيم * خلق السموٰات بغير عَمَدٍ ترونها** ... ﴾ فالآيتان كانتا جسراً للعودة إلى الكلام عن الحكمة الموجودة بهذا القرآن من خلال الكلام عن حكمة الله مُنَزِّل هذا القرآن .

ولنعد إلى التفسير :

﴿ **خلق السموٰات بغير عَمَدٍ ترونها** ﴾ قال الحسن وقتادة : ليس لها عَمَد مرئية ولا غير مرئية . وعلى هذا القول فالله عز وجل يلفت النظر إلى إمساك السموٰات بقدرته . وقال ابن عباس وعكرمة ومجاهد : لها عَمَد لا ترونها ، وعلى هذا القول فالإشارة إلى العَمَد غير المرئية إشارة إلى قانون الجاذبية . وعلى هذا القول أيضاً فالله عز وجل يلفت النظر إلى إمساك السموٰات بقدرته ؛ وذلك من مظاهر عزّته وحكمته ﴿ **وألقى في الأرض رواسيَ** ﴾ أي جبالاً ثابتات ﴿ **أن تميدَ بكم** ﴾ أي كي لا تضطرب الأرض بكم ، وهذا شيء أعطاه العلم في عصرنا معناه الواسع ؛ إذ تبيّن للعلماء أنّه لولا الجبال لكانت القشرة الأرضية معرّضة للتّشققات الكثيرة ، والزلازل الكثيرة ، وبالتالي تتعذّر الحياة ﴿ **وبثّ فيها من كل دَابَّة** ﴾ قال ابن كثير : (أي وذرأ فيها من أصناف الحيوانات مما لا يعلم عدد أشكالها وألوانها إلا الذي خلقها) وفي هذا والذي قبله مظاهر تدل على حكمة الله ﴿ **وأنزلنا من السماء ماءً فأنبتنا فيها من كل زوج** ﴾ أي صَنف ﴿ **كريم** ﴾ أي حسن المنظر . وفي ذلك مظهر من مظاهر حكمته ﴿ **هذا** ﴾ إشارة إلى ما ذكره في الآية السابقة من مخلوقاته عز وجل ﴿ **خَلْق الله** ﴾ أي مخلوقه ﴿ **فأروني ماذا خلق الذين من دونه** ﴾ أي مما تعبدون وتدعون من الأصنام والأنداد . قال النسفي : (بَكّتهم بأنّ هذه الأشياء العظيمة ممّا خلقه الله ، فأروني ما خلقته آلهتكم حتى استوجبوا عندكم العبادة) ﴿ **بل الظالمون** ﴾ يعني المشركين بالله ، العابدين معه غيره ﴿ **في ضلال** ﴾ أي جهل وعمى ﴿ **مبين** ﴾ أي واضح ظاهر

لاخفاء به .

كلمة في السياق :

جاءت هذه الآيات في سياق الكلام عن الحكمة ، فقد جاءت بين قوله تعالى ﴿ **وهو العزيز الحكيم** ﴾ وبين ما سيأتي من قوله تعالى : ﴿ **ولقد آتينا لقمان الحكمة** ﴾ ومن ثَمَّ فهي تتحدّث عن مظاهر من حكمة الله الذي أنزل هذا القرآن ، فهي تدلّل على أنّ هذا القرآن حكيم من خلال التدليل على حكمة الله منزل هذا الكتاب . وهي تؤدّي دوراً آخر ، فهي من خلال الكلام عن الله عز وجل ومظاهر قدرته وإنعامه وإحكامه تدلّل على أنه وحده واجب العبادة ، وأمّا غيره فلا يستحقها ، وفي ذلك تأكيد لضرورة اتباع كتابه بالتحقق بشروط الاتّباع ، من إحسان ، وصلاة ، وزكاة ، ويقين باليوم الآخر ، فذلك هو الاقتضاء الفطري لمعرفة الله عزّ وجلّ ، وبهذا انتهى المقطع الأول ليأتي المقطع الثاني وفيه قصة لقمان عليه السلام .

فوائد :

للمفسرين كلام كثير في قوله تعالى : ﴿ **ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله** ﴾ فما هو لهو الحديث ؟ وما هو شراؤه ؟ وما صلة ذلك في الإضلال عن سبيل الله ؟ لننقل لك من كلام المفسّرين ما يتضح لك به هذا النّص .

١ - قال ابن كثير : (لما ذكر تعالى حال السعداء وهم الذين يهتدون بكتاب الله ، وينتفعون بسماعه كما قال تعالى : ﴿ **الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله** ﴾ الآية . [الزمر : ٢٣] عطف بذكر حال الأشقياء الذين أعرضوا عن الانتفاع بسماع كلام الله ، وأقبلوا على استماع المزامير والغناء ، بالألحان وآلات الطرب ، كما قال ابن مسعود في قوله تعالى : ﴿ **ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله** ﴾ قال : هو والله الغناء .

روى ابن جرير عن سعيد بن جبير ، عن أبي الصهباء البكري أنه سمع عبد الله ابن مسعود وهو يسأل عن هذه الآية ﴿ **ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله** ﴾ فقال عبد الله بن مسعود : الغناء والله الذي لا إله إلا هو ، يرددها ثلاث مرات . وعن أبي الصهباء أنه سأل ابن مسعود عن قول الله : ﴿ **ومن الناس**

من يشتري لهو الحديث ﴾ قال : الغناء ، وكذا قال ابن عباس ، وجابر ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير ، ومجاهد ، ومكحول ، وعمرو بن شعيب ، وعلي بن بذيمة . وقال الحسن البصري : نزلت هذه الآية ﴿ **ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم** ﴾ في الغناء والمزامير ، وقال قتادة : قوله ﴿ **ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم** ﴾ والله لعله لا ينفق فيه مالاً ولكن شراؤه استحبابه ، بحسْب المرء من الضلالة أن يختار حديث الباطل على حديث الحق ، وما يضر على ما ينفع .

وقال الضحاك في قوله تعالى : ﴿ **ومن الناس من يشتري لهو الحديث** ﴾ قال : يعني الشرك ، وبه قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، واختار ابن جرير أنه كل كلام يصدّ عن آيات الله ، واتباع سبيله ، وقوله تعالى : ﴿ **ليضل عن سبيل الله** ﴾ أي إنما يصنع هذا للتخالف للإسلام وأهله . وقوله تعالى : ﴿ **ويتخذها هزواً** ﴾ قال مجاهد : ويتخذ سبيل الله هزواً ، يستهزىء بها ، وقال قتادة : يعني ويتخذ آيات الله هزواً وقول مجاهد أولى) .

....

٢ - وقال صاحب الظلال :

(ولهو الحديث كل كلام يلهي القلب ويأكل الوقت ، ولا يثمر خيراً ولا يؤتي حصيلة تليق بوظيفة الإنسان المستخلَف في هذه الأرض لعمارتها بالخير والعدل والصلاح . هذه الوظيفة التي يقرر الإسلام طبيعتها وحدودها ووسائلها ، ويرسم لها الطريق . والنص عام لتصوير نموذج من الناس موجود في كل زمان وفي كل مكان . وبعض الروايات تشير إلى أنه كان تصويراً لحادث مُعيَّن في الجماعة الإسلامية الأولى . وقد كان النضر بن الحارث يشتري الكتب المحتوية لأساطير الفرس وقصص أبطالهم وحروبهم ؛ ثم يجلس في طريق الذاهبين لسماع القرآن من رسول الله - ﷺ - محاولاً أن يجذبهم إلى سماع تلك الأساطير والاستغناء بها عن قصص القرآن الكريم . ولكن النص أعم من هذا الحادث الخاص إذا صح أنه وارد فيه . وهو يصوِّر فريقاً من الناس واضح السمات ، قائماً في كل حين . وقد كان قائماً على عهد الدعوة الأولى في الوسط المكي الذي نزلت فيه هذه الآيات .

﴿ **ومن الناس من يشتري لهو الحديث** ﴾ .. يشتريه بماله ويشتريه بوقته ،

ويشتريه بحياته . يبذل تلك الأثمان الغالية في لهو رخيص ، يفني عمره المحدود ، الذي لا يُعاد ولا يعود ، يشتري هذا اللهو ﴿ **ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزواً** ﴾ فهو جاهل محجوب ، لا يتصرف عن علم ، ولا يرمي عن حكمة ؛ وهو سيء النية والغاية ، يريد ليضل عن سبيل الله . يضل نفسه ويضل غيره بهذا اللهو الذي ينفق فيه الحياة . وهو سيء الأدب يتخذ سبيل الله هزواً ، ويسخر من المنهج الذي رسمه الله للحياة وللناس . ومن ثَمَّ يعالج القرآن هذا الفريق بالمهانة والتهديد قبل أن يكمل رسم الصورة : ﴿ **أولئك لهم عذاب مهين** ﴾ .. ووصف العذاب بأنه مهين مقصود هنا للرد على سوء الأدب والاستهزاء بمنهج الله وسبيله القويم) .

أقول : وعلى كل حال فقد فهمنا أن للهو الحديث صلة في الإضلال عن سبيل الله سواء كان لهو الحديث غناءً أو سمراً بباطل ، أو سمراً بكفر ، وسواء تمثّل ذلك بقصيدة ، أو ديوان شعر ، أو قصة ، أو غير ذلك ، ولا شك أن الذي يبذل جهداً أو مالاً لإشاعة ذلك بقصد الإضلال أو الصدّ عن سبيل الله فإنه ممن يضل عن سبيل الله .

☆　☆　☆

المقطع الثاني وهو قصة لقمان

ويمتدّ من الآية (١٢) إلى نهاية الآية (١٩) وهذا هو :

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَـٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن
كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَـٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَـٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ
بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ
وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَـٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ
أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ
سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَـٰبُنَىَّ
إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ
يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَـٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ
عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ
خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾
وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ
ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾

بين يدي قصة لقمان عليه السلام :

جاءت قصة لقمان عليه السلام بعد ما تقرّر أن القرآن حكيم من عند حكيم ،

ومن ثَمَّ تأتي القصة لتعرِّفنا على أدب تلقي الحكمة من الله تعالى ﴿ **ولقد آتينا لقمان الحكمة أن أشكر لله** ﴾ ، وجاءت لترينا نماذج من حكمة الحكماء كنموذج على انطباق حكمة الحكماء مع ما أمر به القرآن ، وكنموذج على الحكمة في هذا القرآن أصلاً . وتأتي القصة لترينا أدب الحكماء في نشر الحكمة وتعميمها . وفي ذلك إشارة إلى أن القرآن يجب أن يوصىٰ به ، وأن يُنشَر ويبلّغ . ومن ثَمَّ فإنّ قصّة لقمان عليه السلام التي تشكل المقطع الثاني في سورة لقمان تأتي لتخدم سياق السورة الخاص والعام من جوانب متعدّدة فلنرها :

التفسـير :

﴿ **ولقد آتينا لقمان الحكمة** ﴾ وهى الإصابة في القول والعمل كما قال النسفي . وقال ابن كثير : أي الفهم والعلم والتدبير ﴿ **أن اشكر لله** ﴾ أي أمرناه أن يشكر الله عزّ وجلّ على ما آتاه الله ومنحه ، ووهبه من الفضل الذي خصّصه به عمّن سواه من أبناء جنسه ، وأهل زمانه ﴿ **ومن يشكر فإنّما يشكر لنفسه** ﴾ أي إنما يعود نفع ذلك وثوابه إليه ﴿ **ومن كفَرَ** ﴾ أي النعمة ﴿ **فإن الله غني** ﴾ أي غير محتاج إلى الشكر ﴿ **حميد** ﴾ أي حقيق بأن يُحمَد وإن لم يحمده أحد . قال ابن كثير : (أي غني عن العباد لا يتضرّر بذلك ولو كفر أهل الأرض كلهم جميعاً ؛ فإنه الغني عما سواه ، فلا إله إلا الله ولا نعبد إلا إيَّاه) .

كلمة في السياق :

في قوله تعالى : ﴿ **ولقد آتينا لقمان الحكمة** ﴾ إشارة إلى أنه ليس بدعاً أن ينزل الله هذا القرآن الحكيم ، فإن من سُنَّته أن يختار من يشاء فيعطيه الحكمة . وفي ذلك إشارة إلى أن من أخذ القرآن الحكيم فإنه يُؤتى الحكمة كما أُوتي لقمان عليه السلام . وفي قوله تعالى : ﴿ **أن اشكر لله** ﴾ تصريح بأن إيتاء الله الحكمة يقتضي شكراً ، وهذا يفيد أن علينا أن نقابل نعمة الله علينا بهذا القرآن الحكيم بأن نشكر الله ،وأن شكر ذلك عائد نفعه إلينا ، أما الله عز وجل فغني عن العالمين . وبعد الآية الأولى من قصة لقمان عليه السلام يعرض الله علينا وصية لقمان لابنه . وهذا يفيد أن من الشكر لنعمة إيتاء الحكمة أن يوصي الإنسان بها أولادَه ويربيهم عليها . وفي ذلك درس لنا ، أن علينا أن نربي أولادنا على أخذ هذا القرآن والعمل به ، فذلك من جملة الشكر على النعمة ،

وإذ كان الولد هو أحب الخلق إلى الوالد فأن يوصي لقمان ابنه بما سيأتي فإن هذا يفيد أن هذه الوصايا هي ذروة الحكمة ؛ إذ لا يوصي أب ابنه إلا بأغلى ما عنده :

﴿ **وإذ قال لقمان لابنه** ﴾ أي واذكر إذ قال لقمان لابنه ﴿ **وهو يعظه** ﴾ أي في حالة وعظه له ﴿ **يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لَظُلمٌ عظيم** ﴾ قال ابن كثير : أي هو أعظم أنواع الظلم . وقال النسفي : لأنه تسوية بين من لا نعمة إلا وهي منه ، ومن لا نعمة له أصلاً ﴿ **وَوَصينا الإنسان بوالديه حملته أمّه وهناً على وهن** ﴾ أي حملته وهي تهن وهناً على وهن ، أي تضعف ضعفاً فوق ضعف ، أي يتزايد ضعفها ويتضاعف ؛ لأن الحمل كلما ازداد أو عظم ازدادت ثقلاً وضعفاً ﴿ **وفِصَاله في عامين** ﴾ أي فطامه عن الرضاع لتمام عامين ﴿ **أن اشكر لي ولوالديك** ﴾ هذا تفسير للوصية ، أي وصيناه بشكرنا وبشكر والديه ، وفصل بين الوصية ومضمونها بالتذكير بما تكابده الأم وتعانيه من المشاقّ في حمله وفصاله هذه المدّة الطويلة ؛ تذكيراً بحقّها العظيم مفرداً ﴿ **إليَّ المصير** ﴾ أي مصيرك إليَّ ، وحياتك عليّ ، فإني سأجزيك على ذلك أوفر جزاء ﴿ **وإن جاهداك** ﴾ أي إن حرصا عليك كلّ الحرص ﴿ **على أن تشرك بي ما ليس لك به علم** ﴾ أي ما ليس له صفة الألوهية ، أي وإن حرصا على أن تتابعهما على دينهما الباطل ﴿ **فلا تُطِعْهُما** ﴾ أي فلا تقبل منهما ذلك ، ولا يمنعك ذلك من أن تصاحبهما في الدنيا محسناً إليهما ، ومن ثَمَّ قال : ﴿ **وصاحبهما في الدنيا معروفاً** ﴾ قال النسفي : (أي صحاباً معروفاً حسناً ، بخلق جميل ، وحلم واحتمال ، وبر وصلة) ﴿ **واتبع سبيل من أناب إلي** ﴾ قال ابن كثير : يعني المؤمنين . وقال النسفي : (أي واتبع سبيل المؤمنين في دينك ولا تتبع سبيلهما فيه ، وإن كنت مأموراً بحسن مصاحبتهما في الدنيا) . وقال ابن عطاء : صاحب من ترى عليه أنوار خدمتي ﴿ **ثم إليَّ مرجعكم** ﴾ أي مرجعك ومرجعهما ﴿ **فأنبئكم بما كنتم تعملون** ﴾ فأجازيك على إيمانك وأجازيهما على كفرهما .

كلمة في السياق :

يلاحظ أن هاتين الآيتين جاءتا في ثنايا وصايا لقمان عليه السلام ككلام مستأنف لله عز وجل فما حكمة ذلك ؟

قال النسفي : (وقد اعترض بهاتين الآيتين على سبيل الاستطراد تأكيداً لما في وصية لقمان من النهي عن الشرك يعني : إنا وصيناه بوالديه ، وأمرناه ألا يطيعهما

في الشرك - وإن جهدا كل الجهد - لقبحه) . أقول : وذكر هذه الوصية في هذا المقام إشارة إلى أن كمال الحكمة يقتضي أن تذكر الوصية بالوالدين مباشرة بعد النّهي عن الشرك . ومن ثَمَّ فكثيراً ما يقرن الله تعالى بين الإخلاص في العبادة والوصية بالوالدين ، ولا يبعد أن يكون لقمان عليه السلام أوصى ابنه هذه الوصية من خلال نقل كلام الله عز وجل الموحىٰ به على لسان الرسل السابقين ، وقد عرضها على ابنه هذا العرض على لسان الوحي عن الله ؛ لما في ذلك من مصلحة إذ هو الوالد فكان ذلك أَبْعد عن الشبهة وذلك من مظاهر حكمته وكمال أدبه والله أعلم .

﴿ **يا بني إنها** ﴾ إن القصة أو الشأن أو المظلمة أو الخطيئة ﴿ **إن تكُ مثقال حَبّة من خردل فتكن في صخرة أو في السمٰوات أو في الأرض يأت بها الله** ﴾ أي إن كانت مثلاً في الصغر كحبَّة خردل ، فكانت مع صغرها في أخفى موضع وأحرزه ، كجوف صخرة في سمٰوات ، أو في أرض ، يُحضرها الله يوم القيامة ؛ فيحاسب بها عاملها ﴿ **إن الله لطيف** ﴾ يصل علمه إلى كل خفي ﴿ **خبير** ﴾ عالم بكنه كل خفي ، أو لطيف باستخراجها ، خبير بمستقرها . قال ابن كثير : (أي لطيف العلم ؛ فلا تخفى عليه الأشياء ، وإن دقّت ولطفت وتضاءلت . خبير بدبيب النمل في الليل البهيم) . وفي هذه الوصية تربية على المراقبة التي هي أحد مقامَيْ الإحسان .

﴿ **يا بني أقم الصلاة** ﴾ أي بحدودها وفروضها وأوقاتها ﴿ **وأمر بالمعروف وانْهَ عن المنكر** ﴾ قال ابن كثير : (أي بحسب طاقتك وجهدك) ﴿ **واصبر على ما أصابك** ﴾ أي من الأذى إذا أمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر ، أو على ما أصابك من المحن فإنّها تورث المِنَح ، علم أن الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر لا بد أن يناله من الناس أذى فأمره بالصبر ﴿ **إن ذلك** ﴾ أي الصبر على أذى الناس ، أو الذي وصيتك به ﴿ **من عزم الأمور** ﴾ أي مما عزمه الله من الأمور ، أي قَطَعَه قطع إيجاب وإلزام ، أي أمر به أمراً حتماً . قال النسفي : وأصله من معزومات الأموراي : مقطوعاتها ومفروضاتها . وهذا دليل على أن هذه الطاعات كانت مأموراً بها في سائر الأمم . ﴿ **ولا تُصعّر خدّك للنّاس** ﴾ أي لا تتكبّر فتحتقر عباد الله ، وتعرض عنهم بوجهك إذا كلّموك . قال النسفي : والمعنى : أقبل على الناس بوجهك تواضعاً ، ولا تولّهم شق وجهك وصفحته كما يفعله المتكبّرون ﴿ **ولا تمش في الأرض مرحاً** ﴾ أي خيلاء متكبّراً جبّاراً عنيداً ، لا تفعل ذلك يبغضك الله ولهذا قال تعالى : ﴿ **إنّ الله**

لا يحبّ كلّ مختال ﴾ أي متكبر معجب في نفسه ﴿ **فخور** ﴾ أي على غيره بتعداد مناقبه تطاولاً ﴿ **واقصد في مَشْيك** ﴾ القصد : التوسط بين الغلوّ والتقصير . أي : اعدل فيه حتى يكون مشياً بين مشيين ، لا تدبّ دبيب المتماوتين ، ولا تثب وثوب الشّطار . قال ابن كثير : (أي امش مقتصداً مشياً ليس بالبطيء المتثبط ، ولا بالسريع المفرط ، بل عدلاً وسطاً بين بين) ﴿ **واغضُضْ من صوتِك** ﴾ أي انقص منه ، أي اخفض صوتك . قال ابن كثير : أي لا تبالغ في الكلام ، ولا ترفع صوتك فيما لا فائدة فيه . ولهذا قال تعالى : ﴿ **إن أنكر الأصوات** ﴾ أي أوحشها ﴿ **لَصَوْتُ الحَمير** ﴾ لأن أوله زفير ، وآخره شهيق كصوت أهل النار ، وفي تشبيه الرافعين أصواتهم بالحَمير ، وتمثيل أصواتهم بالنهاق ، تنبيه على أن رفع الصوت في غاية الكراهة . قال ابن كثير في الآية : (قال مجاهد وغير واحد : إن أقبح الأصوات لصوت الحمير . أي غاية من رفع صوته أنه يُشَبَّه بالحمير في علوّه ورفعه ، ومع هذا فهو بغيض إلى الله تعالى . وهذا التشبيه بالحمير يقتضي تحريمه وذمّه غاية الذم ؛ لأن رسول الله ﷺ قال : « ليس مِنّا مثل السوء العائد في هبته كالكلب يقيء ثم يعود في قيئه ») .

نُقول :

١ - قال صاحب الظلال عند قوله تعالى : ﴿ **يا بني إنّها إن تكُ مثقال حبّة من خردل فتكن في صخرة أو في السموٰات أو في الأرض يأتِ بها الله** ﴾ :

(وما يبلغ تعبير مجرد عن دقّة علم الله وشموله ، وعن قدرة الله سبحانه ، وعن دقّة الحساب وعدالة الميزان ما يبلغه هذا التعبير المصور . وهذا فضل طريقة القرآن المعجزة الجميلة الأداء ، العميقة الإيقاع ... حبة من خردل صغيرة ضائعة لا وزن لها ولا قيمة . ﴿ **فتكن في صخرة** ﴾ صلبة محشورة فيها لا تظهر ولا يتوصل إليها . ﴿ **أو في السموٰات** ﴾ في ذلك الكيان الهائل الشاسع الذي يبدو فيه النجم الكبير ذو الجرم العظيم نقطة سابحة أو ذرة تائهة . ﴿ **أو في الأرض** ﴾ ضائعة في ثراها وحصاها لا تبين . ﴿ **يأت بها الله** ﴾ .. فعلمه يلاحقها ، وقدرته لا تفلتها ﴿ **إن الله لطيف خبير** ﴾ . تعقيب يناسب المشهد الخفي اللطيف .

ويظل الخيال يلاحق تلك الحبة من الخردل في مكامنها تلك العميقة الوسيعة ؛ ويتملّى علم الله الذي يتابعها . حتى يخشع القلب وينيب ، إلى اللطيف الخبير بخفايا الغيوب . وتستقر من وراء ذلك تلك الحقيقة التي يريد الله إقرارها في القلب . بهذا

الأسلوب العجيب) .

٢ - وقال صاحب الظلال عند قوله تعالى :

﴿ ولا تُصعِّر خدّك للناس ، ولا تمش في الأرض مرحاً : إن الله لا يحب كل مختال فخور * واقصد في مشيك ، واغضض من صوتك . إن أنكر الأصوات لصوت الحمير ﴾ :

(والصعر : داء يصيب الإبل فيلوي أعناقها . والأسلوب القرآني يختار هذا التعبير للتنفير من الحركة المشابهة للصعر . حركة الكبر والازورار ، وإمالة الخد للناس في تعالٍ واستكبار !

والمشي في الأرض مرحاً هو المشي في تخايل ونفخة وقلّة مبالاة بالناس . وهي حركة كريهة يمقتها الله ويمقتها الخلق . وهي تعبير عن شعور مريض بالذات ، يتنفّس في مشية الخيلاء ! **﴿ إن الله لا يحب كل مختال فخور ﴾** .

ومع النهي عن مشية المرح ، بيان للمشية المعتدلة القاصدة : **﴿ واقصد في مشيك ﴾** . والقصد هنا من الاقتصاد وعدم الإسراف . وعدم إضاعة الطاقة في التبختر والتثني والاختيال . ومن القصد كذلك . لأن المشية القاصدة إلى هدف ، لا تتلكأ ولا تتخايل ولا تتبختر ، إنما تمضي لقصدها في بساطة وانطلاق .

والغض من الصوت فيه أدب وثقة بالنفس واطمئنان إلى صدق الحديث وقوّته . وما يزعق أو يغلظ في الخطاب إلا سيء الأدب ، أو شاك في قيمة قوله ، أو قيمة شخصه ؛ يحاول إخفاء هذا الشك بالحدة والغلظة والزعاق !) .

٣ - بمناسبة وصايا لقمان عليه السلام لابنه عقد ابن كثير ثلاثة فصول وباباً في الخمول والتواضع ، وفي الشهرة وفي حُسن الخُلُق ، وفي ذمّ الكبر ، وفي الاختيال وهذه هي :

(فصل في الخمول والتواضع) وذلك متعلق بوصية لقمان عليه السلام لابنه وقد جمع في ذلك الحافظ أبو بكر بن أبي الدنيا كتاباً مفرداً ، ونحن نذكر منه مقاصده قال : حدثنا إبراهيم بن المنذر ، عن حفص بن عبد الله بن أنس ، عن جده أنس

ابن مالك قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « رُبَّ أشعث ذي طِمْرين يصفح (١) عن أبواب الناس إذا أقسم على الله لأبَرَّه » ثم رواه من حديث جعفر بن سليمان عن ثابت وعلي بن زيد عن أنس عن النبي ﷺ فذكره وزاد « منهم البراء بن مالك » وروى أيضاً عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « طوبى للأتقياء الأثرياء ، الذين إذا حضروا لم يُعرَفوا ، وإذا غابوا لم يفتقدوا ، أولئك مصابيح مجردون من كل فتنة غبراء مشتتة » ، وروى أبو بكر بن سهل التميمي عن عمر رضي الله عنه أنه دخل المسجد فإذا هو بمعاذ بن جبل يبكي عند قبر رسول الله ﷺ فقال له : ما يبكيك يا معاذ ؟ قال : حديث سمعته من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : سمعته يقول : « إن اليسير من الرياء شرك ، وإن الله يحب الأتقياء الأخفياء الأثرياء ، الذين إذا غابوا لم يُفْقدوا ، وإذا حضروا لم يُعْرفوا ، قلوبهم مصابيح الهدى ، ينجون من كل غبراء مظلمة » . وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قال : « رُبَّ ذي طمرين لا يُؤْبَه له لو أقسم على الله لأبره ، لو قال : اللهم إني أسالك الجنة لأعطاه الله الجنة ، ولم يعطه من الدنيا شيئاً » ، وروى أيضاً عن سالم بن أبي الجعد قال : قال رسول الله ﷺ : « إن من أمتي لو أتى باب أحدكم يسأله ديناراً أو درهماً أو فلساً لم يعطه ، ولو سأل الله الجنة لأعطاه إياها ، ولو سأله الدنيا لم يعطه إياها ولم يمنعها إياه لهوانه عليه ؛ ذو طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره » وهذا مرسل من هذا الوجه ، وروى أيضاً عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « إن من ملوك الجنة من هو أشعث أغبر ذو طمرين لا يؤبهُ له ، الذين إذا استأذنوا على الأمراء لم يؤذن لهم ، وإذا خطبوا النساء لم ينكحوا ، وإذا قالوا لم ينصت لهم ، حوائج أحدهم تتجلجل في صدره ، لو قُسِّم نوره يوم القيامة بين الناس لوسعهم » . قال وأنشدني عمر ابن أبي شيبة عن ابن عائشة قال : قال عبد الله بن المبارك :

ألا رُبَّ ذي طمرين في منزل غدا زَرَابيّهُ مبثوثة ونمارِقُه
قد اطردت أنواره حول قصره وأشرق والتفت عليه حدائقُه

وروى أيضاً عن أبي أمامة مرفوعاً : « قال الله : من أغبط أوليائي عندي مؤمن

(١) الطِمْر : الثوب البالي ، ويصفح : يحال ويجنّب أن يقرب هذه الأبواب .

خفيف الحاذ (١) ، ذو حظ من صلاة ، أحسن عبادة ربه وأعطاه في السر ، وكان غامضاً في الناس لا يُشار إليه بالأصابع إن صبر على ذلك » قال ثم نَقَد (٢) رسول الله ﷺ بيده وقال : « عجّلت منيته ، وقلّ تراثه وقلّت بواكيه » . وعن عبد الله بن عمرو قال : أحب عباد الله إلى الله الغرباء ، قيل : ومن الغرباء ؟ قال : الفرّارون بدينهم يجمعون يوم القيامة إلى عيسى بن مريم . وقال الفضيل بن عياض : بلغني أن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة : ألم أنعم عليك ، ألم أعطك ، ألم أسترك ؟ ألم ... ألم ... ألم أجمل ذكرك ، ثم قال الفضيل : إن استطعت أن لا تُعْرف فافعل ، وما عليك أن لا يثنى عليك ، وما عليك أن تكون مذموماً عند الناس محبوباً عند الله . وكان ابن محيريز يقول : اللهم إني أسألك ذكراً خاملاً ، وكان الخليل بن أحمد يقول : اللهم اجعلني عندك من أرفع خلقك ، واجعلني في نفسي من أوضع خلقك ، وعند الناس من أوسط خلقك .

[باب ما جاء في الشهرة] عن أنس عن رسول الله ﷺ أنه قال : « حسب امرىء من الشر - إلا من عصم الله - أن يشير الناس إليه بالأصابع في دينه ودنياه ، وإن الله لا ينظر إلى صوركم ولكن إلى قلوبكم وأعمالكم » . وروي مثله عن إسحاق بن البهلول عن جابر بن عبد الله مرفوعاً مثله ، وروي عن الحسن مرسلاً نحوه فقيل للحسن : فإنه يشار إليك بالأصابع ، فقال : إنما المراد من يُشار إليه في دينه بالبدعة ، وفي دنياه بالفسق . وعن عليّ رضي الله عنه قال : لا تبدأ لأن تشتهر ، ولا ترفع شخصك لتذكر وتعلم ، واكتم واصمت تسلم ، تَسُر الأبرار ، وتغيظ الفجار . وقال إبراهيم بن أدهم رحمه الله : ما صدق الله من أحب الشهرة ، وقال أيوب : ما صدق الله عبد إلا سرّه أن لا يشعر بمكانه ، وقال محمد بن العلاء : من أحب الله أحب أَنْ لا يعرفه الناس ، وقال سماك بن سلمة : إيّاك وكثرة الأخلّاء ، وقال أبان بن عثمان : إن أحببت أن يسلم إليك دينك فأقل من المعارف . كان أبو العالية إذا جلس إليه أكثر من ثلاثة نهض وتركهم . وقال : حدثنا عليّ بن الجعد أخبرنا شعبة عن عوف عن أبي رجاء قال : رأى طلحة قوماً يمشون معه فقال : ذباب طمع وفراش النار . وقال ابن إدريس عن هارون بن أبي عنترة عن سليم بن حنظلة قال : بينا نحن حول أبي إذ علاه عمر بن الخطاب بالدرة وقال : إنها مذلة للتابع ، وفتنة للمتبوع ،

---

(١) خفيف الحاذ : قليل المال ، خفيف الظهر من العيال .

(٢) نَقَد : أي نقر .

وقال ابن عون عن الحسن : خرج ابن مسعود فاتبعه أناس فقال : والله لو تعلمون ما أغلق عليه بابي ما اتبعني منكم رجلان . وقال حماد بن زيد : كُنَّا إذا مررنا على المجلس ومعنا أيوب فسلم ردوا رداً شديداً ، فكان ذلك نعمة . وقال عبد الرزاق عن معمر : كان أيوب يطيل قميصه فقيل له في ذلك فقال : إن الشهرة فيما مضى كانت في طول القميص ، واليوم في تشميره . واصطنع مرة نعلين على حذو نعلي النبي صلى الله عليه وآله وسلم فلبسهما أياماً ، ثم خلعهما وقال : لم أر الناس يلبسونهما ، وقال إبراهيم النخعي : لا تلبس من الثياب ما يشهر في ألفتها ولا ما يزدريك السفهاء . وقال الثوري : كانوا يكرهون من الثياب الجياد التي يشتهر بها ويرفع الناس إليه فيها أبصارهم ، والثياب الرديئة : التي يحتقر فيها ويستذل دينه . وحدثنا خالد بن خداش حدثنا حماد عن أبي حسنة صاحب الزيادي قال : كنا عند أبي قلابة إذ دخل عليه رجل عليه أكسية ، فقال : إياكم وهذا الحمار النهاق . وقال الحسن رحمه الله : إن قوماً جعلوا الكبر في قلوبهم والتواضع في ثيابهم ، فصاحب الكساء بكسائه أعجب من صاحب المطرق [1] بمطرقه ما لهم تفاقدوا ، وفي بعض الأخبار أن موسى عليه السلام قال لبني إسرائيل : ما لكم تأتوني عليكم ثياب الرهبان وقلوبكم قلوب الذئاب ، البسوا ثياب الملوك وألينوا قلوبكم بالخشية .

(فصل في حسن الخلق) قال أبو التياح رضي الله عنه : كان رسول الله ﷺ من أحسن الناس خلقاً . وعن عطاء عن ابن عمر قيل : يا رسول الله أي المؤمنين أفضل ؟ قال : « أحسنهم خُلُقاً » . وعن أنس مرفوعاً : « إن العبد ليبلغ بحسن خُلُقه درجات الآخرة ، وشرف المنازل ، وإنه لضعيف العبادة ، وإنه ليبلغ بسوء خلقه درك جهنم وهو عابد » . وعن سيار بن هارون عن حميد عن أنس مرفوعاً : « ذهب حسن الخلق بخير الدنيا والآخرة » . وعن عائشة مرفوعاً : « إن العبد ليبلغ بحسن خلقه درجة قائم الليل صائم النهار » . وروى ابن أبي الدنيا عن أبي هريرة رضي الله عنه سئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس الجنة فقال : « تقوى الله وحسن الخلق » وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار فقال : « الأجوفان : الفم والفرج » . وقال أسامة بن شريك : كنت عند رسول الله ﷺ فجاءته الأعراب من كل مكان فقالوا : يا رسول الله ما خير ما أعطي الإنسان ؟ قال : « حسن الخلق » .

(١) المطرق : ثوب من خز مربّع .

وقال يعلى بن سماك عن أم الدرداء عن أبي الدرداء يبلغ به قال : ما من شيء أثقل في الميزان من خلق حسن ، وكذا رواه عطاء عن أم الدرداء به ، وعن مسروق عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً : « إن من خياركم أحسنكم خلقاً » . حدثنا عبد الله ابن أبي الدنيا عن الحسن بن علي قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله ليعطي العبد من الثواب على حسن الخلق كما يعطي المجاهد في سبيل الله ، يغدو عليه الأجر ويروح » . عن مكحول عن أبي ثعلبة مرفوعاً : « إن أحبكم إليّ وأقربكم مني مجلساً أحاسنكم أخلاقاً ، وإن أبغضكم إليّ وأبعدكم مني منزلاً في الجنة مساويكم أخلاقاً ؛ الثرثارون المتشدقون المتفيهقون » . وعن جابر مرفوعاً : « ألا أخبركم بأكملكم إيماناً ؟ أحاسنكم أخلاقاً الموطؤون أكنافاً الذين يؤلفون ويألفون » . وعن بكر بن أبي الفرات قال : قال رسول الله ﷺ : « ما حسّن الله خلق رجل وخلقه فتطعمه النار » . وعن عبد الله ابن غالب الحداني عن أبي سعيد مرفوعاً : « خصلتان لا يجتمعان في مؤمن البخل وسوء الخلق » . وقال ميمون بن مهران : عن رسول الله ﷺ : « ما من ذنب أعظم عند الله من سوء الخلق » وذلك أن صاحبه لا يخرج من ذنب إلا وقع في آخر . وعن عبد الرحمن بن إسحاق عن رجل من قريش قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من ذنب أعظم عند الله من سوء الخلق ؛ إن الخلُق الحسن ليذيب الذنوب كما تذيب الشمس الجليد ، وإن الخلق السيء ليفسد العمل كما يفسد الخل العسل » . وقال عبد الله ابن إدريس عن أبيه عن جده عن أبي هريرة مرفوعاً : « إنكم لا تسعون الناس بأموالكم ولكن يسعهم منكم بسط الوجه وحسن الخلق » . وقال محمد بن سيرين : حسن الخلق عون على الدين .

[فصل في ذم الكبر] قال علقمة عن ابن مسعود رفعه : « لا يدخل الجنة مَنْ في قلبه مثقال ذرة من كبر ، ولا يدخل النار مَنْ في قلبه مثقال ذرة من إيمان » . وقال إبراهيم بن أبي عبلة عن أبي سلمة عن عبد الله بن عمرو مرفوعاً : « من كان في قلبه مثقال ذرّة من كبر أكبّه الله على وجهه في النار » . وعن إياس بن سلمة عن أبيه مرفوعاً : « لا يزال الرجل يذهب بنفسه حتى يكتب عند الله من الجبارين فيصيبه ما أصابهم من العذاب » . وعن أنس قال : كان أبو بكر يخطبنا فيذكر بدء خلق الإنسان حتى إن أحدنا ليقذر نفسه يقول : خرج من مجرى البول مرتين . وقال الشعبي : من قتل اثنين فهو جبار ثم تلا : ﴿ **أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس إن تريد إلا أن تكون جباراً في الأرض** ﴾ [القصص : ١٩] ، وقال الحسن : عجباً

لابن آدم يغسل الخرء بيده في اليوم مرتين ثم يتكبّر يعارض جبار السموٰات . وعن علي ابن الحسن عن الضحاك بن سفيان فذكر حديث ضرب مثل الدنيا بما يخرج من ابن آدم . وقال الحسن عن يحيىٰ عن أبي قال : إن مطعم بن آدم ضرب مثلاً للدنيا ، وإن قـزّحه (١) وملّحه . وقال محمد بن الحسين بن علي رضي الله عنه : ما دخل قلب رجل شيء من الكبر إلا نقص من عقله بقدر ذلك . وقال يونس بن عبيد : ليس مع السجود كبر ، ولا مع التوحيد نفاق ، ونظر طاووس إلى عمر بن عبد العزيز وهو يختال في مشيته وذلك قبل أن يُستخلف فطعن طاووس في جنبه بأصبعه ، وقال : ليس هذا شأن من في بطنه خرء ، فقال له كالمعتذر إليه : يا عم لقد ضُرب كل عضو مني على هذه المشية حتى تعلمتها . قال أبو بكر بن أبي الدنيا : كان بنو أمية يضربون أولادهم حتى يتعلموا هذه المشية .

[فصل في الاختيال] عن ابن أبي ليلى عن ابن بريدة عن أبيه مرفوعاً : « من جرّ ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه » ورواه عن إسحق بن إسماعيل عن سفيان عن زيد ابن أسلم عن ابن عمر مرفوعاً مثله . وحدثنا محمد بن بكار حدثنا عبد الرحمن ابن أبي الزناد عن أبيه عن الأعرج عن أبي هريرة مرفوعاً : « لا ينظر الله يوم القيامة إلى من جَرّ إزاره ، وبينما رجل يتبختر في برديه أعجبته نفسه خسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة » .

كلمة في السياق :

١ - تأتي قصة لقمان عليه السلام في سياق الكلام عن القرآن الحكيم الذي هو هدى ورحمة للمحسنين ، فتقص علينا نموذجاً من وصايا الحكماء ، وفي قصّ هذا النموذج في هذا السياق برهان على أن هذا القرآن حكيم ؛ إذ يختار لنا الحكمة ، وبرهان على أن هذا القرآن حكيم ، إذ أوامره ونواهيه وأخباره كلها هي التي يوصي بها كل حكيم .

وإذا تأملنا في الوصايا التي أوصى بها لقمان عليه السلام ابنه فإنها - زيادة على كونها نموذجاً على الحكمة - أوامر ونواه تعلّم الإحسان ، وإدخال الوصية بالوالدين ، والأمر باتّباع سبيل المؤمنين بين هذه الأوامر والنواهي يؤكد هذا المعنى . فالآيات تعلّمنا أن

(١) قزّحه وملحه : أي توبله ، والمعنى : إن تكلف الإنسان في صنعة الطعام فإنه عائد إلى حالة تعافها النفس .

للإحسان دخلاً في العبادة ، وفي العشرة مع الوالدين ، وفي التعامل مع أهل الإيمان ، وفي المراقبة ، وفي الصلاة ، وفي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وفي الصبر والتواضع ، وفي ترك تصعير الخد ، وترك المشي المرح ، وأنّ من الإحسان القصد في المشي ، وغض الصوت في الكلام ، وكلها آداب ، وهي مظاهر من الإحسان والهداية ، وهذا مظهر جديد من مظاهر صلة قصة لقمان عليه السلام بالسياق .

وهناك مظهر آخر . لقد وجّهنا الله تعالى من خلال قصة لقمان عليه السلام هذه التوجيهات التي جاءت في معرض وصية الوالد للولد . وهذا مظهر من مظاهر حكمة هذا القرآن ؛ إذ يوجّه عن طريق الوصف ، والقصة ، وبشكل مباشر ، وبشكل غير مباشر ، وبالأمر أحياناً ، وبالعرض أحياناً ، وبالإخبار أحياناً . فالقصة إذن برهان جديد على حكمة هذا القرآن .

٢ - جاء في سورة البقرة قوله تعالى : ﴿ **ومن يُؤت الحكمة فقد أُوتي خيراً كثيراً** ﴾ وقد عرض الله عز وجل علينا في قصة لقمان نموذجاً لإنسان آتاه الله الحكمة ﴿ **ولقد آتينا لقمان الحكمة** ﴾ فمن عرف هذه المعاني التي جاءت هنا ، وتحقّق بها ، وألزم نفسه النُّصح بها لأولاده وللعامّة فإنّه حكيم ، وإذن فقد أعطانا الله عزّ وجلّ بهذه الآيات ميزاناً نزن به حكمة الحكماء ، ونتعرّف بذلك على من وفّقه الله تعالى فآتاه الحكمة .

فوائد :

١ - بمناسبة ذكر لقمان عليه السلام في السورة قال ابن كثير :

(اختلف السلف في لقمان عليه السلام هل كان نبياً ، أم عبداً صالحاً من غير نبوة ؟ على قولين الأكثرون على الثاني ، وقال سفيان الثوري عن الأشعث عن عكرمة عن ابن عباس قال : كان لقمان عبداً حبشياً نجّاراً . وقال قتادة عن عبد الله بن الزبير قلت لجابر بن عبد الله : ما انتهى إليكم في شأن لقمان ؟ قال : كان قصيراً أفطس الأنف من النّوبة ، وقال يحيىٰ بن سعيد الأنصاري عن سعيد بن المسيب قال : كان لقمان من سودان مصر ، ذو مشافر ، أعطاه الله الحكمة ، ومنعه النّبوة ، وقال الأوزاعي : حدثني عبد الرحمن بن حرملة قال : جاء رجل أسود إلى سعيد بن المسيب يسأله فقال له سعيد بن المسيب : لا تحزن من أجل أنك أسود ، فإنه كان من أخير الناس ثلاثة من السودان : بلال ، ومهجع مولى عمر بن الخطاب ، ولقمان الحكيم كان أسود نوبياً

ذا مشافر ، وروى ابن جرير ... عن خالد الرجعي قال : كان لقمان عبداً حبشياً نجاراً فقال له مولاه : اذبح لنا هذه الشاة فذبحها . قال : أخرج لنا أطيب مضغتين فيها فأخرج اللسان والقلب ، ثم مكث ما شاء الله . ثم قال : اذبح لنا هذه الشاة فذبحها ، فقال : أخرج لنا أخبث مضغتين فيها فأخرج اللسان والقلب . فقال له مولاه : أمرتك أن تخرج أطيب مضغتين فيها فأخرجتهما ، وأمرتك أن تخرج أخبث مضغتين فيها فأخرجتهما ، فقال لقمان : إنه ليس من شيء أطيب منهما إذا طابا ، ولا أخبث منهما إذا خبثا . وقال شعبة عن الحاكم عن مجاهد : كان لقمان عبداً صالحاً ولم يكن نبياً ، وقال الأعمش : قال مجاهد : كان لقمان عبداً أسود عظيم الشفتين مشقق القدمين ، وقال حَكّام بن سالم عن سعيد الزبيدي عن مجاهد : كان لقمان الحكيم عبداً حبشياً ، غليظ الشفتين ، مصفّح القدمين ، قاضياً على بني إسرائيل ، وذكر غيره أنه كان قاضياً على بني إسرائيل في زمان داود عليه السلام . وروى ابن جرير ... عن عمرو بن قيس قال : كان لقمان عبداً أسود غليظ الشفتين ، مصفّح القدمين ، فأتاه رجل وهو في مجلس ناس يحدثهم فقال له : ألست الذي كنت ترعى معي الغنم في مكان كذا وكذا ؟ قال : نعم . وروى فما بلغ بك ما أرى ؟ قال : صدق الحديث ، والصمت عما لا يعنيني ، وقال ابن أبي حاتم ... عن جابر قال : إنّ الله رفع لقمان الحكيم بحكمته ، فرآه رجل كان يعرفه قبل ذلك ، فقال له : ألستَ عبد بني فلان الذي كنت ترعى بالأمس ؟ قال : بلى . قال : فما بلغ بك ما أرى ؟ قال : قدر الله ، وأداء الأمانة ، وصدق الحديث ، وتركي ما لا يعنيني . فهذه الآثار منها ما هو مصرَّح فيه بنفي كونه نبياً ، ومنها ما هو مشعر بذلك ، لأن كونه عبداً قَدْ مَسَّه الرق ينافي كونه نبياً . لأن الرسل كانت تبعث في أحساب قومها . ولهذا كان جمهور السلف على أنه لم يكن نبياً ، وإنما ينقل كونه نبياً عن عكرمة - إن صح السند إليه - فإنّه رواه ابن جرير وابن أبي حاتم من حديث وكيع عن إسرائيل عن جابر عن عكرمة قال : كان لقمان نبياً وجابر هذا هو ابن يزيد الجعفي وهو ضعيف والله أعلم . وقال عبد الله بن عياش القتباني عن عمر مولى غُفْرة قال : وقف رجل على لقمان الحكيم فقال : أنت لقمان أنت عبد بني الحسماس ؟ قال : نعم . قال : أنت راعي الغنم ؟ قال : نعم . قال : أنت الأسود ؟ قال : أما سوادي فظاهر فما الذي يعجبك من أمري ؟ قال : وطء الناس بساطك ، وغشيهم بابك ، ورضاهم بقولك . قال : يا ابن أخي إن صغيت إلى ما أقول لك كنت كذلك . قال لقمان : غَضّي بصري ، وكفّي لساني ، وعفّة طُعْمتي ، وحفظي فرجي ، وقولي بصدقي ، ووفائي

بعهدي ، وتكرمتي ضيفي ، وحفظي جاري ، وتركي ما لا يعنيني ، فذاك الذي صيّرني إلى ما ترى . وروى ابن أبي حاتم ... عن أبي الدرداء أنه قال يوماً وذكر لقمان الحكيم فقال : ما أُوتي عن أهل ولا مال ولا حسب ولا خصال ، ولكنه كان رجلاً صمصامة (١) سكّيتاً طويل التفكير عميق النظر لم ينم نهاراً قط ، ولم يره أحد قط يبزق ولا يتنخّع ولا يبول ولا يتغوّط ولا يغتسل ولا يعبث ولا يضحك ، وكان لا يعيد منطقاً نطقه إلا أن يقول حكمة يستعيده إياها أحد . وكان قد تزوج وولد له أولاد ، فماتوا فلم يبك عليهم ، وكان يغشى السلطان ويأتي الحكام لينظر ويتفكر ويعتبر فبذلك أوتي ما أوتي . وقد ورد أثر غريب عن قتادة رواه ابن أبي حاتم ... عن قتادة قال : خيّر الله لقمان الحكيم بين النبوة والحكمة فاختار الحكمة على النّبوة قال : فأتاه جبريل وهو نائم فذرّ عليه الحكمة - أو رشّ عليه الحكمة - وقال : فأصبح ينطق بها ، وقال سعيد : فسمعت عن قتادة يقول : قيل للقمان كيف اخترت الحكمة على النبوة وقد خيّرك ربك ؟ فقال : إنه لو أرسل إليّ بالنبوة عزمة لرجوت فيه الفوز منه ، ولكنت أرجو أن أقوم بها ، ولكنه خيّرني فخفت أن أضعف عن النبوة فكانت الحكمة أحبّ إليّ ، فهذا من رواية سعيد بن بشير وفيه ضعف قد تكلموا فيه بسببه فالله أعلم) .

٢ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم** ﴾ قال ابن كثير :

(روى البخارى ... عن عبد الله قال : لما نزلت ﴿ **الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم** ﴾ شقّ ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا : أيّنا لم يلبس إيمانه بظلم ؟ فقال رسول الله ﷺ : « إنه ليس بذاك ألا تسمع لقول لقمان : ﴿ **يابني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم** ﴾) .

٣ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وفصاله في عامين** ﴾ قال ابن كثير :

(كما قال تعالى : ﴿ **والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة** ﴾ [البقرة : ٢٣٣] ومن ههنا استنبط ابن عباس وغيره من الأئمة أن أقل مدة الحمل ستة أشهر لأنه قال في الآية الأخرى : ﴿ **وحمله وفصاله ثلاثون شهراً** ﴾ [الأحقاف : ١٥] وإنما يذكر تعالى تربية الوالدة وتعبها ومشقّتها في سهرها ليلاً ونهاراً ، ليذكر الولد بإحسانه المتقدم إليه كما قال تعالى : ﴿ **وقل ربّ ارحمهما**

---

(١) صيغة مبالغة من شدة تصممه وعزمه .

كما ربياني صغيراً ﴾ [الإسراء : ٢٤]) .

٤ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **أن اشكر لي ولوالديك** ﴾ قال النسفي :

(وقد نبّه الله تعالى على أن الحكمة الأصلية والعلم الحقيقي هو العمل بهما ، وعبادة الله والشكر له ؛ حيث فسّر إيتاء الحكمة بالحث على الشكر وقيل لا يكون الرجل حكيماً حتى يكون حكيماً في قوله وفعله ومعاشرته وصحبته ، وقال السري السقطي : الشكر أن لا تعصي الله بنعمه ، وقال الجنيد : أن لا ترى معه شريكاً في نعمه . وقيل هو الإقرار بالعجز عن الشكر . والحاصل : أن شكر القلب المعرفة ، وشكر اللسان الحمد ، وشكر الأركان الطاعة ، ورؤية العجز في الكل دليل قبول الكل) .

٥ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **إليّ المصير** ﴾ روى ابن أبي حاتم ... عن سعيد ابن وهب قال : قدم علينا معاذ بن جبل وكان بعثه النبي ﷺ فقام وحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « إني رسول رسول الله ﷺ إليكم ، أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وأن تطيعوني لا آلوكم خيراً ، وإنّ المصير إلى الله ، وإلى الجنّة أو إلى النّار ، وإقامة فلا ظعن ، وخلود فلا موت » .

٦ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وإن جاهداك على أن تُشرك بي ما ليس لك به علم** ﴾ قال ابن كثير : (روى الطبراني ... عن سعد بن مالك قال : أنزلت فيَّ هذه الآية ﴿ **وإن جاهداك على أن تُشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما** ﴾ الآية . قال : كنت رجلاً بَرّاً بأُمّي ، فلما أسلمتُ قالت : يا سعد ما هذا الذي أراك قد أحدثت ! لتدَعَن دينك هذا أَوْ لا آكل ولا أشرب حتى أموت فتُعَيَّر بي فيقال : يا قاتل أمّه ، فقلت : لا تفعلي يا أمّه ؛ فإني لا أدع ديني هذا لشيء ، فمكَثَتْ يوماً وليلة لم تأكل ، فأصبحت قد جَهَدَت ، فمكثَتْ يوماً آخر وليلة لم تأكل ، فأصبحت قد جهدت ، فمكثت يوماً وليلة أخرى لا تأكل ، فأصبحت قد اشتد جهدها ، فلما رأيت ذلك قلت : يا أمّه تعلمين - والله - لو كانت لك مائة نفس فخرجت نَفْساً نَفْساً ما تركت ديني هذا لشيء ، فإن شِئْتِ فَكُلي ، وإن شِئْتِ لا تأكلي . فأكَلَتْ) .

٧ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **إنها إن تك مثقال حَبّة من خردل فتكن في صخرة** ﴾ قال ابن كثير : (وقد زعم بعضهم أن المراد بقوله : ﴿ **فتكن**

في صخرة ﴾ أنها صخرة تحت الأرضين السبع . وذكره السدي بإسناده ذلك المطروق عن ابن مسعود وابن عباس وجماعة من الصحابة إن صح ذلك ، ويروى هذا عن عطية العوفي ، وأبي مالك ، والثوري ، والمنهال بن عمرو وغيرهم . وهذا - والله أعلم - كأنه متلقًى من الإسرائيليات التي لا تصدّق ولا تكذّب . والظاهر - والله أعلم - أن المراد هذه الحبة في حقارتها لو كانت داخل صخرة فإنّ الله سيبديها ويظهرها بلطيف علمه . كما روى الإمام أحمد ... عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ قال : « لو أن أحدكم يعمل في صخرة صمّاء ليس لها باب ولا كوّة لخرج عمله للنّاس كائناً ما كان ») .

أقول : إنّ مثل هذه الأقوال التي نقلها ابن كثير ، والتي نراها كثيراً عند المفسرين ينبغي ألّا نتردّد في شأنها فهي تمثّل ثقافة أصحابها ، وثقافة العصر التي قيلت فيه ، ومن ثَمَّ فلا يصح أن نربط بين الخطأ فيها وبين كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وهما الحق الذي لا يخالطه باطل أو خطأ .

٨ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **إن الله لا يحب كل مختال فخور** ﴾ روى الحافظ أبو القاسم الطبراني ... عن ثابت بن قيس بن شماس قال : ذُكر الكبر عند رسول الله ﷺ فشدّد فيه فقال : ﴿ **إن الله لا يحب كل مختال فخور** ﴾ . فقال رجل من القوم : والله يا رسول الله إني لأغسل ثيابي فيعجبني بياضها ، ويعجبني شراك نعلي ، وعلاقة سوطي فقال : « ليس ذلك الكبر ، إنما الكبر أن تسفّه الحق وتغمط الناس » .

٩ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **إن أنكر الأصوات لَصَوْت الحَمير** ﴾ قال ابن كثير : (وروى النسائي ... عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « إذا سمعتم صياح الديكة فاسألوا الله من فضله ، وإذا سمعتم نهيق الحمير فتعَوَّذوا بالله من الشيطان ؛ فإنها رأت شيطاناً ») .

١٠- علّق ابن كثير على قصة لقمان بقوله :

فهذه وصايا نافعة جداً ، وهي من قصص القرآن العظيم عن لقمان الحكيم وقد روي عنه من المواعظ أشياء كثيرة فلنذكر منها أنموذجاً ودستوراً إلى ذلك . روى الإمام أحمد ... عن ابن عمر قال : أخبرنا رسول الله ﷺ قال : « إنّ لقمان الحكيم كان يقول : إنّ الله إذا استودع شيئاً حفظه » . وروى ابن أبي حاتم ... عن القاسم ابن مخيمرة أن رسول الله ﷺ قال : « قال لقمان الحكيم لابنه وهو يعظه : يا بني إيّاك

والتقنّع فإنّه مخوفة بالليل مذّمة بالنّهار » . وروى أيضاً عن الترمذي بن يحيىٰ قال : قال لقمان لابنه : يا بني إن الحكمة أجلست المساكين مجالس الملوك . وروى أيضاً عن عون بن عبد الله قال : قال لقمان لابنه : يا بني إذا أتيت نادي قوم فارمهم بسهم الإسلام يعني السلام ، ثم اجلس في ناحيتهم فلا تنطق حتى تراهم قد نطقوا ، فإن أفاضوا في ذكر الله فأجِل سهمك معهم ، وإن أفاضوا في غير ذلك فتحوّل عنهم إلى غيرهم . وقال أيضاً ... عن حفص بن عمر قال : وضع لقمان جراباً من خردل إلى جانبه وجعل يعظ ابنه وعظة ويخرج خردلة ، حتى نفد الخردل فقال : يا بني لقد وعظتك موعظة لو وعظها جبل تفطّر ، قال فتفطّر ابنه . وروى أبو القاسم الطبراني ... عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « اتخذوا السودان فإن ثلاثة منهم من سادات أهل الجنة : لقمان الحكيم والنجاشي وبلال المؤذن » . وقال الطبراني : أراد الحبش .

☆ ☆ ☆

المقطع الثالث

ويمتد من الآية (٢٠) إلى الآية (٣٤) وهو نهاية السورة وهذا هو :

أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾ * وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ

﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ
مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ أَنَّمَا فِي
الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ۚ
إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ
بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ
وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ
هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ تَرَ
أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ
صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا
نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ
اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا ۚ
إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ
عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ
غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾

ملاحظة في السياق :

نلاحظ أن المقطع الأخير يتألف من ثلاث مجموعات وخاتمة .

المجموعات الثلاث تبدأ بداية متشابهة .

المجموعة الأولى تبدأ بـ ﴿ **أَلَمْ تروا ...** ﴾ .

المجموعة الثانية والثالثة تبدآن بـ ﴿ **أَلَمْ تر ...** ﴾ .

الخاتمة مبدوءة بـ ﴿ **يا أيها الناس ...** ﴾ .

فلنر التفسير .

تفسير المجموعة الأولى

﴿ **ألم تروا أن الله سَخَّر لكم ما في السمٰوات** ﴾ من شموس وأقمار ونجوم وغير ذلك . ﴿ **وما في الأرض** ﴾ من بحار وأنهار ومعادن ودوابّ وغير ذلك . ﴿ **وأسْبَغ** ﴾ أي وأتمَّ ﴿ **عليكم نِعَمَهُ ظاهرة** ﴾ بالمشاهدة ﴿ **وباطنة** ﴾ مما لا يعلم إلا بدليل . وقيل الظاهرة : كالبصر والسّمع واللسان وسائر الجوارح ، والباطنة : كالقلب والعقل والفهم وما أشبه ذلك . وقيل : تخفيف الشرائع وتضعيف الذرائع والخَلق والخُلق ، ونيل العطايا وصرف البلايا ، وقبول الخَلق ورضا الرب . وقيل : الظاهرة ما سوّى من خَلقك ، والباطنة ما سَتَر من عيوبك . وقال ابن كثير : (وأسبغ عليهم نعمه الظاهرة والباطنة من إرسال الرّسل ، وإنزال الكتب ، وإزالة الشّبه والعلل ، ثمّ مع هذا ما آمن الناس كلهم ، بل منهم من يجادل في الله أي في توحيده وإرساله الرسل ، ومجادلته في ذلك بغير علم ولا مستند من حجّة صحيحة ، ولا كتاب مأثور صحيح) . ولهذا قال تعالى : ﴿ **ومن الناس من يجادل في الله بغير علم** ﴾ كَسْبي ﴿ **ولا هدى** ﴾ فطري ﴿ **ولا كتاب منير** ﴾ أي مبين مضيء ﴿ **وإذا قيل هم** ﴾ أي هؤلاء المجادلين في توحيد الله ﴿ **اتّبعوا ما أنزل الله** ﴾ أي القرآن والوحي ﴿ **قالوا بل نَتّبع ما وجدنا عليه آباءنا** ﴾ أي لم يكن هم حجّة إلا اتّباع الآباء الأقدمين ﴿ **أوَ لَوْ كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير** ﴾ أي أيتبعونهم ولو كان الشيطان يدعوهم إلى النار ، أي أيتبعونهم حتى في حال دعاء الشيطان إياهم إلى العذاب

﴿ **ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن** ﴾ أي ومن يخلص وجهه لله بانقياده لأمره ، واتباعه لشرعه ، وهو محسن في عمله باتباع ما به أمر ، وترك ما عنه زجر ﴿ **فقد استَمْسَكَ** ﴾ أي تَمسَّك وتعلّق ﴿ **بالعُروة الوثقىٰ** ﴾ قال ابن كثير : (أي فقد أخذ موثقاً من الله متيناً أنّه لا يعذّبه) . والعروة : هي ما يعلّق به الشيء ، والوثقى : تأنيث الأوثق . وفسر بعضهم الآية بأنّه مَنْ يفوّض أمره لله ، ويتوكّل عليه ، وهو محسن بعمله فإنه مستمسك بالعروة الوثقى . قال النسفي : (مَثّل حال المتوكّل بحال من أراد أن يتدلّى من شاهق ، فاحتاط لنفسه بأن استمسك بأوثق عروة من حبل متين مأمون انقطاعه) ﴿ **وإلى الله عاقبة الأمور** ﴾ أي هي صائرة إليه فيجازي عليها ﴿ **ومن كفر** ﴾ ولم يسلم وجهه لله ﴿ **فلا يَحزُنْك كفره** ﴾ أي فلا يهمّنك كفر من كفر ﴿ **إلينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا** ﴾ أي فنعاقبهم على أعمالهم ﴿ **إن الله عليم بذات الصدور** ﴾ أي إن الله يعلم ما في صدور عباده فيفعل بهم على حسبه ﴿ **نمتعهم قليلاً** ﴾ أي زماناً قليلاً في الدنيا ﴿ **ثم نضطرهم** ﴾ أي نُلجئهم ﴿ **إلى عذاب غليظ** ﴾ أي شديد فظيع صعب شاقٍّ على النفوس ، شبّه إلزامهم التعذيب ، وإرهاقهم إياه ، باضطرار المضطر إلى الشيء ﴿ **ولئن سألتهم مَنْ خلق السمٰوات والأرض ليقولن الله قل الحمد لله** ﴾ هذا إلزام لهم على إقرارهم بأن الذي خلق السمٰوات والأرض هو الله وحده ، وأنه يجب أن يكون له الحمد والشكر وألا يُعبد معه غيره ﴿ **بل أكثرهم لا يعلمون** ﴾ أن ذلك يلزمهم وإذا نُبِّهوا عليه لم ينتبهوا ﴿ **لله ما في السمٰوات والأرض** ﴾ فالكل خلقه وملكه ﴿ **إن الله هو الغني الحميد** ﴾ الغني عن حمد الحامدين ، الحميد المستحق للحمد وإن لم يحمده أحد ﴿ **لو أنَّ ما في الأرض من شجرة أقلامٌ والبحر يمدُّه من بعده سبعة أبحُرٍ ما نفدت كلمات الله** ﴾ أي ولو أن أشجار الأرض أقلام ، والبحر ممدود بسبعة أبحر ، وكتبت بتلك الأقلام ، وبذلك المداد كلمات الله لما نفدت كلماته ، ونفدت الأقلام والمداد ﴿ **إن الله عزيز** ﴾ لا يعجزه شيء ﴿ **حكيم** ﴾ في خلقه وأمره وأقواله وأفعاله وشرعه وجميع شؤونه ﴿ **ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنَفْسٍ واحدة** ﴾ أي إلا كخلق نفس واحدة ، وبعث نفس واحدة . أي سواء في قدرته القليل والكثير ، فلا يشغله شأن عن شأن ﴿ **إنّ الله سميع** ﴾ لأقوالهم ﴿ **بصير** ﴾ بأفعالهم كسمعه وبصره بالنسبة إلى نفس واحدة . فكذلك قدرته عليهم كقدرته على نفْس واحدة .

نقل :

قال صاحب الظلال عند قوله تعالى : ﴿ **أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُم مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً** ﴾ :

(التناسق بين حاجات الإنسان على الأرض وتركيب هذا الكون يقطع بأنّ هذا التناسق لا يمكن أن يكون فلتة ولا مصادفة ؛ وأنه لا مفر من التسليم بالإرادة الواحدة المدبّرة ، التي تنسّق بين تركيب هذا الكون الهائل وحاجات البشر على هذا الكوكب الصغير الضئيل .. الأرض .. !

إن الأرض كلها لا تبلغ أن تكون ذرة صغيرة في بناء الكون . والإنسان في هذه الأرض خليقة صغيرة هزيلة ضعيفة بالقياس إلى حجم هذه الأرض ، وبالقياس إلى ما فيها من قوى ومن خلائق حَيّة وغير حَيّة ، لا يُعَد الإنسان من ناحية حجمه ووزنه وقدرته المادية شيئاً إلى جوارها . ولكن فضل الله على هذا الإنسان ونفخته فيه من روحه ، وتكريمه له على كثير من خلقه .. هذا الفضل وحده قد اقتضى أن يكون لهذا المخلوق وزن في نظام الكون وحساب . وأن يهيء الله له القدرة على استخدام الكثير من طاقات هذا الكون وقواه ، ومن ذخائره وخيراته . وهذا هو التسخير المشار إليه في الآية ، في معرض نعم الله الظاهرة والباطنة ، وهي أعم من تسخير ما في السماوات وما في الأرض . فوجود الإنسان ابتداء نعمة من الله وفضل ؛ وتزويده بطاقاته واستعداداته ومواهبه هذه نعمة من الله وفضل ؛ وإرسال رسله وتنزيل كتبه فضل أكبر ونعمة أجل ؛ ووصله بروح الله من قبل هذا كله نعمة من الله وفضل ؛ وكل نَفَس يتنفسه ، وكل خفقة يخفقها قلبه ، وكل منظر تلتقطه عينه ، وكل صوت تلتقطه أذنه ، وكل خاطر يهجس في ضميره ، وكل فكرة يتدبرها عقله ... إن هي إلا نعمة ما كان لينالها لولا فضل الله .

وقد سخّر الله لهذا المخلوق الإنساني ما في السماوات ، فجعل في مقدوره الانتفاع بشعاع الشمس ونور القمر وهدى النجوم ، وبالمطر والهواء والطير السابح فيه . وسخّر له ما في الأرض . وهذا أظهر وأيسر ملاحظة وتدبراً . فقد أقامه خليفة في هذا الملك الطويل العريض ، ومكّنه من كل ما تذخر به الأرض من كنوز . ومنه ما هو ظاهر ومنه ما هو مستتر . ومنه ما يعرفه الإنسان ومنه ما لا يدرك إلا آثاره ؛ ومنه ما لم يعرفه أصلاً من أسرار القوى التي ينتفع بها دون أن يدري . وإنه لمغمور في كل لحظة

من لحظات الليل والنهار بنعم الله السابغة الوافرة التي لا يدرك مداها ، ولا يُحصي أنماطها .. ومع هذا كله فإن فريقاً من الناس لا يشكرون ولا يذكرون ولا يتدبرون ما حولهم ، ولا يوقنون بالمنعم المتفضل الكريم) .

كلمة في السياق :

١ - إن المقطعين الأوّلين في السورة قررا حكمة هذا القرآن ، وقررا ضرورة الإحسان ، وكل ذلك في سياق ضرورة الاهتداء بكتاب الله ، ثمّ جاءت هذه المجموعة لتبيّن كذلك ضرورة الاهتداء بكتاب الله من خلال لفت نظر الناس إلى نِعَم الله التي تقتضي شكراً .

ففي الآية الأولى : ﴿ **ألم تروا أن الله سخَّر لكم ما في السموات وما في الأرض وأسبغ عليكم نِعَمه ظاهرة وباطنة** ﴾ تَقَرّر وجوب الشكر ، ثم جاءت الآية الثانية ﴿ **وإذا قيل لهم اتّبعوا ما أنزل الله** ... ﴾ لتدلّ على طريق الشكر ثمّ جاءت الآية الثالثة لتبين صورة الشكر وحقيقته ﴿ **ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن** ... ﴾ .

ثمّ جاءت الآية السادسة فألزمت بضرورة الشكر ﴿ **ولئن سألتهم من خلق السمٰوات والأرض ليقولن الله قل الحمد لله** ... ﴾ .

ثمّ جاءت الآية الثامنة فتحدثت عن كلمات الله ، وختمت الآية بقوله تعالى : ﴿ **إن الله عزيز حكيم** ﴾ وفي ذلك تأكيد لحكمة الله وإحاطة علمه وهذا يؤكد موضوع حكمة القرآن وضرورة اتباعه .

وختمت المجموعة بقوله تعالى : ﴿ **ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة** ... ﴾ وذلك تذكير بضرورة الاتباع لوجود الحساب ، وبضرورة الشكر لوجود الحساب ، وتأكيد لسعة علم الله تعالى وإحاطة قدرته ، وكل ذلك يوجب الإحسان ، والشكر لله ، والاتباع لكتابه ، واعتقاد حكمته .

وهكذا نجد أن السورة قررت حكمة القرآن وضرورة اتباعه ومواصفات المتبعين ، وكل ذلك ضمن سياق يخدم محور السورة .

﴿ **الٓمٓ * ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين * الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون** ... ﴾ .

٢ - لاحظ الآن الصلة بين قوله تعالى في أوائل السّورة :

﴿ **الٓمٓ * تلك آيات الكتاب الحكيم * هدى ورحمة للمحسنين** ﴾ وبين قوله تعالى في هذه المجموعة : ﴿ **ومن يُسلم وجهه إلى الله وهو محسن** ﴾ لتتأكد أن موضوع اتّباع الكتاب أساس في السّياق ، ولننتقل إلى المجموعتين الثانية والثالثة .

تفسير المجموعتين الثانية والثالثة

﴿ **ألم تر أن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل** ﴾ أي يدخل هذا في هذا ، وهذا في هذا ، على نظام هو غاية في الدِّقة ﴿ **وسَخّر الشمس والقمر كلٌّ يجري إلى أجل مسمّىً** ﴾ أي إلى يوم القيامة ﴿ **وأن الله بما تعملون خبير** ﴾ فلا يخفى عليه الظاهر والخفي ﴿ **ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل** ﴾ أي ذلك الوصف الذي وصف به عجائب قدرته وحكمته التي يعجز عنها الأحياء القادرون العالمون . فكيف بالجماد الذي يدعونه من دون الله ، إنما هو بسبب أنه هو الحق الثابت الإلهية ، وأن من دونه باطل الإلهية ﴿ **وأن الله هو العلي** ﴾ الشأن ﴿ **الكبير** ﴾ السلطان . قال ابن كثير : (أي العلي الذي لا أعلى منه ، الكبير الذي هو أكبر من كل شيء فكل خاضع بالنسبة إليه) .

﴿ **ألم تر أن الفلك** ﴾ أي السفينة ﴿ **تجري في البحر بنعمة الله** ﴾ أي بإحسانه ورحمته . أو بالريح لأن الريح من نعم الله ﴿ **ليريكم من آياته** ﴾ أي ليريكم من عجائب قدرته في البحر إذا ركبتموها ﴿ **إن في ذلك لآيات لكل صَبَّار** ﴾ على بلائه ﴿ **شكور** ﴾ لنعمائه ﴿ **وإذا غَشِيَهم موج** ﴾ أي غطّاهم موج ﴿ **كالظُلَلِ** ﴾ أي كالجبال والغمام ، والظلة : كل ما أظلك من جبل أو سحاب أو غيرها ﴿ **دَعَوُا الله مخلصين له الدين** ﴾ أي موحّدين له الطاعة ﴿ **فلمّا نجّاهم إلى البرّ فمنهم مقتصد** ﴾ أي باق على الإيمان والإخلاص الذي كان منه ولم يعد إلى الكفر ، أو مقتصد في الإخلاص الذي كان عليه في البحر يعني : أن ذلك الإخلاص الحادث عند الخوف لا يبقى لأحد قط فالمقتصد على هذا هو المتوسّط في العمل ، أو صاحب العمل القليل النادر . قال ابن كثير : (ويحتمل أن يكون مراداً هنا ويكون من باب الإنكار على من شاهد تلك الأهوال والأمور العظام ، والآيات الباهرات في البحر ، ثم بعد ما أنعم الله عليه بالخلاص كان ينبغي أن يقابل ذلك بالعمل التام والدؤوب في العبادة ، والمبادرة إلى الخيرات . فمن اقتصد بعد ذلك كان مقصراً والحالة هذه ، والله أعلم) ﴿ **وما يجحد**

بآياتنا ﴾ أي بحقيتها أي بالقرآن ﴿ **إلا كل ختَّارٍ** ﴾ أي غدّار ، والختر : أقبح الغدر ﴿ **كفور** ﴾ أي جحود للنعم لا يشكرها بل يتناساها ولا يذكرها .

كلمة في السياق :

١ - جاءت المجموعة الثانية بعد قوله تعالى : ﴿ **ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة إن الله سميع بصير** ﴾ ومن ثَمَّ فقد ذكر فيها دليلان على قدرة الله المطلقة ، إن إيلاج الليل بالنهار ، وتسخير الشمس والقمر ، لدليلان على قدرة الله المطلقة . كما أن في ذلك دليلاً على أنّ الله هو الحق بقوله تعالى : ﴿ **ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل** ﴾ . وهكذا نجد أن السّياق في السورة متعانق .

٢ - والمجموعتان لفتتا النظر إلى نعم الله التي تقتضي شكراً مظهره الإيمان بكتاب الله واتباعه ، ومن ثَمَّ ختمت الآيات بقوله تعالى : ﴿ **وما يجحد بآياتنا إلا كل ختَّار كفور** ﴾ فالمجموعتان تجريان على نسق السورة في ضرورة اتباع كتاب الله بعد أن أثبت الله حكمة هذا القرآن .

وهكذا نجد أنّ السورة :

قرّرت حكمة هذا القرآن ، وقرّرت أنّ المحسنين يهتدون به ويُرحَمون ثمّ وصفت المحسنين ، ثم أثبتت أن هذا القرآن حكيم من خلال الكلام عن أفعال الله عز وجل ، ومن خلال قصة لقمان ، ثم سارت الآيات لتحدثنا عن نعم الله التي تقتضي إحساناً ، وتقتضي شكراً ﴿ **ألم تر أن الفلك تجري في البحر بنعمة الله ليريكم من آياته إن في ذلك لآيات لكلّ صبّار شكور** ﴾ .

فإذا استقرت هذه المعاني فإنّه تأتي بعد ذلك آيتان هما خاتمة السورة تدعوان إلى الله وخشيته ، وعدم الاغترار بالدنيا والشيطان ، وتقرّران أنّ الله يعلم مفاتح الغيب .

وبذلك تكون السورة قد فصّلت الكثير في الآيات الأولى سورة البقرة :

﴿ **الٓمٓ * ذلك الكتاب لا ريب فيه هدىً للمتقين * الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون** ... ﴾ فلنر الخاتمة .

تفسير خاتمة المقطع الثالث والسورة

﴿ **يا أيها الناس اتقوا ربكم** ﴾ بالخوف منه ؛ وذلك باتّباع كتابه ، وإقام الصلاة ، وايتاء الزكاة ﴿ **واخشوا يوماً** ﴾ هو يوم القيامة ﴿ **لا يجزي وَالد عن ولده** ﴾ أي لا يجزي فيه ، أي لا يقضي عنه شيئاً ﴿ **ولا مولود هو جازٍ عن والده شيئاً** ﴾أي وكذلك الولد لو أراد فداء والده بنفسه لم يقبل منه ﴿ **إنّ وَعْد الله حق** ﴾ أي إن وعد الله بالبعث والحساب والجزاء حقّ ﴿ **فلا تغرنّكم الحياة الدنيا** ﴾ أي لا تلهينّكم بالطمأنينة فيها عن الدار الآخرة فلا تلهينّكم بزينتها ولذاتها ؛ فإنّ نعمتها دانية ولذاتها فانية ﴿ **ولا يغرنّكم بالله الغرور** ﴾ أي الشيطان ثم ذكر تعالى أنّه وحده هو الذي يعلم مفاتح الغيب ليدلّل بذلك على أنّ وعده حق ، وأن ما يغر عن وعده كاذب ﴿ **إن الله عنده علم الساعة** ﴾ أي وقت قيامها ﴿ **وينزِّل الغيث** ﴾ في إبّانه من غير تقديم ولا تأخير ، وفي الفوائد كلام عن هذه الآية ﴿ **ويعلم ما في الأرحام** ﴾ علماً كاملاً أذكر أم أنثىٰ ، تامٌّ أم ناقص ، وغير ذلك ﴿ **وما تدري نفس** ﴾ برة أو فاجرة ﴿ **ماذا تكسب غداً** ﴾ من خير أو شر ، وربما كانت عازمة على خير فعملت شراً ، وعازمة على شر فعملت خيراً ﴿ **وما تدري نفس بأي أرض تموت** ﴾ أي أين تموت فربّما أقامت بأرض وضربت أوتادها وقالت لا أبرحها فترمي بها مرامي القدر حتى تموت في مكان لم يخطر ببالها ﴿ **إن الله عليم** ﴾ بالغيوب ﴿ **خبير** ﴾ بما كان ويكون .

وهكذا انتهى المقطع الثالث ، وانتهت بنهايته السورة وقد رأينا أنّ السورة تألفت من ثلاثة مقاطع ، كل مقطع أدّىٰ دوره في خدمة سياق السورة ضمن محورها .

قال صاحب الظلال :

(وهكذا تنتهي السورة ، كما لو كانت رحلة هائلة بعيدة الآماد والآفاق والأغوار والأبعاد . ويؤوب القلب من هذه الرحلة المديدة البعيدة ، الشاملة الشاسعة ، وئيد الخطىٰ لكثرة ما طوّف ، ولجسامة ما يحمل ، ولطول ما تدبَّر وما تفكَّر ، في تلك العوالم والمشاهد والحيوات !

وهي بعد سورة لا تتجاوز الأربع والثلاثين آية . فتبارك الله خالق القلوب ، ومنزل هذا القرآن شفاء لما في الصدور ،.وهدى ورحمة للمؤمنين ..) .

فوائد :

١ - قال الله عزّ وجلّ : ﴿ **أَلَمْ تروا أنّ الله سَخّر لكم ما في السمٰوات وما في الأرض** ﴾ وهذا يفيد أنّ كل شيء في السمٰوات والأرض مُسخَّر للإنسان ، فالسمٰوات مُسخّرة للإنسان إذ يمتّع بها ناظريه ، ويتعرف بها على الله عز وجل ، ويروي من خلال التعرّف عليها ظمأه إلى المعرفة ، ثمّ إنّ نظام الكون مرتبط بعضه ببعض بقوانين الجاذبية ، وذلك من مظاهر تسخير السمٰوات ، وبدون الشمس والقمر تتعذّر الحياة ، وذلك من مظاهر التسخير ، ومن النجوم تصل إلى الأرض إشعاعات ، وبالنجوم يهتدي الإنسان ، وكل ذلك نوع تسخير ، وفي عصرنا وصل الإنسان إلى القمر ، وما ندري ماذا سيكون في المستقبل ، فهل سيصل الإنسان إلى كواكب أخرى ؟ وما ندري كم سيكون في ذلك من فوائد ، وفي ذلك كله نوع تسخير ، أما تسخير كل ما في الأرض للإنسان من بحار وتراب ، وظاهر وباطن ، فهو واضح بأدنىٰ تأمّل .

٢ - ذكرنا في كتابنا (الرسول) في باب المعجزة القرآنية : أن من مظاهر الإعجاز في هذا القرآن أنّك تجد فيه صوراً لا يمكن أن تكون وليدة البيئة العربية ، أو وليدة الفكر الإنساني ، وضربنا على ذلك أمثلة منها قوله تعالى : ﴿ **ولو أنّما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يَمُدُّه من بعده سبعةُ أَبْحُرٍ ما نفدت كلمات الله إنّ الله عزيز حكيم** ﴾ فليراجع البحث هناك .

٣ - يثير بعض الناس أسئلة كثيرة حول آية ﴿ **إن الله عنده علم الساعة وينزِّل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت** ﴾ وسبب الأسئلة أنّ الأحاديث النّبوية تذكر أنّ هذه الخمسة لا يعلمها إلا الله ، فهم يرون أنّ نزول الغيث قد يعرفه الإنسان قبيل نزوله ، وأن هناك إمكانيات لمعرفة ما في الأرحام في بعض شهور الحمل ، وبسبب من مثل ذلك يتساءلون .

أقول : إنّ توقّع نزول المطر من خلال الأعراض الجوّية لا يعتبر علماً بالغيب ، وقد كان العربي منذ القديم يستطيع من خلال حاسّة الشم ، أو من خلال الفراسة في الغيوم أن يعرف قضية نزول المطر ، وهذا كله من باب العلم بالأسباب ، ولا يدخل في الآية . قال النسفي : (وما يـدرك بالدليل لا يكون غيباً ، على أنّه مجرد الظن والظنّ غير العلم) ، وعلى هذا فكون الإنسان قد عرف شيئاً ممّا له علاقة بعالم الأسباب

في شأن المطر فإنه لا يكون عارفاً بكل ما له علاقة بالمطر ونزوله في كل وقت وكل حال ، أمّا الله عزّ وجلّ فمن الأزل يعلم كم وفي ومتىٰ في كل عام ، فالجانب الذي لا يتوصّل إليه الإنسان من خلال عالم الأسباب من هذه الظاهرة هو الجانب الغيبي ، مع ملاحظة أنّ ما يصل إليه الإنسان هو أشبه بالظن ، وأما إنزال المطر بواسطة إطلاق نوع من القنابل إلى الجو فهذا لا ينفي أن الله هو منزل المطر ؛ لأن الأسباب كلها إنما هي بقدرة الله وإرادته وعلمه . وأما إمكانية أن يعرف الإنسان شيئاً عن الجنين فهذا ليس غريباً ، ولكن هذه المعرفة محدودة ضمن عالم الأسباب الذي لا يعتبر من عالم الغيب ، فهذا المَلَك يعرف عن الجنين قبل ولادته ، فمثل هذا لا ينقض العلم المطلق لله في هذا الشأن ، فالله عزّ وجلّ يعلم عن الجنين قبل خلقه ، ويعلم ذرات البويضات ، وتشكلها ، وماذا سيكون منها ، ثم ما بعد ذلك وما قبله مما لا يعرف الإنسان منه شيئاً ، فمعرفة البشر الجزئية لا تنفي أن الله وحده هو الذي يعلم ، كما أن معرفة المَلَك بالجنين وهو في بطن أمه لا تنفي أن الله وحده هو الذي يعلم كل شيء عن الجنين . قال ابن كثير :

(وكذلك إنزال الغيث لا يعلمه إلا الله ، ولكن إذا أمر به عَلِمَه الملائكة الموكلون بذلك ، ومن يشاء الله من خلقه ، وكذلك لا يعلم ما في الأرحام مما يريد أن يخلقه تعالى سواه ، ولكن إذا أمر بكونه ذكراً أو أنثىٰ ، أو شقياً أو سعيداً ، علم الملائكة الموكلون بذلك ، ومن شاء الله من خلقه) .

٤ - قال ابن كثير في آية ﴿ **إنّ الله عنده علم الساعة** ... ﴾ قد وردت السنّة بتسمية هذه الخمس مفاتيح الغيب . روى الإمام أحمد ... عن أبي بريدة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « خمس لا يعلمهنّ إلا الله عزّ وجلّ : ﴿ **إن الله عنده علم الساعة ، وينزّل الغيث ، ويعلم ما في الأرحام ، وما تدري نفس ماذا تكسب غداً ، وما تدري نفس بأيّ أرض تموت إنّ الله عليم خبير** ﴾ » . هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجوه . وروى الإمام أحمد ... عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهنّ إلا الله : ﴿ **إن الله عنده علم الساعة ، وينزّل الغيث ، ويعلم ما في الأرحام ، وما تدري نفس ماذا تكسب غداً ، وما تدري نفس بأي أرض تموت إن الله عليم خبير** ﴾ . انفرد بإخراجه البخاري فرواه في كتاب الاستسقاء في صحيحه ، ورواه في التفسير من وجه اخر ... عن عبد الله بن عمر قال : قال النبي

ﷺ : « مفاتح الغيب خمس » . ثم قرأ ﴿ **إن الله عنده علم الساعة وينزِّل الغيث ويعلم ما في الأرحام** ﴾ انفرد به أيضاً . ورواه الإمام أحمد ... عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال : « أوتيت مفاتيح كل شيء إلا الخمس : ﴿ **إن الله عنده علم الساعة ، وينزِّل الغيث ، ويعلم ما في الأرحام ، وما تدري نفس ماذا تكسب غداً ، وما تدري نفس بأي أرض تموت ، إن الله عليم خبير** ﴾ » . وروى الإمام أحمد ... عن عبد الله بن سلمة قال : قال عبد الله بن مسعود : أوتي نبيكم ﷺ مفاتيح كل شيء غير خمس : ﴿ **إن الله عنده علم الساعة ، وينزِّل الغيث ، ويعلم ما في الأرحام ، وما تدري نفس ماذا تكسب غداً ، وما تدري نفس بأي أرض تموت ، إن الله عليم خبير** ﴾ . وروى البخاري عند تفسير هذه الآية ... عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يوماً بارزاً للناس ، إذ أتاه رجل يمشي فقال يا رسول الله : ما الإيمان ؟ قال : « الإيمان أن تؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، ولقائه ، وتؤمن بالبعث الآخر » قال يا رسول الله : ما الإسلام ؟ قال : « الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به شيئاً ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة المفروضة ، وتصوم رمضان » قال يا رسول الله : ما الإحسان ؟ قال : « الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنّه يراك » قال يا رسول الله : متى الساعة ؟ قال : « ما المسئول عنها بأعلم من السائل ولكن سأحدثك عن أشراطها : إذا ولدت الأمة ربّتها فذاك من أشراطها . وإذا كان الحفاة العراة رؤوس الناس فذاك من أشراطها ، في خمس لا يعلمهنّ إلا الله ﴿ **إن الله عنده علم الساعة وينزِّل الغيث ويعلم ما في الأرحام** ﴾ الآية » ، ثم انصرف الرجل فقال : « ردّوه عليّ » فأخذوا ليردّوه فلم يروا شيئاً فقال : « هذا جبريل جاء ليعلم الناس دينهم » . ورواه البخاري أيضاً في كتاب الإيمان ومسلم من طرق) ثمّ ذكر ابن كثير روايات أخرى تؤكد الموضوع نفسه .

٥ - وبمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وما تدري نفس بأي أرض تموت** ﴾ قال ابن كثير : (وقد جاء في الحديث : « إذا أراد الله قبض عبد بأرض جعل له إليها حاجة » ثمّ ذكر روايات كثيرة لهذا الحديث .

٦ - من تحقيقات الألوسي في قوله تعالى : ﴿ **إن الله عنده علم الساعة ...** ﴾ هذه الفقرة :

وفي شرح المناوي الكبير للجامع الصغير في الكلام على حديث بُرَيدة السابق ،

خمس لا يعلمهن إلا الله على وجه الإحاطة والشمول ، كلّياً وجزئياً فلا ينافيه إطلاع الله تعالى بعض خواصّه على بعض المغيبات ، حتى من هذه الخمس ، لأنها جزئيات معدودة ، وإنكار المعتزلة لذلك مكابرة . انتهى . ويعلم مما ذكرنا وجه الجمع بين الأخبار الدالة على استئثار الله تعالى بعلم ذلك ، وبين ما يدل على خلافه كبعض إخباراته عليه الصلاة والسلام بالمغيبات التي هي من هذا القبيل ، يعلم ذلك من راجع نحو الشفاء ، والمواهب اللّدنية ، مما ذكر فيه معجزاته ﷺ ، وإخباره عليه الصلاة والسلام بالمغيبات ، وذكر القسطلاني أنه عز وجل إذا أمر بالغيث وسوقه إلى ما شاء من الأماكن علمته الملائكة الموكلون به ، ومن شاء سبحانه من خلقه عز وجل ، وكذا إذا أراد تبارك وتعالى خلق شخص في رحم ، يُعلم سبحانه الملَك الموكل بالرحم بما يريد جل وعلا ، كما يدل عليه ما أخرجه البخاري عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال : « إن الله تعالى وكَّل بالرحم ملَكاً يقول : يارب نطفة ، يارب علقة ، يارب مضغة ، فإذا أراد الله تعالى أن يقضي خلقه قال : أَذَكَر أم أنثى ؟ شقي أم سعيد ؟ فما الرزق والأجل ؟ فيكتب في بطن أمه ، فحينئذ يعلم بذلك الملَك ومن شاء الله تعالى من خلقه عز وجل » وهذا لا ينافي الاختصاص والاستئثار بعلم المذكورات بناء على ما سمعت منا من أن المراد بالعلم الذي استأثر سبحانه به العلم الكامل بأحوال كل على التفصيل ، فما يعلم به الملك ويطلع عليه بعض الخواص يجوز أن يكون دون ذلك العلم ، بل هو كذلك في الواقع بلا شبهة ، وقد يقال فيما يحصل للأولياء من العلم بشيء مما ذكر إنه ليس بعلم يقيني ، قال : على القاري في شرح الشفا : الأولياء وإن كان قد ينكشف لهم بعض الأشياء لكن علمهم لا يكون يقينياً ، وإلهامهم لا يفيد إلا أمراً ظنياً ، ومثل هذا عندي بل هو دونه بمراحل علم النجومي ونحوه بواسطة أمارات عنده بنزول الغيث ، وذكورة الحمل ، أو أنوثته ، أو نحو ذلك ، ولا أرى كفر من يدّعي مثل هذا العلم فإنه ظن عن أمر عادي ، وقد نقل العسقلاني في فتح الباري عن القرطبي أنه قال : من ادّعى علم شيء من الخمس غير مسنده إلى رسول الله ﷺ كان كاذباً في دعواه ، وأما ظن الغيب فقد يجوز من المنجم وغيره إذا كان عن أمر عادي وليس ذلك بعلم ، وعليه فقول القسطلاني : من ادعى علم شيء منها فقد كفر بالقرآن العظيم ، ينبغي أن يحمل العلم فيه على نحو العلم الذي استأثر الله تعالى به دون مطلق العلم الشامل للظن وما يشبهه) .

أقول : كلّ ما أطلع الله عليه عباده بشكل مباشر ، أو عن طريق قوانين هذا الكون وأسبابه – إذا كان قطعياً – فإنّه لا يكون ممّا استأثر بعلمه ، وإذا كان ظنياً فإن ذلك

لا يعتبر علماً ، وكلّ ما أطلع الله عليه عباده لا يخرج عن كونه أجزاء بالنسبة للعلم الشامل ، فالمتهوّكون في الآية مخطؤون .

كلمة أخيرة في سورة لقمان :

رأينا أنّ سورة لقمان تألّفت من ثلاثة مقاطع واضحة المعالم قد تكاملت فيها المعاني ، وممّا جاء في السورة :

أن هذا القرآن حكيم ؛ لأنه من عند الله الحكيم الذي من سُنَّته أن ينزل الحكمة على من يشاء من عباده ، وأنّ هذا القرآن فيه الهدىٰ والرحمة ، وأن النّاس قسمان : مهتدٍ وهم المحسنون ، وضال وهم الجاحدون .

وأن المحسنين هم الذين قابلوا نعم الله بما تستحقه فشكروها .

وأن الآخرين هم الذين قابلوا نعم الله بالجحود فكفروها .

وبعد أن استقرت هذه المعاني أمرت السورة النّاس جميعاً أن يتقوا الله ، ولاتقوى إلا بإيمان ، وصلاة ، وزكاة ، واتّباع كتاب كما ذكرت ذلك مقدمة سورة البقرة :

﴿ **الٓمٓ * ذلك الكتاب لا ريب فيه هدىً للمتقين * الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون** ﴾ (البقرة : ١ - ٣) .

....

وجاءت قصة لقمان في وسط السّورة لتبّين الجوانب العملية للشكر على إيتاء الحكمة ، فكان ما قبلها مقدمة لها ، وكان ما بعدها حثّاً على تطبيق ما ورد فيها من معان لا يستقيم شكر الإنسان إلا بها .

....

وقد فصّلت السورة في الآيات الأولى من سورة البقرة :

فنال قوله تعالى : ﴿ **الٓمٓ * ذلك الكتاب لا ريب فيه هدىً للمتقين** ﴾ حظاً من التفصيل يظهر في تبيان أن المتقين هم المحسنون ، وفي تبيان كون القرآن حكيماً ، وهذا ينفي أن يكون فيه ريب ، وفي كون المستمسكين به مستمسكين بالعروة الوثقىٰ .

ونال قوله تعالى : ﴿ **الذين يؤمنون بالغيب** ﴾ حظاً من التفصيل وخاصة عندما

ذكرت السورة مفاتح الغيب وأنها عند الله .

ونال قوله تعالى : ﴿ **ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون** ﴾ حظاً من التفصيل إذ فهم أنّ الزكاة هي المقصودة بالإنفاق ، وأن الصلاة قد أوصىٰ بها كل حكيم .

ونال قوله تعالى : ﴿ **وبالآخرة هم يوقنون** ﴾ حظاً من التدليل والتفصيل في مثل قوله تعالى : ﴿ **ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة** ... ﴾ وفي مثل قوله تعالى : ﴿ **إن وَعْد الله حق فلا تغرنّكم الحياة الدنيا ولا يغرنّكم بالله الغرور** ﴾ .

وهكذا نجد أنّ للسورة سياقها الخاص بها ، كما أنّها مرتبطة بالسياق القرآني العام ، وهكذا نجد التكامل في هذا القرآن ، ونجد الوحدة .

....

وفي السور الأربع المبدوءة بـ ﴿ **الٓمٓ** ﴾ من هذه المجموعة نجد التكامل واضحاً ، بحيث إنّ كل سورة فصّلت ضمن سياقها الخاص بها ما أكملت به عمل أخواتها ، ويكفي كتدليل على هذا التكامل أن تتأمّل ما سأذكره لك الآن .

أول البقرة :

﴿ **الٓمٓ * ذلك الكتاب لا ريب فيه هدىً للمتقين** ﴾ .

وأول سورة لقمان :

﴿ **الٓمٓ * تلك آيات الكتاب الحكيم** ﴾ .

وأول سورة السجدة :

﴿ **الٓمٓ * تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين** ﴾ .

لاحظ أنّ كلمة ﴿ **هدىً** ﴾ الواردة في آية البقرة وردت في سورة لقمان ولم ترد في سورة السجدة ، وأنّ كلمة ﴿ **لا ريب فيه** ﴾ الواردة في آية البقرة وردت في أول السجدة ولم ترد في أول لقمان ، وإذن فسورة السجدة تكمّل التفصيل للآية الأولى من البقرة : هذه تفصّل بشكل أخص في موضوع الاهتداء ، وهذه تفصّل بشكل أخص في موضوع الريب ، ومن مثل هذا ندرك صحة اتجاهنا في فهم الوحدة القرآنية ، وفي فهم السياق الخاص لكل سورة ، وفي فهم التكامل بين السور ، والحمد لله رب العالمين .

سورة السجدة

وهــي الســورة الثـانيـة والثلاثـون بحســب الرسـم القـرآني
وهي السـورة الرابعـة من المجموعة الأولى من قسـم
المثـانـي، وآيـاتهـا ثـلاثـون آيـة
وهــي مكيــة

وهي السورة الرابعة من زمرة (الٓمٓ)

في قسم المثاني

* * *

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ وَآلِهِ وَأَصْحَابِهِ

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا، إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

١ - قال الألوسي في تقديمه لسورة (الٓمٓ السّجدة) :

(وتسمى المضاجع أيضاً كما في الإتقان ، وفي مجمع البيان أنها كما تسمى سورة السجدة تسمى سجدة لقمان لئلا تلتبس بحم السجدة . وأطلق القول بمكِّيتها ، وأخرج ابن الضريس ، وابن مردويه ، والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس أنها نزلت بمكة . وأخرج ابن مردويه عن عبد الله بن الزبير مثله . وجاء في رواية أخرى عن الحبر استثناء ، وأخرج النحاس عنه رضي الله تعالى عنه أنه قال : نزلت سورة السجدة بمكة سوى ثلاث آيات ﴿ **أفمن كان مؤمناً** ... ﴾ إلى تمام الآيات الثلاث ، وروي مثله عن مجاهد ، والكلبي ؛ واستثنى بعضهم أيضاً آيتين أخريين وهما قوله تعالى : ﴿ **تتجافىٰ جنوبهم** ... ﴾ الخ ، واستدل عليه ببعض الروايات في سبب النزول وستطّلع على ذلك إن شاء الله تعالى ، واستبعد استثناؤهما لشدة ارتباطهما بما قبلهما . وهي تسع وعشرون آية في البصري وثلاثون في الباقية . ووجه مناسبتها لما قبلها اشتمال كلٍّ على دلائل الألوهية ، وفي البحر لما ذكر سبحانه فيما قبل دلائل التوحيد وهو الأصل الأول ، ثم ذكر جل وعلا المعاد وهو الأصل الثاني ، وختم جل شأنه به السورة ، ذكر تعالى في بدء هذه السورة الأصل الثالث وهو النبوة ، وقال الجلال السيوطي في وجه الاتصال بما قبلها : إنها شرح لمفاتح الغيب الخمسة التي ذكرت في خاتمة ما قبل ، فقوله تعالى : ﴿ **ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون** ﴾ شرح قوله تعالى : ﴿ **إن الله عنده علم الساعة** ﴾ ولذلك عقَّب بقوله سبحانه : ﴿ **عالم الغيب والشهادة** ﴾ وقوله تعالى : ﴿ **أو لم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز** ﴾ شرح قوله سبحانه : ﴿ **وينزّل الغيث** ﴾ وقوله تبارك وتعالى : ﴿ **الذي أحسن كل شيء خلقه** ﴾ الآيات شرح قوله جل جلاله : ﴿ **ويعلم ما في الأرحام** ﴾ وقوله عز وجل : ﴿ **يدبر الأمر من السماء إلى الأرض** ﴾ ﴿ **ولو شئنا لآتينا كلّ نفس هداها** ﴾ شرح قوله تعالى : ﴿ **وما تدري نفس ماذا تكسب غداً** ﴾ وقوله جل وعلا : ﴿ **أئذا ضللنا في الأرض** ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ **قل يتوفّاكم ملَك الموت الذي وُكِّل بكم ثم إلى ربكم تُرجعون** ﴾ شرح قوله سبحانه : ﴿ **وما تدري نفس بأي أرض تموت** ﴾ اهـ ، ولا يخلو عن نظر . وجاء في فضلها أخبار كثيرة ، أخرج أبو عبيد . وابن الضريس من مرسل المسيب بن رافع أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « تجيء الٓمٓ تنزيل - وفي رواية - الٓمٓ السجدة يوم القيامة لها جناحان تظل صاحبها وتقول : لا سبيل عليه لا سبيل عليه » .

وأخرج الدارمي . والترمذي . وابن مردويه عن طاووس قال : آلمّ السجدة ، وتبارك الذي بيده الملك تفضلان على كل سورة في القرآن بستين حسنة ، وفي رواية عن ابن عمر تفضلان ستين درجة على غيرهما من سور القرآن .

وأخرج أبو عبيد في فضائله . وأحمد . وعبد بن حميد . والدارمي . والترمذي . والنسائي . والحاكم وصححه وابن مردويه عن جابر قال : « كان النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لا ينام حتى يقرأ آلمّ تنزيل السجدة وتبارك الذي بيده الملك » .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « من قرأ تبارك الذي بيده الملك ، وآلمّ تنزيل السجدة بين المغرب والعشاء الآخرة فكأنما قام ليلة القدر » .

وروى نحوه هو والثعلبي والواحدي من حديث أبي بن كعب ، والثعلبي دونهم من حديث ابن عباس ، وتعقب ذلك الشيخ ولي الدين قائلاً : لم أقف عليه وهذه الروايات كلها موضوعة ، لكن رأيت في الدر المنثور أن الخرائطي أخرج في مكارم الأخلاق من طريق حاتم بن محمد عن طاووس أنه قال : ما على الأرض رجل يقرأ آلمّ تنزيل السجدة ، وتبارك الذي بيده الملك في ليلة إلا كُتب له مثل أجر ليلة القدر ، قال حاتم : فذكرت ذلك لعطاء فقال : صدق طاووس ، والله ما تركتهن منذ سمعت بهن إلا أن أكون مريضاً ، ولم أقف على ما قيل في هذا الخبر صحة وضعفاً ووضعاً ، وفيه أخبار كثيرة في فضلها غير هذا، والله أعلم بحالها وكان عليه الصلاة والسّلام يقرؤها و ﴿ **هل آتى** ﴾ في صلاة فجر الجمعة وهو مشعر بفضلها ، والحديث في ذلك صحيح لا مقال فيه ...) .

٢ – وقال صاحب الظلال في تقديمه لسورة السجدة :

(ترسم السورة صوراً للنفوس المؤمنة في خشوعها وتطلّعها إلى ربها . وللنفوس الجاحدة في عنادها ولجاجها ؛ وتعرض صوراً للجزاء الذي يتلقاه هؤلاء وهؤلاء ، وكأنها واقع مشهود حاضر للعيان ، يشهده كل قارىء لهذا القرآن .

وفي كل هذه المعارض والمشاهد تواجه القلب البشري بما يوقظه ويحرِّكه ويقوده إلى التأمل والتدبر مرة ، وإلى الخوف والخشية مرة ، وإلى التطلّع والرجاء مرة . وتطالعه تارة بالتحذير والتهديد ، وتارة بالإطماع ، وتارة بالإقناع .. ثم تدعه في النهاية

تحت هذه المؤثرات وأمام تلك البراهين . تدعه لنفسه يختار طريقه ، وينتظر مصيره على علم وعلى هدى وعلى نور) .

كلمة في سورة السجدة ومحورها :

تبدأ السورة بقوله تعالى : ﴿ **الٓمٓ تنزيل الكتاب لا ريب فيه من ربّ العالمين** ﴾ والصلة واضحة بين هذه الآية وبين أول آية في سورة البقرة :

﴿ **الٓمٓ ذلك الكتاب لا ريب فيه هدىً للمتقين** ﴾ .

ثم تأتي الآية اللاحقة في سورة السجدة :

﴿ **أم يقولون افتراه بل هو الحق من ربك لتنذر قوماً ما آتاهم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون** ﴾ .

فهي تمضي على نفس النّسق تلاحق الريب والشك ، ثمّ تبين حكمة إنزال القرآن ، ثم تمضي السورة تحدثنا عن الله بما يزيدنا معرفة به ، وفي ذلك تدليل على أنّه لا بدّ من وحي ؛ ومن ثمّ فلا يستغرب أن يُنزل الله هذا القرآن ، ثم تحدّثنا السّورة عن سبب من أسباب كفر الكافرين بهذا القرآن وتردُّه .

ثم تحدّثنا عن علامة الإيمان الجازم بهذا القرآن ، ثمّ تقارن بين المؤمنين والكافرين ، وما أُعد لهؤلاء وهؤلاء ، ثم تبيّن أنّه لا أحد أظلم ممن ذُكّر بآيات الله ثم أعرض عنها ، ثم تذكر معاني أخرىٰ . وهكذا تسير السورة في سياقها الرئيسي مفصّلة في موضوع أن هذا القرآن من عند الله بعرض كلّ ما يزيل الريب في ذلك .

....

ومن تأمّل موضوع السورة الرئيسي أدرك أنّ سور هذه الزمرة تكمّل بعضها ، فلكلّ منها موضوعه الرئيسي من مجموعة المواضيع التي تحدثت عنها مقدمة سورة البقرة ، وقد عُرض كل موضوع ، ومحلّه من بقية المواضيع ، بشكل لا ينتهي منه العجب .

فسورة العنكبوت تحدّثت عن آثار الإيمان بشكل رئيسي .

وسورة الروم تحدّثت عن موضوع اليوم الآخر بشكل رئيسي .

وسورة لقمان تحدّثت عن الاهتداء بالقرآن بشكل رئيسي .

وتأتي سورة السجدة لتتحدث عن انتفاء الريب عن هذا القرآن بشكل رئيسي ولكن كل موضوع رئيسي عُرض بكل ما يلزمه ، وبكل ما يتّصل به ، وكل ذلك بهذا الشكل العجيب الذي تجد الحرف والكلمة والآية والمجموعة والمقطع وكل شيء في محلّه ، وذلك مظهر من مظاهر الإعجاز .

....

لقد رأينا أن القرآن يتألف من أقسام .

وبعض الأقسام يتألف من مجموعات .

وبعض الأقسام تجد فيها زمراً .

فمثلاً تجد زمرة (الۤر) .

وتجد زمرة (طسۤ) .

وتجد في القسم الذي نحن فيه زمرة (الۤمۤ) ثم زمرة (حمۤ) وهكذا .

....

تجد القسم يكمل بعضه .

وتجد مجموعات القسم تكمّل بعضها .

وتجد الزمرة فيما بين ذلك كله نمط واحد .

....

تجد لكل سورة سياقها الخاص ، وروحها الخاصة ، وتجد لكل زمرة روحها الخاصة ، وتجد للمجموعة روحها الخاصة ، وتجد للقسم روحه الخاصة ، ثمّ إنك تجد للسورة في زمرتها روحها الخاصة ، وروحها التي هي قاسم مشترك مع مجموعتها ، وتجد للزمرة روحها الخاصة وروحها التي هي قاسم مشترك مع قسمها ، وتجد لكل قسم روحه الخاصة به وروحه التي هي قاسم مشترك مع القرآن كله فسبحان الله مُنَزِّل هذا القرآن .

﴿ وكذلك أنزلنا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ﴾ [الشورى : ٥٢] .

تتألف سورة السجدة من مقدمة وثلاث مجموعات وها نحن نبدأ بعرض المقدّمة .

مقدمة سورة السجدة

وتتألف من ثلاث آيات وهذه هي مع البسملة :

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾

التفسير :

﴿ **الٓمٓ تنزيل الكتاب لا ريب فيه** ﴾ أي لا شك فيه ولا مِرْية أنه منزل ﴿ **من رب العالمين** ﴾ لأنه معجز للبشر ومثله أبعد شيء من الريب ﴿ **أم يقولون افتراه** ﴾ أي اختلقه محمد ﷺ ، معناه : بل يقولون افتراه وفي ذلك إنكار لقولهم وتعجيب منهم لظهور إعجازه في عجز بلغائهم عن مثل سورة منه ﴿ **بل هو الحق من ربك** ﴾ لا كما ادّعوا تعنُّتاً وجهلاً أنّ محمّداً افتراه ، ثمّ بيّن الله الحكمة في إنزاله فقال : ﴿ **لتنذر قوماً** ﴾ أي العرب بخاصّة ابتداءً ﴿ **ما أتاهم من نذير من قبلك لعلّهم يهتدون** ﴾ أي لعلهم يتّبعون الحق .

نقل :

قال صاحب الظلال مفسّراً هذه الآيات :

(« ألف . لام . ميم » .. هذه الأحرف التي يعرفها العرب المخاطَبون بهذا الكتاب ؛ ويعرفون ما يملكون أن يصوغوا منها ومن نظائرها من كلام ، ويدركون الفارق الهائل بين ما يملكون أن يصوغوه منها وبين هذا القرآن ؛ وهو فارق يدركه كل خبير بالقول ، وكل من يمارس التعبير باللفظ عن المعاني والأفكار . كما يدرك أن

في النصوص القرآنية قوة خفية ، وعنصراً مستكناً ، يجعل لها سلطاناً وإيقاعاً في القلب والحس ليسا لسائر القول المؤلف من أحرف اللغة ، مما يقوله البشر في جميع الأعصار . وهي ظاهرة ملحوظة لا سبيل إلى الجدال فيها ، لأن السامع يدركها ، ويميزها ، ويهتز لها ، من بين سائر القول ، ولو لم يعلم سلفاً أن هذا قرآن ! والتجارب الكثيرة تؤكد هذه الظاهرة في شتى أوساط الناس .

والفارق بين القرآن وما يصوغه البشر من هذه الحروف من كلام ، هو كالفارق بين صنعة الله وصنعة البشر في سائر الأشياء . صنعة الله واضحة مميزة ، لا تبلغ إليها صنعة البشر في أصغر الأشياء . وأن توزيع الألوان في زهرة واحدة ليبدو معجزة لأمهر الرسامين في جميع العصور ..

ألف . لام . ميم .. ﴿ **تنزيل الكتاب – لا ريب فيه – من رب العالمين** ﴾ .. قضية مقطوع بها ، لا سبيل إلى الشك فيها . قضية تنزيل الكتاب من رب العالمين .. ويعجّل السياق بنفي الريب في منتصف الآية ، بين المبتدأ فيها والخبر ، لأن هذا هو صلب القضية ، والنقطة المقصودة في النص . والتمهيد لها بذكر هذه الأحرف المقطّعة يضع المرتابين الشاكّين وجهاً لوجه أمام واقع الأمر ، الذي لا سبيل إلى الجدل فيه . فهذا الكتاب مصوغ من جنس هذه الأحرف التي يعرفون ؛ ونمطه هو هذا النمط المعجز الذي لا يمارون في إعجازه ، أمام التجربة الواقعة ، وأمام موازين القول التي يقر بها الجميع .

إن كل آية وكل سورة تنبض بالعنصر المستكن العجيب المعجز في هذا القرآن ؛ وتشي بالقوة الخفية المودعة في هذا الكلام . وإن الكيان الإنساني ليهتز ويرتجف ويتزايل ولا يملك التماسك أمام هذا القرآن ، كلّما تفتّح القلب ، وصغا الحس ، وارتفع الإدراك ، وارتقت حساسية التلقي والاستجابة . وإن هذه الظاهرة لتزداد وضوحاً كلما اتسعت ثقافة الإنسان ، ومعرفته بهذا الكون وما فيه ومن فيه . فليست هي مجرد وهلة تأثرية وجدانية غامضة . فهي متحققة حين يخاطب القرآن الفطرة خطاباً مباشراً . وهي متحققة كذلك حين يخاطب القلب المجرب ، والعقل المثقّف ، والذهن الحافل بالعلم والمعلومات . وإن نصوصه ليتّسع مدى مدلولاتها ومفهوماتها وإيقاعاتها على السواء كلما ارتفعت درجة العلم والثقافة والمعرفة ، مادامت الفطرة مستقيمة

لم تنحرف ولم تطمس عليها الأهواء مما يجزم بأن هذا القرآن [غير بشري] على وجه اليقين ، وأنه تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين .

﴿ **أم يقولون : افتراه !** ﴾ .

ولقد قالوها فيما زعموه متعنّتين . ولكن السياق هنا يصوغ هذا القول في صيغة المستنكر لأن يقال هذا القول أصلاً : ﴿ **أم يقولون : افتراه ؟** ﴾ .. هذه القولة التي لا ينبغي أن تقال ؛ فتاريخ محمد - ﷺ - فيهم ينفي هذه الكلمة الظالمة من جهة ؛ وطبيعة هذا الكتاب ذاتها تنفيه أصلاً ، ولا تدع مجالاً للريب والتشكك :

﴿ **بل هو الحق من ربك** ﴾ .

الحق .. بما في طبيعته من صدق ومطابقة لما في الفطرة من الحق الأزلي ؛ وما في طبيعة الكون كله من هذا الحق الثابت ، المستقر في كيانه ، الملحوظ في تناسقه ، واطراد نظامه ، وثبات هذا النظام ، وشموله وعدم تصادم أجزائه ، أو تناثرها ، وتعارف هذه الأجزاء وتلاقيها .

الحق .. بترجمته لنواميس هذا الوجود الكبير ترجمة مستقيمة ؛ وكأنما هو الصورة اللّفظية المعنوية لتلك النواميس الطبيعية الواقعية العاملة في هذا الوجود .

الحق .. بما يحققه من اتصال بين البشر الذين يرتضون منهجه وهذا الكون الذي يعيشون فيه ونواميسه الكلّية ، وما يعقده بينهم وبين قوى الكون من سلام وتعاون وتفاهم وتلاق . حيث يجدون أنفسهم في صداقة مع كل ما حولهم من هذا الكون الكبير .

الحق .. الذي تستجيب له الفطرة حين يلمسها إيقاعه ، في يسر وسهولة ، وفي غير مشقة ولا عنت . لأنه يلتقي بما فيها من حق أزلي قديم .

الحق .. الذي لا يتفرّق ولا يتعارض وهو يرسم منهاج الحياة البشرية كاملاً ؛ ويلحظ في هذا المنهاج كل قواها وكل طاقاتها ، وكل نزعاتها وكل حاجاتها ، وكل ما يعتورها من مرض أو ضعف أو نقص أو آفة ، تدرك النفوس وتفسد القلوب .

الحق .. الذي لا يظلم أحداً في دنيا أو آخرة . ولا يظلم قوة في نفس ولا طاقة . ولا يظلم فكرة في القلب أو حركة في الحياة ، فيكفها عن الوجود والنشاط ، ما دامت

متّفقة مع الحق الكبير الأصيل في صلب الوجود .

﴿ **بل هو الحق من ربك** ﴾ .. فما هو من عندك ، إنما هو من عند ربك ، وهو رب العالمين كما قال في الآية السابقة ؛ إنما هذه الإضافة هنا للتكريم . تكريم الرسول الذي يتّهمونه بالافتراء ... رداً على الاتهام الأثيم . وتقريراً للصلة الوثيقة التي تحمل مع معنى التكريم معنى وثاقة المصدر وصحة التلقي . وأمانة النقل والتبليغ .

﴿ **لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك ، لعلّهم يهتدون** ﴾ .

والعرب الذين أرسل إليهم محمد - ﷺ - لم يرسل إليهم أحد قبله ؛ ولا يعرف التاريخ رسولاً بين إسماعيل - عليه السلام - جد العرب الأول وبين محمد - ﷺ - وقد نَزَّل الله عليه هذا الكتاب الحق ، لينذرهم به ﴿ **لعلّهم يهتدون** ﴾ فهدايتهم مرجوة بهذا الكتاب ، لما فيه من الحق الذي يخاطب الفِطَر والقلوب) .

كلمة في السياق :

جاءت مقدمة السورة فقررت نفي الشك عن القرآن ، وقررت أنه من عند الله ، ونَفَت أن يكون من عند محمد ﷺ وبيّنت الحكمة في الإنزال وهو الإنذار لأمّة لم يُرسل لها من قبل ، مع أنّ سنّة الله ألا يبقي أمّة بلا نذير ، وإذ تقرّرت هذه المعاني تأتي الآن المجموعة الأولى في السورة لتدلّل بطريقة أُخرى على ما مَرّ .

☆ ☆ ☆

المجموعة الأولى

وتمتد من الآية (٤) حتى نهاية الآية (٩) وهذه هي :

ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ
مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ
إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾
ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ
وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ
سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا
تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾

التفسير :

﴿ **الله الذي خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام** ﴾ فليس من خالق غيره ﴿ **ثم استوى على العرش** ﴾ استواءً ليس كمثله شيء ﴿ **ما لكم من دونه** ﴾ أي من دون الله ﴿ **من ولي ولا شفيع** ﴾ أي إذا جاوزتم رضاه لم تجدوا لأنفسكم ولياً أي ناصراً ينصركم ، ولا شفيعاً يشفع لكم ؛ إذْ هو المالك لأزِمّة الأمور . الخالق لكل شيء . القادر على كل شيء . فلا وليّ لخلقه سواه ، ولا شفيع إلا من بعد إذنه ﴿ **أفلا تتذكرون** ﴾ أي أفلا تتّعظون بمواعظ الله . قال ابن كثير : (يعني أيها العابدون غيره ، المتوكّلون على من عداه تعالى وتقدّس وتنزّه أن يكون له نظير أو شريك أو وزير أو نديد أو عديل لا إله إلا هو ولا رب سواه) ﴿ **يدبّر الأمر** ﴾ أي أمر ملكوته ﴿ **من السماء إلى الأرض** ﴾ أي يتنزل أمره من أعلى السماوات إلى أقصى الأرضين ﴿ **ثم يعرج إليه** ﴾ أي ذلك الأمر كله أي يصير إليه ليحكم فيه

﴿ **في يوم كان مقداره ألف سنةٍ مما تعدُّون** ﴾ أي من أيام الدنيا . قال ابن كثير : (وتُرفع الأعمال إلى ديوانها فوق سماء الدنيا ومسافة ما بينها وبين الأرض مسيرة خمسمائة سنة . وقال مجاهد وقتادة والضحاك : النزول من الملك في مسيرة خمسمائة عام وصعوده في مسيرة خمسمائة عام ، ولكنّه يقطعها في طرفة عين) ﴿ **ذلك** ﴾ أي المدبّر لهذه الأمور الموصوف بما مر ﴿ **عالم الغيب والشهادة** ﴾ أي عالم ما غاب عن العباد وما شاهدوه ﴿ **العزيز** ﴾ أي الغالب أمره الذي قد عزّ كلّ شيء فقهره وغلبه ودانت له المخلوقات ﴿ **الرحيم** ﴾ أي البالغ لطفه وتيسيره . قال ابن كثير : (فهو عزيز في رحمته ، رحيم في عزته وهذا هو الكمال ، العزَّة مع الرحمة والرحمة مع العزَّة ، فهو رحيم بلا ذل) ﴿ **الذي أحسن كل شيء خلَقه** ﴾ أي أحسن خلق كل شيء لأن كل شيء مرتّب على ما اقتضته الحكمة ﴿ **وبدأ خلق الإنسان من طين** ﴾ يعني خلق أبا البشر آدم من طين ﴿ **ثم جعل نسله** ﴾ أي ذريته ﴿ **من سلالة** ﴾ أي من نطفة ﴿ **من ماء** ﴾ أي منيّ ﴿ **مهين** ﴾ أي ضعيف حقير ممتهن ﴿ **ثمّ سواه** ﴾ أي قوّمه وصنعه ﴿ **ونفخ فيه من روحه** ﴾ أي وأدخل فيه من روحه كأنه قال : ونفخ فيه من الشيء الذي اختص هو به وبعلمه وهو الروح : فإضافة الروح إلى الله لتبيان اختصاصها به لا أن لله روحاً هذه جزء منها تعالى الله عز وجل عن ذلك ﴿ **وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة** ﴾ أي العقول لتسمعوا وتبصروا وتعقلوا ﴿ **قليلاً ما تشكرون** ﴾ بهذه القوى التي رزقكموها الله عز وجل . فالسعيد من استعملها في طاعة ربه عز وجل .

نُقول :

١ - عند قوله تعالى ﴿ **في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدّون** ﴾ قال الألوسي :

(وألف سنة على حقيقتها وهي مسافة ما بين الأرض ومحدب السماء الدنيا بالسير المعهود للبشر ، فإن ما بين السماء والأرض خمسمائة عام ، وثخن السماء كذلك ، كما جاء في الأخبار الصحيحة ، والملك يقطع ذلك في زمان يسير فالكلام على التشبيه ، فكأنه قيل : يريد تعالى الأمر متقناً مراعىً فيه الحكمة بأسباب سماوية نازلة آثارها وأحكامها إلى الأرض فيكون كما أراد سبحانه فيعرج ذلك الأمر مع الملك ويرتفع خبره إلى حضرته سبحانه في زمان هو كألف سنة مما تعدّون) .

أقول : إنّ مثل هذه الاتجاهات هي التي دعتني إلى القول بأن السمٰوات السبع غيبية لأنه على تقديرات العلوم المعاصرة فالأبعاد الكونية هائلة ، والسمٰوات السبع ليست على مثل هذه الأبعاد فيما يراه الإنسان من خلال بعض النصوص ، ومن خلال كلام الإسلاميين ، فتعيّن عندي أن السمٰوات السبع موجودة كما أخبرنا عنها ولكنها مغيّبة عنا .

٢ - وقال صاحب الظلال عند قوله تعالى : ﴿ **الذي أحسن كل شيء خلقه** ﴾ :

(.. واللهم إن هذا هو الحق الذي تراه الفطرة وتراه العين ويراه القلب ويراه العقل . الحق المتمثل في أشكال الأشياء ، ووظائفها . وفي طبيعتها منفردة وفي تناسقها مجتمعة . وفي هيئاتها وأحوالها ونشاطها وحركاتها . وفي كل ما يتعلق بوصف الحسن والإحسان من قريب أو من بعيد .

سبحانه ! هذه صنعته في كل شيء . هذه يده ظاهرة الآثار في الخلائق . هذا كل شيء خلقه يتجلى فيه الإحسان والإتقان ؛ فلا تجاوز ولا قصور ، ولا زيادة عن حد الإحسان ولا نقص ، ولا إفراط ولا تفريط ، في حجم أو شكل أو صنعة أو وظيفة . كل شيء مقدر لا يزيد عن حد التناسق الجميل الدقيق ولا ينقص . ولا يتقدّم عن موعده ولا يتأخر . ولا يتجاوز مداه ولا يقصر .. كل شيء من الذرة الصغيرة إلى أكبر الأجرام . ومن الخلية الساذجة إلى أعقد الأجسام . كلها يتجلى فيها الإحسان والإتقان .. وكذلك الأعمال والأطوار والحركات والأحداث . وكلها من خلق الله . مقدرة تقديراً دقيقاً في موعدها وفي مجالها وفي مآلها ، وفق الخطة الشاملة لسير هذا الوجود من الأزل إلى الأبد مع تدبير الله .

كل شيء ، وكل خلق ، مصنوع ليؤدي دوره المقسوم له في رواية الوجود ، معد لأداء هذا الدور إعداداً دقيقاً ، مزود بالاستعدادات والخصائص التي تؤهّله لدوره تمام التأهيل . هذه الخلية الواحدة المجهّزة بشتى الوظائف . هذه الدودة السابحة المجهّزة بالأرجل أو الشعيرات وبالملاسة والمرونة والقدرة على شق طريقها كأحسن ما يكون . هذه السمكة . هذا الطائر . هذه الزاحفة . هذا الحيوان . ثم هذا الإنسان .. وهذا الكوكب السيار وهذا النجم الثابت . وهذه الأفلاك والعوالم ؛ وهذه الدورات المنتظمة الدقيقة المنسّقة العجيبة المضبوطة التوقيت والحركة على الدوام .. كل شيء . كل شيء . حيثما امتد البصر متقن الصنع . بديع التكوين . يتجلى فيه الإحسان والإتقان .

والعين المفتوحة والحسّ المتوفز والقلب البصير ، ترى الحسن والإحسان في هذا الوجود بتجمعه ؛ وتراه في كل أجزائه وأفراده . والتأمل في خلق الله حيثما اتّجه النظر أو القلب أو الذهن ، يمنح الإنسان رصيداً ضخماً من ذخائر الحسن والجمال ، ومن إيقاعات التناسق والكمال ، تجمع السعادة من أطرافها بأحلى ما في ثمارها من مذاق ؛ وتسكبها في القلب البشري ؛ وهو يعيش في هذا المهرجان الإلهي الجميل البديع المتقن ، يتملّى آيات الإحسان والإتقان في كل ما يراه وما يسمعه وما يدركه في رحلته على هذا الكوكب . ويتّصل من وراء أشكال هذا العالم الفانية بالجمال الباقي.

ولا يدرك القلب شيئاً من هذا النعيم في رحلته الأرضية إلا حين يستيقظ من همود العادة ، ومن ملالة الألفة . وإلا حين يتسمَّع لإيقاعات الكون من حوله ، ويتطلّع إلى إيحاءاته . وإلا حين يبصر بنور الله فتتكشّف له الأشياء عن جواهرها الجميلة كما خرجت من يد الله المبدعة . وإلا حين يتذكر الله كلما وقعت عينه أو حسّه على شيء من بدائعه ؛ فيحس بالصلة بين المبدع وما أبدع ؛ فيزيد شعوره بجمال ما يرى وما يحس ، لأنه يرى حينئذ من ورائه جمال الله وجلاله .

إن هذا الوجود جميل . وإن جماله لا ينفد . وإن الإنسان ليرتقي في إدراك هذا الجمال والاستمتاع به إلى غير ما حدود . قدر ما يريد . وفق ما يريده له مبدع الوجود .

وإن عنصر الجمال لَمقصود قصداً في هذا الوجود . فإتقان الصنعة يجعل كمال الوظيفة في كل شيء يصل إلى حد الجمال . وكمال التكوين يتجلى في صورة جميلة في كل عضو ، وفي كل خلق .. انظر .. هذه النحلة . هذه الزهرة . هذه النجمة . هذا الليل . هذا الصبح . هذه الظلال . هذه السحب . هذه الموسيقى السارية في الوجود كله . هذا التناسق الذي لا عوج فيه ولا فطور !

إنها رحلة ممتعة في هذا الوجود الجميل الصنع البديع التكوين ؛ يلفتنا القرآن إليها لنتملّاها ، ونستمتع بها ؛ وهو يقول : ﴿ **الذي أحسن كل شيء خلقه** ﴾ .. فيوقظ القلب لتتبّع مواضع الحسن والجمال في هذا الوجود الكبير ..) .

٣ – وعند قوله تعالى : ﴿ **وبدأ خلق الإنسان من طين** ﴾ قال صاحب الظلال :

(غير أنه يحسن – بهذه المناسبة – تقرير أن نظرية النشوء والارتقاء لدارون القائلة : بأن الأنواع تسلسلت من الخلية الواحدة إلى الإنسان في أطوار متوالية ؛ وأن هناك حلقات نشوء وارتقاء متّصلة تجعل أصل الإنسان المباشر حيواناً فوق القردة العليا ودون الإنسان .. أن هذه النظرية غير صحيحة في هذه النقطة وأن كشف عوامل الوراثة – التي لم يكن دارون قد عرفها – تجعل هذا التطور من نوع إلى نوع ضرباً من المستحيل . فهناك عوامل وراثة كامنة في خلية كل نوع تحتفظ له بخصائص نوعه ؛ وتحتّم أن يظل في دائرة النوع الذي نشأ منه ، ولا يخرج قط عن نوعه ولا يتطوّر إلى نوع جديد . فالقط أصله قط وسيظل قطاً على توالي القرون . والكلب كذلك . والثور . والحصان . والقرد . والإنسان . وكل ما يمكن أن يقع – حسب نظريات الوراثة – هو الارتقاء في حدود النوع نفسه . دون الانتقال إلى نوع آخر . وهذا يبطل القسم الرئيسي في نظرية دارون التي فهم ناس من المخدوعين باسم العلم أنها حقيقة غير قابلة للنقض في يوم من الأيام !) .

كلمة في السياق :

لقد حدّثتنا الآيات عن الله عز وجل أنه الخالق ، وأنّه المدبّر ، وأنه عالم الغيب والشهادة ، وأنه الذي أحسن خلق كل شيء ، وأنه خالق الإنسان ، والجاعل له السمع والأبصار والأفئدة .

وهذا كله يقتضي أن يدبر الله أمر عباده ، وأن يرسل لهم رسولاً ، وأن ينزل عليهم وحياً ، ومن ثَمَّ كان هذا القرآن .

وحدثتنا الآيات عن التذكر والشكر ﴿ **أفلا تتذكّرون** ﴾ . ﴿ **قليلاً ما تشكرون** ﴾ والتذكّر والشكر يحتاجان إلى مذكّر ودليل على الشكر ، ومن ثَمَّ كان هذا القرآن .

فالمجموعة بكل ما فيها – وما فيها أكثر مما ذكرناه – تؤكّد ما مر في المقدمة ﴿ **بل هو الحق من ربك لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك لعلّهم يهتدون** ﴾ . إنها تذكر وتقرّر أنّ شأن الله عظيم ، وأنّ من شأنه تعالى أن يرسل رسولاً ، وأن ينزل كتاباً . فإذا تذكّر الإنسان هذا ، ورأى خصائص هذا القرآن ، عرف أنّ هذا القرآن من عند الله لا شك في ذلك ولا ريب . وإذ قرر الله في نهاية الآيات السابقة قلة شكر

الإنسان : ﴿ ... **وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون** ﴾ في سياق الحديث عن ذاته جل وعلا ، تأتي الآن آيات تحدّثنا عن مظهر من مظاهر انعدام الشكر وهو الكفر باليوم الآخر ، الذي هو أثر عن الكفر بآيات الله . ومن ثَمَّ تأتي بعدها آيات تذكر علامة الإيمان بآيات الله فنعرف بذلك حال من يشك ويرتاب ، وحال من لا يشك ولا يرتاب . ثم تأتي آيات تقارن بين هؤلاء وهؤلاء ، وتذكر مآل هؤلاء وهؤلاء ، وبذلك تدعو من خلال السياق إلى الإيمان وترك الريب ، وهذا هو مضمون المجموعة الثانية في هذه السورة .



المجموعة الثانية

وتمتد من الآية (١٠) إلى نهاية الآية (٢٢) وهذه هي :

وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ ۚ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٠﴾
قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ
ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا
إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ
جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا
نَسِينَٰكُمْ ۖ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا
ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ
ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ
مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ
فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا
بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ
أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَنُذِيقَنَّهُم
مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن

ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعۡرَضَ عَنۡهَآۚ إِنَّا مِنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾

التفسير :

﴿ **وقالوا** ﴾ أي: الكافرون مستبعدين المعاد ﴿ **أئذا ضللنا في الأرض** ﴾ أي تمزّقت أجسادنا ، وتفرّقت في أجزاء الأرض ، وذهبت أي : صرنا تراباً وذهبنا مختلطين بتراب الأرض ، لا نتميّز منه كما يضل الماء في اللبن ، أو غبنا في الأرض بالدفن فيها ﴿ **أئنا لفي خلق جديد** ﴾ أي أئنا لنعود بعد تلك الحال ؟ يستبعدون ذلك ، وهذا إنّما هو بعيد بالنسبة إلى قُدَرِهم العاجزة لا بالنسبة إلى قدرة الذي بدأهم وخلقهم من العدم ، الذي أَمْرُه إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ، ولهذا قال تعالى : ﴿ **بل هم بلقاء ربهم كافرون** ﴾ أي جاحدون . قال النسفي : (لما ذكر كفرهم بالبعث أضرب عنه إلى ما هو أبلغ وهو أنّهم كافرون بجميع ما يكون في العاقبة لا بالبعث وحده) ﴿ **قل** ﴾ مبيّناً لهم حقيقة ما أمامهم ﴿ **يتوفاكم ملك الموت الذي وُكِّل بكم** ﴾ أي وُكّل بقبض أرواحكم ﴿ **ثم إلى ربكم ترجعون** ﴾ أي بعد ذلك مبعوثين للحساب والجزاء . وهذا معنى لقاء الله . والتوفي : استيفاء النفس وهي الروح ﴿ **ولو ترى** ﴾ يا محمد أو أيها الإنسان ﴿ **إذ المجرمون** ﴾ أي الكافرون ﴿ **ناكسوا رؤوسهم** ﴾ من الذّل والحياء والنّدم والخجل ﴿ **عند ربهم** ﴾ أي عند حساب ربهم يقولون ﴿ **ربنا أبصرنا** ﴾ أي صدق وعدك ووعيدك ﴿ **وسمعنا** ﴾ أي منك تصديق رسلك ، أو كنّا عمياً وصماً فأبصرنا وسمعنا ، أو نحن الآن نسمع قولك ونطيع أمرك ﴿ **فارجعنا** ﴾ إلى الدنيا ﴿ **نعمل صالحاً** ﴾ أي نؤمن ونطيع ﴿ **إنّا موقنون** ﴾ بالبعث والحساب الآن ، وقد كذبوا ، فلو رُدّوا لعادوا لما نُهوا عنه . وقد علم الله ذلك منهم ﴿ **ولو شئنا لآتينا كل نفسٍ هداها** ﴾ في الدنيا أي لو شئنا أعطينا كل نفس ما عندنا من اللطف الذي لو كان منهم اختيار ذلك لاهتدوا ، لكن لم نعطهم ذلك اللطف لما علمنا منهم اختيار الكفر وإيثاره ﴿ **ولكن حقّ** ﴾ أي وجب ﴿ **القول مني** ﴾ بما علمت أنه يكون منهم ما يستوجبون به جهنّم ، وهو ما علم منهم أنّهم يختارون الردّ والتكذيب ﴿ **لأملأن جهنّم من الجنّة والنّاس أجمعين** ﴾ أي من الصنفين ، قرارهم النار لا محيد لهم عنها ولا محيص لهم منها . قال النسفي : (وفي تخصيص الإنس والجن إشارة إلى أنّه عصم ملائكته عن عمل يستوجبون به جهنم) ﴿ **فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم**

هذا ﴾ أي يقال لأهل النار على سبيل التقريع والتوبيخ : ذوقوا هذا العذاب بسبب تكذيبكم به ، واستبعادكم وقوعه ، وتناسيكم له ، إذ عاملتموه معاملة من هو ناس له ﴿ **إنا نسيناكم** ﴾ أي تركناكم في العذاب كالمنسي . قال ابن كثير : (أي سنعاملكم معاملة النّاسي لأنه تعالى لا ينسى شيئاً ولا يضل عنه شيء ، بل من باب المقابلة) ﴿ **وذوقوا عذاب الخلد** ﴾ أي العذاب الدائم الذي لا انقطاع له ﴿ **بما كنتم تعملون** ﴾ من الكفر والمعاصي ، أي بسبب كفركم وتكذيبكم . وبعد أن بيّن الله عز وجل حال الكافرين ومآلهم يذكر الآن علامة الإيمان بالقرآن مما يشير إلى أن من ذكر سابقاً ليسوا مؤمنين بالقرآن . فالسياق إذن سائر على نسق واحد هو تبيان قضية نفي الريب في القرآن وتعميق الإيمان .

﴿ **إنما يؤمن بآياتنا** ﴾ أي يصدّق بها ولا يرتاب ﴿ **الذين إذا ذُكّروا بها** ﴾ أي وعظوا بها ﴿ **خرُّوا سُجّداً** ﴾ أي سجدوا لله تواضعاً وخشوعاً وشكراً على ما رزقهم من الإسلام . قال ابن كثير : أي استمعوا لها وأطاعوها قولاً وفعلاً ﴿ **وسبّحوا بحمد ربهم** ﴾ أي ونزّهوا الله عما لا يليق به وأثنوا عليه حامدين له ﴿ **وهم لا يستكبرون** ﴾ عن الإيمان والسجود واتّباع آيات الله والانقياد لها فهم لا يستكبرون كما يفعل الجهلة من الكفرة الفجرة ، قال الألوسي : قال أبو حبان : (هذه السجدة من عزائم سجود القرآن) ﴿ **تتجافى جنوبهم عن المضاجع** ﴾ أي ترتفع وتتنحّى عن الفرش ومضاجع النوم . قال ابن كثير : يعني بذلك قيام الليل ، وترك النوم ، والاضطجاع على الفرش الوطيئة . ﴿ **يدعون ربهم** ﴾ أي داعين ربهم عابدين له ﴿ **خوفاً وطمعاً** ﴾ أي لأجل خوفهم من سخطه وطمعهم في رحمته ﴿ **وممّا رزقناهم ينفقون** ﴾ في طاعة الله تعالى ، فيجمعون بين القربات اللازمة والمندوبة ﴿ **فلا تعلم نفس ما أُخفي لهم من قُرَّة أعين** ﴾ أي لا يعلم أحد ما أعدّ لهؤلاء من الكرامة ممّا تقرّ به أعينهم ﴿ **جزاءً بما كانوا يعملون** ﴾ أي جوزوا جزاءً بذلك بسبب ما كانوا يعملونه من الأعمال الصالحة . وبعد أن ذكر الله عز وجل علامة الإيمان بالقرآن ، قارن بين المؤمنين والكافرين ، وحال كلّ ، ومآل كلّ ، ﴿ **أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً** ﴾ أي كافراً ﴿ **لا يستوون** ﴾ أي من كان في نور الطاعة والإيمان لا يستوي مع من هو في ظلمة الكفر والعصيان . قال ابن كثير : يخبر تعالى عن عدله وكرمه أنّه لا يساوي في حكمه يوم القيامة من كان مؤمناً بآياته ، متّبعاً لرسله

بمن كان فاسقاً أي خارجاً عن طاعة ربه ، مكذباً رسل الله إليه . ثمّ فصّل الله تعالى في حكمهم ﴿ **أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوىٰ** ﴾ أي التي فيها المساكن والدور والغرف العالية ﴿ **نُزُلاً** ﴾ أي ضيافة وكرامة وعطاءً ﴿ **بما كانوا يعملون** ﴾ أي بسبب أعمالهم الصالحة ﴿ **وأما الذين فسقوا فمأواهم النار** ﴾ أي ملجؤهم ومنزلهم النار ﴿ **كلّما أرادوا أن يخرجوا منها أُعيدوا فيها وقيل لهم** ﴾ أي يقول لهم خزنة النار ﴿ **ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون** ﴾ دل هذا على أن المراد بالفاسق في السياق الكافر ﴿ **ولنذيقنّهم من العذاب الأدنى** ﴾ أي في الدنيا من قلق واضطراب وحيرة ومحنة وعذاب أنواعه شتى ﴿ **دون العذاب الأكبر** ﴾ أي دون عذاب الآخرة . أي نذيقهم عذاب الدنيا قبل أن يصلوا إلى الآخرة ﴿ **لعلّهم يرجعون** ﴾ أي لعلهم يتوبون عن الكفر ﴿ **ومن أظلم ممن ذُكّر بآيات ربه ثم أعرض عنها** ﴾ أي لا أظلم ممن ذكّره الله بآياته ، وبيّنها له ووضّحها ، ثم بعد ذلك تركها وجحدها وأعرض عنها ، وتناساها كأنه لا يعرفها ﴿ **إنّا من المجرمين منتقمون** ﴾ أي سأنتقم من مَنْ فعل ذلك أشدّ الانتقام . وفي ختام المجموعة بهذه الآية دليل على أن سياق السورة الرئيسي منصبّ على موضوع الإيمان بالقرآن ، ويؤكد هذا المعني أن المجموعة الثالثة والأخيرة تبتدىء بذكر إيتاء الله الكتاب لموسى ، وإذ تكلمنا عن سياق المجموعة الثانية أثناء التفسير وقبله . فلنذكر المجموعة الثالثة مباشرة .

....

☆ ☆ ☆

المجموعة الثالثة

وتمتدّ من الآية (٢٣) إلى نهاية الآية (٣٠) أي إلى آخر السورة وهذه هي :

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾

التفسير :

﴿ **ولقد آتينا موسى الكتاب** ﴾ أي التوراة ، فليس القرآن بدعاً من الكتب ﴿ **فلا تكن في مِرْيةٍ** ﴾ أي في شك ﴿ **من لقائه** ﴾ أي من لقاء موسى الكتاب أو من لقاء موسى ليلة المعراج ، أو يوم القيامة ، أو لقاء موسى ربه في الآخرة ، والأول أليق بسياق السورة التي تنفي أن يكون هذا القرآن فيه ريب ، فكذلك كتاب موسى عليه السلام لا ريب في تلقي موسى له من رب العالمين ﴿ **وجعلناه** ﴾ أي وجعلنا الكتاب المنزل على موسى ﴿ **هدى لبني إسرائيل** ﴾ قوم موسى كما أن هذا القرآن أُنزل ليكون نذيراً للعرب قوم محمد أولاً ﴿ **وجعلنا منهم** ﴾ أي من بني إسرائيل ﴿ **أئمة يهدون بأمرنا** ﴾ أي يهدون الناس ويدعونهم إلى ما في التوراة من دين الله وشرائعه بأمر

الله ﴿ **لَمّا صبروا** ﴾ حين صبروا ﴿ **وكانوا بآياتنا** ﴾ أي التوراة ﴿ **يوقنون** ﴾ أي يعلمون علماً لا يخالجه شك . قال ابن كثير : (قال بعض العلماء : بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين) . وقد دلّت الآية على أنّ الإيمان بآيات الله ينبغي أن يرافقه صبر ﴿ **إن ربك هو يفصل بينهم** ﴾ أي هو يقضي بين الأنبياء وأممهم ، أو بين المؤمنين والفاسقين ﴿ **يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون** ﴾ فيظهر المحق من المبطل . ومن ذكر هذه الآية تعرف لماذا يحتاج اليقين إلى مرافقة الصبر ، وما ذلك إلا لأن اليقين يستوجب محاربة أعداء الله ، وإقامة الحجة عليهم ، وذلك يستدعي الأذى ، وفكان لا بد من الصبر الذي باجتماعه مع اليقين تكون الإمامة والقدوة ، وإذ اتضح من السياق أنّ الفاسقين هم خصماء أئمة الدين أهل الصبر واليقين فإن السياق يتجه لإقامة الحجة عليهم :

﴿ **أو لم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون** ﴾ كعاد وثمود وقوط لوط ﴿ **يمشون في مساكنهم** ﴾ أي يمرّون على ديارهم وبلادهم ﴿ **إن في ذلك لآيات** ﴾ أي لعلامات واضحات هاديات ﴿ **أفلا يسمعون** ﴾ المواعظ فيتعظوا ، دلّت الآية على أنّ مجرّد الاعتبار بما جرى للسابقين كاف للهداية لمن كان له سمع ﴿ **أو لم يروا أنا نسوق الماء** ﴾ أي نجري المطر والأنهار ﴿ **إلى الأرض الجُرُز** ﴾ أي الأرض التي جُرز نباتُها أي قطع ؛ إمّا لعدم الماء ، أو لأنّه رعي ﴿ **فنخرجُ به** ﴾ أي بالماء ﴿ **زرعاً تأكل منه** ﴾ أي من الزرع ﴿ **أنعامهم** ﴾ من عصفه ﴿ **وأنفسهم** ﴾ من حبّه ﴿ **أفلا يبصرون** ﴾ بأعينهم فيستدلوا على الله عزّ وجلّ وعلى إحيائه الموتى فيؤمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر ، لكنّهم لصممهم وعماهم لا يؤمنون ، ويسألون متعنّتين ﴿ **ويقولون متى هذا الفتح** ﴾ أي النصر أو الفصل بالحكومة ﴿ **إن كنتم صادقين** ﴾ في أنّه كائن ، يقولون هذا استعجالاً واستبعاداً وتكذيباً وعناداً ﴿ **قل يوم الفتح** ﴾ أي يوم القيامة وهو يوم الفصل بين المؤمنين وأعدائهم ﴿ **لا ينفع الذين كفروا إيمانهم ولا هم يُنظَرون** ﴾ لـمّا كان غرضهم من السؤال عن وقت الفتح الاستعجال على وجه التكذيب والاستهزاء أجيبوا على حسب ما عرف من غرضهم في سؤالهم فقيل لهم : لا تستعجلوا به ولا تستهزئوا ، فكأني بكم وقد حصلتم في ذلك اليوم وآمنتم فلا ينفعكم الإيمان ، أو استنظرتم في إدراك العذاب فلَم تُنظروا . ثم تُختم السورة بآية تحدّد كيف ينبغي أن يكون موقف أهل الإيمان من أهل الكفر :

﴿ **فأعرض عنهم** ﴾ أي فتول عن هؤلاء الكافرين وبلّغ ما أُنزل إليك من ربك ﴿ **وانتظر** ﴾ النصرة وهلاكهم ﴿ **إنهم منتظرون** ﴾ الغلبة عليكم وهلاككم وسترى أنت عاقبة صبرك عليهم ، وعلى أداء رسالة الله في نصرتك وتأييدك ، وسيجدون غبّ ما ينتظرونه فيك وفي أصحابك . وبهذا انتهت السورة .

كلمة في السياق :

لاحظنا بشكل عام صلة السّورة بقوله تعالى من مقدّمة سورة البقرة : ﴿ **الٓمٓ * ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين** ﴾ .

ومن المناسب أن نتذكّر أن مقدّمة سورة البقرة وصفت الكافرين بأنّهم ﴿ **سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون * ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة** ﴾ لاحظ صلة ذلك بقوله تعالى هنا : ﴿ **أفلا يسمعون** ﴾ ﴿ **أفلا يبصرون** ﴾ .

ولنا عودة على السياق فلننقل الآن ما يتيسر نقله من الفوائد :

فوائد :

١ - هناك قضية مهمّة جداً تذكر بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **الله الذي خلق السمٰوات والأرض وما بينهما في ستة أيام** ﴾ إذ إن أهل الكتاب يفصّلون في أمر هذه الستة أيام . أن يوم الأحد كان كذا ، ويوم الاثنين كان كذا . ويقولون - تعالى الله عن قولهم - إن الله استراح يوم السبت . وهذا القول وحده دليل على فساد ما قبله . وقد سرى بعض تفصيلهم إلى المسلمين ، ونقله بعضهم على أنه حديث صحيح . والأمر ليس كذلك . وقد ذكر هذا الموضوع ابن كثير في سورة البقرة ، ونبهنا عليه هناك ، وأعاده هنا فلننبه إلى ذلك . قال ابن كثير : (وقد أورد النسائي ههنا حديثاً عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ أخذ بيدي فقال : « إن الله خلق السمٰوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ، ثم استوى على العرش في اليوم السابع ، فخلق التربة يوم السبت ، والجبال يوم الأحد ، والشجر يوم الاثنين ، والمكروه يوم الثلاثاء ، والنور يوم الأربعاء ، والدواب يوم الخميس ، وآدم يوم الجمعة في آخر ساعة من النهار بعد العصر ، وخلقه من أديم الأرض أحمرها وأسودها ، وطيبها وخبيثها ؛ من أجل ذلك جعل الله من بني آدم الطيب والخبيث » هكذا أورد هذا الحديث إسناداً ومتناً ، وقد

بلال لمّا نزلت هذه الآية : ﴿ **تتجافى جنوبهم عن المضاجع** ﴾ الآية كنا نجلس في المجلس وناس من أصحاب رسول الله ﷺ يصلون بعد المغرب إلى العشاء ، فنزلت هذه الآية : ﴿ **تتجافى جنوبهم عن المضاجع** ﴾ ثم قال : لا نعلم روى زيد بن أسلم عن بلال سواه وليس له طريق عن بلال غير هذه الطريق .

٤ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **ولنذيقنّهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر** ﴾ قال ابن كثير : (قال ابن عباس يعني بالعذاب الأدنى مصائب الدنيا وأسقامها وآفاتها وما يحلّ بأهلها مما يبتلي الله به عباده ليتوبوا إليه ، وروى مثله عن أبي بن كعب وأبي العالية والحسن وإبراهيم النخعي والضحاك وعلقمة وعطية ومجاهد وقتادة وعبد الكريم الجزري وخصيف ، وقال ابن عباس في رواية عنه : يعني به إقامة الحدود عليهم . وقال البراء بن عازب ومجاهد وأبو عبيدة : يعني به عذاب القبر . وروى النسائي عن عبد الله في : ﴿ **ولنذيقنَّهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر** ﴾ قال : سنون إصابتهم . وروى عبد الله ابن الإمام أحمد ... عن أبي بن كعب في هذه الآية ﴿ **ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر** ﴾ قال : القمر والدّخان قد مضيا والبطشة واللزام ، ورواه مسلم من حديث شعبة به موقوفاً نحوه . وعند البخاري عن ابن مسعود نحوه ، وقال عبد الله بن مسعود نحوه أيضاً في رواية عنه : العذاب الأدنى ما أصابهم من القتل والسبي يوم بدر ، وكذا قال مالك عن زيد بن أسلم . قال السدي وغيره : لم يبق بيت بمكة إلا دخله الحزن على قتيل لهم أو أسير ، فأصيبوا أو هزموا ، ومنهم من جمع له الأمران) .

أقول : ما ذُكر نموذج على ما يفعله الله عز وجل بمن يُعرض عن كتابه من عذاب أدنى .

٥ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **ومن أظلم ممن ذكّر بآيات ربه ثم أعرض عنها إنا من المجرمين منتقمون** ﴾ قال ابن كثير : (روى ابن جرير ... عن معاذ بن جبل قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ثلاث من فعلهن فقد أجرم : عقد لواء في غير حق ، أو عق والديه ، أو مشى مع ظالم ينصره فقد أجرم ، يقول الله تعالى : ﴿ **إنا من المجرمين منتقمون** ﴾ » رواه ابن أبي حاتم من حديث إسماعيل بن عياش ، وهذا حديث غريب جداً) .

٦ - رأينا أن هناك أكثر من قول في قوله تعالى : ﴿ **ولقد آتينا موسى الكتاب**

فلا تكن في مِرْية من لقائه ﴾ ولم يذكر ابن كثير إلا قولين : أحدهما أن المراد لقاء موسى ربه . والثاني : أن المراد لقاء رسولنا عليه الصلاة والسلام لموسى . قال ابن كثير : قال قتادة : يعني به ليلة الإسراء . ثم روى عن أبي العالية الرياحي قال : حدثني ابن عمّ نبيكم - يعني ابن عباس - قال : قال رسول الله ﷺ : « رأيت ليلة أُسري بي موسى بن عمران رجلاً آدم طوالاً جعداً كأنه من رجال شنوأة ، ورأيت عيسى رجلاً مربوع الخَلق إلى الحمرة والبياض ، سبط الرأس ، ورأيت مالكاً خازن النار والدّجال » في آيات أراهنّ الله إياه ﴿ **فلا تكن في مرية من لقائه** ﴾ أنه قد رأى موسى ولقي موسى ليلة أُسري به .

٧ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون** ﴾ قال ابن كثير : أي لما كانوا صابرين على أوامر الله ، وترك زواجره ، وتصديق رسله ، واتباعهم فيما جاؤوهم به ، كان منهم أئمة يهدون إلى الحق بأمر الله ، ويدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ثمّ لمّا بدّلوا ، وحرّفوا ، وأوّلوا سُلبوا ذلك المقام ، وصارت قلوبهم قاسية ، يُحرِّفون الكلم عن مواضعه ، فلا عمل صالحاً ، ولا اعتقاداً صحيحاً ، ولهذا قال تعالى : ﴿ **ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب** ﴾ قال قتادة وسفيان : لما صبروا عن الدنيا ، وكذلك قال الحسن بن صالح : قال سفيان : هكذا كان هؤلاء ولا ينبغي للرجل أن يكون إماماً يُقتدى به حتى يتجافى عن الدنيا ، قال وكيع : قال سفيان : لا بد للدين من العلم ، كما لا بد للجسد من الخبز . وقال ابن بنت الشافعي : قرأ أبي على عمي أو عمي على أبي : سئل سفيان عن قول علي رضي الله عنه : الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ، ألم تسمع قوله : ﴿ **وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا** ﴾ قال لما أخذوا برأس الأمر صاروا رؤوساً . قال بعض العلماء : بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ **ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من الطيبات وفضّلناهم على العالمين وآتيناهم بيّنات من الأمر** ﴾ الآية [الجاثية : ١٦ ، ١٧] . كما قال هنا : ﴿ **إن ربك هو يفصل بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون** ﴾ أي من الاعتقادات والأعمال .

٨ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **أو لم يَرَوْا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز** ﴾ يمثل كثير من المفسرين لهذه الأرض بأرض مصر ، وطبعاً ليس المراد بها أرض مصر فقط .

قال ابن كثير : (بل هي بعض المقصود وإنْ مَثَّل بها كثير من المفسرين فليست هي المقصودة وحدها ، ولكنها مرادة قطعاً من هذه الآية ؛ فإنّها في نفسها أرض رخوة غليظة تحتاج من الماء ما لو نزل عليها مطراً لتهدّمت أبنيتها ، فيسوق الله تعالى إليها النيل بما يتحمّله من الزيادة الحاصلة من أمطار بلاد الحبشة ، وفيه طين أحمر فيغشى أرض مصر ، وهي أرض سبخة مرملة ، محتاجة إلى ذلك الماء ، وذلك الطين أيضاً ، لينبت الزرع فيه ، فيستغلون كل سنة على ماء جديد ممطور في غير بلادهم ، وطين جديد من غير أرضهم ، فسبحان الحكيم الكريم المنان المحمود أبداً . وقال ابن لهيعة عن قيس ابن حجاج عمن حدثه قال : لما فتحت مصر أتى أهلها عمرو بن العاص - وكان أميراً بها حين دخل بؤونة من أشهر العجم - فقالوا : يا أيها الأمير إنّ لنيلنا هذا سُنَّة لا يجري إلّا بها . قال وما ذاك ؟ قالوا : إذا كانت اثنتا عشرة ليلة خلت من هذا الشهر عمدنا إلى جارية بكر بين أبويها ، فأرضينا أبويها ، وجعلنا عليها من الحليّ والثيّاب أفضل ما يكون ، ثم ألقيناها في النّيل . فقال لهم عمرو : إنّ هذا لا يكون في الإسلام ؛ إن الإسلام يهدم ما كان قبله ، فأقاموا بؤونة والنيل لا يجري حتى همّوا بالجلاء ، فكتب عمرو إلى عمر بن الخطاب بذلك ، فكتب إليه عمر إنّك قد أصبت بالذي فعلت ، وقد بعثت إليك ببطاقة داخل كتابي هذا فألقها في النّيل ، فلمّا قدم كتابه أخذ عمرو البطاقة ففتحها فإذا فيها : من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى نيل أهل مصر . أما بعد : فإنك إن كنت إنما تجري من قِبَلك فلا تجر ، وإن كان الله الواحد هو الذي يجريك فنسأل الله أن يجريك . قال فألقى البطاقة في النيل ، فأصبحوا يوم السبت وقد أجرى الله النيل ستة عشر ذراعاً في ليلة واحدة ، وقد قطع الله تلك السُنّة عن أهل مصر إلى اليوم . رواه الحافظ أبو القاسم اللالكائى الطبري في كتاب السنة له . ولهذا قال تعالى : ﴿ **أو لم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعاً تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون** ﴾ كما قال تعالى : ﴿ **فلينظر الإنسان إلى طعامه * أنا صببنا الماء صباً** ﴾ الآية . [عبس : ٢٥ ، ٢٦]) .

٩ - في تفسير الفتح في قوله تعالى : ﴿ **ويقولون متى هذا الفتح إن كنتم صادقين** ﴾ قولان . القول الأول : أن المراد به النصر في الدنيا . والقول الثاني : أن المراد به اليوم الآخر ، وابن كثير جعل المراد كلاً من الاثنين . قال ابن كثير : (أي متى تُنصر علينا يا محمد ؟ كما تزعم أن لك وقتاً تُدال علينا وينتقم لك منا فمتى يكون هذا ؟ ما نراك أنت وأصحابك إلا مختفين خائفين ذليلين) . قال الله تعالى : ﴿ **قل يوم**

الفتح ﴾ أي إذا حلّ بكم بأس الله وسخطه وغضبه في الدنيا والآخرة ﴿ **لا ينفع الذين كفروا إيمانهم ولا هم ينظرون** ﴾ . كما قال تعالى : ﴿ **فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم** ﴾ [غافر : ٨٣] . ومن زعم أن المراد من هذا فتح مكة فقد أبعد النجعة ، وأخطأ فأفحش ؛ فإن يوم الفتح قد قبل رسول الله ﷺ إسلام الطلقاء وقد كانوا قريباً من ألفين ، ولو كان المراد فتح مكة لما قبل إسلامهم لقوله تعالى : ﴿ **قل يوم الفتح لا ينفع الذين كفروا إيمانهم ولا هم ينظرون** ﴾ وإنما المراد الفتح الذي هو القضاء والفصل كقوله : ﴿ **فافتح بيني وبينهم فتحاً** ﴾ الآية [الشعراء : ١١٨] . وكقوله : ﴿ **قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق** ﴾ الآية [سبأ : ٢٦] . وقال تعالى : ﴿ **واستفتحوا وخاب كل جبَّار عنيد** ﴾ [إبراهيم : ١٥] وقال تعالى : ﴿ **وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا** ﴾ [البقرة : ٨٩] . وقال تعالى : ﴿ **إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح** ﴾ [الأنفال : ١٩] .

١٠- وفي سورة السجدة قال ابن كثير : روى البخاري ... عن أبي هريرة قال : كان النبي ﷺ يقرأ في الفجر يوم الجمعة ﴿ **الٓمٓ تنزيل** ﴾ السجدة و ﴿ **هل أتى على الإنسان** ﴾ . ورواه مسلم أيضاً من حديث سفيان الثوري به . وروى الإمام أحمد ... عن جابر قال : كان النبي ﷺ لا ينام حتى يقرأ ﴿ **الٓمٓ تنزيل** ﴾ السجدة و ﴿ **تبارك الذي بيده الملك** ﴾ تفرّد به أحمد .

كلمة أخيرة في سورة السجدة وزمرتها :

لاحظنا أن السياق الخاص لسورة السجدة صبَّ في موضوع رئيسي هو موضوع الإيمان الجازم بهذا القرآن ؛ إلا أننا قلنا من قبل إن كل سورة من هذه السور الأربع المبدءوة بـ ﴿ **الٓمٓ** ﴾ صبّ سياقها في موضوع رئيسي من مواضيع الآيات الأولى من سورة البقرة ، ولكنه تحدّث عنه مرتبطاً ببقية المواضيع ، وهذا الذي نلاحظه في سورة السجدة .

فقد كان لقوله تعالى : ﴿ **الٓمٓ * ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين *** ﴾ حظّه من التفصيل كما رأينا .

● وكان لقوله تعالى : ﴿ **الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم**

ينفقون ﴾ حظّه من التفصيل كذلك . تذكَّر قوله تعالى : ﴿ **إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذُكِّروا بها خروا سُجَّداً وسبَّحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون * تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون** ﴾ .

● وكان لقوله تعالى : ﴿ **والذين يؤمنون بما أُنزل إليك وما أُنزل من قبلك** ﴾ حظّه من التفصيل كذلك ، تذكّر قوله تعالى : ﴿ **ولقد آتينا موسى الكتاب فلا تكن في مِرية من لقائه** ... ﴾ .

● وكان لقوله تعالى : ﴿ **وبالآخرة هم يوقنون** ﴾ حظه من التفصيل كذلك تذكّر قوله تعالى : ﴿ **وقالوا أئذا ضللنا في الأرض** ... ﴾ وقوله تعالى : ﴿ **ويقولون متى هذا الفتح** ... ﴾ فاليوم الآخر أخذ حيِّزاً كبيراً من السورة .

● وقد تعرَّضت السورة لموضوع الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقَدَر . ففصّلت في كل موضوع نوع تفصيل ﴿ **الله الذي خلق السمٰوات والأرض** ... ﴾ ، ﴿ **قل يتوفّاكم ملك الموت** ... ﴾ ، ﴿ **تنزيل الكتاب** ... ﴾ ، ﴿ **لتنذر قوماً** ... ﴾ ، ﴿ **وقالوا أئذا ضللنا في الأرض** ... ﴾ ، ﴿ **ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها** ... ﴾ .

....

● وكنّا ذكرنا أنّ مقدّمة سورة البقرة تحدّثت عن المتقين والكافرين والمنافقين ، وأنّ السور الأربع إذ تفصّل في صفات المتقين ، فإنّها تفصّل كذلك فيما قابل ذلك من صفات الكافرين .

ومن ثم نجد في سورة السجدة كلاماً كثيراً عن الكافرين :

عن ادعائهم أن القرآن مفترى ، وعن كفرهم باليوم الآخر ، وعن فسوقهم ، وعن العذاب العظيم المعَدّ لهم ، وعن غير ذلك مما يذكّرنا بقوله تعالى في أول سورة البقرة : ﴿ **إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون * ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم** ﴾ (البقرة : ٦ ، ٧) .

خذ مثلاً قوله تعالى : ﴿ **ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ولكن حق القول مني لأملأنَّ جهنم من الجنة والناس أجمعين** ﴾ ﴿ **أفلا يسمعون** ﴾ ﴿ **أفلا يبصرون** ﴾ .

﴿ **فأعرض عنهم وانتظر إنهم منتظرون** ﴾ .

وبهذا نعرف كيف أن سورة السجدة فصّلت في مقدمة سورة البقرة كلها ، وبهذا نعرف كذلك أن هذه الزمرة المؤلفة من السور الأربع قد فصّلت في مقدمة سورة البقرة كلها ، كل منها قد فصّلت وكَمَّلَت غيرها ؛ بحيث اتضح كثير من مضامين هذه المقدمة .

....

وكما جاء بعد مقدمة سورة البقرة قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون** ﴾ (البقرة : ٢١) لتدل على طريق التحقق بالمعاني التي تضمنتها المقدمة ، فإنّه بعد السور الأربع تأتي سورة الأحزاب مبدوءة بقوله تعالى : ﴿ **يا أيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين إن الله كان عليماً حكيماً** ﴾ لتدل على الطريق العملي للتحقق ، لاحظ أن في الآية الأولى من سورة الأحزاب قوله تعالى : ﴿ **ولا تطع الكافرين والمنافقين** ﴾ والكفر والنفاق هما أحد المواضيع الثلاثة التي تحدثت عنها مقدمة سورة البقرة ، وتحدثت عنها السور الأربع ، إلا أنّ النّفاق لم يُتَحدث عنه إلا في سورة العنكبوت ؛ لأنّ النّفاق هو الكفر القلبي ، مع التظاهر بغيره ، فمرجعه إلى الكفر . وقد آن الأوان لنسجِّل ملاحظة :

رأينا أن سورة البقرة سارت ضمن سياق محدّد :

تحدَّثت عن المتقين والكافرين والمنافقين .

دعت الناس جميعاً لسلوك الطريق المؤدي إلى التقوى .

بيَّنت الأخلاق التي تحول دون التقوى .

أنكرت على من يكفر ، ذكرت ظاهرة العناية . وهكذا ... وكل موضوع من مواضيعها مرتبط بما قبله وما بعده .

ثم جاء بعد سورة البقرة تتمّة القسم الأول من أقسام القرآن – وهو قسم الطوال – ففصّل على نفس النسق .

فصّلت سورة آل عمران في المقدمة .

جاءت سورة النساء لتدل على الطريق .

جاءت سورة المائدة لتبعد عن الخطأ .

جاءت سورة الأنعام لتنفي الكفر ، وتقيم الحجة بظاهرة العناية .

وهكذا على نفس الوتيرة الموجودة في سورة البقرة ، وهكذا قل في كل قسم من أقسام القرآن .

ومن ثَمَّ تجد في هذا القسم زمرة ﴿ **الٓمٓ** ﴾ تقابل مقدمة سورة البقرة . وسورة الأحزاب تقابل : ﴿ **يا أيها الناس** ... ﴾ . كما سنرى . فزمرة ﴿ **الٓمٓ** ﴾ هنا تذكر الصفات والخصائص ، وتأتي سورة الأحزاب لتدلّ على طريق التحقق بالصفات والخصائص ، ولكن بما يكمّل ما قبله . فمثلاً مقدمة سورة البقرة فصّلتها من قبل سورة آل عمران ، وسورة يونس ، وسورة الحجر ، وسورة طه ، وسورة الأنبياء . ثم سور زمرة (الٓمٓ) من هذا القسم . فالزمرة هذه إذن مسبوقة بتفصيل ، ومن ثَمَّ فإنها تفصّل بمعان جديدة زائدة .

وكذلك فإنّ ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون** ﴾ فصّلتها سورة النساء ، وسورة هود ، وسورة الحج . والآن تأتي سورة الأحزاب . فسورة الأحزاب مسبوقة بما فصّل محورها . ومن ثَمَّ فهي تفصّل بمعان جديدة مكمّلة أخواتها ، ولكنّها بالنسبة لما قبلها مباشرة تدلّ على طريق التحقّق فيه ، وبتوضيح أكثر نقول :

إنّك إذا أردت أن تعرف معاني مقدمة سورة البقرة فعليك أن ترى كل سورة فصّلتها ، وإذا أردت أن تعرف معاني : ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم** ... ﴾ . فعليك أن تعرف معاني كل سورة فصّلتها ، ولكن إذا أردت أن تعرف الطريق إلى التحقق بمعان وردت في سورة – أو سور – تقابل المقدمة فعليك أن ترى السورة التي جاءت تقابل ﴿ **يا أيها الناس** ... ﴾ مباشرة بعدها . فكلّما سرت في القرآن رأيت جديداً منبثقاً عن أصل ، ومرتبطاً بأصل ، وعلى ضوء ذلك نقبل على سورة الأحزاب .

☆ ☆ ☆

سورة الأحزاب

وهي السورة الثالثة والثلاثون بحسب الرسم القرآني
وهي السورة الخامسة من المجموعة الأولى من قسم المثاني
وآياتها ثلاث وسبعون آية
وهي مدنية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه

ربنا تقبل منا، إنك أنت السميع العليم

قال الألوسي في تقديمه لسورة الأحزاب :

(أخرج البيهقي في الدلائل وغيره عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال : نزلت سورة الأحزاب بالمدينة ، وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله ، وهي ثلاث وسبعون آية قال الطبرسي : بالإجماع ، وقال الداني : هذا متفق عليه) ... (ووجه اتصالها بما قبلها على ما قال الجلال السيوطي تشابه مطلع هذه ومقطع تلك ، فإن تلك ختمت بأمر النبي ﷺ بالإعراض عن الكافرين وانتظار عذابهم ، وهذه بدئت بأمره عليه الصلاة والسلام بالتقوى وعدم طاعة الكافرين والمنافقين ، واتباع ماأُوحي إليه ، والتوكل عليه عز وجل) .

....

كلمة في سورة الأحزاب ومحورها :

أول ملاحظة نلاحظها في سورة الأحزاب أن الندائين ﴿ **يا أيها النبي** ﴾ ﴿ **يا أيها الذين آمنوا** ﴾ يتناوبان في السورة تناوباً مطرداً ، إلا في آخر السورة إذ تتكرر ﴿ **يا أيها الذين آمنوا** ﴾ مَرّتين : مرة لتأخذ نوبتها وراء نداء ﴿ **يا أيها النبي** ﴾ ومَرّة لتقابل بداية السورة ؛ إذا تبدأ السورة بـ ﴿ **يا أيها النبي** ﴾ لاحظ تناوب النداءين :

١ - ﴿ **يا أيها النّبي اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين إن الله كان عليماً حكيماً** ﴾ [الآية : ١] .

١ - ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً** ﴾ [الآية : ٩] .

٢ - ﴿ **يا أيها النّبي قل لأزواجك إن كنتُنَّ تُرِدْنَ الحياة الدنيا وزينتها فتعالَيْنَ أُمَتِّعكُن وأُسرِّحكن سراحاً جميلاً** ﴾ [الآية : ٢٨] .

٢ - ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً * وسبِّحوه بُكرةً وأصيلاً** ﴾ [الآيتان : ٤١ ، ٤٢] .

٣ - ﴿ **يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشّراً ونذيراً * وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً** ﴾ [الآيتان : ٤٥ ، ٤٦] .

٣ - ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل**

أن تمسوهن فما لكم عليهن من عِدَّة تعتدُّونها فمتعوهن وسرِّحوهن سراحاً جميلاً ﴾ [الآية : ٤٩] .

٤ - ﴿ **يا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهن وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك وبنات عَمِّك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتي هاجرنَ معك وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي إن أراد النبي أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم وما ملكت أيمانهم لكيلا يكون عليك حرج وكان الله غفوراً رحيماً** ﴾ [الآية : ٥٠] .

٤ - ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يُؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ولكن إذا دُعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستئنسين لحديث إن ذلكم كان يؤذي النبي فيستحيي منكم والله لا يستحيي من الحق وإذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً إن ذلكم كان عند الله عظيماً** ﴾ [الآية : ٥٣] .

٥ - ﴿ **يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يُعْرفن فلا يؤذين وكان الله غفوراً رحيماً** ﴾ [الآية : ٥٩] .

٥ - ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرَّأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيهاً** ﴾ [الآية : ٦٩] .

٦ - ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً** ﴾ [الآية : ٧٠] .

....

وتلاحظ في السورة ملامح من سورة النساء ، وملامح من سورة المائدة ؛ تبدأ سورة النساء بـ ﴿ **يا أيها الناس اتقوا ربكم ...** ﴾ وتبدأ سورة الأحزاب بـ ﴿ **يا أيها النبي اتَّق الله** ﴾ وكما تتحدث سورة النساء في مقطعها الأول عن قضايا لها علاقة في الأسرة فكذلك المقطع الأول من سورة الأحزاب .

وتلاحظ في سورة المائدة قوله تعالى :

﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذْ هَمَّ قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم فكفَّ أيديهم عنكم ﴾ [المائدة : ١١] .

وتلاحظ أنّ المقطع الثاني من سورة الأحزاب :

﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعلمون بصيراً ﴾ . فالمقطع الأول من الأحزاب عليه ملامح سورة النساء ، والمقطع الثاني عليه ملامح سورة المائدة . وهكذا بالتناوب ، وهو موضوع سنرى تفصيلاته أثناء العرض . ومن ثَمَّ فابتداءً نقول : إنّ سورة الأحزاب تفصّل من البقرة ما فصّلت فيه سورتا النّساء والمائدة بآن واحد .

فهي تفصّل في محوري سورتي النساء والمائدة ، وتفصّل معاني موجودة في سورتي النساء والمائدة ، وهو موضوع سنرى تفصيلاته إن شاء الله .

لقد رأينا أن سورة النساء فصّلت في قوله تعالى من سورة البقرة :

﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلّكم تتقون ﴾ (البقرة : ٢١) . وأن سورة المائدة فصّلت في قوله تعالى من البقرة :

﴿ الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون ﴾ (البقرة : ٢٧) .

وما بين الآيتين من سورة البقرة ناله حظ من التفصيل في سورتي النساء والمائدة ، وإذ كانت سورة الأحزاب تفصّل في محوري سورتي النساء والمائدة فإن كل ما بين المحورين كذلك يناله حظ من التفصيل ؛ فسورة الأحزاب تفصّل في الآيات المذكورة وما استكن فيها مما فصلته سور أخرى ، وهو لون من ألوان التفصيل في القرآن الذي وصفه الله تعالى بقوله : **﴿ كتاب أُحكمت آياته ثم فصلت ﴾** وإن هذه الألوان من التفصيل لتدلّنا على أن هذا القرآن من عند الله . فالحمد لله على نعمة الإيمان والقرآن .

....

ومهما تكلّمنا في هذه المقدمة فلن يغنينا عن التفصيل عند مناسبته ، وقد يكون من المناسب أن نذكر ههنا الآيات التي تشكل محور سورة الأحزاب في سورة البقرة :

﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون * الذي جعل لكم الأرض فِراشاً والسماء بناءً وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون ﴾ (البقرة : ٢١) .

﴿ وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين * فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أُعدت للكافرين ﴾ (البقرة : ٢٤) .

﴿ إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها فأمّا الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم وأمّا الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلاً يُضل به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يُضل به إلا الفاسقين * الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويُفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون ﴾ (البقرة : ٢٦ ، ٢٧) .

وسنعرض سورة الأحزاب على أن كل ما صدّر بكلمة ﴿ **يا أيها** ﴾ يشكّل مقطعاً من مقاطعها ماعدا الندائين الأخيرين فإنّهما كالمقطع الواحد ، ومن ثَمَّ فإن السورة تتألف من عشرة مقاطع .

....

وإذا كانت سورتا النساء والمائدة تكمّلان بعضهما فإنّ سورة الأحزاب ترينا هذا التكامل وتؤكّده ، وترينا كيف أنّ سورة المائدة تكمّل ما بدأته سورة النساء ، وهكذا سنجد السورة يتناوب فيها الكلام ؛ فهذا مقطع يحقّق هدفاً من أهداف سورة النساء ، وهذا مقطع يحقق هدفاً من أهداف سورة المائدة .

المقطع الأول من سورة الأحزاب

ويمتدّ من الآية (١) إلى نهاية الآية (٨) وهذا هو مع البسملة :

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ١

(١) وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (٢) وَتَوَكَّلْ
عَلَى اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا (٣) مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ۚ وَمَا جَعَلَ
أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ
قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ ۖ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ (٤) ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ
هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ ۚ
وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ
غَفُورًا رَّحِيمًا (٥) النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ۗ وَأُولُو
الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَن
تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا (٦) وَإِذْ أَخَذْنَا
مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۖ
وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا (٧) لِّيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ
عَذَابًا أَلِيمًا (٨)

التفسير :

﴿ **يا أيها النبي** ﴾ قال النسفي : أي يا أيها المخبر عنا ، المأمون على أسرارنا ، المبلِّغ خطابنا إلى أحبابنا . وإنما لم يقل يا محمد كما قال يا آدم ، يا موسى ؛ تشريفاً له وتنويهاً بفضله وتصريحه باسمه في قوله تعالى : ﴿ **محمد رسول الله** ﴾ ونحوه لتعليم الناس بأنّه رسول الله ﴿ **اتق الله** ﴾أي اثبت على تقوى الله ، ودُم عليه ، وازدد منه ؛ فهو باب

لا يُدرك مداه . قال ابن كثير : (قال طلق بن حبيب : التقوى : أن تعمل بطاعة الله ، على نور من الله ، ترجو ثواب الله ، وأن تترك معصية الله ، على نور من الله ، مخافة عذاب الله) ﴿ **ولا تُطِع الكافرين والمنافقين** ﴾ قال ابن كثير : أي لا تسمع منهم ولا تستشرهم ﴿ **إن الله كان عليماً حكيماً** ﴾ أي فهو أحقُّ أن تتّبع أوامره وتطيعه فإنّه عليم بعواقب الأمور ، حكيم في أقواله وأفعاله ﴿ **واتّبع ما يوحى إليك من ربك** ﴾ أي من قرآن وسنة ﴿ **إن الله** ﴾ الذي أوحى إليك ﴿ **كان بما تعملون خبيراً** ﴾ أي لا تخفى عليه خافية من أعمالكم ﴿ **وتوكّل على الله** ﴾ في جميع أمورك وأحوالك ﴿ **وكفى بالله وكيلاً** ﴾ أي واكتف بالله وكيلاً أي حافظاً موكولاً إليه كل أمر ، أو المعنى : وكفى به وكيلاً لمن توكّل عليه وأناب إليه .

كلمة في السياق :

إن مجموع الأوامر التي صدرت لرسول الله ﷺ ولأمته من خلال شخصه الكريم في هذه الآيات هي التقوى ، وترك طاعة الكافرين والمنافقين ، واتّباع الوحي ، والتوكل ، والصلة بين هذه الأوامر واضحة . فالتقوى لا تكون مع طاعة الكافرين والمنافقين . إذ الكافرون والمنافقون يرغبون أن يحرفوا المؤمنين . والتقوى واتباع الوحي متلازمان كما ورد في أول آية من سورة البقرة ﴿ **الٓمٓ * ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين** ﴾ والتقوى وترك طاعة الكافرين والمنافقين واتّباع الوحي كلها تحتاج إلى توكل على الله ، وتفويض أمر له ومعرفة له . ومن ثَمَّ جاء الأمر بالتوكل ، وجاء قوله تعالى : ﴿ **وكفى بالله وكيلاً** ﴾ ﴿ **إن الله كان بما تعملون خبيراً** ﴾ ﴿ **وكان الله عليماً حكيماً** ﴾ وإذ استقرّت هذه المعاني يبدأ السياق بهدم قاعدة التبنّي المتعارف عليها عند العرب ، والتي كانت عميقة عندهم ، والتي سيترتب على هدمها قيل وقال ، فناسب ذلك أن يسبق الكلام عنها هذه المقدّمة ، وتلك إحدى حِكَم وجود هذه المقدّمة ، هذا وإن لهذه المقدّمة صلة بمحور سورة الأحزاب من سورة البقرة ، فقد رأينا أنّه قد جاء في مقدمة سورة البقرة ذكر المتقين والكافرين والمنافقين . ثم جاء قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلّكم تتقون** ﴾ أي لتكونوا من الفئة الأولى . وههنا يأتي الأمر بالتقوى ، وترك طاعة الكافرين والمنافقين ، ويأتي الأمر باتّباع الكتاب ، وبالتوكّل ، وكل ذلك يخدم قضية التفصيل في موضوع التقوى والطريق إليها ، وإذا كانت السور الأربع السابقة على سورة الأحزاب قد فصّلت في

المقدمة ، فذكرت التقوى والكفر والنفاق ، فإن مقدمة سورة الأحزاب تحدّد الطريق العملي للسلوك :

١ - تقوى الله . ٢ - عدم الطاعة للكافرين والمنافقين .
٣ - اتّباع الكتاب والسنة . ٤ - التوكّل على الله .

ولنعد إلى التفسير :

﴿ ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه ﴾ هذه توطئة للمقصود ؛ فكما لا يكون للشّخص الواحد قلبان في جوفه ، وكما لا تصير زوجته التي يظاهر منها بقوله : أنت عليّ كظهر أمّي أمّاً له . كذلك لا يصير الدعيّ ولداً للرجل إذا تبناه فدعاه ابناً له **﴿ وما جعل أزواجكم اللائي تظاهرون منهنّ أمّهاتكم وما جعل أدعياءكم ﴾** أي الذين تدعونهم أولادكم وما هم بأولادكم حقيقة **﴿ أبناءكم ﴾** قال النسفي : (أي ما جمع الله قلبين في جوف ، ولا زوجية وأمومة في امرأة ، ولا بنوة ودعوة في رجل ، والمعنى : أنه تعالى كما لم يجعل لإنسان قلبين - لأنه لا يخلو إما أن يفعل بأحدهما مثل ما يفعل بالآخر فعلاً من أفعال القلوب فأحدهما فَضلة غير محتاج إليه ، وإما أن يفعل بهذا غير ما يفعل بذاك فذلك يؤدّي إلى اتصاف الجملة بكونه (أي صاحب القلبين) مريداً كارهاً عالماً موقناً شاكاً في حالة واحدة - لم يحكم أيضاً أن تكون المرأة الواحدة أمّاً لرَجل زوجاً له ، لأن الأم مخدومة والمرأة خادمة ، وبينهما منافاة ، وأن يكون الرجل الواحد دعيّاً لرجل وابناً له ؛ لأن البنوّة أصالة في النسب ، والدعوة إلصاق عارض بالتسمية لا غير ، ولا يجتمع في الشيء الواحد أن يكون أصيلاً غير أصيل) .

ومن كلام النسفي نفهم أنّ المراد بالقلب في الآية القلب الذي هو محلّ العلم ، والظن ، والشك ، واليقين ، فالمنفي هو القلب الذي هذا شأنه ، فهذا لا يتعدّد عند الإنسان قطعاً بنصّ الآية ، أما القلب الحسيّ فالمشاهد أنّه لا يتعدّد كذلك ، وفي قوله تعالى : **﴿ ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه ﴾** قال صاحب الظلال :

(إنه قلب واحد ، فلا بد له من منهج واحد يسير عليه . ولا بد له من تصوّر كلي واحد للحياة وللوجود يستمد منه . ولا بد له من ميزان واحد يزن به القيَم ، ويقوّم به الأحداث والأشياء . وإلا تمزّق وتفرّق ونافق والتوى ، ولم يستقم على اتجاه .

ولا يملك الإنسان أن يستمد آدابه وأخلاقه من معين ؛ ويستمد شرائعه وقوانينه من معين آخر ؛ ويستمد أوضاعه الاجتماعية أو الاقتصادية من معين ثالث ؛ ويستمد فنونه وتصوّراته من معين رابع .. فهذا الخليط لا يكوّن إنساناً له قلب . إنما يكوِّن مزقاً وأشلاءً ليس لها قوام !

وصاحب العقيدة لا يملك أن تكون له عقيدة حقاً ، ثم يتجرد من مقتضياتها وقيمها الخاصة في موقف واحد من مواقف حياته كلها ، صغيراً كان هذا الموقف أم كبيراً . لا يملك أن يقول كلمة ، أو يتحرك حركة ، أو ينوي نية ، أو يتصوَّر تصوُّراً ، غير محكوم في هذا كله بعقيدته – إن كانت هذه العقيدة حقيقة واقعة في كيانه – لأن الله لم يجعل له سوى قلب واحد ، يخضع لناموس واحد ، ويستمد من تصور واحد ، ويزن بميزان واحد .

لا يملك صاحب العقيدة أن يقول عن فعل فعله : فعلت كذا بصفتي الشخصية . وفعلت كذا بصفتي الإسلامية ! كما يقول رجال السياسة أو رجال الشركات . أو رجال الجمعيات الاجتماعية أو العلمية وما إليها في هذه الأيام ! إنه شخص واحد له قلب واحد ، تعمره عقيدة واحدة . وله تصوّر واحد للحياة ، وميزان واحد للقيم . وتصوّره المستمد من عقيدته متلبس بكل ما يصدر عنه ، في كل حالة من حالاته على السواء .

وبهذا القلب الواحد يعيش فرداً ، ويعيش في الأسرة ، ويعيش في الجماعة ، ويعيش في الدولة . ويعيش في العالم . يعيش سراً وعلانية . ويعيش عاملاً وصاحب عمل . ويعيش حاكماً ومحكوماً . ويعيش في السراء والضراء .. فلا تتبدَّل موازينه ، ولا تتبدّل قيمه ، ولا تتبدل تصوراته . ﴿ **ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه** ﴾ .

ومن ثَمَّ فهو منهج واحد ، وطريق واحد ، ووحي واحد ، واتجاه واحد . وهو استسلام لله وحده . فالقلب الواحد لا يعبد إلهين . ولا يخدم سيِّدين ، ولا ينهج نهجين ، ولا يتجه اتجاهين . وما يفعل شيئاً من هذا إلا أن يتمزَّق ويتفرّق ويتحوَّل إلى أشلاء وركام !) .

﴿ **ذلكم قولكم بأفواهكم** ﴾ أي إن قولكم للزوجة هي أم ، وللدعي هو ابن قول تقولونه بألسنتكم ، لا حقيقة له ؛ إذ الابن يكون بالولادة ، وكذا الأم ﴿ **والله**

يقول الحق ﴾ أي يقول ما هو حق ظاهره وباطنه ﴿ **وهو يهدي السبيل** ﴾ أي سبيل الحق ثم بيّن ما هو الحق في هذه المسألة ، فبيّن أن دعاءهم لآبائهم هو أدخل الأمرين في القسط والعدل فقال : ﴿ **ادعوهم لآبائهم هو أقسط** ﴾ أي أعدل ﴿ **عند الله فإن لم تعلموا آباءهم** ﴾ أي فإن لم تعلموا لهم آباء تنسبونهم إليهم ﴿ **فإخوانكم في الدين ومواليكم** ﴾ أي فهم إخوانكم في الدين ، وأولياؤكم في الدين فقولوا : هذا أخي وهذا مولاي ، ويا أخي ويا مولاي ، يريد الأخوة في الدين والولاية فيه . قال ابن كثير : (أمر تعالى برد أنساب الأدعياء إلى آبائهم إن عُرِفوا ، فإن لم يُعْرفوا فهم إخوانهم في الدين ومواليهم ، أي عوضاً عمّا فاتهم من النسب) ﴿ **وليس عليكم جناح** ﴾ أي إثم ﴿ **فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم** ﴾ أي لا إثم عليكم فيما فعلتموه من ذلك مخطئين جاهلين قبل ورود النّهي ، ولكن الإثم عليكم فيما تعمَّدتموه بعد النهي ، أو لا جناح عليكم إذا نسبتم بعضهم إلى غير أبيه خطأ بعد الاجتهاد واستفراغ الوسع ، فإنّ الله قد وضع الحرج في الخطأ ، ورفع إثمه ، وإنما الإثم على من تعمّد الباطل ﴿ **وكان الله غفوراً رحيماً** ﴾ أي لا يؤاخذكم بالخطأ ويقبل توبة المتعمّد ، وبمناسبة هذا الحكم يقرر الله عز وجل أحكاماً أخرى :

﴿ **النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم** ﴾ أي أحق بهم من أنفسهم في كل شيء وحكمه أنفذ عليهم من حكم أنفسهم ؛ فعليهم أن يبذلوها دونه ودون ما أُوحي إليه ، ويجعلوها فداءه ، فإذا أمر أمراً أو نهى عن نهي فعليهم أن يسارعوا إلى الطاعة ، أو هو أولى بهم بمعنى : أرأف بهم وأعطف عليهم وأنفع لهم . ﴿ **وأزواجه أمّهاتهم** ﴾ أي في الحرمة والاحترام ، والتوقير والإكرام والإعظام . قال ابن كثير : (ولكن لا تجوز الخلوة بهنّ ولا ينتشر التحريم إلى بناتهنّ وأخواتهنّ بالإجماع) . وقال النسفي : وأزواجه أمهاتهم في تحريم نكاحهن ، ووجوب تعظيمهن ، وهن فيما وراء ذلك كالإرث ونحوه كالأجنبيات ، ولهذا لم يتعدّ التحريم إلى بناتهن ﴿ **وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله** ﴾ أي في حكم الله وقضائه ، أو في اللوح المحفوظ ، أو فيما فرض الله ﴿ **من المؤمنين والمهاجرين** ﴾ أي القرابات أولى بالتوارث من المهاجرين والأنصار . قال ابن كثير : (وهذه ناسخة لما كان قبلها من التوارث بالحلف والمؤاخاة التي كانت بينهم) . وقال النسفي : (وكان المسلمون في صدر الإسلام يتوارثون بالولاية في الدين ، وبالهجرة لا بالقرابة ، ثم نُسخ ذلك وجعل التوارث بحق القرابة) . والمعنى : الأقرباء من هؤلاء بعضهم أولى بأن يرث بعضاً

من الأجانب ، أو أولوا الأرحام بحق القرابة أولى بالميراث من المؤمنين من الأنصار بحق الولاية في الدين ، ومن المهاجرين بحق الهجرة ﴿ **إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفاً** ﴾ قال ابن كثير : (أي ذهب الميراث وبقي النّصر والبِرّ والصّلة والإحسان والوصية) . قال النسفي في هذا النص : (والمراد بالأولياء المؤمنون والمهاجرون للولاية في الدين وقال في الآية : أي لكن فعلكم إلى أوليائكم معروفاً جائز وهو أن توصوا لمن أحببتم من هؤلاء بشيء ، فيكون ذلك بالوصية لا بالميراث) ﴿ **كان ذلك في الكتاب مسطوراً** ﴾ أي التوارث بالأرحام كان مسطوراً في اللوح . قال ابن كثير : (أي هذا الحكم - وهو أن أولي الأرحام بعضهم أولى ببعض - حكم من الله مقدر ، مكتوب في الكتاب الأوّل ، الذي لا يبدّل ولا يغيّر ، قاله مجاهد وغير واحد وإن كان تعالى قد شرع خلافه في وقت ؛ لما له في ذلك من الحكمة البالغة وهو يعلم أنه سينسخه إلى ما هو جار في قدره الأزلي ، وقضائه القدري الشرعي . والله أعلم) .

....

كلمة في السياق :

بدأت السورة بخطاب رسول الله ﷺ آمرة إياه بالتقوى ، واتباع وحي الله والتوكل عليه ، وناهية له عن طاعة الكافرين والمنافقين . ثمّ ذكر الله عز وجل حكماً أبطل فيه عادة التبني ، وعوّض عن ذلك بتعميق معاني الإخاء الديني ، والبنوّة الدينية ، ثمّ بيّن أن التوارث يكون بالقرابة الحقيقية لا بغيرها ، حتى ولو كانت أخوة دين ، ليبين أن نفي عادة التبني إنما كان من أجل أحكام أصيلة في شرع الله ، فالتبني يتعارض مع موضوع الإرث بالقرابة ، ويتعارض مع موضوع المَحْرميّة بالقرابة ، وغير ذلك من أحكام الإسلام الدائمة ، وإذ تقررت هذه الأحكام يعود السياق إلى مخاطبة رسول الله ﷺ كما بدأت السورة :

....

﴿ **وإذ** ﴾ أي واذكر حين ﴿ **أخذنا من النبيين** ﴾ جميعاً ﴿ **ميثاقهم** ﴾ في إقامة دين الله تعالى ، وإبلاغ رسالته ، واتباع شرعه ، والنأي عن المخالفين ، والتوكّل على الله ﴿ **ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم** ﴾ نصّ على هؤلاء الخمسة لأنهم أولو العزم ، من باب عطف الخاص على العام . قال النسفي : (وقدم رسول الله

ﷺ على نوح ومن بعده لأن هذا العطف لبيان فضيلة هؤلاء ، لأنهم أولو العزم ، وأصحاب الشرائع ، فلما كان محمد ﷺ أفضل هؤلاء قُدِّم عليهم ، ولولا ذلك لقدّم من قدّمه زمانه) . وقال ابن كثير : (فبدأ في هذه الآية بالخاتم ؛ لشرفه صلوات الله وسلامه عليه ، ثم رتّبهم بحسب وجودهم صلوات الله عليهم) ﴿ **وأخذنا منهم** ﴾ أي من الأنبياء ﴿ **ميثاقاً غليظاً** ﴾ أي عهداً قوياً شديداً . ثم بيّن تعالى حكمة العهد والميثاق الغليظ فقال : ﴿ **ليسأل الصادقين عن صدقهم** ﴾ أي وإنما فعلنا ذلك ليسأل الله الأنبياء عما قالوه لقومهم ، وبلّغوهم إياه ، لتقوم عليهم الحجة ، ولا يبقى للخلق عذر ، أو ليسأل الله المصدّقين للأنبياء عن تصديقهم ، وذلك يكون إذا بذل الرسل طاقتهم في الدعوة ، فلا يبقى لأحد حجة ، أو ليسأل الأنبياء ما الذي أجابتهم أممهم بعد أن أدّوا رسالات الله ﴿ **وأعد للكافرين** ﴾ من أمم الرسل ﴿ **عذاباً أليماً** ﴾ أي موجعاً . والمعنى : أنّ الله أكد على الأنبياء الدعوة إلى دينه لأجل إثابة المؤمنين وتعذيب الكافرين .

كلمة في السياق :

١ - جاء الأمر بتهديم عادة التبني والتعليل لذلك بين خطابين لرسول الله ﷺ ، خطاب في ابتداء السورة يأمر بالتقوى ، واتّباع الوحي ، والتوكل ، وخطاب في نهاية المقطع يذكّر بعهد الله وميثاقه على الرسل ليبلغوا ، وكل ذلك يشير إلى أنّ إلغاء التبني هو حكم الله الجازم ، الذي ينبغي تبليغه ، والالتزام به ، ووضع هذا الحكم بين هذين الخطابين يشير إلى أن هذا الموضوع من المواضيع التي تحتاج إلى معالجة محكمة ؛ لأنّ تعلّق الناس بها شديد .

٢ - إن المقطع الذي مَرّ معنا يفصّل في قوله تعالى من سورة البقرة : ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون** ﴾ ومن ثَمَّ فإن من العبادة الموصّلة للتقوى الالتزام بما مَرّ في المقطع من معان ؛ فليتفطّن إلى ذلك ، إنّ الله هو الذي خلق الإنسان ، وجعله أباً وابناً ، وعلى الإنسان أن يتّقي الله وأن يطيع ، وأن يتوكل على خالقه .

٣ - قلنا إن سورة الأحزاب تأتي مقاطعُها على تناوب ، فمقطع يفصّل على طريقة سورة النساء ، ومقطع يفصّل على طريقة سورة المائدة ، والملاحظ أن المقطع

الأول من سورة الأحزاب يشبه المقطع الأول من سورة النساء في أكثر من مقام : فمثلاً قال تعالى في سورة النساء :

﴿ **وآتوا اليتامىٰ أموالهم ولا تتبدّلوا الخبيث بالطيب** ... ﴾ (الآية : ٢) . فالمقطع الأول من سورة النساء فيه تفصيل لأحكام الأسرة ، ومن ذلك الإرث ، والمقطع الأول من سورة الأحزاب يتحدّث عن أحكام في الأسرة ، والإرث ، والمقطع الأول من سورة النساء ينتهي بقوله تعالى : ﴿ **أولئك أعتدنا لهم عذاباً أليماً** ﴾ (الآية : ١٨) إذ يأتي بعده مباشرة نداء ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً** ﴾ (الآية : ١٩) . والمقطع الأول من سورة الأحزاب ينتهي بقوله تعالى : ﴿ **وأعد للكافرين عذاباً أليماً** ﴾ ثم يأتي بعده مباشرة نداء ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اذكروا** ... ﴾ .

وقبل أن ننتقل إلى المقطع الثاني في سورة الأحزاب فلنذكر بعض الفوائد :

....

فوائد :

١ - في سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه وما جعل أزواجكم اللائي تُظاهرون** ... ﴾ الآية . قال ابن كثير :

(فإنها نزلت في شأن زيد بن حارثة رضي الله عنه مولى النبي ﷺ ، كان النبي ﷺ قد تبناه قبل النبوَّة ، فكان يقال له : زيد بن محمد ، فأراد الله تعالى أن يقطع هذا الإلحاق ، وهذه النّسبة بقوله تعالى : ﴿ **وما جعل أدعياءكم أبناءكم** ﴾ كما قال تعالى في أثناء السورة ﴿ **ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليماً** ﴾ . وقال ههنا ﴿ **ذلكم قولكم بأفواهكم** ﴾ يعني : تبنيكم لهم قول لا يقتضي أن يكون ابناً حقيقياً ؛ فإنه مخلوق من صلب رجل آخر ، فما يمكن أن يكون له أبوان ، كما لا يمكن أن يكون للبشر الواحد قلبان) .

وقال ابن كثير : (وقد ذكر غير واحد أن هذه الآية نزلت في رجل من قريش ، كان يقال له ذو القلبين ، وأنه كان يزعم أن له قلبين ، كل منهما بعقل وافر ، فأنزل الله تعالى هذه الآية رداً عليه . وهكذا روى العوفي عن ابن عباس ، وقاله مجاهد وعكرمة والحسن وقتادة ، واختاره ابن جرير . وروى الإمام أحمد ... عن قابوس بن أبي ظبيان أن أباه حدثه قال : قلت لابن عباس أرأيت قول الله تعالى : ﴿ **ما جعل الله لرجل**

من قلبين في جوفه ﴾ ما معنى ذلك ؟ قال : قام رسول الله ﷺ يوماً يصلي ، فخطر خطرة ؛ فقال المنافقون الذين يصلون معه : ألا ترون له قلبين ، قلباً معكم وقلباً معهم ، فأنزل الله تعالى : ﴿ **ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه** ﴾ وهكذا رواه الترمذي وقال : وهذا حديث حسن ، وكذا رواه ابن جرير وابن أبي حاتم . وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن الزهري في قوله تعالى : ﴿ **ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه** ﴾ قال : بلغنا أن ذلك كان في زيد بن حارثة ، ضرب له مثل . يقول ليس ابن رجل آخر ابنك . وكذا قال مجاهد وقتادة وابن زيد أنها نزلت في زيد بن حارثة رضي الله عنه ، وهذا يوافق ما قدّمناه من التفسير والله سبحانه وتعالى أعلم) .

٢ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله** ﴾ قال ابن كثير : (هذا أمر ناسخ لما كان في ابتداء الإسلام من جواز ادّعاء الأبناء الأجانب وهم الأدعياء ، فأمر تبارك وتعالى بردِّ نَسَبِهم إلى آبائهم في الحقيقة ، وأن هذا هو العدل والقسط والبر . روى البخاري رحمه الله ... عن عبد الله بن عمر قال : إن زيد بن حارثة رضي الله عنه مولى رسول الله ﷺ ما كنا ندعوه إلا زيد بن محمد ، حتى نزل القرآن ﴿ **ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله** ﴾ وأخرجه مسلم والترمذي والنسائي . وقد كانوا يعاملونهم معاملة الأبناء من كل وجه ، في الخلوة بالمحارم ، وغير ذلك ، ولهذا قالت سهلة بنت سهيل امرأة أبي حذيفة رضي الله عنهما : يا رسول الله إنا كنا ندعوا سالماً ابناً . وإن الله قد أنزل ما أنزل ، وإنه كان يدخل عليّ ، وإني أجد في نفس أبي حذيفة من ذلك شيئاً ، فقال ﷺ : « أرضعيه تحرمي عليه » الحديث . ولهذا لما نسخ هذا الحكم أباح تبارك وتعالى زوجة الدّعي ، وتزوج رسول الله ﷺ بزينب بنت جحش مطلقة زيد بن حارثة رضي الله عنه) .

٣ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به** ﴾ قال ابن كثير : (فإن الله تعالى وضع الحرج في الخطأ ورفع إثمه ، كما أرشد إليه في قوله تبارك وتعالى آمراً عباده أن يقولوا ﴿ **ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا** ﴾ [سورة البقرة : ٢٨٦] وثبت في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال : « قال الله عز وجل : قد فعلت » . وفي صحيح البخاري عن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران ، وإن اجتهد فأخطأ فله أجر » . وفي الحديث الآخر : « إن الله تعالى رفع عن أمتي الخطأ والنسيان ، والأمر الذي يكرهون عليه » ، وقال تبارك وتعالى ههنا : ﴿ **ليس عليكم جناح فيما أخطأتم**

به **ولكن ما تعمّدت قلوبكم وكان الله غفوراً رحيماً** ﴾ أي وإنما الإثم على من تعمّد الباطل، كما قال عز وجل: ﴿ **لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم** ﴾ الآية. وفي الحديث المتقدم: « من ادعى إلى غير أبيه وهو يعلمه إلّا كفر » وفي القرآن المنسوخ فإنه كفر بكم أن ترغبوا عن آبائكم. وروى الإمام أحمد ... عن ابن عباس عن عمر رضي الله عنه أنه قال: إن الله تعالى بعث محمداً ﷺ بالحق، وأنزل معه الكتاب، فكان فيما أنزل عليه آية الرجم، فرجم رسول الله ﷺ ورجمنا بعده، ثم قال: قد كنا نقرأ (ولا ترغبوا عن آبائكم فإنه كفر بكم أن ترغبوا عن آبائكم) وأن رسول الله ﷺ قال: « لا تطروني كما أُطري عيسى ابن مريم عليه السلام فإنما أنا عبد الله فقولوا عبده ورسوله » وربما قال معمر: « كما أطرت النصارى ابن مريم » رواه في الحديث الآخر: « ثلاث في الناس كفر: الطعن في النسب، والنياحة على الميت، والاستسقاء بالنجوم »).

٤ - قال النسفي: (وإذا وجد التبني (أي الآن) فإن كان المتبنىٰ مجهول النسب، وأصغر سناً منه، ثبت نسبه منه، وعتق إن كان عبداً له، وإن كان أكبر سناً منه لم يثبت النسب، وعتق عند أبي حنيفة رضي الله عنه، وأما المعروف النسب فلا يثبت نسبه بالتبني وعتق إن كان عبداً).

٥ - بمناسبة قوله تعالى: ﴿ **النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم** ... ﴾ قال ابن كثير: (قد علم الله شفقة رسوله ﷺ على أمته، ونصحه لهم، فجعله أولى بهم من أنفسهم، وحكمه فيهم كان مقدّماً على اختيارهم لأنفسهم، كما قال تعالى: ﴿ **فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكّموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً** ﴾ [النساء: ٦٥] وفي الصحيح: « والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبّ إليه من نفسه وماله وولده والناس أجمعين » وفي الصحيح أيضاً أن عمر رضي الله عنه قال: يا رسول الله والله لأنت أحبّ إليَّ من كل شيء إلا من نفسي، فقال ﷺ: « لا يا عمر حتى أكون أحبّ إليك من نفسك ». فقال يا رسول الله والله لأنت أحبّ إليَّ من كل شيء حتى من نفسي فقال ﷺ: « الآن يا عمر » ولهذا قال تعالى في هذه الآية: ﴿ **النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم** ﴾. وروى البخاري عند هذه الآية الكريمة ... عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: « ما من مؤمن إلا وأنا أولى الناس به في الدنيا والآخرة، اقرؤوا إن شئتم:

﴿ **النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم** ﴾ فأيما مؤمن ترك مالاً فليرثه عصبته من كانوا ، وإن ترك دَيْناً أو ضياعاً فليأتني فأنا مولاه » تفرد به البخاري ورواه أيضاً في (الاستقراض) وابن جرير وابن أبي حاتم . ورواه أحمد ... عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ بنحوه . وروى الإمام أحمد ... عن الزهري في قوله تعالى : ﴿ **النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم** ﴾ عن أبي سلمة عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه عن النبي ﷺ كان يقول : « أنا أولى بكل مؤمن من نفسه ؛ فأيما رجل مات وترك ديناً فإليَّ ، ومن ترك مالاً فهو لورثته » ورواه أبو داود عن أحمد بن حنبل به نحوه) .

٦ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وأزواجه أمّهاتهم ...** ﴾ قال ابن كثير : (أي في الحرمة والاحترام ، والتوقير والإكرام والإعظام ، ولكن لا تجوز الخلوة بهن ، ولا ينتشر التحريم إلى بناتهن وأخواتهن بالإجماع ، وإن سمّى بعض العلماء بناتهن أخوات المؤمنين ، كما هو منصوص الشافعي رضي الله عنه في المختصر ، وهو من باب إطلاق العبارة لا إثبات الحكم ، وهل يقال لمعاوية رضي الله عنه وأمثاله خال المؤمنين ؟ فيه قولان للعلماء رضي الله عنهم ، ونص الشافعي رضي الله عنه على أنه يقال ذلك ، وهل يقال له ﷺ أبو المؤمنين فيدخل النساء في جمع المذكر السالم تغليباً ؟ فيه قولان ، صح عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : لا يقال ذلك ، وهذا أصح الوجهين في مذهب الشافعي رضي الله عنه . وقد روي عن أُبي بن كعب ، وابن عباس رضي الله عنهما أنهما قرآ : (النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم) . وروي نحو هذا عن معاوية ومجاهد وعكرمة والحسن وهو أحد الوجهين في مذهب الشافعي رضي الله عنه ، حكاه البغوي وغيره ، واستأنسوا عليه بالحديث الذي رواه أبو داود رحمه الله ... عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إنما أنا لكم بمنزلة الوالد ؛ أعلّمكم فإذا أتى أحدكم الغائط فلا يستقبل القبلة ولا يستدبرها ، ولا يستطب بيمينه » وكان يأمر بثلاثة أحجار وينهى عن الرّوث والرّمّة . وأخرجه النسائي وابن ماجه ، والوجه الثاني أنه لا يقال ذلك ، واحتجوا بقوله تعالى : ﴿ **ما كان محمد أبا أحد من رجالكم** ﴾) .

٧ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله** ﴾ قال ابن كثير : (أي في حكم الله ﴿ **من المؤمنين والمهاجرين** ﴾ أي القرابات أولى بالتوارث من المهاجرين والأنصار ، وهذه ناسخة لما كان قبلها من التوارث بالحلف

والمؤاخاة التي كانت بينهم ، كما قال ابن عباس وغيره : كان المهاجري يرث الأنصاري دون قراباته وذوي رحمه ؛ للأخوّة التي آخى بينهما رسول الله ﷺ . وكذا قال سعيد بن جبير وغير واحد من السّلف والخلف . وقد أورد فيه ابن أبي حاتم حديثاً عن الزبير بن العوام فقال رضي الله عنه : أنزل الله عز وجل فينا خاصّة معشر قريش والأنصار ﴿ **وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض** ﴾ وذلك أنا معشر قريش لما قدمنا المدينة قدمنا ولا أموال لنا ، فوجدنا الأنصار نعم الإخوان ، فواخيناهم ووارثناهم ، فآخى أبو بكر رضي الله عنه خارجة بن زيد . وآخى عمر رضي الله عنه فلاناً ، وآخى عثمان رضي الله عنه رجلاً من بني زريق بن سعد الزرقي ، ويقول بعض الناس غيره ، قال الزبير رضي الله عنه : وواخيت أنا كعب بن مالك ، فجئته فابتعلته ، فوجدت السلاح قد ثقله فيما يرى ، فوالله يابنيّ لو مات يومئذ عن الدنيا ما ورثه غيري ، حتى أنزل الله تعالى هذه الآية فينا معشر قريش - والأنصار خاصة - فرجعنا إلى مواريثنا) .

٨ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ...** ﴾ قال ابن كثير : (فبدأ في هذه الآية بالخاتم لشرفه صلوات الله عليه ، ثم رتّبهم بحسب وجودهم صلوات الله عليهم . روى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ في قوله تعالى : ﴿ **وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح** ﴾ الآية : قال النبي ﷺ : « كنت أوّل النبيين في الخلق ، وآخرهم في البعث فبدأ بي قبلهم » . سعيد بن بشير - أحد رجال السند - فيه ضعف ، وقد رواه سعيد بن أبي عروبة عن قتادة به مرسلاً وهو أشبه ، ورواه بعضهم عن قتادة موقوفاً والله أعلم . وروى أبو بكر البزار عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : خيار ولد آدم خمسة : نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، وخيرهم محمد ﷺ . موقوف وحمزة - أحد رجال السند - فيه ضعف . وقد قيل إن المراد بهذا الميثاق الذي أخذ منهم حين أخرجوا في صورة الذرّ من صلب آدم عليه الصلاة والسلام ، كما قال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية عن أبي بن كعب قال : ورفع أباهم آدم فنظر إليهم يعني ذريته ، وإن فيهم الغني والفقير وحسن الصورة ودون ذلك ، فقال : ربّ لو سوّيت بين عبادك فقال : إني أحببت أن أشكر . ورأى فيهم الأنبياء مثل السرج عليهم النّور ، وخصوا بميثاق آخر من الرسالة والنبوة ، وهو الذي يقول الله تعالى : ﴿ **وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم** ﴾ وهذا قول مجاهد أيضاً ، وقال ابن عباس : الميثاق الغليظ : العهد) . ولننتقل إلى المقطع الثاني في السورة .

المقطع الثاني

ويمتدّ من الآية (٩) إلى نهاية الآية (٢٧) وهذا هو :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا
وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ
أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ
ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ
ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ
قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ
ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ
عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَـَٔاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ
كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ قُل
لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا
﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا
يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ * قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ
وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا

جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ
ٱلْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟
فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَـٰلَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟
وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ
وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَـٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ
حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ
ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَـٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَمَا زَادَهُمْ
إِلَّآ إِيمَـٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن
قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّـٰدِقِينَ
بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا
﴿٢٤﴾ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ وَكَانَ
ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَـٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ
وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ
وَدِيَـٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾

ملاحظات في السياق :

١ - قلنا إنّ سورة الأحزاب تفصّل حيث فصّلت سورة النساء وسورة المائدة ،

وإن مقطعاً من مقاطعها يفصّل في مقام تفصيل سورة النساء ، ومقطعاً يفصّل في مقام تفصيل سورة المائدة . ورأينا صلة المقطع الأول بتفصيل سورة النساء ، ونلاحظ أن المقطع الثاني بدأ بقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً** ﴾ . ثم يسير المقطع في تفصيل هذا الموضوع ، والآية الأولى في هذا المقطع تذكّرنا بقوله تعالى في سورة المائدة : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ هَمّ قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم فكفَّ أيديهم عنكم واتقوا الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون** ﴾ (الآية : ١١) .

٢ - لاحظنا أن سورة المائدة فصّلت في قوله تعالى من سورة البقرة :

﴿ **الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون** ﴾ .

ومن ثَمَّ فقد بدأت بقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا أوْفوا بالعقود** ﴾ (المائدة : ١) ونلاحظ أنه قبل هذا المقطع الذي يفصّل في سورة المائدة جاء قوله تعالى : ﴿ **وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح ...** ﴾ مما يذكّرنا كذلك بموضوع سورة المائدة فهذه الآية جسر اتصال بين المقطع الأول والمقطع الثاني ، وجسر اتصال بين محور سورة النساء ومحور سورة المائدة .

٣ - في سورة المائدة نقرأ قوله تعالى :

﴿ **يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ هَمَّ قومٌ أن يبسطوا إليكم أيديهم فكفَّ أيديهم عنكم ...** ﴾ (المائدة : ١١) ويصعب على القارىء العادي أن يعرف صلة هذه الآية بموضوع نقض العهد ، والوفاء الذي هو محور سورة المائدة ، ولكنّه عندما يقرأ المقطع الثاني في سورة الأحزاب ويرى أن هذا المقطع يحدّثنا عن الوفاء بالعقود في سياق حادثة الأحزاب : ﴿ **من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر ...** ﴾ فعندئذ يدرك الصلة بشكل أوضح بين موضوع العقود وموضوع تذكر نعمة الله ، إذ هَمَّ قوم أن يبسطوا أيديهم فكفَّ الأيدي عنهم .

٤ - إن ما ذكرناه من وجود سمت سورتي النساء والمائدة على التناوب في سورة

الأحزاب لا يعني أنّه ليس لسورة الأحزاب سياقها الخاص بها . فلسورة الأحزاب سياقها الخاص ، وروحها الخاصة مع دلالتها على طريق التقوى ، وهو موضوع سورة النساء ، ومع إبعادها عن طريق الضلال وهو موضوع سورة المائدة .

٥ - وهذه كلمة سريعة حول الصلة بين المقطع الأول والثاني من سورة الأحزاب : إن المقطع الأول أمر بالتقوى ، وعدم طاعة الكافرين ، وأمر باتباع الكتاب ، وأمر بالتوكل على الله ، وأمر بهدم قاعدة التبنّي ، وذكّر بميثاق الله مع الرسل ، ثمّ جاء المقطع الثاني وهو يبيّن فضل الله على المؤمنين في ساعات المحنة ، وفي ذلك نوع تذكير أن على المؤمنين أن يطيعوا ويطمئنوا ، فالله معهم إن كانوا صادقين .

ثم إن المقطع الأول انتهى بقوله تعالى : ﴿ **ليسأل الصادقين عن صدقهم** ﴾ ويأتي المقطع الثاني ليبيّن علامة الصدق : ﴿ **من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه** ﴾ والصلات بين المقطعين أوسع من ذلك ، وستراها إن شاء الله تعالى .

وبعد هذه الملاحظات فلنبدأ التفسير :

....

التفسير :

﴿ **يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم** ﴾ أي ما أنعم الله به عليكم يوم الأحزاب ، وهو يوم الخندق ، وذلك في شوال سنة خمس من الهجرة ، على الصحيح المشهور ﴿ **إذ جاءتكم جنود** ﴾ أي الأحزاب وهم : قريش ، وغطفان ، وقريظة ، والنضير ﴿ **فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً** ﴾ أي الملائكة ﴿ **لم تروها** ﴾ بعث الله عليهم صباً باردة في ليلة شاتية ، فأمطرتهم وأسفّت التّراب في وجوههم ، وقطعت الأطناب ، وأطفأت النيران ، وأكفأت القدور ، وماجت الخيل بعضها في بعض ، وألقت الملائكة في قلوبهم الرعب والخوف ، فكان أن هربوا ﴿ **وكان الله بما تعملون بصيراً** ﴾ أي وكان بعملكم أيها المؤمنون من التحصّن بالخندق ، والثبات على معاونة النبي ﷺ بصيراً . ثمّ فصّل الله الحادثة فقال : ﴿ **إذ جاؤوكم من فوقكم** ﴾ أي من أعلى الوادي من قبل المشرق ، وكان الآتون من هذه الجهة بني غطفان ﴿ **ومن أسفل منكم** ﴾ أي من أسفل الوادي من قبل المغرب ، وكان الآتون من قبل المغرب قريش ،

أو الآتون من فوق : الأحزاب قريش وغطفان ، والمراد بمن أسفل منهم بنو قريظة ﴿ **وإذ زاغت الأبصار** ﴾ أي مالت عن سننها ومستوى نظرها حيرة ، أو عدلت عن كل شيء فلم تلتفت إلا إلى عدوّها لشدّة الرّوع ﴿ **وبلغت القلوب الحناجر** ﴾ الحنجرة : هي منتهى الحلقوم ، وهذا مثل لاضطراب القلوب من شدة الخوف والفزع ﴿ **وتظنون بالله الظنونا** ﴾ ظن المؤمنون أن الله يبتليهم فخافوا الزلل وضعف الاحتمال ، وظن المنافقون أن المسلمين سيُستأصلون ﴿ **هنالك ابتُلِيَ المؤمنون** ﴾ أي امتحنوا بالصبر على الإيمان ﴿ **وَزُلْزِلُوا زلزالاً شديداً** ﴾ أي وحُرّكوا بالخوف تحريكاً بليغاً . ثم بيّن الله أقوال الكافرين المعبِّرة عن ظنونهم ﴿ **وإذ يقول المنافقون** ﴾ الخالصو النفاق ﴿ **والذين في قلوبهم مرض** ﴾ أي نفاق ، ولكن لم يستوعب قلوبهم كلها ﴿ **ما وعدنا الله ورسولهُ إلا غروراً** ﴾ أي وعداً يَغرّ . قال معتب بن قشير أخو بني عمرو ابن عوف : كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر ، وأحدنا لا يقدر على أن يذهب إلى الغائط ﴿ **وإذ قالت طائفة منهم** ﴾ أي من المنافقين ﴿ **يا أهل يثرب** ﴾ أي يا أهل المدينة ﴿ **لا مُقام لكم** ﴾ أي لا قرار لكم ههنا ، ولا مكان تقومون فيه أو تقيمون ﴿ **فارجعوا** ﴾ أي عن الإيمان إلى الكفر ، أو من عسكر رسول الله ﷺ إلى المدينة ﴿ **ويستأذن فريق منهم النّبي** ﴾ هم بنو حارثة قالوا : بيوتنا نخاف عليها السُّرّاق ، وذكر ابن إسحق : أن القائل لذلك هو أوس بن قيظى ﴿ **يقولون إن بيوتنا عورة** ﴾ أي ذات عورة ، والعورة : الخلل أي ليس دونها ما يحجبها عن العدو فهم يخشون عليها منهم ﴿ **وما هي بعورة** ﴾ كما يزعمون ﴿ **إن يريدون إلا فراراً** ﴾ أي هرباً من الزحف اعتذروا بأنّ بيوتهم عرضة للعدو والسارق ، لأنها غير محصنة ، فاستأذنوه ليحصنونها ثم يرجعوا إليه ، فأكذبهم الله بأنهم لا يخافون ذلك ؛ وإنما يريدون الفرار من القتال ﴿ **ولو دُخلت عليهم** ﴾ أي ولو دخل الأعداء عليهم المدينة ﴿ **من أقطارها** ﴾ أي جوانبها . أي ولو دخلت هذه العساكر المتحزِّبة التي يفرون خوفاً منها مدينتهم أو بيوتهم من نواحيها كلها ، وانثالت على أهاليهم وأولادهم ناهبين سابين ﴿ **ثم سُئلوا** ﴾ عند ذلك ﴿ **الفتنة** ﴾ أي الردّة والرجعة إلى الكفر ومقاتلة المسلمين ﴿ **لآتوها** ﴾ أي لأعطوها ﴿ **وما تلبثوا بها** ﴾ بإجابتها ﴿ **إلا يسيراً** ﴾ ريثما يكون السؤال والجواب من غير توقف ، والمعنى : أنّهم لا يتعلّلون بإعوار بيوتهم إلا ليفروا عن نصرة رسول الله ﷺ والمؤمنين ، وعن مصافّة الأحزاب الذين ملأوهم هولاً ورعباً ؛ بدليل أن هؤلاء الأحزاب كما هم لو كبسوا عليهم أرضهم وديارهم

وعُرض عليهم الكفر، وقيل لهم كونوا على المسلمين، لسارعوا إليه، وما تعلّلوا بشيء، وما ذلك إلا لمقتهم الإسلام، وحبِّهم الكفر ﴿ **ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل** ﴾ أي من قبل الخوف ﴿ **لا يولون الأدبار** ﴾ منهزمين ﴿ **وكان عهد الله مسؤولاً** ﴾ أي مطلوباً مقتضى حتى يوفى به. قال ابن كثير: (ثم أخبرهم أن فرارهم لا يؤخر آجالهم، ولا يطوّل أعمارهم، بل ربما كان ذلك سبباً في تعجيل أخذهم غرّة) ﴿ **قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل وإذاً لا تُمتَّعون إلا قليلاً** ﴾ قال النسفي: (أي إن كان حضر أجلكم لم ينفعكم الفرار، وإن لم يحضر وفررتم لم تُمتّعوا في الدنيا إلا قليلاً، وهو مدّة أعماركم، وذلك قليل) ﴿ **قل من ذا الذي يعصمكم** ﴾ أي يمنعكم ﴿ **من الله** ﴾ أي مما أراد الله إنزاله بكم ﴿ **إن أراد بكم سوءاً** ﴾ في أنفسكم من قتل أو غيره ﴿ **أو أراد بكم رحمة** ﴾ أي إطالة عمر في عافية وسلامة، أي من يمنع الله من أن يرحمكم إن أراد بكم رحمة، أو من أن يعذبكم إن أراد تعذيبكم ﴿ **ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً** ﴾ أي ناصراً، أي ليس لهم ولا لغيرهم من دون الله مجير ولا مغيث ﴿ **قد يعلم الله المعوِّقين منكم** ﴾ أي من يعوِّق عن نصرة رسول الله ﷺ أي يمنع وهم المنافقون ﴿ **والقائلين لإخوانهم** ﴾ في الظاهر من المسلمين، أي أصحابهم وعشائرهم وخلطائهم ﴿ **هلمّ إلينا** ﴾ أي إلى ما نحن فيه من الإقامة في الظلال والثمار، وهم مع ذلك ﴿ **لا يأتون البأس** ﴾ أي الحرب ﴿ **إلا قليلاً** ﴾ أي إلا إتياناً قليلاً. أي يحضرون ساعة رياءً، ويقفون قليلاً مقدار ما يُرى شهودهم، ثم ينصرفون ﴿ **أَشِحَّة عليكم** ﴾ أي بخلاء بالمودة والشفقة والنفقة لمصلحة القتال ﴿ **فإذا جاء الخوف** ﴾ من قِبَل العدو ﴿ **رأيتهم ينظرون إليك** ﴾ في تلك الحالة ﴿ **تدور أعينهم** ﴾ يميناً وشمالاً كما ينظر المغشي عليه من معالجة سكرات الموت؛ حذراً وخوفاً ﴿ **كالذي يُغشى عليه من الموت** ﴾ أي من شدة خوفه وجزعه. وهكذا خوف هؤلاء الجبناء من القتال ﴿ **فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد** ﴾ أي فإذا زال ذلك الخوف وأمنوا خاطبوكم مخاطبة شديدة، وآذوكم في الكلام؛ منتقدين معترضين مجرّحين مطالبين راغبين طامعين ﴿ **أشحَّة على الخير** ﴾ أي على المال والغنيمة، قائلين في خطابهم: وفّروا قسمتنا فإنّا قد شاهدناكم وقاتلنا معكم، وبمكاننا غلبتم عدوكم، فهم في الحرب أجبن شيء، وفي السلم أطمع شيء. قال قتادة: أما عند الغنيمة فأشح قوم وأسوأه مقاسمة أعطونا أعطونا قد شهدنا معكم، وأما عند البأس فأجبن قوم وأخذله للحق ﴿ **أولئك لم يؤمنوا** ﴾ في الحقيقة بل بالألسنة ﴿ **فأحبط الله**

أعمالهم ﴾ أي فأبطل بإضمارهم الكفر ما أظهروه من الأعمال ﴿ **وكان ذلك** ﴾ أي إحباط أعمالهم ﴿ **على الله يسيراً** ﴾ أي هيّناً سهلاً عنده ﴿ **يحسبون الأحزاب لم يذهبوا** ﴾ أي لجبنهم يظنّون أنّ الأحزاب لم ينهزموا ولم ينصرفوا ، مع أنهم قد انصرفوا ، فهم يحسبون أنهم منهم قريب ، وأن لهم عودة . قال ابن كثير : (وهذا أيضاً من صفاتهم القبيحة في الجبن والخور والخوف) ﴿ **وإن يأت الأحزاب** ﴾ كَرَّة ثانية ﴿ **يودوا لو أنهم بادون في الأعراب** ﴾ البادون : جمع البادي وهم المقيمون في البادية ، أي يتمنى المنافقون لجبنهم أنهم خارجون من المدينة إلى البادية ، حاصلون بين الأعراب ؛ ليأمنوا على أنفسهم ، ويعتزلوا مما فيه الخوف من القتال ﴿ **يسألون عن أنبائكم** ﴾ أي يسألون كل قادم منهم من جانب المدينة عن أخباركم ، وعما جرى عليكم ﴿ **ولو كانوا فيكم** ﴾ وكان قتال ﴿ **ما قاتلوا إلا قليلاً** ﴾ رياءً وسمعة . أي ولو كانوا بين أظهركم لما قاتلوا معكم إلا قليلاً لكثرة جبنهم وذلتهم ، وضعف يقينهم ﴿ **لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة** ﴾ أي قدوة حسنة في أقواله وأفعاله وأحواله ﷺ ﴿ **لمن كان يرجو الله واليوم الآخر** ﴾ أي لمن كان يخاف الله ، ويخاف اليوم الآخر ، أي يأمل ثواب الله ، ونعيم اليوم الآخر ﴿ **وذكر الله كثيراً** ﴾ في كل حال في الخوف والرّجاء ، والشدّة والرّخاء ، في الليل والنهار . ثمّ أخبر تعالى عن عباده المؤمنين المصدّقين بموعود الله لهم بأن لهم العاقبة في الدنيا والآخرة :

﴿ **ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله** ﴾ أي هذا ما وعدنا الله ورسوله من الابتلاء والاختبار والامتحان ، الذي يعقبه النصر القريب . قال ابن عباس رضي الله عنه وقتادة يعنون قوله تعالى في سورة البقرة ﴿ **أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مَثَل الذين خلوا من قبلكم مَسَّتهم البأساء والضراء وزُلْزِلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب** ﴾ . ﴿ **وصدق الله ورسوله** ﴾ وهذا تتمة قول المؤمنين لما جاء الأحزاب واضطرب المسلمون ورعبوا ، عَلِم الصادقون أن هذا كله موعود الله ، وعلموا أن الغلبة والنصرة قد وجبت لهم ، إذ وجد هذا الزلزال الشديد ﴿ **وما زادهم** ﴾ما رأوا من اجتماع الأحزاب عليهم ومجيئهم ﴿ **إلا إيماناً** ﴾ بالله وبمواعيده ﴿ **وتسليماً** ﴾ لقضائه وقدره ، ولمّا ذكر الله عز وجل عن المنافقين أنهم نقضوا العهد الذي كانوا عاهدوا الله عليه من أنهم لا يولون الأدبار ، وصف المؤمنين بأنهم استمروا على العهد والميثاق فقال : ﴿ **من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه** ﴾ أي فيما عاهدوه عليه ﴿ **فمنهم**

من قضى نحبه ﴾ أي أجله ، أي مات شهيداً كحمزة ومصعب وأنس بن النضر رضي الله عنهم ﴿ **ومنهم من ينتظر** ﴾ الموت أي على الشهادة كعثمان وطلحة ﴿ **وما بدّلوا** ﴾ العهد ﴿ **تبديلاً** ﴾ولا غيروه لا المستشهد ، ولا من ينتظر الشهادة ، وفيه تعريض لمن بدّلوا من أهل النفاق ومرضى القلوب كما مَرّ في قوله تعالى : ﴿ **ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار** ﴾ . ﴿ **ليجزي الله الصادقين بصدقهم** ﴾ أي بوفائهم بالعهد ﴿ **ويعذّب المنافقين إن شاء** ﴾ إذا لم يتوبوا ﴿ **أو يتوب عليهم** ﴾ إن تابوا ﴿ **إن الله كان غفوراً** ﴾ بقبول التوبة ﴿ **رحيماً** ﴾ يعفو الحوبة . قال ابن كثير : (أي إنما يختبر عباده بالخوف والزلزال ؛ ليميز الخبيث من الطيب ، فيظهر أمر هذا بالفعل ، وأمر هذا بالفعل ، مع أنه تعالى يعلم الشيء قبل كونه ، ولكن لا يعذّب الخلق بعلمه فيهم ، حتى يعملوا بما يعلمه منهم) ﴿ **ورَدَّ الله الذين كفروا** ﴾ أي الأحزاب ﴿ **بغيظهم** ﴾ أي مَغيظين ﴿ **لم ينالوا خيراً** ﴾ أي لم ينالوا ظفراً ، أي لم يظفروا بالمسلمين ، وسمّاه خيراً بزعمهم ﴿ **وكفى الله المؤمنين القتال** ﴾ أي بالريح والملائكة ﴿ **وكان الله قوياً عزيزاً** ﴾ أي قادراً غالباً ﴿ **وأنزل الذين ظاهروهم** ﴾ أي عاونوا الأحزاب ﴿ **من أهل الكتاب** ﴾ أي من بني قريظة ﴿ **من صياصيهم** ﴾ أي من حصونهم جمع : صيصية ﴿ **وقذف في قلوبهم الرعب** ﴾ أي الخوف ﴿ **فريقاً تقتلون** ﴾ وهم الرجال ﴿ **وتأسرون فريقاً** ﴾ وهم النساء والذراري ﴿ **وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم** ﴾ المراد بالأموال المواشي والنّقود والأمتعة﴿ **وأرضاً لم تطؤوها** ﴾ دخل في ذلك كل أرضٍ تفتح للإسلام إلى يوم القيامة ، فهي بشارة ﴿ **وكان الله على كل شيء قديراً** ﴾ أي قادراً . وبهذا انتهى المقطع الثاني .

كلمة في السياق :

رأينا في هذا المقطع مظهراً من مظاهر الوفاء بالعهد ، ومظهراً من مظاهر نقضه ، ورأينا في المقطع مظهراً من مظاهر النفاق ، ومظهراً من مظاهر الإيمان ، ورأينا في المقطع الطريق العملي للتحقق بكمال الإيمان ، بذكر طريق القدوة برسول الله ﷺ . ورأينا في المقطع صورة عملية للامتحان الشديد الذي يعقبه نصر . ورأينا في المقطع صورة عملية للتوكل الصحيح ، ولذلك كله محله في السياق العام والخاص للسورة ؛ ففي سياق السورة الخاص نجد تعليلاً للأوامر الأولى في السورة إذ أمرت بالتقوى ، وترك طاعة

الكافرين والمنافقين ، وأمرت باتباع كتاب الله ، وأمرت بالتوكل . وفي سياق السورة العام نجد أن المقطع قد أعطانا النموذج العملي لموضوع الابتلاء الذي مر معنا في سورة العنكبوت ، ونموذجاً على مواقف المنافقين التي مَرَّت معنا في تلك السورة ، وأعطانا نموذجاً عملياً لنصر الله المؤمنين الذي مَرّ معنا في سورة الروم ، وفي السياق القرآني العام نجد تفصيلاً لمحور السورة من سورة البقرة ، إذ دلّنا المقطع على طريق التحرر من أخلاق النفاق ، وعرّفنا على علامات الوفاء بالعهد ، وهو محور سورة المائدة من سورة البقرة .

فوائد :

١ - نلاحظ أن القرآن الكريم سجّل لنا معركة بدر ، ومعركة أحد ، وإجلاء بني النضير ، ومعركة الأحزاب ، وصلح الحديبية ، وغزوة حنين ، وغزوة تبوك ، وفي كل معركة عبرة رئيسية لهذه الأمة ؛ إذ حياة الرسول ﷺ هي النموذج الكامل لكل صور الحياة التي تلابس سير الأمة الإسلامية ؛ فغزوة بدر عبرتها الرئيسية أن لله نصراً خاصاً ينزله على عباده المؤمنين ، إذا تحققوا بشروطه ، ولو كانت الموازين العادية للنصر ليست متوفرة لهم . وعبرة أحد الرئيسية أن أي إخلال بطاعة القيادة يترتب عليه خلل . وعبرة الأحزاب الرئيسية أنه متى تألّبَ أعداء الله على المسلمين فإنه سيبعث لهم فرجاً من حيث لا يحتسبون ، إذا ثبتوا وصدقوا . وعبرة حنين الرئيسية أن أي خلل نفسي تخرج به النفس الإسلامية عن ربانيتها ، واعتمادها على الله وحده يؤدّي إلى الهزيمة . وعبرة غزوة تبوك أن المسلم عليه في كل حال أن يشارك في الجهاد مهما كان الوضع قاسياً . وعبرة صلح الحديبية أن يرى المسلم في قرار قيادته الإسلامية الحكمة ، ويسلّم له ولو كان غير مرتاح له . وفي المقطع الذي مَرّ معنا والذي سجّل قصة الأحزاب درس من أعظم دروس الحرب والسلام لهذه الأمة ، فهو درس يرتقي به المسلم إلى الذروة العليا من التقوى إذا تحقق به ، ويتخلّص به من رواسب الكفر والنفاق ، إذا استوعبه والتزمه .

٢ - من دروس المقطع أنه أعطانا ميزاناً لصدق الصادقين ، ودلّنا على الطريق إلى التحقق بالكمال الأعلى .

أما الميزان فهو قوله تعالى : ﴿ **من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً** ﴾ فهذه علامة الصادق إما شهيد وإما أنّه ينتظر الشهادة .

وأما الطريق فهو قوله تعالى : ﴿ **لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً** ﴾ فالطريق للتأسي الكامل برسول الله ﷺ في أقواله ، وأفعاله ، وأحواله ، هو الرجاء والذكر الكثير . وفي كتابنا (جند الله ثقافة وأخلاقاً) بيان ذلك .

٣ - ومن دروس المقطع أنه أعطانا صورة من صور النفاق في ساعات المحنة : شك في موعود الله ، تيئيس للمسلمين ، استعداد للكفر ، نقض للعهد ، تخذيل عن القتال ، بخل عن الإنفاق ، جبن في مواطن القتال ، نقد جارح ، وألسنة حداد على المؤمنين ، طمع في الغنائم ، رغبة بالنفس عن المشاركة في الحرب الفعلية ، قتال قليل . وفي المقابل أعطانا صورة عن الإيمان في ساعات المحنة : تأس برسول الله ﷺ ، إيمان وتسليم ، ووفاء بالعهود .

٤ - من مواطن الخطأ في الفهم ما فهمه بعضهم من قوله تعالى : ﴿ **قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل وإذاً لا تمتَّعون إلا قليلاً** ﴾ إذ فهم بعضهم أن من فَرَّ من الموت أو القتل يزيد عمره ، وهو فهم مخالف للنصوص والإجماع ، ولم يقل به إلا المعتزلة ؛ إذ النصوص كثيرة في أن الإنسان لا يموت ولا يقتل إلا بأجله . قال تعالى : ﴿ **أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مُشَيَّدة** ﴾ [النساء : ٧٨] وقال : ﴿ **فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون** ﴾ [الأعراف : ٣٤] وقال : ﴿ **قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم** ﴾ [آل عمران : ١٥٤] وقال : ﴿ **لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غزى لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قُتلوا ...** ﴾ [آل عمران : ١٥٦] .

٥ - من دروس المقطع : أن الخيانة الداخلية في ساعة المعركة جزاؤها الإعدام كما فعل رسول الله ﷺ في بني قريظة كما سنرى .

٦ - يذكر ابن كثير صوراً من السيرة عن غزوة الخندق يحتاجها شرح الآيات وهي نُقول لا تغني عن قراءة السيرة في هذا الموضوع .

قال ابن كثير : (وكان سبب قدوم الأحزاب أن نفراً من أشراف يهود بني النضير الذين كانوا قد أجلاهم رسول الله ﷺ من المدينة إلى خيبر ، منهم سلام بن أبي

الحقيق ، وسلام بن مشكم ، وكنانة بن الربيع خرجوا إلى مكة فاجتمعوا بأشراف قريش ، وألَّبوا على حرب النبي ﷺ ، ووعدوهم من أنفسهم النصر والإعانة ، فأجابوهم إلى ذلك ، ثم خرجوا إلى غطفان فدعوهم فاستجابوا لهم أيضاً ، وخرجت قريش في أحابيشها ومن تابعها ، وقائدهم أبو سفيان صخر بن حرب ، وعلى غطفان عيينة بن حصن بن بدر ، والجميع قريب من عشرة آلاف ، فلما سمع رسول الله ﷺ بمسيرهم أمر المسلمين بحفر الخندق حول المدينة ، مما يلي الشرق ، وذلك بإشارة سلمان الفارسي رضي الله عنه ، فعمل المسلمون فيه واجتهدوا ، ونقل معهم رسول الله ﷺ التراب وحفر ، وكان في حفره ذلك آيات ودلائل واضحات ، وجاء المشركون فنزلوا شرقي المدينة ، قريباً من أُحد ، ونزلت طائفة منهم في أعالي أرض المدينة ، كما قال تعالى : ﴿ **إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم** ﴾ وخرج رسول الله ﷺ ومن معه من المسلمين ، وهم نحو من ثلاثة آلاف – وقيل سبعمائة – فأسندوا ظهورهم إلى سلع ، ووجوههم إلى نحو العدو ، والخندق حفير ليس فيه ماء بينهم وبينهم يحجب الخيالة والرجالة أن تصل إليهم ، وجعل النساء والذراري في آطام المدينة ، وكانت بنو قريظة – وهم طائفة من اليهود – لهم حصن شرقي المدينة ، ولهم عهد من النبي وذمة ، وهم قريب من ثمانمائة مقاتل ، فذهب إليهم حيي بن أخطب النضري ، فلم يزل بهم حتى نقضوا العهد ، ومالؤوا الأحزاب على رسول الله ﷺ ، فعظم الخطب ، واشتد الأمر ، وضاق الحال ، كما قال الله تبارك وتعالى : ﴿ **هنالك ابتلي المؤمنون وزُلْزِلُوا زلزالاً شديداً** ﴾ ومكثوا محاصرين للنبي ﷺ وأصحابه قريباً من شهر ، إلا أنهم لا يصلون إليهم ، ولم يقع بينهم قتال ، إلا أن عمرو بن عبد وُدّ العامري – وكان من الفرسان الشجعان المشهورين في الجاهلية – ركب ومعه فوارس فاقتحموا الخندق ، وخلصوا إلى ناحية المسلمين ، فندب رسول الله ﷺ خيل المسلمين إليه ، فيقال إنه لم يبرز إليه أحد ، فأمر علياً رضي الله عنه فخرج إليه ، فتجاولا ساعة ، فقتله علي رضي الله عنه ، فكان علامة على النصر . ثم أرسل الله عز وجل على الأحزاب ريحاً شديدة الهبوب ، قوية حتى لم يبق لهم خيمة ولا شيء ، ولا توقد لهم نار ، ولا يقر لهم قرار ، حتى ارتحلوا خائبين خاسرين ، كما قال الله عز وجل : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً** ﴾ قال مجاهد وهي الصبا ، ويؤيده الحديث الآخر « نُصرت بالصبا ، وأهلكت عاد بالدبور » وقال ابن جرير : عن عكرمة قال : قالت الجنوب للشمال ليلة الأحزاب انطلقي ننصر رسول

الله ﷺ ، فقالت الشمال : إن الحرة لا تسري بالليل ، قال فكانت الريح التي أُرسلت عليهم الصبا . ورواه ابن أبي حاتم ... عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما فذكره ، وروى ابن جرير أيضاً عن نافع عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أرسلني خالي عثمان ابن مظعون رضي الله عنه ليلة الخندق في برد شديد ، وريح إلى المدينة فقال ائتنا بطعام ولحاف ، قال : فاستأذنت رسول الله ﷺ فأذن لي ، وقال : « من أتيت من أصحابي فمرهم يرجعوا » قال : فذهبت والريح تسفي كل شيء ، فجعلت لا ألقى أحداً إلا أمرته بالرجوع إلى النبي ﷺ ، قال : فما يلوي أحد منهم عنقه ، قال : وكان معي ترس لي فكانت الريح تضربه عليّ ، وكان فيه حديد ، قال : فضربته الريح حتى وقع بعض ذلك الحديد على كفّي فأنفذها إلى الأرض .

وقوله : ﴿ وجنوداً لم تروها ﴾ هم الملائكة زلزلتهم وألقت في قلوبهم الرعب والخوف ، فكان رئيس كل قبيلة يقول : يابني فلان إليّ فيجتمعون إليه ، فيقول النجاء النجاء ، لما ألقى الله عز وجل في قلوبهم من الرعب ، وروى محمد بن إسحاق عن محمد ابن كعب القرظي قال : قال فتى من أهل الكوفة لحذيفة بن اليمان رضي الله عنه : يا أبا عبد الله رأيتم رسول الله ﷺ وصحبتموه ؟ قال : نعم يا ابن أخي ، قال وكيف كنتم تصنعون ؟ قال والله لقد كنا نجهد ، قال الفتى : والله لو أدركناه ما تركناه يمشي على الأرض ولحملناه على أعناقنا . قال : قال حذيفة رضي الله عنه : يا ابن أخي والله رأيتنا مع رسول الله ﷺ بالخندق ، وصلى رسول الله ﷺ هوياً من الليل ، ثم التفت فقال : « مَنْ رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم ؟ - يشترط له النبي ﷺ أن يرجع - أدخله الله الجنة » قال : فما قام رجل ، ثم صلى رسول الله ﷺ هوياً من الليل ثم التفت إلينا فقال مثله ، فما قام منا رجل ، ثم صلى رسول الله ﷺ هوياً من الليل ثم التفت إلينا فقال : « مَنْ رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم ثم يرجع ؟ - يشترط له رسول الله ﷺ الرجعة - أسأل الله تعالى أن يكون رفيقي في الجنة » فما قام رجل من القوم من شدة الخوف ، وشدة الجوع ، وشدة البرد ، فلما لم يقم أحد دعاني رسول الله ﷺ فلم يكن لي بد من القيام حين دعاني فقال ﷺ : « يا حذيفة اذهب فادخل في القوم ، فانظر ما يفعلون ، ولا تحدثن شيئاً حتى تأتينا » قال : فذهبت فدخلت في القوم والريح وجنود الله عز وجل تفعل بهم ما تفعل ، لا تقر لهم قراراً ولا ناراً ، ولا بناء ، فقام أبو سفيان فقال : يا معشر قريش لينظر كل امرىء مَن جليسه . قال حذيفة رضي الله

عنه : فأخذت بيد الرجل الذي إلى جنبي فقلت : من أنت ؟ فقال : أنا فلان بن فلان ، ثم قال أبو سفيان : يا معشر قريش إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام . لقد هلك الكراع والخف ، وأخلفتنا بنو قريظة ، وبلغنا عنهم الذي نكره ، ولقينا من هذه الريح ما ترون ، والله ما تطمئن لنا قُدُر ، ولا تقوم لنا نار ، ولا يستمسك لنا بناء ؛ فارتحلوا فإني مرتحل ، ثم قام إلى جَمَله وهو معقول فجلس عليه ، ثم ضربه فوثب به على ثلاث ، فما أطلق عقاله إلا وهو قائم ، ولولا عهد رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم إليّ أن لا تحدث شيئاً حتى تأتيني لو شئت لقتلته بسهم ؛ قال حذيفة رضي الله عنه : فرجعت إلى رسول الله ﷺ وهو قائم يصلي في مرط لبعض نسائه مرحل فلما رآني أدخلني بين رجليه وطرح عليَّ طرف المرط ، ثم ركع وسجد وإني لفيه ، فلما سلّم أخبرته الخبر ، وسمعت غطفان بما فعلت قريش فانشمروا راجعين إلى بلادهم . وقد رواه مسلم في صحيحه من حديث الأعمش عن إبراهيم التيمي عن أبيه قال : كنا عند حذيفة ابن اليمان رضي الله عنه فقال له رجل : لو أدركت رسول الله ﷺ قاتلت معه وأبليت . فقال له حذيفة : أنت كنت تفعل ذلك ؟ لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ ليلة الأحزاب في ليلة ذات ريح شديدة وقرّ ، فقال رسول الله ﷺ : « أرجل يأتي بخبر القوم يكون معي يوم القيامة » فلم يجبه منا أحد ثم الثانية ، ثم الثالثة مثله ، ثم قال ﷺ : « يا حذيفة قم فائتنا بخبر من القوم » فلم أجد بدّاً إذ دعاني باسمي أن أقوم ، فقال : « ائتني بخبر القوم ولا تذعرهم عليّ » قال : فمضيت كأنما أمشي في حمام حتى أتيتهم ، فإذا أبو سفيان يصلي ظهره بالنار ، فوضعت سهماً في كبد قوسي وأردت أن أرميه ثم ذكرت قول رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم : « لا تذعرهم عليّ » ولو رميته لأصبته ، قال : فرجعت كأنما أمشي في حمام فأتيت رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم ثم أصابني البرد حين فرغت ، وقررت فأخبرت رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم وألبسني من فضل هناة كانت عليه يصلي فيها ، فلم أزل نائماً حتى الصبح ، فلما أن أصبحت قال رسول الله ﷺ : « قم يا نومان » . ورواه يونس ابن بكير عن هشام بن سعد عن زيد بن أسلم قال : إن رجلاً قال لحذيفة رضي الله عنه : نشكو إلى الله صحبتكم لرسول الله ﷺ ؛ إنكم أدركتموه ولم ندركه ، ورأيتموه ولم نره ، فقال حذيفة رضي الله عنه : ونحن نشكو إلى الله إيمانكم به ولم تروه ، والله لا تدري يا ابن أخي لو أدركته كيف كنت تكون ! لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ ليلة الخندق في ليلة باردة مطيرة ، ثم ذكر نحو ما تقدم مطولاً . وروى بلال بن

يحيى العبسي عن حذيفة رضي الله عنه نحوه ذلك أيضاً وقد أخرجه الحاكم والبيهقي في الدلائل عن عبد العزيز بن أخي حذيفة قال : ذكر حذيفة رضي الله عنه مشاهدهم مع رسول الله ﷺ فقال جلساؤه : أما والله لو شهدنا ذلك لكنا فعلنا وفعلنا . فقال حذيفة : لا تمنوا ذلك لقد رأيتنا ليلة الأحزاب ونحن صافون قعوداً وأبو سفيان ومن معه من الأحزاب فوقنا ، وقريظة اليهود أسفل منا نخافهم على ذرارينا ، وما أتت علينا قط أشد ظلمة ولا أشد ريحاً في صوت ريحها أمثال الصواعق ، وهي ظلمة ما يرى أحدنا أصبعه ، فجعل المنافقون يستأذنون النبي ﷺ ويقولون : إن بيوتنا عورة وما هي بعورة ، فما يستأذنه أحد منهم إلا أذن له ؛ ويأذن لهم فيتسللون ونحن ثلثمائة أو نحو ذلك إذ استقبلنا رسول الله ﷺ رجلاً رجلاً ، حتى أتى عليّ وما عليّ جُنّة من العدو ولا من البرد إلا مرط لامرأتي ما يجاوز ركبتي ، قال فأتاني ﷺ وأنا جاث على ركبتي فقال : « من هذا ؟ » فقلت حذيفة قال : « حذيفة » فتقاصرت الأرض ، فقلت : بلى يا رسول الله كراهية أن أقوم فقمت فقال : « إنه كائن في القوم خبر فائتني بخبر القوم » قال : وأنا من أشد الناس فزعاً ، وأشدهم قرّاً ، قال : فخرجت فقال رسول الله ﷺ : « اللهم احفظه من بين يديه ومن خلفه ، وعن يمينه وعن شماله ، ومن فوقه ومن تحته » قال : فوالله ما خلق الله تعالى فزعاً ولا قرّاً في جوفي إلا خرج من جوفي ؛ فما أجد فيه شيئاً ، قال : فلما وليت قال ﷺ : « يا حذيفة لا تحدثن في القوم شيئاً حتى تأتيني » قال : فخرجت حتى إذا دنوت من عسكر القوم نظرت في ضوء نار لهم توقد ، فإذا رجل أدهم ضخم يقول بيده على النار ويمسح خاصرته ، ويقول الرحيل الرحيل ، ولم أكن أعرف أبا سفيان قبل ذلك ، فانتزعت سهماً من كنانتي أبيض الريش فأضعه في كبد قوسي لأرميه به في ضوء النار ، فذكرت قول رسول الله ﷺ لا تحدثن فيهم شيئاً حتى تأتيني ، قال فأمسكت ورددت سهمي إلى كنانتي ، ثم إني شجعت نفسي حتى دخلت العسكر فإذا أدنى الناس مني بنو عامر يقولون : يا آل عامر الرحيل الرحيل ، لا مقام لكم . وإذا الريح في عسكرهم ما تجاوز عسكرهم شبراً ، فوالله إني لأسمع صوت الحجارة في رحالهم وفرشهم ، الريح تضربهم بها ، ثم خرجت نحو النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم فلما انتصفت في الطريق - أو نحواً من ذلك - إذا أنا بنحو من عشرين فارساً أو نحو ذلك معتمين فقال : أخبر صاحبك أن الله تعالى كفاه القوم ، فرجعت إلى رسول الله ﷺ وهو مشتمل في شملة يصلي ، فوالله ما عدا أن رجعت راجعني القرّ وجعلت أقرقف فأومأ إليّ رسول الله ﷺ بيده وهو يصلي ،

فدنوت منه فأسبل عليَّ شملة وكان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلى ، فأخبرته خبر القوم ، وأخبرته أني تركتهم يرتحلون وأنزل الله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً** ﴾ . وأخرج أبو داود في سننه كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلى ، من حديث عكرمة بن عمار به ، وقوله تعالى : ﴿ **إذ جاؤوكم من فوقكم** ﴾ أي الأحزاب ﴿ **ومن أسفل منكم** ﴾ تقدم عن حذيفة رضي الله عنه أنهم بنو قريظة ﴿ **وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر** ﴾ أي من شدة الخوف والفزع ﴿ **وتظنون بالله الظنونا** ﴾ قال ابن جرير : ظن بعض من كان مع رسول الله ﷺ أن الدائرة على المؤمنين ، وأن الله سيفعل ذلك ، وقال محمد بن إسحاق في قوله تعالى : ﴿ **وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا** ﴾ وظن المؤمنون كل ظن ونجم النفاق حتى قال معتب بن قشير أخو بني عمرو بن عوف : كان محمد يعدنا أن نأكل كسرى وقيصر ، وأحدنا لا يقدر على أن يذهب إلى الغائط ، وقال الحسن في قوله عز وجل : ﴿ **وتظنون بالله الظنونا** ﴾ ظنون مختلفة ، ظن المنافقون أن محمداً ﷺ وأصحابه يُستأصلون ، وأيقن المؤمنون أن ما وعد الله ورسوله حق ، وأنه سيظهره على الدين كله ولو كره المشركون . وروى ابن أبي حاتم عن أبي سعيد رضي الله عنه قال : قلنا يوم الخندق يا رسول الله هل من شيء نقول فقد بلغت القلوب الحناجر ؟ قال ﷺ : « نعم ، قولوا اللهم استر عوراتنا ، وآمن روعاتنا » ، قال : فضرب وجوه أعدائه بالريح فهزمهم الريح ، وكذا رواه الإمام أحمد بن حنبل عن أبي عامر العقدي .

٧ – في سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر** ﴾ قال ابن كثير : قال أنس : عمي أنس ابن النضر رضي الله عنه سميت به لم يشهد مع رسول الله ﷺ يوم بدر ، فشق عليه وقال أول مشهد شهده رسول الله ﷺ غبت عنه ، لئن أراني الله تعالى مشهداً فيما بعد مع رسول الله ﷺ ليرين الله عز وجل ما أصنع . قال : فهاب أن يقول غيرها فشهد مع رسول الله ﷺ يوم أُحد ، فاستقبل سعد بن معاذ رضي الله عنه فقال له أنس رضي الله عنه : يا أبا عمرو : أين ؟ واهاً لريح الجنة إني أجده دون أحد ، قال : فقاتلهم حتى قتل رضي الله عنه ، قال : فوُجد في جسده بضع وثمانون بين ضربة وطعنة ورمية ، فقالت أخته عمتي الربيع بنت النضر فما عرفت أخي إلا ببنانه ، قال : فنزلت هذه الآية ﴿ **من**

المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدّلوا تبديلاً ﴾ قال فكانوا يرون أنها نزلت فيه ، وفي أصحابه رضي الله عنهم . ورواه مسلم والترمذي والنسائي وابن جرير من حديث حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس رضي الله عنه به نحوه ، وروى ابن أبي حاتم عن أنس رضي الله عنه قال : إن عَمّه - يعني أنس بن النضر - رضي الله عنه غاب عن قتال بدر ، فقال : غبت عن أول قتال قاتله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المشركين لئن أشهدني الله عز وجل قتالاً للمشركين ليرين الله تعالى ما أصنع ، قال : فلما كان يوم أُحد انكشف المسلمون فقال : اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء - يعني أصحابه - وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء - يعني المشركين - ثم تقدم فلقيه سعد يعني ابن معاذ رضي الله عنه دون أُحد فقال : أنا معك ، قال سعد رضي الله عنه : فلم أستطع أن أصنع ما صنع ، فلما قُتل : فوجد فيه بضع وثمانون ضربة سيف ، وطعنة رمح ، ورمية سهم ، وكانوا يقولون فيه وفي أصحابه نزلت ﴿ **فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر** ﴾ . وأخرجه الترمذي في التفسير والنسائي ، وقال الترمذي حسن . وقد رواه البخاري في المغازي وابن جرير عن أنس رضي الله عنه به ولم يذكر نزول الآية ، وروى ابن أبي حاتم عن طلحة رضي الله عنه قال : لما أن رجع رسول الله ﷺ من أُحد صعد المنبر فحمد الله تعالى وأثنى عليه ، وعزى المسلمين بما أصابهم ، وأخبرهم بما لهم فيه من الأجر والذخر ، ثم قرأ هذه الآية ﴿ **من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه** ﴾ الآية كلها ، فقام إليه رجل من المسلمين فقال يا رسول الله مَنْ هؤلاء ؟ فأقبلت وعليّ ثوبان أخضران حضرميان فقال : « أيها السائل هذا منهم ») .

٨ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وكفى الله المؤمنين القتال** ﴾ قال ابن كثير : (ولهذا كان رسول الله يقول : « لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده وأعزَّ جنده ، وهزم الأحزاب وحده فلا شيء بعده » أخرجاه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه . وفي الصحيحين من حديث إسماعيل بن أبي خالد عن عبد الله ابن أبي أوفى رضي الله عنه قال : دعا رسول الله ﷺ على الأحزاب فقال : « اللهم منزل الكتاب ، سريع الحساب ، اهزم الأحزاب ، اللهم اهزمهم وزلزلهم » . وفي قوله عز وجل : ﴿ **وكفى الله المؤمنين القتال** ﴾ إشارة إلى وضع الحرب بينهم وبين قريش ، وهكذا وقع بعدها لم يغزهم المشركون بل غزاهم المسلمون في بلادهم . قال محمد

ابن إسحاق : لما انصرف أهل الخندق عن الخندق قال رسول الله ﷺ فيما بلغنا : « لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا ، ولكنكم تغزونهم » فلم تغز قريش بعد ذلك وكان رسول الله ﷺ هو يغزوهم بعد ذلك حتى فتح الله تعالى مكة . وهذا الحديث الذي ذكره محمد بن إسحاق حديث صحيح . كما روى الإمام أحمد ... عن سليمان بن صرد رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ يوم الأحزاب : « الآن نغزوهم ولا يغزونا » وهكذا رواه البخاري في صحيحه) .

٩ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف في قلوبهم الرّعب فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً * وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تطؤوها وكان الله على كل شيء قديراً** ﴾ .

قال ابن كثير : (قد تقدم أن بني قريظة لمّا قدمت جنود الأحزاب ، ونزلوا على المدينة نقضوا ما كان بينهم وبين رسول الله ﷺ من العهد وكان ذلك بسفارة حيي ابن أخطب النضري - لعنه الله - دخل حصنهم ولم يزل بسيدهم كعب بن أسد حتى نقض العهد ، وقال له فيما قال : ويحك قد جئتك بعز الدهر ، أتيتك بقريش وأحابيشها ، وغطفان وأتباعها ، ولا يزالون ههنا حتى يستأصلوا محمداً وأصحابه ؛ فقال له كعب : بل والله أتيتني بذل الدهر ، ويحك يا حيي إنك مشئوم فدعنا منك ، فلم يزل يفتل في الذروة والغارب حتى أجابه واشترط له حيي إن ذهب الأحزاب ولم يكن من أمرهم شيء أن يدخل معهم في الحصن فيكون له أسوتهم ، فلما نقضت قريظة ، وبلغ ذلك رسول الله ﷺ ساءه ، وشقَّ عليه وعلى المسلمين جداً ، فلما أيّده الله تعالى ونصره ، وكبت الأعداء ، وردهم خائبين بأخسر صفقة ، ورجع رسول الله ﷺ إلى المدينة مؤيَّداً منصوراً ، ووضع الناس السلاح ، فبينما رسول الله ﷺ يغتسل من وعثاء تلك المرابطة في بيت أم سلمة رضي الله عنها إذ تبدّىٰ له جبريل عليه الصلاة والسلام معتجراً بعمامة من إستبرق ، على بغلة عليها قطيفة من ديباج فقال : أوضعت السلاح يا رسول الله ؟ قال ﷺ : « نعم » قال:لكن الملائكة لم تضع أسلحتها ، وهذا الآن رجوعي من طلب القوم ، ثم قال : إن الله تبارك وتعالى يأمرك أن تنهض إلى بني قريظة ، وفي رواية فقال له : عذيرك من مقاتل أوضعتم السلاح ؟ قال : « نعم » قال : لكنا لم نضع أسلحتنا بعد ، انهض إلى هؤلاء قال ﷺ : « أين ؟ » قال : بني قريظة ، وكانت على أميال من المدينة ، وذلك بعد صلاة الظهر ، وقال ﷺ :

« لا يُصلينَّ أحد منكم العصر إلا في بني قريظة » فسار الناس فأدركتهم الصلاة في الطريق ، فصلى بعضهم في الطريق ، وقالوا لم يرد منا رسول الله ﷺ إلا تعجيل المسير ، وقال آخرون لا نصليها إلا في بني قريظة فلم يعنِّف واحداً من الفريقين ، وتبعهم رسول الله ﷺ وقد استخلف على المدينة ابن أم مكتوم رضي الله عنه ، وأعطى الراية لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه . ثم نازلهم رسول الله ﷺ وحاصرهم خمساً وعشرين ليلة ، فلما طال عليهم الحال نزلوا على حكم سعد بن معاذ سيد الأوس رضي الله عنه لأنهم كانوا حلفاء في الجاهلية ، واعتقدوا أنه يحسن إليهم في ذلك ، كما فعل عبد الله بن أبيّ بن سلول في مواليه بني قينقاع حين استطلقهم من رسول الله ﷺ ، فظن هؤلاء أن سعداً سيفعل فيهم كما فعل ابن أبيّ في أولئك ، ولم يعلموا أن سعداً رضي الله عنه كان قد أصابه سهم في أكحله أيام الخندق ، فكواه رسول الله ﷺ في أكحله وأنزله في قبة في المسجد ليعوده من قريب ، وقال سعد رضي الله عنه فيما دعا به : اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئاً فأبقني لها ، وإن كنتَ وضعت الحرب بيننا وبينهم فافجرها ، ولا تمتني حتى تقر عيني من بني قريظة ، فاستجاب الله تعالى دعاءه وقدر عليهم أن نزلوا على حكمه باختيارهم طلباً من تلقاء أنفسهم ، فعند ذلك استدعاه رسول الله ﷺ من المدينة ليحكم فيهم ، فلما أقبل وهو راكب على حمار قد وطؤوا له عليه جعل الأوس يلوذون به ويقولون : يا سعد إنهم مواليك ؛ فأحسن فيهم ويرقّقونه عليهم ويعطّفونه وهو ساكت لا يرد عليهم ، فلما أكثروا عليه قال رضي الله عنه : لقد آن لسعد أن لا تأخذه في الله لومة لائم . فعرفوا أنه غير مستبقيهم ، فلما دنا من الخيمة التي فيها رسول الله ﷺ قال رسول الله ﷺ : « قوموا إلى سيِّدكم » فقام إليه المسلمون ، فأنزلوه إعظاماً وإكراماً واحتراماً له في محل ولايته ليكون أنفذ لحكمه فيهم ، فلما جلس قال له رسول الله ﷺ : « إن هؤلاء - وأشار إليهم - قد نزلوا على حكمك فاحكم فيهم بما شئت » . فقال رضي الله عنه : وحكمي نافذ عليهم ؟ قال ﷺ : « نعم » . قال : وعلى من في هذه الخيمة ؟ قال : « نعم » . قال : وعلى من ههنا - وأشار إلى الجانب الذي فيه رسول الله ﷺ - وهو معرض بوجهه عن رسول الله ﷺ إجلالاً وإكراماً وإعظاماً - فقال له رسول الله ﷺ : « نعم » . فقال رضي الله عنه : حكمي أني أحكم أن تقتل مقاتلتهم ، وتُسبىٰ ذريتهم وأموالهم . فقال له رسول الله ﷺ : « لقد حكمت بحكم الله تعالى من فوق سبعة أرقعة » . وفي رواية : « لقد حكمت بحكم الله » . ثم أمر رسول الله ﷺ بالأخاديد فخدَّت في

الأرض ، وجيء بهم مكتفين ، فضرب أعناقهم ، وكانوا ما بين السبعمائة إلى الثمانمائة ، وسبى من لم ينبت منهم من النساء وأموالهم ، وهذا كله مقرر مفصّل بأدلته وأحاديثه وبسطه في كتاب السيرة التي أفردناها موجزاً وبسيطاً ولله الحمد والمنة . ولهذا قال تعالى : ﴿ **وأنزل الذين ظاهروهم** ﴾ أي عاونوا الأحزاب وساعدوهم على حرب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ﴿ **من أهل الكتاب** ﴾ يعني بني قريظة من اليهود من بعض أسباط بني إسرائيل كان قد نزل آباؤهم الحجاز قديماً طمعاً في اتباع النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل ﴿ **فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به** ﴾ فعليهم لعنة الله ، وقوله تعالى : ﴿ **من صياصيهم** ﴾ يعني حصونهم . كذا قال مجاهد وعكرمة وعطاء وقتادة والسدي وغيرهم من السلف ، ومنه سمي صياصي البقر وهي قرونها لأنها أعلى شيء فيها ﴿ **وقذف في قلوبهم الرعب** ﴾ وهو الخوف لأنهم كانوا مالؤوا المشركين على حرب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وليس من يعلم كمن لا يعلم ، وأخافوا المسلمين ، وراموا قتلهم ليعزوهم في الدنيا فانعكس عليهم الحال ، وانقلب إليهم القتال ، انشمر المشركون ، ففازوا بصفقة المغبون ، فكما راموا العزَّ ذلوا ، وأرادوا استئصال المسلمين فاستُؤصلوا ، وأضيف إلى ذلك شقاوة الآخرة فصارت الجملة أن هذه هي الصفقة الخاسرة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ **فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً** ﴾ فالذين قتلوا هم المقاتلة ، والأسراء هم الأصاغر والنساء . وروى الإمام أحمد عن عطية القرظي قال : عُرضت على النبي ﷺ يوم قريظة فشكُّوا فيَّ فأمر النبي ﷺ أن ينظروا هل أنبت بعد ، فنظروني فلم يجدوني أنبت ، فخلى عني وألحقني بالسبي ، وكذا رواه أهل السنن كلهم من طرق عن عبد الملك بن عمير به ، وقال الترمذي حسن صحيح ، ورواه النسائي وقوله تعالى : ﴿ **وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم** ﴾ أي جعلها لكم من قتلكم لهم ﴿ **وأرضاً لم تطؤوها** ﴾ قيل خيبر ، وقيل مكة . رواه مالك عن زيد ابن أسلم ، وقيل فارس والروم ، وقال ابن جرير : يجوز أن يكون الجميع مراداً ﴿ **وكان الله على كل شيء قديراً** ﴾ روى الإمام أحمد عن علقمة بن وقاص قال : أخبرتني عائشة رضي الله عنها قالت : خرجت يوم الخندق أقفو الناس فسمعت وئيد الأرض ورائي ، فإذا أنا بسعد بن معاذ رضي الله عنه ومعه ابن أخيه الحارث بن أوس يحمل مجنة ، قالت : فجلست إلى الأرض فمرَّ سعد رضي الله عنه وعليه درع من حديد ، قد خرجت منه أطرافه ، فأنا أتخوَّف على أطراف سعد ، قالت : وكان سعد رضي الله عنه من أعظم الناس وأطولهم فمرّ وهو يرتجز ويقول :

لبِّث قليلاً يشهد الهيجا حمل ما أحسن الموت إذا حان الأجل

قالت فقمت فاقتحمت حديقة ، فإذا فيها نفر من المسلمين ، وإذا فيها عمر ابن الخطاب رضي الله عنه ، وفيهم رجل عليه تسبغة له - تعني المغفر - ، فقال عمر رضي الله عنه : ما جاء بك ؟ لعمري والله إنك لجريئة ، وما يؤمّنك أن يكون بلاء أو يكون تحوّر ، قالت : فما زال يلومني حتى تمنيت أن الأرض انشقت لي ساعتئذ فدخلت فيها ، فرفع الرجل التسبغة عن وجهه ، فإذا هو طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه فقال : يا عمر ويحك إنك قد أكثرت منذ اليوم ، وأين التخور أو الفرار إلا إلى الله تعالى قالت : ورمى سعداً رضي الله عنه رجلٌ من قريش يقال له ابن العرقة بسهم له ، وقال له خذها وأنا ابن العرقة ، فأصاب أكحله ، فقطعه ، فدعا الله تعالى سعد رضي الله عنه فقال : اللهم لا تمتني حتى تقر عيني من بني قريظة ، قالت وكانوا حلفاءه ومواليه في الجاهلية ، قالت : فرقأ كَلْمُه ، وبعث الله تعالى الريح على المشركين ، وكفى الله المؤمنين القتال ، وكان الله قوياً عزيزاً ، فلحق أبو سفيان ومن معه بتهامة ، ولحق عيينة ابن بدر ومن معه بنجد ، ورجعت بنو قريظة فتحصَّنوا في صياصيهم ، ورجع رسول الله ﷺ إلى المدينة ، وأمر بقبة من أدم فضربت على سعد رضي الله عنه في المسجد ، قالت : فجاءه جبريل عليه السلام وإن على ثناياه لنقع الغبار ، فقال : أَوَ قد وضعت السلاح ؟ لا والله ما وضعت الملائكة بعد السلاح ، اخرج إلى بني قريظة فقاتلهم ، قالت : فلبس رسول الله ﷺ لأمته ، وأذن في الناس بالرحيل أن يخرجوا ، فمرَّ على بني تميم وهم جيران المسجد فقال : « مَنْ مَرَّ بكم » قالوا مَرَّ بنا دحية الكلبي ، وكان دحية الكلبي يشبه لحيته وسنه ووجهه جبريل عليه الصلاة والسلام ، فأتاهم رسول الله ﷺ فحاصرهم خمساً وعشرين ليلة ، فلما اشتد حصارهم ، واشتد البلاء ، قيل لهم انزلوا على حكم رسول الله ﷺ ، فاستشاروا أبا لبابة بن عبد المنذر ، فأشار إليهم أنه الذبح ، قالوا ننزل على حكم سعد بن معاذ رضي الله عنه . فقال رسول الله ﷺ : « انزلوا على حكم سعد بن معاذ » فنزلوا وبعث رسول الله ﷺ إلى سعد بن معاذ رضي الله عنه فأتي به على حمار عليه إكاف من ليف قد حُمل عليه ، وحفَّ به قومه ، فقالوا : يا أبا عمرو حلفاؤك ومواليك وأهل الكتاب ومن قد علمت ، قالت : فلا يرجع إليهم شيئاً ، لا يلتفت إليهم ، حتى إذا دنا من دورهم التفت إلى قومه فقال : قد آن لي أن لا أبالي في الله لومة لائم . قالت : قال أبو سعيد : فلما طلع قال رسول الله ﷺ : « قوموا إلى سيدكم فأنزلوه » فقال عمر رضي الله عنه : سيدنا الله . قال : « أنزلوه »

فأنزلوه ، وقال رسول الله ﷺ : « احكم فيهم » قال سعد رضي الله عنه : فإني أحكم فيهم أن تقتل مقاتلتهم ، وتُسبى ذراريهم ، وتُقسَّم أموالهم . فقال رسول الله ﷺ : « لقد حكمت فيهم بحكم الله تعالى وحكم رسوله » ثم دعا سعد رضي الله عنه : فقال اللهم إن كنت أبقيت على نبيِّك من حرب قريش شيئاً فأبقني لها ، وإن كنت قطعت الحرب بينه وبينهم فاقبضني إليك ، قال فانفجر كَلْمُه ، وكان قد برىء منه إلا مثل الخرص ، ورجع إلى قبته التي ضرب عليه رسول الله ﷺ ، قالت عائشة رضي الله عنها : فحضره رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما قالت : فو الذي نفس محمد بيده إني لأعرف بكاء أبي بكر رضي الله عنه من بكاء عمر رضي الله عنه وأنا في حجرتي وكانوا كما قال الله تعالى : ﴿ **رحماء بينهم** ﴾ قال علقمة : فقلت : أي أمه فكيف كان رسول الله ﷺ يصنع ؟ قالت : كانت عينه لا تدمع على أحد ، ولكنه كان إذا وجد فإنما هو آخذ بلحيته ﷺ ، وقد أخرج البخاري ومسلم ... عن عائشة رضي الله عنها نحواً من هذا ولكنه أخصر منه وفيه دعا سعد رضي الله عنه) .

١٠- بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مُقام لكم** ﴾ قال ابن كثير : (يعني المدينة كما جاء في الصحيح : « أُريتُ في المنام دار هجرتكم أرض بين حرتين ، فذهب وَهْلي أنّها هجر فإذا هي يثرب » وفي لفظٍ المدينة . فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد ... عن البراء رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من سمّى المدينة يثرب فليستغفر الله تعالى إنما هي طابة هي طابة » تفرّد به الإمام أحمد ، وفي إسناده ضعف . والله أعلم . ويقال إنما كان أصل تسميتها يثرب برجل نزلها من العماليق يُقال له يثرب بن عبيد بن مهلاييل بن عوض بن عملاق ابن لاذ بن إرم بن سام بن نوح . قاله السهيلي ، قال : وروي عن بعضهم أنه قال : إن لها في التوراة أحد عشر اسماً : المدينة ، وطابة ، وطيبة ، والمسكينة ، والجابرة ، والمحبة ، والمحبوبة ، والقاصمة ، والمجبورة ، والعذراء ، والمرحومة . وعن كعب الأحبار قال : إنا نجد في التوراة يقول الله تعالى للمدينة : يا طيبة ، ويا طابة ، ويا مسكينة لا تقلّي الكنوز أرفع أحاجرك على أحاجر القرى) .

١١- من تعليقات صاحب الظلال على المقطع الذي مرّ معنا ما يلي :

(إن النص القرآني يغفل أسماء الأشخاص ، وأعيان الذوات ، ليصوِّر نماذج البشر وأنماط الطباع . ويغفل تفصيلات الحوادث وجزئيات الوقائع ، ليصوِّر القيم الثابتة

والسنن الباقية . هذه التي لا تنتهي بانتهاء الحادث ، ولا تنقطع بذهاب الأشخاص ، ولا تنقضي بانقضاء الملابسات ، ومن ثَمَّ تبقى قاعدة ومثلاً لكل جيل وكل قبيلة . ويحفل بربط المواقف والحوادث بقدر الله المسيطر على الأحداث والأشخاص ، ويظهر فيها يد الله القادرة وتدبيره اللطيف ، ويقف عند كل مرحلة في المعركة للتوجيه والتعقيب والربط بالأصل الكبير .

ومع أنه كان يقصّ القصة على الذين عاشوها ، وشهدوا أحداثها ، فإنه كان يزيدهم بها خبراً ، ويكشف لهم من جوانبها ما لم يدركوه وهم أصحابها وأبطالها ! ويلقي الأضواء على سراديب النفوس ومنحنيات القلوب ومخبآت الضمائر ؛ ويكشف للنور الأسرار والنوايا والخوالج المستكنة في أعماق الصدور .

ذلك إلى جمال التصوير ، وقوّته ، وحرارته ، مع ... التصوير ... للجبن والخوف والنفاق والتواء الطباع ! ومع الجلال الرائع والتصوير الموحي للإيمان والشجاعة والصبر والثقة في نفوس المؤمنين .

إن النّص القرآني معدّ للعمل - لا في وسط أولئك الذين عاصروا الحادث وشاهدوه فحسب . ولكن كذلك للعمل في كل وسط بعد ذلك ، وفي كل تاريخ . معدّ للعمل في النفس البشرية إطلاقاً كلما واجهت مثل ذلك الحادث أو شبهه في الآماد الطويلة ، والبيئات المنوعة . بنفس القوّة التي عمل بها في الجماعة الأولى .

ولا يفهم النصوص القرآنية حق الفهم إلا مَنْ يواجه مثل الظروف التي واجهتها أول مرة . هنا تتفتَّح النصوص عن رصيدها المذخور ، وتتفتَّح القلوب لإدراك مضامينها الكاملة . وهنا تتحوَّل تلك النصوص من كلمات وسطور إلى قوى وطاقات . وتنتفض الأحداث والوقائع المصورة فيها . تنتفض خلائق حَيَّة ، موحية ، دافعة ، تعمل في واقع الحياة ، وتدفع بها إلى حركة حقيقية ، في عالم الواقع وعالم الضمير .

إن القرآن ليس كتاباً للتلاوة ولا للثقافة .. وكفى .. إنما هو رصيد من الحيوية الدافعة ؛ وإيحاء متجدد في المواقف والحوادث ! ونصوصه مهيأة للعمل في كل لحظة ، متى وجد القلب الذي يتعاطف معه ويتجاوب ، ووجد الظرف الذي يطلق الطاقة المكنونة في تلك النصوص ذات السر العجيب !

وإن الإنسان ليقرأ النص القرآني مئات المرات ؛ ثم يقف الموقف ، أو يواجه

الحادث ، فإذا النص القرآني جديد ، يوحي إليه بما لم يوح من قبل قط ، ويجيب على السؤال الحائر ، ويفتي في المشكلة المعقدة ، ويكشف الطريق الخافي ، ويرسم الاتجاه القاصد ، ويفيء بالقلب إلى اليقين الجازم في الأمر الذي يواجهه ، وإلى الاطمئنان العميق .

وليس ذلك لغير القرآن في قديم ولا حديث) .

☆ ☆ ☆

المقطع الثالث

ويمتدّ من الآية (٢٨) إلى نهاية الآية (٤٠) وهذا هو :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ
وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ
أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٢٩﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ
مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ﴿٣٠﴾ * وَمَن
يَقۡنُتۡ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا نُّؤۡتِهَآ أَجۡرَهَا مَرَّتَيۡنِ وَأَعۡتَدۡنَا لَهَا رِزۡقٗا
كَرِيمٗا ﴿٣١﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّۚ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ
فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ﴿٣٢﴾ وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا
تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ وَأَقِمۡنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعۡنَ ٱللَّهَ
وَرَسُولَهُۥٓۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ
تَطۡهِيرٗا ﴿٣٣﴾ وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ
لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَٱلۡمُسۡلِمَٰتِ وَٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡقَٰنِتِينَ
وَٱلۡقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلۡخَٰشِعِينَ
وَٱلۡخَٰشِعَٰتِ وَٱلۡمُتَصَدِّقِينَ وَٱلۡمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلۡحَٰفِظِينَ

فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً
وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن
يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا
مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ
وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ ۖ فَلَمَّا
قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ
أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَّا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ
مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ ۖ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا
مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ ۗ
وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ
وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾

كلمة في السياق :

١ - رأينا أن للمقطع الأول في سورة الأحزاب صلة بالمقطع الأول من سورة النساء : ﴿ **يا أيها الناس اتقوا ربكم** ... ﴾ النّساء .

﴿ **يا أيها النّبي اتق الله** ... ﴾ الأحزاب .

﴿ **للرجال نصيب مما ترك الوالدن والأقربون** ... ﴾ النساء .

﴿ **وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله** ... ﴾ الأحزاب .

وقد ختم المقطع الأول في سورة النساء بقوله تعالى : ﴿ **ولا الذين يموتون وهم كفار أولئك أعتدنا لهم عذاباً أليماً** ﴾ .

وختم المقطع الأول في سورة الأحزاب بقوله تعالى : ﴿ **وأعدّ للكافرين عذاباً أليماً** ﴾ .

٢ - ورأينا أنّ للمقطع الثاني في سورة الأحزاب صلة بالمقطع الأول من سورة المائدة : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا أَوْفُوا بالعقود** ﴾ المائدة .

﴿ **ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل ...** ﴾ ﴿ **من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه** ﴾ الأحزاب .

﴿ **يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ هَمّ قومٌ أن يبسطوا إليكم أيديهم فكفّ أيديهم عنكم** ﴾ المائدة .

﴿ **يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها** ﴾ ﴿ **وكفى الله المؤمنين القتال** ﴾ الأحزاب .

....

فالصلة قائمة بين المقطع الأول من سورة النساء ، والمقطع الأول من سورة الأحزاب ، وبين المقطع الثاني من سورة الأحزاب ، والمقطع الأول من سورة المائدة ، وكنّا قلنا من قبل : إن مقاطع سورة الأحزاب تتناوب ؛ فمقطع له صلة بسورة النساء ، ومقطع له صلة بسورة المائدة ، وعلى هذا فالمقطع الثالث في سورة الأحزاب له صلة بسورة النساء :

....

يبدأ المقطع الثاني في سورة النساء بقوله تعالى :

﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كَرْهاً ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن إلا أن يأتين بفاحشة مبيِّنة وعاشروهن بالمعروف** ﴾ .

وها هو المقطع الثالث من سورة الأحزاب يقول :

﴿ **يا أيها النبي قل لأزواجك إن كُنتنَّ تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالَين أُمتّعكن**

وأسرّحكن سراحاً جميلاً ﴾ ﴿ يا نساء النبي من يأت منكنّ بفاحشة مبينة يُضاعف لها العذاب ضعفين ... ﴾ .

....

وفي المقطع الثاني من سورة النساء :

﴿ ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف ﴾ .

وفي المقطع الثالث من سورة الأحزاب :

﴿ فلمّا قضى زيد منها وطراً زوجناكها لكي لا يكون على المؤمنين حَرَج في أزواج أدعيائهم إذا قضَوا منهن وطراً ﴾ ﴿ ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ... ﴾ .

فالصلة قائمة بين المقطع الثالث من سورة الأحزاب والمقطع الثاني من سورة النساء .

٣ - وبمناسبة الكلام عن صلات مقاطع سورة الأحزاب بسورتي النساء والمائدة نحب أن نذكر جزءاً آخر من نظريتنا في فهم الوحدة القرآنية ، لقد ذكرنا من قبل أنّ لكل سورة بعد سورة البقرة محورها من سورة البقرة وأن هذه السور تفصّل في المحور وارتباطاته وامتداداته ، وههنا نضيف : أنّه عندما تفصّل سورة سابقة بمحور ، فإنّ السورة اللاحقة إذا فصّلت في المحور نفسه فإن تفصيلها ينصب على المحور وعلى السور التي فصّلت المحور من قبل ؛ فتجد شبكة العلاقات بين المحور وامتداداته وارتباطاته ، والسور التي فصّلته على أشدها .

٤ - قلنا إن مقاطع سورة الأحزاب تفصّل بالتناوب في محوري سورة النساء وسورة المائدة ، وهذا المقطع له صلة بمحور سورة النّساء ، ونلاحظ أن لهذا المقطع صلة بقضايا النّساء وهو موضوع من أهم المواضيع التي تظهر فيها الطاعة الحقيقية لله عز وجل .

فإذا كان محور سورة النساء من سورة البقرة هو قوله تعالى : **﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ﴾** فهذا المقطع يعطينا صورة كاملة عن التقوى وأهلها وصفاتهم من خلال الخطاب للقدوة العليا للبشر رسول

الله ﷺ ولأهل بيته .

٥ - من خلال ما ذكرناه ههنا وما ذكرناه من قبل ندرك أنّه مع كثرة صلات السور ببعضها فإنّ ذلك لا يؤثّر على وحدة السورة ، سواء في ذلك تكامل معانيها ، أو وحدة سياقها ، أو وحدة جرسها ، أو وحدة روحانيتها ، لاحظ ما يلي :

أ - بدأت سورة الأحزاب بأوامر منها الأمر بالتوكّل ، وجاء المقطع الثاني يعمّق موضوع التوكّل ، وختم المقطع الثاني بذكر توريث الله المؤمنين الأرض ، ولذلك صلاته ببعضه ، ومن ذكر إرث الأرض ينتقل السياق ليربي أزواج النبي ﷺ على الزهد في الدنيا .

ب - بدأت السورة بالنّهي عن طاعة الكافرين والمنافقين ، وجاء المقطع الثاني ليبيّن لنا بعض أخلاقيات المنافقين ، وجاء المقطع الثالث ليذكر تفصيلاً أخلاقيات أهل الإيمان .

ج - جاء في المقطع الأول إلغاء قاعدة التبنّي ، وسيأتي في المقطع الثالث ما ينهي قاعدة التبني من أساسها .

التفسير :

﴿ **يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها** ﴾ أي السعادة وكثرة الأموال ﴿ **فتعالين** ﴾ أي أقبلن بإرادتكن واختياركن لأحد الأمرين ، ولم يرد نهوضهن إليه بأنفسهن ﴿ **أُمتِّعْكن** ﴾ أي أعطكن متعة الطلاق ﴿ **وأسرِّحْكُن** ﴾ أي وأطلقكن ﴿ **سراحاً جميلاً** ﴾ لا ضرار فيه ﴿ **وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعدَّ للمحسنات منكن أجراً عظيماً** ﴾ وقد اخترن - رضوان الله عنهن - الله ورسوله والدار الآخرة فجمع الله تعالى لهن بين خير الدنيا وسعادة الآخرة .

كلمة في السياق :

إن هذا الخطاب في سياق السورة المبدوءة بـ ﴿ **يا أيها النبي اتق الله ...** ﴾يدل على أن هذا التخيير من التقوى المأمور بها رسول الله ﷺ ؛ إذ إنّ إرادة الحياة الدنيا خُلق من أخلاق الكافرين ، وهي أخلاق لا ينبغي أن تصيب بيت رسول الله ﷺ ومن هنا نعرف كيف أن سورة الأحزاب كسورة النساء تبني قضية التقوى ، ولنعد

إلى التفسير .

....

فبعد الخطاب المباشر لرسول الله ﷺ يتَّجه الخطاب لأزواج رسول الله ﷺ ليدلهنّ على المقام الأعلى لتقوى النساء ﴿ **يا نساء النبي من يأت منكن بفاحشة** ﴾ أي بسيّئة بليغة في القبح ﴿ **مبيِّنة** ﴾ أي ظاهر فحشها ، قال ابن كثير : (قال ابن عباس رضي الله عنه وهي النشوز وسوء الخلق ، وعلى كل تقدير فهو شرط ، والشرط لا يقتضي الوقوع) وإنما قال ابن كثير ذلك ليبيّن عصمة أزواج الأنبياء من الزنا ﴿ **يُضاعَف لها العذاب ضعفين** ﴾ في الدنيا والآخرة . قال النسفي : (ضعفي عذاب غيرهن من النساء ؛ لأن ما قبح من سائر النساء كان أقبح منهن ، فزيادة قبح المعصية تتبع زيادة الفضل ، وليس لأحد من النساء مثل فضل نساء النبي ﷺ ، ولذا كان الذم للعاصي العالم أشد من العاصي الجاهل ، لأن المعصية من العالم أقبح ، ولذا فضل حد الأحرار على العبيد ولا يرجم الكافر) . ﴿ **وكان ذلك على الله يسيراً** ﴾ أي وكان تضعيف العذاب لهنّ سهلاً هيِّناً عليه ﴿ **ومن يقنت** ﴾ أي ومن يطع ﴿ **منكن لله ورسوله وتعمل صالحاً نؤتها أجرها مرتين** ﴾ أي مثلي ثواب غيرها ؛ لأنها قدوة ، فلها أجر العمل ، وأجر الإمامة ﴿ **وأعتدنا لها رزقاً كريماً** ﴾ أي جليل القدر وهو الجنة ﴿ **يا نساء النبي لستُنَّ كأحد من النساء** ﴾ أي لستن كجماعة واحدة من جماعات النساء إذا تُقصِّيت أُمّة النساء جماعة جماعة لم توجد فيهن جماعة واحدة تساويكن في الفضل ﴿ **إن اتقيتن** ﴾ أي إن أردتن التقوى ، أو إن كنتن متقيات ﴿ **فلا تخضعن بالقول** ﴾ يعني بذلك ترقيق الكلام إذا خاطبن الرجال . قال النسفي : (أي إذا كلمتن الرجال من وراء الحجاب فلا تجئن بقولكن خاضعاً أي ليناً خنثاً مثل كلام المريبات) ﴿ **فيطمع الذي في قلبه مرض** ﴾ أي ريبة وفجور ﴿ **وقلن قولاً معروفاً** ﴾ قال النسفي : حسناً مع كونه خشناً ، وقال ابن كثير : قال ابن زيد : قولاً حسناً جميلاً معروفاً في الخير ، ومعنى هذا : أنّه لا ينبغي أن تخاطب المرأة الأجانب بكلام فيه ترخيم ، فلا تخاطب الأجانب كما تخاطب زوجها ﴿ **وقرن في بيوتكن** ﴾ أي الزمن بيوتكن ، فلا تخرجن لغير حاجة ﴿ **ولا تبرجن تبرّج الجاهلية الأولى** ﴾ أي القديمة ، أي ولا تبرجن تبرجاً مثل تبرج النساء في الجاهلية الأولى . وهي الزمان الذي ولد فيه إبراهيم عليه السلام ، أو ما بين آدم ونوح عليهما السلام ، والجاهلية

الأخرى ما بين عيسى ومحمد ﷺ ، أو الجاهلية الأولى الكفر قبل الإسلام ، والجاهلية الأخرى جاهلية الفسوق والفجور في الإسلام . وقال مجاهد في التبرج : كانت المرأة تخرج تمشي بين يدي الرجال . فذلك تبرج الجاهلية . وفسَّر قتادة تبرج الجاهلية الأولى بأن نساءها كن يخرجن لهن مشية وتكسّر وتغنج . وفسّر مقاتل بن حيان التبرّج فقال : والتبرّج أنها تلقي الخمار على رأسها ، ولا تشده فيواري قلائدها ، وقرطها ، وعنقها ، ويبدو ذلك كله منها ... . وقد فعل نساء الجاهلية المعاصرة ما هو أبشع وأسفه وأخسّ ، ﴿ **وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطِعن الله ورسوله** ﴾ خصّ الصلاة والزكاة بالأمر ، ثم عمّ بجميع الطاعات ؛ تفصيلاً لهما لأنّ من واظب عليهما جرّتاه إلى ما وراءهما ﴿ **إنّما يريد الله** ﴾ إرادة تشريع ﴿ **ليُذهب عنكم الرجز أهل البيت** ﴾ أي يا أهل البيت ﴿ **ويطهِّركم تطهيراً** ﴾ أي من نجاسة الآثام ، بيّن أنّه إنما نهاهُنّ وأمرهن ووعظهنّ لئلا يقارف أهل بيت رسول الله ﷺ المآثم ، وليتصوَّنوا عنها بالتقوى ، واستعار للذنوب الرجس ، وللتقوى الطهر ، لأنَّ عِرض المقترف للمقبّحات يتلوّث بها كما يتلوث بدنه بالأرجاس ، وأما المحسنات فالعِرض منهنّ نقي كالثوب الطاهر . وفي الآية دليل على أن نساء النبي ﷺ من أهل بيته . وفي الفوائد كلام عن مثل هذا . وفي الآية تنفير لأولي الألباب عن المناهي ، وترغيب لهم في الأوامر ﴿ **واذكرن ما يُتلىٰ في بيوتكن من آيات الله** ﴾ أي القرآن ﴿ **والحكمة** ﴾ أي السنة . إذ كن يسمعن كلام رسول الله ﷺ مع القرآن ﴿ **إن الله كان لطيفاً** ﴾ عالماً بغوامض الأشياء ﴿ **خبيراً** ﴾ أي عالماً بحقائقها ، أي هو عالم بأفعالكن وأقوالكن ؛ فاحذرن مخالفة أمره ونهيه ، ومعصية رسوله .

....

كلمة في السياق :

وهكذا نلاحظ أن الأوامر قد صدرت لزوجات الرسول ﷺ وهن القدوة العليا للمسلمات :

١ - بإرادة الله ورسوله ﷺ والدار الآخرة .

٢ - بالتنزُّه عن الفواحش كلها .

٣ - بعدم الخضوع بالقول واللين فيه ، هذا مع الكلم الطيب .

٤ - القرار في البيوت ، إلا لحاجة مشروعة ، وعدم التبرج .

٥ - إقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة .

٦ - الطاعة لله والرسول .

٧ - ذكر الكتاب والسنة .

وإذا استقرت هذه المعاني تأتي الآن آية تتحدّث عن الصفات العليا للرجل والمرأة ؛ الصفات التي يستحق بها أهلها مغفرة الله وجنّته ، وهكذا يصل السياق إلى أن يرفع الرجل والمرأة إلى ذُرىٰ التقوى ، بالدلالة على الطريق ، وبتقرير تفصيلات ذلك .

....

﴿ **إن المسلمين والمسلمات** ﴾ قال النسفي : (المسلم هو الداخل في السلم بعد الحرب ، المنقاد الذي لا يعاند ، أو المفوّض أمره إلى الله تعالى ، المتوكل عليه) فمن أسلم وجهه إلى الله ، وانقاد له ، ولم يعاند حكماً من أحكامه ، وفوّض أمره إلى الله ، وتوكّل عليه فذلك المسلم ﴿ **والمؤمنين والمؤمنات** ﴾ المؤمن هو المصدّق بالله ورسوله ﷺ والمصدّق لله ورسوله في كل شيء . وقد دلّت الآية على أنّ الإيمان غير الإسلام ، وهو أخصّ منه ، ولنا في الفوائد عودة على هذا ﴿ **والقانتين والقانتات** ﴾ القنوت : هو الطاعة في سكون ، وعلى هذا فالقانتون هم القائمون في الطاعة ، قال ابن كثير : (فالإسلام بعده مرتبة يُرتقى إليها وهي الإيمان ، ثم القنوت ناشيء عنهما) ﴿ **والصادقين والصادقات** ﴾ قال النسفي : في النّيات والأقوال والأعمال . وخصها ابن كثير في هذا المقام في الأقوال فقال : هذا في الأقوال فإن الصدق خصلة محمودة ، ولهذا كان بعض الصحابة رضي الله عنهم لم تجرَّب عليه كذبة ، لا في الجاهلية ولا في الإسلام ، وهو علامة على الإيمان ، كما أن الكذب أمارة على النفاق ﴿ **والصابرين والصابرات** ﴾ على الطاعات ، وعن السيئات ، وعلى الامتحانات ، قال ابن كثير : (هذه سجية الأثبات وهي الصبر على المصائب ، والعلم بأنّ المقدّر كائن لا محالة ، وتلقي ذلك بالصبر والثبات ، وإنما الصبر عند الصدمة الأولى : أي أصعبه في أول وهلة ، ثم ما بعده أسهل منه ، وهو صدق السجيّة وثباتها) ﴿ **والخاشعين والخاشعات** ﴾ أي المتواضعين لله بالقلوب والجوارح ، أو الخائفين . قال ابن كثير : (الخشوع : السكون والطمأنينة ، والتؤدة والوقار ، والتواضع ، والحامل

عليه الخوف من الله تعالى ، ومراقبته) ﴿ **والمتصدِّقين والمتصدِّقات** ﴾ فرضاً ونفلاً ﴿ **والصائمين والصائمات** ﴾ قال ابن كثير : (في الحديث الذي رواه ابن ماجه : « والصوم زكاة البدن » أي يزكّيه ويطهّره وينقّيه من الأخلاط الرديئة طبعاً وشرعاً ..) ويدخل في الصوم هنا صوم الفريضة والنافلة ، ومن ثَمَّ قال سعيد بن جبير : من صام رمضان وثلاثة أيام من كل شهر دخل في قوله تعالى : ﴿ **والصائمين والصائمات** ﴾ ولما كان الصوم من أكبر العون على كسر الشهوة ناسب أن يذكر بعده ﴿ **والحافظين فروجهم والحافظات** ﴾ عما لا يحلّ ﴿ **والذاكرين الله كثيراً والذاكرات** ﴾ قال النسفي : (بالتسبيح والتحميد ، والتهليل والتكبير ، وقراءة القرآن ، والاشتغال بالعلم من الذكر) ﴿ **أعدّ الله لهم** ﴾ أي هيّأ ﴿ **مغفرة** ﴾ منه لذنوبهم ﴿ **وأجراً عظيماً** ﴾ وهو الجنة . والمعنى : أن الجامعين والجامعات لهذه الطّاعات أعدّ الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً على طاعاتهم .

....

كلمة في السياق :

بعد أن أمر الله تعالى نساء رسوله عليه الصلاة والسلام وهن القدوة العليا للمسلمات بما أمر ذكر في الآية الأخيرة الخصائص العليا لكل مسلم ومسلمة ، وما أعدّه الله لمن اجتمعت له هذه الخصائص ، ولما كان أول هذه الخصائص الإسلام تأتي بعد ذلك آية تبيّن مظهراً من مظاهر هذا الإسلام .

....

﴿ **وما كان لمؤمن ولا مؤمنة** ﴾ أي وما صح لرجل مؤمن ، ولا امرأة مؤمنة ﴿ **إذا قضى الله ورسوله أمراً** ﴾ من الأمور ﴿ **أن يكون لهم الخِيَرَةُ من أمرهم** ﴾ أي أن يختاروا من أمرهم ما شاؤوا ، بل من واجبهم أن يجعلوا رأيهم تبعاً لرأيه ، واختيارهم تلواً لاختياره . قال ابن كثير : (فهذه الآية عامّة في جميع الأمور ؛ وذلك أنه إذا حكم الله ورسوله بشيء فليس لأحد مخالفته ، ولا اختيار لأحد ههنا ، ولا رأي ولا قول ... ولهذا شدد في خلاف ذلك فقال : ﴿ **ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبيناً** ﴾) قال النسفي : (فإن كان العصيان عصيان ردٍ وامتناع عن القبول فهو ضلال كفر ، وإن كان عصيان فعل مع قبول الأمر واعتقاد الوجوب فهو ضلال خطإٍ وفسوق) .

كلمة في السياق :

١ - بمناسبة الآية السابقة يورد ابن كثير قوله تعالى في سورة النساء : ﴿ **فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكِّموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلّموا تسليماً** ﴾ لأن المقام واحد ، وهذا يؤكد ما ذكرناه من أن هذا المقطع عليه طابع سورة النساء ؛ فهو يفصّل في مقامها ومحورها .

٢ - بعد ما مَرّ من سياق المقطع ، واستقر عليه السياق من وجوب التسليم لله والرسول ﷺ يقصّ علينا الله عز وجل قصة تزويجه زينب بنت جحش من رسول الله ﷺ ، بعد تطليق زيد لها . ومجيء هذه القصة في هذا السياق تعليم لنا أن الاستسلام لله هو الحكمة الخالصة ، لأن الله يعلم وغيره لا يعلم ، وأن الاستسلام لرسول الله ﷺ هو الحكمة الخالصة لأن رسول الله ﷺ مكلّف ومبلّغ عن الله . وفي هذا السياق يذكر الله بعض خصائص الرسل عليهم السلام ، وبعض خصائص رسوله محمد ﷺ ، وكل ذلك لتعميق معنى الاستسلام لله ورسوله ، ومن ثَمَّ ندرك جهل وسفه المبشِّرين النصارى والمستشرقين إذ جعلوا من الآيات التالية محل طعن على رسول الله ﷺ ، وما ذلك إلا من عمى القلب ؛ لأن الفهم الصحيح لها يعمّق معنى الإيمان برسول الله ﷺ ، والاستسلام له كما سنرى .

٣ - من خلال أسباب النزول نرى أن الآية السابقة مقدمة للآيات الآتية ، لأنها كلها في موضوع واحد هو موضوع زيد وزينب عليهما الرضوان . ولما كانت أسباب النزول ضرورية لفهم الآيات فإننا سنذكرها هنا كفائدة مستقلة سابقة على أخواتها في نهاية المقطع كمقدمة لتفسير الآيات الآتية .

....

فوائد :

١ - في سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخِيَرَة من أمرهم** ﴾ قال ابن كثير :

(قال العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله تعالى : ﴿ **وما كان لمؤمن ولا مؤمنة** ﴾ الآية . وذلك أن رسول الله ﷺ انطلق ليخطب على فتاه زيد بن حارثة

رضي الله عنه ، فدخل على زينب بنت جحش الأسدية رضي الله عنها فخطبها فقالت : لست بناكحته ، فقال رسول الله ﷺ : « بلى فانكحيه » قالت : يا رسول الله أؤامر نفسي ؟ فبينما هما يتحدثان أنزل الله هذه الآية على رسول الله ﷺ ﴿ **وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله** ﴾ الآية . قالت : قد رضيته لي يا رسول الله منكحاً ؟ قال رسول الله ﷺ : « نعم » قالت : إذاً لا أعصي رسول الله ﷺ قد أنكحته نفسي . وقال ابن لهيعة عن أبي عمرة عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : خطب رسول الله ﷺ زينب بنت جحش لزيد بن حارثة رضي الله عنه فاستنكفت منه ، وقالت : أنا خير منه حسباً - وكانت امرأة فيها حدّة - فأنزل الله تعالى : ﴿ **وما كان لمؤمن ولا مؤمنة** ﴾ الآية كلها . وهكذا قال مجاهد وقتادة ومقاتل ابن حيان أنها نزلت في زينب بنت جحش رضي الله عنها حين خطبها رسول الله ﷺ على مولاه زيد بن حارثة رضي الله عنه فامتنعت ، ثم أجابت) . وذكر ابن كثير بعد ذلك قولاً آخر سنذكره فيما بعد .

٢ - وبمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك** ... ﴾ قال ابن كثير : (وكان رسول الله ﷺ قد زوّجه بابنة عمّته زينب بنت جحش الأسدية رضي الله عنها ، وأمها أميمة بنت عبد المطلب ، وأصدقها عشرة دنانير ، وستين درهماً ، وخماراً ، وملحفة ، ودرعاً ، وخمسين مداً من طعام ، وعشرة أمداد من تمر قاله مقاتل بن حيان ، فمكثت عنده قريباً من سنة أو فوقها ، ثم وقع بينهما ، فجاء زيد يشكوها إلى رسول الله ﷺ فجعل رسول الله ﷺ يقول له : « أمسك عليك زوجك واتق الله » قال الله تعالى : ﴿ **وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه** ﴾ ذكر ابن أبي حاتم وابن جرير ههنا آثاراً عن بعض السلف رضي الله عنهم ، أحببنا أن نضرب عنها صفحاً ؛ لعدم صحتها فلا نوردها ، وقد روى الإمام أحمد ههنا أيضاً حديثاً من رواية حماد بن زيد عن ثابت عن أنس رضي الله عنه فيه غرابة تركنا سياقه أيضاً . وقد روى البخاري أيضاً بعضه مختصراً عن أنس بن مالك قال : إن هذه الآية ﴿ **وتخفي في نفسك ما الله مبديه** ﴾ نزلت في شأن زينب بنت جحش ، وزيد بن حارثة رضي الله عنهما . وروى ابن أبي حاتم عن علي بن الحسين عن الحسن في قوله تعالى : ﴿ **وتخفي في نفسك ما الله مبديه** ﴾ فذكرت له ، فقال : لا ولكن الله تعالى أعلم نبيّه أنها ستكون من أزواجه قبل أن يتزوجها ، فلما أتاه زيد رضي الله عنه

ليشكوها إليه قال : « اتق الله وأمسك عليك زوجك » فقال (أي الله تعالى) قد أخبرتك أني مزوجكها ، وتخفي في نفسك ما الله مبديه ، وهكذا روي عن السدي أنه قال نحو ذلك) اه .

....

من هذين النقلين نعرف أنّ بعض الكلام الذي يقال في هذا المقام كلام ساقط لا أصل له ، من مثل أنّ رسول الله ﷺ أحب زينب ، فأعلمت زينب زوجها ، فطلّقها من أجل رسول الله ﷺ . إن مثل هذا الكلام يشبه ما يرويه اليهود عليهم لعنة الله عن رسلهم وحاشاهم . وبهذه المناسبة أقول :

إنه حيث توجد روايتان فإن المبشِّرين والمستشرقين وأذنابهم يختارون الرواية المظلمة مضموناً ، ولو كانت باطلة سنداً ، ويتركون الرواية ذات المضمون المنير وإن كانت صحيحة سنداً ، وللأسف فقد استطاعوا أن يضللوا بعض الناس من خلال سيطرتهم على مناهج التدريس ، وعلى الإعلام ، ليس فقط في قضايا العصر النبوي بل في قضايا التاريخ الإسلامي كله .

وبعد هذه المقدمة فلنفسِّر الآيات .

....

﴿ **وإذ تقول للذي أنعم الله عليه** ﴾ بالإسلام الذي هو أجلّ النعم ﴿ **وأنعمتَ عليه** ﴾ بالإعتاق والتبنّي ، ثمّ بالتوليّ بأن كنت مولاه ، فهو متقلّب في نعمة الله ونعمة رسوله ﷺ وهو زيد بن حارثة ﴿ **أمسك عليك زوجك** ﴾ أي زينب بنت جحش ﴿ **واتق الله** ﴾ فلا تطلّقها ، وهو نهي تنزيه ؛ إذ الأولى ألا يطلق ، قال ذلك رسول الله ﷺ لما شكا زيد من كِبْرها وترفّعها وإيذائها له بذلك ﴿ **وتخفي في نفسك ما الله مبديه** ﴾ أي تخفي في نفسك نكاحها إن طلقها زيد ، وهو الذي أبداه الله تعالى وأعلمه لرسوله ﷺ أن زينب ستكون من أزواجه كما رأينا ﴿ **وتخشى الناس** ﴾ أي وتخشى قالة الناس إنه نكح امرأة متبناه ﴿ **والله أحق أن تخشاه** ﴾ فلا تبال إذا أطعت أمر الله بشيء ﴿ **فلما قضى زيد منها وَطَراً** ﴾ أي حاجة وأرباً ، أي فلما لم يبق لزيد فيها حاجة وتقاصرت عنها همته وطلّقها وانقضت عدتها ﴿ **زوجناكها** ﴾ قال ابن كثير : (أي لما فرغ منها وفارقها زوجناكها ، وكان الذي ولي تزويجها منه هو الله عز وجل ،

بمعنى : أنه أوحى إليه أن يدخل عليها بلا ولي ، ولا عقد ، ولا مهر ، ولا شهود من البشر) . وسنرى ذلك في الفوائد . ثم بيّن الله عز وجل حكمة ذلك ﴿ **لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضَوْا منهن وَطَراً** ﴾ أي إذا أدركوا منهنّ حاجة ، وبلوغ مراد ﴿ **وكان أمر الله مفعولاً** ﴾ أي وكان أمر الله الذي يريد أن يكونه مكوّناً لا محالة ، وهو مثل لما أراد كونه من تزويج رسول الله ﷺ زينب . قال ابن كثير : (أي وكان هذا الأمر الذي وقع قد قدّره الله تعالى وحتّمه ، وهو كائن لا محالة ، وكانت زينب في علم الله ستصير من أزواج النبي ﷺ) ﴿ **ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له** ﴾ أي فيما أحل له وأمر له وهو نكاح زينب امرأة زيد ، أو قدّر له من عدد النساء . قال ابن كثير : (أي فيما أحل له وأمره به من تزويج زينب رضي الله عنها التي طلقها دعيُّه زيد بن حارثة رضي الله عنه) ﴿ **سُنَّة الله في الذين خَلَوْا من قبل** ﴾ أي في الأنبياء الذين مضوا من قبل . قال ابن كثير : (أي هذا حكم الله تعالى في الأنبياء قبله ، لم يكن ليأمرهم بشيء وعليهم في ذلك حرج ، وهذا ردّ على من توهَّمَ من المنافقين نقصاً في تزويجه امرأة زيد مولاه ودعيّه الذي كان قد تبنّاه) ﴿ **وكان أمر الله قدراً مقدوراً** ﴾ أي قضاءً مقضياً ، وحكماً مبتوتاً . قال ابن كثير : (أي وكان أمره الذي يقدّره كائناً لا محالة ، وواقعاً لا محيد عنه ولا معدل ، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن) ﴿ **الذين يبلِّغون رسالات الله** ﴾ إلى خلقه ويؤدونها بأمانة ﴿ **ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله** ﴾ أي يخافونه ولا يخافون أحداً سواه ، فلا تمنعهم سطوة أحد عن إبلاغ رسالات الله ﴿ **وكفى بالله حسيباً** ﴾ أي وكفى بالله ناصراً ومعيناً ، أو كافياً للمخاوف ، أو محاسباً على الصغيرة والكبيرة ﴿ **ما كان محمد أبا أحد من رجالكم** ﴾ أي لم يكن أبا رجل منكم حقيقة حتى يثبت بينه وبينه ما يثبت بين الأب وولده من حرمة الصهر والنكاح ﴿ **ولكن** ﴾ كان ﴿ **رسول الله** ﴾ . ﴿ **وخاتم النبيين** ﴾ أي آخرهم يعني : لا ينبأ أحد بعده ، وعيسى ممّن نبىء قبله ، وحين ينزل ينزل عاملاً بشريعة محمد ﷺ كأنه بعض أمته ، وفهم من الآية أن زيداً لما كان واحداً من رجالهم الذين ليسوا بأولاده حقيقة فحكمه حكمهم في كونه داخلاً في أبوة الرسول ﷺ العامّة للمؤمنين ، فيما يرجع إلى وجوب التوقير ، والتعظيم له عليهم ، ووجوب الشفقة والنصيحة لهم عليه ، لا في سائر الأحكام الثابتة بين الآباء والأبناء ﴿ **وكان الله بكل شيء عليماً** ﴾ وقد أخبر بما أخبر عنه هنا علماً منه أن محمداً ﷺ لن يكون له ولد يبلغ مبالغ الرجال ،

ومن ثَمَّ فالطاهر ، والطيِّب ، والقاسم ، وإبراهيم ، توفّوا صبياناً ، وليس بعده نبي .

....

كلمة في السياق :

جاءت قصة زينب رضي الله عنها في سياق المقطع الثالث فأدّت مجموعة معان في محلها :

١ - أرتنا أن زواج الرسول ﷺ مسألة يتدخل فيها الله عز وجل تدخلاً مباشراً ، ومن ثمّ فإنّ هذا درس لنساء الرسول ﷺ في معرفة ذلك ، ودرس للمؤمنين فيعطوا هذا الموضوع حقه من الفهم والعلم والاحترام والتوقير ، وهذا أول مظاهر ارتباط الآيات الأخيرة بمقطعها .

٢ - أرتنا الآيات حكمة زواج الرسول ﷺ بزينب ؛ وفي ذلك درس أن رسول الله ﷺ إذا تزوج فإنّه يفعل ذلك لحكمة ، وهذا يقتضي من أزواجه أدباً ، ومن المؤمنين معرفة وأدباً وتسليماً .

٣ - تعطينا هذه الآيات نموذجاً من نماذج التربية الربانية لرسول الله ﷺ في سياق السّورة المبدوءة بالأمر بالتقوى ، والاتباع ، ورفض طاعة الكافرين والمنافقين ، والتوكل ؛ فترينا موضوعاً تطبيقياً لكيفية أن أمر الله فيه المصلحة الخالصة الكاملة ؛ ومن ثم فلا ينبغي لأحد أن يتلكَّأ عنه مهما كانت الضغوط الاجتماعية الكافرة والمنافقة عنيفة .

٤ - كما تعطينا الآيات دروساً في الإيمان والإسلام ، والمواصفات العليا للمسلم الكامل الذي مرت مواصفاته في آية ﴿ **إن المسلمين والمسلمات** ﴾ كما تعطينا درساً عملياً في مواقف المسلمين الكاملين في التسليم في كل حال ، والطاعة في كل حال ، والصبر على كل حال . وعلى هذا فالمقطع يتكامل في بدايته ونهايته ووسطه ، إذ ارتقى بالمسلم والمسلمة إلى الكمال من خلال الأوامر والتقرير والعرض . وسنذكر في الفوائد تعليقات لها علاقة في السياق تأتي في محلها . فلننقل بعض فوائد المقطع :

....

فوائد :

١ - في سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها** ﴾ وفي ما فعله الرسول ﷺ في التخيير نذكر هذه الروايات :

(روى البخاري عن أبي سلمة بن عبد الرحمن أن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ أخبرته ، أن رسول الله ﷺ جاءها حين أمره الله تعالى أن يخيِّر أزواجه ، قالت : فبدأ بي رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم فقال : « إني ذاكر لك أمراً فلا عليك أن لا تستعجلي حتى تستأمري أبويك » وقد علم أن أبوي لم يكونا يأمراني بفراقه قالت : ثم قال : « إن الله تعالى قال : ﴿ **يا أيها النبي قل لأزواجك** ﴾ » إلى تمام الآيتين فقلت له : ففي أي هذا أستأمر أبوي ! فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة . وكذا رواه معلقاً عن أبي سلمة عن عائشة رضي الله عنها فذكره وزاد قالت ثم فعل أزواج النبي ﷺ مثل ما فعلت) .

(وروى الإمام أحمد عن عائشة رضي الله عنها قالت : خيَّرنا رسول الله ﷺ فاخترناه ، فلم يعدّها علينا شيئاً . أخرجاه من حديث الأعمش ، وروى الإمام أحمد عن جابر رضي الله عنه قال : أقبل أبو بكر رضي الله عنه يستأذن على رسول الله ﷺ والناس ببابه جلوس ، والنبي ﷺ جالس ، فلم يُؤْذَن له ، ثم أقبل عمر رضي الله عنه فاستأذن فلم يُؤْذَن له ، ثم أذن لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، فدخلا والنبي ﷺ جالس ، وحوله نساؤه ، وهو ﷺ ساكت ، فقال عمر رضي الله عنه :لأُكَلِّمنَّ النبي ﷺ لعله يضحك ، فقال عمر رضي الله عنه : يا رسول الله لو رأيت ابنة زيد - امرأة عمر - سألتني النفقة آنفاً ، فوجأت عنقها فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه وقال : « هن حولي يسألنني النفقة » فقام أبو بكر رضي الله عنه إلى عائشة ليضربها ، وقام عمر رضي الله عنه إلى حفصة كلاهما يقولان تسألان النبي ﷺ ما ليس عنده ! فنهاهما رسول الله ﷺ ، فقلن : والله لا نسأل رسول الله ﷺ بعد هذا المجلس ما ليس عنده ، قال : وأنزل الله عز وجل الخيار ، فبدأ بعائشة رضي الله عنها فقال : « إني أذكر لك أمراً ما أحب أن تعجلي فيه حتى تستأمري أبويك » قالت : وما هو ؟ قال فتلا عليها ﴿ **يا أيها النبي قل لأزواجك** ﴾ الآية . قالت عائشة رضي الله عنها : أفيك أستأمر أبوي ؟ بل أختار الله تعالى ورسوله ، وأسألك أن لا تذكر لامرأة من نسائك ما اخترت ، فقال ﷺ : « إن الله تعالى لم يبعثني معنِّفاً ، ولكن بعثني معلِّماً ميسراً ،

لا تسألني امرأة منهن عما اخترتِ إلا خبَّرتها » انفرد بإخراجه مسلم دون البخاري فرواه هو والنسائي من حديث زكريا بن إسحاق المكي به) .

قال ابن كثير : (قال عكرمة وكان تحته يومئذٍ تسع نسوة ، خمس من قريش : عائشة ، وحفصة ، وأم حبيبة ، وسودة ، وأم سلمة ، رضي الله عنهن ، وكانت تحته ﷺ صفية بنت حيي النضيرية ، وميمونة بنت الحارث الهلالية ، وزينب بنت جحش الأسدية ، وجويرية بنت الحارث المصطلقية ، رضي الله عنهن وأرضاهن أجمعين) .

٢ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وقرن في بيوتكن** ﴾ قال ابن كثير : (أي الْزَمْنَ بيوتكن فلا تخرجن لغير حاجة ، ومن الحوائج الشرعية الصلاة في المسجد بشرطه ، كما قال رسول الله ﷺ : « لا تمنعوا إماء الله مساجد الله ، ولْيخرجن وهنّ تفلات - وفي رواية - وبيوتهن خير لهن » . وروى الحافظ أبو بكر البزار عن أنس رضي الله عنه قال : جئن النساء إلى رسول الله ﷺ فقلن : يا رسول الله ذهب الرجال بالفضل والجهاد في سبيل الله تعالى ، فما لنا عمل ندرك به عمل المجاهدين في سبيل الله تعالى ، فقال رسول الله ﷺ : « من قعدت - أو كلمة نحوها - منكن في بيتها فإنها تدرك عمل المجاهدين في سبيل الله تعالى » . ثم قال : لا نعلم رواه عن ثابت إلا روح ابن المسيب وهو رجل من أهل البصرة مشهور .

وروى البزار أيضاً عن عبد الله رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « إن المرأة عورة ، فإذا خرجت استشرفها الشيطان ، وأقرب ما تكون بروحة ربها وهي في قعر بيتها » . ورواه الترمذي . وروى البزار بإسناده المتقدم وأبو داود أيضاً عن النبي ﷺ قال : « صلاة المرأة في مخدعها أفضل من صلاتها في بيتها ، وصلاتها في بيتها أفضل من صلاتها في حجرتها » . وهذا إسناد جيد) .

أقول : ومن الحوائج الشرعية زيارة أبيها وأمها ، ومن الحوائج الشرعية خروجها لطلب العلم المفروض فرض عين أو فرض كفاية بشرطه ، ومن الحوائج الشرعية خروجها لسؤال عالم لم يستطع زوجها أن يكفيها مؤنة سؤاله ، ومن الحوائج الشرعية قيامها بخدمة نفسها إذا لم تجد من يكفيها ...

قال صاحب الظلال في قوله تعالى : ﴿ **وقرن في بيوتكن** ﴾ :

(من وقر ، يقر . أي ثقل واستقر . وليس معنى هذا الأمر ملازمة البيوت

فلا يبرحنها إطلاقاً . إنما هي إيماءة لطيفة إلى أن يكون البيت هو الأصل في حياتهن ، وهو المقر . وما عداه استثناء طارىء لا يثقلن فيه ولا يستقررن . إنما الحاجة تقضى . وبقدرها .

والبيت هو مثابة المرأة التي تجد فيها نفسها على حقيقتها كما أرادها الله تعالى . غير مشوهة ولا منحرفة ولا ملوثة ، ولا مكدودة في غير وظيفتها التي هيأها الله لها بالفطرة . « ولكي يهيء الإسلام للبيت جوه ويهيء للفراخ الناشئة فيه رعايتها ، أوجب على الرجل النفقة ، وجعلها فريضة ، كي يتاح للأم من الجهد ، ومن الوقت ، ومن هدوء البال ، ما تشرف به على هذه الفراخ الزغب ، وما تهيء به للمثابة نظامها وعطرها وبشاشتها . فالأم المكدودة بالعمل للكسب ، المرهقة بمقتضيات العمل ، المقيدة بمواعيده ، المستغرقة الطاقة فيه .. لا يمكن أن تهب للبيت جوه وعطره ، ولا يمكن أن تمنح الطفولة النابتة فيه حقها ورعايتها . وبيوت الموظفات والعاملات ما تزيد على جو الفنادق والخانات ؛ وما يشيع فيها ذلك الأرج الذي يشيع في البيت . فحقيقة البيت لا توجد إلا أن تخلقها امرأة ، وأرج البيت لا يفوح إلا أن تطلقه زوجة ، وحنان البيت لا يشيع إلا أن تتولاه أم . والمرأة أو الزوجة أو الأم التي تقضي وقتها وجهدها وطاقتها الروحية في العمل لن تطلق في جو البيت إلا الإرهاق والكلال والملال .

وإن خروج المرأة لتعمل كارثة على البيت قد تبيحها الضرورة . أما أن يتطوّع بها الناس وهم قادرون على اجتنابها ، فتلك هي اللعنة التي تصيب الأرواح والضمائر والعقول ، في عصور الانتكاس والشرور والضلال .

فأما خروج المرأة لغير العمل . خروجها للاختلاط ومزاولة الملاهي . والتسكّع في النوادي والمجتمعات ... فذلك هو الارتكاس في الحمأة الذي يرد البشر إلى مراتع الحيوان !

ولقد كان النساء على عهد رسول الله – ﷺ – يخرجن للصلاة غير ممنوعات شرعاً من هذا . ولكنه كان زمان فيه عفة ، وفيه تقوى . وكانت المرأة تخرج إلى الصلاة متلفعة لا يعرفها أحد ، ولا يبرز من مفاتنها شيء . ومع هذا فقد كرهت عائشة لهن أن يخرجن بعد وفاة رسول الله – ﷺ !

في الصحيحين عن عائشة – رضي الله عنها – أنها قالت : « كان نساء المؤمنين يشهدن الفجر مع رسول الله – ﷺ – ثم يرجعن متلفعات بمروطهن ما يُعرَفن

من الغلس .

وفي الصحيحين أيضاً أنها قالت : لو أدرك رسول الله - ﷺ - ما أحدث النساء لمنعهن من المساجد ، كما مُنعت نساء بني إسرائيل !

فماذا أحدث النساء في حياة عائشة - رضي الله عنها - ؟ وماذا كان يمكن أن يحدثن حتى ترى أن رسول الله - ﷺ - كان مانعهن من الصلاة ؟! ماذا بالقياس إلى ما نراه في هذه الأيام ؟!) .

٣ - رأينا في تفسير قوله تعالى : ﴿ **إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت** ﴾ أنّ هذه الآية تَدل على أن أزواجه عليه الصلاة والسلام من أهل بيته ، وكونها في أزواجه عليه الصلاة والسلام لا يعني أن آل البيت هنا لا يراد بها إلا أزواجه عليه الصلاة والسلام . فكلمة آل البيت كلمة أعمّ ، وسياق ورودها هو الذي يحدّد ما يدخل فيها . وفي هذه الآية قال ابن كثير : (وقوله تعالى : ﴿ **إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ...** ﴾ نص في دخول أزواج النبي ﷺ في أهل البيت ههنا ؛ لأنهن سبب نزول هذه الآية ، وسبب النزول داخل فيه قولاً واحداً ، إما وحده على قول ، أو مع غيره على الصحيح . وروى ابن جرير عن عكرمة أنه كان ينادي في السوق ﴿ **إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً** ﴾ . نزلت في نساء النبي ﷺ خاصة ، وهكذا روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : ﴿ **إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت** ﴾ قال : نزلت في نساء النبي ﷺ خاصة ، وقال عكرمة : من شاء باهلته أنّها نزلت في شأن نساء النبي ﷺ فإن كان المراد أنهن كن سبب النزول دون غيرهن فصحيح ، وإن أريد أنهن المراد فقط دون غيرهن ففي هذا نظر ؛ فإنه قد وردت أحاديث تدل على أن المراد أعمّ من ذلك) . ثمّ ذكر ابن كثير أحاديث كثيرة تدلّ على ذلك ، وختم كلامه بذكر رواية تخصّص غير نسائه ﷺ بلقب أهل البيت وعلّق على ذلك قال : (روى مسلم في صحيحه عن يزيد بن حبان قال : انطلقت أنا وحصين بن سبرة وعمرو بن مسلمة إلى زيد بن أرقم رضي الله عنه ، فلما جلسنا إليه قال له حصين لقد لقيت يا زيد خيراً كثيراً ، رأيت رسول الله ﷺ ، وسمعت حديثه ، وغزوت معه ، وصليت خلفه ، لقد لقيت يا زيد خيراً كثيراً . حدِّثنا يا زيد ما سمعت من رسول الله قال : يا ابن أخي والله لقد كبرت سني ، وقدم عهدي ، ونسيت بعض الذي كنت أعي من رسول الله ﷺ ،

فما حدثتكم فاقبلوا ، وما لا فلا تكلَّفوا فيه ، ثم قال : قام فينا رسول الله ﷺ يوماً خطيباً بماء يُدعى خمّا بين مكة والمدينة ، فحمد الله تعالى ، وأثنى عليه ، ووعظ وذكّر ، ثم قال : « أما بعد ألا أيها الناس فإنما أنا بشر يوشك أن يأتيني رسول ربي فأجيب ، وأنا تارك فيكم ثقلين : أولها كتاب الله تعالى ، فيه الهدى والنور ، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به – فحث على كتاب الله عز وجل ورغَّب فيه – ثم قال : وأهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي ، أذكركم الله في أهل بيتي » ثلاثاً . فقال له حصين : ومن أهل بيته يا زيد ؟ أليس نساؤه من أهل بيته ؟ قال : نساؤه من أهل بيته ، ولكن أهل بيته من حرم الصدقة بعده ، قال : ومن هم ؟ قال : هم آل علي ، وآل عقيل ، وآل جعفر ، وآل عباس رضي الله عنهم ، قال : كل هؤلاء حرم الصدقة بعده ؟ قال : نعم . ثم رواه عن محمد بن الريان عن حسان بن إبراهيم عن سعيد بـن مسروق عن يزيد بن حبان عن زيد بن أرقم رضي الله عنه فذكر الحديث بنحو ما تقدم وفيه : فقلت له : من أهل بيته نساؤه ؟ قال : لا ، وايم الله إن المرأة تكون مع الرجل العصر من الدهر ، ثم يطلقها فترجع إلى أبيها وقومها ، أهل بيته أصله وعصبته الذين حرموا الصدقة بعده . هكذا وقع في هذه الرواية ، والأولى أولى ، والأخذ بها أحرى . وهذه الثانية تحتمل أنه أراد تفسير الأهل المذكورين في الحديث الذي رواه إنما المراد بهم آله الذين حرموا الصدقة ، أو أنه ليس المراد بالأهل الأزواج فقط ، بل هم مع آله ، وهذا الاحتمال أرجح جمعاً بينها وبين الرواية التي قبلها ، وجمعاً أيضاً بين القرآن والأحاديث المتقدمة – إن صحت – ؛ فإن في بعض أسانيدها نظراً والله أعلم ، ثم الذي لا شك فيه من تدبر القرآن أن نساء النبي ﷺ داخلات في قوله تعالى ﴿ **إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً** ﴾ فإن سياق الكلام معهن ولهذا قال تعالى بعد هذا كله : ﴿ **واذكرن ما يُتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة** ﴾ أي واعملن بما ينزل الله تبارك وتعالى على رسوله ﷺ في بيوتكن من الكتاب والسنة . قاله قتادة وغير واحد : واذكرن هذه النعمة التي خُصصتن بها من بين الناس ، أن الوحي ينزل في بيوتكن دون سائر الناس ، وعائشة الصديقة بنت الصديق رضي الله عنهما أولاهن بهذه النعمة ، وأحظاهن بهذه الغنيمة ، وأخصهن من هذه الرحمة العميمة ، فإنه لم ينزل على رسول الله ﷺ الوحي في فراش امرأة سواها ، كما نص على ذلك صلوات الله وسلامه عليه ، قال بعض العلماء : لأنه لم يتزوج بكراً سواها ، ولم ينم معها رجل في فراشها سواه ﷺ ، ورضي الله عنها فناسب أن تخصص بهذه المزية ، وأن تفرد بهذه المرتبة العلية ، وإذا

كان أزواجه من أهل بيته فقرابته أحق بهذه التسمية كما تقدم في الحديث « وأهل بيتي أحق » .

٤ – وما حكم التخيير في الطلاق ، أي لو قال قائل لزوجته : اختاري نفسك . قال النسفي : (وحكم التخيير في الطلاق أنه إذا قال لها اختاري فقالت : اخترت نفسي أن تقع تطليقة بائنة ، وإذا اختارت زوجها لم يقع شيء وعن علي رضي الله عنه إذا اختارت زوجها فواحدة رجعية ، وإن اختارت نفسها فواحدة بائنة) على خلاف في ذلك بين العلماء . .

٥ – في سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات** ﴾ روى الإمام أحمد عن أم سلمة زوج النبي ﷺ قالت : **قلت** للنبي ﷺ : ما لنا لا نُذكر في القرآن كما يذكر الرجال ؟ قالت : فلم يرعني منه ذات يوم إلا ونداؤه على المنبر ، قالت : وأنا أسرّح شعري ، فلففت شعري ثم خرجت إلى حجرتي – حجرة بيتي – فجعلت سمعي عند الجريد ، فإذا هو يقول عند المنبر « يا أيها الناس إن الله تعالى يقول ﴿ **إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات** ﴾ » إلى آخر الآية وهكذا رواه النسائي وابن جرير من حديث عبد الواحد بن زياد به . وروى النسائي أيضاً عن أم سلمة رضي الله عنها قالت للنبي ﷺ : يا نبي الله ما لي أسمع الرجال يُذكَرون في القرآن والنساء لا يُذكرن ؟ فأنزل الله تعالى : ﴿ **إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات** ﴾ وقد رواه ابن جرير عن أم سلمة رضي الله عنها قالت : قلت يا رسول الله أيذكر الرجال في كل شيء ولا نذكر ؟ فأنزل الله تعالى : ﴿ **إن المسلمين والمسلمات** ﴾ الآية .

٦ – عند قوله تعالى : ﴿ **إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات** ﴾ قال ابن كثير : (فقوله تعالى : ﴿ **إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات** ﴾ دليل على أن الإيمان خير ، والإسلام هو أخص منه لقوله تعالى : ﴿ **قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولمّا يدخل الإيمان في قلوبكم** ﴾ [الحجرات : ١٤] وفي الصحيحين : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن » فيسلبه الإيمان ولا يلزم من ذلك كفره بإجماع المسلمين ، فدل على أنه أخص منه كما قررناه في أول شرح البخاري) .

٧ – عند قوله تعالى : ﴿ **والذاكرين الله كثيراً والذاكرات** ﴾ قال ابن كثير :

(روى ابن أبي حاتم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : إن رسول الله ﷺ قال : « إذا أيقظ الرجل امرأته من الليل فصليا ركعتين كانا تلك الليلة من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات » وقد رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه من حديث الأعمش ... عن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما عن النبي ﷺ بمثله . وروى الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه قال : قلت يا رسول الله أي العباد أفضل درجة عند الله تعالى يوم القيامة ؟ قال ﷺ : « الذاكرون الله كثيراً والذاكرات » قال : قلت : يا رسول الله ومن الغازي في سبيل الله تعالى ؟ قال : « لو ضرب بسيفه في الكفار والمشركين حتى ينكسر ويختضب دماً لكان الذاكرون الله تعالى أفضل منه » . وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ يسير في طريق مكة فأتى على جمدان فقال : « هذا جمدان سيروا فقد سبق المفردون » قالوا وما المفردون ؟ قال ﷺ : « الذاكرون الله كثيراً والذاكرات » ثم قال ﷺ : « اللهم اغفر للمحلّقين » قالوا : والمقصرين . قال ﷺ : « اللهم اغفر للمحلّقين » قالوا : والمقصرين . قال : « والمقصرين » تفرَّد به من هذا الوجه ورواه مسلم دون آخره . وقال الإمام أحمد عن معاذ بن جبل قال : قال رسول الله ﷺ : « ما عمل آدمي عملاً قط أنجى له من عذاب الله تعالى من ذكر الله عز وجل » وقال معاذ رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ : « ألا أخبركم بخير أعمالكم ، وأزكاها عند مليككم ، وأرفعها في درجاتكم ، وخير لكم من تعاطي الذهب والفضة ، ومن أن تلقوا عدوكم غداً فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم ؟ » قالوا : بلى يا رسول الله قال ﷺ : « ذكر الله عز وجل » وروى الإمام أحمد عن سهل بن معاذ بن أنس الجهني عن أبيه رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : إن رجلاً سأله فقال : أي المجاهدين أعظم أجراً يا رسول الله ؟ قال ﷺ : « أكثرهم لله تعالى ذكراً » قال : فأي الصائمين أكثر أجراً ؟ قال ﷺ : « أكثرهم لله عز وجل ذكراً » ثم ذكر الصلاة ، والزكاة ، والحج ، والصدقة ، وكل ذلك يقول رسول الله ﷺ : « أكثرهم لله ذكراً » فقال أبو بكر لعمر رضي الله عنهما : ذهب الذاكرون بكل خير فقال رسول الله ﷺ : « أجل ») .

٨ - رأينا أن سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم** ﴾ هو قصة زينب وزيد رضي الله عنهما كما ذكرناها ، إلا أن بعضهم يذكر سبباً آخر . وقد ذكر ابن كثير الرواية الأخرى ، وعلّق عليها ، وذكر بمناسبة الآية بعض القصص قال :

(وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : نزلت في أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط رضي الله عنها ، وكانت أول من هاجر من النساء – يعني بعد صلح الحديبية – فوهبت نفسها للنبي ﷺ فقال : قد قبلت ، فزوجها زيد بن حارثة رضي الله عنه يعني والله أعلم بعد فراقه زينب ، فسخطت هي وأخوها ، وقال : إنما أردنا رسول الله ﷺ ، فزوجنا عبده ، قال : فنزل القرآن ﴿ **وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً** ﴾ إلى آخر الآية قال : وجاء أمر أجمع من هذا ﴿ **النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم** ﴾ قال : فذاك خاص وهذا أجمع .

وروى الإمام أحمد عن أنس رضي الله عنه قال : خطب النبي ﷺ على جليبيب امرأة من الأنصار إلى أبيها فقال : حتى أستأمر أمّها فقال النبي ﷺ : « فنعم إذاً » قال : فانطلق الرجل إلى امرأته ، فذكر ذلك لها فقالت : لاها الله إذن ما وجد رسول الله ﷺ إلا جليبيباً وقد منعناها من فلان وفلان ، قال : – والجارية في سترها تسمع – قال : فانطلق الرجل يريد أن يخبر رسول الله ﷺ بذلك ، فقالت الجارية : أتريدون أن تردوا على رسول الله ﷺ أمره ، إن كان قد رضيه لكم فأنكحوه ، قال : فكأنها جلت عن أبويها وقالا : صدقت فذهب أبوها إلى رسول الله ﷺ فقال : إن كنت رضيته فقد رضيناه قال ﷺ : « فإني قد رضيته » ، قال : فزوجها ، ثم فزع أهل المدينة فركب جليبيب فوجدوه قد قتل ، وحوله ناس من المشركين قد قتلهم ، قال أنس رضي الله عنه : فلقد رأيتها وإنها لمن أنفق بنت بالمدينة .

....

قال ثابت رضي الله عنه : فما كان في الأنصار أيم أنفق منها . وحدث إسحاق ابن عبد الله بن أبي طلحة ثابتاً : هل تعلم ما دعا لها رسول الله ﷺ ؟ فقال : قال : « اللهم صبّ عليها صبّاً ، ولا تجعل عيشها كدّاً » ، وكذا كان فما كان في الأنصار أيّم أنفق منها . هكذا أورده الإمام أحمد بطوله ، وأخرج منه مسلم والنسائي في الفضائل قصة قتله . وذكر الحافظ أبو عمر بن عبد البر في الاستيعاب : أن الجارية لما قالت في خدرها : أتردُّون على رسول الله ﷺ أمره ؟ نزلت هذه الآية ﴿ **وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم** ﴾ . وقال ابن جريج : أخبرني عامر بن مصعب عن طاووس قال : إنه سأل ابن عباس عن ركعتين بعد العصر فنهاه ، وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما : ﴿ **وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا**

قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ﴾ فهذه الآية عامة في جميع الأمور ، وذلك أنه إذا حكم الله ورسوله بشيء فليس لأحد مخالفته ، ولا اختيار لأحد ههنا ، ولا رأي ولا قول . كما قال تبارك وتعالى : ﴿ **فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكِّموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً** ﴾ . وفي الحديث : « والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به » . ولهذا شدَّد في خلاف ذلك فقال : ﴿ **ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبيناً** ﴾ كقوله تعالى : ﴿ **فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم** ﴾ .

٩ - وبمناسبة الكلام عن زيد في الآيات قال ابن كثير عنه :

(وكان سيداً كبير الشأن ، جليل القدر ، حبيباً إلى النبي ﷺ يقال له الحِبّ ، ويقال لابنه أسامة الحِبّ ابن الحبّ . قالت عائشة رضي الله عنها : ما بعثه رسول الله ﷺ في سرية إلا أمَّره عليهم ، ولو عاش بعده لاستخلفه ، رواه الإمام أحمد . وروى البزار عن أسامة بن زيد قال : كنت في المسجد فأتاني العباس وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما فقالا : يا أسامة استأذن لنا على رسول الله ﷺ قال : فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته فقلت : علي والعباس يستأذنان . فقال ﷺ : أتدري ما حاجتهما ؟ قلت : لا يا رسول . قال ﷺ : « لكني أدري » . قال : فأذن لهما . قالا : يا رسول الله جئناك لتخبرنا أي أهلك أحب إليك ؟ قال ﷺ : « أحب أهلي إليّ فاطمة بنت محمد » قالا : يا رسول الله ما نسألك عن فاطمة ، قال ﷺ : « فأسامة بن زيد بن حارثة الذي أنعم الله عليه وأنعمتُ عليه » .

١٠- بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها** ﴾ قال ابن كثير : (أي لما فرغ منها وفارقها زوجناكها ، وكان الذي ولي تزويجها منه هو الله عز وجل . بمعنى : أنه أوحى أن يدخل عليها بلا ولي ، ولا عقد ، ولا مهر ، ولا شهود من البشر . روى الإمام أحمد عن أنس رضي الله عنه قال : لما انقضت عدة زينب رضي الله عنها قال رسول الله ﷺ لزيد بن حارثة : « اذهب فاذكرها علي » فانطلق حتى أتاها وهي تخمّر عجينها . قال : فلما رأيتها عظمت في صدري حتى ما أستطيع أن أنظر إليها وأقول : إن رسول الله ﷺ ذكرها ، فوليتها ظهري ، ونكصت على عقبي ، وقلت : يا زينب أبشري أرسلني رسول الله ﷺ يذكرك . قالت : ما أنا

بصانعة شيئاً حتى أؤامر ربي عز وجل ، فقامت إلى مسجدها ، ونزل القرآن ، وجاء رسول الله ﷺ فدخل عليها بغير إذن ، ولقد رأيتنا حين دخلت على رسول الله ﷺ أطعمنا عليها الخبز واللحم ، فخرج الناس وبقي رجال يتحدثون في البيت بعد الطعام ، فخرج رسول الله ﷺ واتّبعته ، فجعل ﷺ يتتبّع حجر نسائه يسلّم عليهن ، ويقلن يا رسول الله كيف وجدت أهلك ؟ فما أدري أنا أخبرته أن القوم قد خرجوا أو أخبر . فانطلق حتى دخل البيت فذهبت أدخل معه فألقى الستر بيني وبينه ، ونزل الحجاب ، ووعظ القوم بما وعظوا به ﴿ **لا تدخلوا بيوت النبي إلّا أن يؤذن لكم** ﴾ الآية كلها . ورواه مسلم والنسائي . وقد روى البخاري رحمه الله عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : إن زينب بنت جحش رضي الله عنها كانت تفخر على أزواج النبي ﷺ فتقول : زوَّجكنّ أهاليكن ، وزوّجني الله تعالى من فوق سبع سمٰوات . وقدمنا في سورة النساء عن محمد بن عبد الله بن جحش قال : تفاخرت زينب وعائشة رضي الله عنهما فقالت زينب رضي الله عنها : أنا التي نزل تزويجي من السماء . وقالت عائشة رضي الله عنها : أنا التي نزل عذري من السماء . فاعترفت لها زينب رضي الله عنها . وروى ابن جرير عن الشعبي قال : كانت زينب رضي الله عنها تقول للنبي ﷺ : إني لأدلي عليك بثلاث : ما من نسائك امرأة تدلي بهن : إن جدي وجدك واحد ، وإني أنكحنيك الله عز وجل من السماء ، وإن السفير جبريل عليه الصلاة والسلام) .

١١- بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً** ﴾ قال ابن كثير : (أي إنما أبحنا لك تزويجها ، وفعلنا ذلك ؛ لئلا يبقى حرج على المؤمنين في تزويج مطلقات الأدعياء ، وذلك أن رسول الله ﷺ كان قبل النبوة قد تبنّٰى زيد بن حارثة رضي الله عنه فكان يقال زيد بن محمد . فلما قطع الله تعالى هذه النسبة بقوله تعالى : ﴿ **وما جعل أدعياءكم أبناءكم** ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ **ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله** ﴾ ثم زاد ذلك بياناً وتأكيداً بوقوع تزويج رسول الله ﷺ بزينب بنت جحش رضي الله عنها لما طلقها زيد بن حارثة رضي الله عنه . ولهذا قال تعالى في آية التحريم : ﴿ **وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم** ﴾ [النساء : ٢٣] ليحترز من الابن الدّعي فإنّ ذلك كان كثيراً فيهم) .

أقول : لاحظنا من هذه الفائدة ومما سبقها أن هناك ثلاث قضايا في هذه السورة مترابطة فيما بينها : قضية تحريم التبني الوارد في أول السورة ، وموضوع نكاح الرسول

ﷺ زينب الذي هو هدم لقاعدة التبني ، وموضوع عدم دخول بيت الرسول ﷺ والجلوس فيه إلا بشروط . ونلاحظ أن المعاني الثلاثة جاءت متفرقة مع أن القصة واحدة والقضية واحدة . وذلك يدلنا على أن كل معنى في القرآن إنما يوضع في محله ، ليؤدّي دوره الخاص والعام ، في سياق السورة الخاص والعام . فالوحدة القرآنية شيء أعمّ من وحدة الموضوع الواحد ، إنّ الوحدة القرآنية لتشبه الوحدة الموجودة في هذا الكون ، فلم يخلق الله الحديد وحده ، ولا النحاس وحده ، ولكنه خلق هذا الكون كما نراه ، وجعل فيه من التناسق والتكامل ما لا ينقضي منه العجب ، وكما أن الكون كتاب الله المفتوح ، فالقرآن كتاب الله المقروء . وقد جعل الله في هذا القرآن من التكامل والتناسق ما لا يحاط به .

١٢- بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **الذين يبلّغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله** ﴾ . قال ابن كثير : (وسيد الناس في هذا المقام ، بل في كل مقام محمد رسول الله ﷺ فإنه قام بأداء الرسالة ، وإبلاغها إلى أهل المشارق والمغارب إلى جميع أنواع بني آدم ، وأظهر الله تعالى كلمته ودينه وشرعه على جميع الأديان والشرائع فإنه قد كان النبي قبله إنما يبعث إلى قومه خاصة ، وأما هو ﷺ فإنه بعث إلى جميع الخلق عربهم وعجمهم ﴿ **قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً** ﴾ [الأعراف : ١٥٨] ثم ورث مقام البلاغ عنه أمّته من بعده ، فكان أعلى من قام بها بعده أصحابه رضي الله عنهم ؛ بلّغوا عنه كما أمرهم به في جميع أقواله وأفعاله وأحواله ، في ليله ونهاره ، وحضره وسفره ، وسره وعلانيته ، فرضي الله عنهم وأرضاهم . ثم ورثه كل خلف عن سلفهم إلى زماننا هذا . فبنورهم يقتدي المهتدون ، وعلى منهجهم يسلك الموفّقون . فنسأل الله الكريم المنان أن يجعلنا من خلفهم . روى الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يحقرن أحدكم نفسه أن يرى أمراً لله فيه مقال ثم لا يقوله ، فيقول الله ما يمنعك أن تقول منه ؟ فيقول : رب خشيت الناس فيقول : فأنا أحق أن يخشى » . ورواه ابن ماجه .

أقول : وقد دلت الآية على أن أحداً لا يستطيع أن يقوم بأعباء البلاغ كاملة إلا من خلا قلبه من خشية البشر .

١٣- بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **ولكن رسول الله وخاتم النبيين** ﴾ أقول : إن موضوع ختم النبوة والرسالة بسيدنا محمد ﷺ موضوع معلوم من الدين

بالضرورة ، فهو مجمع عليه ، ومنكره كافر ، وقد دأب الزنادقة والملاحدة خلال العصور على محاولة التشكيك فيه ؛ لفتح الطريق أمام نبوات كاذبة ، رأينا نموذجاً عنها في دعوة الكذاب الأشر غلام أحمد القادياني . وقد ذكر ابن كثير عند هذه الآية أحاديث تؤكد موضوع ختم النبوة . قال :

(فهذه الآية نص في أنه لا نبيّ بعده ﷺ فلا رسول بالطريق الأولى والأحرى ؛ لأن مقام الرسالة أخصّ من مقام النبوة ، فإنّ كلّ رسول نبيّ ، ولا ينعكس ، وبذلك وردت الأحاديث المتواترة عن رسول الله ﷺ من حديث جماعة من الصحابة رضي الله عنهم . روى الإمام أحمد عن أبي بن كعب رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « مثلي في النبيين كمثل رجل بنىٰ داراً فأحسنها وأكملها ، وترك فيها موضع لبنة لم يضعها ، فجعل الناس يطوفون بالبنيان ويعجبون منه ، ويقولون : لو تَمّ موضع هذه اللبنة ؟ فأنا في النبيين موضع تلك اللبنة » . ورواه الترمذي وقال حسن صحيح .

(حديث آخر) روى الإمام أحمد عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الرسالة والنبوة قد انقطعت فلا رسول بعدي ولا نبي » . قال فشق ذلك على الناس . فقال : « ولكن المبشِّرات » قالوا : يا رسول الله وما المبشرات ؟ قال : « رؤيا الرجل المسلم ، وهي جزء من أجزاء النبوة » وهكذا رواه الترمذي وقال صحيح غريب .

(حديث آخر) روى أبو داود الطيالسي عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مثلي ومثل الأنبياء كمثل رجل بنى داراً فأكملها وأحسنها ، إلا موضع لبنة ، فكان من دخلها فنظر إليها قال : ما أحسنها إلا موضع هذه اللبنة ، فأنا موضع اللبنة ، ختم بي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام » . ورواه البخاري ومسلم والترمذي وقال الترمذي : صحيح غريب من هذا الوجه .

(حديث آخر) روى الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مثلي ومثل النبيين كمثل رجل بنى داراً فأتمها ، إلا لبنة واحدة ، فجئت أنا فأتممت تلك اللبنة » . انفرد به مسلم .

(حديث آخر) روى الإمام أحمد عن أبي الطفيل رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا نبوة بعدي إلا المبشرات » قيل : وما المبشرات يا رسول الله ؟ قال : « الرؤيا الحسنة - أو قال - الصالحة » .

(حديث آخر) روى الإمام أحمد ... عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل ابتنى بيوتاً فأكملها وأحسنها وأجملها ، إلا موضع لبنة من زاوية من زواياها ، فجعل الناس يطوفون ويعجبهم البنيان ويقولون : ألا وضعت ههنا لبنة فيتم بنيانك – قال رسول الله ﷺ – : فكنت أنا اللبنة » . أخرجاه من حديث عبد الرزاق .

(حديث آخر) روى الإمام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « فُضِّلت على الأنبياء بست : أُعطيت جوامع الكلم ، ونُصرت بالرعب ، وأُحلت لي الغنائم ، وجُعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً ، وأُرسلت إلى الخلق كافة ، وخُتم بي النبيون » ورواه الترمذي وابن ماجه . وقال الترمذي : حسن صحيح .

(حديث آخر) روى الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى داراً فأتمها ، إلا موضع لبنة واحدة ، فجئت أنا فأتممت تلك اللبنة » . ورواه مسلم .

(حديث آخر) روى الإمام أحمد عن العرباض بن سارية رضي الله عنه قال : قال لي النبي ﷺ : « إني عند الله لخاتم النبيين ، وإن آدم لمنجدل في طينته » .

(حديث آخر) قال الزهري : أخبرني محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن لي أسماء : أنا محمد ، وأنا أحمد ، وأنا الماحي الذي يمحو الله تعالى بي الكفر ، وأنا الحاشر الذي يحشرالناس على قدمي ، وأنا العاقب الذي ليس بعده نبي » أخرجاه في الصحيحين . وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو قال : خرج علينا رسول الله ﷺ يوماً كالمودِّع فقال : « أنا محمد النبي الأمي – ثلاثاً – ولا نبي بعدي ؛ أوتيت فواتح الكلم ، وجوامعه ، وخواتمه ، وعلمت كم خزنة النار ، وحملة العرش ؛ وتجوّز بي ، وعوفيت ، وعوفيت أمتي ، فاسمعوا وأطيعوا ما دمت فيكم ؛ فإذا ذهب بي فعليكم بكتاب الله تعالى ، أحلوا حلاله وحرموا حرامه » . تفرد به الإمام أحمد .

والأحاديث في هذا كثيرة ، فمن رحمة الله تعالى بالعباد إرسال محمد ﷺ إليهم ، ثم من تشريفه لهم ختم الأنبياء والمرسلين به ، وإكمال الدين الحنيف له . وقد أخبر الله تبارك وتعالى في كتابه ورسوله ﷺ في السنة المتواترة عنه أنه لا نبي بعده ؛ ليعلموا أنّ كلّ من ادّعى هذا المقام بعده فهو كذّاب أفّاك دجّال ضالّ مضلّ ، ولو تحرق وشعبذ وأتى

بأنواع السحر والطلاسم والنيرنجيات ، فكلها محال وضلال عند أولي الألباب ، كما أجرى الله سبحانه وتعالى على يد الأسود العنسي باليمن ، ومسيلمة الكذاب باليمامة من الأحوال الفاسدة ، والأقوال الباردة ، ما علم كل ذي لب وفهم وحِجىً أنهما كاذبان ضالان ، لعنهما الله ، وكذلك كل مُدَّع لذلك إلى يوم القيامة حتى يختموا بالمسيح الدجال ، فكل واحد من هؤلاء الكذابين يخلق الله تعالى معه من الأمور ما يشهد العلماء والمؤمنون بكذب من جاء بها ، وهذا من تمام لطف الله تعالى بخلقه فإنهم بضرورة الواقع لا يأمرون بمعروف ، ولا ينهون عن منكر ، إلا على سبيل الاتفاق ، أو لما لهم فيه من المقاصد إلى غيره ، ويكون في غاية الإفك والفجور في أقوالهم وأفعالهم ، كما قال تعالى : ﴿ **هل أنبئكم على من تنزَّل الشياطين * تنزل على كل أفاك أثيم** ﴾ الآية [الشعراء : ٢٢١ ، ٢٢٢] ، وهذا بخلاف حال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، فإنهم في غاية البر ، والصدق ، والرشد ، والاستقامة ، والعدل فيما يقولونه ، ويأمرون به ، وينهون عنه ، مع ما يؤيدون به من الخوارق للعادات ، والأدلة الواضحات ، والبراهين الباهرات ، فصلوات الله وسلامه عليهم دائماً مستمراً ، ما دامت الأرض والسموٰات) .

قال ابن كثير : روى ابن جرير عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت :

« لو كتم محمد ﷺ شيئاً مما أوحي إليه من كتاب الله تعالى لكتم ﴿ **وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه** ﴾ » .

أقول : إن كلام عائشة رضي الله عنها فيه إشارة إلى علامة من علامات نبوته عليه الصلاة والسلام ، وهي ما نراه في هذا القرآن من عتاب لرسول الله ﷺ أحياناً بمثل هذا الأسلوب الفوقي المتعالي ، مما يدلك - وحده - على أن هذا القرآن من عند الله عز وجل ، وأن محمداً عبده ورسوله .

ولننتقل إلى المقطع الرابع .

☆ ☆ ☆

المقطع الرابع

ويمتدّ من الآية (٤١) إلى نهاية الآية (٤٤) وهذا هو :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَـٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَـٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾

كلمة في السياق :

١ - لقد رأينا أنّ مقاطع سورة الأحزاب يتناوب فيها الخطابان : ﴿ **يا أيها النبي** ﴾ ﴿ **يا أيها الذين آمنوا** ﴾ ورأينا أن المقطع الذي يبدأ بـ ﴿ **يا أيها النبي** ﴾ هو أشبه بسورة النساء ، والمقطع الذي يبدأ بـ ﴿ **يا أيها الذين آمنوا** ﴾ أشبه بسورة المائدة .

٢ - لاحظ الصلة بين قوله تعالى ههنا ﴿ **هو الذي يصلي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور** ﴾ وبين قوله تعالى في المقطع الثاني من سورة المائدة : ﴿ **قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتّبع رضوانه سبل السّلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم** ﴾ .

٣ - سترى صلة هذا المقطع بمحور سورة المائدة من سورة البقرة بعد الحديث عن تفسيره .

التفسير :

﴿ **يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً وسبّحوه بكرة** ﴾ أي أول النهار ﴿ **وأصيلاً** ﴾ أي آخره ، أمر أولاً بالذكر الكثير بشكل مطلق بالليل والنهار ، وفي البر والبحر ، وفي السفر والحضر ، والغنى والفقر ، والسقم والصحة ، والسر والعلانية ، وعلى كل حال ، وخصّ البكور والأصائل بالتسبيح ؛ لأن ملائكة الليل وملائكة النهار

يجتمعون فيهما ، والتسبيح من جملة الذكر ، وخصّه الله بالذكر إبانة لفضله ، لأن معناه تنزيه ذات الله تعالى عما لا يجوز عليه من الصفات ، ويدخل في الذكر الصلوات ، وقراءة القرآن ، ومجالس العلم ، والتسبيح ، والتهليل ، والتحميد ، والتكبير ، والاستغفار ، والصلاة على رسول الله ﷺ ، والدعاء ، والطاعات عامّة ، والعبادات ، وهناك حدّ أدنى من الذكر هو الفرائض ، والحد الأعلى منه لا حدّ له ، ولا بدّ لمريد الله تعالى من إقامة الفرائض ، وأن يخصص لنفسه حداً من الأوراد والطاعات يداوم عليه . تلك كانت سُنّة رسول الله ﷺ وأهل بيته ، كما سنرى ﴿ **هو الذي يصلي عليكم** ﴾ أي هو الذي يرحمكم ، ويرأف بكم ﴿ **وملائكته** ﴾ يدعون لكم ﴿ **ليخرجكم من الظلمات إلى النور** ﴾ من ظلمات المعصية ، إلى نور الطاعة ، ومن ظلمات الكفر ، إلى نور الإسلام ، ومن ظلمات الشك والحيرة ، إلى نور اليقين والطمأنينة ، ومن ظلمات الحس ، إلى نور الغيب ، ومن ظلمات النفس ، إلى نورانية القلب ، ومن ظلمات الضلال ، إلى نور الهداية ﴿ **وكان بالمؤمنين رحيماً** ﴾ ، أما الكافرون فإنه يعاملهم بعدله في الآخرة . وفي ختم الآية بهذا دليل على أن المراد بالصلاة في هذه الآية الرحمة ، فالله رحيم بعباده المؤمنين في الدنيا والآخرة ، قال ابن كثير : (أمّا في الدنيا فإنّه هداهم إلى الحق الذي جهله غيرهم ، وبصّرهم الطريق الذي ضلّ عنه وحاد عنه من سواهم ، من الدعاة إلى الكفر أو البدعة ، وأتباعهم من الطغام ، وأمّا رحمته بهم في الآخرة فأمّنهم من الفزع الأكبر ، وأمر ملائكته يتلقونهم بالبشارة بالفوز بالجنة ، والنّجاة من النار ، وما ذاك إلا لمحبته تعالى لهم ، ورأفته بهم) ﴿ **تحيَّتهم يوم يلقونه** ﴾ أي يرونه يوم القيامة ﴿ **سلام** ﴾ أي يقول لهم تبارك وتعالى : السلام عليكم ﴿ **وأعدَّ لهم أجراً كريماً** ﴾ أي الجنة وما فيها من المآكل والمشارب ، والملابس والمساكن ، والمناكح والملاذ ، والمناظر مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

....

كلمة في السياق :

قلنا : إن مقاطع سورة الأحزاب تفصّل بالتناوب في سورة النساء ، وفي سورة المائدة ، وهذا المقطع يفصّل في سورة المائدة ، فلنتذكر محور سورة المائدة الذي جاء فيه قوله تعالى : ﴿ **يُضل به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين الذين**

ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ... ﴾ .

لقد بيّن هذا المقطع أن سبب الهداية هو : صلاة الله وملائكته على المؤمنين ﴿ **هو الذي يصلي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور ...** ﴾ ومجيء هذا النص في سياق الأمر ﴿ **اذكروا الله ذكراً كثيراً ...** ﴾ يشير إلى أن الذكر الكثير هو الطريق لصلاة الله علينا . فالمقطع إذن فصّل في الطريق العملي الذي ينبغي أن يسلكه راغب الهداية ؛ لينأىٰ عن الضلال ، هذا ما له علاقة بصلة هذا المقطع بالسياق القرآني العام .

وأمّا صلته بما قبله فمن حيث إن المقطع السابق ذكر علامات الإيمان ، ومما ذكره . ﴿ **والذاكرين الله كثيراً والذاكرات ...** ﴾ فناسب أن يُؤمر المؤمنون أمراً خاصاً بالذكر الكثير ؛ ليبين لهم محلّه وأهميته في دين الله ، وليبين لهم الطريق للتحقق ، فقد جاء من قبل قوله تعالى : ﴿ **لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً ...** ﴾ فالذكر الكثير طريق الاقتداء برسول الله ﷺ وهو إحدى صفات المسلمين ، فأفرد بمقطع خاص به بعد أن مهّدت السورة لذلك .

فوائد :

١ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **اذكروا الله ذكراً كثيراً وسبّحوه بكرة وأصيلاً** ﴾ .

قال ابن كثير : (روى الإمام أحمد عن أبي سعيد الحمصي قال : سمعت أبا هريرة رضي الله عنه يقول : دعاء سمعته من رسول الله ﷺ لا أدَعه : « اللهم اجعلني أُعظّم شكرك ، وأَتّبع نصيحتك ، وأُكثر ذكرك ، وأَحفظ وصيتك » . ورواه الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه فذكر مثله وقال : غريب وهكذا رواه الإمام أحمد أيضاً عن أبي هريرة رضي الله عنه فذكره . وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن بشر قال : جاء أعرابيان إلى رسول الله ﷺ فقال أحدهما : يا رسول الله أي الناس خير ؟ قال ﷺ : « من طال عمره وحسن عمله » وقال الآخر : يا رسول الله إن شرائع الإسلام قد كثرت علينا فمرني بأمر أتشبَّث به قال ﷺ : لا يزال لسانك رطباً بذكر الله تعالى . وروى الترمذي وابن ماجه الفصل الثاني من حديث معاوية بن صالح به ، وقال الترمذي حديث حسن غريب . وروى الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : إن رسول الله ﷺ قال : « أكثروا ذكر الله تعالى حتى يقولوا مجنون » . وروى الطبراني

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « اذكروا الله ذكراً كثيراً حتى يقول المنافقون إنكم تراؤون » . وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من قوم جلسوا مجلساً لم يذكروا الله تعالى فيه إلا رأوه حسرة يوم القيامة » . وعن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : ﴿ **اذكروا الله ذكراً كثيراً** ﴾ إن الله تعالى لم يفرض على عباده فريضة إلا جعل لها حداً معلوماً ، ثمّ عذر أهلها في حال العذر ، غير الذكر ؛ فإن الله تعالى لم يجعل له حداً ينتهي إليه ، ولم يعذر أحداً في تركه ، إلا مغلوباً على تركه فقال : ﴿ **الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم** ﴾ بالليل والنهار ، في البر والبحر ، وفي السفر والحضر ، والغنى والفقر ، والسقم والصحة ، والسر والعلانية ، وعلى كل حال) .

٢ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **هو الذي يصلّي عليكم وملائكته ...** ﴾ قال ابن كثير : (هذا تهييج إلى الذِّكْرِ ، أي أنه سبحانه يذكركم فاذكروه أنتم كقوله عز وجل : ﴿ **كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكّيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون * فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون** ﴾ [البقرة : ١٥١ ، ١٥٢] وقال النبي ﷺ : « يقول الله تعالى : مَنْ ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، ومَنْ ذكرني في ملأٍ ذكرته في ملأٍ خير منه » . والصلاة من الله تعالى ثناؤه على العبد عند الملائكة حكاه البخاري عن أبي العالية ورواه أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عنه ، وقال غيره:الصلاة من الله عز وجل الرحمة . وقد يقال : لا منافاة بين القولين والله أعلم . وأما الصلاة من الملائكة فبمعنى الدعاء للناس ، والاستغفار كقوله تبارك وتعالى : ﴿ **الذين يحملون العرش ومن حوله يسبِّحون بحمد ربهم ويؤمنون به ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم * ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم * وقهم السيئات** ﴾ الآيات . [غافر : ٧ - ٩]) .

أقول : في كتاب (جند الله ثقافة وأخلاقاً) ذكرتُ أن الطريق إلى الهداية هو صلاة الله علينا ، وصلاة الله علينا لها أسبابها فعلينا أن نتعرض لهذه الأسباب ، وقد ذكرت من أسبابها الورادة في الكتاب والسنة : الصلاة على رسول الله ﷺ ، والصبر ، والاسترجاع ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة ، وغير ذلك . وذكرنا هناك أدلة كل

ما ذكرناه فليراجع .

٣ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وكان بالمؤمنين رحيماً** ﴾ قال ابن كثير :

(روى الإمام أحمد عن أنس رضي الله عنه قال : مَرَّ رسول الله ﷺ في نفر من أصحابه رضي الله عنهم وصبي في الطريق ، فلما رأت أمّه القوم خشيت على ولدها أن يوطأ ، فأقبلت تسعى وتقول : ابني ابني ، وسعت فأخذته فقال القوم : يا رسول الله ما كانت هذه لتلقي ابنها في النار قال : فخفضهم رسول الله ﷺ وقال : « لا والله لا يلقي حبيبه في النار » إسناده على شرط الصحيحين ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة ، ولكن في صحيح الإمام البخاري عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ رأى امرأة من السبي قد أخذت صبياً لها فألصقته إلى صدرها وأرضعته فقال ﷺ : « أترون هذه تلقي ولدها في النار وهي تقدر على ذلك ؟ » قالوا : لا . قال ﷺ : « فوالله لَلَّهُ أرحم بعباده من هذه بولدها ») .

....

ولننتقل إلى المقطع الخامس .

☆ ☆ ☆

المقطع الخامس

ويمتدّ من الآية (٤٥) إلى نهاية الآية (٤٨) وهذا هو :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ
وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ
ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾

كلمة في السياق :

١ – هذا المقطع مبدوء بـ (يا أيها النبي) فهو ألصق بسورة النساء ومحورها من سورة البقرة وسنرى ذلك تفصيلاً .

٢ – لاحظ الصلة بين قوله تعالى ههنا : ﴿ **ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم وتوكّل على الله وكفى بالله وكيلاً** ﴾ وبين قوله تعالى في أول السورة : ﴿ **يا أيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين إن الله كان عليماً حكيماً ...... وتوكّل على الله وكفى بالله وكيلاً** ﴾ .

٣ – بعد أمر المؤمنين بالذكر ، وبعد وعد الله إياهم فقد جاء الخطاب لرسول الله ﷺ بأنه بشير ونذير ، وشاهد وسراج منير ، فالمقطعان يكمّل أحدهما الآخر ، ففي الأول تبشير ، وفي الثاني كلام عن البشير النذير .

....

التفسير :

﴿ **يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً** ﴾ أي على من بُعثت إليهم على تكذيبهم وتصديقهم أي فقولك مقبول عند الله لهم وعليهم ، كما يقبل قول الشاهد العدل في الحكم . وقال ابن كثير في تفسير الشاهد هنا : (أي لله بالوحدانية ، وأنه لا إله غيره ، وعلى الناس بأعمالهم يوم القيامة) ﴿ **ومبشّراً** ﴾ أي بشيراً للمؤمنين

بجزيل الثواب ﴿ **ونذيراً** ﴾ أي للكافرين من وبيل العقاب ﴿ **وداعياً إلى الله بإذنه** ﴾ أي داعياً الخلق إلى عبادة ربهم عن أمره لك بذلك ، لا متكلفاً فيه من عند نفسك ، أو داعياً إلى الله بتيسيره ﴿ **وسراجاً منيراً** ﴾ قال ابن كثير : (أي وأمرك ظاهر فيما جئت به من الحق كالشمس في إشراقها وإضاءتها ، لا يجحدها إلا معاند) . قال النسفي في الآيتين : (أو شاهداً بوحدانيتنا ومبشِّراً برحمتنا ، ونذيراً بنقمتنا ، وداعياً إلى عبادتنا ، وسراجاً وحجة ظاهرة لحضرتنا) ﴿ **وبشِّر المؤمنين بأن لهم من الله فضلاً كبيراً** ﴾ أي ثواباً عظيماً ﴿ **ولا تطع الكافرين والمنافقين** ﴾ أي لا تطعهم ولا تسمع منهم في الذي يقولونه ﴿ **ودع أذاهم** ﴾ أي اجعل إيذاءهم إيّاك في جانب ولا تبال بهم ، ولا تخف من إيذائهم ﴿ **وتوكّل على الله وكفى بالله وكيلاً** ﴾ أي فإنه يكفيكهم وكفى به مفوّضاً إليه . قال النسفي تعليقاً على الآيات : (وقيل إن الله تعالى وصفه بخمسة أوصاف ، وقابل كلا منها بخطاب مناسب له ؛ قابل الشاهد بقوله : وبشّر المؤمنين ، لأنه يكون شاهداً على أمته ، وهم يكونون شهداء على سائر الأمم ، وهو الفضل الكبير ، والمبشر بالإعراض عن الكافرين والمنافقين ؛ لأنه إذا أعرض عنهم أقبل جميع إقباله على المؤمنين ، وهو مناسب للبشارة ، والنذير بدع أذاهم ؛ لأنه إذا ترك أذاهم في الحاضر والأذى لا بدّ له من عقاب عاجل أو آجل كانوا منذرين به في المستقبل ، والداعي إلى الله بتيسيره بقوله : وتوكل على الله ؛ فإن من توكّل على الله يسَّر عليه كل عسير ، والسراج المنير بالاكتفاء به وكيلاً ، لأن من أناره الله برهاناً على جميع خلقه كان جديراً بأن يكتفي به عن جميع خلقه) .

كلمة في السياق :

قلنا إنّ هذا المقطع يفصّل في محور سورة النساء ، لاحظ الآن ما يلي :

بعد قوله تعالى في سورة البقرة ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم ...** ﴾ يأتي قوله تعالى : ﴿ **وإن كنتم في ريب مما نزّلنا على عبدنا ...** ﴾ ثم يأتي قوله تعالى : ﴿ **وبشِّر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات ...** ﴾ وههنا نجد أنّ الله عز وجل وصف رسوله ﷺ بالبشير والنذير ، وأمره بالتبشير ﴿ **وبشر المؤمنين ...** ﴾ فالمقطع بعد أن يقرّر صفات رسول الله ﷺ يأمر بالتبشير ، وكل ذلك يتعلق بمحور سورة النساء من سورة البقرة حيث ينتهي ذاك المحور بقوله تعالى : ﴿ **وبشِّر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات ...** ﴾ .

فوائد :

١ - قال ابن كثير : (روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : لما نزلت ﴿ **يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشِّراً ونذيراً** ﴾ وقد كان أمر علياً ومعاذاً رضي الله عنهما أن يسيرا إلى اليمن فقال : « انطلقا فبشِّرا ولا تنفِّرا ، ويسِّرا ولا تعسِّرا ، إنه قد أُنزل علي ﴿ **يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشِّراً ونذيراً** ﴾ » . ورواه الطبراني بإسناده مثله ، وقال في آخره : « فإنه قد أُنزل عليّ يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً على أمتك ، ومبشراً بالجنة ، ونذيراً من النار ، وداعياً إلى شهادة أن لا إله إلا الله بإذنه ، وسراجاً منيراً بالقرآن ») .

٢ - حددت الآيات مهمة رسول الله ﷺ وهي الشهادة والتبشير والإنذار ، والدعوة إلى الله والإضاءة ، وينبغي لورّاث رسول الله ﷺ أن يكون لهم حظ من ذلك كله .

٣ - يستدل بعضهم بقوله تعالى : ﴿ **وداعياً إلى الله بإذنه** ﴾ على أن الدعوة إلى الله تحتاج إلى إذن خاص . وأقول : إن رسول الله ﷺ قد أذن إذناً عاماً لكل مسلم ، بل أمر كل مسلم أن يدعو إلى الله ضمن إمكانياته . قال عليه الصلاة والسلام : « بلِّغوا عني ولو آية ... » أما الإجازة من الشيوخ بالعلم والتربية ، فهذا أدب متوارث في هذه الأمة ، فإن كان المراد بالإذن الخاص هذا فهو صحيح . ولننتقل إلى المقطع السادس وهو آية واحدة .

☆ ☆ ☆

المقطع السادس

وهو الآية (٤٩) وهذه هي :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾

التفسير :

﴿ **يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم** ﴾ أي تزوجتم ﴿ **المؤمنات** ﴾ أي عقدتم عليهن ﴿ **ثم طلقتموهن من قبل أن تمسُّوهن** ﴾ أي تدخلوا بهن والخلوة الصحيحة كالمس ﴿ **فما لكم عليهن من عِدَّة تعتدُّونها** ﴾ أي تستوفون عددها . قال النسفي : (فيه دليل على أن العدّة تجب على النساء للرجال) ﴿ **فمتِّعوهن** ﴾ إما بدفع نصف المهر إن كان المهر مسمى بالعقد ، أو بدفع المتعة الخاصة بكسائها وإهدائها شيئاً ، والمتعة الخاصة تجب للتي طلقها قبل الدخول بها ولم يسم لها مهراً دون غيرها ﴿ **وسرِّحوهن سَراحاً جميلاً** ﴾ بأن لا تمسكوهن ضراراً ، وبأن تخرجوهن من منازلكم إن كن فيها إذ لا عدَّة لكم عليهن .

كلمة في السياق :

تأتي هذه الآية بعد المقطع الخامس كمقطع مستقل ، فهي نموذج على إضاءة هذا الإسلام للإنسان طريقه في كل شيء ﴿ **وسراجاً منيراً** ﴾ . وتأتي كنموذج على حكم من أحكام الإسلام الذي يدعو إليه رسول الله ﷺ فصلتها بما قبلها لا تخفى .

وأمّا محلّها في السّياق القرآني العام فهي آتية على حسب الترتيب الذي ذكرناه ، مفصّلة في محور سورة المائدة ، المبدوءة بقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا أوْفوا بالعقود** ﴾ فهي تفصّل في قضية مرتبطة بعقد الزواج الذي سمَّاه الله ميثاقاً غليظاً ، ومن ثَمَّ فالإخلال بمثل هذا يدخل في قوله تعالى : ﴿ **الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ...** ﴾ وهو محور سورة المائدة .

فوائد :

يبحث العلماء عند هذه الآية مباحث كثيرة ولنذكر نموذجين :

قال النسفي عند هذه الآية : (والنكاح هو الوطء في الأصل ، وتسمية العقد نكاحاً لملابسته له ؛ من حيث إنه طريق إليه ، كتسمية الخمر إثماً لأنها سببه ، وكقول الراجز أسنمة الآبال في سحابه ، سمى الماء بأسنمة الآبال لأنه سبب سمن الآبال وارتفاع أسنمتها ، ولم يرد لفظ النكاح في كتاب الله تعالى إلا في معنى العقد ، لأنه في معنى الوطء من باب التصريح به ومن آداب القرآن الكناية عنه بلفظ الملامسة ، والمماسة ، والقربان ، والتغشي ، والإتيان . وفي تخصيص المؤمنات مع أن الكتابيات تساوي المؤمنات في هذا الحكم إشارة إلى أن الأولى بالمؤمن أن ينكح مؤمنة) .

وقال ابن كثير : (هذه الآية الكريمة فيها أحكام كثيرة ، منها إطلاق النكاح على العقد وحده ، وليس في القرآن آية أصرح في ذلك منها ، وقد اختلفوا في النكاح هل هو حقيقة في العقد وحده ، أو في الوطء ، أو فيهما ؟ على ثلاثة أقوال ، واستعمال القرآن إنما هو في العقد ، والوطء بعده إلا في هذه الآية فإنه استعمل في العقد وحده ، لقوله تبارك وتعالى : ﴿ **إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسُّوهن** ﴾ وفيها دلالة لإباحة طلاق المرأة قبل الدخول بها ، وقوله تعالى : ﴿ **المؤمنات** ﴾ خرج مخرج الغالب ؛ إذ لافرق في الحكم بين المؤمنة والكتابية في ذلك بالاتفاق ، وقد استدل ابن عباس رضي الله عنهما ، وسعيد بن المسيب ، والحسن البصري وعلي بن الحسين زين العابدين وجماعة من السلف بهذه الآية على أن الطلاق لا يقع إلا إذا تقدَّمه نكاح ؛ لأن الله تعالى قال : ﴿ **إذا نكحتم المؤمنات ثم طلَّقتموهن** ﴾ فعقّب النّكاح بالطلاق ، فدلّ على أنّه لا يصح ، ولا يقع قبله ، وهذا مذهب الشافعي وأحمد بن حنبل ، وطائفة كثيرة من السلف والخلف رحمهم الله تعالى ، وذهب مالك وأبو حنيفة رحمهما الله تعالى إلى صحة الطلاق قبل النكاح فيما إذا قال : إن تزوجت فلانة فهي طالق ، فعندهما متى تزوجها طلقت منه ، واختلفا فيما إذا قال كل امرأة أتزوجها فهي طالق فقال مالك : لا تطلق حتى يعيّن المرأة ، وقال أبو حنيفة رحمه الله : كل امرأة يتزوجها بعد هذا الكلام تطلق منه ، فأما الجمهور فاحتجوا على عدم وقوع الطلاق بهذه الآية . روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : إذا قال : كل امرأة أتزوجها فهي طالق ، قال : ليس بشيء من أجل أن الله تعالى يقول : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إذا**

نكحتم المؤمنات ثم طلّقتموهن ﴾ الآية ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : إنما قال الله عز وجل : ﴿ **إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن** ﴾ ألا ترى أن الطلاق بعد النكاح وهكذا روى ابن إسحاق عن داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال الله تعالى : ﴿ **إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن** ﴾ فلا طلاق قبل النكاح ، وقد ورد الحديث بذلك عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله ﷺ : « لا طلاق لابن آدم فيما لا يملك » رواه أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه ، وقال الترمذي هذا حديث حسن ، وهو أحسن شيء روي في هذا الباب ، وهكذا روى ابن ماجه عن عليّ والمسور بن مخرمة رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لا طلاق قبل النكاح » ، وقوله عز وجل : ﴿ **فما لكم عليهن من عدّة تعتدُّونها** ﴾ هذا أمر مجمع عليه بين العلماء : أن المرأة إذا طلقت قبل الدخول بها لا عدّة عليها ، فتذهب فتتزوج من فورها من شاءت ، ولا يستثنى من هذا إلا المتوفى عنها زوجها ، فإنها تعتد منه أربعة أشهر وعشراً ، وإن لم يكن دخل بها بالإجماع أيضاً ، وقوله تعالى : ﴿ **فمتّعوهن وسرّحوهن سراحاً جميلاً** ﴾ المتعة ههنا أعم من أن تكون نصف الصداق المسمى ، أو المتعة الخاصة إن لم يكن قد سمى لها . قال الله تعالى : ﴿ **وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم** ﴾ وقال عز وجل : ﴿ **لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن أو تفرضوا لهن فريضة ومتّعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعاً بالمعروف حقاً على المحسنين** ﴾ وفي صحيح البخاري عن سهل بن سعد وأبي أسيد رضي الله عنهما قالا : إن رسول الله ﷺ تزوّج أميمة بنت شراحيل فلما أن دخلت عليه ﷺ بسط يده إليها فكأنما كرهت ذلك ؛ فأمر أبا أسيد أن يجهّزها ويكسوها ثوبين رازقيين . قال علي بن أبي طلحة رضي الله عنهما : إن كان سمى لها صداقاً فليس لها إلا النصف ، وإن لم يكن سمى لها صداقاً أمتعها على قدر عسره ويسره وهو السراح الجميل) .

ولننتقل إلى المقطع السابع .

☆ ☆ ☆

المقطع السابع

ويمتدّ من الآية (٥٠) إلى نهاية الآية (٥٢) وهذا هو :

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٥٠) * تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا (٥١) لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا (٥٢)

ملاحظات في السياق :

قلنا إن سورة الأحزاب تتناوب فيها المقاطع فمقطع فيه نَفَس سورة النساء ، ومقطع فيه نَفَس سورة المائدة ، وعلى حسب ما ذكرنا فالمقطع الذي بين أيدينا فيه نَفَس سورة النساء ، لأنه مبدوء بقوله تعالى : ﴿ **يا أيها النبي** ﴾ لاحظ ما يلي :

١ - إن أول آية في سورة النساء تنتهي بقوله تعالى : ﴿ **واتقوا الله**

الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً ﴾ .

ونلاحظ هنا أن آخر آية في المقطع تنتهي بقوله تعالى : ﴿ **وكان الله على كل شيء رقيباً** ﴾ .

٢ - جاء في سورة النساء قوله تعالى ﴿ **فانكحوا ما طاب لكم من النّساء مثنى وثلاث ورباع** ﴾ في حق المؤمنين وههنا جاء خطاب لرسول الله ﷺ ﴿ **إنا أحللنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهن ...** ﴾ .

٣ - جاء في حق المسلمين عامة قوله تعالى في سورة النساء : ﴿ **حرّمت عليكم أمهاتكم وبناتكم ...** ﴾ وههنا جاء خطاب لرسول الله ﷺ ﴿ **لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدّل بهنّ من أزواج ...** ﴾ .

٤ - كثيرون من الناس يتصوّرون أن الزّواج يتنافى مع العبادة بل يزعم بعضهم أن الزواج يتنافى مع مقام رجل الدّين وقد جاء هذا المقطع بهدم هذه المزاعم في سورة تهدّم الكثير من عادات الجاهلية وأفكارها ، ومن هذه الحيثية فالمقطع مرتبط بقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم** ﴾ وهو محور سورة النساء من سورة البقرة .

التفسير :

﴿ **يا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهن** ﴾ أي مهورهن وإيتاء المهر إعطاؤه عاجلاً أو فرضه وتسميته في العقد ﴿ **وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك** ﴾ أي وأباح لك التسري بالمملوكات ، سواء في ذلك ما أخذ من المغانم ، أو ما ملكه بطريق أخرى ، وقد ملك صفية وجويرية فأعتقهما وتزوجهما . قال ابن كثير : (وملك ريحانة بنت شمعون النضرية ، ومارية القبطية أم ابنه إبراهيم عليهما السلام ، وكانتا من السراري رضي الله عنهما) ﴿ **وبنات عَمّك وبنات عمّاتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتي هاجرن معك** ﴾ فهم بعضهم أنّه لا يحل له من بنات عَمّه وعماته وأخواله وخالاته إلا من هاجرن إلى المدينة ﴿ **وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي** ﴾ أي وأحللنا لك من وقع لها أن تهب لك نفسها ، ولا تطلب مهراً من النساء المؤمنات إن اتفق ذلك ﴿ **إن أراد النبي أن يستنكحها** ﴾ أي إن أراد النبي ﷺ استنكاحها كأنه قال : أحللناها لك إن وهبت لك نفسها ، وأنت تريد أن تستنكحها ، لأن هبتها نفسها هبة ، والهبة تقتضي قبولاً من المهدى له ، ﴿ **خالصة لك من دون**

المؤمنين ﴾ فالزواج بلا مهر خاص به عليه الصلاة والسلام ، ولذلك فإن المهر واجب على غيره وإن لم يسمِّه أو نفاه ، قال ابن كثير في الآية : (أي ويحل لك أيها النبي المرأة المؤمنة إن وهبت نفسها لك أن تتزوجها بغير مهر إن شئت ذلك) ﴿ **قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم** ﴾ أي ما أوجبنا من المهور على أمتك في زوجاتهم ، أو ما أوجبنا عليهم في أزواجهم من الحقوق . قال ابن كثير : (أي من حصرهم في أربع نسوة حرائر ، وما شاؤوا من الإماء واشتراط الولي والمهر والشهود عليهم وهم الأمة ، وقد رخّصنا لك في ذلك فلم نوجب عليك شيئاً منه) ﴿ **وما ملكت أيمانهم** ﴾ بالشراء وغيره من وجوه الملك ، أي قد علمنا ما فرضناه عليهم في أزواجهم وإمائهم ، وخصَّصْناك بأحكام خاصة دون المؤمنين ﴿ **لكيلا يكون عليك حرج** ﴾ أي ضيق ﴿ **وكان الله غفوراً رحيماً** ﴾ بالتوسعة على عباده . دلّت الآية على أن الحكمة في التوسعة على رسول الله ﷺ في أمر الزواج هي نفي الحرج عنه بحكم أن مسؤولياته واسعة ، وعلاقاته الاجتماعية متشابكة ، ومهمته صعبة ، وليس غيره مثله في هذا كله ﴿ **ترجي من تشاء منهن** ﴾ أي تؤخر من تشاء من الواهبات ﴿ **وتؤوي إليك من تشاء** ﴾ أي تضم أي وتمسك إليك من تشاء ، من شئت قبلتها ، ومن شئت رددتها ﴿ **ومن ابتغيت مِمَّن عزلت فلا جناح عليك** ﴾ أي ومن رددتها فأنت فيها أيضاً بالخيار بعد ذلك ، إن شئت عدت فيها فآويتها فلا إثم عليك في ذلك . قال ابن كثير : (وقال آخرون : بل المراد بقوله تعالى ﴿ **ترجي من تشاء منهن** ﴾ الآية . أي من أزواجك لا حرج عليك أن تترك القَسْمَ لهن فتقدم من شئت ، وتؤخر من شئت ، وتترك من شئت ... ومع هذا كان النبي ﷺ يقسم لهن ، ولهذا ذهب طائفة من الفقهاء من الشافعية وغيرهم ، إلى أنه لم يكن القَسْم واجباً عليه ﷺ ، واحتجوا بهذه الآية ...) . واختار ابن جرير أن الآية عامة في الواهبات وفي النساء اللاتي عنده أنه مخيّر فيهنّ إن شاء قسم ، وإن شاء لم يقسم . قال ابن كثير : (وهذا الذي اختاره حسن جيد قوي وفيه جمع بين الأحاديث) ﴿ **ذلك أدنى** ﴾ أي أقرب ﴿ **أن تقر أعينهن ولا يحزنّ ويرضين بما آتيتهن كلهن** ﴾ أي ذلك التفويض إلى مشيئتك أقرب إلى قرّة أعينهنّ ، وقلة حزنهنّ ورضاهنّ جميعاً ، لأنهنّ إذا علمن أنّ هذا التفويض من عند الله اطمأنّت نفوسهنّ ، وذهب التغاير ، وحصل الرضا ، وقرّت العيون . قال ابن كثير : (أي إذا علمن أنّ الله تعالى قد وضع عنك الحرج في القَسْم فإن شئت قسمت وإن شئت لم تقسم ، لا جناح عليك في أيّ ذلك فعلت ثم مع هذا أن تقسم لهن

اختياراً منك لا أنه على سبيل الوجوب ، فرحن بذلك واستبشرن به وحملن جميلك في ذلك واعترفن بمنتك عليهن في قسمتك لهن ، وتسويتك بينهن ، وإنصافك لهن ، وعدلك فيهن ﴿ **والله يعلم ما في قلوبكم** ﴾ أي من الميل إلى بعضهن دون بعض مما لا يمكن دفعه) . قال النسفي : فيه وعيد لمن لم ترض منهنّ بما دبّر الله من ذلك وفوّض إلى مشيئة رسوله ﴿ **وكان الله عليماً** ﴾ بذات الصدور ﴿ **حليماً** ﴾ لا يعاجل بالعقوبة ، فهو حقيق بأن يتقى ويحذر ﴿ **لا يحل لك النساء من بعد** ﴾ قال النسفي : من بعد التسع ؛ لأن التسع نصاب رسول الله ﷺ من الأزواج ، كما أن الأربع نصاب أمته ﴿ **ولا أن تبدّل بهن** ﴾ أي بالطلاق ﴿ **من أزواج** ﴾ أي ولا أن تستبدل بهؤلاء التسع أزواجاً أُخَر بكلهن أو بعضهن كرامة لهن ، وجزاءً على ما اخترن ورضين ﴿ **ولو أعجبك حسنهن** ﴾ أي فلا يحللن لك ﴿ **إلا ما ملكت يمينك** ﴾ استثنى مما حرم عليه الإماء ﴿ **وكان الله على كل شيء رقيباً** ﴾ أي حافظاً . وهو تحذير عن مجاوزة حدوده وذهبت عائشة وأم سلمة رضي الله عنهما أن حكم هذه الآية قد نُسخ ، وأبيح لرسول الله ﷺ أن يتزوج ما شاء ، إلا أنه لم يفعل . وقد قال ابن كثير في مقدمة كلامه عن هذه الآية :

(ذكر غير واحد من العلماء كابن عباس ومجاهد والضحاك وقتادة وابن زيد وابن جرير وغيرهم أن هذه الآية نزلت مجازاة لأزواج النبي ﷺ ، ورضاً عنهن على حسن صنيعهن في اختيارهن الله ورسوله والدار الآخرة لما خيّرهن رسول الله ﷺ كما تقدم في الآية ، فلما اخترن رسول الله ﷺ كان جزاؤهن أن الله تعالى قصره عليهن ، وحرّم عليه أن يتزوج بغيرهن ، أو يستبدل بهن أزواجاً غيرهن ، ولو أعجبه حسنهن ، إلا الإماء والسراري ، فلا حرج عليه فيهن ، ثم إنه تعالى رفع عنه الحرج في ذلك ، ونسخ حكم هذه الآية ، وأباح له التزوج ، ولكن لم يقع منه بعد ذلك تزوج ؛ لتكون المنة لرسول الله ﷺ عليهن) .

كلمة في السياق :

سجّلت هذه الآيات أحكاماً في موضوع زواج رسول الله ﷺ مبينة أن رسول الله ﷺ لم يكن يفعل إلا ما أحلّه الله له ، فالإنكار على رسول الله ﷺ في هذا الأمر إنكار على الله عز وجل ، ومن ثَمّ ورد في الآية الثانية قوله تعالى : ﴿ **والله يعلم ما في قلوبكم** ﴾ وفي ذلك تحذير أيما تحذير .

فالآيات هذه تبيّن لنا أحكاماً من أحكام الله عز وجل ينبغي الإيمان بها والتسليم لها ، فإذا تذكّرنا أن محور هذه الآيات هو محور سورة النساء ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون** ﴾ أدركنا أن زواج رسول الله ﷺ هو من العبادة ، ومن التقوى ، وفي عصرنا حيث ركّز أعداء الله كثيراً على موضوع زواج رسول الله ﷺ بأكثر من واحدة ، نعرف حكمة البيان في هذه الآيات ، وصلة ذلك بمحور السّورة ، وقد بيّنا في كتابنا (الرسول ﷺ) حكمة تعدد زوجات النبي ﷺ فليراجع . يبقى أن نعرف صلة هذه الآيات بسياق السورة الخاص :

جاءت قبل هذا المقطع آية تتحدَّث عن بعض أحكام النكاح في الإسلام ، ثمّ جاء هذا المقطع وفيه أحكام خاصة في شأن زواج رسول الله ﷺ فالصلة قائمة بين المقطع وما سبقه بشكل مباشر .

وإذا تذكّرنا بداية السورة الآمرة بالتقوى ، وترك طاعة الكافرين والمنافقين ، والآمرة باتباع الوحي وبالتوكّل ، فإننا نجد المقطع بمجموعه مرتبطاً بهذه المقدمة ، ألا نرى أن الكافرين والمنافقين يطعنون بهذا الجانب من حياة رسول الله ﷺ ، وأن مجموع الأحكام الواردة في الآيات من الوحي الواجب الاتباع ، الموجب للتوكل ، الذي يشكل جزءاً من التقوى .

فوائد :

١ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وبنات عمِّك وبنات عمَّاتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتي هاجرن معك** ﴾ قال ابن كثير : (روى ابن أبي حاتم عن أم هانىء قالت : خطبني رسول الله ﷺ فاعتذرت إليه فعذرني ، ثم أنزل الله تعالى : ﴿ **إنا أحللنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهن وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك وبنات عمِّك وبنات عمَّاتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتي هاجرن معك** ﴾ قلت : فلم أكن أحل له لم أكن ممّن هاجرن معه كنت من الطلقاء) .

٢ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي** ﴾ قال ابن كثير : (وقد روى الإمام أحمد عن سهل بن سعد الساعدي قال : إنّ رسول الله ﷺ جاءته امرأة فقالت : يا رسول الله إني قد وهبت نفسي لك ، فقامت قياماً طويلاً ، فقام رجل فقال : يا رسول الله زوجنيها إن لم يكن لك بها حاجة ، فقال رسول الله

ﷺ : « هل عندك من شيء تصدقها إياه ؟ » فقال : ما عندي إلا إزاري هذا ، فقال رسول الله ﷺ : « إن أعطيتها إزارك جلست لا إزار لك ، فالتمس شيئاً » فقال : لا أجد شيئاً ، فقال : « التمس ولو خاتماً من حديد » فالتمس فلم يجد شيئاً ، فقال له النبي ﷺ : « هل معك من القرآن شيء ؟ » قال : نعم سورة كذا وسورة كذا - لسور يسميها - فقال له النبي ﷺ : « زوجتكها بما معك من القرآن » أخرجاه من حديث مالك . وروى الإمام أحمد عن ثابت قال : كنت مع أنس جالساً وعنده ابنة له فقال أنس : جاءت امرأة إلى النبي ﷺ فقالت : يا نبي الله هل لك فيّ حاجة ؟ فقالت ابنته : ما كان أقل حياءها ، فقال : هي خير منك رغبت في النبي ﷺ فعرضت عليه نفسها . انفرد بإخراجه البخاري . وروى الإمام أحمد أيضاً عن أنس بن مالك أن امرأة أتت النبي ﷺ فقالت : يا رسول الله ابنة لي كذا وكذا فذكَرت من حسنها وجمالها فآثرتك بها ، فقال : « قد قبلتها » فلم تزل تمدحها حتى ذكرت أنها لم تصدع ولم تشك شيئاً قط فقال : « لا حاجة لي في ابنتك » لم يخرجوه . وروى ابن أبي حاتم عن عائشة قالت : التي وهبت نفسها للنبي ﷺ خولة بنت حكيم . وروى ابن وهب عن هشام ابن عروة عن أبيه أن خولة بنت حكيم بن الأوقص من بني سليم كانت من اللاتي وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ . وفي رواية له عن سعيد بن عبد الرحمن عن هشام عن أبيه : كنا نتحدث أن خولة بنت حكيم كانت وهبت نفسها لرسول الله ﷺ وكانت امرأة صالحة ، فيحتمل أن أم سليم هي خولة بنت حكيم ، أو هي امرأة أخرى . وروى ابن أبي حاتم عن محمد بن كعب وعمرو بن الحكم وعبد الله بن عبيدة قالوا : تزوّج رسول الله ﷺ ثلاث عشرة امرأة ، ستاً من قريش : خديجة ، وعائشة ، وحفصة ، وأم حبيبة ، وسودة ، وأم سلمة ، وثلاثاً من بني عامر بن صعصعة ، وامرأتين من بني هلال بن عامر : ميمونة بنت الحارث وهي التي وهبت نفسها للنبي ﷺ وزينب أم المساكين ، وامرأة من بني بكر بن كلاب من القرظيات ، وهي التي اختارت الدنيا . وامرأة من بني الجون وهي التي استعاذت منه ، وزينب بنت جحش الأسدية ، والسبيّتين صفية بنت حيي بن أخطب ، وجويرية بنت الحارث بن عمرو بن المصطلق الخزاعية . وقال سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن ابن عباس ﴿ **وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي** ﴾ قال : هي ميمونة بنت الحارث . فيه انقطاع هذا مرسل . والمشهور أن زينب التي كانت تدعى أم المساكين هي زينب بنت خزيمة الأنصارية ، وقد ماتت عند النبي ﷺ في حياته . والله أعلم . والغرض من هذا أن اللاتي وهبن أنفسهن للنبي

ﷺ كثير كما روى البخاري عن عائشة قالت : كنت أغار من اللاتي وهبن أنفسهن للنبي ﷺ وأقول : أتهب المرأة نفسها ، فلما أنزل الله تعالى : ﴿ **ترجي من تشاء منهن وتؤوي إليك من تشاء ومن ابتغيت مِمَّن عزلت فلا جناح عليك** ﴾ قلت : ما أرى ربك إلا يسارع في هواك . وقد روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : لم يكن عند رسول الله ﷺ امرأة وهبت نفسها له . ورواه ابن جرير عن أبي كريب عن يونس ابن بكير أي أنه لم يقبل واحدة ممن وهبت نفسها له ، وإن كان ذلك مباحاً له ، ومخصوصاً به ، لأنه مردود إلى مشيئته كما قال الله تعالى : ﴿ **إن أراد النبي أن يستنكحها** ﴾ أي إن اختار ذلك) . بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **خالصة لك من دون المؤمنين** ﴾ قال ابن كثير : (قال عكرمة : أي لا تحل الموهوبة لغيرك ، ولو أن امرأة وهبت نفسها لرجل لم تحل حتى يعطيها شيئاً ، وكذا قال مجاهد والشعبي وغيرهما ، أي أنها إذا فوَّضت المرأة نفسها إلى رجل فإنه متى دخل بها وجب عليه لها مهر مثلها ، كما حكم به رسول الله ﷺ في بروع بنت واشق لما فوَّضت فحكم لها رسول الله ﷺ بصداق مثلها ، لما توفي عنها زوجها ، والموت والدخول سواء في تقرير المهر ، وثبوت مهر المثل في المفوضة لغير النبي ﷺ ، فأمّا هو عليه الصلاة والسلام فإنه لا يجب عليه للمفوضة شيء ، ولو دخل بها ، لأن له أن يتزوج بغير صداق ، ولا ولي ، ولا شهود ، كما في قصة زينب بنت جحش رضي الله عنها ولهذا قال قتادة في قوله ﴿ **خالصة لك من دون المؤمنين** ﴾ يقول : ليس لامرأة تهب نفسها لرجل بغير ولي ولا مهر إلا للنبي ﷺ) .

٣ - قدّم ابن كثير للآية الأولى من المقطع بقوله :

(يقول تعالى مخاطباً نبيه ﷺ بأنه قد أحل له من النساء أزواجه اللاتي أعطاهن مهورهن ، وهي الأجور ههنا كما قاله مجاهد وغير واحد ، وقد كان مهره لنسائه اثنتي عشرة أوقية ، ونشّاً : وهو نصف أوقية ، فالجميع خمسمائة درهم ، إلا أم حبيبة بنت أبي سفيان فإنه أمهرها عنه النجاشي رحمه الله تعالى أربعمائة دينار ، وإلا صفية بنت حيي فإنه اصطفاها من سبي خيبر ، ثم أعتقها وجعل عتقها صداقها ، وكذلك جويرية بنت الحارث المصطلقية أدى عنها كتابتها إلى ثابت بن قيس بن شمّاس وتزوّجها - رضي الله عنهن أجمعين) .

٤ - رأينا أثناء التفسير أن هناك اتجاهين رئيسين في تفسير قوله تعالى : ﴿ **ترجي**

من تشاء منهن وتؤوي إليك من تشاء ﴾ وهناك اتجاهات أخرى في الآية ، وقد لخّص النّسفي كل الاتجاهات في الآية مفسّراً قوله تعالى : ﴿ **ترجي من تشاء منهن وتؤوي إليك من تشاء** ﴾ فقال : (بمعنى تترك مضاجعة من تشاء منهن ، وتضاجع من تشاء ، أو تطلّق من تشاء ، وتمسك من تشاء ، أو لا تقسم لأيتهن شئت ، وتقسم لمن شئت ، أو تترك تزوج من شئت من نساء أمتك ، وتتزوّج من شئت ، وهذه قسمة جامعة لما هو الغرض لأنه إما أن يطلّق وإما أن يمسك ، فإذا أمسك ضاجع ، أو ترك ، وقسم ، أو لم يقسم ، وإذا طلّق وعزل ، فإما أن يخلي المعزولة لا يبتغيها أو يبتغيها . وروي أنه أرجى منهن جويرية ، وسودة ، وصفية ، وميمونة ، وأم حبيبة ، وكان يقسم لهن ما شاء كما شاء ، وكانت ممن آوى إليه عائشة ، وحفصة ، وأم سلمة ، وزينب ، أرجى خمساً ، وآوى أربعاً ، وروي أنه كان يسوّي مع ما أطلق له ، وخيّر فيه ، إلا سودة فإنها وهبت ليلتها لعائشة ، وقالت لا تطلقني حتى أحشر في زمرة نسائك) .

٥ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **والله يعلم ما في قلوبكم** ﴾ قال ابن كثير : (أي من الميل إلى بعضهن دون بعض ، مما لا يمكن دفعه كما روى الإمام أحمد ... عن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ يقسم بين نسائه ، فيعدل ثم يقول : « اللهم هذا فعلي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك » . رواه أهل السنن الأربعة وزاد أبو داود بعد قوله : « فلا تلمني فيما تملك ولا أملك » يعني القلب . وإسناده صحيح ورجاله كلهم ثقات) .

٦ - رأينا في تفسير قوله تعالى : ﴿ **لا يحل لك النساء من بعد ...** ﴾ أن الاتجاه الرئيسي في الآية أنها منسوخة ، إلا أن هناك اتجاهاً في الفهم يوجه الآية بما يجمع بين الآيات بلا نسخ . وقد ذكر ابن كثير أدلة القائلين بالنسخ ثم ذكر الأقوال الأخرى . قال ابن كثير :

(روى الإمام أحمد عن عائشة رضي الله عنها قالت : ما مات رسول الله ﷺ حتى أحلّ الله له النّساء ، ورواه أيضاً من حديث ابن جريج عن عطاء عن عبيد بن عمير عن عائشة ، ورواه الترمذي والنسائي في سننيهما . وروى ابن أبي حاتم عن أم سلمة أنها قالت : لم يمت رسول الله ﷺ حتى أحل الله له أن يتزوج من النساء ما شاء ، إلا ذات محرم . وذلك قوله تعالى : ﴿ **ترجي من تشاء منهن** ﴾ الآية فجعلت هذه ناسخة للتي بعدها في التلاوة ، كآيتي عدة الوفاة في سورة البقرة ، الأولى ناسخة

للتي بعدها والله أعلم . وقال آخرون : بل معنى الآية ﴿ **لا يحل لك النساء من بعد** ﴾ أي من بعد ما ذكرنا لك من صفة النساء اللاتي أحللنا لك ، من نسائك اللاتي آتيت أجورهن ، وما ملكت يمينك ، وبنات العم والعمات والخال والخالات والواهبة وما سوى ذلك من أصناف النساء ، فلا يحل لك ، وهذا مروي عن أُبيّ بن كعب ومجاهد في رواية عنه وعكرمة والضحاك في رواية وأبي رزين في رواية عنه وأبي صالح والحسن وقتادة في رواية والسدي وغيرهم . روى ابن جرير عن رجل من الأنصار قال : قلت لأبيّ بن كعب : أرأيت لو أن أزواج النبي ﷺ توفين أما كان له أن يتزوج ؟ فقال : وما يمنعه من ذلك ؟ قال : قلت : قول الله تعالى : ﴿ **لا يحل لك النساء من بعد** ﴾ فقال : إنما أحل الله له ضرباً من النساء فقال : تعالى : ﴿ **يا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك** ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ **إن وهبت نفسها للنبي** ﴾ ثم قيل له : ﴿ **لا يحل لك النساء من بعد** ﴾ ورواه عبد الله بن أحمد ، وروى الترمذي عن ابن عباس قال : نُهي رسول الله ﷺ عن أصناف من النساء إلا ما كان من المؤمنات المهاجرات ، بقوله تعالى : ﴿ **لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدَّل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن إلا ما ملكت يمينك** ﴾ فأحل الله فتياتكم المؤمنات ، وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي ، وحرم كل ذات دين غير الإسلام ، ثم قال ﴿ **ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله** ﴾ الآية . وقال تعالى : ﴿ **يا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهن** ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ **خالصة لك من دون المؤمنين** ﴾ وحرم ما سوى ذلك من أصناف النساء . وقال مجاهد ﴿ **لا يحل لك النساء من بعد** ﴾ أي من بعد ما سمّى لك من مسلمة ولا يهودية ولا نصرانية ولا كافرة . وقال أبو صالح ﴿ **لا يحل لك النساء من بعد** ﴾ أُمر أن لا يتزوج أعرابية ولا عربية ، ويتزوج بعد من نساء تهامة ، وما شاء من بنات العم والعمة ، والخال والخالة ، إن شاء ثلاثمائة ، وقال عكرمة ﴿ **لا يحل لك النساء من بعد** ﴾ أي التي سمّى الله . واختار ابن جرير رحمه الله أن الآية عامّة فيمن ذكر من أصناف النساء ، وفي اللواتي في عصمته وكن تسعاً ، وهذا الذي قاله جيد ولعله مراد كثير ممن حكينا عنه من السلف ، فإن كثيراً منهم روي عنه هذا وهذا ولا منافاة والله أعلم . ثم أورد ابن جرير على نفسه ما روى أن رسول الله ﷺ طلّق حفصة ، ثم راجعها ، وعزم على فراق سودة حتى وهبت يومها لعائشة ، ثم أجاب بأن هذا كان قبل نزول قوله تعالى : ﴿ **لا يحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج** ﴾ الآية ، وهذا الذي قاله من أن هذا كان

قبل نزول الآية صحيح ، ولكن لا يحتاج إلى ذلك ، فإن الآية إنما دلت على أنه لا يتزوج بمن عدا اللواتي في عصمته ، وأنه لا يستبدل بهن غيرهن ، ولا يدل ذلك على أنه لا يطلق واحدة منهن من غير استبدال فالله أعلم ، فأما قضية سودة ففي الصحيح عن عائشة رضي الله عنها وهي سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحاً** ﴾ الآية . وأما قضية حفصة فروى أبو داود والنسائي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه من طرق ... عن عمر أن رسول الله ﷺ طلّق حفصة ثم راجعها ، وهذا إسناد قوي . وروى الحافظ أبو يعلى عن ابن عمر قال : دخل عمر على حفصة وهي تبكي فقال : ما يبكيك ؟ لعلّ رسول الله ﷺ طلقك ، إنه كان طلقك مرة ثم راجعك من أجلي . والله لئن كان طلقك مرة أخرى لا أكلمك أبداً . ورجاله على شرط الصحيحين .

٧ - رأينا أن في قوله تعالى ﴿ **ولا أن تبدّل بهن من أزواج** ﴾ نهياً عن الطلاق ، وعن الاستبدال بالزوجة المطلقة زوجة أخرى ، وهناك اتجاه ذكره ابن كثير بقوله :

(وقد روى الحافظ أبو بكر البزار حديثاً مناسباً ذكره ههنا عن أبي هريرة قال : كان البدل في الجاهلية أن يقول الرجل للرجل : بادلني امرأتك أبادلك بامرأتي ، أي تنزل لي عن امرأتك وأنزل لك عن امرأتي فأنزل الله ﴿ **ولا أن تبدّل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن** ﴾ قال : فدخل عيينة بن حصن الفزاري على النبي ﷺ وعنده عائشة فدخل بغير إذن فقال له رسول الله ﷺ : « فأين الاستئذان ؟ » فقال : يا رسول الله ما استأذنت على رجل من مضر منذ أدركت ، ثم قال : من هذه الحميراء إلى جنبك ؟ فقال رسول الله ﷺ : « هذه عائشة أم المؤمنين ، قال : أفلا أنزل لك عن أحسن الخلق ؟ قال : « يا عيينة إن الله قد حرم ذلك » فلما أن خرج قالت عائشة : من هذا ؟ قال : « هذا أحمق مطاع ، وإنه على ما ترين لسيّد قومه » . ثم قال البزار : إسحاق بن عبد الله ليّن الحديث جداً ، وإنما ذكرناه لأنا لم نحفظه إلا من هذا الوجه وبيّنا العلة فيه) .

ولننتقل إلى المقطع الثامن .

☆ ☆ ☆

المقطع الثامن

ويمتدّ من الآية (٥٣) إلى نهاية الآية (٥٨) وهذا هو :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِيَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِن تُبْدُواْ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾ لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحْتَمَلُواْ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾

التفسير :

﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يُؤذن لكم** ﴾ أي إلا مأذوناً

لكم ، أو إلا وقت أن يُؤذن لكم ﴿ **إلى طعام غير ناظرين إناه** ﴾ أي نضجه ، قال قتادة ومجاهد وغيرهما : أي غير متحيِّنين نضجه واستواءه . أي لا ترقبوا الطعام إذا طبخ حتى إذا قارب الاستواء تعرضتم للدخول فإنّ هذا مما يكرهه الله ويذمّه ، وهذا دليل على تحريم التطفل ﴿ **ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا** ﴾ أي فتفرقوا . في صحيح مسلم عن رسول الله ﷺ قال : « إذا دعا أحدكم أخاه فليجب عرساً أو غيره » ، وفي الصحيح : « لو دعيت إلى ذراع لأجبت ، ولو أُهدي إلي كراع لقبلت ، فإذا فرغتم من الذي دعيتم إليه فخففوا عن أهل المنزل ، وانتشروا في الأرض » ﴿ **ولا مستأنسين لحديث** ﴾ نهوا عن أن يطيلوا الجلوس ، يستأنس بعضهم ببعض لأجل حديث يحدثه به ﴿ **إن ذلكم كان يؤذي النبي فيستحيي منكم** ﴾ أي من أجل إخراجكم ﴿ **والله لا يستحيي من الحق** ﴾ أي لا يمتنع منه ولا يتركه ترك الحييّ منكم ، ولهذا نهاكم عن ذلك ، وزجركم عنه ، يعني : أن إخراجكم حق ما ينبغي أن يستحيا منه ، قال النسفي : (هذا أدب أدّب الله به الثقلاء) ﴿ **وإذا سألتموهن** ﴾ أي إذا سألتم نساء رسول الله ﷺ لدلالة بيوت النبي لأن فيها نساءه ﴿ **متاعاً** ﴾ أي عارية أو حاجة ﴿ **فاسألوهن** ﴾ المتاع ﴿ **من وراء حجاب** ﴾ . قال ابن كثير : (أي وكما نهيتكم عن الدخول عليهن ، كذلك لا تنظروا إليهن بالكلية ، ولو كان لأحدكم حاجة يريد تناولها منهن فلا ينظر إليهن ، ولا يسألهن حاجة إلا من وراء حجاب) ﴿ **ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن** ﴾ من خواطر الشيطان ، وعوارض الفتن ﴿ **وما كان لكم** ﴾ أي وما صح لكم ﴿ **أن تؤذوا رسول الله** ﴾ ﷺ ﴿ **ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً** ﴾ أي وما صح لكم إيذاء رسول الله ﷺ ، ولا نكاح أزواجه من بعد موته ﴿ **إن ذلكم كان عند الله عظيماً** ﴾ أي ذنباً عظيماً . قال ابن كثير : (هذه آية الحجاب ، وفيها أحكام وآداب شرعية) . ثم قال تعالى : ﴿ **إن تبدوا شيئاً** ﴾ من إيذاء النبي ﷺ أو من نكاحهن ﴿ **أو تخفوه** ﴾ في أنفسكم ﴿ **فإن الله كان بكل شيء عليماً** ﴾ فيعاقبكم به ، ثمّ بيّن الله عز وجل الدائرة التي لا يجب الاحتجاب منها فقال : ﴿ **لا جناح** ﴾ أي لا إثم ﴿ **عليهن في آبائهن ولا أبنائهن ولا إخوانهن ولا أبناء إخوانهن ولا أبناء أخواتهن ولا نسائهن** ﴾ أي نساء المؤمنات ﴿ **ولا ما ملكت أيمانهن** ﴾ قال ابن كثير : (يعني به أرقاءهن من الذكور والإناث ، كما تقدّم التنبيه عليه ، وإيراد الحديث فيه ، قال سعيد بن المسيب : إنما يعني به الإماء فقط ، رواه ابن أبي حاتم) .

أقول : وهذا الأخير هو مذهب الحنفية ، ومعنى الآية : أنّه لا إثم عليهن في ألا يحتجبن من هؤلاء . قال النسفي : (ولم يذكر العم والخال لأنهما يجريان مجرى الوالدين . وقال : وعبيدهن عند الجمهور كالأجانب) . ثم قال تعالى : ﴿ **واتقين الله** ﴾ فيما أمرتن به من الاحتجاب والاستتار واحتطن فيه ﴿ **إن الله كان على كل شيء شهيداً** ﴾ أي عالماً . قال ابن عطاء : الشهيد : الذي يعلم خطرات القلوب ، كما يعلم حركات الجوارح . وقال ابن كثير في الآية : (أي واخشينه في الخلوة والعلانية ، فإنه شهيد على كل شيء ، لا تخفى عليه خافية ؛ فراقبن الرقيب) ﴿ **إن الله وملائكته يصلُّون على النبي** ﴾ قال البخاري : قال أبو العالية : صلاة الله تعالى ثناؤه عليه عند الملائكة ، وصلاة الملائكة الدعاء . وقال ابن عباس : يصلون يبرّكون . وقال الترمذي : وروي عن سفيان الثوري وغير واحد من أهل العلم قالوا : صلاة الرب الرحمة ، وصلاة الملائكة الاستغفار ، قال ابن كثير : (والمقصود من هذه الآية أن الله سبحانه وتعالى أخبر عباده بمنزلة عبده ونبيه عنده في الملإ الأعلى ، بأنه يثني عليه عند الملائكة المقرَّبين ، وأن الملائكة تصلي عليه ، ثم أمر تعالى أهل العالم السفلي بالصلاة والتسليم عليه ؛ ليجتمع الثناء عليه من أهل العالمين العلوي والسفلي جميعاً) .

أقول : ومجيء هذه الآية في هذا السياق إشارة إلى وجوب التقيد بالآداب والأحكام السابقة مع رسول الله ﷺ ، فإذا كان الله وملائكته يصلون على الرسول ﷺ فإن على المؤمنين أن يفعلوا ذلك ﴿ **يا أيها الذين آمنوا صلُّوا عليه وسلموا تسليماً** ﴾ أي اجمعوا بين الصلاة عليه والتسليم : اللهم صل على سيدنا محمد وآله وسلم ، وقال النسفي : (أو انقادوا لأمره وحكمه انقياداً) ﴿ **إن الذين يؤذون الله ورسوله** ﴾ أي الذين يؤذون رسول الله ﷺ ، وذكر اسم الله للتشريف ، أو عبّر بإيذاء الله ورسوله عن فعل ما لا يرضى به ورسوله ، كالكفر وإنكار النبوة ﴿ **لعنهم الله في الدنيا والآخرة** ﴾ أي طردهم من رحمته في الدارين ﴿ **وأعدَّ لهم** ﴾ في الآخرة ﴿ **عذاباً مهيناً** ﴾ أي مذلاً ﴿ **والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا** ﴾ أي ينسبون إليهم ما هم براء منه ، لم يعملوه ، ولم يفعلوه ، وأطلق التحريم في إيذاء الله ورسوله ، وقيده هنا بغير ما اكتسبوا ، لأن إيذاء الله ورسوله لا يكون حقاً أبداً ، وأما إيذاء المؤمنين والمؤمنات فمنه حق كالحدّ والتعزير ، ومنه باطل ﴿ **فقد احتملوا** ﴾ أي تحمَّلوا ﴿ **بهتاناً وإثماً مبيناً** ﴾ أي ظاهراً .

كلمة في السياق :

١ - كنّا ذكرنا أن المقطع المبدوء بـ﴿ **يا أيها الذين آمنوا** ﴾ من سورة الأحزاب يكون ألصق بسورة المائدة ومحورها ، ولعلّ هذا المقطع يؤكّد هذا الذي ذكرناه بشكل أوضح ، وذلك أن محور سورة المائدة هو قوله تعالى :

﴿ **إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها * فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم ، وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلاً يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين * الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون** ﴾ لاحظ الصلة بين قوله تعالى في آيتي المحور ﴿ **إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً ما** ... ﴾ وبين قوله تعالى في هذا المقطع ﴿ **والله لا يستحيي من الحق** ﴾ ولاحظ الصلة بين معاني المقطع ، وبين قوله تعالى في المحور ﴿ **ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل** ﴾ فالتثقيل على رسول الله ﷺ وإيذاؤه ، وإيذاء المؤمنين ، كل ذلك من قطع ما أمر الله به أن يوصل .

٢ - لاحظ الصلة بين هذا المقطع والذي قبله ، فالمقطع السابع كان حديثاً عن أزواج رسول الله ﷺ ، وهذا المقطع في مسراه الرئيسي كان حديثاً عن آداب المؤمنين مع بيوته ، وأزواجه عليه الصلاة والسّلام .

فوائد :

١ - في سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي** ... ﴾ قال ابن كثير : (هذه آية الحجاب ، وفيها أحكام وآداب شرعية ، وهي مما وافق تنزيلها قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه كما ثبت ذلك في الصحيحين عنه أنه قال : وافقت ربي عز وجل في ثلاث : قلت : يا رسول الله لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى ؛ فأنزل الله تعالى ﴿ **واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى** ﴾ . وقلت : يا رسول الله إن نساءك يدخل عليهن البَرّ والفاجر ، فلو حجبتهن ؛ فأنزل الله آية الحجاب . وقلت لأزواج النبي ﷺ لما تمالأن عليه في الغيرة : ﴿ **عسى ربه إن طلّقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن** ﴾ فنزلت كذلك . وفي رواية لمسلم ذكر أسارى بدر ، وهي قضية رابعة . وقد روى البخاري عن أنس بن مالك قال : قال عمر بن الخطاب : يا رسول الله

يدخل عليك البرّ والفاجر ، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب ؛ فأنزل الله آية الحجاب ، وكان وقت نزولها في صبيحة عرس رسول الله ﷺ بزينب بنت جحش التي تولّى الله تزويجها بنفسه ، وكان ذلك في ذي القعدة من السنة الخامسة في قول قتادة والواقدي وغيرهما ، وزعم أبو عبيدة معمر بن المثنى ، وخليفة بن خياط : أن ذلك كان في سنة ثلاث . فالله أعلم . روى البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : لما تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش ، دعا القوم فطعموا ، ثم جلسوا يتحدثون ، فإذا هو يتهيأ للقيام فلم يقوموا ، فلمّا رأى ذلك قام ، فلما قام من قام قعد ثلاثة نفر ، فجاء النبي ﷺ ليدخل فإذا القوم جلوس ، ثم إنهم قاموا ، فانطلقوا فجئت فأخبرت النبي ﷺ أنهم قد انطلقوا ، فجاء حتى دخل ، فذهبت أدخل فألقى الحجاب بيني وبينه ، فأنزل الله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا** ﴾ الآية . وقد رواه أيضاً في موضع آخر ومسلم والنسائي من طرق عن معتمر بن سليمان به ثم رواه البخاري منفرداً به من حديث أيوب عن أبي قلابة عن أنس رضي الله عنه بنحوه . ثم روى عن أنس بن مالك قال : بنى النبي ﷺ بزينب بنت جحش بخبز ولحم ، فأرسلت على الطعام داعياً ، فيجيء قوم فيأكلون ويخرجون ، ثم يجيء قوم فيأكلون ويخرجون ، فدعوت حتى ما أجد أحداً أدعوه ، فقلت : يا رسول الله ما أجد أحداً أدعوه قال : « ارفعوا طعامكم » وبقي ثلاثة رهط يتحدّثون في البيت ، فخرج النبي ﷺ فانطلق إلى حجرة عائشة رضي الله عنها فقال : « السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله وبركاته » قالت : وعليك السلام ورحمة الله ، كيف وجدت أهلك يا رسول الله بارك الله لك ؟ فتقرى حجر نسائه كلهن يقول لهن كما يقول لعائشة ، ويقلن له كما قالت عائشة ، ثم رجع النبي ﷺ فإذا ثلاثة رهط في البيت يتحدثون ، وكان النبي ﷺ شديد الحياء ، فخرج منطلقاً نحو حجرة عائشة ، فما أدري أخبرته أم أخبر القوم ، فخرجوا فرجع حتى إذا وضع رجله في أسكفة الباب داخله والأخرى خارجه ، أرخى الستر بيني وبينه ، وأُنزلت آية الحجاب . انفرد به البخاري من بين أصحاب الكتب الستة ، سوى النسائي في اليوم والليلة ، وقد تقدم في أفراد مسلم من حديث سليمان بن المغيرة عن ثابت عن أنس . وروى ابن أبي حاتم عن أنس بن مالك قال : أعرس رسول الله ﷺ ببعض نسائه فصنعت أم سليم حيساً ، ثم جعلته في تور فقالت : اذهب بهذا إلى رسول الله ﷺ وأقرئه مني السلام ، وأخبره أن هذا منا له قليل . قال

أنس : والناس يومئذ في جهد ، فجئت به فقلت : يا رسول الله بعثت بهذا أم سليم إليك ، وهي تقرئك السلام ، وتقول : أخبره أن هذا منا له قليل ، فنظر إليه ثم قال : « ضعه » فوضعته في ناحية البيت ثم قال : « اذهب فادع فلاناً وفلاناً » فسمى رجالاً كثيراً وقال : « ومن لقيت من المسلمين » فدعوت من قال لي ، ومن لقيت من المسلمين ، فجئت والبيت والصفة والحجرة ملأى من الناس ، فقلت : يا أبا عثمان كم كانوا ؟ فقال كانوا زهاء ثلاثمائة . قال أنس : فقال لي رسول الله ﷺ : جيء به ، فجئت به إليه ، فوضع يده عليه ودعا وقال : « ما شاء الله - ثم قال - ليتحلّق عشرة عشرة ، وليسمّوا ، وليأكل كلّ إنسان مما يليه » فجعلوا يسمُّون ويأكلون ، حتى أكلوا كلهم ، فقال لي رسول الله ﷺ : « ارفعه » قال : فجئت فأخذت التوْر فنظرت فيه ، فما أدري أهو حين وضعت أكثر أم حين أخذت . قال : وتخلف رجال يتحدثون في بيت رسول الله ﷺ ، وزوج رسول الله ﷺ التي دخل بها معهم مولية وجهها إلى الحائط ، فأطالوا الحديث ، فشقوا على رسول الله ، وكان أشد الناس حياء ، ولو أعلموا ، كان ذلك عليهم عزيزاً ، فقام رسول الله ﷺ على حجره وعلى نسائه ، فلما رأوه قد جاء ظنوا أنهم قد ثقلوا عليه ، ابتدروا الباب فخرجوا ، وجاء رسول الله ﷺ حتى أرخى الستر ودخل البيت ، وأنا في الحجرة ، فمكث رسول الله ﷺ في بيته يسيراً ، وأنزل الله عليه القرآن ، فخرج وهو يتلو هذه الآية : « ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي** ﴾ الآية . قال أنس : فقرأهن عليّ قبل الناس ، فأنا أحدث الناس بهن عهداً » ... وقد رواه مسلم والترمذي والنسائي ... ، وروى الإمام أحمد عن أنس لما انقضت عدة زينب قال رسول الله ﷺ لزيد : « اذهب فاذكرها عليّ » قال : فانطلق زيد حتى أتاها - قال : وهي تخمِّر عجينها - فلما رأيتها عظمت في صدري . وذكر تمام الحديث كما قدمناه عند قوله تعالى : ﴿ **فلما قضى زيد منها وطراً** ﴾ وزاد في آخره : ووعظ القوم بما وعظوا به . قال هاشم في حديثه : ﴿ **لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم** ﴾ الآية . وروى ابن جرير عن عائشة قالت : إن أزواج رسول الله ﷺ كن يخرجن بالليل إذا تبرزن إلى المناصع - وهو صعيد أفيح - وكان عمر يقول لرسول الله ﷺ حَجِّب نساءك ، فلم يكن رسول الله ﷺ ليفعل ، فخرجت سودة بنت زمعة زوج رسول الله ﷺ وكانت امرأة طويلة ، فناداها عمر بصوته الأعلى : قد عرفناك يا سودة ، حرصاً على أن ينزل الحجاب قالت : فأنزل الله الحجاب . هكذا وقع في هذه الرواية ، والمشهور أن هذا كان بعد

نزول الحجاب كما رواه الإمام أحمد والبخاري ومسلم من حديث هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها قالت : خرجت سودة بعد ما ضرب الحجاب لحاجتها ، وكانت امرأة جسيمة لا تخفى على من يعرفها ، فرآها عمر بن الخطاب فقال : يا سودة أما والله ما تخفين علينا ، فانظري كيف تخرجين ، قالت : فانكفأت راجعة ورسول الله ﷺ في بيتي ، وإنه ليتعشّى وفي يده عرق ، فدخلت فقالت : يا رسول الله إني خرجت لبعض حاجتي فقال لي عمر : كذا وكذا ، قالت : فأوحى الله إليه ، ثم رفع عنه ، وإنّ العرق في يده ما وضعه فقال : « إنه قد أذن لكُنَّ أن تخرجن لحاجتكن » لفظ البخاري . فقوله تعالى : ﴿ **لا تدخلوا بيوت النبي** ﴾ حظر على المؤمنين أن يدخلوا منازل رسول الله ﷺ بغير إذن كما كانوا قبل ذلك يصنعون في بيوتهم في الجاهلية ، وابتداء الإسلام ، حتى غار الله لهذه الأمة ، فأمرهم بذلك ، وذلك من إكرامه تعالى هذه الأمة ، ولهذا قال رسول الله ﷺ : « إياكم والدخول على النساء » الحديث .

٢ - في سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً** ﴾ قال ابن كثير : (روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ **وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله** ﴾ قال : نزلت في رجل همّ أن يتزوج بعض نساء النبي ﷺ بعده . قال رجل لسفيان : أهي عائشة ؟ قال : قد ذكروا ذلك . وكذا قال مقاتل بن حيان وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم . وذكر بسنده عن السدي أن الذي عزم على ذلك طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه حتى نزل التنبيه على تحريم ذلك ، ولهذا أجمع العلماء قاطبة على أن من توفي عنها رسول الله ﷺ من أزواجه أنه يحرم على غيره تزوجها من بعده ، لأنهن أزواجه في الدنيا والآخرة ، وأمهات المؤمنين - كما تقدم - واختلفوا فيمن دخل بها ثم طلّقها في حياته ، هل يحل لغيره أن يتزوجها ؟ على قولين مأخذهما هل دخلت هذه في عموم قوله ﴿ **من بعده** ﴾ أم لا ؟ فأما من تزوجها ثم طلقها قبل أن يدخل بها فما نعلم في حلها لغيره - والحالة هذه - نزاعاً والله أعلم ، وروى ابن جرير عن عامر أن نبي الله ﷺ مات وقد ملك قيلة ابنة الأشعث - يعني ابن قيس - فتزوجها عكرمة بن أبي جهل بعد ذلك ، فشق ذلك على أبي بكر مشقة شديدة فقال له عمر : يا خليفة رسول الله إنّها ليست من نسائه ، إنها لم يخيّرها رسول الله ﷺ ، ولم يحجبها ، وقد برّأها الله منه بالردة التي ارتدت مع قومها ، فاطمأن أبو بكر رضي الله عنه ، وسكن . وقد عظّم الله تبارك وتعالى ذلك ، وشدد فيه وتوعّد عليه بقوله : ﴿ **إن ذلكم كان عند الله عظيماً** ﴾) .

٣ – يلاحظ أنه في آية الحجاب في سورة النور ، وفي آية الحجاب في سورة الأحزاب لم يذكر اسم العم والخال من جملة المحارم . وذكرنا هناك إنهما لم يذكرا لأنّ حكمهما حكم الأب ، وهو تعليل النسفي ، وهناك تعليل آخر ذكره ابن كثير وهو يقتضي الاحتياط في الظهور أمام العم والخال . قال ابن كثير : (وقد سأل بعض السلف فقال : لِمَ لم يذكر العم والخال في هاتين الآيتين ؟ فأجاب عكرمة والشعبي بأنهما لم يذكرا لأنهما قد يصفان ذلك لبنيهما ، روى ابن جرير ... عن الشعبي وعكرمة في قوله تعالى : ﴿ **لا جناح عليهن في آبائهن** ﴾ الآية . قلت : ما شأن العم والخال لم يذكرا ؟ قال : لأنهما ينعتانها لأبنائهما ، وكرها أن تضع خمارها عند خالها وعمّها) .

٤ – بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **إن الله وملائكته يصلّون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلّوا عليه وسلموا تسليماً** ﴾ تكلم ابن كثير كلاماً طويلاً قال : وقد جاءت الأحاديث المتواترة عن رسول الله ﷺ بالأمر بالصلاة عليه ، وكيفية الصلاة عليه ونحن نذكر منها إن شاء الله ما تيسّر ، ثمّ ذكر ابن كثير روايات كثيرة ، وذكر خلالها أقوال العلماء في كثير من أحكام الصلاة والسلام على رسول الله ﷺ ، وختم نقوله بذكر مسألة ، وفصل ، وفرع ، المسألة في استحباب كتابة الصلاة عليه ﷺ أثناء الكتابة إذا ذكر اسمه ﷺ ، والفصل في الصلاة على غير الأنبياء وأنها جائزة تبعاً للصلاة عليه ، وأما استقلالاً فقد ذكر النووي أنها مكروهة تنزيهاً ، والفرع في استحباب الجمع بين الصلاة والتسليم عليه ، ونحن ذاكرون لك من هذا مختارات ، وفيما بين يدي ذلك أقول : لقد نُدبنا إلى الصلاة على رسول الله ﷺ بشكل مطلق ، ويتأكّد النّدب إذا ذكر عليه الصلاة والسّلام ، واعتبرها بعضهم من الواجبات ، ويتأكد النّدب في ابتداء الدّعاء ، وأواسطه ، وخواتيمه ، ويتأكّد النّدب في أن يصلي الإنسان عليه في المجلس الواحد ولو مرّة ، ويتأكّد الندب في الصلاة على خلاف في ذلك في القعود الأول ، وبعضهم اعتبر الصلاة عليه في القعود الثاني من الفرائض ، ويستحب الجمع بين الصلاة والتسليم عليه ، ونحن مقيّدون في الصلاة بالصلوات الإبراهيمية ، وهي أفضل الصيغ في الصلاة عليه ﷺ ، أمّا خارج الصلاة ، فالصيغ الواردة كثيرة ، ومن قال : اللهم صل على محمد وعلى آله وسلّم فقد أُجر ، وحقّق الأمر ، ومن المستحبات أن يجمع الإنسان الصلاة على الآل مع الصلاة عليه ﷺ .

....

(روى مسلم عن أبي مسعود الأنصاري قال : أتانا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم ونحن في مجلس سعد بن عبادة فقال له بشير بن سعد : أمرنا الله أن نصلي عليك يا رسول الله ، فكيف نصلي عليك ؟ قال : فسكت رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ، حتى تمنينا أنه لم يسأله ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ، كما صليت على آل إبراهيم ؛ وبارك على محمد وعلى آل محمد ، كما باركت على آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد ، والسلام كما قد علمتم » وقد رواه أبو داود والترمذي والنسائي وابن جرير وقال الترمذي حسن صحيح . وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عامر بن ربيعة يحدث عن أبيه قال : سمعت النبي ﷺ يقول : « من صلى عليّ صلاة لم تزل الملائكة تصلي عليه ما صلى عليّ ، فليقلل عبد من ذلك أو ليكثر » ورواه ابن ماجه .

وروى الترمذي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : « ما جلس قوم مجلساً لم يذكروا الله فيه ، ولم يصلوا على نبيهم ، إلا كان عليهم ترة يوم القيامة ، فإن شاء عذبهم ، وإن شاء غفر لهم » تفرّد به الترمذي من هذا الوجه ، ورواه الإمام أحمد عن أبي هريرة مرفوعاً مثله ثم قال الترمذي : هذا حديث حسن . روى الإمام أحمد عن عبد الله بن أبي طلحة عن أبيه أن رسول الله ﷺ جاء ذات يوم والسرور يرى في وجهه فقالوا : يا رسول الله إنا لنرى السرور في وجهك ، فقال : « إنه أتاني الملك فقال : يا محمد أما يرضيك أن ربك عز وجل يقول إنه لا يصلي عليك أحد من أمتك إلا صليت عليه عشراً ، ولا يسلم عليك أحد من أمتك إلا سلمت عليه عشراً ؟ قال : بلى » ورواه النسائي .

وروى الترمذي عن الطفيل بن أُبيّ بن كعب عن أبيه قال : كان رسول الله ﷺ إذا ذهب ثلثا الليل قام فقال : « يا أيها الناس اذكروا الله اذكروا الله ، جاءت الراجفة تتبعها الرادفة ، جاء الموت بما فيه ، جاء الموت بما فيه » قال أُبيّ : قلت يا رسول الله إني أكثر الصلاة عليك فكم أجعل لك من صلاتي ؟ قال : « ما شئت » قلت : الربع ؟ قال : « ما شئت فإن زدت فهو خير لك » قلت : فالنصف ؟ قال : « ما شئت فإن زدت فهو خير لك » قلت : فالثلثين ؟ قال : « ما شئت فإن زدت فهو خير لك » قلت : أجعل لك صلاتي كلها قال : « إذن تكفى همك ويغفر لك ذنبك » ثم قال هذا حديث حسن . وروى الترمذي عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال : « أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم عليّ صلاة » تفرّد بروايته الترمذي رحمه الله ثم قال

هذا حديث حسن غريب .

وتستحب الصلاة عليه ﷺ عند دخول المسجد والخروج منه للحديث الذي رواه الإمام أحمد عن فاطمة بنت رسول الله ﷺ قالت : كان رسول الله ﷺ إذا دخل المسجد صلى على محمد وسلم ثم قال : « اللهم اغفر لي ذنوبي ، وافتح لي أبواب رحمتك » ، وإذا خرج صلى على محمد وسلم ثم قال : « اللهم اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب فضلك » .

وتستحب الصلاة عليه بعد سماع الأذان والدعاء ، وتستحب الصلاة عليه في يوم الجمعة) .

٥ - عند قوله تعالى : ﴿ **إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة وأعد لهم عذاباً مهيناً** ﴾ قال ابن كثير : (قال عكرمة في قوله تعالى : ﴿ **إن الذين يؤذون الله ورسوله** ﴾ نزلت في المصوِّرين . وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « يقول الله عز وجل : يؤذيني ابن آدم ، يسبّ الدهر وأنا الدهر أقلّب ليله ونهاره » . ومعنى هذا أن الجاهلية كانوا يقولون يا خيبة الدهر فعل بنا كذا وكذا ، فيسندون أفعال الله تعالى إلى الدهر ، ويسبّونه ، وإنما الفاعل لذلك هو الله عز وجل ، فنهى عن ذلك . هكذا قرره الشافعي وأبو عبيدة وغيرهما من العلماء رحمهم الله ، وقال العوفي عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ **إن الذين يؤذون الله ورسوله** ﴾ نزلت في الذين طعنوا على النبي ﷺ في تزويجه صفية بنت حيي ابن أخطب . والظاهر أن الآية عامة في كل من آذاه بشيء ، ومن آذاه فقد آذى الله ، كما أن من أطاعه فقد أطاع الله . كما روى الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن المغَفّل المزني قال : قال رسول الله ﷺ : « الله الله في أصحابي ، لا تتخذوهم غرضاً بعدي ، فمن أحبّهم فبحبّي أحبّهم ، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم ، ومن آذاهم فقد آذاني ، ومن آذاني فقد آذى الله ، ومن آذى الله يوشك أن يأخذه ») .

٦ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً** ﴾ قال ابن كثير : (وهذا هو البهت الكبير ، أن يحكي أو ينقل عن المؤمنين والمؤمنات ما لم يفعلوه على سبيل العيب والتنقيص لهم ، ومن أكثر من يدخل في هذا الوعيد الكفرة بالله ورسوله ، ثم الرافضة الذين ينتقصون الصحابة ويعيبونهم بما قد برأهم الله منه ، ويصفونهم بنقيض ما أخبر الله عنهم ، فإن الله عز وجل

قد أخبر أنه قد رضي عن المهاجرين والأنصار ومدحهم ، وهؤلاء الجهلة الأغبياء يسبُّونهم وينتقصونهم ، ويذكرون عنهم ما لم يكن ولا فعلوه أبداً ، **فهم** في الحقيقة منكسو القلوب ، يذمون الممدوحين ، ويمدحون المذمومين ، وروى أبو داود عن أبي هريرة أنه قيل : يا رسول الله ما الغيبة ؟ قال : « ذكرك أخاك بما يكره » . قيل : أفرأيت إن كان في أخي ما أقول ؟ قال : « إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهّته » . وهكذا رواه الترمذي ثم قال حسن صحيح ، وقد روى ابن أبي حاتم عن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ لأصحابه : « أي الربا أربى عند الله ؟ » . قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « أربى الربا عند الله استحلال عرض امرىء مسلم » . ثم قرأ : ﴿ **والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً** ﴾) .

....

ولننتقل إلى المقطع التاسع .

☆ ☆ ☆

المقطع التاسع

ويمتدّ من الآية (٥٩) إلى نهاية الآية (٦٨) وهذا هو :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ ۚ
ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾ ۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ
ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ
لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ
ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ
ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ
لَعَنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا
وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَـٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا
ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾
رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾

كلمة في السياق :

١ - هذا المقطع مبدوء بقوله تعالى : ﴿ **يا أيها النبي** ﴾ فهو ألصق بسورة النساء ومحورها لاحظ ما يلي :

جاء في سورة النساء قوله تعالى عن المنافقين : ﴿ **فإن تولّوا فخذوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم** ﴾ وههنا جاء قوله تعالى : ﴿ **ملعونين أين ما ثقفوا أُخذوا وقُتّلوا**

تقتيلاً ﴾ .

وفي محور سورة النساء جاء قوله تعالى : ﴿ **فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين** ﴾ وههنا جاء قوله تعالى : ﴿ **إن الله لعن الكافرين وأعدّ لهم سعيراً ...** ﴾ .

٢ - جاء في المقطع الثامن ﴿ **إن الذين يؤذون الله ورسوله ... والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا ...** ﴾ وجاء ههنا ﴿ **ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين** ﴾ وجاء ههنا عقوبة المرجفين : ﴿ **لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينّك بهم** ﴾ فالصلة بين المقطع والذي قبله واضحة .

التفسير :

﴿ **يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن** ﴾ قال ابن كثير : (يقول تعالى آمراً رسوله ﷺ أن يأمر النساء المؤمنات ، خاصة أزواجه وبناته لشرفهن ، بأن يدنين عليهن من جلابيبهن ليتميزن عن سمات نساء الجاهلية ، وسمات الإماء) . وقد اختلفت عبارات المفسرين في تفسير الجلباب فقيل : الملحفة ، وقيل : هو الرداء فوق الخمار ، وقيل هو ما يستر الكل . ولنا عودة على هذا في الفوائد . قال النسفي في الآية : (أي ترخي بعض جلبابها وفضله على وجهها تتقنّع حتى تتميّز من الأَمَة ، أو المراد أن يتجلببن ببعض ما لهن من الجلابيب ، وألَّا تكون المرأة متبذّلة في درع وخمار كالأمة ، ولها جلبابان فصاعداً في بيتها) .

أقول : وعلى هذا القول فإن الأمر في الآية يفيد أنّ على المرأة المؤمنة أن تلبس جلباباً فوق ثيابها التي تلبسها في بيتها عادة ، وأن تدني هذا الجلباب بحيث يستر . قال عكرمة : تغطّي نحرها بجلبابها تدنيه عليها ، وفوق ذلك يكون الخمار ، وبعضهم يرى أن الجلباب ينبغي أن يستر الخمار كذلك ، وأن يدنى على الوجه ، وهو موضوع سنرى تفصيلاته في الفوائد . ثم بيّن الله عز وجل حكمة هذا الأمر ﴿ **ذلك أدنى أن يُعرفن فلا يُؤذين** ﴾ أي أولى وأجدر بأن يُعرفن أنهنّ حرائر ، ومسلمات ؛ فلا يُتعرَّض لهنّ . ﴿ **وكان الله غفوراً رحيماً** ﴾ قال النسفي : أي لما سلف في أيام الجاهلية حيث لم يكن عندهن علم بذلك ﴿ **لئن لم ينته المنافقون** ﴾ الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر

﴿ **والذين في قلوبهم مرض** ﴾ أي فجور . قال عكرمة وغيره : هم الزناة ههنا ، ولعلهم أخذوه من قوله تعالى : ﴿ **فيطمع الذي في قلبه مرض** ﴾ . ﴿ **والمرجفون في المدينة** ﴾ أي مروِّجو الإشاعات الكاذبة ﴿ **لنُغْرينَّك بهم** ﴾ أي لنأمرنك بقتالهم ، أو لنسلطنك عليهم ، وذكر هذا الموضوع هنا فيه نوع إشارة إلى ما سبقه من إيذاء الله ورسوله ﷺ ، ومن إيذاء المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا ، فهؤلاء يستحقون ما ذكرته هذه الآية ﴿ **ثم لا يجاورونك فيها** ﴾ أي في المدينة ﴿ **إلا قليلاً** ﴾ زماناً ﴿ **ملعونين** ﴾ أي مطرودين مبعدين ﴿ **أينما ثُقفوا** ﴾ أي وجدوا ﴿ **أُخذوا وقتلوا تقتيلاً** ﴾ قال النسفي : التشديد يدل على التكثير ، وهذه أوسع آية في التعزير . والمعنى لئن لم ينته المنافقون عن عداوتهم وكيدهم والفسقة عن فجورهم ، والمرجفون عما يؤلفون من أخبار السوء ، لنأمرنك بأن تفعل الأفعال التي تسوؤهم ، ثم بأن تضطرهم إلى طلب الجلاء عن المدينة ، وإلى ألا يساكنوك فيها إلا زماناً قليلاً ريثما يرتحلون ، وحتى بعد هذا كله فإنهم ملعونون مستحقون للقتل حيث كانوا ﴿ **سُنَّةَ الله** ﴾ أي سنّ الله في أمثالهم أن يُقتّلوا أينما وجدوا ﴿ **في الذين خَلَوْا** ﴾ أي مضوا ﴿ **من قبل** ﴾ . قال ابن كثير : أي هذه سنته في المنافقين إذا تمرّدوا على نفاقهم وكفرهم ولم يرجعوا عمّا هم فيه أن أهل الإيمان يسلّطون عليهم ويقهرونهم ﴿ **ولن تجد لسنة الله تبديلاً** ﴾ أي لا يبدل الله سنته بل يجريها مجرى واحداً في الأمم .

كلمة في السياق :

إن محور هذا المقطع هو محور سورة النساء الذي بدايته ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون** ﴾ أي لتكونوا من فئة المتقين فتخرجوا عن فئة الكافرين والمنافقين ، وقد جاء في هذا المقطع أمر من الأوامر التي تقتضيها التقوىٰ ، وهو الستر ، وجاء كلام عن المنافقين وتهديد لهم ، والآن يأتي كلام عن الكافرين ، وتهديد لهم ، وتذكير بأن سبب كفرهم طاعة سادتهم وكبرائهم ، وذلك كله مرتبط بموضوع العبادة والتقوى ، فمن عبادة الله أن تطيعه وألا تطيع من يعصيه .

....

لاحظ صلة المقطع ببداية سورة الأحزاب ﴿ **ولا تطع الكافرين والمنافقين** ﴾ فالكافرون والمنافقون يستحقون القتل ، فكيف يطاعون ؟ وفيما يأتي من المقطع بيان

لعاقبة طاعة الكافرين ﴿ **وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا** ﴾ .

....

إن ارتباط المقطع بمحور السورة واضح ، وارتباطه بما قبله واضح وارتباطه بسياق السورة واضح .

﴿ **يسألك الناس عن الساعة** ﴾ سؤال استعجال ، أو سؤال امتحان ﴿ **قل إنما علمها عند الله** ﴾ قد استأثر به فلا يعلمه نبي مرسل ولا مَلَك مقرَّب ﴿ **وما يدريك لعل الساعة تكون قريباً** ﴾ أي تكون شيئاً قريباً ، وفي هذا بيان أنّ الساعة قريبة الوقوع ، وفي ذلك تهديد للمستعجلين ، وإسكات للممتحنين ﴿ **إنّ الله لعن الكافرين** ﴾ أي أبعدهم من رحمته ﴿ **وأعدّ هم سعيراً** ﴾ أي ناراً شديدة في الدار الآخرة ﴿ **خالدين فيها أبداً** ﴾ أي ماكثين مستمرين فلا خروج لهم منها ، ولا زوال لهم عنها قال النسفي :

(هذا يردّ مذهب الجهمية لأنهم يزعمون أنّ الجنّة والنّار تفنيان) ﴿ **لا يجدون ولياً ولا نصيراً** ﴾ أي ليس لهم مغيث ولا معين ينقذهم مما هم فيه ﴿ **يوم تقلّب وجوههم في النار** ﴾ أي تصرف في الجهات كما ترى الشيء يدور في القدر إذا غلت ، وخصت الوجوه بالذكر لأن الوجه أكرم موضع على الإنسان من جسده ﴿ **يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا** ﴾ فنتخلص من هذا العذاب ، تمنّوا حين لا ينفعهم التمني ﴿ **وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا** ﴾ أي رؤساءنا ﴿ **وكبراءنا** ﴾ أي ذوي الأنساب منا ، أو علماءنا ﴿ **فأضلونا السبيلا** ﴾ أي اتبعنا السادة وهم الأمراء والكبراء من المشيخة ، وخالفنا الرسل ، واعتقدنا أن عندهم شيئاً ، وأنهم على شيء ، فإذا هم ليسوا على شيء ﴿ **ربنا آتهم ضعفين من العذاب** ﴾ عذاب الضلال والإضلال أي بكفرهم وإغوائهم إيَّانا ﴿ **والعنهم لعناً كبيراً** ﴾ أي العنهم أشدّ اللّعن وأعظمه .

كلمة في السياق :

في هذا المقطع أمر للمؤمنات في وجوب الستر ، والستر في المجتمع الإسلامي ضروري لإقامة التقوى عند الذكور والإناث ، وفي المقطع تهديد للكافرين والمنافقين الذين لا همّ لهم إلا نشر الفاحشة والفجور والإشاعات ، ولذلك صلاته ببعضه وبالمحور ، وأما صلته بما قبله فواضحة . فما قبله كان كلاماً عن حجاب أمهات المؤمنين

وجاء هنا الأمر بالحجاب للجميع .

وكنّا ذكرنا من قبل جوانب أخرى من الترابط .

فـوائـد :

١ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن** ﴾ قال ابن كثير : (والجلباب هو الرداء فوق الخمار . قاله ابن مسعود وعبيدة وقتادة والحسن البصري وسعيد بن جبير وإبراهيم النخعي وعطاء الخراساني وغير واحد ، اليوم ، قال الجوهري الجلباب : الملحفة . قالت امرأة من هذيل ترثي قتيلاً لها :

تمشي النسور إليه وهي لاهية   مشي العذارى عليهن الجلابيب

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : أمر الله نساء المؤمنين إذا خرجن من بيوتهن في حاجة أن يغطين وجوههن من فوق رؤوسهن بالجلابيب ، ويبدين عيناً واحدة . وقال محمد بن سيرين : سألت عبيدة السلماني عن قول الله عز وجل ﴿ **يدنين عليهن من جلابيبهن** ﴾ فغطّى وجهه ورأسه وأبرز عينه اليسرى . وقال عكرمة : تغطي ثغرة نحرها بجلبابها تدنيه عليها . وروى ابن أبي حاتم عن أم سلمة قالت : لما نزلت هذه الآية ﴿ **يدنين عليهن من جلابيبهن** ﴾ خرج نساء الأنصار كأن على رؤوسهن الغربان من السكينة ، وعليهن أكسية سود يلبسنها . وقد قال الله تعالى : ﴿ **يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن** ﴾ ، وروي عن سفيان الثوري أنه قال : لا بأس بالنظر إلى زينة نساء أهل الذمة ، وإنما نهي عن ذلك لخوف الفتنة ، لا لحرمتهن ، واستدل بقوله تعالى : ﴿ **ونساء المؤمنين** ﴾ وقوله : ﴿ **ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين** ﴾ أي إذا فعلن ذلك عرفن أنهن حرائر ، لسن بإماء ولا عواهر) .

٢ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **والعنهم لعناً كبيراً** ﴾ ذكر ابن كثير أن هناك قراءتين في قوله تعالى : ﴿ **كبيراً** ﴾ الأولى « كبيراً » والثانية « كثيراً » . قال ابن كثير : هما قريبا المعنى كما في حديث عبد الله بن عمرو أن أبا بكر قال : يا رسول الله علمني دعاء أدعو به في صلاتي . قال : « قل اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً ، ولا يغفر الذنوب إلا أنت ، فاغفر لي مغفرة من عندك ، وارحمني فإنك أنت الغفور الرحيم » .

أخرجاه في الصحيحين . يروى كثيراً وكبيراً وكلاهما بمعنى صحيح ، واستحب بعضهم أن يجمع الداعي بين اللفظين في دعائه ، وفي ذلك نظر ، بل الأولى أن يقول هذا تارة ، وهذا تارة ، كما أن القارىء مخيَّر بين القراءتين أيتهما قرأ حسن وليس له الجمع بينهما والله أعلم . وروى أبو القاسم الطبراني عن عبيد الله بن أبي رافع عن أبيه في تسمية من شهد مع عليّ رضي الله عنه : الحجاج بن عمرو بن غزية وهو الذي كان يقول عند اللقاء : يا معشر الأنصار أتريدون أن تقولوا لربنا إذا لقيناه ﴿ **ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا* ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيراً** ﴾) .

أقول : دلّ قول ابن كثير على أنه ليس للقارىء أن يخلط بين قراءتين بآن واحد لأن الرسول ﷺ كان يقرىء كل قراءة على حدة .

٣ – أعطانا قوله تعالى : ﴿ **لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلاً * ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتّلوا تقتيلاً * سنّة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً** ﴾ أعطتنا هذه الآيات مدى واسعاً في موضوع تعزير هذه الأنواع من الناس ، ومن ثَمَّ فإننا نحب أن نسجّل الملاحظات التالية :

أ – إن الرسول ﷺ لم يلجأ إلى قتل المنافقين مع استحقاقهم ذلك ، حتى لا يقال إن محمداً يقتل أصحابه .

ب – إن الرسول ﷺ بسياسته للمنافقين ، وبحسن معاملته لهم ، وتوجيهه ، استطاع أن ينقذ الكثيرين منهم من النفاق ، ويكفي أن نعرف أنه يوم أحد انفصل عن الجيش الإسلامي مع رأس النفاق عبد الله بن أبي أكثر من ثلاثمائة ، بينما أخبرنا حذيفة أن الذين كتب عليهم النفاق وليس لهم عنه منكص آحاد . وقد مَرّ ذكر ذلك في سورة التوبة .

جـ – من الملاحظتين السابقتين ندرك أن استعمال القتل في حق المنافقين ، ومن عطف عليهم في الآيات ، إنما هو حيث تكون ضرورة ، ومن باب « آخر الدواء الكي » على أن هناك حالات يتهدّد فيها أمن الأمة الإسلامية ، أو الدولة الإسلامية بالخطر ، ففي مثل هذه الحالات يجب أن يكون الحزم هو المقدَّم .

د - وهناك حالات فقدان الحكم الإسلامي ، فهل السياسة العملية الحكيمة للدعوة الإسلامية - وهي في سيرها إلى إنهاء النظام الكافر ، أو المرتد ، أو الباغي ، أو الفاسق - أن تلجأ إلى قتل أمثال هؤلاء الناس ، أو أن تؤجل ؟ هذا موضوع متروك لقرار القيادة الراشدة .

وبمناسبة ما ذكرناه قد يقول قائل هذه الآيات خاصة برسول الله ﷺ وله وحده حق الأخذ بها . أقول : إن قوله تعالى : ﴿ **ملعونين أين ما ثُقفوا أُخذوا وقتّلوا تقتيلاً** ﴾ أخرج المسألة عن كونها خصوصية من خصوصيات رسول الله ﷺ صحيح إن النفاق غيب ، ولكن مواصفات المنافقين معروفة لنا .

☆ ☆ ☆

المقطع العاشر

ويمتدّ من الآية (٦٩) إلى نهاية الآية (٧٣) أي إلى نهاية السورة وهذا هو :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ
عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾
يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ
فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ
أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَـٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ
ٱللَّهُ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَـٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى
ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًۢا ﴿٧٣﴾

كلمة في السياق :

١ - في المقطع الثامن جاء قوله تعالى : ﴿ **وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ...** ﴾ وفي المقطع التاسع جاء قوله تعالى : ﴿ **لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة** ﴾ .

وههنا يأتي قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى ..** ﴾ فالسياق واحد .

٢ - بدأت السورة بقوله تعالى : ﴿ **يا أيها النبي اتق الله ...** ﴾ وههنا جاء قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً ...** ﴾ .

٣ - في هذا المقطع نهي عن إيذاء رسول الله ﷺ ، وأمر بالتقوى ، والقول السّديد ، ووصف للإنسان بالظلم والجهل ، ولذلك صلته بمحور السورة من سورة

البقرة في شقيه محور سورة النساء ، ومحور سورة المائدة .

٤ – مجيء الأمر بالتقوى ، والقول السديد بعد النّهي عن إيذاء الرّسول ﷺ يوحي بأننا مطالبون بشيئين : ترك الكلام المؤذي وقول الكلام السّديد ، ولذلك صلته ببعضه بعضاً .

٥ – ذكر التكليف وثقله في هذا المقطع له صلة بمحور السورة من سورة البقرة من حيث إننا هناك كلّفنا وههنا ذكر ثقل التكليف وحكمته .

التفسير :

﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذَوْا موسى** ﴾ بوصفه ما ليس فيه ، وبذكره بما يؤذيه ﴿ **فبرَّأه الله مما قالوا** ﴾ أي من مضمون القول ومؤداه ، وهو الأمر المعيب ﴿ **وكان عند الله وجِيهاً** ﴾ أي ذا جاه ومنزلة .

﴿ **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله** ﴾ أي اخشوه ﴿ **وقولوا قولاً سديداً** ﴾ أي صدقاً وصواباً ، أو قاصداً إلى الحق ، لأن السداد : القصد إلى الحق ، والقول بالعدل قال ابن كثير : (مستقيماً لا اعوجاج فيه ولا انحراف ، ووعدهم أنهم إذا فعلوا ذلك أثابهم عليه بأن يصلح لهم أعمالهم ، أي يوفّقهم للأعمال الصالحة ، وأن يغفر لهم الذنوب الماضية ، وما قد يقع منهم في المستقبل يلهمهم التوبة منها) ومن ثَمَّ قال ﴿ **يصلح لكم أعمالكم** ﴾ أي يقبل طاعتكم ، أو يوفقكم لصالح العمل ﴿ **ويغفر لكم ذنوبكم** ﴾ أي يمحها ، دل ذلك على أن حفظ اللّسان ، وسداد القول ، مع تقوى الله ، رأس كل خير . قال النسفي : والمعنى : (راقبوا الله في حفظ ألسنتكم ، وتسديد قولكم ؛ فإنكم إن فعلتم ذلك أعطاكم ما هو غاية الطلبة ، من تقبّل حسناتكم ، والإثابة عليها ، ومن مغفرة سيئاتكم وتكفيرها) ﴿ **ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً** ﴾ في الدنيا والآخرة .

....

وفي الصلة بين النهي عن الإيذاء ، وبين الأمر بالتقوى ، والقول السّديد ، يقول النسفي : (وهذه الآية مقرِّرة للتي قبلها ؛ بنيت تلك على النهي عمّا يؤذي رسول الله ﷺ ، وهذه على الأمر باتقاء الله في حفظ اللسان ، ليترادف عليهم النهي والأمر ، مع إتباع النهي ما يتضمن الوعيد من قصة موسى عليه السلام ، وإتباع الأمر الوعد

البليغ ، فيقوى الصارف عن الأذى والداعي إلى تركه) .

....

﴿ **إنا عرضنا الأمانة** ﴾ أي الطاعة . أي الفرائض . أي التكليف ﴿ **على السمٰوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها** ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : الأمانة الفرائض ، عرضها الله على السمٰوات والأرض والجبال إن أدوها أثابهم ، وإن ضيّعوها عذّبهم ، فكرهوا ذلك ، وأشفقوا منه من غير معصية ، ولكن تعظيماً لدين الله ، أن لا يقوموا بها ، ثم عرضها على آدم فقبلها بما فيها وهو قوله تعالى : ﴿ **وحملها الإنسان** ﴾ ومعنى الآية أن ما كُلفه الإنسان بلغ من عظمه أنه عرض على أعظم ما خلق الله من الأجرام وأقواه فأبى حمله ، وأشفق منه ، وحمله الإنسان على ضعفه ﴿ **إنه كان ظلوماً جهولاً** ﴾ حيث حمل الأمانة ، ثم لم يف بها ، وضمنها ثم خاس بضمانه فيها ، فهو ظلوم لنفسه ؛ إذ يخالف ، غرّ بأمر الله ؛ إذ يعصي جهلاً ﴿ **ليعذِّب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات** ﴾ الذين ظلموا وجهلوا فخانوا الأمانة ﴿ **ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات** ﴾ لوفائهم وأدائهم ﴿ **وكان الله غفوراً** ﴾ للتائبين ﴿ **رحيماً** ﴾ بعباده المؤمنين . دلّت الآية على أن الحكمة من التكليف تعذيب العاصي وإثابة الطائع .

كلمة في السياق :

في كتابنا (جند الله ثقافة وأخلاقاً) تحدثنا عن التقوى ، وقلنا إن الإسلام نظام شامل كامل يسع شؤون الحياة كلها ، وله في كل قضية حكم ، ومجموع هذه الأحكام هي الإسلام ، وما يطالب به كل إنسان من هذا الإسلام الواسع هو التقوى . فالتقوى : هي التكليف الذي كلف الله به كل إنسان على حدة ، ومن ثَمَّ فالتقوى هي التكليف ، والتكليف الذي كُلِّف به كل إنسان على حدة هو أمانته التي حُمّلها . قال ابن كثير بعد أن ذكر الأقوال الكثيرة في تعريف الأمانة : (وكل هذه الأقوال لا تنافي بينها بل هي متّفقة ، وراجعة إلى أنها التكليف ، وقبول الأوامر ، والنواهي بشرطها ، وهو أنه إن قام بذلك أثيب وإن تركها عوقب . فقبلها الإنسان على ضعفه وجهله وظلمه ، إلا من وفق الله وبالله المستعان) . وهذه الأمانة مظهرها طاعة الله ورسوله ﷺ في الأمر والنهي ، فإذا اتضح هذا عرفنا محل الآيات الأخيرة في السياق

الخاص والعام . فبعد أن قال الله تعالى : ﴿ **ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً** ﴾ بيَّن أهمية هذه الطاعة التي هي الأمانة ، التي هي التكليف ، وبيّن خطورتها ، وبعد أن أمر بالتقوى بيَّن ههنا أهمية التقوى ، وسمّاها الأمانة ، ومن هذا كله نعلم صلة المقطع كله بقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون** ﴾ .

فـوائـد :

١ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرَّأه الله مِمَّا قالوا وكان عند الله وجيهاً** ﴾ قال ابن كثير : (روى البخاري عند تفسير هذه الآية عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن موسى كان رجلاً حيِيّاً وذلك قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيهاً** ﴾ » هكذا أورد هذا الحديث ههنا مختصراً جداً . وقد رواه في أحاديث الأنبياء بهذا السند بعينه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إن موسى عليه السلام كان رجلاً حيِيّاً ستِّيراً ، لا يرى من جلده شيء ؛ استحياء منه ، فآذاه من آذاه من بني إسرائيل ، فقالوا : ما يتستّر هذا التَّستُّر إلا من عيب في جلده ، إما برص ، وإما أدرة ، وإما آفة ، وإن الله عز وجل أراد أن يبرئه مما قالوا لموسى عليه السلام ، فخلا يوماً وحده فخلع ثيابه على حجر ثم اغتسل ، فلما فرغ أقبل على ثيابه ليأخذها ، وإن الحجر عدا بثوبه ، فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر ، فجعل يقول ثوبي حجر ، ثوبي حجر ، حتى انتهى إلى ملأٍ من بني إسرائيل ، فرأوه عرياناً أحسن ما خلق الله عز وجل ، وأبرأه مما يقولون ، وقام الحجر فأخذ ثوبه فلبسه ، وطفق بالحجر ضرباً بعصاه ، فوالله إن بالحجر لندباً من أثر ضربه ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً - قال - فذلك قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرَّأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيهاً** ﴾ » وهذا سياق حسن مطول ، وهذا الحديث من أفراد البخاري دون مسلم .

٢ - وبمناسبة هذه الآية قال ابن كثير : (وروى الإمام أحمد عن عبد الله قال : قَسم رسول الله ﷺ ذات يوم قَسْماً ، فقال رجل من الأنصار إن هذه لقسمة ما أُريد بها وجه الله ، قال : فقلت : يا عدو الله ، أما لأخبرنّ رسول الله ﷺ بما قلت ، فذكرت ذلك للنبي ﷺ فاحمرّ وجهه ، ثم قال : « رحمة الله على موسى فقد

أُوذي بأكثر من هذا فصبر » . أخرجاه في الصحيحين . وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ لأصحابه : « لا يبلغني أحد عن أحد من أصحابي شيئاً ، فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر » فأتى رسول الله ﷺ مال فقسمه ، قال : فمررت برجلين وأحدهما يقول لصاحبه : والله ما أراد محمد بقسمته وجه الله ، ولا الدار الآخرة ، قال فثبتُّ حتى سمعت ما قالا ، ثم أتيت رسول الله ﷺ فقلت : يا رسول الله ، إنك قلت لنا : لا يبلغني أحد عن أصحابي شيئاً ، وإني مررت بفلان وفلان وهما يقولان كذا وكذا فاحمرّ وجه رسول الله ﷺ وشق عليه ، ثم قال : « دعنا منك لقد أُوذي موسى بأكثر من هذا فصبر ») .

وبمناسبة هذه الآية أقول :

إنه لا أضر على العمل الإسلامي من إيذاء القيادة الإسلامية ، لأن أي عمل عام يكتب له نجاح في العادة بقدر توفر الثقة في قياداته ، وفي العادة فإن الثقة لا تنتقل إلى الأمّة إلا من خلال الصف الإسلامي ، فبقدر ما تحسن القيادات العمل ، وبقدر ما تتوفر الثقة بالقيادات ، فإن الأهداف تكون قابلة للتحقيق ، ومن ثمَّ فإن تحطيم القيادات الإسلامية كارثة محققة ، إلا إذا كانت هذه القيادات غير رشيدة أو غير صالحة .

وعلى هذا فإن المسلم يجب أن يحتاط في كل كلمة تمس الثقة بين قيادة المسلمين وقاعدتهم ، وعليه أن يعطي هذا الموضوع أهمية أكبر من أهمية موضوع الغيبة العادية .

إن الغيبة العادية لها إثمها الكبير عند الله ، حتى إنه « لا يدخل الجنة قتات » ، فكيف إذا كان في هذه الغيبة تدمير لكيان العمل الإسلامي .

وقد لاحظ علماء التربية هذا المعنى ، فاعتبروا السم القاتل للقلب هو اعتراض المريد على الشيخ ، وحذروا من مجالسة المعترضين والمنكرين على أولياء الله إلا بحق الشرع القطعي ، وعندئذ فحق الشرع هو المقدَّم ، ولكن بالطريق الذى حدده الشارع .

إن عملية البناء عملية صعبة ، وعملية التهديم سهلة ، وإن أخطر ما تصادفه الجماعات أن يتوجه أفرادها إلى التهديم ، فهذا أسهل شيء وأبشعه .

٣ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً** ﴾ قال ابن كثير : (روى ابن أبي حاتم عن أبي موسى الأشعري قال : صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الظهر ، فلما انصرف ، أومأ إلينا بيده ، فجلسنا فقال : « إن الله تعالى

أمرني أن آمركم أن تتقوا الله ، وتقولوا قولاً سديداً ، ثم أتى النساء فقال : إن الله أمرني أن آمركن أن تتقين الله ، وتقلن قولاً سديداً ») .

٤ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **إنا عرضنا الأمانة** ... ﴾ قال ابن كثير :

(روى ابن جرير ... عن ابن عباس أنه قال هذه الآية ﴿ **إنا عرضنا الأمانة على السمٰوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها** ﴾ قال عُرضت على آدم فقال : خذها بما فيها ، فإن أطعت غفرت لك ، وإن عصيت عذبتك ، قال : قبلت ، فما كان إلا مقدار ما بين العصر إلى الليل من ذلك اليوم حتى أصاب الخطيئة ، وقد روى الضحاك عن ابن عباس قريباً من هذا وفيه نظر ، وانقطاع بين الضحاك وبين ابن عباس ، والله أعلم . وهكذا قال مجاهد وسعيد بن جبير والضحاك والحسن البصري وغير واحد : إن الأمانة هي الفرائض ، وقال آخرون هي الطاعة ، وقال أعمش عن أبي الضحى عن مسروق قال : قال أُبيّ بن كعب : من الأمانة أن المرأة أؤتمنت على فرجها ، وقال قتادة الأمانة الدين والفرائض والحدود ، وقال بعضهم الغسل من الجنابة ، وروى مالك عن زيد بن أسلم قال : الأمانة ثلاثة : الصلاة ، والصوم ، والاغتسال من الجنابة . وكل هذه الأقوال لا تنافي بينها ، بل هي متّفقة وراجعة إلى أنها التكليف ، وقبول الأوامر والنواهي بشرطها ، وهو أنه إن قام بذلك أثيب ، وإن تركها عوقب ، فقبلها الإنسان على ضعفه وجهله ، وظلمه ، إلا من وفق الله وبالله المستعان .

وروى ابن جرير أيضاً عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « القتل في سبيل الله يكفِّر الذنوب كلها - أو قال - يكفِّر كل شيء إلا الأمانة ، يؤتى بصاحب الأمانة فيقال له : أدِّ أمانتك فيقول : أنّىٰ يا رب وقد ذهبت الدنيا ؟ فيقال له : أدِّ أمانتك فيقول : أنّىٰ يارب وقد ذهبت الدنيا ؟ فيقال أدِّ أمانتك ، فيقول : أنّىٰ يا رب وقد ذهبت الدنيا ؟ فيقول : اذهبوا به إلى أمه الهاوية ، فيذهب به إلى الهاوية فيهوي فيها حتى ينتهي إلى قعرها ، فيجدها هنالك كهيئتها ، فيحملها فيضعها على عاتقه ، فيصعد بها إلى شفير جهنم ، حتى إذا رأى أنه قد خرج زلت قدمه ، فهوي في أثرها أبد الآبدين » قال : والأمانة في الصلاة ، والأمانة في الصوم ، والأمانة في الوضوء ، والأمانة في الحديث ، وأشد ذلك الودائع . فلقيت البراء فقلت : ألا تسمع ما يقول أخوك عبد الله ؟ فقال : صدق ، وقال شريك : وحدثنا عياش

العامري عن زاذان عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ بنحوه ولم يذكر الأمانة في الصلاة ، وفي كل شيء ، إسناده جيد ولم يخرجوه . ومما يتعلّق بالأمانة الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن حذيفة رضي الله عنه قال : حدثنا رسول الله ﷺ حديثين ، قد رأيت أحدهما وأنا أنتظر الآخر ، حدثنا أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال ، ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن ، وعلموا من السنة . ثم حدثنا عن رفع الأمانة فقال : « ينام الرجل النومة ، فتقبض الأمانة من قلبه ، فيظل أثرها مثل أثر المجل كجمر دحرجته على رجلك ، تراه منتبراً ، وليس فيه شيء - قال ثم أخذ حصي فدحرجه على رجله قال - فيصبح الناس يتبايعون لا يكاد أحد يؤدّي الأمانة حتى يقال إن في بني فلان رجلاً أميناً ، حتى يقال للرجل ما أجلده وأظرفه وأعقله ، وما في قلبه حبة خردل من إيمان ، ولقد أتى علي زمان وما أبالي أيكم بايعت إن كان مسلماً ليردنه على دينه ، وإن كان نصرانياً أو يهودياً ليردنه على ساعيه ، فأما اليوم فما كنت أبايع منكم إلا فلاناً وفلاناً » وأخرجاه في الصحيحين من حديث الأعمش به . وروى الإمام أحمد أيضاً ... عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « أربع إذا كن فيك فلا عليك ما فاتك من الدنيا : حفظ أمانة ، وصدق حديث ، وحسن خليقة ، وعفة طعمة » هكذا رواه الإمام أحمد في مسند عبد الله بن عمرو ابن العاص رضي الله تعالى عنهما ، وقد روى الطبراني في مسند عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما ... عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « أربع إذا كن فيك فلا عليك ما فاتك من الدنيا : حفظ أمانة ، وصدق حديث ، وحسن خليقة ، وعفة طعمة » فزاد في الإسناد ابن حجيرة وجعله في مسند ابن عمر رضي الله عنهما ، وقد ورد النهي عن الحلف بالأمانة . قال عبد الله بن المبارك في كتاب الزهد : عن خناس بن سحيم - أو قال جبلة بن سحيم - قال : أقبلت مع زياد بن حدير من الجابية فقلت في كلامي : لا والأمانة ، فجعل زياد يبكي ويبكي ، فظننت أني أتيت أمراً عظيماً فقلت له : أكان يكره هذا ؟ قال : نعم كان عمر بن الخطاب ينهى عن الحلف بالأمانة أشد النهي ، وقد ورد في ذلك حديث مرفوع رواه أبو داود عن ابن بريدة عن أبيه رضي الله عنه قال : قال رسول الله : « من حلف بالأمانة فليس منا » . تفرّد به أبو داود رحمه الله) .

٥ - ذكر ابن كثير : (روى الإمام أحمد عن زر قال : قال لي أُبي بن كعب : كأين تقرأ سورة الأحزاب أو كأين تعدّها ؟ قال : قلت : ثلاثاً وسبعين آية ، فقال : قط ؟!

لقد رأيتها وإنها لتعادل سورة البقرة ، ولقد قرأنا فيها : « الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالاً من الله ، والله عزيز حكيم » . ورواه النسائي من وجه آخر . وهذا إسناد حسن وهو يقتضي أنه قد كان فيها قرآن ثم نسخ لفظه ، وحكمه أيضاً ، والله أعلم . أقول : إن حكم الرجم لم ينسخ وأقول : إن مثل هذا النوع من النسخ يشير إلى أن هناك حاجات محلية مؤقتة للمجتمع الإسلامي كان ينزل فيها قرآن حتى إذا أدى دوره نسخ) .

كلمة أخيرة في سورة الأحزاب :

١ - إن سورة الأحزاب فصَّلت في الطريق العملي للتقوى ، وحرّرت مما يتناقض معها ، ومن ثَمَّ فإنّ على الدارس أن يخرج منها وهو أكثر فهماً للتقوى وأكثر التزاماً .

٢ - لاحظنا من قبل أن سورة المائدة فصّلت في محورها ، وفي حيّز محور سورة النساء ، ومن ثَمَّ جاءت سورة الأحزاب تفصّل في محوري سورتي النساء والمائدة ، لأن كلّاً من السورتين تكمّل الأخرى .

٣ - وردت في سورة الأحزاب توجيهات مباشرة لرسول الله ﷺ ، وعلى ورّاث النبوة أن يلاحظوا هذه التوجيهات ، إلا ما هو خاص بشخص رسول الله ﷺ ، ووردت توجيهات للمؤمنين في التأدّب مع رسول الله ﷺ فعلى المؤمنين أن يلاحظوها مع ورّاث النبوة ، ما لم يكن شيء خاص برسول الله ﷺ .

٤ - إن علينا أن نتذكّر بمناسبة هذه السورة المعنى العميق والعظيم والعجيب للوحدة القرآنية في إطار السورة الواحدة ، أو في إطار القرآن كله . إنّ وحدة الموضوع عملية سهلة ، ولكن أن توجد مثل هذه الوحدة في القرآن فذلك الذي يجل عن الإمكان البشري ، إن الله عز وجل قد جعل في هذا الكون وحدة عجيبة ، وترك للجهد البشري أن يضم أجزاءً إلى بعضها ؛ ليشكّل أنواعاً من الوحدات بحسب احتياجاته ، إلى ما لا يتناهى ، وهكذا القرآن ، إنك لتجد فيما بين آياته أنواعاً من الوحدة ، وفيما بين سوره أنواعاً من الوحدة ، وكل ذلك عجيب ومعجز ، وترك للجهد البشري أن يضم أجزاءً إلى بعضها بما يناسب احتياجات إنسان ، أو احتياجات جيل ، بما لا يتناهى ، وهذا محل جهد العلماء ، إنْ في السلوك ، أو في الأخلاق ، أو في العبادات ، أوفي المعاملات ، أو في العقائد ، أو في أصول الاستنباط ،

أو غير ذلك . إن الإدراك الصحيح لهذا الموضوع يجعل الإنسان على مدارج الفهم الصحيح عن الله عز وجل في آياته في الكون ، وفي الإنسان وفي القرآن .

٥ - من دروس سورة الأحزاب أنها تعرِّفنا كيف يتعامل المسلم مع الأحداث اليومية ، وكيف يتعامل مع المحن على أي مستوى ، وكيف ينبغي أن يكون حاله القلبي ، وسلوكه اليومي .

وسورة الأحزاب تحدّد أُطر الحياة في المجتمع الإسلامي ، وتحدِّد الأخلاقيات العليا للمرأة ، وهي مجموعة قضايا ينبغي أن نَعِيَها حق الوعي في عصرنا .

إن هناك إطاراً للسلوك الأعلى للمرأة ، وهناك إطار هو الحد الأدنى لسلوكيات المرأة ، والمسلم والمسلمة اللذان تضطرهما بعض الظروف لقبول الحد الأدنى عليهما أن ينظرا باحترام إلى من يسير في إطار السلوك الأعلى .

٦ - إن سورة الأحزاب تذكِّرنا بأن على الإنسان أن يحاسب نفسه ، وأن يبقى على ذكر ، وعلى وَجَل من كل إحساس غريب ، وتصوّر غريب ، ومن كل فكر دخيل على القلب ، والنفس ، والشعور واللاشعور ، إنها تذكِّرنا بأن نكون مسلمين ، مستسلمين لله ورسوله ﷺ ، مؤمنين في كل حال ، ملتزمين على كل مستوى . والحمد لله رب العالمين .

☆ ☆ ☆

سورة سبأ

وهـي الـسـورة الـرابعـة والثـلاثـون بحـسـب الرسـم القـرآني
وهي السورة السادسة من المجموعة الأولى من قسم المثاني
وآياتهـا أربـع وخمسـون آيـة
وهـي مكيـة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه

ربنا تقبل منا، إنك أنت السميع العليم

كلمة في سورة سبأ ومحورها :

بعد سورة المائدة تأتي سورة الأنعام في القسم الأول من أقسام القرآن ، وهي مبدوءة بقوله تعالى : ﴿ **الحمد لله** ﴾ ، وههنا بعد سورة الأحزاب - التي فصلت في محور سورتي النساء والمائدة - تأتي سورتان مبدوءتان بقوله تعالى : ﴿ **الحمد لله** ﴾ هما سورتا سبأ وفاطر ، ومن ثَمَّ فالسورتان تفصّلان في محور سورة الأنعام الذي هو :

﴿ **كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون * هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوىٰ إلى السماء فسواهنّ سبع سمٰوات وهو بكل شيء عليم** ﴾ .

إلا أننا نلاحظ بشكل واضح أن هاتين الآيتين اللتين شكلتا محور سورة الأنعام ، هما الآن يشكّلان محورين لسورتي : سبأ وفاطر ، فالآية الأولى تشكّل محور سورة سبأ ، والثانية تشكّل محور سورة فاطر ، يظهر هذا بأدنى تأمّل :

فالملاحظ أن سورة سبأ تبدأ بمقدمة ، ثم يأتي قوله تعالى : ﴿ **وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة ...** ﴾ .

وهو موضوع له علاقة بقوله تعالى من سورة البقرة :

﴿ **كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون** ﴾ .

وسورة فاطر تبدأ بمقدمة ثم يأتي قوله تعالى :

﴿ **يا أيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض لا إله إلا هو فأنّىٰ تؤفكون** ﴾ .

وهو موضوع له علاقة بقوله تعالى : ﴿ **هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوىٰ إلى السماء فسواهنّ سبع سمٰوات وهو بكل شيء عليم** ﴾ .

ومن ثَمَّ قلنا : إن كلّاً من السورتين تفصل آية من الآيتين فصّلت فيهما سورة الأنعام المبدوءة بنفس بداية السورتين ، ومن ارتباط الآيتين ببعضهما في المعنى ، ومن تفصيلهما من قِبَل سورة الأنعام ، ومن البداية المشتركة بين سورة الأنعام وسورتي سبأ وفاطر نتوقع أن هنا تداخلاً في التفصيل ؛ لأن سورة فاطر تفصّل في حيّز محور

سورة سبأ ، والسورتان تفصلان في محوري سورتي المائدة والنساء .

تبدأ سورة سبأ بمقدمة ، ثمّ تجد فيها لازمة تتكرّر ثلاث مرّات هي قوله تعالى : ﴿ **وقال الذين كفروا** ... ﴾ مما يشير إلى أن السير الرئيسي للسورة هو إقامة الحجة على الكافرين فيما يقولون ، كما أنّ محور السورة كان فيه إقامة حجة على الكافرين : ﴿ **كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون** ﴾ ومن ثَمَّ فإننا نستطيع أن نقول من البداية : إن السورة تتألف من مقدمة وثلاثة مقاطع :

المقدمة وتمتدّ إلى نهاية الآية الثانية .

المقطع الأول ويبدأ بقوله تعالى : ﴿ **وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربي** ... ﴾ .

المقطع الثاني ويبدأ بقوله تعالى : ﴿ **وقال الذين كفروا هل ندلّكم على رجل ينبئكم إذا مُزِّقتم كل ممزَّق إنكم لفي خلق جديد** ﴾ ويمتد إلى نهاية الآية (٣٠) .

المقطع الثالث ويبدأ بقوله تعالى : ﴿ **وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه** ... ﴾ ويمتد حتى نهاية السورة .

....

نقول :

قال الألوسي رحمه الله في تقديمه لسورة سبأ :

(مكية كما روي عن ابن عباس ، وقتادة ، وفي التحرير هي مكية بإجماعهم ، وقال ابن عطية : مكية إلا قوله تعالى : ﴿ **ويرى الذين أوتوا العلم** ﴾ وروى الترمذي عن فروة بن مسيكة المرادي قال : أتيت النبي ﷺ فقلت : يا رسول الله ألا أقاتل من أدبر من قومي ؟ الحديث ، وفيه وأنزل في سبأ ما أنزل فقال رجل : يا رسول الله وما سبأ ؟ الحديث . قال ابن الحصار : هذا يدل على أن القصة مدنية ، لأن مهاجرة فروة بعد إسلام ثقيف سنة تسع ، ويحتمل أن يكون قوله وأنزل حكاية عما تقدم نزوله قبل هجرته ، فلا يأبى كونها مكية . وآياتها خمس وخمسون في الشامي ، وأربع وخمسون في الباقين ، وما قيل خمس وأربعون سهو من قلم الناسخ . ووجه اتصالها بما قبلها أن الصفات التي أجريت على الله تعالى في مفتتحها مما يناسب الحكم التي في مختتم ما قيل من قوله تعالى : ﴿ **ليعذِّب الله المنافقين والمنافقات** ﴾ الخ .

وأيضاً قد أشير فيما تقدم إلى سؤال الكفار عن الساعة على جهة الاستهزاء ، وههنا قد حكي عنهم إنكارها صريحاً ، والطعن بمن يقول بالمعاد على أتمّ وجه ، وذكر مما يتعلق بذلك ما لم يذكر هناك . وفي البحر أن سبب نزولها أن أبا سفيان قال لكفار مكة لما سمعوا ﴿ **ليعذِّب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات** ﴾ : كأن محمداً يتوَعَّدنا بالعذاب بعد أن نموت ، ويتخوّفنا بالبعث ، واللات والعزى لا تأتينا الساعة أبداً ، ولا نُبعث ، فقال الله تعالى : قل يا محمد بلى وربي لتبعثن ، قاله مقاتل ، وباقي السورة تهديد لهم وتخويف ، ومن هذا ظهرت المناسبة بين هذه السورة والتي قبلها . انتهى) .

وقال صاحب الظلال في تقديمه لسورة سبأ :

(القضايا التي تعالجها السور المكيّة في صور شتى ، تعرض في كل سورة في مجال كوني ، مصحوبة بمؤثرات منوعة ، جديدة على القلب في كل مرَّة . ومجال عرضها في سورة سبأ هذه هو ذلك المجال ، ممثلاً في رقعة السماوات والأرض الفسيحة ، وفي عالم الغيب المجهول المرهوب . وفي ساحة الحشر الهائلة . وفي أعماق النفس المطوية اللطيفة . وفي صحائف التاريخ المعلومة والمجهولة ، وفي مشاهد من ذلك التاريخ عجيبة غريبة . وفي كل منها مؤثر موح للقلب البشري ، موقظ له من الغفلة والضيق والهمود) .

....

وبعد ، فلنبدأ عرض السورة .

المقدمة

وتشمل الآية الأولى والثانية وهذه هي البسملة :

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾

التفسير :

﴿ **الحمد لله الذي له ما في السموٰت وما في الأرض وله الحمد في الآخرة** ﴾ قال ابن كثير : (يخبر تعالى عن نفسه الكريمة أنّ له الحمد المطلق في الدنيا والآخرة ؛ لأنّه المنعم المتفضّل على أهل الدنيا والآخرة ، المالك لجميع ذلك ، الحاكم في جميع ذلك) وقال النسفي : (وإنّما يحمد أهل الجنة سروراً بالنعيم ، وتلذذاً بما نالوا من الأجر العظيم) وقال : (غير أن الحمد هنا « أي في الدنيا » واجب لأن الدنيا دار تكليف وثَمَّ « أي في الآخرة » لا ، لعدم التكليف) ﴿ **وهو الحكيم** ﴾ في أقواله وأفعاله ، وشرعه وقدره ﴿ **الخبير** ﴾ الذي لا تخفىٰ عليه خافية ، ولا يغيب عنه شيء ، وقال مالك عن الزهري : خبير بخلقه ، حكيم بأمره ﴿ **يعلم ما يلجُ** ﴾ أي ما يدخل ﴿ **في الأرض** ﴾ من حب مبذور ، وقطر نازل في أعماق الأرض وأجزائها ، وما يدفن فيها من أموات ، ودفائن وغير ذلك ﴿ **وما يخرج منها** ﴾ من نبات ومعادن ومياه جوفية وغير ذلك ﴿ **وما ينزل من السماء** ﴾ من مطر ورزق وبركات ، وأوامر ونواه وقدر ﴿ **وما يعرج فيها** ﴾ أي وما يصعد إليها من الملائكة والدعوات ، والأعمال الصالحة وغير ذلك ﴿ **وهو الرحيم** ﴾ بإنزال ما يحتاجون إليه ﴿ **الغفور** ﴾ لما يجترئون عليه ، وقال ابن كثير : (الرحيم بعباده ؛ فلا يعاجل عصيانهم بالعقوبة ، الغفور عن ذنوب التائبين إليه المتوكّلين) .

نقل :

قال صاحب الظلال رحمه الله عند قوله تعالى :

﴿ **يعلم ما يلج في الأرض ، وما يخرج منها ، وما ينزل من السماء ، وما يعرج فيها** ﴾ : (ويقف الإنسان أمام هذه الصفحة المعروضة في كلمات قليلة ، فإذا هو أمام حشد هائل عجيب من الأشياء ، والحركات ، والأحجام ، والأشكال ، والصور ، والمعاني ، والهيئات ، لا يصمد لها الخيال !

ولو أن أهل الأرض جميعاً وقفوا حياتهم كلها يتتبّعون ويحصون ما يقع في لحظة واحدة ، مما تشير إليه الآية لأعجزهم تتبعه وإحصاؤه عن يقين !

فكم من شيء في هذه اللحظة الواحدة يلج في الأرض ؟ وكم من شيء في هذه اللحظة يخرج منها ؟ وكم من شيء في هذه اللحظة ينزل من السماء ؟ وكم من شيء في هذه اللحظة يعرج فيها ؟

كم من شيء يلج في الأرض ؟ كم من حبة تختبيء ، أو تخبأ في جنبات الأرض ؟ كم من دودة ومن حشرة ومن هامة ومن زاحفة تلج في الأرض في أقطارها المترامية ؟ كم من قطرة ماء ومن ذرة غاز ، ومن إشعاع كهرباء تندس في الأرض في أرجائها الفسيحة ؟ وكم وكم مما يلج في الأرض وعين الله عليه ساهرة لا تنام ؟

وكم يخرج منها ؟ كم من نبتة تنبثق ؟ وكم من نبع يفور ؟ وكم من بركان يتفجّر ؟ وكم من غاز يتصاعد ؟ وكم من مستور ينكشف ؟ وكم من حشرة تخرج من بيتها المستور ؟ وكم وكم مما يُرىٰ ومما لا يُرىٰ ، ومما يعلمه البشر ومما يجهلونه وهو كثير ؟

وكم مما ينزل من السماء ؟ كم من نقطة مطر ؟ وكم من شهاب ثاقب ؟ وكم من شعاع محرق ، وكم من شعاع منير ؟ وكم من قضاء نافذ ومن قدر مقدور ؟ وكم من رحمة تشمل الوجود وتخص بعض العبيد . وكم من رزق يبسطه الله لمن يشاء من عباده ويقدر .. وكم وكم مما لا يحصيه إلا الله .

وكم مما يعرج فيها ؟ كم من نفس صاعد من نبات أو حيوان أو إنسان أو خلق آخر مما لا يعرفه الإنسان ؟ وكم من دعوة إلى الله معلنة أو مستسرة لم يسمعها إلا الله في علاه .

وكم من روح من أرواح الخلائق التي نعلمها أو نجهلها متوفَّاة . وكم من ملك يعرج بأمر من روح الله ؟ وكم من روح يرف في هذا الملكوت لا يعلمه إلا الله ؟

ثم كم من قطرة بخار صاعدة من بحر ، ومن ذرة غاز صاعدة من جسم ؟ وكم وكم مما لا يعلمه سواه ؟!

كم في لحظة واحدة ؟ وأين يذهب علم البشر وإحصاؤهم لما في اللحظة الواحدة ولو قضوا الأعمار الطوال في العدّ والإحصاء ؟ وعلم الله الشامل يحيط بهذا كله في كل مكان وفي كل زمان .. وكل قلب وما فيه من نوايا وخواطر وماله من حركات وسكنات تحت عين الله ، وهو مع هذا يستر ويغفر .. ﴿ **وهو الرحيم الغفور** ﴾ .

وإن آية واحدة من القرآن كهذه الآية لمما يوحي بأن هذا القرآن ليس من قول البشر) .

كلمة في السياق :

أخبرنا الله عزّ وجلّ في مقدّمة السورة عن استحقاقه للحمد ؛ لأنه المالك ، والعليم ، والحكيم ، والخبير ، والرّحيم ، والغفور ، فموضوع وجوده عزّ وجلّ بديهية ، وموضوع حمده وشكره بديهية ، وهذه المقدمة التي تأتي بين يدي مناقشة أقوال الكافرين تشعر أنّ كفر الكافرين ، وعدم شكر الجاحدين في غير محله ، هذا بالنّسبة لمحلّ المقدّمة في سياق السورة . أمّا محلّ هذه المقدّمة بالنسبة للسّياق العام ، فإنّ السورة تفصّل في محور سورة الأنعام ﴿ **كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون** ﴾ التي تفيد : أنّ الكفر مستنكَر ، ومتعجب منه ، وتأتي مقدّمة السورة هنا لتبين بأن الله عز وجل يستحق الحمد بدل الكفر .

﴿ **هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوىٰ إلى السماء فسوَّاهنّ سبع سمٰوات وهو بكل شيء عليم** ﴾ فهو يستحق الحمد على ذلك كله ؛ لنعمه وكماله ، فكيف يكفره الكافرون ، ولا يشكره الجاحدون !

فمقدّمة السّورة تبيّن ما يستحقه الله عز وجل لكماله وإنعامه ، فالصلة بين محور السورة والمقدمة واضحة ، والصلة بين مقدّمة السورة ومقاطعها كذلك واضحة ، فلننتقل إلى المقطع الأول .

المقطع الأول

ويمتدّ من الآية (٣) إلى نهاية الآية (٦) وهذا هو :

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ لِّيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾

التفسير :

﴿ **وقال الذين كفروا** ﴾ بالله ﴿ **لا تأتينا الساعة** ﴾ هذا منهم نفي للبعث ، وإنكار لمجيء الساعة ﴿ **قل بلى وربي لتأتينّكم** ﴾ أي ليس الأمر إلا إتيانها ، أكّد مجيئها بحرف الجواب (بلى) وبالقسم بالله ، وباللام ، وبنون التوكيد ، وهذا غاية التوكيد ؛ للتدليل على صحّة المجيء ، وفيه بيان أنّ إنكارهم بلغ الغاية ، حتى احتاج الجواب إلى هذه المؤكّدات ﴿ **عالم الغيب** ﴾ أتْبع التوكيد القسمي بهذا الوصف ؛ لأنّ عظمة المقسم به تؤذن بقوة حال المقسَم عليه ، وهو إتيان الساعة ، وبشدّة ثباته واستقامته ، لأنّه بمنزلة الاستشهاد على الأمر ، وكلما كان المستشهد به أرفع منزلة كانت الشهادة أقوى وآكد ، والمستشهد عليه أثبت وأرسخ ، ولمّا كانت قيامة الساعة من مشاهير الغيوب ، وأدخلها في الخفية ، كان الوصف بما يرجع إلى علم الغيب أولى وأحق ﴿ **لا يعزب عنه** ﴾ أي لا يغيب عنه ﴿ **مثقال ذرّة** ﴾ أي قدر ذرة ﴿ **في السموٰت ولا في الأرض** ﴾ ﴿ **ولا أصغر من ذلك** ﴾ من مثقال ذرة ﴿ **ولا أكبر** ﴾ من مثقال ذرة ﴿ **إلا في كتاب مبين** ﴾ أي إلا وهو مذكور في اللوح المحفوظ ، فالجميع مندرج تحت علمه ، ومسجّل ،

فلا يخفىٰ عليه شيء ، فالعظام وإن تلاشت وتفرّقت وتمزّقت فهو عالم أين ذهبت ، وأين تفرّقت ، ثم يعيدها كما بدأها أول مرة ، فإنه بكل شيء عليم ، وهكذا عرفنا من خلال ما وصف الله عز وجل ذاته في الآية دليل على قيام الساعة ، ثم بين تعالى حكمته في إعادة الأبدان وقيام الساعة بقوله ﴿ **ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة** ﴾ لما قصدوا فيه من مدارج الإيمان ﴿ **ورزق كريم** ﴾ لما صبروا عليه من مناهج الإحسان ﴿ **والذين سَعَوْا في آياتنا معاجزين** ﴾ أي سعوا في ردّ القرآن مسابقين ظانّين أنّهم يفوتوننا ، قال ابن كثير في تفسير الآية : أي سعوا في الصدّ عن سبيل الله ، وتكذيب رسله ﴿ **أولئك لهم عذاب من رجز أليم** ﴾ أي لهم عذاب مؤلم ، ذكرت هاتان الآيتان تعليلاً لإتيان الساعة ، فالحكمة في ذلك أن ينعّم السعداء من المؤمنين ، ويعذّب الأشقياء من الكافرين ﴿ **ويرىٰ الذين أوتوا العلم الذي أُنزل إليك من ربك هو الحق** ﴾ أي الصدق ﴿ **ويهدي** ﴾ هذا الكتاب ﴿ **إلى صراط العزيز الحميد** ﴾ وهو دين الله قال ابن كثير : (هذه حكمة أخرىٰ « أي من حكم إتيان الساعة » معطوفة على التي قبلها ، وهي أن المؤمنين بما أنزل على الرسل إذا شاهدوا قيام الساعة ، ومجازاة الأبرار والفجار بالذي كانوا قد علموه من كتب الله تعالى في الدنيا ، رأوه حينئذ عين اليقين ...) فمن حِكَم إتيان اليوم الآخر أن يرىٰ أهل العلم أن القرآن حق ، وأنه هاد إلى صراط الله العزيز ، أي المنيع الجناب الذي لا يغالب ، ولا يمانع ، بل قد قهر كل شيء وغلبه ، الحميد في جميع أقواله وأفعاله وشرعه وقدره ، فهو المحمود في ذلك كله جلّ وعلا ، وهناك اتجاه يقول : إنّ الآية الأخيرة مستأنفة ، وليست معطوفة على ما قبلها ، فهي تقرّر أن أهل العلم يعلمون أن القرآن حق ، ويهدي إلى صراط الله ، وعلى هذا فالآية تقرر أن هذا القرآن حق ، يعرف ذلك العالمون ، وإذ كان الأمر كذلك ، وإذ كان القرآن الذي هو حق يقرّر مجيء الساعة ، فذلك دليل على أنّ الساعة آتية .

نقل :

قال صاحب الظلال عند قوله تعالى : ﴿ **ويهدي إلى صراط العزيز الحميد** ﴾ :

(وصراط العزيز الحميد هو المنهج الذي أراده للوجود ؛ واختاره للبشر لينسّق خطاهم مع خطى هذا الكون الذي يعيشون فيه . وهو الناموس الذي يهيمن على أقدار هذا الكون كله ، بما فيه من الحياة البشرية التي لا تنفصل في أصلها ونشأتها ،

ولا في نظامها وحركتها عن هذا الكون وما فيه ومن فيه .

يهدي إلى صراط العزيز الحميد بما ينشئه في إدراك المؤمن من تصور للوجود وروابطه وعلاقاته وقيمه ؛ ومكان هذا الإنسان منه ، ودوره فيه ؛ وتعاون أجزاء هذا الكون من حوله – وهو معها – في تحقيق مشيئة الله وحكمته في خلقه ؛ وتناسق حركات الجميع وتوافقها في الاتجاه إلى بارىء الوجود .

ويهدي إلى صراط العزيز الحميد بتصحيح منهج التفكير ، وإقامته على أسس سليمة ، متّفقة مع الإيقاعات الكونية على الفطرة البشرية ؛ بحيث يؤدي هذا المنهج بالفكر البشري إلى إدراك طبيعة هذا الكون وخواصّه وقوانينه ، والاستعانة بها ، والتجاوب معها بلا عداء ولا اصطدام ولا تعويق .

ويهدي إلى صراط العزيز الحميد بمنهجه التربوي الذي يعدُّ الفرد للتجاوب والتناسق مع الجماعة البشرية . ويعدُّ الجماعة البشرية للتجاوب والتناسق – أفراداً وجماعات – مع مجموعة الخلائق التي تعمر هذا الكون ! ويعدُّ هذه الخلائق كلها للتجاوب والتناسق مع طبيعة الكون الذي تعيش فيه .. كل ذلك في بساطة ويسر ولين .

ويهدي إلى صراط العزيز الحميد بما فيه من نظم وتشريعات مستقيمة مع فطرة الإنسان وظروف حياته ومعاشه الأصيلة ، متناسقة مع القوانين الكلية التي تحكم بقية الأحياء ، وسائر الخلائق ؛ فلا يشذّ عنها الإنسان بنظمه وتشريعاته . وهو أمة من هذه الأمم في نطاق هذا الكون الكبير .

إن هذا الكتاب هو الدليل إلى هذا الصراط . الدليل الذي وضعه خالق الإنسان وخالق الصراط ، العارف بطبيعة هذا وذاك . وإنك لتكون حسن الطالع وأنت تقوم برحلة في طريق لو حصلت على دليل من وضع المهندس الذي أنشأ هذا الطريق . فكيف بمنشىء الطريق ومنشىء السالك في الطريق !؟) .

كلمة في السياق :

في مقدمة السورة قرر الله عز وجل أن له الحمد في الآخرة كما رأينا ، وهذا إثبات لليوم الآخر ، ثم جاء المقطع الأول يذكر كفر الكافرين بالآخرة ، ويردّ عليهم ، ويذكر حكمة مجيء اليوم الآخر ، ففيما بين المقدمة والمقطع الأول صلة ظاهرة ، وأما صلة المقطع بمحور السورة فذلك أنّ محور السورة هو ﴿ **كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً**

فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون ﴾ فقد قرر الله عز وجل أن البشر راجعون إليه ، وقد جاء الرجوع إليه في المحور بصيغة التقرير في سياق الإنكار والتعجيب ممّن يكفر بالله ، وجاء هذا المقطع ليقرر أن الكافرين لا يؤمنون بالرجوع إليه ، ويردّ عليهم ، ومن المقطع ومحور السورة نفهم أنّ الكفر باليوم الآخر فرع الكفر بالله عز وجل .

....

فـائـدة :

بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربي لتأتينكم ...** ﴾ . قال ابن كثير : (هذه إحدىٰ الآيات الثلاث التي لا رابع لهنّ مما أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يقسم بربه العظيم على وقوع المعاد لمّا أنكره من أنكره من أهل الكفر والعناد ، فإحداهن في سورة يونس عليه السلام وهي قوله تعالى : ﴿ **ويستنبئونك أحقٌّ هو قل إي وربي إنه لحق وما أنتم بمعجزين** ﴾ ، والثانية هذه ﴿ **وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربي لتأتينكم** ﴾ ، والثالثة في سورة التغابن وهي قوله تعالى : ﴿ **زعم الذين كفروا أن لن يُبعَثوا قل بلىٰ وربي لتُبعثُنَّ ثم لتنبؤنَّ بما عملتم وذلك على الله يسير** ﴾ .

ولننتقل إلى المقطع الثاني .

☆ ☆ ☆

المقطع الثاني

ويمتدّ من الآية (٧) إلى نهاية الآية (٣٠) وهذا هو :

المجموعة الأولى

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي
خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ
فِي ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ
ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ
إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾

المجموعة الثانية

* وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ
﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِي ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا ۖ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ
﴿١١﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ
ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ
ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ
رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا

عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ
ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾

المجموعة الثالثة

لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ
وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ
وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ
جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ
ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ۖ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا
ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ
وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَّقَ
عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن
سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ
شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾

المجموعة الرابعة

قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا

فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ
ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ
قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾ ۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ
قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا
وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ
ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ۖ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ
﴿٢٧﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ
لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾

المجموعة الخامسة

وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ
لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾

ملاحظة في السياق :

يلاحظ أن المقطع تكلّم في بدايته بشكل صريح عن اليوم الآخر :

﴿ **وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مُزّقتم كلَّ مُمزّق إنكم لفي خلق جديد** ... ﴾ وأن المقطع في نهايته تكلم عن اليوم الآخر بشكل صريح : ﴿ **ويقولون متىٰ هذا الوعد إن كنتم صادقين** ... ﴾ .

وجاءت في الوسط ثلاث مجموعات : مجموعة تكلّمت عن داود وسليمان عليهما

السلام ، ومجموعة تكلّمت عن سبأ ، ومجموعة صدرت فيها أوامر لرسول الله ﷺ أن يقول فيها كلاماً ، ومن ثَمَّ ففقراتها مبدوءة بـ (قل ...) وسنرى محلّ كلٍّ في السياق الخاص والعام ، وإنّما سجّلنا هذه الملاحظة لنؤكّد على وحدة المقطع ، بدليل وحدة بدايته ونهايته ، ممّا يشير إلى أنّ ما سيق في الوسط يخدم ما جاء في أوله وآخره ، وسنعرضه على أنّه خمس مجموعات : مقدّمة ، وخاتمة ، وثلاث مجموعات في الوسط .

تفسير المجموعة الأولى

﴿ **وقال الذين كفروا هل ندلّكم على رجل** ﴾ يعنون محمداً ﷺ ، وإنما نكّروه مع أنه كان مشهوراً عَلَماً في قريش ، وكان إنباؤه بالبعث شائعاً عندهم ؛ تجاهلاً به ، وبأمره ﴿ **ينبئكم إذا مُزِّقتم كل مُمَزَّق** ﴾ أي فرّقتم كل تفريق ، أي تفرّقت أجسادكم في الأرض ، وذهبت فيها كل مذهب ، أي يحدّثكم بأعجوبة من الأعاجيب أنكم تبعثون وتنشئون خلقاً جديداً بعد أن تكونوا رفاتاً وتراباً ، قد تمزّقت أجسادكم ﴿ **إنكم** ﴾ أي بعد هذه الحال ﴿ **لفي خلق جديد** ﴾ أي تعودون أحياءً ترزقون بعد ذلك ، قال ابن كثير : (هذا إخبار من الله عز وجل عن استبعاد الكفرة الملحدين قيام الساعة ، واستهزائهم بالرسول ﷺ في إخباره بذلك ... وهو في هذا الإخبار لا يخلو أمره عن قسمين : إما أن يكون قد تعمّد الافتراء على الله تعالى أنّه قد أوحى إليه ذلك أو أنّه لم يتعمّد لكن لُبِّس عليه كما يُلبّس على المعتوه المجنون ...) ومن ثَمَّ قال تعالى حكاية عن قولهم في رسوله : ﴿ **أفترى على الله كذباً** ﴾ أي أهو مفتر على الله كذباً فيما ينسب إليه من ذلك ﴿ **أم به جِنَّة** ﴾ أي أم به جنون يوهمه ذلك ويلقيه على لسانه ؟! قال تعالى نافياً هذا وهذا : ﴿ **بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب** ﴾ أي في الكفر المفضي بهم إلى عذاب الله ﴿ **والضلال البعيد** ﴾ من الحق في الدنيا ، أي ليس الأمر كما زعموا ولا كما ذهبوا إليه بل محمد ﷺ هو الصادق البارّ الرّائد الذي جاء بالحق ، وهم الكذبة الجهلة الأغبياء السائرون في طريق العذاب ، والضالّون الضلال البعيد ؛ لبعدهم عن الجادّة . قال النسفي في الآية : (قال سبحانه وتعالى : ليس محمد ﷺ من الافتراء والجنون في شيء ، وهو مبرّأ منهما ، بل هؤلاء القائلون الكافرون بالبعث واقعون في عذاب النار ، وفيما يؤديهم إليه من الضلال عن الحق ، وهم غافلون عن ذلك ، وذلك أجنّ الجنون ، جعل وقوعهم في العذاب رسيلاً لوقوعهم في الضلال ، كأنهما كائنان في وقت واحد ، لأن الضلال لما كان العذاب من لوازمه جعلا كأنّهما

مقترنان) ثم أتمَّ الله عز وجل الجواب بلفت نظرهم إلى مظاهر قدرته في خلق السمٰوات والأرض ، وإلى قدرته تعالى على تعذيبهم في الدنيا ، وفي ذلك إقامة حجة عليهم ، وإنذار لهم فقال : ﴿ **أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض** ﴾ فلو أنهم رأوا لأيقنوا بقدرة الله التي لا يعجزها شيء ، وبالتالي لأيقنوا باليوم الآخر ، ولكن أعمتهم الألفة ، فلم يعودوا يشاهدون عظمة الخلق والخالق ﴿ **إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كِسَفاً من السماء** ﴾ أي قطعاً ، ومن المعلوم أن النيازك التي تصطدم بالجو يومياً لو أنها تصل إلى الأرض بأن كان حجمها أكبر مما هي عليه فإن حياة الإنسان على الأرض تكون مهددة يومياً . وقد وصلت بعض النيازك إلى الأرض فأحدثت فيها حفراً كبيرة ، قال ابن كثير : (أي لو شئنا لفعلنا بهم ذلك الخسف ، أو الإسقاط ؛ بظلمهم وقدرتنا عليهم ، ولكن نؤخر ذلك لحلمنا وعفونا) ﴿ **إن في ذلك لآية** ﴾ أي لدلالة ﴿ **لكل عبد منيب** ﴾ أي فطن لبيب ، رجَّاع إلى الله ، مطيع له قال النسفي : (إذِ المنيب لا يخلو من النظر في آيات الله ، على أنه قادر على كل شيء ، من البعث ، ومن عقاب من يكفر به) وقال ابن كثير في قوله تعالى : ﴿ **إن في ذلك لآية لكل عبد منيب** ﴾ : (... على قدرة الله تعالى على بعث الأجساد ، ووقوع المعاد ، لأن من قدر على خلق هذه السمٰوات في ارتفاعها واتّساعها ، وهذه الأرضين في انخفاضها وأطوالها وأعراضها ، إنه لقادر على إعادة الأجسام ، ونشر الرميم من العظام ...) وقد دلت الآية على أن من اتصف بصفة الإنابة إلى الله بالتوبة الدائمة ، هو الذي يرىٰ في السمٰوات والأرض آية على قدرة الله على الخلق ، والبعث ، وآية على قدرته على التعذيب والانتقام .

....

كلمة في السياق :

١ - أقامت هذه المجموعة الحجَّة على منكري البعث من خلال لفت النّظر إلى قدرة الله على العذاب في الدنيا ، بإنزال الكسف من السماء ، وبالخسف في الأرض ، فالقادر على ذلك ، قادر على التعذيب في اليوم الآخر ، وقادر بالتالي على إيجاد اليوم الآخر ، ولقد جاء الكلام عن اليوم الآخر في مقدّمة السّورة ، وفي المقطع الأول ، وفي هذه المجموعة ، فالسّياق واحد في السّورة ، وصلة ذلك بمحور السّورة من سورة البقرة واضحة ، ففي المحور جاء قوله تعالى : ﴿ **ثمّ إليه ترجعون** ﴾ .

٢ - إنّ محور سورة سبأ هو قوله تعالى : ﴿ **كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثمّ يميتكم ثم يحييكم ثمّ إليه ترجعون** ﴾ .

إن صيغة الاستفهام في هذه الآية تفيد الإنكار والتعجيب ، فالكفر مستنكر ، والكفر عجيب ، وإذا كان الكفر بالله مستنكراً ، فالأصل إذن هو الإيمان ، وإذا كان الكفر بالله عجيباً ، فالأصل إذاً هو الشكر ، فإذا أدركنا هذه المعاني عرفنا سرَّ مجيء قصة داود وسليمان المؤمنَيْن الشاكرَيْن في هذا السياق ، وأدركنا سرّ مجيء قوله تعالى ههنا : ﴿ **اعملوا آل داود شكراً وقليل من عبادي الشكور** ﴾ .

إنّ قصة داود وسليمان عليهما السلام في هذا السياق ترينا الموقف السّليم للإنسان السّليم : إنّه الشكر وليس الكفر ، وصلة ذلك بسياق السورة وبمحورها واضحة .

فلنر المجموعة الثانية من المقطع الثاني .



تفسير المجموعة الثانية

﴿ **ولقد آتينا داود منا فضلاً** ﴾ ثم بيَّن ما هو هذا الفضل ﴿ **يا جبالُ** ﴾ أي قلنا يا جبال ﴿ **أوِّبي معه** ﴾ أي رجّعي معه التسبيح قال النسفي : ومعنى تسبيح الجبال أن الله تعالى يخلق فيها تسبيحاً ، فيسمع منها كما يسمع من المسبّح معجزة لداود عليه السلام ﴿ **والطير** ﴾ أي قلنا للطير أوّبي معه كذلك ﴿ **وألنّا له الحديد** ﴾ أي وجعلناه له ليّناً كالطين المعجون ، يصرفه بيده كيف يشاء من غير نار ، ولا ضرب بمطرقة ﴿ **أن اعمل سابغات** ﴾ أي أمرناه أن اعمل دروعاً سابغات ، أي واسعة تامّة ﴿ **وقدّر في السَّرد** ﴾ السَّرد نسج الدروع ومعنى : وقدِّر في السرد : أي لا تجعل المسامير دقاقاً فتفلق ، ولا غلاظاً فتفصم الحِلَق ، واجعله بقدر ﴿ **واعملوا** ﴾ أي يا آل داود ، ويا داود ﴿ **صالحاً** ﴾ أي عملاً خالصاً يصلح للقبول ، أي في الذي أعطاهم الله من النعم ﴿ **إني بما تعملون بصير** ﴾ أي مراقب لكم ، بصير بأعمالكم وأقوالكم ، لا يخفىٰ عليّ من ذلك شيء ، وسأجازيكم عليه ﴿ **ولسليمان الريح** ﴾ أي وسخّرنا لسليمان الريح ﴿ **غدوُّها شهر ورواحها شهر** ﴾ أي جريها بالغداة مسيرة شهر ، وجريها بالعشي كذلك ، وهل هذا التسخير بأن تطيعه في الإمطار وتسيير السفن ، أو تسخيرها بأن تحمله من مكان إلى مكان ؟ ليس هنالك نصّ قاطع في هذا إلا أن عامة المفسّرين يذكرون الثاني فقط . قال ابن كثير : (لما ذكر تعالى ما أنعم به على داود ، عطف بذكر ما أعطىٰ ابنه سليمان عليهما الصلاة والسلام ، من تسخير الريح له ، تحمل بساطه ، غدوها شهر ورواحها شهر) ﴿ **وأسَلْنا له عين القِطْر** ﴾ أي عين النحاس ﴿ **ومن الجنّ من يعمل بين يديه بإذن ربه** ﴾ أي وسخّرنا له الجن يعملون بين يديه بإذن ربه ، أي بقدره وتسخيره لهم ﴿ **ومن يزغ منهم** ﴾ أي ومن يعدل من الشياطين ﴿ **عن أمرنا** ﴾ الذي أمرنا به ، من طاعة سليمان ﴿ **نذقه من عذاب السّعير** ﴾ أي الحريق ﴿ **يعملون له ما يشاء من محاريب** ﴾ أي مساجد ، أو مساكن حسنة ﴿ **وتماثيل** ﴾ أي وصوراً مجسّدة كالسّباع والطيور وغير ذلك ، قال النسفي : (وكان التصوير مباحاً حينئذٍ) ﴿ **وجفان** ﴾ جمع جفنة ﴿ **كالجواب** ﴾ جمع جابية : وهي الحياض الكبار ﴿ **وقدور راسيات** ﴾ أي ثابتات في أماكنها لا تتحرك ولا تتحوّل عن أماكنها لعظمها ﴿ **اعملوا آل داود شكراً** ﴾ أي وقلنا لهم اعملوا شكراً على ما أنعم به عليكم في الدين والدنيا ﴿ **وقليل من عبادي الشكور** ﴾ أي المتوفر على أداء الشكر ، الباذل وسعه فيه ، قد شغل به قلبه ولسانه وجوارحه ، اعتقاداً واعترافاً وكدحاً ، وهذا

إخبار عن الواقع ﴿ **فلما قضينا عليه** ﴾ أي على سليمان ﴿ **الموت ما دلّهم** ﴾ أي مادلّ الجن وآل داود ﴿ **على موته إلا دابّة الأرض** ﴾ أي الأرضة ﴿ **تأكل مِنْسأته** ﴾ أي عصاه ﴿ **فلمّا خرَّ** ﴾ أي سقط سليمان عليه السلام ﴿ **تبيّنت الجن** ﴾ أي علمت الجن ﴿ **أن لو كانوا يعلمون الغيب** ﴾ كما كانوا يتوهَّمون ، ويوهمون الناس ﴿ **ما لبثوا** ﴾ بعد موت سليمان عليه السلام ﴿ **في العذاب المهين** ﴾ أي في العذاب المذلّ ، وليس عن رسولنا عليه الصلاة والسلام أو في كتاب الله ما يبيّن لنا كيف تمَّ الحادث ، وما مقدار الزمن الكائن بين الوفاة والاكتشاف عقب السقوط ، وإنما هي روايات مرجعها علماء أهل الكتاب ، وليس في ذكرها عبرة ولا عظة ، وإنّما العبرة والعظة موجودتان فيما ذكر الله عز وجل .

....

نُقُول :

قال صاحب الظلال :

(وتسخير الريح لسليمان تتكاثر حوله الروايات ، وتبدو ظلال الإسرائيليات واضحة في تلك الروايات - وإن تكن كتب اليهود الأصلية لم تذكر شيئاً عنها - والتحرّج من الخوض في تلك الروايات أولى . والاكتفاء بالنص القرآني أسلم . مع الوقوف به عند ظاهر اللفظ لا نتعدّاه . ومنه يستفاد أن الله سخر الريح لسليمان ، وجعل غدوها أي توجهها غادية إلى بقعة معينة (ذكر في سورة الأنبياء أنها الأرض المقدسة) يستغرق شهراً ، ورواحها أي انعكاس اتجاهها في الرواح يستغرق شهراً كذلك . وفق مصلحة تحصل من غدوّها ورواحها ، يدركها سليمان - عليه السلام - ويحققها بأمر الله ... ولا نملك أن نزيد هذا إيضاحاً حتى لا ندخل في أساطير لا ضابط لها ولا تحقيق .

﴿ **وأسلْنا له عين القِطْر** ﴾ .. والقِطْر : النحاس . وسياق الآيات يشير إلى أن هذا كان معجزة خارقة كإلانة الحديد لداود . وقد يكون ذلك بأن فجَّر الله له عيناً بركانية من النحاس المذاب من الأرض . أو بأن ألهمه الله إذابة النحاس حتى يسيل ويصبح قابلاً للصبِّ والطرق . وهو فضل من الله كبير .

﴿ **ومن الجنَّ من يعمل بين يديه بإذن ربه** ﴾ ..

وكذلك سخّر له طائفة من الجن يعملون بأمره بإذن ربه . والجن : كل مستور لا يراه البشر . وهناك خلق سماهم الله الجن ولا نعرف نحن من أمرهم شيئاً إلا ما ذكره الله عنهم ، وهو يذكر هنا أن الله سخّر طائفة منهم لنبيه سليمان - عليه السلام - فمن عصى منهم ناله عذاب الله) .

وقال رحمه الله عند قوله تعالى : ﴿ **فلمّا قضينا عليه الموت ما دلّهم على موته إلا دابة الأرض تأكل مِنْسأته * فلما خرَّ تبيَّنت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين** ﴾ :

(وقد روي أنه كان متّكئاً على عصاه حين وافاه أجله ؛ والجن تروح وتجيء مسخّرة فيما كلفها إياه من عمل شاق شديد ؛ فلم تدرك أنه مات ، حتى جاءت دابة الأرض . قيل إنها الأرضة ، التي تتغذى بالأخشاب ، وهي تلتهم أسقف المنازل وأبوابها وقوائمها بشراهة فظيعة ، في الأماكن التي تعيش فيها . وفي صعيد مصر قرى تقيم منازلها دون أن تضع فيها قطعة خشب واحدة خوفاً من هذه الحشرة التي لا تبقي على المادة الخشبية ولا تذر . فلمّا نخرت عصا سليمان لم تحمله فخرَّ على الأرض . وحينئذ فقط علمت الجن موته . وعندئذ ﴿ **تبيّنت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين** ﴾ .. فهؤلاء هم الجن الذين يعبدهم بعض الناس . هؤلاء هم سخرة لعبد من عباد الله . وهؤلاء هم محجوبون عن الغيب القريب ؛ وبعض الناس يطلب عندهم أسرار الغيب البعيد !) .

كلمة في السياق :

١ - نلاحظ أن هذه المجموعة ختمت بقوله تعالى : ﴿ **اعملوا آل داود شكراً وقليل من عبادي الشكور * فلما قضينا عليه الموت ما دلّهم على موته إلا دابّة الأرض تأكل مِنْسأته فلمّا خرَّ تبيَّنت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين** ﴾ فلنتذكر صلة هذا بمقدمة السورة ، قرّر الله عز وجل في الآية الأولى من السورة استحقاقه للحمد ﴿ **الحمد لله الذي له ما في السمٰوات وما في الأرض وله الحمد في الآخرة** ... ﴾ وفي الآية الثانية قرّر الله عز وجل اختصاصه بالعلم ﴿ **يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها** ... ﴾ وقد جاءت قصة سليمان وداود عليهما السلام لتقرر استحقاقه للشكر ، وختمت قصة داود وسليمان بما ينفي أن يكون غيره عالماً بالغيب حتىٰ ولو كانوا الجن الذين بلغ

من قوّتهم أن صنعوا لسليمان هذه الأشياء الضخمة التي تحدّثت عنها الآيات .

٢ - ختمت الآية السابقة على قصة داود وسليمان عليهما السلام بقوله تعالى : ﴿ **إن في ذلك لآية لكل عبد منيب** ﴾ فالعبودية لله والإنابة له صفتان بهما تعرف آيات الله في الكون ، وإذ يقصّ الله علينا قصة داود عليه السلام التي فيها ﴿ **واعملوا صالحاً** ﴾ وقصة سليمان عليه السلام التي فيها ﴿ **اعملوا آل داود شكراً ...** ﴾ فإن ذلك يشير إلى أن المقام الأعلى للإنسان هو العمل الصالح ، وهو الشكر ، وأن ما يعطيه الله للإنسان ينبغي أن يقابل بالعمل الصالح وبالشكر . فالمجموعة تعلّمنا أنّ أدب أكرم الخلق مع الله العبودية ؛ فلا يستنكفنّ أحد منها ؛ فإنها باب الآيات الدالة على الله وعلى اليوم الآخر .

٣ - يلاحظ أن المقطع الأول ختم بقوله تعالى : ﴿ **ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحق ويهدي إلى صراط العزيز الحميد** ﴾ .

وأن المقطع الثاني بدأ بذكر سخرية الكافرين برسول الله ﷺ لأنه يدعو إلى اليوم الآخر ﴿ **هل ندلّكم على رجل ينبئكم إذا مُزِّقتم كل مُمَزَّق إنكم لفي خلق جديد** ﴾ وتأتي هذه المجموعة بعد ذلك لترينا نماذج من عطاء الله عز وجل لرسله عليهم الصلاة والسلام ، وهو عطاء عجيب عظيم معجز ، من تأويب للجبال والطير ، وإلانة للحديد ، وتسخير للريح والجن ، فإذا ما أكرم الله عز وجل محمداً ﷺ بهذا القرآن المعجز ، فليس ذلك ببدع من الأمر ، فعطاء الله عز وجل ليس له حدود ، فكيف يسخرون من محمد عليه الصلاة والسلام .

مما مَرَّ ندرك صلة المجموعة بما قبلها سواء في ذلك المجموعة السابقة عليها ، أو المقطع الأول ، أو المقدمة .

٤ - لاحظ مجيء كلمة الإنابة في آخر المجموعة الأولى ، وأوَّل هذه المجموعة : ﴿ **إن في ذلك لآية لكل عبد منيب** ﴾ ثم جاء بعدها مباشرة ﴿ **ولقد آتينا داود مِنَّا فضلاً يا جبال أَوِّبي معه** ﴾ فكلمة : أَوِّبي معه تفيد أن داود عليه السلام كان يؤوب إلى الله ، وعلى هذا فبعد أن قال الله عز وجل ﴿ **إن في ذلك لآية لكل عبد منيب** ﴾ أعطانا نموذجاً على العبد المنيب في داود وابنه سليمان عليهما السلام ، وأعطانا نماذج على ما يكرم الله عز وجل به عباده الأوَّابين إذا أنابوا إليه ، من عطاء ليس له حدود ،

فالمجموعة إذن ترفع هِمَمَنا لنكون أَوَّابين من أجل أن نرىٰ آيات الله ، لنؤمن بالله واليوم الآخر حقّ الإيمان ، وهذا مظهر آخر من مظاهر ارتباط المجموعة بما قبلها .

٥ - وإذا اتضح كل ما مَرّ ، وعرفنا صلة المجموعة بما قبلها ، يبقىٰ أن نتذكر صلة هذه المجموعة بمحور السورة من سورة البقرة :

إن الصلة واضحة ، فالمحور ينكر على من يكفر بالله فلا يشكره ، والمجموعة تقدِّم النموذج على الشكر ، وعدم الكفران ، لاحظ : ﴿ **كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون * هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوىٰ إلى السماء فسوّاهن سبع سمٰوات وهو بكل شيء عليم** ﴾ . ﴿ **ولقد آتينا داود منا فضلاً يا جبال أوِّبي معه** ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ **اعملوا آل داود شكراً وقليل من عبادي الشكور** ﴾ .

فمحور السورة ذكّرنا بنعم الله العامة ، وقصة داود وسليمان عليهما السلام تذكرنا بنعم الله الخاصة ، وهذا كله يقتضي شكراً ، فإذا كان المحور ينكر على الكافرين ، فالمجموعة تقدّم لنا نموذجاً للشاكرين ، ونموذجاً لعطاء الله لهم .

٦ - وإذا كانت قصة داود وسليمان عليهما السلام نموذجاً على الشكر ، ففي المجموعة اللاحقة تأتي قصة سبأ كنموذج على الكفر بالله ، الذي هو سبب الكفر بالآخرة ، وهو موضوع سنراه ، فلنر الآن بعض الفوائد .

فائدتان :

١ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **يا جبال أوِّبي معه** ﴾ قال ابن كثير : (وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ سمع صوت أبي موسى الأشعري يقرأ من الليل ، فوقف فاستمع لقراءته ، ثم قال ﷺ : « لقد أوتي هذا مزماراً من مزامير آل داود » ، وقال أبو عثمان النهدي ما سمعت صوت صنج ولا بربط ولا وتر أحسن من صوت أبي موسى الأشعري رضي الله عنه) .

٢ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **اعملوا آل داود شكراً** ﴾ قال ابن كثير : (فيه دلالة على أن الشكر يكون بالفعل كما يكون بالقول والنية كما قال الشاعر :

أفادتكم النَّعْماء مني ثلاثة يدي ولساني والضمير المحجبا

قال أبو عبد الرحمن السلمي : الصلاة شكر ، والصيام شكر ، وكل خير تعمله لله عز وجل شكر ، وأفضل الشكر : الحمد . رواه ابن جرير . وروىٰ هو وابن أبي حاتم عن محمد بن كعب القرظي قال : الشكر تقوىٰ الله تعالى والعمل الصالح) .



تفسير المجموعة الثالثة

﴿ **لقد كان لسبإ في مسكنهم** ﴾ أي في موضع سكناهم ، وهو بلدهم وأرضهم التي كانوا مقيمين فيها باليمن ﴿ **آية** ﴾ أي علامة دالّة على قدرة الله وإحسانه ، ووجوب شكره هذه الآية ﴿ **جنّتان عن يمين وشمال** ﴾ أي جماعتان من البساتين ، جماعة عن يمين بلدهم ، وأخرىٰ عن شمالها ، وكل واحدة من الجماعتين في تقاربها وتضامّها كأنها جنّة واحدة ، كما تكون بساتين البلاد العامرة ﴿ **كلوا من رزق ربكم واشكروا له** ﴾ هكذا قال أنبياء الله المبعوثون إليهم ﴿ **بلدة طيبة ورب غفور** ﴾ أي هذه البلدة التي فيها رزقكم بلدة طيبة ، وربكم الذي رزقكم ، وطلب شكركم رب غفور لمن شكره ﴿ **فأعرضوا** ﴾ عن دعوة أنبيائهم ، وعن شكر ربهم ﴿ **فأرسلنا عليهم سيل العَرِم** ﴾ أي المطر الشديد ، أو سيل الوادي المسمّى بالعرم ، الذي بنوا في نهايته سدّهم ﴿ **وبدّلناهم بجنتيهم** ﴾ المذكورتين ﴿ **جنتين ذواتي أُكُلٍ** ﴾ أي ثمر ﴿ **خَمْطٍ** ﴾ أي بشع ﴿ **وأثْل** ﴾ الأثل : شجر يشبه الطرفاء ، والأثل لا ثمر له ﴿ **وشيء من سِدْر قليل** ﴾ السِّدر : شجر النبق ، قال الحسن : قلّل السدر لأنّه أكرم ما بُدِّلوا ، لأنه يكون في الجنان ، قال ابن كثير : (فهذا الذي صار أمر تينك الجنتين إليه بعد الثمار النضيجة والمناظر الحسنة والظلال العميقة ، والأنهار الجارية تبدَّلت إلى شجر الأراك ، والطرفاء والسدر ذي الشوك الكثير ، والثمر القليل ، وذلك بسبب كفرهم ، وشركهم بالله ، وتكذيبهم الحق ، وعدولهم عنه إلى الباطل ﴿ **ذلك جزيناهم بما كفروا** ﴾ أي بسبب كفرهم ﴿ **وهل نجازي إلا الكفور** ﴾ أي وهل نجازي مثل هذا الجزاء إلا من كفر النّعمة ، ولم يشكرها ، أو كفر بالله ﴿ **وجعلنا بينهم** ﴾ أي بين سبأ ﴿ **وبين القرىٰ التي باركنا فيها** ﴾ وهي الشام ﴿ **قرىً ظاهرة** ﴾ أي متواصلة يرىٰ بعضها من بعض لتقاربها ، فهي ظاهرة لأعين الناظرين ، أو ظاهرة للسابلة لم تبعد عن مسالكهم ، حتى تخفى عليهم ﴿ **وقدّرنا فيها السير** ﴾ أي وجعلنا هذه القرىٰ على مقدار معلوم يقيل المسافر في قرية ، ويروح في أخرىٰ إلى أن يبلغ الشام ﴿ **سيروا فيها ليالي وأياماً آمنين** ﴾ أي الأمن حاصل لهم في سيرهم ليلاً ونهاراً . قال النسفي : أي سيروا فيها إن شئتم بالليل وإن شئتم بالنهار ، فإن الأمن فيها لا يختلف باختلاف الأوقات ، أو سيروا فيها آمنين لا تخافون عدواً ولا جوعاً ولا عطشاً ، وإن تطاولت مدة سفركم ، وامتدت أياماً وليالي ﴿ **فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا** ﴾ قالوا : يا ليتها كانت بعيدة فنسير على

نجائبنا، ونربح في التجارات، ونفاخر في الدواب والأسباب، بطروا النعمة، وملوا العافية، فطلبوا الكدَّ والتعب ﴿ **وظلموا** ﴾ بما قالوا ﴿ **أنفسهم** ﴾ بكفرهم ﴿ **فجعلناهم أحاديث** ﴾ أي يتحدّث الناس بهم ويتعجبون من أحوالهم ﴿ **ومزّقناهم كلّ مُمزَّق** ﴾ أي وفرّقناهم تفريقاً اتخذه الناس مثلاً مضروباً يقولون ذهبوا أيدي سبأ، وتفرقوا أيادي سبأ، كما سترىٰ في الفوائد ﴿ **إن في ذلك لآيات لكل صبّار** ﴾ عن المعاصي وعلى البلاء ﴿ **شكور** ﴾ للنّعم، قال النسفي: أو لكل مؤمن لأن الإيمان نصفان: نصفه شكر، ونصفه صبر ﴿ **ولقد صدَّق عليهم إبليس ظنّه** ﴾ أي حقق عليهم ظنه، أو وجده صادقاً ﴿ **فاتّبعوه** ﴾ أي أهل سبأ ﴿ **إلا فريقاً من المؤمنين** ﴾ قلّل المؤمنين لقلّتهم بالإضافة إلى الكفار ﴿ **وما كان له** ﴾ أي لإبليس ﴿ **عليهم** ﴾ أي على الذين صار ظنّه فيهم صدقاً ﴿ **من سلطان** ﴾ أي من حجّة قال الحسن البصري: والله ما ضربهم بعصا ولا أكرههم على شيء وما كان إلا غروراً وأماني، دعاهم إليها فأجابوه ﴿ **إلا لنعلم** ﴾ موجوداً ما علمناه معدوماً والتغيّر على المعلوم لا على العلم ﴿ **من يؤمن بالآخرة ممّن هو منها في شك** ﴾ قال ابن كثير: (أي إنّما سلّطناه عليهم ليظهر أمر من هو مؤمن بالآخرة وقيامها، والحساب فيها والجزاء؛ فيحسن عبادة ربّه عز وجل في الدنيا، ممَّن هو منها في شك ﴿ **وربك على كل شيء حفيظ** ﴾ أي محافظ عليه، فليحذر العاصي وليشكر المؤمن.

كلمة في السياق :

١ - نلاحظ أن المجموعة الأولى من هذا المقطع انتهت بقوله تعالى ﴿ **إن في ذلك لآية لكل عبد منيب** ﴾ ونلاحظ أن المجموعة التي مرت معنا تبدأ بقوله تعالى ﴿ **لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان** ﴾ مما يشير إلى ارتباط المجموعة الثالثة بمقدمة المقطع، ونلاحظ أنه بعد ما قصَّ الله علينا عقوبة سبأٍ قال ﴿ **إن في ذلك لآية لكل صبَّار شكور** ﴾ فإذا تذكَّرنا أن قوله تعالى ﴿ **إن في ذلك لآية لكل عبد منيب** ﴾ جاء في معرض ذكر قدرة الله على العقوبة، ندرك الصلة بين مقدّمة المقطع مع المجموعة، ونلاحظ أن المجموعة انتهت بقوله تعالى ﴿ **وما كان له عليهم من سلطان إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممَّن هو منها في شك** ﴾ مما يدل على أن موضوع اليوم الآخر الذي بدأ به المقطع هو الهدف من سوق القصة؛ فكفر النعمة سببه الشَّك في الآخرة.

٢ - إن هناك ارتباطاً بين رؤية الآية ، والشكر لله ، والإنابة إليه ، وهناك ارتباط بين الشكر لله وبين الإيمان باليوم الآخر ، وهذا من أوائل المعاني التي تقدمها لنا المجموعة الثالثة ، فالمقطع بدأ بذكر قول للكافرين يفيد استبعادهم لليوم الآخر ، ثمّ ردّ عليه ، ثمّ جاءت قصة داود نموذجاً على الشكر ، ثم جاءت قصة سبأ نموذجاً على الكفر ، فالمجموعة الثانية ذكرت نموذجاً لمن يرىٰ الآيات التي تدل على الله ، وعلى اليوم الآخر ، والمجموعة الثالثة ذكرت نموذجاً لمن يعمى عن رؤية الآيات التي تدل على الله ، وعلى اليوم الآخر ، ومن ثم ذكرت المجموعة الثانية ما يستحقه من يرىٰ ، وذكرت المجموعة الثالثة ما يستحقه من لا يرىٰ .

٣ - في المجموعتين الثانية والثالثة ذكر ضمناً دليل جديد من أدلّة اليوم الآخر ، فالله عز وجل مستحق للشكر ، والقيام بالشكر مرتبط بوجود يوم آخر ، وإيمان به ، والله عز وجل المحيط علماً بكل شيء ، والعليم بالإنسان قضى أن يكون يوم آخر ؛ لأنّه بدون ذلك لا يقوم الإنسان بحق الله .

٤ - فلنتأمل الآن صلة مجموعة سبأ بمحور السورة من سورة البقرة :

﴿ **كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون** ﴾ . إنّ المجموعة تعطينا نموذجاً على الكفر الواضح الفاقع مع وجود كل ما ينافيه ، وتعطينا التعليل لهذا الكفر وهو الشك باليوم الآخر .

فالصلة قائمة بين المجموعة وما قبلها ، وبين المجموعة ومحور السورة من سورة البقرة .

٥ - الملاحظ أن ما بعد مجموعة سبأ تأتي مجموعة يتوجه فيها الخطاب لرسول الله ﷺ أن يقول للكافرين ﴿ **قل ادعوا الذين زعمتم** ... ﴾ ﴿ **قل من يرزقكم** ... ﴾ فلِمَ انتقل السياق من الكلام عن سبأ إلى هذا الخطاب المباشر ؟ إن الجواب يكمن في بداية المقطع ، لقد بدأ المقطع بذكر سخرية الكافرين من رسول الله ﷺ لأنه يدعو إلى الإيمان باليوم الآخر ﴿ **وقال الذين كفروا هل ندلّكم على رجل ينبئكم إذا مُزّقتم كل مُمزّق إنكم لفي خلق جديد** ﴾ وقد ردّ الله عليهم ، ولفت نظرهم ، وأقام الحجة ، وذكر ما يعطي الشاكرين بذكر قصة داود وسليمان ، وذكر ما يعاقب به الكافرين في قصة سبأ ؛ ليردّهم عن الكفر إلى الشكر ، ثم بعد ذلك يأمر رسوله ﷺ أن يردّ

عليهم ، وهكذا تأتي المجموعة الرابعة في المقطع استمراراً للمقطع ، ومتصلة به ، وقبل أن نعرضها فلنذكر بعض الفوائد :

فوائد :

١ - قدم ابن كثير لقصة سبأ بقوله :

(كانت سبأ ملوك اليمن وأهلها ، وكانت التبابعة منهم ، وبلقيس صاحبة سليمان عليه الصلاة والسلام من جملتهم ، وكانوا في نعمة وغبطة في بلادهم وعيشهم ، واتّساع أرزاقهم وزروعهم وثمارهم ، وبعث الله تبارك وتعالى إليهم الرسل ، تأمرهم أن يأكلوا من رزقه بتوحيده وعبادته ، فكانوا كذلك ما شاء الله تعالى ، ثم أعرضوا عمّا أُمروا به ، فعوقبوا بإرسال السيل والتفرُّق في البلاد أيدي سبأ شذر مذر) .

٢ - روى الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن وعلة قال : سمعت ابن عباس يقول : إن رجلاً سأل رسول الله ﷺ عن سبأ ما هو ، أرجل أم امرأة أم أرض ؟ قال ﷺ : « بل هو رجل ولد له عشرة فسكن اليمن منهم ستة ، والشام منهم أربعة ، أما اليمانيون فمذحج ، وكندة ، والأزد ، والأشعريون ، وأنمار ، وحمير ، وأما الشامية فلخم ، وجذام ، وعاملة ، وغسان » ، وروى الإمام أحمد أيضاً وعبد بن حميد عن فروة ابن مسيك رضي الله عنه قال : أتيت رسول الله ﷺ فقلت : يا رسول الله أقاتل بمقبل قومي مدبرهم ؟ قال رسول الله ﷺ : « نعم فقاتل بمقبل قومك مدبرَهم » فلمّا ولّيت دعاني فقال : « لا تقاتلهم حتى تدعوهم إلى الإسلام » فقلت : يا رسول الله أرأيت سبأ أوادٍ هو أو جبل أو ما هو ؟ قال ﷺ : « بل رجل من العرب ولد له عشرة ، فَتَيَامَن ستة ، وتشاءم أربعة ، تيامن الأزد ، والأشعريون ، وحمير ، وكندة ، ومذحج ، وأنمار الذين يقال لهم بجيلة وخثعم ، وتشاءم لخم ، وجذام ، وعاملة ، وغسان » . وقد قال ابن كثير في قوله عليه الصلاة والسلام : « فتيامن منهم ستة وتشاءم منهم أربعة » : (أي بعد ما أرسل الله تعالى عليهم سيل العرم ، منهم من أقام ببلادهم ، ومنهم من نزح عنها إلى غيرها) ثم قال ابن كثير : (وكان من أمر السَّد أنّه كان الماء يأتيهم من بين جبلين ، وتجتمع إليه أيضاً سيول أمطارهم وأوديتهم ، فعمد ملوكهم الأقادم فبنوا بينهما سداً عظيماً محكماً ، حتى ارتفع الماء ، وحكم على حافات ذينك الجبلين ، فغرسوا الأشجار ، واستغلوا الثمار ، في غاية ما يكون من الكثرة والحسن ، كما ذكر غير واحد من السلف - منهم قتادة - أن المرأة كانت تمشي تحت الأشجار ، وعلى رأسها مكتل

- أو زنبيل - وهو الذي تختزن فيه الثمار ، فيتساقط من الأشجار في ذلك ما يملؤه من غير أن يحتاج إلى كلفة ولا قطاف ؛ لكثرته ونضجه واستوائه ، وكان هذا السَّد بمأرب ، بلدة بينها وبين صنعاء ثلاث مراحل ، ويعرف بسد مأرب) .

٣ - قال ابن كثير : (وقال محمد بن إسحق عن وهب بن منبه : بعث الله تعالى إليهم « أي إلى سبأ » ثلاثة عشر نبياً . وقال السدي : أرسل الله عز وجل إليهم اثني عشر ألف نبي والله أعلم) . أقول : نحن نؤمن بكل نبي دون أن نتقيّد بعدد فيما لم يرد فيه نص قطعي .

٤ - قال ابن كثير : (وذكر غير واحد منهم ابن عباس ووهب بن منبه وقتادة والضحاك أن الله عز وجل لما أراد عقوبتهم بإرسال العرم عليهم ، بعث على السَّدِ دابّة من الأرض يقال لها الجرذ نقبته ...) .

٥ - بمناسبة ما عاقب الله عز وجل به سبأ ذكر ابن كثير : ما أخرجه ابن أبي حاتم بسنده عن ابن خيرة - وكان من أصحاب علي رضي الله عنه - قال : جزاء المعصية : الوهن في العبادة ، والضيق في المعيشة ، والتعسُّر في اللذة ، قيل : وما التعسر في اللذة ؟ قال : لا يصادف لذّة حلالاً إلا جاءه من ينغِّصه إياها) .

٦ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **إن في ذلك لآيات لكل صبَّار شكور** ﴾ قال ابن كثير : (روىٰ الإمام أحمد عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « عجبت من قضاء الله تعالى للمؤمن ؛ إن أصابه خير حَمَد ربه وشكر ، وإن أصابته مصيبة حَمَد ربه وصبر ، يؤجر المؤمن في كل شيء حتى في اللقمة يرفعها إلى في امرأته » . وقد رواه النسائي في اليوم والليلة ، من حديث أبي إسحاق السبيعي به ، وهو حديث عزيز من رواية عمر بن سعد عن أبيه ولكن له شاهد في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه « عجباً للمؤمن لا يقضي الله تعالى له قضاء إلا كان خيراً له ، إن أصابته سرّاء شكر فكان خيراً له ؛ وإن أصابته ضرّاء صبر فكان خيراً له ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن » . قال عبد : حدثنا يونس عن سفيان عن قتادة ﴿ **إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور** ﴾ قال : كان مطرف يقول : نعم العبد الصبَّار الشكور ، الذي إذا أعطي شكر ، وإذا ابتلي صبر .

٧ - عند قوله تعالى ﴿ **ولقد صدّق عليهم إبليس ظنّه** ﴾ قال ابن كثير : (قال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره : هذه الآية كقوله تعالى إخباراً عن إبليس حين امتنع

من السجود لآدم عليه الصلاة والسلام ثم قال : ﴿ **أرأيتك هذا الذي كرّمت عليَّ لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكنّ ذريته إلا قليلاً** ﴾ [الإسراء : ٦٢] وقال : ﴿ **ثم لآتينَّهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين** ﴾ [الأعراف : ١٧] والآيات في هذا كثيرة ، وقال الحسن البصري لما أهبط الله آدم عليه الصلاة والسلام من الجنة ، ومعه حواء ، هبط إبليس فرحاً بما أصاب منهما ، وقال : إذا أصبت من الأبوين ما أصبت فالذرية أضعف وأضعف ، وكان ذلك ظناً من إبليس ، فأنزل الله عز وجل ﴿ **ولقد صدّق عليهم إبليس ظنّه فاتبعوه إلا فريقاً من المؤمنين** ﴾ فقال عند ذلك إبليس : لا أفارق ابن آدم مادام فيه الروح ، أعده وأمنِّيه وأخدعه ، فقال الله تعالى : « وعزتي وجلالي لا أحجب عنه التوبة ما لم يغرغر بالموت ، ولا يدعوني إلا أجبته ، ولا يسألني إلا أعطيته ، ولا يستغفرني إلا غفرت له » . رواه ابن أبي حاتم) .

☆ ☆ ☆

تفسير المجموعة الرابعة

﴿ **قل** ﴾ للكافرين ﴿ **ادعوا الذين زعمتم من دون الله** ﴾ أي من الآلهة التي عبدت من دونه ، والمعنى : ادعوا الذين عبدتموهم من دون الله من الأصنام والملائكة ، وسمّيتموهم باسمه ، والتجئوا إليهم فيما يعروكم كما تلتجئون إليه ، وانتظروا استجابتهم لدعائكم كما تنتظرون استجابته ، ثم أجاب عنهم بقوله ﴿ **لا يملكون مثقال ذرة** ﴾ من خير أو شر ، أو نفع أو ضر ﴿ **في السموٰات ولا في الأرض وما هم فيهما من شرك** ﴾ أي وما هم في هذين الجنسين من شركة في الخلق ، ولا في الملك ﴿ **وما له منهم من ظهير** ﴾ أي وما له تعالى من آلهتهم من معين يعينه على تدبير خلقه ، يريد أنهم على هذه الصفة من العجز فكيف يصح أن يُدْعَوا كما يدعىٰ ويُرجَوا كما يرجى ! ثم قال تعالى : ﴿ **ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له** ﴾ الله ، يعني : إلا لمن وقع الإذن للشفيع لأجله ، هذا إخبار منه تعالى عن عظمته وجلاله ، وكبريائه لا يجترىء أحد أن يشفع عنده تعالى في شيء إلا بعد إذنه له في الشفاعة ﴿ **حتى إذا فزّع عن قلوبهم** ﴾ أي حتىٰ إذا كشف الفزع عن قلوب الشافعين والمشفوع لهم بكلمة يتكلم بها رب العزة ، في إطلاق الإذن ﴿ **قالوا** ﴾ أي سأل بعضهم بعضاً ﴿ **ماذا قال ربكم قالوا الحق** ﴾ أي قال القول الحق ، وهو الإذن بالشفاعة لمن ارتضى ﴿ **وهو العلي الكبير** ﴾ أي ذو العلو والكبرياء ، ليس لملك ولا نبي أن يتكلم ذلك اليوم إلا بإذنه ، أو يشفع إلا لمن ارتضىٰ ، فإذا كان هذا شأن الله عز وجل في العظمة ، وذاك شأن آلهتهم في العجز ، فكيف يعبدون غير الله ، ويتركون عبادة الله ، وكيف يكفرون بالله ؟ .

﴿ **قل من يرزقكم من السموٰات والأرض** ﴾ بما ينزل من المطر ، وينبت من الزرع ، أمره بأن يقرّرهم بقوله ﴿ **من يرزقكم** ﴾ ثم أمره بأن يتولى الإجابة والإقرار عنهم ﴿ **قل الله** ﴾ وذلك للإشعار بأنهم مقرّون به بقلوبهم ، إلا أنهم ربما أبوا أن يتكلّموا به ؛ لأنّهم إن تفوّهوا بأنّ الله رازقهم ، لزمهم أن يقال لهم : فما لكم لا تعبدون من يرزقكم ، وتؤثرون عليه من لا يقدر على الرزق ؟ ثم أمره أن يقول لهم بعد الإلزام والإلجام ، الذي إن لم يزد على إقرارهم بألسنتهم ، لم يتقاصر عنه ﴿ **وإنا أو إيّاكم لعلىٰ هدىً أو في ضلال مبين** ﴾ ومعناه : وإنّ أحد الفريقين من الموحّدين ، ومن المشركين ، لعلى أحد الأمرين من الهدىٰ أو الضلال ، وفي مجيئه بعد ما تقدم ، دلالة غير خفيّة على من هو من الفريقين على الهدىٰ ، ومن هو في الضلال المبين ، ولكن

التعريض أوصَلَ بالمجادل إلى الغرض ، قال ابن كثير : (أي واحد من الفريقين مبطل والآخر محقّ ؟ لا سبيل إلى أن تكونوا أنتم ونحن على الهدىٰ ، أو على الضلال ، بل واحد منا مصيب ، ونحن قد أقمنا البرهان على التوحيد ، فدل على بطلان ما أنتم عليه من الشرك) ثم أمره أن يقول : ﴿ **قل لا تُسألون عمَّا أجرمنا** ﴾ إنْ كان ما نحن فيه إجرام ﴿ **ولا نُسأل عمّا تعملون** ﴾ إن كان لكم أعمال تسألون عنها ، وهو نوع من الخطاب غاية في هضم النفس ، والتأدب مع المخاطبين ، مع المفاصلة الكاملة ومن ثَمَّ قال ابن كثير : (معناه التبري منهم أي لستم منا ولا نحن منكم ، بل ندعوكم إلى الله تعالى ، وإلى توحيده ، وإفراد العبادة له ، فإن أجبتم فأنتم مِنّا ونحن منكم وإن كذَّبتم فنحن برءاء منكم ، وأنتم برءاء منا) ﴿ **قل يجمع بينا ربُّنا** ﴾ أي يوم القيامة يجمع بين الخلائق في صعيد واحد ﴿ **ثم يفتح بيننا بالحق** ﴾ أي يحكم بيننا بالعدل بلا جور ولا ميل ﴿ **وهو الفتَّاح** ﴾ أي الحاكم ﴿ **العليم** ﴾ أي العالم بالعمل والحكم قال ابن كثير : أي الحاكم العادل ، العالم بحقائق الأمور ﴿ **قل** ﴾ يا محمد لهؤلاء الكافرين ﴿ **أروني الذين ألحقتم به** ﴾ أي بالله ﴿ **شركاء** ﴾ في العبادة ﴿ **كلا** ﴾ أي ارتدعوا عن هذا القول ، وتنبهوا عن ضلالكم ﴿ **بل هو الله** ﴾ لا غيره ﴿ **العزيز** ﴾ أي الغالب ، فلا يشاركه أحد ﴿ **الحكيم** ﴾ في تدبيره ﴿ **وما أرسلناك إلا كافة للناس** ﴾ أي لجميع الخلائق من المكلفين ﴿ **بشيراً ونذيراً** ﴾ أي تبشر من أطاعك بالجنة ، وتنذر من عصاك بالنار ﴿ **ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾ فيحملهم جهلهم على مخالفتك .

....

نُقُول :

قال صاحب الظلال في حديثه عن هذه المجموعة :

(إنها جولة قصيرة حول قضية الشرك والتوحيد . ولكنها جولة تطوّف بالقلب البشري في مجال الوجود كله ، ظاهره وخافيه ، حاضره وغيبه ، سمائه وأرضه ، دنياه وآخرته ، وتقف به مواقف مرهوبة ترجف فيها الأوصال ؛ ويغشاها الذهول من الجلال . كما تقف به أمام رزقه وكسبه ، وحسابه وجزائه . وفي زحمة التجمع والاختلاط . وفي موقف الفصل والعزل والتميز والانفراد .. كل أولئك في إيقاعات قوية ، وفواصل متلاحقة ، وضربات كأنها المطارق : ﴿ **قل .. قل .. قل ..** ﴾ كل

قولة منها تدمغ بالحجة ، وتصدع بالبرهان في قوة وسلطان) .

وقال صاحب الظلال عند قوله تعالى :

﴿ قل من يرزقكم من السماوات والأرض .. قل : الله . وإنا أو إيَّاكم لعلى هدى أو في ضلال مبين ﴾ :

(والرزق مسألة واقعة في حياتهم . ورزق السماء من مطر وحرارة وضوء ونور .. ذلك فيما كان يعرفه المخاطَبون ، ووراءه كثير من الأصناف والألوان تتكشّف آناً بعد آن .. ورزق الأرض من نبات وحيوان وعيون ماء وزيوت ومعادن وكنوز .. وغيرها مما يعرفه القدامىٰ ويتكشّف غيره على مدار الزمان ..) .

كلمة في السياق :

١ - هذه الأوامر المتعاقبة لرسول الله ﷺ قررت أن الله وحده يستحق العبادة لعظمته ، وأنه يستحق العبادة لإنعامه ، وقررت المفاصلة بين المؤمنين والكافرين ، وقررت أن الله عز وجل سيحكم بين الطرفين ، وأن غيره ليس له معه شركة ، ثم ختمت المجموعة بتبيان عموم رسالة محمد ﷺ ، وفي هذا إقامة حجة على وجوب شكر الله عز وجل ، والحذر من كفره ، كما أن فيه حجة جديدة على ضرورة اليوم الآخر ؛ فالحكم بين المؤمنين والكافرين ، ونصرة الرسل عليهم الصلاة والسلام ، وتصديقهم ، كل ذلك يقتضي مجيء اليوم الآخر ، ونلاحظ أنّ الآية اللاحقة هي **﴿ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ﴾** مما يشير إلى أن السياق سائر في موضوع اليوم الآخر .

٢ - وإذن فقد أكّدت هذه المجموعة معاني عظمة الله ، واستحقاقه العبادة والشكر ، كما أكّدت موضوع مجيء اليوم الآخر ، كما حددت الآية الآخيرة منها مهمّة الرسول ﷺ بأنها الإنذار والتبشير بهذا اليوم .

٣ - لاحظ الآن الصلة بين قوله تعالى : **﴿ وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مُزِّقتم كل مُمَزَّق ... ﴾** وبين قوله تعالى : **﴿ قل ادعوا الذين زعمتم ... ﴾ ﴿ قل من يرزقكم من السمٰوات ... ﴾ ﴿ قل يجمع بيننا ربنا ... ﴾** ثم **﴿ وما أرسلناك إلا كافَّة للناس بشيراً ونذيراً ﴾** هناك هجوم على رسول الله ﷺ ، وههنا ردّ من رسول الله ﷺ عليهم وإقامة حجة .

٤ - ثم لاحظ الصلة بين محور السورة ﴿ **كيف تكفرون بالله** ﴾ وبين ما جاء من آيات في هذه المجموعة : ﴿ **قل ادعوا الذين زعمتم ...** ﴾ ﴿ **قل من يرزقكم من السموٰات ...** ﴾ .

....

فالصلة بين مجموعات المقطع على أشدها ، والصلة بين مجموعات المقطع ومحور السورة قائمة ، ولم يبق عندنا من المقطع إلا خاتمته وهي المجموعة الخامسة ، وهي آيتان .

☆ ☆ ☆

تفسير المجموعة الخامسة

﴿ **ويقولون متىٰ هذا الوعد** ﴾ أي يوم القيامة الذي تحدَّثت عنه بداية المقطع ، والذي أشير إليه بقوله تعالى ﴿ **قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح** ... ﴾ ، والذي هو مظهر البشارة والنذارة ﴿ **إن كنتم صادقين** ﴾ فيما تقولونه من مجيء اليوم الآخر ؟ ﴿ **قل لكم ميعاد يوم لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون** ﴾ قال ابن كثير : (أي لكم ميعاد مؤجّل ، معدود محرّر ، لا يزاد ولا ينقص ، فإذا جاء لا يؤخر ساعة ولا يقدّم) وقال النسفي : (أي لا يمكنكم التأخر عنه بالاستمهال ، ولا التقدم إليه بالاستعجال ، ووجه انطباق هذا الجواب على سؤالهم : أنهم سألوا عن ذلك وهم منكرون له تعنّتاً ، لا استرشاداً ، فجاء الجواب على طريق التهديد ، مطابقاً للسؤال ، على سبيل الإنكار والتعنيف ،وأنهم مرصدون ليوم يفاجئهم ، فلا يستطيعون تأخراً عنه ولا تقدماً عليه) وبهذا انتهىٰ المقطع .

كلمة في السياق :

بعد أن قامت الحجة على الكافرين بأن يوم القيامة آت ، وبعد أن اتضحت حكمته ، وبعد أن عرف محلّه ، كان آخر ما عرضه علينا المقطع هو سؤال الكافرين عن ميعاده ، فكأنهم بعد ما قامت عليهم الحجة أرادوا أن يطلقوا سهماً أخيراً ، فجاءهم الجواب الحاسم الذي هم عنه غافلون ، هذا بالنسبة لصلة الآيتين الآخيرتين بسياق المقطع ، أما صلتهما بمحور السورة : فذلك أن الله عز وجل قال : ﴿ **كيف تكفرون بالله ... ثم إليه ترجعون** ﴾ فهم هنا يسألون عن ميعاد هذا الرجوع ، ويأتيهم الجواب على ذلك ، فالصلة كاملة وواضحة بين المجموعة الأخيرة ومحورها . ولنذكر بعض الفوائد المتعلّقة بالمجموعتين : الرابعة ، والخامسة .

....

فوائد :

١ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له** ﴾ قال ابن كثير : (ثبت في الصحيحين من غير وجه عن رسول الله ﷺ - وهو سيد ولد آدم ، وأكبر شفيع عند الله تعالى - أنه حين يقوم المقام المحمود ليشفع في الخلق كلهم ، أن يأتي ربهم لفصل القضاء قال : « فأسجد لله تعالى فَيَدَعني ما شاء الله أن يدعني ،

ويفتح عليَّ بمحامد لا أحصيها الآن ، ثم يقال : يا محمد ارفع رأسك ، وقل يسمع ، وسل تعطه ، واشفع تُشفَّع » .

٢ - رأينا ماذا يعني قوله تعالى ﴿ **حتى إذا فُزِّع عن قلوبهم** ... ﴾ في محله بالنسبة لأهل الآخرة ، لكنّ هذا المقام مقام دائم لأهل الملكوت الأعلى ، وقد وردت الأحاديث في ذلك ، إلّا أنّ بعضهم ظنّ أنّ هذه الأحاديث مفسّرة للآية في سياقها ومحلّها ، وليس كذلك ، ولكنّ مقام النّاس يوم القيامة يشبه حال الملائكة الدائم في تلقيهم عن الله عز وجل ، ومن ثَمَّ جاءت الأحاديث تعبّر بقوله تعالى ﴿ **حتى إذا فُزِّع عن قلوبهم** ﴾ عن تلقي الملائكة الدائم ، فظنّ مَنْ ظنّ أنّها تفسير للآية في سياقها ، والذي يبدو لي أن الأمر ليس كذلك ، ولننقل ثلاثة أحاديث ذكرها ابن كثير في هذا المقام ، مع ملاحظة أن ابن كثير يرى هذا الرأى الذي لم نره :

روى البخاري عند تفسير هذه الآية الكريمة في صحيحه عن سفيان عن عمرو قال : سمعت عكرمة قال : سمعت أبا هريرة رضي الله عنه يقول : إن نبي الله ﷺ قال : « إذا قضى الله تعالى الأمر في السماء ، ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله ، كأنه سلسلة على صفوان ، فإذا فزِّع عن قلوبهم قالوا : ماذا قال ربكم ؟ قالوا للذي قال : الحق وهو العلي الكبير ، فيسمعها مسترق السمع ، ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعض - ووصف سفيان بيده فحرفها ونشر بين أصابعه - فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته ، ثم يلقيها الآخر إلى مَنْ تحته ، حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن ، فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها ، وربما ألقاها قبل أن يدركه ، فيكذب معها مائة كذبة ، فيقال : أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا كذا وكذا ؟ فيصدق بتلك الكلمة التي سمعت من السماء » .

حديث آخر : روى الإمام أحمد ... عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان رسول الله ﷺ جالساً في نفر من أصحابه - قال عبد الرزاق : من الأنصار - فَرُمِيَ بنجم فاستنار ، فقال ﷺ : « ما كنتم تقولون إذا كان مثل هذا في الجاهلية ؟ » قالوا : كنا نقول يولد عظيم ، أو يموت عظيم - قلت للزهري أكان يُرمى بها في الجاهلية ؟ قال : نعم ولقد غلّظت حين بعث النبي ﷺ - قال : فقال رسول الله ﷺ : « فإنها لا يُرمى بها لموت أحد ، ولا لحياته ، ولكن ربنا تبارك وتعالى إذا قضى أمراً سبّح حملة العرش ، ثم سبّح أهل السماء الذين يلونهم ، حتى يبلغ التسبيح السماء الدنيا ، ثم

يستخبر أهل السماء الذين يلون حملة العرش ، فيقول الذين يلون حملة العرش لحملة العرش : ماذا قال ربكم ؟ فيخبرونهم ، ويخبر أهل كل سماءٍ سماءً حتى ينتهي الخبر إلى هذه السماء ، وتخطف الجن السمع ؛ فيرمون ، فما جاء به على وجهه فهو حق ، ولكنهم يفرقون فيه ويزيدون » .

حديث آخر :روى ابن أبي حاتم ... عن النواس بن سمعان رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا أراد الله تبارك وتعالى أن يوحي بأمره تكلّم بالوحي ، فإذا تكلّم أخذت السموات منه رجفة - أو قال رعدة - شديدة من خوف الله تعالى ، فإذا سمع بذلك أهل السموات صعقوا ، وخروا لله سجداً ، فيكون أول من يرفع رأسه جبريل عليه السلام ، فيكلّمه الله من وحيه بما أراد ، فيمضي به جبريل عليه الصلاة والسلام على الملائكة ، كلما مَرّ بسماء سماء يسأله ملائكتها : ماذا قال ربنا يا جبريل ؟ فيقول عليه السلام : قال الحق وهو العلي الكبير ، فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل ، فينتهي جبريل بالوحي إلى حيث أمره الله تعالى من السماء والأرض » .

٣ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وما أرسلناك إلا كافَّة للناس بشيراً ونذيراً** ﴾ قال ابن كثير : (روى ابن أبي حاتم ... عن عكرمة قال : سمعت ابن عباس رضي الله عنهما يقول : إن الله تعالى فضّل محمداً ﷺ على أهل السماء ، وعلى الأنبياء ، قالوا : يا ابن عباس فيم فضّله الله على الأنبياء ؟ قال رضي الله عنه : إن الله تعالى قال : ﴿ **وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبيّن لهم** ﴾ [إبراهيم : ٤] وقال للنبي ﷺ : ﴿ **وما أرسلناك إلا كافَّة للناس** ﴾ فأرسله الله تعالى إلى الجن والإنس . وهذا الذي قاله ابن عباس رضي الله عنهما قد ثبت في الصحيحين رفعه عن جابر رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أُعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي : نُصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجُعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً ؛ فأيّما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل ، وأُحلت لي الغنائم ولم تحلّ لأحد قبلي ، وأُعطيت الشفاعة ، وكان النبي يُبعث إلى قومه خاصة وبُعثت إلى الناس عامة » . وفي الصحيح أيضاً أن رسول الله ﷺ قال : « بُعثت إلى الأسود والأحمر » قال مجاهد يعني : الجن والإنس ، وقال غيره يعني : العرب والعجم والكل صحيح) .

ولننتقل إلى المقطع الثالث .

المقطع الثالث

ويمتدّ من الآية (٣١) إلى نهاية الآية (٥٤) أي إلى نهاية السورة وهذا هو :

المجموعة الأولى

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ
مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟
لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ (٣١) قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ
ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَـٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ (٣٢)
وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ
أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا
ٱلْأَغْلَـٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (٣٣)

المجموعة الثانية

وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ
(٣٤) وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَـٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٣٥) قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ
ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٦) وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ
وَلَآ أَوْلَـٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَأُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ
جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَـٰتِ ءَامِنُونَ (٣٧) وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ

ءَايَـٰتِنَا مُعَـٰجِزِينَ أُوْلَـٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ
لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ ۚ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ
ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾

المجموعة الثالثة

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَهَـٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟
سُبْحَـٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ
﴿٤١﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟
عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾

المجموعة الرابعة

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَـٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا
كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَـٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ
لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَآ ءَاتَيْنَـٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ
أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ
مَآ ءَاتَيْنَـٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾

المجموعة الخامسة

قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم
مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم
مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ
رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا
يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي
إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ
قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ
كَفَرُوا بِهِ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ
مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴿٥٤﴾

كلمة في السياق :

رأينا أنّ السورة تتألف من مقدمة ، وثلاثة مقاطع ، وأن كل مقطع من المقاطع الثلاثة مبدوء بقوله تعالى : ﴿ **وقال الذين كفروا** ﴾ .

بدأ المقطع الأول بقوله تعالى : ﴿ **وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة ...** ﴾ فإنكار الكافرين ههنا منصبّ على اليوم الآخر .

وبدأ المقطع الثاني بقوله تعالى : ﴿ **وقال الذين كفروا هل ندلّكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل مُمَزَّق إنكم لفي خلق جديد** ﴾ والإنكار ههنا منصب على اليوم الآخر ، مع الاستهزاء بشخص رسول الله ﷺ .

وبدأ المقطع الثالث بقوله تعالى : ﴿ **وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه** ﴾ فالإنكار فيه منصب على القرآن والوحي ، وفيما بين إنكار الآخرة ، وإنكار الوحي ، وإنكار الرّسالة ، تداخل وتلازم ، ومن ثَمَّ فإقامة الحجة في كل واحد منها إقامة حجة على الكلّ ، ولذلك نرى أن في كل مقطع من المقاطع الثلاثة كلاماً عن هذه الثلاثة ، ولكن يبقى لكل مقطع سياقه الرئيسي مع ذلك ، فلنر تفسير المقطع الثالث .

تفسير المجموعة الأولى من المقطع الثالث

﴿ **وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه** ﴾ ممّا نزل قبل القرآن من كتب الله ، وقد يكون المراد بالذي بين يديه ما سيأتي من أمر الآخرة ، من قيامة وجنة ونار ، ولم يذكر ابن كثير غير المعنىٰ الثاني ، وذكر الألوسي الوجهين ، قال ابن كثير : (يخبر تعالى عن تمادي الكفار في طغيانهم وعنادهم ، وإصرارهم على عدم الإيمان بالقرآن الكريم ، وبما أخبر به من أمر المعاد) وعلى هذا فالمقطع الثالث أخبر عن إنكارهم اليوم الآخر من خلال إنكارهم للقرآن . قال النسفي في الآية : (والمعنى : إنهم جحدوا أن يكون القرآن من عند الله ، وأن يكون لما دلّ عليه من الإعادة للجزاء حقيقة) ولما كانت الحجج في المقطعين السابقين كافية ، فإنّ نوعاً آخر من الردّ يأتي ههنا ، ويبدأ الردّ بعرض مشهد من مشاهد يوم القيامة ، يذكر فيه موقفهم الذليل يوم القيامة ، إذ يتخاصمون ويتجادلون ، قال تعالى : ﴿ **ولو ترىٰ إذ الظالمون موقوفون عند ربهم** ﴾ أي : محبوسون ﴿ **يرجع بعضهم إلى بعض القول** ﴾ في الجدال ، أي : يرد بعضهم على بعض القول في الجدال . قال النسفي : (أخبر عن عاقبة أمرهم ومآلهم في الآخرة فقال لرسول الله ﷺ أو للمخاطب : ولو ترى في الآخرة موقفهم وهم يتجاذبون أطراف المحاورة ، ويتراجعونها بينهم لرأيت العجب) ﴿ **يقول الذين استُضعفوا** ﴾ أي : الأتباع ﴿ **للذين استكبروا** ﴾ منهم وهم قادتهم وسادتهم ﴿ **لولا أنتم** ﴾ أي : تصدوننا عن سبيل الله ، وتدعوننا إلى الكفر ﴿ **لكنا مؤمنين** ﴾ بالله ورسله وما جاؤوا به ﴿ **قال الذين استكبروا** ﴾ من القادة والسادة ﴿ **للذين استُضعفوا** ﴾ أي : للأتباع ﴿ **أنحن صددناكم عن الهدىٰ بعد إذ جاءكم** ﴾ أنكروا أن يكونوا هم الصادّين لهم عن الإيمان ، وأثبتوا أنّهم هم الذين صدّوا بأنفسهم عنه ، وأنّهم أُتوا من قِبَل اختيارهم . قال ابن كثير : (أي : نحن ما فعلنا بكم أكثر من

أنّا دعوناكم فاتّبعتمونا من غير دليل ولا برهان ، وخالفتم الأدلّة والبراهين والحجج التي جاءت بها الرسل لشهوتكم واختياركم لذلك) . ﴿ **بل كنتم مجرمين** ﴾ أي : بل كنتم كافرين باختياركم ، وإيثاركم الضلال على الهدىٰ ، لا بقولنا وتسويلنا ﴿ **وقال الذين استُضْعِفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار** ﴾ أي : بل كنتم تمكرون بنا ليلاً ونهاراً ، وتغروننا وتمنوننا وتخبروننا أنا على هدىً ، وأنا على شيء ، فإذا جميع ذلك باطل وكذب ، أو بل مكركم في الليل والنهار هو الذي صدَّنا عن سبيل الله ، أو بل الليل والنهار مكرا بطول السلامة فيهما حتىٰ ظننا أنكم على الحق ﴿ **إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً** ﴾ أي : نظراء وآلهة ، وتقيموا لنا شبهاً وأشياء من المحال تضلوننا بها ، والمعنى : ما كان الإجرام من جهتنا ، بل من جهة مكركم لنا دائماً ليلاً ونهاراً ، وحملكم إيانا على الشرك ، واتخاذ الأنداد ﴿ **وأسروا الندامة لما رأوا العذاب** ﴾ أي الجحيم ، فالجميع من السادة والأتباع كلّ ندم على ما سلف ، يندم المستكبرون على ضلالهم وإضلالهم ، ويندم المسْتَضعفون على ضلالهم واتّباعهم المضلين ، وكلمة ﴿ **أسروا** ﴾ من كلمات الأضداد ، فهي تفيد الإضمار والإظهار ، والسياق هو الذي يحدّد المعنى ، وههنا تحتمل المعنيين ، والراجح الإضمار ، ﴿ **وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا** ﴾ قال ابن كثير : (وهي السلاسل التي تجمع أيديهم مع أعناقهم) ﴿ **هل يجزون إلا ما كانوا يعملون** ﴾ أي إنما نجازيهم بأعمالهم كل بحسبه ، للقادة عذاب بحسبهم ، وللأتباع بحسبهم .

....

عرضت هذه المجموعة حال المنكرين سادةً وأتباعاً يوم القيامة ، مبيّنة أنّهم سيندمون على مواقفهم ، وسيتعاتبون ، وقد دلّتنا الآيات على أنّ قادة الكفر ورؤساءه يمكرون ليلاً ونهاراً لصدِّ الناس عن سبيل الله .

....

فائدة :

بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا** ﴾ قال ابن كثير : (روى ابن أبي حاتم ...عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن جهنم لمّا سيق إليها أهلها تلقاهم لهبا ، ثم لفحتهم لفحة فلم يبق لحم إلا سقط

على العرقوب » وروى أيضاً عن الحسن بن يحيى الخشني قال : ما في جهنم دار ولا مغار ، ولا غل ولا قيد ولا سلسلة ، إلا اسم صاحبه عليها مكتوب قال : فحدثته أبا سليمان - يعني الداراني رحمة الله عليه - فبكى ، ثم قال : ويحك فكيف به لو جمع هذا كله عليه ، فجعل القيد في رجليه ، والغل في يديه ، والسلسلة في عنقه ، ثم أدخل النار ، وأدخل المغار ؟ اللهم سلّم) .



تفسير المجموعة الثانية من المقطع الثالث

﴿ **وما أرسلنا في قرية من نذير** ﴾ أي من نبي ﴿ **إلا قال مترفوها** ﴾ أي متنعموها ورؤساؤها ﴿ **إنا بما أرسلتم به كافرون** ﴾ هذه تسلية للنبي ﷺ وبيان لواقع وهو أنه لم يرسل قط إلى أهل قرية رسول إلا قالوا له مثل ما قال كافرو هذه الأمة لرسولها ، وقد دلّت هذه الآية على أن المترفين هم الذين يحملون كبر الصدّ عن سبيل الله ، كما دلّت على أن ردّ دعوة الرسل ، ورفض الإيمان باليوم الآخر ، سببه الترف والبطر ، وليس سببه شبهة أو حجة ، فبدلاً من أن تكون النعمة عند هؤلاء سبب شكر ، كانت سبباً للكفر ، وقد عرّف ابن كثير المترفين بقوله : هم أولو النّعمة والحشمة ، والثروة والرياسة . وقال قتادة : هم جبابرتهم وقادتهم ، ورؤوسهم في الشر . ثم قال تعالى إخباراً عن المترفين المكذبين ﴿ **وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً** ﴾ أي من المؤمنين ﴿ **وما نحن بمعذَّبين** ﴾ أرادوا أنهم أكرم على الله من أن يعذبهم ، نظراً إلى أحوالهم في الدنيا ، وظنوا أنهم لو لم يكرمُوا على الله لما رزقهم الله ، ولولا أن المؤمنين هانوا عليه لما حرمهم ، قال ابن كثير : (افتخروا بكثرة الأموال والأولاد ، واعتقدوا أن ذلك دليل على محبة الله تعالى لهم ، واعتنائه بهم ، وأنه ما كان ليعطيهم هذا في الدنيا ثم يعذبهم في الآخرة ، وهيهات لهم ذلك) . وقد أبطل الله ظنهم بأنْ بيّن أنّ الرزق فضل من الله ، يقسمه كيف يشاء ، فربّما وسّع على العاصي استدراجاً ، وضيّق على المطيع امتحاناً ، وابتلاءً ، وربما وسّع على المطيع استخراجاً لشكره ، وضيّق على العاصي استرجاعاً له عما هو فيه ، وربّما وسّع عليهما أو ضيق عليهما لحكمة ، فلا يقاس عليه أمر الثواب في الآخرة ، وذلك قوله تعالى : ﴿ **قل إن ربي يبسط الرزق** ﴾ أي يوسّعه ﴿ **لمن يشاء ويقدر** ﴾ أي ويضيق ، قال ابن كثير : (أي يعطي المال لمن يحب ومن لا يحب ، فيفقر من يشاء ، ويغني من يشاء ، وله الحكمة التامّة البالغة ، والحجة القاطعة الدامغة) ﴿ **ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾ ذلك فيظنون التقتير علامة سخط ، ويظنون البسط علامة محبة ، وليس الأمر كذلك ، ومن ثَمَّ قال تعالى : ﴿ **وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقرِّبكم عندنا زلفى** ﴾ أي قربة قال ابن كثير : (أي ليست هذه دليلاً على محبتنا لكم ، ولا اعتنائنا بكم) ﴿ **إلا من آمن وعمل صالحاً** ﴾ أي إنّما يقربكم عندنا زلفى الإيمان والعمل الصالح . قال النسفي : (يعني أن الأموال لا تقرّب أحداً إلا المؤمن الصالح ، الذي ينفقها في سبيل الله ، والأولاد لا تقرّب أحداً إلّا من علّمهم الخير ، وفقّههم في الدين ،

ورشّحهم للصلاح والطاعة) ﴿ **فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا** ﴾ أي بأعمالهم ، ومعنى جزاء الضعف : أن تضاعف لهم حسناتهم ، الواحدة عشراً إلى سبعمائة ضعف . قال ابن كثير : أي تضاعف لهم الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف ﴿ **وهم في الغرفات آمنون** ﴾ من كل بأس وخوف وأذى ، ومن كل شر يُحذر منه ﴿ **والذين يسعون في آياتنا** ﴾ أي في إبطالها ، فهم يسعون في الصدّ عن سبيل الله ، واتباع رسله ، وعن التصديق بآياته ﴿ **معاجزين** ﴾ أي مسابقين لنا ، ظانّين أن يسبقونا ﴿ **فأولئك في العذاب مُحضَرون** ﴾ أي جميعهم مجزيّون بأعمالهم فيها بحسبهم ، ثم كرر تعالى موضوع بسطه الرزق ، وتقديره بمشيئته ؛ ليؤكّد الرد ، ويقطع دابر الشبهة ﴿ **قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له** ﴾ بحسب ماله في ذلك من الحكمة ، يبسط على هذا من المال كثيراً ، ويضيّق على هذا ، ويقتّر على هذا رزقه جداً ، وله في ذلك من الحكمة ما لا يدركها غيره ﴿ **وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه** ﴾ أي فهو يعوّضه قال ابن كثير : أي مهما أنفقتم من شيء فيما أمركم به ، وأباحه لكم ، فهو يخلفه عليكم في الدنيا بالبدل ، وفي الآخرة بالجزاء والثواب ﴿ **وهو خير الرازقين** ﴾ أي المطعمين لأنّ كلّ ما رزق غيرُه من سلطان أو سيّد أو غيرهما فهو من رزق الله ، أجراه على أيدي هؤلاء ، وهو خالق الرزق ، وخالق الأسباب التي بها ينتفع المرزوق بالرزق ، وفي هذا دعوة للمؤمنين أن يتّكلوا في أمر الرزق عليه ، وأن ينفقوا ، كما أنّ في النص نفياً لشبهة الكافرين في أن التوسعة والتضييق علامتا الرضا والسّخط .

كلمة في السياق :

عرّفتنا هذه المجموعة أن الكفر بالقرآن واليوم الآخر من أسبابه الترف ، وأن من الأسباب التي تجعل الكافرين يرفضون الإيمان بالقرآن واليوم الآخر والرسل والوحي ربطهم بين ما هم فيه من نعم ، وبين كرامتهم على الله ، وهي فكرة خاطئة ؛ فموضوع التقتير والتوسعة في الرزق مرتبط بسُنَن الله في أمر الدنيا ، وهكذا نلاحظ أنّ السّورة تلاحق قضية الكفر باليوم الآخر مرَّة بعد مرّة ، وقد أفهمنا السياق في المجموعتين السابقتين أن النعمة في حق أُناس هي التي سبّبت كفرهم بدلاً من أن تكون سبباً لشكرهم ، ولنتذكر الآن صلة هذا كله بقوله تعالى من سورة البقرة ﴿ **كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون** ﴾ فالكفر مستنكر وعجيب ، مع نعمة الخلق والحياة ، والتوسعة على الإنسان في الحياة .

فوائد :

١ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون** ﴾ قال ابن كثير : (روى ابن أبي حاتم ... عن أبي رزين قال : كان رجلان شريكان ، خرج أحدهما إلى الساحل ، وبقي الآخر ، فلما بعث النبي ﷺ كتب إلى صاحبه يسأله ما فعل ؛ فكتب إليه : أنه لم يتبعه أحد من قريش ، إنّما اتّبعه أراذل الناس ومساكينهم ، قال : فترك تجارته ، ثم أتى صاحبه ، فقال : دلني عليه - قال وكان يقرأ الكتب أو بعض الكتب - قال : فأتى النّبي ﷺ فقال : إلام تدعو ؟ قال : « أدعو إلى كذا كذا » قال أشهد أنّك رسول الله ، قال ﷺ : « وما علمك بذلك ؟ » قال : إنّه لم يبعث نبي إلا اتّبعه أراذل الناس ومساكينهم ، قال فنزلت هذه الآية ﴿ **وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أُرسلتم به كافرون** ﴾ الآية ، قال فأرسل إليه النبي ﷺ : « إن الله عز وجل قد أنزل تصديق ما قلت » وهكذا قال هرقل لأبي سفيان حين سأله عن تلك المسائل ، قال فيها : وسألتك أضعفاء الناس اتّبعه أم أشرافهم ؟ فزعمت بل ضعفاؤهم وهم أتباع الرسل) .

٢ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقرِّبكم عندنا زلفى** ﴾ قال ابن كثير : (روى الإمام أحمد ... عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله تعالى لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ، ولكن إنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم ») .

٣ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وهم في الغُرُفات آمنون** ﴾ قال ابن كثير : (روى ابن أبي حاتم ... عن علي رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن في الجنة لغرفاً ، ترى ظهورها من بطونها ، وبطونها من ظهورها » فقال أعرابي : لمن هي ؟ قال ﷺ : « لمن طيَّب الكلام ، وأطعم الطعام ، وأدام الصيام ، وصلّى بالليل والناس نيام ») .

٤ - بمناسبة ذكر التقتير والتوسعة ذكر ابن كثير : الحديث الذي رواه الإمام مسلم : « قد أفلح من أسلم ، ورزق كفافاً ، وقنّعه الله بما آتاه » .

٥ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه** ﴾ قال ابن كثير : (كما ثبت في الحديث « يقول الله تعالى أنفق أنفق عليك » وفي الحديث أن ملكين

يصبحان كل يوم يقول أحدهما : اللهم أعط ممسكاً تلفاً ، ويقول الآخر : اللهم أعط منفقاً خلفاً » وقال رسول الله ﷺ : « انفق بلالاً ، ولا تخش من ذي العرش إقلالاً » وروى ابن أبي حاتم ... عن حذيفة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ألا إن بعد زمانكم هذا زمان عضوض ، يعضُّ الموسر على ما في يده ؛ حذار الإنفاق » ثم تلا هذه الآية ﴿ **وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين** ﴾وروى الحافظ أبو يعلى الموصلي ... عن حذيفة رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ألا إن بعد زمانكم هذا زمان عضوض ، يعضُّ الموسر على ما في يده حذار الإنفاق » قال الله تعالى : ﴿ **وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرزاقين** ﴾ وفي الحديث « شرار الناس يبايعون كل مضطر ، ألا إن بيع المضطرين حرام ، ألا إنّ بيع المضطرين حرام ؛ المسلم أخو المسلم ؛ لا يظلمه ولا يخذله ، إن كان عندك معروف فَعُدْ به على أخيك وإلا فلا تزده هلاكاً إلى هلاكه » قال ابن كثير : هذا حديث غريب من هذا الوجه وفيه ضعف ... وقال مجاهد : لا يتأوّلنّ أحدكم هذه الآية ﴿ **وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه** ﴾ إذا كان عند أحدكم ما يقيمه فليقصد فيه فإن الرزق مقسوم) .

☆ ☆ ☆

تفسير المجموعة الثالثة من المقطع الثالث

﴿ **ويوم يحشرهم جميعاً** ﴾ المترفين والأتباع، والمتبوعين والمستضعفين والمستكبرين ﴿ **ثم يقول للملائكة أهؤلاء إيَّاكم كانوا يعبدون** ﴾ أي أنتم أمرتم هؤلاء بعبادتكم، هذا خطاب للملائكة وتقريع للكفار ﴿ **قالوا** ﴾ أي الملائكة ﴿ **سبحانك** ﴾ أي تنزيهاً لك أن يعبد معك غيرك ﴿ **أنت وليُّنا من دونهم** ﴾ أي نحن عبيدك ونبرأ إليك من هؤلاء، والمعنى: أنت الذي نواليه من دونهم، إذ لا موالاة بيننا وبينهم، برهنوا بإثبات موالاة الله، ومعاداة الكفار على براءتهم من الرضا بعبادة الكافرين لهم، لأن من كان على هذه الصفة كانت حاله منافية لذلك ﴿ **بل كانوا يعبدون الجن** ﴾ قال ابن كثير: يعنون الشياطين، لأنهم هم الذين زيّنوا لهم عبادة الأوثان، وأضلّوهم ﴿ **أكثرهم** ﴾ أي أكثر الإنس أو الكفار ﴿ **بهم** ﴾ أي بالجن ﴿ **مؤمنون** ﴾ أي يصدّقونهم فيما يوسوسون به ﴿ **فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعاً ولا ضراً** ﴾ أي لا يقع لكم نفع ممّن كنتم ترجون نفعه اليوم، من الأنداد والأوثان، التي ادخرتم عبادتها لشدائدكم وكربكم، فاليوم لا يملكون لكم نفعاً ولا ضراً، لأن الدار دار ثواب وعقاب، والمثيب والمعاقب هو الله، فكانت حالها خلاف حال الدنيا، التي هي دار تكليف، والناس فيها مخلّى بينهم، يتضارّون ويتنافعون، والمراد أنّه لا ضارّ ولا نافع يومئذ إلا هو ﴿ **ونقول للذين ظلموا** ﴾ بوضع العبادة في غير موضعها ﴿ **ذوقوا عذاب النار التي كنتم بها تكذبون** ﴾ في الدنيا، يقال لهم ذلك تقريعاً وتوبيخاً.

كلمة في السياق:

لاحظ قوله تعالى في أول المقطع ﴿ **ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم** ﴾ وقوله تعالى في آخر آية من هذه المجموعة ﴿ **ونقول للذين ظلموا ذوقوا عذاب النار ...** ﴾ فالكلام كله في الظالمين الذين يرفضون الإيمان بالقرآن، واليوم الآخر، وقد بينت هذه المجموعة أنّ مظهر ظلمهم هو عبادة غير الله، وأن علّة ذلك طاعتهم وساوس الشياطين، وهكذا عرفنا من خلال السياق: أنّ من أسباب الكفر بالقرآن واليوم الآخر طاعة الكافرين، والترف، وعبادة غير الله، وطاعة الشياطين.

☆ ☆ ☆

تفسير المجموعة الرابعة من المقطع الثالث

حدثنا الله عز وجل في بداية المقطع عن قول الكافرين ﴿ **وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه** ﴾ وفي هذه المجموعة يحدّثنا الله عز وجل عن أقوال للكافرين يقولونها إذا تليت عليهم آيات الكتاب ﴿ **وإذا تتلى عليهم آياتنا** ﴾ أي إذا قرئت عليهم آيات القرآن ﴿ **بيِّنات** ﴾ أي واضحات الإعجاز ، واضحات المعاني ﴿ **قالوا** ﴾ أي الكافرون ﴿ **ما هذا** ﴾ أي محمد ﷺ ﴿ **إلا رجل يريد أن يصدّكم عمَّا كان يعبد آباؤكم** ﴾ قال ابن كثير : (يعنون أن دين آبائهم هو الحق ، وأن ما جاءهم به الرسول - عندهم - باطل) ﴿ **وقالوا ما هذا** ﴾ أي القرآن ﴿ **إلا إفك مُفترى** ﴾ أي كذب مختلَق على الله ﴿ **وقال الذين كفروا للحق** ﴾ أي للقرآن ، أو لأمر النبوة كله ﴿ **لما جاءهم إنْ هذا إلا سحر مبين** ﴾ أي سحر واضح ، بتُّوه على أنّه سحر ، ثم بَتُّوه على أنّه بيّن ظاهر ، وانتقالهم من قول إلى قول بمثل هذه السّرعة دليل على شدة إنكارهم ، وعظيم غضبهم ، والملاحظ أنهم في أقوالهم كلّها كانوا سابّين ، منكرين ، ولم يقدِّموا حجة ولا دليلاً على هذا الإنكار ، سوى الرفض المجرّد ، وهو عادة الكافرين قديماً وحديثاً ، وقد ردّ الله عز وجل عليهم أقوالهم بقوله ﴿ **وما آتيناهم من كتب يدرسونها** ﴾ أي ما أعطيناهم كتباً يدرسونها ، فيها برهان على صحة ما هم فيه وآباؤهم ﴿ **وما أرسلنا إليهم** ﴾ إلى أهل مكة ، الذين هم نموذج على أصحاب هذا الكلام ﴿ **قبلك من نذير** ﴾ أي ولا أرسلنا إليهم نذيراً ينذرهم بالعقاب إن لم يشركوا ، فعلام يصرُّون على الشرك ، ومتابعة الآباء ، ورفض الحق ؟ ثمّ توعّدهم على تكذيبهم بأنه أهلك من كان أشد منهم قوة ﴿ **وكذب الذين من قبلهم** ﴾ أي من الأمم ﴿ **وما بلغوا معشار ما آتيناهم** ﴾ أي وما بلغ أهل مكة عشر ما أوتي الأولون من طول الأعمار ، وقوة الأجرام ، وكثرة الأموال والأولاد ﴿ **فكذّبوا رسلي فكيف كان نكير** ﴾ للمكذبين الأوّلين ، فليحذروا من مثله ، قال ابن كثير : أي فكيف كان عقابي ونكالي وانتصاري .

....

كلمة في السياق :

١ - ذكرنا من قبل أن بين الإيمان بالقرآن واليوم الآخر والرسول ﷺ تلازماً ، وأن الكفر بواحد من هذه الثلاثة كفر بالجميع ، وأن الكفر بأي من هذه هو فرع الكفر بالله ، وإدراكنا لهذا المعنى إدراك لصلة هذا المقطع بمحور السّورة ﴿ **كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثمّ يميتكم ثمّ يحييكم ثمّ إليه ترجعون** ﴾ .

٢ - بدأ المقطع الثالث بقوله تعالى : ﴿ **وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه** ﴾ والملاحظ أن المجموعة التي مَرّت معنا تحدّثت عما يقوله الكافرون في الرسول ﷺ والقرآن . ﴿ **وإذا تتلى عليهم آياتنا بيّنات قالوا ...** ﴾ .

فالصلة واضحة بين المجموعة وبين سياق مقطعها .

٣ - وهكذا نجد أن مجموعات المقطع تعالج مواقف الكافرين ، كما تعالج جذور هذه المواقف .

٤ - والآن تأتي المجموعة الخامسة ، وهي المجموعة الأخيرة في المقطع الثالث ، وهي تشبه المجموعة الأخيرة في المقطع الثاني ، فكما أن المقطع الثاني انتهى بمجموعة أوامر موجّهة لرسول الله ﷺ بصيغة (قل) ، فكذلك المجموعة الأخيرة من المقطع الثالث .

وإذ كانت هذه المجموعة هي خاتمة السّورة ، فإن ما فيها هو القول الأخير في كل القضايا التي تعرّضت لها السّورة .

فلنر المجموعة الخامسة :

☆ ☆ ☆

تفسير المجموعة الخامسة من المقطع الثالث

﴿ **قل إنما أعظكم بواحدة** ﴾ أي آمركم بواحدة ، أي بخصلة واحدة ، وقد فسّرها الله عز وجل بقوله : ﴿ **أن تقوموا لله مثنىٰ وفرادىٰ** ﴾ أي إنما أعظكم بواحدة إن فعلتموها أصبتم الحق وتخلّصتم ، وهي أن تقوموا لوجه الله خالصاً ، لا لحمية ولا عصبية ، بل لطلب الحق اثنين اثنين ، وفرداً فرداً ﴿ **ثم تتفكَّروا** ﴾ في أمر محمد ﷺ ، وما جاء به ، والمراد بالقيام في الآية : القصد إلى الشيء ، دون النهوض والانتصاب ، والحكمة في تفرّقهم مثنىٰ وفرادى أنّ الاجتماع مما يشوّش الخواطر ، ويعمي البصائر ، ويمنع من الرؤية ، ويقل الإنصاف فيه ، ويكثر الاعتساف ، ويثور عجاج التعصّب ، ولا يُسمع فيه إلا نصرة المذهب ، أما الاثنان فيتفكران ، ويعرض كل واحد منهما محصول فكره على صاحبه ، وينظران فيه نظر الصدق والإنصاف ، حتىٰ يؤديهما النظر الصحيح إلى الحق ، وكذلك الفرد يتفكّر في نفسه بعدل ونصفة ، ويعرض فكره على عقله ، وهذه الآية أصل في موضوع الدعوة إلى الله ؛ إذ تبين أهمية الدّعوة الفردية ﴿ **ما بصاحبكم من جنَّة** ﴾ أي ليس بمحمد ﷺ جنون ، والمعنىٰ : ثم تتفكروا فتعلموا أنه ليس بمحمد ﷺ من جنون ﴿ **إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد** ﴾ وهو عذاب الآخرة .

نقل :

قال صاحب الظلال عند قوله تعالى : ﴿ **قل : إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ، ثم تتفكروا . ما بصاحبكم من جِنَّة . إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد** ﴾ :

(إنها دعوة إلى القيام لله . بعيداً عن الهوى . بعيداً عن المصلحة . بعيداً عن ملابسات الأرض . بعيداً عن الهواتف والدوافع التي تشتجر في القلب ، فتبعد به عن الله . بعيداً عن التأثر بالتيارات السائدة في البيئة . والمؤثرات الشائعة في الجماعة .

دعوة إلى التعامل مع الواقع البسيط ، لا مع القضايا والدعاوى الرائجة ؛ ولا مع العبارات المطاطة ، التي تُبعد القلب والعقل عن مواجهة الحقيقة في بساطتها .

دعوة إلى منطق الفطرة الهادىء الصافي ، بعيداً عن الضجيج والخلط واللبس ؛ والرؤية المضطربة والغبش الذي يحجب صفاء الحقيقة .

وهي في الوقت ذاته منهج في البحث عن الحقيقة . منهج بسيط يعتمد على التجرد من الرواسب والغواشي والمؤثرات . وعلى مراقبة الله وتقواه .

وهي « واحدة » .. إن تحققت صح المنهج واستقام الطريق . القيام لله .. لا لغرض ولا لهوى ولا لمصلحة ولا لنتيجة .. التجرد .. الخلوص .. ثم التفكر والتدبر بلا مؤثر خارج عن الواقع الذي يواجهه القائمون لله المتجردون .

﴿ **أن تقوموا لله . مثنى وفرادى** ﴾ .. مثنى ليراجع أحدهما الآخر ، ويأخذ معه ويعطي في غير تأثر بعقلية الجماهير التي تتبع الانفعال الطارىء ، ولا تتلبث لتتبع الحجة في هدوء .. وفرادى مع النفس وجهاً لوجه في تمحيص هادىء عميق .

﴿ **ثم تتفكّروا . ما بصاحبكم من جِنَّة** ﴾ .. فما عرفتم عنه إلا العقل والتدبر والرزانة . وما يقول شيئاً يدعو إلى التظنن بعقله ورشده .. إن هو إلا القول المحكم القوي المبين .

﴿ **إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد** ﴾ ..) .

كلمة في السياق :

رأينا في المقطع الثاني قوله تعالى : ﴿ **أفترىٰ على الله كذباً أم به جِنَّة** ﴾ في معرض الرد على من قالوا ﴿ **هل ندلّكم على رجل ينبئكم إذا مُزِّقتم كل مُمَزَّق إنكم لفي خلق جديد** ﴾ ورأينا في المقطع الثالث قولهم ﴿ **ما هذا إلا رجل يريد أن يصدّكم عمَّا كان يعبد آباؤكم** ... ﴾ وهذا يفيد أنّ إنكار الآخرة ، وإنكار القرآن ، مرتبطان بموضوع الثقة بشخص رسول الله ﷺ ، فمن وثق آمن ، ومن لم يثق كفر ؛ ومن ثَمَّ جاءت هذه الآية آمرة بالتفكر الفردي ، أو الثنائي في دعوة الرسول ﷺ ، وفي شخصه ، فإن الإنسان المنصف لا بد واصل - من خلال التفكّر - إلى الإيمان ، ولما كان موضوع الأجر - أيّاً كان نوعه - قد يشكّل عقبة في موضوع الاستجابة إلى الله ، جاء الأمر الثاني في المجموعة مذكّراً بأن محمداً ﷺ لا يطلب أي نوع من أنواع الأجر على دعوته من الخلق .

....

﴿ **قل ما سألتكم من أجر فهو لكم** ﴾ أي ما سألتكم من أجر على إنذاري

وتبليغي الرسالة فهو لكم ، أي ليس لي فيه شيء ، أي لا أريد منكم جعلاً ولا عطاءً على أداء رسالة الله عز وجل إليكم ، ونصحي إياكم ، وأمركم بعبادة الله ﴿ **إن أجري إلا على الله** ﴾ أي إنما أطلب ثواب ذلك من عند الله ﴿ **وهو على كل شيء شهيد** ﴾ فيعلم أني لا أطلب الأجر على نصيحتكم ودعائكم إليه إلّا منه ، ولما كان سبب الكفر الرئيسي هو الجهل بالله ، والجهل بأنّ من شأن الله أن ينزل وحياً ، قال تعالى : ﴿ **قل إن ربي يقذف بالحق** ﴾ القذف هو الإلقاء بدفع ، ومعنى ﴿ **يقذف بالحق** ﴾ : أي يلقيه وينزله على أنبيائه ، أو يرمي به الباطل فيدمغه ويزهقه ﴿ **علّام الغيوب** ﴾ فهو وحده القادر على أن يبيّن الحق في كل شيء ويوضّحه ، وإذا كان هذا شأن الله فلا عجب أن ينزل القرآن ﴿ **قل جاء الحق** ﴾ أي الإسلام والقرآن ﴿ **وما يبدىء الباطل وما يعيد** ﴾ أي زال الباطل وهلك ، لأن الإبداء والإعادة من صفات الحي ، فعدمهما عبارة عن الهلاك ، قال ابن كثير : أي جاء الحق من الله ، والشرع العظيم ، وذهب الباطل وزهق واضمحل ، وهذا رد على ما قالوه في أوّل المقطع ﴿ **لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه** ﴾ وإذ كان الإنسان بدون وحي الله لا بد ضال مهما كان من صفاء الفطرة ، فإن الله عز وجل أمر رسوله ﷺ أن يقول ﴿ **قل إن ضللت** ﴾ عن الحق ﴿ **فإنما أضل على نفسي** ﴾ أي إن ضللت فمنّي وعليّ ﴿ **وإن اهتديت فبما يوحي إليّ ربي** ﴾ أي فبتسديده بالوحي إليّ أهتدي . قال النسفي : (وهذا حكم عام لكل مكلف ، وإنما أمر الله رسوله ﷺ أن يسنده إلى نفسه لأن الرسول ﷺ إذا دخل تحته - مع جلالة محلّه وسداد طريقته - كان غيره أولى به) وهذا يفيد أن الإنسان بدون الوحي ضال مهما كان ، فهذا محمد ﷺ أصفى الخلق فطرة ، وأعظم الناس عقلاً ، أمره الله عز وجل أن يقول ذلك ؛ فهذا دليل على أنّه لا بدّ من الوحي ، فكفر الكافرين بالقرآن خبال ، وهو فرع الكفر بالله ، إذ لو عرفوا الله حق معرفته لأيقنوا بأنه سيوحي وسيهدي ﴿ **إنه سميع** ﴾ لأقوال عباده ، أو سميع لما أقوله لكم ﴿ **قريب** ﴾ مني ومنكم ، يجازيني ويجازيكم ، فلو كنت مدّعياً عليه لعاقبني .

....

كلمة في السياق :

١ - رأينا أن المقطع قد ابتدىء بقوله تعالى : ﴿ **وقال الذين كفروا لن نؤمن**

بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه ﴾ ورأينا أنه قد جاء بعد ذلك مباشرة قوله تعالى : ﴿ **ولو ترىٰ إذ الظالمون موقوفون عند ربهم** ... ﴾ وقد رأينا في المجموعة الأخيرة ردوداً على الكافرين في شأن الرسول ﷺ والقرآن ، والآن تأتي آيات مصدرة بقوله تعالى : ﴿ **ولو ترىٰ** ... ﴾ ففي أول آية في المقطع جاءت ﴿ **ولو ترىٰ** ﴾ وهمنا تأتي كذلك ؛ مما يدل دلالة واضحة على صلة المجموعة الأخيرة ببداية المقطع .

٢ - لقد أعلن الكافرون كفرهم بالقرآن ، وبما بين يديه من أمور الآخرة ، وقد عرض الله على رسوله ﷺ ما سيجدونه أمامهم في بداية المقطع ، وخواتيمه ﴿ **ولو ترىٰ إذ الظالمون** ... ﴾ ﴿ **ولو ترىٰ إذ فزعوا فلا فوت** ... ﴾ وفيما بين ذلك كان تصحيح وإقامة حجة ، كما رأينا ، فلنر الآيات الأخيرة .

....

﴿ **ولو ترىٰ** ﴾ يا محمد ﴿ **إذ فزعوا** ﴾ عند البعث ﴿ **فلا فوت** ﴾ أي فلا مهرب ولا مفرّ لهم ولا وزر ولا ملجأ ﴿ **وأخذوا من مكان قريب** ﴾ أي من الموقف إلى النار ، وليس في ذلك من بعد ﴿ **وقالوا** ﴾ حين عاينوا العذاب ﴿ **آمنا به** ﴾ أي بالرسول ﷺ أو باليوم الآخر ، أو بالله أو بالقرآن ﴿ **وأنّىٰ لهم التناوش** ﴾ أي التناول ﴿ **من مكان بعيد** ﴾أي كيف يتناولون التوبة وقد بعدت عنهم ، يريد أن التوبة كانت تقبل منهم في الدنيا ، وقد ذهبت الدنيا ، وبعدت عن الآخرة ، قال ابن كثير : (أي وكيف لهم تعاطي الإيمان ، وقد بعدوا عن محل قبوله منهم ، وصاروا إلى الدار الآخرة ، وهي دار الجزاء ، لا دار الابتلاء ، فلو كانوا آمنوا في الدنيا ، لكان ذلك نافعهم ، ولكن بعد مصيرهم إلى الآخرة ، لا سبيل لهم إلى قبول الإيمان ، كما لا سبيل إلى حصول الشيء لمن يتناوله من بعيد) ﴿ **وقد كفروا به** ﴾ أي بالحق أو بالرسول أو باليوم الآخر ﴿ **من قبل** ﴾ أي في الدنيا قال ابن كثير : (أي كيف يحصل لهم الإيمان في الآخرة وقد كفروا بالحق في الدنيا وكذّبوا الرّسل) ﴿ **ويقذفون بالغيب** ﴾ أي وكانوا يتكلمون بالغيب ، أو بالشيء الغائب قذفاً وسبّاً ، أو رمياً وإلقاءً ، نافين وجوده قائلين : لا بعث ولا حساب ، ولا جنة ولا نار ﴿ **من مكان بعيد** ﴾ عن الصدق ، أو عن الحق والصواب ، وقال قتادة ومجاهد في الآية : يرجمون بالظنّ لا بعث ولا جنة ولا نار ﴿ **وحيل بينهم وبين ما يشتهون** ﴾ من هذه الدنيا من مال وزهرة وأهل ، ومن الآخرة وما فيها ، فمنعوا منه قال النسفي :

(وحجز بينهم وبين ما يشتهون من نفع الإيمان يومئذ والنجاة به من النار ، والفوز بالجنة) ﴿ **كما فُعل بأشياعهم** ﴾ أي بأشباههم في الكفر ﴿ **من قبل** ﴾ أي من قبلهم ، دلّ ذلك على أن كفار الأمم السابقة على بعثة رسولنا ﷺ تدخل النار قبل كفار هذه الأمة ﴿ **إنهم كانوا في شك** ﴾ من أمر الرسل والبعث ﴿ **مريب** ﴾ أي موقع في الريبة قال ابن كثير : (أي كانوا في الدنيا في شك وريبة ، فلهذا لم يتقبل منهم الإيمان عند معاينة العذاب ، قال قتادة : إيّاكم والشك والريبة ؛ فإن من مات على شك بعث عليه ، ومن مات على يقين بعث عليه) وقال النسفي : هذا ردّ على من زعم أن الله لا يعذب على الشك .

....

كلمة في المقطع الثالث وسياقه :

رأينا أن المقطع فيه خمس مجموعات ، والمجموعات الخمس عالجت موضوع الكفر بالقرآن ، وباليوم الآخر ، تارة من خلال عرض مشاهد من مشاهد يوم القيامة ، وتارة من خلال الردّ المباشر على فكرة خاطئة ، وتارة من خلال الدلالة على طريق الهداية ، وتارة من خلال البيان للواقع ، وقد مَرَّ معنا صلة المجموعات ببعضها ، وبالسورة ، ولا يغيب عن المتأمل صلتها بمحور السورة ، وسنرى في الكلمة الختامية عن السورة مزيد تفصيل . فلنر الآن بعض الفوائد المتعلقة بالمجموعة الأخيرة .

....

فوائد :

١ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد** ﴾ ذكر ابن كثير رواية عن البخاري بسنده إلى ابن عباس : (عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : صعد النبي ﷺ الصفا ذات يوم ، فقال : « يا صباحاه » فاجتمعت إليه قريش ، فقالوا : ما لك ؟ فقال : « أرأيتم لو أخبرتكم أن العدو يصبحكم أو يمسيكم أما كنتم تصدقوني » قالوا : بلى ! قال ﷺ : « فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد » فقال أبو لهب تبّاً لك ألهذا جمعتنا ، فأنزل الله عز وجل ﴿ **تبت يدا أبي لهب وتب** ﴾ وقد تقدم عند قوله تعالى ﴿ **وأنذر عشيرتك الأقربين** ﴾ . وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن بريدة عن أبيه رضي الله عنه قال : خرج إلينا رسول الله ﷺ يوماً فنادى

ثلاث مرات فقال : « أيها الناس أتدرون ما مثلي ومثلكم ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال ﷺ : « إن مثلي ومثلكم مثل قوم خافوا عدواً يأتيهم ، فبعثوا رجلاً يتراءى لهم ، فبينما هو كذلك أبصر العدو فأقبل لينذرهم ، وخشي أن يدركه العدو ، قبل أن ينذر قومه فأهوى بثوبه ، أيها الناس أتيتم ، أيها الناس أتيتم » ثلاث مرات ، وبهذا الإسناد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « بعثت أنا والساعة جميعاً إن كادت لتسبقني » تفرَّد به الإمام أحمد في مسنده .

٢ - وبمناسبة قوله تعالى : ﴿ **قل جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد** ﴾ قال ابن كثير : (أي جاء الحق من الله ، والشرع العظيم ، وذهب الباطل زهق واضمحل كقوله تعالى : ﴿ **بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق** ﴾ [الأنبياء : ١٨] ولهذا لما دخل رسول الله ﷺ المسجد الحرام يوم الفتح ووجد تلك الأصنام منصوبة حول الكعبة ، جعل يطعن الصنم منها بسية قوسه ويقرأ ﴿ **وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً** ﴾ ﴿ **قل جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد** ﴾ رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي ، أي لم يبق للباطل مقالة ولا رياسة ولا كلمة) .

٣ - إنّ الدعوات الإلحادية في عصرنا قد عمّت وطمّت ، وقد ظهر الفكر المادي بأفظع صور الزخرفة والزيف ، واستعمل لذلك من أساليب الغواية ووسائل الإعلام الكثير والكبير ، وأصبح الإنسان يسمع ويقرأ ألفاظ الهزء والسخرية بالعقلية الغيبية ، وبالغيوب التي تحدّث عنها الرّسل عليهم الصلاة والسلام ، ولقد أصبح الآن من المعلوم بالبديهة أن عشرات الألوف من الأجهزة تسهر ليلاً ونهاراً لتحطّم الإسلام ولتنهيه .

إن مَنْ أدرك هذا الواقع ، ثمّ قرأ قوله تعالى : ﴿ **بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله** ... ﴾ .

وقرأ قوله تعالى : ﴿ **ويقذفون بالغيب من مكان بعيد** ﴾ .

إن من عرف الواقع وتملّى مثل هذه النّصوص ، فإنّه لا بدّ أن يحس بالإعجاز القرآني بشكل واضح ، فالإحاطة ، والبلاغة ، ودقّة التصوير ، وسلاسة التعبير ، واجتماع ذلك كله يجعل الإحساس واضحاً بمظاهر الإعجاز .

تأمل قوله تعالى : ﴿ **ويقذفون بالغيب من مكان بعيد** ﴾ .

إنّها تفهم على أوجه متعدّدة : فهناك ناس يرجمون الغيب من مكان بعيد ، فلا تصل إليه قذائفهم ؛ لأن الغيب محفوظ ، وهم أحقر من أن يصلوا إليه بأذى ، فهؤلاء يدخلون في الصورة التي تحدّثت عنها الآية ، وإنّك لتراهم في كل مكان .

وهناك ناس يحاولون أن يمسكوا بالغيوب كلها – في زعمهم – ليرموها إلى آخر درك يستطيعونه ليتخلصوا منها ، وهيهات لهم ذلك ، أمثال هؤلاء يدخلون في الصورة ، وإنك لتجدهم في كل مكان .

فأن تجد النص على مثل هذا الاختصار ، وعلى مثل هذا التصوير للواقع ، وعلى مثل هذه البلاغة ، ثمّ أن تجده في محلّه من السياق الجزئي والعام للقرآن ، يؤدي دوره بمثل هذا الانسجام الرفيع ، وهذه السلاسة العذبة ، إنّ ذلك لشيء يدل على أن هذا القرآن من عند الله ، فالحمد لله على نعمة الإيمان .

كلمة أخيرة في سورة سبأ :

رأينا أن سورة سبأ تألفت من مقدمة وثلاثة مقاطع .

المقدمة تحدّثت عن استحقاق الله عز وجل للحمد في الدنيا والآخرة ، والمقطع الأول ردّ – بشكل مباشر – على كفر الكافرين بالساعة ، والمقطع الثاني ردّ على كفر الكافرين بالساعة من خلال الردّ عن شخصية رسول الله ﷺ ، والمقطع الثالث ردّ على كفر الكافرين بالساعة من خلال الردّ عن القرآن الكريم .

بدأ المقطع الأول بقوله تعالى : ﴿ **وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة** ﴾ .

وبدأ المقطع الثاني بقوله تعالى : ﴿ **وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مُزِّقتم كل مُمزَّق إنكم لفي خلق جديد** ﴾ .

وبدأ المقطع الثالث بقوله تعالى : ﴿ **وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه** ﴾ .

فأنت ترى أن الكلام عن اليوم الآخر ورد في بداية المقاطع الثلاثة ، إما بشكل متفرد ، وإما في معرض الكفر بالرّسول أو بالقرآن ؛ فدل ذلك على ارتباط موضوع اليوم الآخر بموضوع الرسالة والقرآن ، وفي كل ذلك رأينا ارتباط هذه الأمور بموضوع الإيمان بالله ، ومن ثمّ ندرك صلة السورة بمحورها : ﴿ **كيف تكفرون بالله وكنتم**

أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون ﴾ .

. . . .

وإذ كان محور السورة هو هذه الآية ، فالسورة حدثتنا عن استحقاق الله عز وجل للحمد ، كما حدّثتنا عن طريق الحمد وعاقبته ، كما حدّثتنا عن الكفر ونماذجه وعاقبة أهله من خلال الدعوة إلى الإيمان بالآخرة ، الذي هو الشرط الرئيسي للشكر ، ومن خلال الإيمان بالقرآن ، الذي هو الدليل على طريق الشكر ، ومن خلال الإيمان بالرسول ﷺ الذي هو القدوة في الشكر ، والذي أُنزل عليه القرآن الكريم للإنذار والتبشير باليوم الآخر .

. . . .

وههنا نحب أن ننبه على فكرة حول موضوع السورة القرآنية ومحورها .

إنّ محاور السور في سياقها ، وفي موضعها تؤدي دورها بشكل كامل ، وهي في الوقت نفسه مفصّلة تفصيلاً كاملاً ، ثمّ تأتي السور فتفصّل هذه المحاور تفصيلاً بعد تفصيل ، خذ مثلاً قوله تعالى في سورة البقرة :

﴿ كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون * هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سمٰوات وهو بكل شيء عليم ﴾ .

لقد أدت الآيتان دورهما الكامل في الإنكار على الكفر والتعجيب منه ، وفي إقامة الحجة على أهله بشكل واضح ، وبيِّن ومفصّل .

فعندما تأتي سورة الأنعام تفصّل في هذا المحور ، أو تأتي سورة سبأ وفاطر ، فتفصلان في هذا المحور ، فإنّ معاني جديدة سترد ، هي من ناحية تفصيل للمحور ، وهي من ناحية أخرى تؤدي أدواراً ، وتكمّل بناءً ، فآيتا سورة البقرة ذكرتا الرجوع إلى الله كمسلَّمة ، ولكن هذه المسلَّمة ليست مسلَّمة في منطق الكافرين ، ومن ثَمَّ فعندما تأتي سورة سبأ تجدها تقيم الدليل على هذه المسلَّمة ، وتذكر موقف الكافرين منها ، وتردّ عليهم بأساليب وطرق شتىٰ ، فليست سورة سبأ - بالنسبة لمحور السورة إذن - تفصيلاً حرفياً ، بل الأمر أوسع من ذلك وأبعد ؛ فالسورة تفتح آفاقاً جديدة ،

وتذكر أشياء جديدة ، وتبيّن معاني جديدة ، ولكنها كلها تصبُّ في خدمة محور السورة على طريقة في التفصيل ليست معهودة للبشر .

....

إنك عندما تقرأ سورة سبأ مثلاً تجد فيها أن الرجوع إلى الله مسلَّمة وبديهية ، وتجد أن الشكر لله مسلَّمة وبديهية ، وتجد أن كفران نعم الله مستنكر ومتعجب منه ، كل هذا تخرج منه من خلال قراءتك للسورة ، وكل هذه المعاني مستكنّة في محور السورة من سورة البقرة ، ولكن هل تجد أي تشابه بين هذا التفصيل في السورة ، وبين أي نوع من التفصيل للمعاني المجملة التي عرفها البشر ، أو يمكن أن يفكّر فيها البشر ، إن هذا وحده - لمن تأمَّله وعقله كافٍ ليعرف الإنسان أن هذا القرآن لا يمكن أن يكون من بشر ، بل هو من عند الله الحكيم الخبير ، الغفور الرحيم .

....

إن سورة سبأ سلّطت الأضواء بشكل كامل على صلة الإيمان باليوم الآخر بموضوع شكر الله ، كما سلّطت الأضواء على ارتباط الإيمان باليوم الآخر بموضوع الإيمان بالله ، كما أرتنا صلة الإيمان بالله والرسول والقرآن بموضوع اليوم الآخر ، فالسورة تحدثت عن هذه القضايا كلها وصلاتها ببعضها .

وقد رأينا في السورة كيف يعالج القرآن الكريم قضايا العقيدة ، فليكن لنا في ذلك دروس .

....

إن طريقة القرآن في المعالجات والعرض طريقة معجزة ، والمعاني التي يعرضها القرآن هي في بابها معجزة ، فأنت عندما ترىٰ القرآن يحدّثك بأروع البيان عن حال الكافرين في الآخرة بما لا يمكن أن يخطر ببال بشر ، ثم يكون بجانب هذا حديث عن أدق خلجات النفس البشرية ثم يكون بجانب هذا حديث عن كليات هذا الوجود ، وجزئياته ، ثمّ يكون هذا كله مرتبطاً بمحور ضمن وحدة كلية للقرآن ، فإذا لم يكن هذا كله معجزاً فما هو المعجز ؟ .

☆ ☆ ☆

سورة فاطر

وهي السورة الخامسة والثلاثون بحسب الرسم القرآني
وهي السورة السابعة من المجموعة الأولى من قسم المثاني
وآياتها خمس وأربعون آية
وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ. وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ وَآلِهِ وَأَصْحَابِهِ

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا. إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

كلمة في سورة فاطر ومحورها :

يلاحظ أن سورة فاطر تتألف من مقدمة هي :

﴿ **الحمد لله فاطر السمٰوات والأرض جاعل الملائكة رسلاً أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد في الخلق ما يشاء إن الله على كل شيء قدير * ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم** ﴾ .

ثم يأتي نداء مبدوء بـ ﴿ **يا أيها الناس** ... ﴾ ويتكرر هذا النداء ثلاث مرات في السورة ، فكأن السورة تتألف من مقدمة وثلاثة مقاطع ، وكل مقطع مبدوء بـ ﴿ **يا أيها الناس** ... ﴾ ومن الآية الأولى في المقطع الأول :

﴿ **يا أيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض لا إله إلا هو فأنى تؤفكون** ﴾ ندرك أن محور السورة هو الآية الثانية من محور سورة الأنعام - كما ذكرنا من قبل - وهي قوله تعالى :

﴿ **هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سمٰوات وهو بكل شيء عليم** ﴾ .

بل من مقدمة السورة ندرك هذا : ﴿ **الحمد لله فاطر السمٰوات والأرض** ... ﴾ .

....

وكما أنّه بعد آية سورة البقرة المذكورة يوجد حديث عن الملائكة ، وعن استخلاف الله للإنسان في الأرض ﴿ **وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة** ﴾ فإننا نجد في مقدمة السورة ذكراً للملائكة : ﴿ **جاعل الملائكة رسلاً أولي أجنحة** ﴾ كما أنّ السورة تذكر موضوع الاستخلاف ﴿ **هو الذي جعلكم خلائف في الأرض** ﴾ وهو المعنى الذي يرد في سورة الأنعام في قوله تعالى : ﴿ **وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات** ﴾ .

....

وكما قلنا من قبل فإن التلاحم بين سورتي سبأ وفاطر قائم ؛ لأن الآيتين اللتين فصّلتا سورة الأنعام - وهما محورا سورتي سبأ وفاطر - مترابطتا المعنى ، ولأن الآية ﴿ **هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً** ﴾ آتية في حيّز قوله تعالى : ﴿ **كيف تكفرون بالله**

وكنتم أمواتاً فأحياكم ... ﴾ ومن ثَمَّ فظلال الآية الأولى موجود في سورة فاطر ، وإذا كانت سورة الأنعام قد فصّلت في مضامين الآيتين ، وإذا كانت سورة سبأ قد فصّلت وبيّنت استحقاق الله عز وجل الشكر ، فإن سورة فاطر فصّلت وحدّدت طريق الشكر العملي .

....

تتألف سورة فاطر من مقدمة هي آيتان ، ومن مقطع أول هو آيتان ، ومن مقطع ثان يمتد حتى نهاية الآية (١٤) . ومن مقطع ثالث يمتد حتى نهاية السورة ، أي حتى نهاية الآية (٤٥) وسنرى كيف أنّ الصلة بين المقاطع والمقدمة والسورة والمحور على كمالها وتمامها . ومعلوم أن آيتي سورة البقرة واردتان في سياق معرفة الله وعبادته التي هي الطريق إلى التقوى المشار إليها في أول سورة البقرة ، ويظهر أثر هذا في سورة فاطر بشكل بارز .

....

نقل :

قال الألوسي في تقديمه لسورة فاطر :

(وتسمى سورة الملائكة . وهي مكية كما روي عن ابن عباس وقتادة وغيرهما ؛ وفي مجمع البيان قال الحسن : مكية إلا آيتين ﴿ **إن الذين يتلون كتاب الله** ﴾ الآية ﴿ **ثم أورثنا الكتاب** ﴾ الآية . وآيها ست وأربعون في المدني الأخير والشامي ، وخمس وأربعون في الباقين . والمناسبة - على ما في البحر - أنه عز وجل لما ذكر في آخر السورة المتقدمة هلاك المشركين أعداء المؤمنين ، وإنزالهم منازل العذاب ، تعيَّن على المؤمنين حمده وشكره كما في قوله تعالى : ﴿ **فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين** ﴾ وينضم إلى ذلك تواخي السورتين في الافتتاح بالحمد ، وتقاربهما في المقدار وغير ذلك) .

مقدمة سورة فاطر

وتتألف من آيتين وهاتان هما مع البسملة :

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (٢)

التفسير :

﴿ **الحمد لله** ﴾ قال النّسفي : حمد ذاته تعليماً وتعظيماً ﴿ **فاطر السموٰات والأرض** ﴾ أي مبتدئهما ومبدعهما ﴿ **جاعل الملائكة رسلاً** ﴾ أي بينه وبين أنبيائه ﴿ **أولي أجنحة** ﴾ أي ذوي أجنحة ، والأجنحة جمع جناح ﴿ **مثنىٰ وثلاث ورباع** ﴾ أي منهم من له جناحان ، ومنهم من له ثلاثة ، ومنهم من له أربعة . قال ابن كثير . (ومنهم من له أكثر من ذلك كما جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ رأى جبريل عليه السلام ليلة الإسراء وله ستمائة جناح بين كل جناحين كما بين المشرق والمغرب ولهذا قال جل وعلا : ﴿ **يزيد في الخلق ما يشاء** ﴾ قال السدي : يزيد في الأجنحة وخلقهم ما يشاء) وقال النسفي : (يزيد في خلق الأجنحة وغيره ما يشاء . وقيل هو الوجه الحسن ، والصوت الحسن ، والشعر الحسن ، والخط الحسن ، والملاحة في العينين) والآية مطلقة تتناول كل زيادة في الخلق من طول قامة ، واعتدال صورة ، وتمام في الأعضاء ، وقوة في البطش وحصافة في العقل ، وجزالة في الرأي ، وذلاقة في اللسان ، ومحبة في قلوب المؤمنين ، وما أشبه ذلك ﴿ **إن الله على كل شيء قدير** ﴾ أي قادر ﴿ **ما يفتح الله للناس من رحمة** ﴾ أي من رزق ، أو مطر ، أو صحة ، أو غير

ذلك ﴿ **فلا ممسك لها** ﴾ أي فلا أحد يقدر على إمساكها وحبسها ﴿ **وما يمسك** ﴾ أي يمنع ويحبس ﴿ **فلا مرسل له من بعده** ﴾ أي فلا مطلق لها من بعد إمساكه ﴿ **وهو العزيز** ﴾ أي الغالب القادر على الإرسال والإمساك ﴿ **الحكيم** ﴾ أي الذي يرسل ويمسك ما تقضي الحكمة إرساله وإمساكه . قال ابن كثير في الآية : (يخبر تعالى أنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، وأنه لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع) .

نقل :

قال صاحب الظلال في قوله تعالى : ﴿ **ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ، وما يمسك فلا مرسل له من بعده ، وهو العزيز الحكيم** ﴾ :

(في هذه الآية الثانية من السورة صورة من صور قدرة الله التي ختم بها الآية الأولى . وحين تستقر هذه الصورة في قلب بشري يتم فيه تحول كامل في تصوراته ومشاعره واتجاهاته وموازينه وقيمه في هذه الحياة جميعاً .

إنها تقطعه عن شبهة كل قوة في السماوات والأرض وتصله بقوة الله . وتيئسه من مظنة كل رحمة في السماوات والأرض ، وتصله برحمة الله . وتوصد أمامه كل باب في السماوات والأرض ، وتفتح أمامه باب الله . وتغلق في وجهه كل طريق في السماوات والأرض ، وتشرع له طريقه إلى الله .

ورحمة الله تتمثَّل في مظاهر لا يحصيها العد ؛ ويعجز الإنسان عن مجرد ملاحقتها وتسجيلها في ذات نفسه وتكوينه ، وتكريمه بما كرمه ؛ وفيما سخّر له من حوله ومن فوقه ومن تحته ؛ وفيما أنعم به عليه مما يعلمه ومما لا يعلمه وهو كثير .

ورحمة الله تتمثل في الممنوع تمثلها في الممنوح . ويجدها من يفتحها الله له في كل شيء ، وفي كل وضع ، وفي كل حال ، وفي كل مكان .. يجدها في نفسه ، وفي مشاعره ؛ ويجدها فيما حوله ، وحيثما كان ، وكيفما كان . ولو فقد كل شيء مما يعد الناس فقده هو الحرمان .. ويفتقدها من يمسكها الله عنه في كل شيء ، وفي كل وضع ، وفي كل حالة ، وفي كل مكان . ولو وجد كل شيء مما يعده الناس علامة الوجدان والرضوان !

وما من نعمة - يمسك الله معها رحمته - حتى تنقلب هي بذاتها نقمة . وما من محنة - تحفّها رحمة الله - حتى تكون هي بذاتها نعمة .. ينام الإنسان على الشوك - مع

رحمة الله – فإذا هو مهاد . وينام على الحرير – وقد أمسكت عنه – فإذا هو شوك القتاد . ويعالج أعسر الأمور – برحمة الله – فإذا هي هوادة ويسر . ويعالج أيسر الأمور – وقد تخلَّت رحمة الله – فإذا هي مشقة وعسر . ويخوض بها المخاوف والأخطار فإذا هي أمن وسلام . ويعبر بدونها المناهج والمسالك فإذا هي مهلكة وبوار !

ولا ضيق مع رحمة الله . إنما الضيق في إمساكها دون سواه . لا ضيق ولو كان صاحبها في غياهب السجن . أو في جحيم العذاب أو في شعاب الهلاك . ولا وسعة مع إمساكها ولو تقلب الإنسان في أعطاف النعيم ، وفي مراتع الرخاء . فمن داخل النفس – برحمة الله – تتفجر ينابيع السعادة والرضى والطمأنينة . ومن داخل النفس – مع إمساكها – تدب عقارب القلق والتعب والنصب والكد والمعاناة !

هذا الباب وحده يفتح وتغلق جميع الأبواب ، وتوصد جميع النوافذ ، وتُسدُّ جميع المسالك .. فلا عليك . فهو الفرج والفسحة واليسر والرخاء .. وهذا الباب وحده يغلق وتفتح جميع الأبواب فما هو بنافع . وهو الضيق والكرب والشدة والقلق والعناء ! هذا الفيض يفتح ، ثم يضيق الرزق . ويضيق السكن . ويضيق العيش ، وتخشن الحياة ويشوك المضجع .. فلا عليك فهو الرخاء والراحة والطمأنينة والسعادة . وهذا الفيض يمسك . ثم يفيض الرزق ويقبل كل شيء . فلا جدوى . وإنما هو الضنك والحرج والشقاوة والبلاء !

المال والولد ، والصحة والقوة ، والجاه والسلطان .. تصبح مصادر قلق وتعب ونكد وجهد إذا أمسكت عنها رحمة الله . فإذا فتح الله أبواب رحمته كان فيها السكن والراحة والسعادة والاطمئنان .

يبسط الله الرزق – مع رحمته – فإذا هو متاع طيب ورخاء ؛ وإذا هو رغد في الدنيا وزاد إلى الآخرة . ويمسك رحمته ، فإذا هو مثار قلق وخوف ، وإذا هو مثار حسد وبغض ، وقد يكون معه الحرمان ببخل أو مرض ، وقد يكون معه التلف بإفراط أو استهتار .

ويمنح الله الذرية – مع رحمته – فإذا هي زينة في الحياة ومصدر فرح واستمتاع ، ومضاعفة للأجر في الآخرة بالخلف الصالح الذي يذكر الله . ويمسك رحمته فإذا الذرية بلاء ونكد وعنت وشقاء ، وسهر بالليل وتعب بالنهار !

ويهب الله الصحة والقوة - مع رحمته - فإذا هي نعمة وحياة طيبة ، والتذاذ بالحياة . ويمسك نعمته فإذا الصحة والقوة بلاء يسلِّطه الله على الصحيح القوي ، فينفق الصحة والقوة فيما يحطم الجسم ويفسد الروح ، ويدَّخر السوء ليوم الحساب !

ويعطي الله السلطان والجاه - مع رحمته - فإذا هي أداة إصلاح ، ومصدر أمن ، ووسيلة لادخار الطيب الصالح من العمل والأثر . ويمسك الله رحمته فإذا الجاه والسلطان مصدر قلق على فوتهما ، ومصدر طغيان وبغي بهما ، ومثار حقد وموجدة على صاحبهما لا يقر له معهما قرار ولا يستمتع بجاه ولا سلطان ، ويدخر بهما للآخرة رصيداً ضخماً من النار !

والعلم الغزير . والعمر الطويل . والمقام الطيب . كلها تتغيَّر وتتبدَّل من حال إلى حال .. مع الإمساك ومع الإرسال .. وقليل من المعرفة يثمر وينفع ، وقليل من العمر يبارك الله فيه . وزهيد من المتاع يجعل الله فيه السعادة .

والجماعات كالآحاد . والأمم كالأفراد . في كل أمر وفي كل وضع ، وفي كل حال .. ولا يصعب القياس على هذه الأمثال !

ومن رحمة الله أن تحسّ برحمة الله ! فرحمة الله تضمك وتغمرك وتفيض عليك . ولكن شعورك بوجودها هو الرحمة . ورجاؤك فيها وتطلعك إليها هو الرحمة . وثقتك بها وتوقعها في كل أمر هو الرحمة . والعذاب هو العذاب في احتجابك عنها أو يأسك منها أو شكك فيها . ﴿ **إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون** ﴾ .

ورحمة الله لا تعز على طالب في أي مكان ولا في أي حال . وجدها إبراهيم - عليه السلام - في النار . ووجدها يوسف - عليه السلام - في الجب كما وجدها في السجن . ووجدها يونس - عليه السلام - في بطن الحوت في ظلمات ثلاث . ووجدها موسى - عليه السلام - في اليم وهو طفل مجرد من كل قوة ومن كل حراسة ، كما وجدها في قصر فرعون وهو عدو له متربص به ويبحث عنه . ووجدها أصحاب الكهف في الكهف حين افتقدوها في القصور والدور . فقال بعضهم لبعض : ﴿ **فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته** ﴾ ووجدها رسول الله - ﷺ - ، وصاحبه في الغار والقوم يتعقبونهما ويقصون الآثار .. ووجدها كل من آوى إليها يأساً من كل ما سواها . منقطعاً عن كل شبهة في قوة ، وعن كل مظنة في رحمة ، قاصداً باب الله

وحده دون الأبواب .

ثم إنه متى فتح الله أبواب رحمته فلا ممسك لها . ومتى أمسكها فلا مرسل لها . ومن ثَمَّ فلا مخافة من أحد . ولا رجاء في أحد . ولا مخافة من شيء ، ولا رجاء في شيء . ولا خوف من فوت وسيلة ، ولا رجاء مع الوسيلة . إنما هي مشيئة الله . ما يفتح الله فلا ممسك . وما يمسك الله فلا مرسل . والأمر مباشرة إلى الله .. ﴿ **وهو العزيز الحكيم** ﴾ .. يقدر بلا معقب على الإرسال والإمساك . ويرسل ويمسك وفق حكمة تكمن وراء الإرسال والإمساك .

﴿ **ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها** ﴾ .

وما بين الناس ورحمة الله إلا أن يطلبوها مباشرة منه ، بلا وساطة وبلا وسيلة إلا التوجه إليه في طاعة وفي رجاء وفي ثقة وفي استسلام .

﴿ **وما يمسك فلا مرسل له من بعده** ﴾ .. فلا رجاء في أحد من خلقه ، ولا خوف لأحد من خلقه . فما أحد بمرسل من رحمة الله ما أمسكه الله .

أية طمأنينة ؟ وأي قرار ؟ وأي وضوح في التصورات والمشاعر والقيم والموازين تقره هذه الآية في الضمير .

آية واحدة ترسم للحياة صورة جديدة ؛ وتنشىء في الشعور قيماً لهذه الحياة ثابتة ؛ وموازين لا تهتز ولا تتأرجح ولا تتأثر بالمؤثرات كلها . ذهبت أم جاءت . كبرت أم صغرت . جلَّت أم هانت . كان مصدرها الناس أو الأحداث أو الأشياء !

صورة واحدة لو استقرت في قلب إنسان لصمد كالطود للأحداث والأشياء والأشخاص والقوى والقيم والاعتبارات . ولو تضافر عليها الإنس والجن . وهم لا يفتحون رحمة الله حين يمسكها ، ولا يمسكونها حين يفتحها .. ﴿ **وهو العزيز الحكيم** ﴾) .

فوائد :

١ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **فاطر السموٰات والأرض** ﴾ ذكر ابن كثير رواية سفيان الثوري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كنت لا أدري ما فاطر السموٰات والأرض حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر ، فقال أحدهما لصاحبه : أنا فطرتها أي

بدأتها ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً ﴿ **فاطر السموٰات والأرض** ﴾ أي بديع السموٰات والأرض) .

٢ – بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **يزيد في الخلق ما يشاء** ﴾ قال ابن كثير : (وقال الزهري وابن جريج في قوله تعالى : ﴿ **يزيد في الخلق ما يشاء** ﴾ يعني حسن الصوت ، رواه عن السدي والبخاري عن الزهري في الأدب وابن أبي حاتم في تفسيره ، وقرىء في الشاذ (يزيد في الحلق) بالحاء المهملة والله أعلم) .

٣ – بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده** ﴾ قال ابن كثير : (روى الإمام أحمد عن وراد مولى المغيرة بن شعبة قال : إن معاوية كتب إلى المغيرة بن شعبة : اكتب لي بما سمعت من رسول الله ﷺ ، فدعاني المغيرة فكتبت إليه : إني سمعت رسول الله ﷺ يقول إذا انصرف من الصلاة : « لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير . اللهم لا مانع لما أعطيت ، ولا معطي لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد » وسمعته ينهى عن قيل وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال ، وعن وأد البنات ، وعقوق الأمهات ، ومنع وهات . وقال الإمام مالك رحمة الله عليه كان أبو هريرة رضي الله عنه إذا مطروا يقول : مطرنا بنوء الفتح ، ثم يقرأ هذه الآية : ﴿ **ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم** ﴾ . ورواه ابن أبي حاتم عن يونس عن ابن وهب عنه) .

كلمة في السياق :

قلنا إن محور سورة فاطر هو قوله تعالى من سورة البقرة ﴿ **هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات وهو بكل شيء عليم** ﴾ فأن تبتدىء سورة هذا محورها بقوله تعالى : ﴿ **الحمد لله** ﴾ فذلك واضح الحكمة ، وأن تتحدث مقدمة السورة عن خلق السموٰات والأرض ، وعن خلق الملائكة ، وعن قدرة الله على الزيادة في الخلق ، فذلك كله منسجم مع محور السورة ، وأن تتحدث عن طلاقة مشيئته جل جلاله في الإعطاء والإمساك ، وأن يبتدىء ذلك كله بقوله ﴿ **الحمد لله** ﴾ فذلك واضح الصلة ، وأن يأتي بعد قوله تعالى : ﴿ **يزيد في الخلق ما يشاء** ﴾ قوله تعالى : ﴿ **ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ...** ﴾ فذلك كذلك واضح الصلة ، وأن تكون هذه مقدمة لسورة فاطر التي تفصّل هذا المحور ، كل ذلك واضح الحكمة بيّن الترابط .

المقطع الأول

ويمتدّ من الآية (٣) إلى نهاية الآية (٤) وهذا هو :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤﴾

التفسير :

﴿ **يا أيها الناس اذكروا** ﴾ باللسان والقلب ﴿ **نعمة الله عليكم** ﴾ من خلقه السمٰوات والأرض ، وإرسال الرسل لبيان السبيل إليه ، والزيادة في الخلق ، وفتح أبواب الرزق ﴿ **هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض** ﴾ بالمطر وأنواع النبات ، وتسخير كل شيء لكم ﴿ **لا إله إلا هو فأنّىٰ تؤفكون** ﴾ أي فبأي وجه تصرفون عن التوحيد إلى الشرك بعد هذا البيان ، ووضوح هذا البرهان . قال ابن كثير في الآية : (ينبه تعالى عباده ويرشدهم إلى الاستدلال على توحيده في إفراد العبادة له ، كما أنه المستقل بالخلق والرزق فكذلك ، فليفرد بالعبادة ، ولا يشرك به غيره من الأصنام والأنداد والأوثان ..) ﴿ **وإن يكذبوك** ﴾ يا محمد هؤلاء المشركون بالله ، ويخالفوك فيما جئتهم به من التوحيد ، وإفراد الله بالعبادة شكراً ﴿ **فقد كُذِّبت رسل من قبلك** ﴾ فتأسّ بهم ، فلك فيمن سلف قبلك من الرسل أسوة ، فإنّهم كذلك جاؤوا قومهم بالبينات ، وأمروهم بالتوحيد ، فكذّبوهم وخالفوهم ﴿ **وإلى الله تُرجع الأمور** ﴾ قال ابن كثير : أي وسنجزيهم على ذلك أوفر الجزاء . وقال النسفي : (هذا) كلام يشتمل على الوعد والوعيد من رجوع الأمور إلى حكمه ، ومجازاة المكذِّب والمكذَّب بما يستحقانه .

كلمة في السياق :

بعد أن ذكر الله عز وجل في المقدمة أنه سبحانه وتعالى فاطر السمٰوات والأرض ، وأن له الحمد ، وأنّه ما من رحمة بخلقه إلا وهي منه . أمر في هذا المقطع بتذكّر نعمه

وذكرها مذكِّراً أنّه وحده الخالق والرازق ، وأنه وحده الإله المعبود بحق . وواسىٰ رسوله ﷺ على تكذيب الكافرين له ، وحذّر وأنذر هؤلاء المكذبين . والانتقال من تقرير الوحدانية إلى خطاب الرسول ﷺ يشبه ما ذكر في المقدمة من اتباع ذكر الملائكة الذين هم الواسطة بين الله ورسله لذكر خلقه السمٰوات والأرض ، كما أن بين ذكر الملائكة في المقدمة ، وذكر الرسل في المقطع صلة ، فالصلة بين المقطع والمقدمة قائمة وواضحة ، كما أن الصلة بين المقطع وبين محور السورة واضحة . فمحور السورة هو قوله تعالى : ﴿ **هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً** ﴾ وهذه نعمة تحتاج إلى تذكر ، ومن ثَمَّ بدأ المقطع بقوله تعالى : ﴿ **اذكروا نعمة الله عليكم هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض** ﴾ وقد فهمنا من المقطع :

أن الرسول ﷺ يدعو إلى تذكّر نعم الله ، وإلى توحيده ، وأن تكذيبه في هذا إفك وطغيان . وهكذا نجد منذ البداية ، ارتباط موضوع الشكر لله بموضوع الإيمان بالرسول ﷺ ، وارتباط توحيد الله وعبادته بالإيمان برسالاته .

والآن يأتي مقطع جديد يبدأ بالتحذير من الدنيا ومن الشيطان : الدنيا التي خلقها الله لكم لا تفتنكم عن عبادته ، ولا تلهينّكم عنه ، والشيطان الذي أخرجكم من الجنة لا يدخلنّكم النار .

☆ ☆ ☆

المقطع الثاني

ويمتدّ من الآية (٥) إلى نهاية الآية (١٤) وهذا هو :

المجموعة الأولى

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ
ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ
أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟
ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ
فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ
ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾

المجموعة الثانية والثالثة

وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ
مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ
ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ
شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ
أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ
مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا

عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا
وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ
تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ
يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ
مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ
ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾

تفسير المجموعة الأولى من المقطع الثاني

﴿ **يا أيها الناس إن وعد الله حق** ﴾ أي وعد الله بالبعث والجزاء كائن ﴿ **فلا تغرنّكم الحياة الدنيا** ﴾ أي فلا تخدعنكم الدنيا ، ولا يذهلنكم التمتع بها والتلذذ بمنافعها عن العمل للآخرة ، وطلب ما عند الله ﴿ **ولا يغرنّكم بالله الغرور** ﴾ أي الشيطان . قال ابن كثير : (أي لا يفتننّكم الشيطان ، ويصرفنّكم عن اتباع رسل الله ، وتصديق كلماته ، فإنه غرار كذاب أفاك) . وقال النسفي : (ولا يغرنّكم الشيطان فإنّه يمنّيكم الأماني الكاذبة ، ويقول : إن الله غني عن عبادتك وعن تكذيبك) ثمّ بيّن تعالىٰ عداوة إبليس لابن آدم فقال : ﴿ **إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً** ﴾ أي هو مبارز لكم بالعداوة ؛ فعادوه أنتم أشد العداوة ، وخالفوه وكذّبوه فيما يغرّكم به ، فعل بأبيكم ما فعل فاتخذوه عدواً في عقائدكم وأفعالكم ، ولا يوجدنّ منكم إلا ما يدلّ على معاداته في سرّكم وجهركم ، ثمّ لخّص أمره بأن غرضه الذي يؤمه في دعوة شيعته هو أن يوردهم مورد الهلاك ، فقال : ﴿ **إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير** ﴾ فأي حماقة أكبر من اتباع وسوسته . قال ابن كثير : (أي إنما يقصد أن يضلّكم حتى تدخلوا معه إلى عذاب السعير ، فهذا هو العدوّ المبين ، نسأل الله القوي العزيز أن يجعلنا أعداء الشيطان ، وأن يرزقنا اتباع كتاب الله ، والاقتفاء بطريق رسوله ﷺ إنه على ما يشاء قدير ، وبالإجابة جدير) ثمّ كشف تعالى الغطاء ،

فبنى الأمر كله على الإيمان والعمل الصالح ، فهو علامة ترك الاغترار في الدنيا ، وعلامة ترك الاغترار بالشيطان فقال : ﴿ **الذين كفروا لهم عذاب شديد** ﴾ أي فمن أجابه حين دعاه فله عذاب شديد ، لأنه صار من حزبه ، أي من أتباعه ﴿ **والذين آمنوا وعملوا الصالحات** ﴾ فلم يغتروا بالدنيا ، ولم يجيبوا الشيطان ، ولم يصيروا من حزبه بل عادوه ﴿ **لهم مغفرة** ﴾ لما فرط منهم من ذنب ﴿ **وأجر كبير** ﴾ على ما عملوه من خير وعلى مجاهدتهم ، ثمّ لما ذكر الفريقين بيّن أن السائرين في طريق الشيطان مُزيَّنة لهم أعمالهم الفاسدة بتزيين الشيطان ، فهم يرونها حسنة ﴿ **أفمن زُيِّن له سوءُ عمله** ﴾ بتزيين الشيطان ﴿ **فرآه حسناً** ﴾ قال ابن كثير : يعني كالكفار والفجار يعملون أعمالاً سيئة وهم في ذلك يعتقدون ويحسبون أنهم يحسنون صنعاً ، أي أفمن كان هكذا قد أضله الله ألك فيه حيلة ؟ لا حيلة لك فيه ﴿ **فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء** ﴾ أي بقدره كان ذلك ﴿ **فلا تذهب نفسك عليهم حسرات** ﴾ يعني فلا تهلك نفسك للحسرات . قال ابن كثير : (أي لا تأسف على ذلك فإن الله حكيم في قدره ، إنما يضل من يضل ، ويهدي من يهدي ، لما له في ذلك من الحجة البالغة ، والعلم التامّ) ﴿ **إنّ الله عليم بما يصنعون** ﴾ هذا وعيد لهم بالعذاب على سوء صنيعهم .

كلمة في السياق :

إن الله عز وجل خلق كل شيء للإنسان ليشكر ، فإذا انشغل الإنسان بالنعمة عن المنعم ، فذلك دليل انحراف ، والشيطان هو العدو الأول للإنسان ، فإذا أصبح الشيطان هو المعلم للإنسان ، فذلك علامة انحراف في تفكير الإنسان وسلوكه ، وهذه المجموعة التي مرّت معنا لفتت نظر الإنسان إلى هذا ، وحذرته ، وبيَّنت له مغبة ذلك ونتيجته . وهذا المعنى الذي مر معنا في المجموعة هو المعنى المكمّل للمعنى الذي تعرّض له المقطع الأول . فالمقطع الأول دعا إلى ذكر النعمة ، والبناء على ذلك ، والمجموعة الأولى من هذا المقطع دعت إلى ترك الاغترار بالدنيا والشيطان ، لأن ذلك يصرف الإنسان عن شكر النعمة ، وصلة ذلك بمقدمة السورة واضحة . إذ مقدمة السورة ذكرت استحقاق الله للحمد ، وقالت ﴿ **ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده** .. ﴾ وإذا كان هذا هو الشأن ، فلا يجوز أن يصرف الإنسان صارف عن الإيمان والتوحيد والشكر لا دنيا ولا شيطان .

فما محل هذه المجموعة في السياق العام للقرآن ؟ :

إن المجموعة بدأت بالتذكير بأن وعد الله حق ، ثم نهت عن الاغترار في الدنيا والشيطان ، فإذا تذكرنا أن محور السورة هو قوله تعالى : ﴿ **هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سمٰوات وهو بكل شيء عليم** ﴾ وأنَ هذه الآية قد جاءت بين قوله تعالى :

﴿ **كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون** ﴾ وبين قصة آدم عليه السلام المنتهية بقوله تعالى :

﴿ **فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون * والذين كفروا وكذبوا بآياتنا فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** ﴾ .

فما قبل آية المحور وما بعدها توجد وعود لها علاقة باليوم الآخر ، وما بعد آية المحور كانت قصة إضلال الشيطان لآدم عليه السلام . فأن تأتي المجموعة فيها النهي عن الاغترار بالدنيا والشيطان في سياق تقرير أنّ وعد الله حق فذلك واضح الارتباط بالمحور وسياقه . والآن تأتي مجموعتان كل منهما مبدوء بقوله تعالى ﴿ **والله** ... ﴾ فالمجموعتان استمرار للكلام عن الذي رأيناه في المقدمة ، ورأيناه في المقطع الأول . والسورة كلها تصبّ في سياق الحديث عن الله عز وجل ، وسنعرض المجموعتين مع بعضهما لاتصالهما ببعضهما .

☆ ☆ ☆

تفسير المجموعتين الثانية والثالثة

﴿ **والله الذي أرسل الرياح فتثير سحاباً** ﴾ قال النسفي : إنما قيل (فتثير) لتحكي الحال التي تقع فيها إثارة الرياح السحاب ، وتُستحضر تلك الصورة الدالّة على القدرة الربانية ﴿ **فسقناه إلى بلد ميِّت فأحيينا به** ﴾ أي بالمطر ﴿ **الأرض بعد موتها** ﴾ أي بعد يبسها . قال النسفي : (ولما كان سوق السحاب إلى البلد الميت ، وإحياء الأرض بالمطر بعد موتها من الدلائل على القدرة الباهرة قيل : فسقناه وأحييناه ، معدولاً بهما عن لفظ الغيبة ، إلى ما هو أدخل في الاختصاص وأدلّه عليه) ﴿ **كذلك النشور** ﴾ أي مثل إحياء الموات نشور الأموات . قال ابن كثير : (كذلك الأجساد إذا أراد الله تعالى بعثها ونشورها ، أنزل من تحت العرش مطراً يعمّ الأرض جميعاً ، وتنبت الأجساد في قبورها ، كما تنبت الحبة في الأرض ، ولهذا جاء في الصحيح « كل ابن آدم يبلى إلا عَجْبُ الذنب ، منه خلق ، ومنه يركب » .

كلمة في السياق :

هذه الآية جسر بين ما قبلها وما بعدها ، فهي تدلل على اليوم الآخر الذي قال الله عز وجل عنه ﴿ **إن وعد الله حق** ﴾ بين يدي الكلام عن إرادة العزة التي هي إحدى مزالق الشيطان وإحدى مظاهر الدنيا ، ومن ثَمَّ اقتضى ذلك أن يسبقها الكلام عن حتمية مجيء اليوم الآخر ، لأنّه وحده العلاج من أن تقع النفس فريسة غرر الدنيا ، والشيطان ، بسبب طلبها العزة . فالكلام عن العزة في هذا السياق كلام عن واحد مما يغري به الشيطان الإنسان ، وعن مظهر من مظاهر الدنيا التي تصرف عن الآخرة .

* * *

﴿ **من كان يريد العزَّة فلله العزَّة جميعاً** ﴾ أي العزة كلها مختصة بالله ، عزة الدنيا ، وعزة الآخرة . قال ابن كثير : (أي من كان يحب أن يكون عزيزاً في الدنيا والآخرة فليلزم طاعة الله تعالى ، فإنه يحصل له مقصوده ؛ لأن الله تعالى مالك الدنيا والآخرة ، وله العزة جميعاً) . ثمّ عرّف تعالى أن ما يُطلَب به العزة هو الإيمان والعمل الصالح فقال : ﴿ **إليه يصعد الكلم الطيب** ﴾ أي كلمات التوحيد ، أي لا إله إلا الله . قال ابن كثير : يعني الذكر والدعاء ﴿ **والعمل الصالح** ﴾ أي العبادة الخالصة ، أي أداء الفرائض والنوافل ﴿ **يرفعه** ﴾ أي يرفعه الله ، وفي ضمائر (يرفعه) اختلاف

كثير ، يترتب عليه اختلاف المعنى ، وقد لخص النسفي ذلك فقال : (والعمل الصالح يرفعه الكلم الطيب ، فالرافع الكلم ، والمرفوع العمل ، لأنه لا يقبل عمل إلا من موحِّد ، وقيل الرافع الله والمرفوع العمل ، أي العمل الصالح يرفعه الله ، وفيه إشارة إلى أن العمل يتوقف على الرفع ، والكلم الطيب يصعد بنفسه ، وقيل العمل الصالح يرفع العامل ويشرّفه . أي من أراد العزة فليعمل عملاً صالحاً فإنه هو الذي يرفع العبد) ﴿ **والذين يمكرون** ﴾ المكرات ﴿ **السيئات** ﴾ محافظة على عزتهم الباطلة ، أو للوصول إلى العزة الجاهلية ؛ رغبة في الدنيا وطلباً لها ﴿ **لهم عذاب شديد** ﴾ في الآخرة ﴿ **ومكر أولئك هو يبور** ﴾ أي يفسد ويبطل ﴿ **والله خلقكم من تراب** ﴾ خلق آدم من تراب ، وخلقكم من تراب ، حتى صرتم نطفاً ﴿ **ثم من نطفة** ﴾ أي ثم أنشأكم من نطفة ﴿ **ثم جعلكم أزواجاً** ﴾ أي أصنافاً ، أو ذكراناً وإناثاً ﴿ **وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه** ﴾ أي إلا معلومة له ﴿ **وما يعمّر من معمَّر** ﴾ أي من أحد ﴿ **ولا ينقص من عمره إلا في كتاب** ﴾ يعني اللوح أو صحيفة الإنسان . قال ابن كثير : يقول : ليس أحد قضيت له بطول العمر والحياة إلا هو بالغ ما قدرت له من العمر ، وقد قضيت ذلك له ، فإنما ينتهي إلى الكتاب الذي قدرت لا يزاد عليه ، وليس أحد قدرت له أنه قصير العمر والحياة ببالغ العمر ، ولكن ينتهي إلى الكتاب الذي كتبت له ؛ ﴿ **إن ذلك على الله يسير** ﴾ أي إن إحصاء ذلك ، أو إنّ زيادة العمر ونقصانه ، على الله سهل .

....

نقل :

قال صاحب الظلال عند قوله تعالى : ﴿ **من كان يريد العزَّة فلله العزَّة جميعاً إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد ومكر أولئك هو يبور** ﴾ :

(وهذه الحقيقة كفيلة حين تستقر في القلوب أن تبدل المعايير كلها ، وتبدل الوسائل والخطط أيضاً !

إن العزة كلها لله . وليس شيء منها عند أحد سواه . فمن كان يريد العزة فليطلبها من مصدرها الذي ليس لها مصدر غيره . ليطلبها عند الله ، فهو واجدها هناك وليس

بواجدها عند أحد ، ولا في أي كنف ، ولا بأي سبب ﴿ **فإن العزَّة لله جميعاً** ﴾ .

إن الناس الذين كانت قريش تبتغي العزة عندهم بعقيدتها الوثنية المهلهلة ؛ وتخشى اتباع الهدى – وهي تعترف أنه الهدى – خشية أن تصاب مكانتها بينهم بأذى . إن الناس هؤلاء . القبائل والعشائر وما إليها . إن هؤلاء ليسوا مصدراً للعزة ، ولا يملكون أن يعطوها أو يمنعوها ﴿ **فإن العزة لله جميعاً** ﴾ .. وإذا كانت لهم قوة فمصدرها الأول هو الله . وإذا كانت لهم منعة فواهبها هو الله . وإذن فمن كان يريد العزة والمنعة فليذهب إلى المصدر الأول ، لا إلى الآخذ المستمد من هذا المصدر . ليأخذ من الأصل الذي يملك وحده كل العزة ، ولا يذهب يطلب قمامة الناس وفضلاتهم . وهم مثله طلاب محاويج ضعاف !

إنها حقيقة أساسية من حقائق العقيدة الإسلامية . وهي حقيقة كفيلة بتعديل القيم والموازين ، وتعديل الحكم والتقدير ، وتعديل النهج والسلوك ، وتعديل الوسائل والأسباب ! ويكفي أن تستقر هذه الحقيقة وحدها في أي قلب لتقف به أمام الدنيا كلها عزيزاً كريماً ثابتاً في وقفته غير مزعزع ، عارفاً طريقه إلى العزة ، وطريقه الذي ليس هنالك سواه !

إنه لن يحني رأسه لمخلوق متجبر . ولا لعاصفة طاغية . ولا لحدث جلل . ولا لوضع ولا لحكم . ولا لدولة ولا لمصلحة ، ولا لقوة من قوى الأرض جميعاً . وعلام ؟ والعزة لله جميعاً . وليس لأحد منها شيء إلا برضاه ؟

ومن هنا يذكر الكلم الطيب والعمل الصالح :

﴿ **إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه** ﴾ .

ولهذا التعقيب المباشر بعد ذكر الحقيقة الضخمة مغزاه وإيحاؤه . فهو إشارة إلى أسباب العزة ووسائلها لمن يطلبها عند الله . القول الطيب والعمل الصالح . القول الطيب الذي يصعد إلى الله في علاه ؛ والعمل الصالح الذي يرفعه الله إليه ويكرمه بهذا الارتفاع . ومن ثَمَّ يكرم صاحبه ويمنحه العزة والاستعلاء .

والعزة الصحيحة حقيقة تستقر في القلب قبل أن يكون لها مظهر في دنيا الناس . حقيقة تستقر في القلب فيستعلي بها على كل أسباب الذلة والانحناء لغير الله . حقيقة يستعلي بها على نفسه أول ما يستعلي . يستعلي بها على شهواته المذلة ، ورغائبه القاهرة ،

ثم جاء المقطع الثاني مبدوءاً بقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الناس إن وعد الله حق ..** ﴾ فأن يأتي بعد ذلك حديث عن الله عز وجل ﴿ **والله الذي أرسل الرياح ..** ﴾ ثم حديث عنه جل جلاله ﴿ **والله خلقكم من تراب ...** ﴾ ثم حديث عن مظهر من مظاهر قدرته وحكمته ، وإنعامه في خلق الأنهار والبحار ، كل ذلك واضح الصلة ببعضه . فالسياق يعرّفنا على الله وعما تستلزمه هذه المعرفة .

٢ - ورأينا أن محور السورة هو قوله تعالى : ﴿ **هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء فسواهُنَّ سبع سمٰوات** ﴾ الآتية في حيز قوله تعالى : ﴿ **كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون** ﴾ فأن يأتي كلام في السورة يحدثنا عن مظاهر إنعام الله ، وعما يدل على الرجوع إليه ، وعن خلقه الإنسان من طور إلى طور ، وعن تسخيره البحر لهذا الإنسان ، وأن يحدثنا عن الشكر في هذا السياق . كل ذلك واضح الصلة بعضه ببعض ، إنه لا يغيب عن المتأمل صلة الآيات التي مرت معنا بسياق السورة ولا بمحورها ، ولكن ما صلة الآية الأخيرة بالسياق الجزئي للمقطع ؟ لا شك أن الآية الأخيرة تؤدي دورها في تعريفنا على الله وعلى نعمه وعلى ما تقتضيه هذه المعرفة من الشكر ، ولكن ما صلة ذلك في المقطع المبدوء بالنهي عن الاغترار في الدنيا وعن تغرير الشيطان ؟

قال النسفي في الآية : (ضرب البحرين العذب والملح مثلين للمؤمن والكافر) . وإذن فالنسفي يفهم أن مجيء هذه الآية له صلة بالكلام السابق عن قضية الإيمان والكفر ، ونحن إذا تأملنا المقطع الذي وردت فيه هذه الآية نجد فيه قوله تعالى : ﴿ **والذين كفروا لهم عذاب شديد والذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر كريم** ﴾ ونجد ﴿ **من كان يريد العزَّة فلله العزَّة جميعاً ...** ﴾ ولا يبعد أن يكون المثل مرتبطاً بموضوع الكفر والإيمان ، وبموضوع العزة كذلك ، فالمؤمن الذي يطلب العزة بالله ، ومن الله ، وفي السير في طريق الله ، هو العذب الفرات ، والكافر الذي يطلب بنفسه ، ولنفسه ، وفي السير في طريق الكفر ، هو الملح الأجاج ، وفي هذا منفعة للخلق ، وفي هذا منفعة للخلق ، ولكن الفارق بين الشخصيتين يبقى قائماً ؛ هذا عذب فرات ، وهذا ملح أجاج .

ولنستمر في التفسير فإن السياق لازال يحدثنا عن الله عز وجل وعن مظاهر قدرته وعن تسخيره الأشياء للإنسان .

﴿ **يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل** ﴾ قال ابن كثير : (وهذا أيضاً من قدرته التامة وسلطانه العظيم في تسخيره الليل بظلامه ، والنهار بضيائه ويأخذ من طول هذا فيزيده في قصر هذا فيعتدلان ، ثم يأخذ من هذا في هذا فيطول هذا ويقصر هذا ، ثم يتقارضان صيفاً وشتاءً) ﴿ **وسخَّر الشمس والقمر** ﴾ لصالح هذا الإنسان ﴿ **كل يجري لأجل مُسمًّى** ﴾ أي إلى يوم القيامة ﴿ **ذلكم** ﴾ أي الذي فعل هذا ﴿ **الله ربكم له الملك** ﴾ لأنه هو الخالق ﴿ **والذين تدعون من دونه** ﴾ أي من الأصنام والأنداد ﴿ **ما يملكون من قطمير** ﴾ القطمير : هي القشرة الرقيقة الملتفة على النواة ، أي لا يملكون من السموٰت والأرض شيئاً ، ولا بمقدار هذا القطمير ﴿ **إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم** ﴾ لأنها جماد لا أرواح فيها ﴿ **ولو سمعوا** ﴾ على سبيل الفرض ﴿ **ما استجابوا لكم** ﴾ لأنهم لا يقدرون على شيء مما تطلبون منها ﴿ **ويوم القيامة يكفرون بشرككم** ﴾ أي بإشراككم لهم وعبادتكم إياهم ، ويتبرأون منكم ﴿ **ولا ينبئك مثل خبير** ﴾ قال ابن كثير : (أي ولا يخبرك بعواقب الأمور ومآلها وما تصير إليه مثل خبير بها . قال قتادة : يعني نفسه تبارك وتعالى ، فإنه أخبر بالواقع لا محالة) . وقال النسفي : (ولا ينبئك أيها المفتون بأسباب الغرور كما ينبئك الله الخبير بخفايا الأمور ، وتحقيقه ولا يخبرك بالأمر مخبر هو مثل خبير عالم به ، يريد أن الخبير بالأمر وحده هو الذي يخبرك بالحقيقة دون سائر المخبرين به ، والمعنى : أن هذا الذي أخبرتكم به من حال الأوثان هو الحق لأني خبير بما أخبرت به) .

كلمة في المقطع الثاني وسياقه وسياق السورة :

١ - بدأ المقطع بالنهي عن الاغترار بالدنيا ، والتحذير من تغرير الشيطان ، ثمّ نفّر من الكفر ، ومن طلب العزة الباطلة ، ومن الشرك ، مما يشير إلى أن هذه الأشياء من مظاهر الاغترار بالدنيا ، والوقوع في تغرير الشيطان ، وَرَغّب في الإيمان والعمل الصالح ، والكلم الطيب ، والشكر ، هذه مظاهر طلب الله والدار الآخرة . فالمقطع حدَّد للمسلم جوانب عملية للسير في طريق الشكر .

٢ - يلاحظ أن المقطع انتهى بالكلام عن التوحيد ﴿ **إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ...** ﴾ فكل ما قبله كان يخدم هذه النتيجة وهو نفس المعنى الذي صبّ فيه المقطع الأول ﴿ **اذكروا نعمة الله عليكم هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض لا إله إلا هو فأنّىٰ تؤفكون** ﴾ وهو المعنى الذي قدمت له مقدمة السورة .

٣ - سارت السورة إذن في سياقها الرئيسي في طريق تعريفنا على الله ، وما تستلزمه هذه المعرفة ، وحررتنا من كل ما يتنافى مع هذه المعرفة من شرك ، أو كفر ، أو اغترار بالدنيا ، أو ولاء للشيطان .

٤ - بدأت المقدمة بذكر استحقاق الله الحمد ، ثمّ جاء المقطع الأول ليذكّرنا بنعمة الله علينا ، ثمّ جاء المقطع الثاني لينهانا عن أن تكون الدنيا والشيطان أداتي تغرير بنا ، وصَرْفٍ لنا عن الشكر . والآن يأتي المقطع الثالث ليذكرنا في بدايته بافتقارنا إلى الله عز وجل واحتياجنا إليه ، ولذلك محلّه في الوصول إلى الشكر .

فوائد :

١ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **إليه يصعد الكلم الطيب** ﴾ قال ابن كثير : (وروى ابن جرير عن المخارق بن سليم قال : قال لنا عبد الله - ابن مسعود - رضي الله عنه إذا حدثناكم بحديث أتيناكم بتصديق ذلك من كتاب الله تعالى ، أن العبد المسلم إذا قال سبحان الله وبحمده ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، تبارك الله ، أخذهن ملك فجعلهن تحت جناحه ، ثم صعد بهن إلى السماء فلا يمر بهن على جمع من الملائكة إلا استغفروا لقائلهن ، حتى يجيء بهن وجه الله عز وجل ، ثم قرأ عبد الله رضي الله عنه ﴿ **إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه** ﴾ ... وقال كعب الأحبار : إن لسبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، لدوياً حول العرش ، كدوي النحل ، يذكرن لصاحبهن ، والعمل الصالح في الخزائن ، وهذا إسناد صحيح إلى كعب الأحبار رحمة الله عليه ، وقد روي مرفوعاً . روى الإمام أحمد عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « الذين يذكرون الله ، من جلال الله ، من تسبيحه ، وتكبيره ، وتحميده ، وتهليله ، يتعاطفن حول العرش ، لهن دوي كدوي النحل ، يذكرن بصاحبهن ، ألا يحب أحدكم أن لا يزال له عند الله شيء يذكر به » وهكذا رواه ابن ماجه) .

٢ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وما يُعَمَّرُ من مُعَمَّر وما ينقص من عمره** ﴾ قال ابن كثير : (وروى النسائي عند تفسير هذه الآية عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من سرّه أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أثره ، فليصل رحمه » وقد رواه البخاري ومسلم وأبو داود ... وروى ابن أبي حاتم عن

أبي الدرداء رضي الله عنه قال : ذكرنا عند رسول الله ﷺ فقال : « إن الله تعالى لا يؤخر نفساً إذا جاء أجلها ، وإنما زيادة العمر بالذرية الصالحة يرزقها العبد فيدعون له من بعده فيلحقه دعاؤهم في قبره فذلك زيادة العمر ») .

☆ ☆ ☆

المقطع الثالث

ويمتدّ من الآية (١٥) إلى نهاية الآية (٤٥) أي إلى نهاية السورة وهذا هو :

المجموعة الأولى

* يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ
يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ
وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ۗ إِنَّمَا
تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ
لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَـٰتُ
وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ
إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ
إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ
﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ
وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَـٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ
﴿٢٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ
ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ
وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَـٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ

العلمٰؤا إن الله عزيز غفور ﴿٢٨﴾

المجموعة الثانية

إن الذين يتلون كتٰب الله وأقاموا الصلوٰة وأنفقوا مما رزقنٰهم سرا
وعلانية يرجون تجٰرة لن تبور ﴿٢٩﴾ ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله
إنه غفور شكور ﴿٣٠﴾ والذي أوحينا إليك من الكتٰب هو الحق مصدقا
لما بين يديه إن الله بعباده لخبير بصير ﴿٣١﴾ ثم أورثنا الكتٰب الذين
اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق
بالخيرٰت بإذن الله ذٰلك هو الفضل الكبير ﴿٣٢﴾ جنٰت عدن يدخلونها
يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير ﴿٣٣﴾ وقالوا الحمد لله
الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور ﴿٣٤﴾ الذي أحلنا دار المقامة
من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب ﴿٣٥﴾ والذين كفروا لهم
نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها كذٰلك نجزي
كل كفور ﴿٣٦﴾ وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صٰلحا غير الذي كنا
نعمل أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما
للظٰلمين من نصير ﴿٣٧﴾

المجموعة الثالثة

إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾ هُوَ
ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ
كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾
قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ
أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ
ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾

المجموعة الرابعة

* إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ
أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ
نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾
ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ
إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾
أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ
مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ

عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَـٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾

تفسير المجموعة الأولى من المقطع الثالث

﴿ **يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله** ﴾ قال ذو النون المصري : الخلق محتاجون إليه في كل نفس وخطرة ولحظة ، وكيف لا ، ووجودهم به ، وبقاؤهم به . وقال ابن كثير : أي هم محتاجون إليه في جميع الحركات والسكنات ، وهو تعالى الغني عنهم بالذات . ولهذا قال تعالى : ﴿ **والله هو الغني** ﴾ عن الأشياء أجمع فهو المنفرد بالغنى وحده لا شريك له ﴿ **الحميد** ﴾ المحمود في جميع ما يفعله ويقوله ويقدره ويشرعه ﴿ **إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد** ﴾ قال النسفي : (أي إن يشأ يذهبكم كلكم إلى العدم ؛ فإن غناه بذاته لا بكم في القدم ، ويأت بخلق جديد ، وهو بدون حمدكم حميد) ﴿ **وما ذلك** ﴾ أي الإنشاء والإفناء ﴿ **على الله بعزيز** ﴾ أي بممتنع . قال ابن كثير في الآية : (أي لو شاء لأذهبكم أيها الناس ، وأتى بقوم غيركم ، وما هذا عليه بصعب ولا ممتنع) . وهذا واحد من مظاهر افتقاركم وغناه ﴿ **ولا تزر وازرة وزر أخرى** ﴾ أي ولا تحمل نفس آثمة إثم نفس أخرى . والمعنى : أن كل نفس يوم القيامة لا تحمل إلا وزرها الذي اقترفته ، لا تؤاخذ نفس بذنب نفس ﴿ **وإن تدعُ مُثْقَلة** ﴾ أي بالذنوب أحداً ﴿ **إلى حملها** ﴾ أي ثِقْلِها أي ذنوبها ليتحمّل عنها بعض ذلك ﴿ **لا يُحمل منه شيء ولو كان** ﴾ أي المدعو ﴿ **ذا قربى** ﴾ أي ذا قرابة قريبة كأب أو ولد أو أخ . قال ابن كثير : أي وإن تدع نفس مثقلة بأوزارها إلى أن تساعد على حمل ما عليها من الأوزار - أو بعضه - لا يحمل منه شيء ، ولو كان ذا قربى أي وإن كان قريباً إليها حتى ولو كان أباها أو ابنها ، كلٌّ مشغول بنفسه وحاله .

كلمة في السياق :

ما محل هذه الآية الأخيرة في السياق وما صلتها بما قبلها ؟

بعد أن قرر الله عز وجل افتقار الخلق وغناه جل شأنه وقدرته على الإنشاء والإفناء جاء بهذه القاعدة الكلية العادلة ليبين أن طلبه العبادة من خلقه ليس لاحتياجه إلى ذلك

فكيف رأيت إنكاري عليهم عظيماً شديداً بليغاً) وبعد أن لفت الله النظر إلى ما يثير الخشية منه من خلال ما فعل بالمكذّبين ، لفت النظر إلى مظاهر قدرته في هذا الكون من أجل أن يثير الخشية منه من خلال التعريف بعظمته فقال : ﴿ **ألم تر أن الله أنزل من السماء** ﴾ أي السحاب ﴿ **ماءً فأخرجنا به** ﴾ أي بالماء ﴿ **ثمرات مختلفاً ألوانها** ﴾ كالرمّان ، والتّفاح ، والتين ، والعنب ، وغيرها مما لا يحصر ، فمنها الأحمر والأصفر والأخضر وغير ذلك ﴿ **ومن الجبال جُدَدٌ** ﴾ أي طرق ﴿ **بيض وحمر مختلف ألوانها** ﴾ أي ومن الجبال ذو جدد ، أي ذو طرق بيض وحمر ﴿ **وغرابيب سود** ﴾ قال عكرمة : الغرابيب : الجبال الطوال السود . قال ابن كثير : (وخلق الجبال كذلك مختلفة الألوان كما هو المشاهد أيضاً) . والغرابيب : جمع غربيب وهو القاتم السواد ﴿ **ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك** ﴾ أي كاختلاف الثمرات والجبال . ثم بعد أن عدّد الله عز وجل ما عدّد من آياته ، وأعلام قدرته ، وآثار صنعته ، وما خلق من الفطر المختلفة الأجناس ممّا يستدلّ به عليه وعلى صفاته . أتبع ذلك بقوله ﴿ **إنما يخشى الله من عباده العلماء** ﴾ أي العلماء الذين عرفوه بصفاته ؛ فعظّموه ، ومن ازداد علماً به ازداد منه خوفاً ، ومن كان علمه به أقل كان آمن . قال النسفي : (وتقديم اسم الله تعالى وتأخير العلماء يؤذن أن معناه : أن الذين يخشون الله من عباده العلماء دون غيرهم) ﴿ **إن الله عزيز غفور** ﴾ هذا تعليل لوجوب الخشية ، لدلالته على عقوبة العصاة وقهرهم ، وإثابة أهل الطاعة ، والعفو عنهم . والمعاقب المثيب حقّه أن يخشى . وبهذا انتهت المجموعة الأولى من هذا المقطع . وقد بيّنت أنّ بداية السير إلى الله الخشية ، وإقامة الصلاة . ودلّت على الطريق إلى ذلك ، وتكلّمت عن مثيرات الخشية لله من معرفة غنى الله ، والافتقار إليه ، إلى معرفة قدرته عز وجل على الإفناء والإنشاء ، إلى معرفة عقوبته يوم القيامة لمن خالف ، إلى معرفة انتقامه ممن يكذّب الرسل ، إلى معرفة مظاهر قدرته التي تدلّ على عظمته .

ولقد قال صاحب الظلال في الآيتين الأخيرتين ما يلي :

(إنها لفتة كونية عجيبة من اللفتات الدالة على مصدر هذا الكتاب . لفتة تطوف في الأرض كلها ، نتبع فيها الألوان والأصباغ في كل عوالمها . في الثمرات . وفي الجبال . وفي الناس . وفي الدواب والأنعام . لفتة تجمع في كلمات قلائل ، بين الأحياء وغير الأحياء في هذه الأرض جميعاً ، وتدع القلب مأخوذاً بذلك المعرض الإلهي الجميل الرائع

الكبير الذي يشمل الأرض جميعاً .

وتبدأ بإنزال الماء من السماء ، وإخراج الثمرات المختلفات الألوان . ولأن المعرض معرض أصباغ وشيات ، فإنه لا يذكر هنا من الثمرات إلا ألوانها ﴿ **فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها** ﴾ ، وألوان الثمار معرض بديع للألوان يعجز عن إبداع جانب منه جميع الرسّامين في جميع الأجيال . فما من نوع من الثمار يماثل لونه لون نوع آخر . بل ما من ثمرة واحدة يماثل لونها لون أخواتها من النوع الواحد . فعند التدقيق في أي ثمرتين أختين يبدو شيء من اختلاف اللون !

وينتقل من ألوان الثمار إلى ألوان الجبال نقلة عجيبة في ظاهرها ؛ ولكنها من ناحية دراسة الألوان تبدو طبيعية . ففي ألوان الصخور شبه عجيب بألوان الثمار وتنوعها وتعددها ، بل إن فيها أحياناً ما يكون على شكل بعض الثمار وحجمها كذلك حتى ما تكاد تفرق من الثمار صغيرها وكبيرها !

﴿ **ومن الجبال جُدَد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود** ﴾ .

والجدد : الطرائق والشعاب . وهنا لفتة في النص صادقة ، فالجدد البيض مختلف ألوانها فيما بينها . والجدد الحمر مختلف ألوانها فيما بينها . مختلف في درجة اللون والتظليل والألوان الأخرى المتداخلة فيه ، وهناك جدد غرابيب سود ، حالكة شديدة السواد .

واللفتة إلى ألوان الصخور وتعددها وتنوعها داخل اللون الواحد ، بعد ذكرها إلى جانب ألوان الثمار ، تهز القلب هزاً ، وتوقظ فيه حاسة الذوق الجمالي العالي ، التي تنظر إلى الجمال نظرة تجريدية فتراه في الصخرة كما تراه في الثمرة ، على بعد ما بين طبيعة الصخرة وطبيعة الثمرة ، وعلى بعد ما بين وظيفتيهما في تقدير الإنسان . ولكن النظرة الجمالية المجردة ترى الجمال وحده عنصراً مشتركاً بين هذه وتلك ، يستحق النظر والالتفات .

ثم ألوان الناس . وهي لا تقف عند الألوان المتميزة العامة لأجناس البشر . فكل فرد بعد ذلك متميز اللون بين بني جنسه . بل متميز من توأمه الذي شاركه حملاً واحداً في بطن واحدة !

وكذلك ألوان الدواب والأنعام . والدواب أشمل والأنعام أخص . فالدابة كل

حيوان . والأنعام هي الإبل والبقر والغنم والماعز ، خصصها من الدواب لقربها من الإنسان . والألوان والأصباغ فيها معرض كذلك جميل كمعرض الثمار ومعرض الصخور سواء .

هذا الكتاب الكوني الجميل الصفحات العجيب التكوين والتلوين ، يفتحه القرآن ويقلب صفحاته ويقول : إن العلماء الذين يتلونه ويدركونه ويتدبرونه هم الذين يخشون الله : ﴿ **إنما يخشى الله من عباده العلماء** ﴾ .

وهذه الصفحات التي قلّبها في هذا الكتاب هي بعض صفحاته ، والعلماء هم الذين يتدبرون هذا الكتاب العجيب . ومن ثَمَّ يعرفون الله معرفة حقيقية . يعرفونه بآثار صنعته . ويدركونه بآثار قدرته . ويستشعرون حقيقة عظمته برؤية حقيقة إبداعه . ومن ثَمَّ يخشونه حقاً ويتقونه حقاً ، ويعبدونه حقاً . لا بالشعور الغامض الذي يجده القلب أمام روعة الكون . ولكن بالمعرفة الدقيقة والعلم المباشر .. وهذه الصفحات نموذج من الكتاب .. والألوان والأصباغ نموذج من بدائع التكوين الأخرى وبدائع التنسيق التي لا يدركها إلا العلماء بهذا الكتاب . العلماء به علماً واصلاً . علماً يستشعره القلب ، ويتحرك به ، ويرى به يد الله المبدعة للألوان والأصباغ والتكوين والتنسيق في ذلك الكون الجميل .

إن عنصر الجمال يبدو مقصوداً قصداً في تصميم هذا الكون وتنسيقه . ومن كمال هذا الجمال أن وظائف الأشياء تؤدي عن طريق جمالها . هذه الألوان العجيبة في الأزهار تجذب النحل والفراش مع الرائحة الخاصة التي تفوح . ووظيفة النحل والفراش بالقياس إلى الزهرة هي القيام بنقل اللقاح ، لتنشأ الثمار .. وهكذا تؤدي الزهرة وظيفتها عن طريق جمالها ! .. والجمال في الجنس هو الوسيلة لجذب الجنس الآخر إليه . لأداء الوظيفة التي يقوم بها الجنسان . وهكذا تتم الوظيفة عن طريق الجمال .

الجمال عنصر مقصود قصداً في تصميم هذا الكون وتنسيقه . ومن ثَمَّ هذه اللفتات في كتاب الله المنزل إلى الجمال في كتاب الله المعروض) .

كلمة في السياق :

١ - بقي من المقطع الثالث ثلاث مجموعات كل منها مبدوء بكلمة (إن) .

﴿ **إن الذين يتلون كتاب الله ...** ﴾ .

﴿ **إن الله عالم غيب السموٰات والأرض** ... ﴾ .

﴿ **إن الله يمسك السموٰات والأرض أن تزولا** ... ﴾ .

٢ - ذكَّرت السورة بالنّعم التي توصل إلى التوحيد ، ثمّ بينت أن الناس قسمان : شاكر ، وكافر ، وذكرت السورة أن طريق الشكر يبدأ بالخشية ، وإقام الصلاة ، ويغذيه التفكر ، وقراءة القرآن : ﴿ **ألم تر** ... ﴾ ﴿ **إن الذين يتلون كتاب الله** ... ﴾ .

٣ - في المقطع الأول أمرنا الله أن نذكر نعمته وفي المقطع الثاني حذّرنا من الدنيا ومن الشيطان أن يفتنانا ، وفي المجموعة الأولى من المقطع الثالث بيّن لنا أن نقطة البداية في السير إلى الله الخشية ، وحدثنا عن مثيرات الخشية ، وستكمّل مجموعات المقطع الثالث هذا الموضوع .

٤ - بدأت السورة بذكر الأسس التي لا بدّ منها من أجل الانطلاق في السير نحو الشكر ، من تذكير ، وتحذير ، وتعريف ، وأمر ، ونهي ، ثمّ لفتت نظر الإنسان إلى ما حوله ، وها هي في ما تبقى منها تذكر مغذّيات السير .

وقبل أن ننتقل إلى عرض المجموعة الثانية في المقطع الثالث ، فلننقل بعض الفوائد :

فـوائـد :

١ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد** ﴾ قال النسفي : (ولم يسمهم بالفقراء للتحقير بل للتعريض على الاستغناء ، ولهذا وصف نفسه بالغنىٰ الذي هو مطمع الأغنياء ، وذكر الحميد ليدل به على أنه الغني النافع بغناه خلقه ، والجواد المنعَم عليهم ، إذ ليس كل غني نافعاً بغناه ، إلا إذا كان الغني جواداً منعماً وإذا جاد وأنعم حمده المنعَم عليهم . قال سهل : لما خلق الله الخلق حكم لنفسه بالغنى ولهم بالفقر ، فمن ادعىٰ الغنىٰ حجب عن الله ، ومن أظهر فقره أوصله فقره إليه . فينبغي للعبد أن يكون مفتقراً بالسر إليه ، ومنقطعاً عن الغير إليه ، حتى تكون عبوديته محضة ، فالعبودية : هي الذل والخضوع ، وعلامته أن لا يسأل من أحد . وقال الواسطي : من استغنى بالله لا يفتقر ، ومن تعزز بالله لا يذل . وقال الحسين : على مقدار افتقار العبد إلى الله يكون غنياً بالله ، وكلما ازداد افتقاراً ازداد

غنى . وقال يحيىٰ : الفقر خير للعبد من الغنى ؛ لأن المذلة في الفقر ، والكبر في الغنى ، والرجوع إلى الله بالتواضع والذلة ، خير من الرجوع إليه بتكثير الأعمال . وقيل صفة الأولياء ثلاثة : الثقة بالله في كل شيء ، والفقر إليه في كل شيء ، والرجوع إليه من كل شيء . وقال الشبلي : الفقر يجر البلاء وبلاؤه كله عز) .

٢ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يُحمل منه شيء ولو كان ذا قربىٰ** ﴾ قال ابن كثير :

(قال عكرمة في قوله تعالى : ﴿ **وإن تدع مثقلة إلى حملها** ﴾ الآية قال : هو الجار يتعلق بجاره يوم القيامة فيقول : يا رب سل هذا لم كان يغلق بابه دوني ، وإن الكافر ليتعلق بالمؤمن يوم القيامة ، فيقول له : يا مؤمن إن لي عندك يداً ، قد عرفت كيف كنت لك في الدنيا ، وقد احتجت إليك اليوم ، فلا يزال المؤمن يشفع له عند ربه حتى يردّه إلى منزل دون منزله وهو في النار ، وإن الوالد ليتعلق بولده يوم القيامة فيقول : يا بني أي والد كنت لك ؟ فيثني خيراً ، فيقول له : يا بنيّ إني قد احتجت إلى مثقال ذرّة من حسناتك أنجو بها مما ترى ، فيقول له ولده ، يا أبت ما أيسر ما طلبت ، ولكني أتخوَّف مثل ما تتخوَّف فلا أستطيع أن أعطيك شيئاً ، ثم يتعلق بزوجته فيقول : يا فلانة - أو يا هذه - أي زوج كنت لك ؟ فتثني خيراً ، فيقول لها : إني أطلب إليك حسنة واحدة تهبيها لي لعلي أنجو بها مما ترين ، قال فتقول : ما أيسر ما طلبت ولكني لا أطيق أن أعطيك شيئاً إني أتخوَّف مثل الذي تتخوَّف ، ويقول الله تعالى : ﴿ **وإن تدع مثقلة إلى حملها** ﴾ الآية ، ويقول تبارك وتعالى : ﴿ **لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً** ﴾ [لقمان : ٣٣] ، ويقول تعالى : ﴿ **يوم يفر المرء من أخيه * وأمه وأبيه * وصاحبته وبنيه * لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه** ﴾ [عبس : ٣٤ - ٣٧] . رواه ابن أبي حاتم رحمه الله) .

٣ - وبمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وإن من أمة إلا خلا فيها نذير** ﴾ قال النسفي : (أي وما من أمة قبل أمتك . والأمة : الجماعة الكثيرة ﴿ **وجد عليه أمة من الناس** ﴾ ويقال لأهل كل عصر أمة ، والمراد هنا أهل العصر ، وقد كانت آثار النذارة باقية فيما بين عيسى ومحمد عليهما السلام ، فلم تخل تلك الأمم من نذير ، وحين اندرست آثار نذارة عيسى عليه السلام بعث محمد عليه الصلاة السلام ﴿ **إلاَّ خَلَا** ﴾ مضى ﴿ **فِيهَا نَذِيرٌ** ﴾ يخوِّفهم وخامة الطغيان ، وسوء عاقبة الكفران ، واكتفى بالنذير عن

البشير في آخر الآية بعد ما ذكرهما ؛ لأن النذارة مشفوعة بالبشارة ، فدل ذكر النذارة على ذكر البشارة) . وقال ابن كثير : (أي وما من أمة خلت من بني آدم إلا وقد بعث الله تعالى إليهم النذر ، وأزاح عنهم العلل كما قال تعالى : ﴿ **إنما أنت منذر ولكل قوم هاد** ﴾ [الرعد : ٧] وكما قال تعالى : ﴿ **ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليهم الضلالة** ﴾ [النحل : ٣٦] . والآيات في هذا كثيرة) .

أقول : وهذه الآية أصل في الدلالة على أن كل الأمم قد أرسل لها رسل ، لا كما يظن بعض الناس أن الرسل محصورون في منطقتنا أو فيما هو قريب منها ، إلا أنّنا لا نصف أحداً بالرسالة إلا من ثبتت بالنص رسالتهم .

٤ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **ثمرات مختلفاً ألوانها** ﴾ قال ابن كثير : (روى البزار عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال : أيصبغ ربك ؟ قال ﷺ : « نعم صبغاً لا ينقض أحمر وأصفر وأبيض » وروي مرسلاً وموقوفاً والله أعلم) .

٥ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **إنما يخشى الله من عباده العلماء** ﴾ قال ابن كثير : (أي إنما يخشاه حق خشيته العلماء العارفون به ، لأنه كلما كانت المعرفة للعظيم القدير العليم ، الموصوف بصفات الكمال ، المنعوت بالأسماء الحسنى ، كلما كانت المعرفة به أتم ، والعلم به أكمل ، كانت الخشية له أعظم وأكثر .

روى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ **إنما يخشى الله من عباده العلماء** ﴾ قال : الذين يعلمون أن الله على كل شيء قدير . وقال ابن لهيعة عن ابن أبي عمرة عن عكرمة عن ابن عباس قال : العالم بالرحمن من عباده من لم يشرك به شيئاً ، وأحل حلاله ، وحرم حرامه ، وحفظ وصيته ، وأيقن أنه ملاقيه ، ومحاسب بعمله ، وقال سعيد بن جبير : الخشية هي التي تحول بينك وبين معصية الله عز وجل ، وقال الحسن البصري : العالم من خشي الرحمن بالغيب ، ورغب فيما رغَّب الله فيه ، وزهد فيما سخط الله فيه ، ثم تلا الحسن ﴿ **إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور** ﴾ وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال : ليس العلم عن كثرة الحديث ولكن العلم عن كثرة الخشية ، وقال أحمد بن صالح المصري عن ابن وهب عن مالك قال : إن العلم ليس بكثرة الرواية ، وإنما العلم نور يجعله الله في القلب . قال أحمد بن

صالح المصري معناه : أن الخشية لا تدرك بكثرة الرواية ، وإنما العلم الذي فرض الله عز وجل أن يتبع فإنما هو الكتاب والسنة ، وما جاء عن الصحابة رضي الله عنهم ، ومن بعدهم أئمة المسلمين ، فهذا لا يدرك إلا بالرواية ، ويكون تأويل قوله نور يريد به : فهم العلم ، ومعرفة معانيه . وقال سفيان الثوري عن أبي حيان التيمي عن رجل قال : كان يقال : العلماء ثلاثة : عالم بالله عالم بأمر الله ، وعالم بالله ليس بعالم بأمر الله ، وعالم بأمر الله ليس بعالم بالله ، فالعالم بالله وبأمر الله الذي يخشى الله تعالى ، ويعلم الحدود ، والفرائض ، والعالم بالله ليس بعالم بأمر الله الذي يخشى الله ، ولا يعلم الحدود والفرائض ، والعالم بأمر الله ليس بعالم بالله الذي يعلم الحدود والفرائض ولا يخشى الله عز وجل) .

ولننتقل إلى المجموعة الثانية في المقطع الثالث .



تفسير المجموعة الثانية من المقطع الثالث

﴿ **إن الذين يتلون كتاب الله** ﴾ أي يداومون على تلاوة القرآن ﴿ **وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرّاً وعلانية** ﴾ ليلاً ونهاراً ، إسراراً وإعلاناً . أي يجمعون بين تلاوة الكتاب والعمل به ﴿ **يرجون تجارة لن تبور** ﴾ أي لن تكسد . يعني : تجارة ينتفي عنها الكساد ، وتنفق عند الله . قال ابن كثير : أي يرجون ثواباً عند الله لا بد من حصوله ﴿ **ليوفيهم أجورهم** ﴾ أي ثواب أعمالهم ﴿ **ويزيدهم من فضله** ﴾ أي ويضاعفه لهم بزيادات لم تخطر على بالهم ﴿ **إنه غفور** ﴾ لذنوبهم ﴿ **شكور** ﴾ للقليل من أعمالهم . ﴿ **والذي أوحينا إليك من الكتاب** ﴾ أي القرآن ﴿ **هو الحق مصدّقاً لما بين يديه** ﴾ أي من الكتب المتقدمة يصدقها كما شهدت هي له بالتنويه ، وأنه منزل من رب العالمين ﴿ **إن الله بعباده لخبير بصير** ﴾ . قال ابن كثير : (أي هو خبير بهم ، بصير بمن يستحق ما يفضله به على من سواه . ولهذا فضّل الأنبياء والرسل على جميع البشر ، وفضّل النبيين بعضهم على بعض ، ورفع بعضهم درجات ، وجعل منزلة محمد ﷺ فوق جميعهم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين) .

كلمة في السياق :

بعد أن بينت لنا المجموعة السابقة أنه لا يقبل الإنذار إلا من اجتمعت له الخشية والصلاة ، ودلّتنا على بواعث الخشية من الله تأتي هذه الآيات لتذكّر بالتلاوة والصلاة والإنفاق . أما التلاوة فكطريق للخشية ، وأما الصلاة والزكاة فهما مظهرا الخشية وأثراها . ثم جاءت الآية الأخيرة جسراً بين ما قبلها وما بعدها . فهي تشجّع على التلاوة وتبين أهمّية وراثة الكتاب ، وهما المعنيان اللذان وجدت بينهما .

....

﴿ **ثم أورثنا الكتاب** ﴾ أي القرآن ﴿ **الذين اصطفينا من عبادنا** ﴾ من هذه الأمّة المجتباه ثم رتّبهم على مراتب ﴿ **فمنهم ظالم لنفسه** ﴾ وهو المفرِّط في فعل بعض الواجبات ، المرتكب لبعض المحرمات ﴿ **ومنهم مقتصد** ﴾ وهو الذي خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً . قال ابن كثير : (وهو المؤدي للواجبات ، التارك للمحرمات ، وقد يترك بعض المستحبات ، ويفعل بعض المكروهات) ﴿ **ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله** ﴾ . قال ابن كثير : (وهو الفاعل للواجبات والمستحبات ، التارك للمحرمات

والمكروهات ، وبعض المباحات) ﴿ **ذلك** ﴾ أي إيراث الكتاب ﴿ **هو الفضل الكبير** ﴾ دلّ على أن إرث الكتاب فضل عظيم ﴿ **جنات عدن يدخلونها** ﴾ أي الفِرق الثلاث ، فالأوَّلون يدخلونها بعد أن يمحَّصُوا ، والتالون يدخلونها بعد أن يحاسبوا حساباً يسيراً . والآخرون يدخلونها بلا حساب ولا عذاب . وسنرى دليل ذلك في الفوائد ﴿ **يُحلَّون فيها** ﴾ أي يلبسون فيها الحليّ ﴿ **من أساور من ذهب ولؤلؤاً** ﴾ أي يلبسون فيها الأساور الذهبية واللؤلؤ ﴿ **ولباسهم فيها حرير** ﴾ لما فيه من البهجة والزينة ﴿ **وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن** ﴾ أي خوف النار ، أو خوف الموت ، أو هموم الدنيا . قال ابن كثير : وهو الخوف من المحذور أزاحه عنا ، وأراحنا مما كنا نتخوّفه ، ونحذره من هموم الدنيا والآخرة . ﴿ **إن ربنا لغفور** ﴾ يغفر الجنايات وإن كثرت ﴿ **شكور** ﴾ يقبل الطاعات وإن قلَّت . قال ابن كثير : قال ابن عباس وغيره : غفر لهم الكثير من السيئات ، وشكر لهم اليسير من الحسنات ﴿ **الذي أحلَّنا دار المقامة** ﴾ أي الإقامة لا نبرح منها ولا نفارقها ﴿ **من فضله** ﴾ أي من عطائه وإفضاله لا باستحقاقنا ﴿ **لا يمسُّنا فيها نصب** ﴾ أي تعب ومشقة ﴿ **ولا يمسّنا فيها لغوب** ﴾ أي إعياء من التعب وفترة . قال ابن كثير : أي لا يمسنا فيها عناء ولا إعياء . ولما ذكر الله تبارك وتعالى حال السعداء شرع في بيان حال الأشقياء فقال : ﴿ **والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها** ﴾ أي لا يقضى عليهم بموت ثان فيستريحون ، ولا يخفف عنهم من عذاب نار جهنم ﴿ **كذلك** ﴾ أي مثل ذلك الجزاء ﴿ **نجزي كل كفور** ﴾ أي هذا جزاء كل من كفر بربه وكذّب الحق ﴿ **وهم يصطرخون فيها** ﴾ أي ينادون فيها أي يجأرون إلى الله عز وجل بأصواتهم ، والاصطراخ : هو الصياح بجهد ومشقّة ﴿ **ربنا أخرجنا** ﴾ أي من النار ﴿ **نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل** ﴾ أي ردنا إلى الدنيا نؤمن بدل الكفر ، ونطيع بعد المعصية فيجابون ﴿ **أو لم نعمِّرْكم ما يتذكر فيه من تذكر** ﴾ . قال النسفي : (وهو متناول لكل عمر تمكن فيه المكلف من إصلاح شأنه ، وإن قصر ، إلا أن التوبيخ في المتطاول أعظم) ﴿ **وجاءكم النذير** ﴾ أي الرسول ﴿ **فذوقوا** ﴾ أي العذاب ﴿ **فما للظالمين من نصير** ﴾ أي من ناصر يعينهم . قال ابن كثير : (أي فذوقوا عذاب النار جزاءً على مخالفتكم للأنبياء في مدة أعماركم ؛ فما لكم اليوم ناصر ينقذكم مما أنتم فيه من العذاب والنّكال والأغلال) .

كلمة في السياق :

قلنا : إن السياق استقر في المقطع الأخير على تبيان الطريق إلى الله الذي بدايته الخشية ، وهذه المجموعة فصّلت في الطريق بما يوصل إلى الخشية ويعمِّقها ، وخلصت إلى ما أعد الله عز وجل للمؤمنين الذين أعطوا النعمة حقها ، وعرفوا الله حق المعرفة ، وأعطوا هذه المعرفة مستلزماتها من إيمان بالرسل ، وتلاوة للكتاب ، وعبادة ، والتزام ، وطاعة ، وإلى ما أعدّه للكافرين ، الذين ظلموا في الدنيا وأمِنوا .

فوائد :

١ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرّاً وعلانية يرجون تجارة لن تبور** ﴾ . قال ابن كثير : (قال قتادة : كان مطرف رحمه الله إذا قرأ هذه الآية يقول : هذه آية القراء) .

٢ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله** ﴾ قال النسفي : (وإنما قدم الظالم للإيذان بكثرتهم ، وأن المقتصدين قليل بالإضافة إليهم ، والسابقون أقل من القليل ، وقال ابن عطاء ، إنما قدّم الظالم لئلا ييأس من فضله ، وقيل إنما قدّمه ليعرّفه أن ذنبه لا يبعده من ربه وقيل : إن أول الأحوال معصية ، ثم توبة ، ثم استقامة ، وقال سهل : السابق العالم ، والمقتصد المتعلم ، والظالم الجاهل وقال : أيضاً السابق الذي اشتغل بمعاده ، المقتصد الذي اشتغل بمعاشه ومعاده ، والظالم الذي اشتغل بمعاشه عن معاده ، وقيل : الظالم الذي يعبده على الغفلة والعادة ، والمقتصد الذي يعبده على الرغبة والرهبة ، والسابق الذي يعبده على الهيبة والاستحقاق ، وقيل : الظالم من أخذ الدنيا حلالاً كانت أو حراماً ، والمقتصد من يجتهد أن لا يأخذها إلا من حلال ، والسابق من أعرض عنها جملة ، وقيل : الظالم طالب الدنيا ، والمقتصد طالب العقبى ، والسابق طالب المولى) .

وقد حقق ابن كثير المقام في هذه الآية . فذكر الاختلافات فيها ، ثم رجّح وأقام الدليل ، ومجمل ترجيحه اعتمدناه في التفسير . ولننقل هنا تحقيقه كله مع حذف الأسانيد . قال : (روى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ **ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا** ﴾ قال : هم أمة محمد ﷺ ، ورَّثهم الله تعالى كل

كتاب أنزله ، فظالمهم يغفر له ، ومقتصدهم يحاسب حساباً يسيراً ، وسابقهم يدخل الجنة بغير حساب ، وروى أبو القاسم الطبراني عن ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال ذات يوم : « شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي » قال ابن عباس رضي الله عنهما : السابق بالخيرات يدخل الجنة بغير حساب ، والمقتصد يدخل الجنة برحمة الله ، والظالم لنفسه وأصحاب الأعراف يدخلون الجنة بشفاعة محمد ﷺ ، وكذا روي عن غير واحد من السلف : أن الظالم لنفسه من هذه الأمة من المصطفين على ما فيه من عوج وتقصير . وقال آخرون : بل الظالم لنفسه ليس من هذه الأمة ، لا من المصطفين الوارثين لكتاب ، وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿ **فمنهم ظالم لنفسه** ﴾ قال : هو الكافر ، وكذا روى عنه عكرمة وبه قال عكرمة أيضاً فيما رواه ابن جرير ، وقال ابن نجيح عن مجاهد في قوله تعالى ﴿ **فمنهم ظالم لنفسه** ﴾ قال هم أصحاب المشأمة ، وقال مالك عن زيد بن أسلم والحسن وقتادة هو المنافق ثم قد قال ابن عباس والحسن وقتادة : وهذه الأقسام الثلاثة كالأقسام الثلاثة المذكورة في أول سورة الواقعة وآخرها ، والصحيح أن الظالم لنفسه من هذه الأمة ، وهذا اختيار ابن جرير كما هو ظاهر الآية ، وكما جاءت به الأحاديث عن رسول الله ﷺ من طرق يشد بعضها بعضاً ونحن إن شاء الله تعالى نورد منها ما تيسر .

(الحديث الأول) روى الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم أنه قال : « في هذه الآية ﴿ **ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله** ﴾ قال هؤلاء كلهم بمنزلة واحدة ، وكلهم في الجنة » هذا حديث غريب من هذا الوجه وفي إسناده من لم يسم وقد رواه ابن جرير وابن أبي حاتم من حديث شعبة به نحوه ومعنى قوله : بمنزلة واحدة أي في أنهم من هذه الأمة ، وأنهم من أهل الجنة ، وإن كان بينهم فرق في المنازل في الجنة . (الحديث الثاني) روى الإمام أحمد عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : « قال الله تعالى ﴿ **ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله** ﴾ فأما الذين سبقوا فأولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب ، وأما الذين اقتصدوا فأولئك الذين يحاسبون حساباً يسيراً ، وأما الذين ظلموا أنفسهم فأولئك الذين يحبسون في طول المحشر ، ثم هم الذين تلافاهم الله برحمته فهم الذين يقولون ﴿ **الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور * الذي أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا**

فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب ﴾ . (طريق أخرى) روى ابن أبي حاتم عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : ﴿ **ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه** ﴾ قال : « فأما الظالم لنفسه فيحبس حتى يصيبه الهم والحزن ثم يدخل الجنة » ورواه ابن جرير من حديث سفيان الثوري عن الأعمش قال : ذكر أبو ثابت أنه دخل المسجد فجلس إلى جنب أبي الدرداء رضي الله عنه فقال : اللهم آنس وحشتي ، وارحم غربتي ، ويسر لي جليساً صالحاً ، فقال أبو الدرداء رضي الله عنه : لئن كنت صادقاً لأنا أسعد به منك ، سأحدثك حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ لم أحدّث به منذ سمعته منه ، ذكر هذه الآية ﴿ **ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات** ﴾ فأما السابق بالخيرات فيدخلها بغير حساب ، وأما المقتصد فيحاسب حساباً يسيراً ، وأما الظالم لنفسه فيصيبه في ذلك المكان من الغم والحزن ، وذلك قوله تعالى ﴿ **وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن** ﴾ . (الحديث الثالث) روى الحافظ أبو القاسم الطبراني عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما ﴿ **فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله** ﴾ الآية قال : قال رسول الله ﷺ : « كلهم من هذه الأمة » . (الحديث الرابع) روى ابن أبي حاتم عن عوف بن مالك رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : « أمتي ثلاثة أثلاث : فثلث يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب ، وثلث يحاسبون حساباً يسيراً ثم يدخلون الجنة ، وثلث يمحّصون ويكشفون ، ثم تأتي الملائكة فيقولون : وجدناهم يقولون لا إله إلا الله وحده ، يقول الله تعالى صدقوا لا إله إلا أنا ؛ أدخلوهم الجنة بقولهم لا إله إلا الله وحده ، واحملوا خطاياهم على أهل النار ، وهي التي قال الله تعالى ﴿ **وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم** ﴾ [العنكبوت : ١٣] . وتصديقها في التي فيها ذكر الملائكة قال الله تعالى : ﴿ **ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا** ﴾ فجعلهم ثلاثة أفواج وهم أصناف كلهم : فمنهم ظالم لنفسه ، فهذا الذي يمحص ويكشف » غريب جداً . (أثر عن ابن مسعود رضي الله عنه) روى ابن جرير عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : إن هذه الأمة ثلاثة أثلاث يوم القيامة : ثلث يدخلون الجنة بغير حساب ، وثلث يحاسبون حساباً يسيراً ، وثلث يجيئون بذنوب عظام ، حتى يقول الله عز وجل ما هؤلاء ؟ – وهو أعلم تبارك وتعالى – فتقول الملائكة : هؤلاء جاؤوا بذنوب عظام ، إلا أنهم لم يشركوا بك شيئاً ، فيقول الرب عز وجل : أدخلوا هؤلاء في سعة رحمتي .

وتلا عبد الله رضي الله عنه هذه الآية ﴿ **ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا** ﴾ الآية . (أثر آخر) روى أبو داود الطيالسي عن عقبة بن صهبان الهنائي قال : سألت عائشة رضي الله عنها عن قول الله تعالى ﴿ **ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه** ﴾ الآية ، فقالت لي : يا بني هؤلاء في الجنة أما السابق بالخيرات : فمن مضى على عهد رسول الله ﷺ ، شهد له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالجنة ، وأما المقتصد : فمن اتبع أثره من أصحابه حتى لحق بهم ، وأما الظالم لنفسه : فمثلي ومثلكم قال : فجعلت نفسها رضي الله عنها معنا ، وهذا منها رضي الله عنها من باب الهضم والتواضع ، وإلا فهي من أكبر السابقين بالخيرات ، لأن فضلها على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام . وقال عبد الله بن المبارك رحمه الله : قال أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه في قوله تبارك وتعالى ﴿ **فمنهم ظالم لنفسه** ﴾ قال : هي لأهل بدونا ، ومقتصدنا أهل حضرنا ، وسابقنا أهل الجهاد ، رواه ابن أبي حاتم .

وقال عوف الأعرابي : حدثنا عبد الله بن الحارث بن نوفل قال : حدثنا كعب الأحبار رحمة الله عليه قال : إن الظالم لنفسه من هذه الأمة ، والمقتصد والسابق بالخيرات كلهم في الجنة ، ألم تر أن الله تعالى قال ﴿ **ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير * جنات عدن يدخلونها** ﴾ إلى قوله عز وجل ﴿ **والذين كفروا لهم نار جهنم** ﴾ قال : فهؤلاء أهل النار ، رواه ابن جرير من طرق عن عوف به ثم قال : إن ابن عباس رضي الله عنهما سأل كعباً عن قوله تعالى ﴿ **ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا** ﴾ إلى قوله ﴿ **بإذن الله** ﴾ قال : تماست مناكبهم ورب كعب ، ثم أعطوا الفضل بأعمالهم ، ثم روى ابن جرير عن أبي إسحاق السبيعي في هذه الآية ﴿ **ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا** ﴾ الآية ، قال أبو إسحاق : أما ما سمعت من ذي ستين سنة فكلهم ناج ، ثم روى ابن جرير أيضاً - بسنده - عن محمد ابن الحنفية رضي الله عنه قال : إنها أمة مرحومة ، الظالم مغفور له ، والمقتصد في الجنان عند الله ، والسابق بالخيرات في الدرجات عند الله . ورواه الثوري عن إسماعيل ابن إسماعيل عن رجل عن محمد بن الحنفية رضي الله عنه بنحوه . وقال أبو الجارود : سألت محمد بن علي - يعني الباقر - رضي الله عنهما عن قول الله تعالى ﴿ **فمنهم ظالم لنفسه** ﴾ فقال : هو الذي خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً . فهذا ما تيسر من إيراد

الأحاديث والآثار المتعلقة بهذا المقام . وإذا تقرر هذا فإن الآية عامة في جميع الأقسام الثلاثة في هذه الأمة ، فالعلماء أغبط الناس بهذه النعمة ، وأولى الناس بهذه الرحمة فإنهم كما قال الإمام أحمد رحمه الله : قدم رجل من أهل المدينة إلى أبي الدرداء رضي الله عنه وهو بدمشق فقال : ما أقدمك أي أخي ؟ قال حديث بلغني أنك تحدّث به عن رسول الله ﷺ قال : أما قدمت للتجارة ؟ قال : لا . قال : أما قدمت لحاجة ؟ قال : لا . قال : أما قدمت إلا في طلب هذا الحديث ؟ قال نعم ، قال رضي الله عنه فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من سلك طريقاً يطلب فيها علماً سلك الله تعالى به طريقاً إلى الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم ، وإنه ليستغفر للعالم من في السموات والأرض ، حتى الحيتان في الماء ، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب ، إن العلماء هم ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يورّثوا ديناراً ولا درهماً وإنما ورثوا العلم ، فمن أخذ به أخذ بحظ وافر » وأخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجه من حديث كثير بن قيس ومنهم من يقول قيس بن كثير عن أبي الدرداء رضي الله عنه ، وقد ذكرنا طرقه واختلاف الرواة فيه في شرح كتاب العلم من صحيح البخاري ، ولله الحمد والمنة وقد تقدم في أول سورة طه حديث ثعلبة بن الحكم رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : « يقول الله تعالى يوم القيامة للعلماء إني لم أضع علمي وحكمتي فيكم إلا وأنا أريد أن أغفر لكم على ما كان منكم ولا أبالي ») .

٣ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ولباسهم فيها حرير** ﴾ قال ابن كثير : (كما ثبت في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : « تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء » ﴿ **ولباسهم فيها حرير** ﴾ ولهذا كان محظوراً عليهم في الدنيا فأجابه الله تعالى لهم في الآخرة ، وثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة » وقال : « هي لهم في الدنيا ولكم في الآخرة » .

وروى ابن أبي حاتم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : إن أبا أمامة رضي الله عنه حدّث أن رسول الله ﷺ حدّثهم وذكر حلي أهل الجنة فقال : مسورون بالذهب والفضة ، مكللة بالدر ، وعليهم أكاليل من در وياقوت متواصلة ، وعليهم تاج كتاج الملوك شباب جرد مرد مكحلون) .

٤ - وبمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن** ﴾ قال

ابن كثير : (وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة في قبورهم ولا في نشورهم ، وكأني بأهل لا إله إلا الله ينفضون التراب عن رؤوسهم ، ويقولون الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن » رواه ابن أبي حاتم من حديثه .

وروى الطبراني عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم : « ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة في الموت ولا في القبور ولا في النشور ، وكأني أنظر إليهم عند الصيحة ينفضون رؤوسهم من التراب يقولون الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور » قال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره : غفر لهم الكثير من السيئات وشكر لهم اليسير من الحسنات) .

٥ - اختلف المفسرون في العمر الذي يؤنب عليه الإنسان إذا لم يسلم في قوله تعالى : ﴿ **أو لم نُعَمّرِكم ما يتذكر فيه من تذكر** ﴾ قال النسفي - وهو الذي اخترناه - : وهو متناول لكل عمر تمكّن فيه المكلف من إصلاح شأنه وإن قصر ، إلا أن التوبيخ في المتطاول أعظم ، وقد أخرج البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أعذر الله عز وجل إلى امرىء أخر عمره حتى بلغ ستين سنة » وبعد تحقيق حول هذا الحديث وتأكيد لصحته . قال ابن كثير : (ولما كان هذا هو العمر الذي يعذر الله تعالى إلى عباده به ، ويزيح به عنهم العلل ، كان هو الغالب على أعمار هذه الأمة ، كما ورد بذلك الحديث ، قال الحسن بن عرفة رحمه الله حدثنا عبد الرحمن بن محمد المحاربي حدثنا محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أعمار أمتي ما بين الستين إلى السبعين وأقلهم من يجوز ذلك » وهكذا رواه الترمذي وابن ماجه جميعاً في كتاب الزهد عن الحسن بن عرفة به ثم قال الترمذي هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه . وهذا عجب من الترمذي فإنه قد رواه أبو بكر بن أبي الدنيا من وجه آخر وطريق أخرى عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أعمار أمتي ما بين الستين إلى السبعين وأقلهم من يجوز ذلك » وقد رواه الترمذي في كتاب الزهد أيضاً ثم قال : هذا حديث حسن غريب من حديث أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه وقد روي من غير وجه عنه هذا نصه بحروفه في الموضعين والله أعلم . وقال الحافظ أبو يعلى عن أبي موسى الأنصاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول

الله ﷺ : « معترك المنايا ما بين الستين إلى السبعين » وبه قال : قال رسول الله ﷺ : « أقل أمتي أبناء سبعين » إسناده ضعيف . (حديث آخر) في معنى ذلك روى الحافظ أبو بكر البزار في مسنده عن حذيفة رضي الله عنه أنه قال يا رسول الله أنبئنا بأعمار أمتك ؟ قال رسول الله ﷺ : « ما بين الخمسين إلى الستين » قالوا : يا رسول الله فأبناء السبعين ؟ قال ﷺ : « قلّ من يبلغها من أمتي ، رحم الله أبناء السبعين ، ورحم الله أبناء الثمانين » ثم قال البزار لا يروى بهذا اللفظ إلا بهذا الإسناد وعثمان بن مطر (وهو من رجال سنده) من أهل البصرة ليس بقوي ، وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ عاش ثلاثاً وستين سنة ،وقيل ستين ، وقيل خمساً وستين . والمشهور الأول والله أعلم) .

☆ ☆ ☆

تفسير المجموعة الثالثة من المقطع الثالث

﴿ **إن الله عالم غيب السموٰات والأرض** ﴾ أي ما غاب فيهما عنكم ﴿ **إنه عليم بذات الصدور** ﴾ أي يعلم ما تكنّه السرائر وما تنطوي عليه الضمائر ، وسيجازي كل عامل بعمله ﴿ **هو الذي جعلكم خلائف في الأرض** ﴾ . قال النسفي : (والمعنى أنه جعلكم خلفاء في أرضه ، قد ملّككم مقاليد التصرّف فيها ، وسلّطكم على ما فيها ، وأباح لكم منافعها لتشكروه بالتوحيد والطاعة) ﴿ **فمن كفر فعليه كفره** ﴾ أي فمن كفر منكم وغمط مثل هذه النعمة فوبال كفره راجع عليه ، ومقت الله وخسارة الآخرة كما قال تعالى : ﴿ **ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتاً** ﴾ وهو أشدّ البغض ﴿ **ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خساراً** ﴾ أي هلاكاً وخسراناً ﴿ **قل أرأيتم شركاءكم** ﴾ أي آلهتكم التي أشركتموهم في العبادة ﴿ **الذين تدعون من دون الله** ﴾ من الأصنام والأنداد ﴿ **أروني ماذا خلقوا من الأرض** ﴾ أي أخبروني عن هؤلاء الشركاء ، وعما استحقوا به الشركة ، أروني أي جزء من أجزاء الأرض استبدّوا بخلقه دون الله ﴿ **أم لهم شرك في السموٰات** ﴾ أي أم لهم شركة في خلق السموٰات ﴿ **أم آتيناهم كتاباً فهم على بيّنة منه** ﴾ أي أمعهم كتاب من عند الله ينطق بأنهم شركاؤه ، فهم على حجة وبرهان من ذلك الكتاب ﴿ **بل إنْ** ﴾ أي ما ﴿ **يعد الظالمون بعضهم بعضاً إلا غروراً** ﴾ أي ما يعد الزعماء للأتباع إلا باطلاً وزوراً . قال ابن كثير : (أي بل إنما اتبعوا في ذلك أهواءهم وآراءهم وأمانيّهم التي تمنّوها لأنفسهم وهي غرور وباطل وزور) .

كلمة في السياق :

١ - تألفت هذه المجموعة من ثلاث آيات . آية عرّفت على الله بما يزيد المؤمنين خشية ، وآية ذكّرت بنعم الله بما يزيد المؤمنين رغبة ، وآية أقامت الحجة على الشرك بما لا مزيد عليه ، وفي كل ذلك نوع تعريف على الله ، وصلة ذلك بسياق السورة لا يخفى فهذه هي مضامين السورة الرئيسية ، ولو أننا تذكرنا أول مقطع في السورة لرأيناه يدعو إلى تذكّر نعمة الله وإلى توحيده .

٢ - رأينا أن محور السورة هو قوله تعالى : ﴿ **هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً** ﴾ وفي هذه المجموعة ورد قوله تعالى : ﴿ **وهو الذي جعلكم خلائف في**

الأرض ﴾ ثم بنى على هذا فقال : ﴿ **فمن كفر فعليه كفره** ﴾ وهذا يؤكد أنّ سورة فاطر تبيّن لنا ما تستلزمه معرفة الله ، وما تستلزمه نعمه من قيام بحقّه ، من شكره وإيمان برسله ، وسير في طريقه . وقد رأينا في هذا المقطع أن بداية ذلك كله هو الخشية ؛ إذ بدونها لا يقبل أحد نذارة الرسول ، ومن ثَمَّ فإن السياق يذكر لنا كل ما يبعث على هذه الخشية .

٣ - من خلال هذه المجموعة ندرك أن هناك ترابطاً بين معرفة الله ، وبين شكره وتوحيده عز وجل ، يدلّنا على ذلك تسلسل الآيات الثلاث في المجموعة ، ويدل السياق أنّ بين هذه الثلاثة وبين خشيته تعالى ترابطاً ، فمن لم تجتمع له هذه الأربعة فهو مقصّر في التكليف .

٤ - والآن لنتساءل ما هي صلة مجموعات هذا المقطع ببعضها بعد أن ركّزنا فيما مضى على صلة المجموعات بسياق السورة ؟

بدأ المقطع بقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد** ﴾ . ثم تحدّث عن مظهر من مظاهر غناه وافتقارنا بقوله : ﴿ **إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد** ﴾ . ثم تحدّث عن مظهر من مظاهر غناه بقوله : ﴿ **ومن تزكّىٰ فإنما يتزكّىٰ لنفسه** ... ﴾ . ثم تحدّث عن مظهر من مظاهر غناه بعرضه آثار قدرته : ﴿ **ألم تر أن الله أنزل من السماء** ... ﴾ . ثم تحدّث عن مظهر من مظاهر غناه وافتقار خلقه إليه بقوله : ﴿ **يرجون تجارة لن تبور** ... ﴾ . ثم تحدّث عن مظهر من مظاهر غناه وافتقارنا بقوله : ﴿ **وهو الذي جعلكم خلائف في الأرض** ... ﴾ . وسيأتي في أول المجموعة القادمة مظهر من مظاهر افتقارنا وغناه : ﴿ **إن الله يمسك السموٰات والأرض أن تزولا** ... ﴾ . وهكذا فالصلة بين مجموعات السورة ومقدمة المقطع قائمة .

☆ ☆ ☆

تفسير المجموعة الرابعة من المقطع الثالث

﴿ **إن الله يمسك السمٰوات والأرض أن تزولا** ﴾ أي يمنعهما من أن تزولا ﴿ **ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده** ﴾ أي ولئن زالتا على سبيل الفرض ما أمسكهما من أحد من بعد إمساكه . أي لا يقدر على دوامهما وإبقائهما إلا هو ﴿ **إنه كان حليماً غفوراً** ﴾ أي يرى عباده وهم يكفرون به ، ويعصونه وهو يحلم فيؤخر وينظر ويؤجل ولا يعجّل ، ويستر آخرين ويغفر . قال النسفي : (أي) غير معاجل بالعقوبة حيث يمسكهما وكانتا جديرتين بأن تهدّا هداً لعظم كلمة الشرك ﴿ **وأقسموا بالله جهد أيمانهم** ﴾ أي إقساماً بليغاً . أي جاهدين في أيمانهم ﴿ **لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم** ﴾ قال ابن كثير : أي من جميع الأمم الذين أرسل إليهم الرسل . قال النسفي : (أي من الأمّة التي يقال فيها إحدى الأمم تفضيلاً لها على غيرها في الهدى والاستقامة ، كما يقال للداهية العظيمة هي إحدى الدواهي) . والمقسمون قريش والعرب ﴿ **فلما جاءهم نذير** ﴾ أي فلما بعث محمد ﷺ ﴿ **ما زادهم** ﴾ مجيئه ﴿ **إلا نفوراً** ﴾ أي إلا تباعداً عن الحق ﴿ **استكباراً في الأرض** ﴾ أي استكبروا استكباراً عن اتّباع آيات الله ﴿ **ومكر السّيء** ﴾ أي ومكروا بالناس في صدهم إياهم عن سبيل الله المكر السيء فدوافع نفورهم : استكبارهم ، ومكرهم المكر السّيء ﴿ **ولا يحيق المكر السّيء إلا بأهله** ﴾ أي وما يحيط وينزل المكر السّيء إلا بأصحابه ﴿ **فهل ينظرون إلا سُنَّة الأولين** ﴾ وهي إنزال العذاب على الذين كذّبوا برسلهم من الأمم قبلهم . والمعنى : فهل ينظرون بعد تكذيبك إلا أن ينزل بهم العذاب مثل الذي نزل بمن قبلهم من مكذبي الرسل ﴿ **فلن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلاً** ﴾ بيّن أن سنته التي هي الانتقام من مكذبي الرسل سنة لا يبدّلها في ذاتها ولا يحوّلها عن أوقاتها ، وأنّ ذلك مفعول لا محالة ﴿ **أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كانت عاقبة الذين من قبلهم** ﴾ استشهد عليهم بما كانوا يشاهدونه في مسايرهم إلى الشام واليمن والعراق من آثار الماضين ، وعلامات هلاكهم ودمارهم ﴿ **وكانوا أشد منهم** ﴾ أي من أهل مكة أو من كافري هذه الأمة عموماً ﴿ **قوة** ﴾ أي اقتداراً ﴿ **وما كان الله ليعجزه** ﴾ أي ليسبقه ويفوته ﴿ **من شيء في السمٰوات ولا في الأرض إنه كان عليماً قديراً** ﴾ أي عليماً بهم قادراً عليهم ﴿ **ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا** ﴾ أي بما اقترفوا من المعاصي ﴿ **ما ترك على ظهرها** ﴾ أي على ظهر الأرض ﴿ **من دابّة** ﴾ أي من نسمة تدبّ عليها ﴿ **ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمّى** ﴾ أي إلى

يوم القيامة ﴿ **فإذا جاء أجلهم فإنّ الله كان بعباده بصيراً** ﴾ أي لم تخف عليه حقيقة أمرهم وحكمة حكمهم . وبهذا انتهت السورة .

كلمة في السياق :

بدأ المقطع الثالث بتذكيرنا بعظمة الله وغناه ، وافتقارنا إليه ليثير الخشية والشكر وهما مفتاحا سياق السورة . ثم بيّن إخلال الكافرين بأيْمانهم التي أعطوها على الاهتداء ، وعلل ذلك بالكبر والمكر ، مما يشير إلى أن الكبر والمكر هما علتا الكفر الرئيسيتان ، ثمّ بيّن سنّته تعالى التي لا تتغير ولا تتبدّل بالماكرين . ثمّ دلّهم على ما يستدلون به على سنّته وهو آثار الهالكين السابقين . ثم بين أن سنة أخرى هي التي تحميهم من التعجيل بالعذاب ، وهذا كله يستثير الخشية منه تعالى . فالمجموعة تؤدي دورها في سياق المقطع وفي سياق السورة .

فوائد :

١ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **ولا يحيق المكر السيِّء إلا بأهله** ﴾ قال ابن كثير : (روى ابن أبي حاتم عن أبي زكريا الكوفي عن رجل حدثه أن رسول الله ﷺ قال : « إياك ومكر السيِّء فإنه لا يحيق المكر السيِّء إلا بأهله ولهم من الله طالب » وقال محمد ابن كعب القرظي : ثلاث من فعلهنّ لم ينج حتى ينزل به : من مكر أو بغى أو نكث وتصديقها في كتاب الله تعالى ﴿ **ولا يحيق المكر السيِّء إلا بأهله** ﴾ ﴿ **إنما بغيكم على أنفسكم** ﴾ [يونس : ٢٣] ﴿ **ومن نكث فإنما ينكث على نفسه** ﴾ [الفتح : ١٠] .

٢ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة** ﴾ ذكر ابن أبي حاتم بسنده إلى عبد الله بن مسعود قوله : (كاد الجعل أن يعذب في جحره بذنب ابن آدم ثم قرأ : ﴿ **ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابّة** ﴾ وقال سعيد بن جبير والسدّي في قوله تعالى ﴿ **ما ترك على ظهرها من دابة** ﴾ : أي لما سقاهم المطر فماتت جميع الدوابّ) .

كلمة أخيرة في سورة فاطر :

دلّت سورة فاطر على وجوب الشكر ، وعلى نقطة البداية فيه كما دلّت على طريق

المعرفة الكاملة لله عز وجل ، فهي تفصِّل فيما فصَّلت فيه سورة الأنعام وتكمّل تفصيلها .

وقد دلّت السورة كذلك على الصوارف عن الشكر ، وحذّرتنا من ذلك ، فحذرتنا من الشيطان والدنيا ، ودلّت على أن الرغبة في العز والجاه والمجد من الصوارف عن طريق الله .

ولمَّا كانت بداية السير إلى الله تكمن في قبول الإنذار ، ولما كان قبول الإنذار يحتاج إلى خشية من الله عز وجل ، فقد دلّت السورة على الطريق لتحقيق الخشية وبينت بواعثها ، ودلّت على مغذياتها .

وسورة فاطر تكمّل سورة سبأ ، ومن ثمّ فهي تبني على ما ذكرته تلك ، فسورة سبأ وضعت الأساس في موضوع الشكر ، وجاءت سورة فاطر لتبني على هذا الأساس .

لاحظ التكامل بين السورتين :

جاء في سورة سبأ ﴿ **ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحق** ﴾ وجاء في سورة فاطر ﴿ **والذي أوحينا إليك من الكتاب هو الحق** ﴾ .

جاء في سورة سبأ ﴿ **وقليل من عبادي الشكور** ﴾ وجاء في سورة فاطر : ﴿ **اذكروا نعمة الله عليكم** ﴾ .

لقد ربطت سورة سبأ بين معرفة الله والإيمان باليوم الآخر والقيام بالتكليف الذي هو الشكر ، وسورة فاطر هي التي دلّت على طريق الشكر العملي .

وسورتا سبأ وفاطر تكمّلان مجموعتهما في قسم المثاني بإعطاء كثير من المعاني ، فهما قد عمّقتا قضية الشكر ، وهو موضوع مرتبط بقضية التقوى الواردة في سورة الأحزاب ، وذلك يعمّق قضية الإيمان التي ركزت عليها زمرة (الٓمٓ) في هذه المجموعة .

إنّ لسورة فاطر سياقها المرتبط بمحورها ، ولها تكاملها مع السورة التي سبقتها ومع مجموعتها التي هي فيها وكل ذلك بعض أسرار الإعجاز .

سورة يس

وهي السورة السادسة والثلاثون بحسب الرسم القرآني
وهي السورة الثامنة والأخيرة من المجموعة الأولى من
قسم المثاني ، وآياتها ثلاث وثمانون آية
وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ وَآلِهِ وَأَصْحَابِهِ

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا، إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

كلمة في سورة يس ومحورها :

يلاحظ أن سورة (يسٓ) مبدوءة بالحرفين (يا) و (س) وهذان الحرفان مفتاحان ، بهما نتعرف على محل هذه السورة في السياق القرآني العام .

فلنتذكر الآن شيئاً : بدأت سورة مريم بقوله تعالى : ﴿ **كٓهيعٓصٓ** ﴾ ولاحظنا أن الحرف (ها) ورد في سورة (طه) التي هي بداية مجموعة ، والحرف (يا) جاء الآن في سورة (يس) ، والحرف (ع) سيأتي معنا في بداية سورة الشورى وهي بداية مجموعة ، والحرف (ص) سيأتي في سورة (ص) وهي نهاية مجموعة ، فالملاحظ أنّ هذه الأحرف تأتي إما في بداية مجموعة ، أو في نهاية مجموعة فحرف (ها) جاء في سورة (طه) وهي بداية مجموعة . وحرف (ص) جاء في نهاية مجموعة كما سنرى . وحرف (ع) سيأتي في بداية مجموعة كما سنرى وأن الحرف (يا) جاء في سورة (يس) التي هي نهاية مجموعتها كما سنبرهن الآن :

....

وإنما اعتمدنا أن الحرف (يا) علامة على نهاية مجموعة ، وبالتالي فإن سورة (يس) نهاية المجموعة التي مَرَّت معنا لأسباب كثيرة :

١ - نلاحظ أن الحرف (س) ورد في بداية هذه السورة ، كما ورد في الطاسينات ، ونلاحظ أن خاتمة سورة (يس) هي نفس خاتمة (طسٓمٓ) القصص التي هي خاتمة مجموعتها ، فتلك انتهت بقوله تعالى : ﴿ **وإليه ترجعون** ﴾ وسورة (يس) انتهت بقوله تعالى : ﴿ **وإليه ترجعون** ﴾ مما يشير إلى وحدة المحور .

٢ - نلاحظ أن محور (الطاسينات) جميعاً هو قوله تعالى : ﴿ **تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين** ﴾ . ونلاحظ أن بداية (يس) هي قوله تعالى : ﴿ **يسٓ * والقرآن الحكيم * إنك لمن المرسلين** ﴾ ، وهذا يؤكد أن محور (يس) هو محور الطاسينات . وكما أن الطاسينات نهاية مجموعتها فسورة (يس) نهاية مجموعتها .

٣ - نلاحظ أن جرس الطاسينات موجود في (يس) فمثلاً في سورة الشعراء تتكرر كلازمة ﴿ **وإن ربك لهو العزيز الرحيم** ﴾ وتجد في أول سورة (يس) قوله تعالى : ﴿ **تنزيل العزيز الرحيم** ﴾ وبالتالي فكما أن الطاسينات كانت نهاية مجموعة فإن سورة (يس) نهاية مجموعة .

٤ - نلاحظ أنه بعد سورة (يس) تأتي سورة (الصافات) المبدوءة (بقسم) ، وتلك علامة من علامات بداية المجموعات - كما سنرى - مما يشير إلى أن سورة (يس) هي نهاية مجموعة سابقة .

٥ - إن هناك مجموعة دلائل تدل على أن سورة (يس) تفصّل قوله تعالى : ﴿ **تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين** ﴾ ومن ثَمَّ فهي تفصّل من سورة البقرة ما يأتي بعد محور سورة فاطر ، ولا نجد سورة بعدها تفصّل ما بعد آية محورها ، ممّا يدل كذلك على أنها نهاية مجموعتها .

....

وهاك مجموعة الدلالات التي تدل على أن سورة (يس) تفصّل قوله تعالى : ﴿ **تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين** ﴾ مما يدل على أن هذه الآية هي محور السورة .

١ - نلاحظ أن الكلام عن المرسلين يأخذ حيِّزاً من السّورة :

﴿ **إنك لمن المرسلين** ﴾ . ﴿ **واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون** ﴾ . ﴿ **فقالوا إنا إليكم مرسلون** ﴾ . ﴿ **إنا إليكم لمرسلون** ﴾ . ﴿ **اتبعوا المرسلين** ﴾ . كما نلاحظ أن السّورة تعرض علينا بعض آيات الله ﴿ **وآيةٌ لهم الأرض الميتة ...** ﴾ ﴿ **وآيةٌ لهم الليل ...** ﴾ ﴿ **وآية لهم أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون ...** ﴾ .

٢ - نلاحظ أن قوله تعالى من سورة البقرة ﴿ **تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين** ﴾ قد جاء في حيّز قوله تعالى : ﴿ **ألم تر إلى الملأ من بني إسرائيل** ﴾ لاحظ ﴿ **ألم تر** ﴾ ونلاحظ في سورة (يس) تكرار ما يقارب هذه الصيغة ﴿ **ألم يروا ...** ﴾ . ﴿ **أو لم يروا ...** ﴾ ﴿ **أو لم ير الإنسان ...** ﴾ .

لهذا كله قلنا : إنّ سورة (يس) هي نهاية مجموعتها ، وأن محورها هو ما ذكرناه من سورة البقرة .

....

ومع أن السورة تفصّل محورها ولها سياقها فهي كذلك تتكامل مع مجموعتها ،

فتكمّل معاني سورة فاطر ، فسورة فاطر مثلاً ذكر الله فيها ﴿ **إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه وإلى الله المصير** ﴾ وسورة (يس) تتحدّث عن الرسل ومهمتهم . ومما تقوله : ﴿ **إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب فبشِّره بمغفرة وأجر كريم** ﴾ فهي تكمّل ما بدأته سورة فاطر ، وتزيده تفصيلاً ، إذ تتحدث عن المرسلين عامة ومهمتهم وموقف الناس ...

....

بعد أن عرفنا أن سورة (يس) هي نهاية المجموعة السابقة ، وعرفنا ما هو محورها نقول :

إن سورة (يس) تتألف من مقطعين : المقطع الأول : ويمتد من أول السورة إلى نهاية قوله تعالى : ﴿ **يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزؤون** ﴾ أي إلى نهاية الآية (٣٠) ، والمقطع الثاني ، ويمتدّ إلى نهاية السورة . أي إلى نهاية الآية (٨٣) ونلاحظ أن المقطع الثاني يتألف من مجموعات واضحة التقسيم ، واضحة البدايات : ﴿ **ألم يروا** ﴾ ﴿ **ألم أعهد** ﴾ ﴿ **ألم يروا** ﴾ ﴿ **أو لم ير** ﴾ .

نُقُول :

١ - قدّم ابن كثير لتفسير سورة (يس) بأن ذكر الأحاديث والآثار الواردة في هذه السورة وفضلها ، والحض على تلاوتها وحفظها . فلنذكر ما ذكره في هذه المقدمة مع حذف الأسانيد . قال ابن كثير :

(روى أبو عيسى الترمذي ... عن قتادة عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « إن لكل شيء قلباً ، وقلب القرآن يس ، ومن قرأ يس كتب الله له بقراءتها قراءة القرآن عشر مرات » ثم قال هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث حميد بن عبد الرحمن . وهارون أبو محمد - أحد رواة الحديث - شيخ مجهول . وفي الباب عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، ولا يصح لضعف إسناده ، وعن أبي هريرة رضي الله عنه منظور فيه . أما حديث الصديق رضي الله عنه فرواه الحكيم الترمذي في كتابه نوادر الأصول . وأما حديث أبي هريرة رضي الله عنه فقد رواه أبو بكر البزار بإسناده عن عطاء بن أبي رباح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن لكل شيء قلباً ، وقلب القرآن يس » ثم قال لا نعلم رواه إلا زيد عن حميد . وروى الحافظ

أبو يعلى ... عن الحسن قال سمعت أبا هريرة رضي الله عنه يقول : قال رسول الله ﷺ : « من قرأ يس في ليلة أصبح مغفوراً له ، ومن قرأ حم التي يذكر فيها الدخان أصبح مغفوراً له » إسناده جيد . وروى ابن حبان في صحيحه ... عن الحسن عن جندب بن عبد الله رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من قرأ يس في ليلة ابتغاء وجه الله عز وجل غفر له » . وروى الإمام أحمد ... عن معقل بن يسار رضي الله عنه قال : إن رسول الله ﷺ قال : « البقرة سنام القرآن وذروته ؛ نزل مع كل آية منها ثمانون مَلَكاً . واستخرجت ﴿ **الله لا إله إلا هو الحي القيوم** ﴾ من تحت العرش ، فوصلت بها - أي فوصلت بسورة البقرة - ويس قلب القرآن ، لا يقرؤها رجل يريد الله تعالى والدار الآخرة إلا غفر له ، واقرؤوها على موتاكم » وكذا رواه النسائي في اليوم والليلة . وروى الإمام أحمد ... عن معقل بن يسار رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم : « اقرءوها على موتاكم يعني يس » ورواه أبو داود والنسائي في اليوم والليلة وابن ماجه من حديث عبد الله بن المبارك به إلا أن في رواية النسائي عن أبي عثمان عن معقل بن يسار رضي الله عنه ، ولهذا قال بعض العلماء : من خصائص هذه السورة أنها لا تقرأ عند أمر عسير إلا يسَّره الله تعالى ، وكأن قراءتها عند الميت لتنزل الرحمة والبركة وليسهل عليه خروج الروح والله تعالى أعلم . قال الإمام أحمد رحمه الله حدثنا أبو المغيرة حدثنا صفوان قال : كان المشيخة يقولون : إذا قُرِئت - يعني يس - عند الميت خفف الله عنه بها . وروى البزار ... عن عكرمة عن ابن عباس قال : قال النبي ﷺ : « لوددت أنها في قلب كل إنسان من أمتي » يعني يس) .

٢ - ومن تقديم الألوسي لسورة (يس) ننقل ما يلي :

(صح من حديث الإمام أحمد . وأبي داود . والنسائي . وابن ماجه . والطبراني . وغيرهم عن معقل بن يسار أن رسول الله ﷺ قال (يس) قلب القرآن وعد ذلك أحد أسمائها ، وبين حجة الإسلام الغزالي عليه الرحمة وجه إطلاق ذلك عليها بأن المدار على الإيمان وصحته بالاعتراف بالحشر والنشر ، وهو مقرر فيها على أبلغ وجه وأحسنه ، ولذا شبهت بالقلب الذي به صحة البدن وقوامه ، واستحسنه الإمام الرازي ، وأورد على ظاهره أن كل ما يجب الإيمان به لا يصح الإيمان بدونه ، فلا وجه لاختصاص الحشر والنشر بذلك . وأجيب بأن المراد بالصحة في كلام الحجة ما يقابل السقم والمرض ولا شك أن من صح إيمانه بالحشر يخاف من النار ، ويرغب في الجنة دار الأبرار فيرتدع

عن المعاصي التي هي كأسقام الإيمان إذ بها يختل ويضعف ، ويشتغل بالطاعات التي هي كحفظ الصحة ، ومن لم يقو إيمانه به كان حاله على العكس ، فشابه الاعتراف به بالقلب الذي بصلاحه يصلح البدن ، وبفساده يفسد ، وجوز أن يقال وجه الشبه بالقلب أن به صلاح البدن وفساده ، وهو غير مشاهد في الحس ، وهو محل لانكشاف الحقائق والأمور الخفية ، وكذا الحشر من المغيبات ، وفيه يكون انكشاف الأمور والوقوف على حقائق المقدور ، وبملاحظته وإصلاح أسبابه تكون السعادة الأبدية ، وبالإعراض عنه وإفساد أسبابه يبتلي بالشقاوة السرمدية . وفي الكشف : لعل الإشارة النبوية في تسمية هذه السورة قلباً ، وقلب كل شيء لبه وأصله الذي ما سواه إما من مقدماته ، وإما من متمماته إلى ما أسلفناه في تسمية الفاتحة بأم القرآن من أن المقصود من إرسال الرسل وإنزال الكتب إرشاد العباد إلى غايتهم الكمالية في المعاد ، وذلك بالتحقق والتخلق المذكورين هنالك ، وهو المعبر عنه بسلوك الصراط المستقيم ، ومدار هذه السورة الكريمة على بيان ذلك أتم بيان . اهـ) .

(ووجه اتصالها بما قبلها على ما قاله الجلال السيوطي أنه لما ذكر في سورة فاطر قوله سبحانه ﴿ **وجاءكم النذير** ﴾ وقوله تعالى : ﴿ **وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير** ﴾ إلى قوله سبحانه : ﴿ **فلما جاءهم نذير** ﴾ وأريد به محمد ﷺ ، وقد أعرضوا عنه وكذبوه افتتح هذه السورة بالإقسام على صحة رسالته عليه الصلاة والسلام ، وأنه على صراط مستقيم ، لينذر قوماً ما أنذر آباؤهم وقال سبحانه في فاطر : ﴿ **وسخّر الشمس والقمر كل يجري لأجل** ﴾ وفي هذه السورة ﴿ **والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم * والقمر قدّرناه منازل** ﴾ إلى غير ذلك ولا يخفى أن أمر المناسبة يتم على تفسير النذير بغيره ﷺ أيضاً فتأمل) .

٣ - ومن كلام صاحب الظلال في تقديمه لهذه السورة :

(هذه السورة المكية ذات فواصل قصيرة . وإيقاعات سريعة . ومن ثَمَّ جاء عدد آياتها ثلاثاً وثمانين . بينما هي أصغر وأقصر من سابقتها - سورة فاطر - وعدد آياتها خمس وأربعون . وقصر الفواصل مع سرعة الإيقاع يطبع السورة بطابع خاص ، فتتلاحق إيقاعاتها ، وتدق على الحس دقات متوالية ، يعمل على مضاعفة أثرها ما تحمله معها من الصور والظلال التي تخلعها المشاهد المتتابعة من بدء السورة إلى نهايتها . وهي متنوعة وموحية وعميقة الآثار) .

(هذه المؤثرات منتزعة في هذه السورة من مشاهد القيامة - بصفة خاصة - ومن مشاهد القصة ومواقفها وحوارها . ومن مصارع الغابرين على مدار القرون . ثم من المشاهد الكونية الكثيرة المتنوعة الموحية : مشهد الأرض الميتة تدب فيها الحياة . ومشهد الليل يسلخ منه النهار فإذا هو ظلام . ومشهد الشمس تجري لمستقر لها . ومشهد القمر يتدرج في منازله حتى يعود كالعرجون القديم . ومشهد الفلك المشحون يحمل ذرية البشر الأولين . ومشهد الأنعام مسخرة للآدميين . ومشهد النطفة ثم مشهدها إنساناً وهو خصيم مبين ! ومشهد الشجر الأخضر تكمن فيه النار التي يوقدون !) .

(وإلى جوار هذه المشاهد مؤثرات أخرى تلمس الوجدان الإنساني وتوقظه : منها صورة المكذبين الذين حقت عليهم كلمة الله بكفرهم فلم تعد تنفعهم الآيات والنذر : ﴿ **إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً فهي إلى الأذقان فهم مقمحون * وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون** ﴾ . ومنها صورة نفوسهم في سرهم وفي علانيتهم مكشوفة لعلم الله لا يداريها منه ستار .. ومنها تصوير وسيلة الخلق بكلمة لا تزيد : ﴿ **إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن . فيكون** ﴾ .. وكلها مؤثرات تلمس القلب البشري وهو يرى مصداقها في واقع الوجود .) .

....

ولنبدأ عرض السّورة .

المقطع الأول

ويمتدّ من الآية (١) إلى نهاية الآية (٣٠) وهذا هو مع البسملة :

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٍ
مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ
غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا
فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ
سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ
ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ
ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ
مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا
أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا
بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ
مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾
وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ

وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ
﴿١٩﴾ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾
اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي
وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي
شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّي آمَنتُ
بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا
غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾ * وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِن
جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ
﴿٢٩﴾ يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٠﴾

التفسير :

﴿ **يس والقرآن الحكيم** ﴾ أي ذي الحكمة ، وصف بالحكيم لأنه كلام الله الحكيم ﴿ **إنك** ﴾ يا محمد ﴿ **لمن المرسلين** ﴾ هذا هو المقسم عليه ﴿ **على صراط مستقيم** ﴾ أي طريقة مستقيمة وهو الإسلام . قال ابن كثير : أي على نهج ودين قويم وشرع مستقيم ﴿ **تنزيل العزيز الرحيم** ﴾ قال النسفي : (العزيز الغالب بفصاحة نظم كتابه أوهام ذوي العناد ، الرحيم الجاذب بلطافة معنى خطابه أفهام أولي الرشاد) . وقال ابن كثير : أي هذا الصراط والمنهج والدين الذي جئت به تنزيل من رب العزة الرحيم بعباده المؤمنين ﴿ **لتنذر قوماً** ﴾ أي أرسلتَ لتنذر قوماً ﴿ **ما أُنذر آباؤهم** ﴾ أي لم ينذر آباؤهم من قبل ﴿ **فهم غافلون** ﴾ . قال ابن كثير : (يعني بهم العرب فإنه ما أتاهم من نذير من قبله ، وذكرهم وحدهم لا ينفي من عداهم ، كما أن ذكر بعض

الأفراد لا ينفي العموم ، وقد تقدّم ذكر الايات والاحاديث المتواترة في عموم بعثته ﷺ ..) .

....

نقول :

١ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **والقرآن الحكيم** ﴾ قال صاحب الظلال :

(ويصف القرآن - وهو يقسم به - بأنه « القرآن الحكيم » . والحكمة صفة العاقل . والتعبير على هذا النحو يخلع على القرآن صفة الحياة والقصد والإرادة . وهي من مقتضيات أن يكون حكيماً . ومع أن هذا مجاز إلا أنه يصور حقيقة ويقربها . فإن لهذا القرآن لروحاً ! وإن له لصفات الحي الذي يعاطفك وتعاطفه حين تصفي له قلبك وتصغي له روحك ! وإنك لتطلع منه على دخائل وأسرار كلما فتحت له قلبك وخلصت له بروحك ! وإنك لتشتاق منه إلى ملامح وسمات ، كما تشتاق إلى ملامح الصديق وسماته ، حين تصاحبه فترة وتأنس به وتستروح ظلاله ! ولقد كان رسول الله ﷺ يحب أن يسمع تلاوة القرآن من غيره ؛ ويقف ينصت إذا سمع من يرتل هذا القرآن . كما يقف الحبيب وينصت لسيرة الحبيب !

والقرآن حكيم . يخاطب كل أحد بما يدخل في طوقه . ويضرب على الوتر الحساس في قلبه . ويخاطبه بقدر . ويخاطبه بالحكمة التي تصلحه وتوجهه .

والقرآن حكيم . يربي بحكمة ، وفق منهج عقلي ونفسي مستقيم . منهج يطلق طاقات البشر كلها مع توجيهها الوجه الصالح القويم . ويقرر للحياة نظاماً كذلك يسمح بكل نشاط بشري في حدود ذلك المنهج الحكيم .) .

٢ - وبمناسبة قوله تعالى : ﴿ **لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم** ﴾ قال الألوسي : (والمراد بآبائهم آباؤهم الأدنون وإلا فالأبعدون قد أنذرهم إسماعيل عليه السلام ، وبلغهم شريعة إبراهيم عليه السلام) .

كلمة في السياق :

ذكرت هذه الآيات أن محمداً ﷺ رسول ، وأن رسالته هي الصراط المستقيم ، وأن رسالته من عند الله ، وأن الحكمة منها إنذار قومه أولاً فإذا تذكرنا محور السورة

﴿ **وإنك لمن المرسلين** ﴾ نعلم أن السورة تبدأ بتبيان فحوى الرسالة ومضمونها وحكمتها فإذا استقرّ ذلك فإن السياق يبدأ بعرض موقف الكافرين من رسول الله ﷺ ومن دعوته .

....

﴿ **لقد حق القول** ﴾ أي وجب وثبت ، والقول : هو قوله تعالى : ﴿ **لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين** ﴾ . ﴿ **على أكثرهم** ﴾ دلّ على أن القليل فقط هم الذين يؤمنون ﴿ **فهم لا يؤمنون** ﴾ أي تعلق بهم هذا القول وثبت عليهم ووجب ، لأنهم ممن علم أنهم يموتون على الكفر ، فبسبب ذلك هم لا يؤمنون بالله ، ولا يصدقون رسله . قال ابن جرير في معنى الآية : لقد وجب العذاب على أكثرهم بأن الله تعالى قد حتّم عليهم في أمّ الكتاب أنهم لا يؤمنون ﴿ **إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً** ﴾ الغل : هو ما تجمع به اليدان إلى العنق ، ولما كان هذا معروفاً اكتفى بذكر الأعناق عن ذكر الأيدي ﴿ **فهي إلى الأذقان** ﴾ معناه : فالأغلال واصلة إلى الأذقان ملزوزة إليها ﴿ **فهم مقمحون** ﴾ قال مجاهد : (أي) رافعي رؤوسهم ، وأيديهم موضوعة على أفواههم فهم مغلولون عن كل خير ، أي مرفوعة رؤوسهم بشكل لا يدعهم الغل يطأطؤون رؤوسهم . قال النسفي : مثّل تصميمهم على الكفر ، وأنه لا سبيل إلى ارعوائهم بأن جعلهم كالمغلولين المقمحين ، في أنهم لا يلتفتون إلى الحق ، ولا يعطفون أعناقهم نحوه ، ولا يطأطؤون رؤوسهم له ، وكالحاصلين بين سدين لا يبصرون ما قدّامهم ، ولا ما خلفهم في ألّا تأمّل لهم ولا تبصّر ، وأنهم متعامون عن النظر في آيات الله بقوله : ﴿ **إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً فهي إلى الأذقان فهم مقمحون * وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً** ﴾ أي وجعلنا من أمامهم سداً عن الحق ومن خلفهم سداً عن الحق ﴿ **فأغشيناهم** ﴾ أي فأغشينا أبصارهم عن الحق أي غطّيناها وجعلنا عليها غشاوة ﴿ **فهم لا يبصرون** ﴾ الحق والرشاد أي لا ينتفعون بخير ولا يهتدون إليه . قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : جعل الله تعالى هذا السّد بينهم وبين الإسلام والإيمان ، فهم لا يخلصون إليه وقرأ ﴿ **إن الذين حقّت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون * ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم** ﴾ [يونس : ٩٦ ، ٩٧] ثم قال : من منعه الله تعالى لا يستطيع ﴿ **وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون** ﴾ أي سواء عليهم الإنذار وتركه . والمعنى : من أضله الله هذا الإضلال لم ينفعه الإنذار .

قال ابن كثير : (أي قد ختم الله عليهم بالضلالة فما يفيد فيهم الإنذار ولا يتأثّرون به) ﴿ **إنما تنذر من اتبع الذكر** ﴾ أي القرآن ﴿ **وخشي الرحمن بالغيب** ﴾ أي وخافَ عقاب الله مع أنّه لا يراه أو خاف الله حيث لا يراه أحد إلّا الله تبارك وتعالى يعلم أن الله مطلع عليه وعالم بما يفعل . والمعنى : إنما ينتفع بإنذارك الذين اجتمع لهم اتباع القرآن العظيم وخوف الله ، ممّا يفيد أنّ اتباع القرآن والخوف من الله هما بداية السير ، وبداية قبول الموعظة والتذكير . فهذه مسلّمة لا بد منها للسير إلى الله ﴿ **فبشّره** ﴾ أي بشر المتّبع للذكر الخائف من الله ﴿ **بمغفرة** ﴾ أي لذنوبه ﴿ **وأجر كريم** ﴾ أي كثير واسع حسن جميل . أي الجنة . ثم ذكر تعالى ما يثير الخشية منه ويبعث عليها فقال : ﴿ **إنا نحن نحيي الموتى** ﴾ أي يوم القيامة . أي نبعثهم بعد مماتهم ﴿ **ونكتب ما قدموا** ﴾ أي من الأعمال أي ما أسلفوا في حياتهم الدنيا ﴿ **وآثارهم** ﴾ أي ما هلكوا عنه من أثر حسن كعلم علّموه أو كتاب صنّفوه ، أو وقف وقفوه ، أو رباط أو مسجد صنعوه ، أو من أثر سيء كوظيفة وظّفها بعض الظلمة ، وكذلك كل سُنَّة حسنة أو سيئة يستنُّ بها ﴿ **وكل شيء أحصيناه** ﴾ أي عددناه وبيّناه ﴿ **في إمام مبين** ﴾ أي موضح يعني اللوح المحفوظ لأنه أصل الكتب ومقتداها . قال ابن كثير : (أي وجميع الكائنات مكتوب في كتاب مسطور مضبوط في لوح محفوظ ، والإمام المبين ههنا : هو أم الكتاب ، قاله مجاهد وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم) .

كلمة في السياق :

١ – ما مرّ فيه تعزية لرسول الله ﷺ وتعليم . فالتعزية هي في تبيان أن كفر الكافرين إنما هو بالله ، وله في ذلك حكمة ، فلا يحزنك ذلك ، وفيه تعليم لرسول الله ﷺ في إراءته أين يثمر إنذاره ، ولا يعني هذا ألا ينذر وألا يقيم الحجة ، بدليل أن الآيات اللاحقة تبدأ بقوله تعالى : ﴿ **واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية ...** ﴾ لأن من كَتَب الله عليهم الشقاوة غير معروفين بأعيانهم ، إلا بتعريف الله عز وجل ، وقد مَرَّ معنا في أول سورة الأنبياء أن مَنْ هذا شأنهم هم مَنْ توفرت فيهم مجموعة صفات على كمالها وتمامها ، ولا أحد يعلم ذلك إلا الله ، ومن ثَمَّ فلا بد من الإنذار وإقامة الحجة ، وإذا كان في ما مر تعزية وتعليم فلا يذهبن أحد أن الآيات تفيد الجبر ، بل الإنسان مختار ، والجمع بين اختيار الإنسان وكون كل شيء بعلم الله وإرادته وقدرته ذكرناه في مكان آخر من هذا التفسير ، فعِلْم الله كاشف لا مجبر ، والإرادة تخصص على وفق العلم ،

والقدرة تبرز على وفق الإرادة . مع العلم أن صفات الله أزلية ، وأن علم الله وإرادته أزليان ، فمن الأزل علم ومن الأزل أراد دون ترتيب .

٢ - نلاحظ أن المعاني الأولى في سورة البقرة قد مرت معنا في هذه الآيات مما يشير إلى أهمية هذه المعاني في رسالة الرسول ﷺ ، وإذا كانت هذه المعاني قد تضمنتها السور السبع الماضية من هذه المجموعة ، فهذا يرينا كيف أن السورة تكرُّ على ما مضى لتضعه في محله من موضوع الرسالة والرسول الذي هو مضمون سورة يس ، ومن قبل كنّا ذكرنا أن التفصيل في محور تفصيل فيه وفي امتدادات معانيه ، وفي ارتباطاته من سورة البقرة .

٣ - نلاحظ أنه بعد أن ذكر الله عز وجل ما ذكر من قواعد ومعان يأمر فيما يأتي رسوله ﷺ بأن يضرب مثلاً في موقف أهل مدينة من رسلهم ، وماذا كان عقابهم ، مِمّا يفيد أن الرسول ﷺ عليه واجب الإنذار ، ولو علم أن إنذاره لا يفيد وهو شيء علمناه من أول السورة : ﴿ **لتنذر قوماً ما أُنذر آباؤهم** ﴾ مع أن أكثر القوم بنص الآيات لا يؤمنون : ﴿ **لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون** ﴾ . وقبل أن نرى المثل فلننقل بعض فوائد ما مر .

فوائد :

١ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون** ﴾ قال النسفي : (وروي أن عمر بن عبد العزيز قرأ الآية على غيلان القدري فقال : كأني لم أقرأها ، أشهدك أني تائب عن قولي في القدر ، فقال عمر : اللهم إن صدق فتب عليه ، وإن كذب فسلط عليه من لا يرحمه ، فأخذه هشام بن عبد الملك من عنده فقطع يديه ورجليه ، وصلبه على باب دمشق) .

٢ - في سبب نزول قوله تعالى : ﴿ **إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً** ... ﴾ إلى ﴿ **فهم لا يبصرون** ﴾ . قال ابن كثير : (وقال عكرمة : قال أبو جهل لئن رأيت محمداً لأفعلن ، ولأفعلن فأنزلت ﴿ **إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً** ﴾ إلى قوله ﴿ **فهم لا يبصرون** ﴾ قال : وكانوا يقولون هذا محمد ، فيقول : أين هو أين هو ؟ لا يبصر ، ورواه ابن جرير ؛ وقال محمد ابن إسحاق حدثني يزيد بن زياد عن محمد بن كعب

قال : قال أبو جهل - وهم جلوس - إن محمداً يزعم أنكم إن تابعتموه كنتم ملوكاً فإذا متُّم بعثتم بعد موتكم ، وكانت لكم جنان خير من جنان الأردن ، وأنكم إن خالفتموه كان لكم منه ذبح ، ثم بعثتم بعد موتكم ، وكانت لكم نار تعذبون بها ، وخرج عليهم رسول الله ﷺ عند ذلك وفي يده حفنة من تراب وقد أخذ الله تعالى على أعينهم دونه فجعل يذرها على رؤوسهم ويقرأ ﴿ **يس * والقرآن الحكيم** ﴾ حتى انتهى إلى قوله تعالى ﴿ **وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون** ﴾ وانطلق رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم لحاجته ، وباتوا رصداء على بابه ، حتى خرج عليهم بعد ذلك خارج من الدار ، فقال مالكم ؟ قالوا : ننتظر محمداً قال : وقد خرج عليكم فما بقي منكم من رجل إلا وضع على رأسه تراباً ، ثم ذهب لحاجته ، فجعل كل رجل منهم ينفض ما على رأسه من التراب . قال : وقد بلغ النبي ﷺ قول أبي جهل فقال : « أنا أقول ذلك إن لهم مني لذبحاً وإني لآخذهم ») .

أقول : يبدو أن هذه الحادثة كانت قبيل الهجرة .

٣ - رأينا معنى قوله تعالى : ﴿ **ونكتب ما قدَّموا وآثارهم** ﴾ إذ ذكرنا أن معناها : ما أسلفوا وما هلكوا عنه من أثر حسن أو سيء ، ولم نذكر غير هذا القول . وقد ذكر ابن كثير قولاً آخر في ذلك وبعد أن ذكر القولين ودليل كلٍّ قال :

(وهذا القول لا تنافي بينه وبين الأول ، بل في هذا تنبيه ودلالة على ذلك بطريق الأولى والأحرى ؛ فإنه إذا كانت هذه الآثار تُكتَب فلأن تكتب التي فيها قدوة بهم من خير أو شر بطريق الأولى) . أما وقد عرفنا أنه لا تنافي بين القولين فلنذكر القولين ودليل كلٍّ كما عرضهما ابن كثير ، قال رحمه الله :

(وفي قوله تعالى ﴿ **وآثارهم** ﴾ قولان (أحدهما) : نكتب أعمالهم التي باشروها بأنفسهم ، وآثارهم التي أثروها من بعدهم فنجزيهم على ذلك أيضاً ، إن خيراً فخير وإن شراً فشر كقوله ﷺ : « من سَنَّ في الإسلام سُنَّة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء ، ومن سَنَّ في الإسلام سُنَّة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء » رواه مسلم ، وفيه قصة مجتابي الثمار المضريين ، وأخرجه ابن أبي حاتم عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه فذكر الحديث بطوله ثم تلا هذه الآية ﴿ **ونكتب ما قدَّموا وآثارهم** ﴾ وقد رواه مسلم من رواية أبي عوانة ، وهكذا الحديث الآخر الذي في صحيح مسلم عن

أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : من علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له ، أو صدقة جارية من بعده » وقال سفيان الثوري عن أبي سعيد رضي الله عنه قال : سمعت مجاهداً يقول في قوله تعالى : ﴿ **إنا نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدّموا وآثارهم** ﴾ قال : ما أورثوا من الضلالة . وقال ابن لهيعة عن عطاء بن دينار عن سعيد بن جبير في قوله تعالى ﴿ **ونكتب ما قدّموا وآثارهم** ﴾ يعني : ما أثروا ، يقول ما سنُّوا من سنة فعمل بها قوم من بعد موتهم فإن كانت خيراً فلهم مثل أجورهم ، لا ينقص من أجر من عمل به شيئاً ، وإن كانت شراً فعليهم مثل أوزارهم ، ولا ينقص من أوزار من عمل بها شيئاً ذكرهما ابن أبي حاتم ، وهذا القول هو اختيار البغوي . (والقول الثاني) : أن المراد بذلك آثار خطاهم إلى الطاعة أو المعصية ، قال ابن أبي نجيح وغيره عن مجاهد ﴿ **ما قدّموا** ﴾ أعمالهم ﴿ **وآثارهم** ﴾ قال : خطاهم بأرجلهم ، وكذا قال الحسن وقتادة ﴿ **وآثارهم** ﴾ يعني : خطاهم . وقال قتادة : لو كان الله عز وجل مغْفلاً شيئاً من شأنك يا ابن آدم أغفل ما تعفي الرياح من هذه الآثار ، ولكن أحصى على ابن آدم أثره ، وعمله كله ، حتى أحصى هذا الأثر فيما هو من طاعة الله تعالى ، أو من معصيته ، فمن استطاع منكم أن يكتب أثره في طاعة الله تعالى فليفعل . وقد أوردت في هذا المعنى أحاديث : (الحديث الأول) روى الإمام أحمد ... عن أبي نضرة عن جابر ابن عبد الله رضي الله عنهما قال : خلت البقاع حول المسجد ، فأراد بنو سلمة أن ينتقلوا قرب المسجد ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال لهم : « إني بلغني أنكم تريدون أن تنتقلوا قرب المسجد » قالوا : نعم يا رسول الله ، قد أردنا ذلك فقال ﷺ : « يا بني سلمة دياركم تكتب آثاركم ، دياركم تكتب آثاركم » وهكذا رواه مسلم . (الحديث الثاني) روى ابن أبي حاتم ... عن أبي نضرة عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : كانت بنو سلمة في ناحية من المدينة ، فأرادوا أن ينتقلوا إلى قريب من المسجد فنزلت ﴿ **إنا نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدّموا وآثارهم** ﴾ فقال لهم النبي ﷺ : « إن آثاركم تكتب » فلم ينتقلوا ، تفرد بإخراجه الترمذي عند تفسيره هذه الآية الكريمة عن محمد ابن الوزير به ثم قال حسن غريب من حديث الثوري ، ورواه ابن جرير عن أبي نضرة به ، وقد رواه البزار من غير طريق الثوري . روى الحافظ أبو بكر البزار ... عن أبي سعيد رضي الله عنه قال : إن بني سلمة شكوا إلى رسول الله ﷺ بُعْد منازلهم من المسجد فنزلت ﴿ **ونكتب ما قدموا وآثارهم** ﴾ فأقاموا في مكانهم .

وفيه غرابة من حيث ذكر نزول هذه الآية والسورة بكمالها مكية فالله أعلم . (الحديث الثالث) روى ابن جرير ... عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كانت منازل الأنصار متباعدة من المسجد فأرادوا أن ينتقلوا إلى المسجد فنزلت ﴿ **ونكتب ما قدموا وآثارهم** ﴾ فقالوا : نثبت مكاننا ، هكذا رواه وليس فيه شيء مرفوع ، ورواه الطبراني ... عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كانت الأنصار بعيدة منازلهم من المسجد ، فأرادوا أن يتحولوا إلى المسجد فنزلت ﴿ **ونكتب ما قدموا وآثارهم** ﴾ فثبتوا في منازلهم . (الحديث الرابع) روى الإمام أحمد ... عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : توفي رجل بالمدينة فصلى عليه النبي ﷺ وقال : « يا ليته مات في غير مولده » فقال رجل من الناس : ولِمَ يا رسول الله ؟ فقال رسول الله ﷺ : « إن الرجل إذا توفي في غير مولده قيس له من مولده إلى منقطع أثره في الجنة » ورواه النسائي عن يونس بن عبد الأعلى وابن ماجه عن حرملة كلاهما عن ابن وهب عن حيي بن عبد الله به ، وروى ابن جرير ... عن ثابت قال : مشيت مع أنس رضي الله عنه فأسرعت المشي ، فأخذ بيدي فمشينا رويداً ، فلما قضينا الصلاة قال أنس : مشيت مع زيد بن ثابت فأسرعت المشي فقال يا أنس أما شعرت أن الآثار تكتب ؟ وهذا القول لا تنافي بينه وبين الأول ، بل في هذا تنبيه ودلالة على ذلك بطريق الأولى والأحرى ؛ فإنه إذا كانت هذه الآثار تكتب فلأن تكتب تلك التي فيها قدوة بهم من خير أو شر بطريق الأولى ، والله أعلم) .

ولنمض في التفسير :

﴿ **واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية** ﴾ أي اذكر لهم قصة عجيبة هي قصة أصحاب القرية . قال ابن كثير : (يقول تعالى : واضرب يا محمد لقومك الذين كذبوك مثلاً أصحاب القرية) ﴿ **إذ جاءها المرسلون إذ أرسلنا إليهم** ﴾ أي إلى أهل القرية ﴿ **اثنين** ﴾ أي رسولين ﴿ **فكذَّبوهما** ﴾ أي بادروهما بالتكذيب ﴿ **فعزّزنا بثالث** ﴾ أي قوّيناهما وشددنا أزرهما برسول ثالث ﴿ **فقالوا** ﴾ أي الرسل الثلاثة لأهل القرية ﴿ **إنا إليكم مرسلون** ﴾ أي من ربكم الذي خلقكم يأمركم بعبادته وحده لا شريك له ﴿ **قالوا** ﴾ أي أصحاب القرية ﴿ **ما أنتم إلا بشر مثلنا** ﴾ قال ابن كثير : (أي فكيف أوحى إليكم وأنتم بشر ونحن بشر فلم لا أوحى إلينا مثلكم ، ولو كنتم رسلاً لكنتم ملائكة وهذه شبهة كثير من الأمم المكذبة ...) . ﴿ **وما أنزل الرحمن من**

شيء ﴾ أي من الوحي أي وما أنزل الله وحياً ﴿ **إن أنتم إلا تكذبون** ﴾ أي وما أنتم إلا كذبة ، فلغة الكافرين في كل زمان ومكان واحدة ﴿ **قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون** ﴾ قال ابن كثير : (أي أجابتهم رسلهم الثلاثة قائلين : الله يعلم أنا رسله إليكم ، ولو كنا كذبة عليه لانتقم منا أشدّ الانتقام ، ولكنّه سيعزّنا وينصرنا عليكم ، وستعلمون لمن تكون عاقبة الدار) ﴿ **وما علينا إلا البلاغ المبين** ﴾ أي التبليغ الظاهر المكشوف بالآيات الشاهدة بصحته . قال ابن كثير : (يقولون إنما علينا أن نبلغكم ما أرسلنا به إليكم ، فإذا أطعتم كانت لكم السعادة في الدنيا والأخرى ، وإن لم تجيبوا فستعلمون غبّ ذلك) ﴿ **قالوا إنا تطيّرنا بكم** ﴾ أي قال لهم أهل القرية ذلك . ومعنى تطيرنا بكم : تشاءمنا بكم . قال النسفي : (وذلك أنهم كرهوا دينهم ، ونفرت منه نفوسهم ، وعادة الجهال أن يتيمَّنُوا بكل شيء مالوا إليه ، وقبلته طباعهم ، ويتشاءموا بما نفروا عنه وكرهوه ، فإن أصابهم بلاء أو نعمة قالوا بشؤم هذا وبركة ذلك) . وقال ابن كثير فيها : (أي لم نر على وجوهكم خيراً في عيشنا . وقال قتادة : يقولون إن أصابنا شر فإنما هو من أجلكم) ﴿ **لئن لم تنتهوا** ﴾ عن مقالتكم هذه ﴿ **لنرجمنّكم** ﴾ أي لنقتلنكم رجماً بالحجارة أو المعنى : لنطردَنّكم أو لنشتمنّكم ﴿ **وليمسنّكم منّا عذاب أليم** ﴾ أي ليصيبنّكم منا عذاب شديد . أي عقوبة شديدة ، وذلك دأب الظالمين مع الدعاة إلى الله في كل زمان ومكان ، إذ تفوتهم الحجة يلجأون إلى التهديد والوعيد ، ثم التنفيذ ﴿ **قالوا** ﴾ أي الرسل ﴿ **طائركم معكم** ﴾ أي سبب شؤمكم معكم ، وهو الكفر ، أو شؤمكم مردود عليكم ، قابلوا الكلام بمثله ممّا يدلّ على جواز الانتصار لتبيان الحق ﴿ **أئن ذكّرتم** ﴾ أي أئن وعظتم ودعيتم إلى الإسلام تطيَّرتم ﴿ **بل أنتم قوم مسرفون** ﴾ أي مجاوزون الحدّ في العصيان فمن ثَمَّ أتاكم الشؤم من قِبَلكم لا من قبل رسل الله وتذكيرهم . قال النسفي : (أو بل أنتم مسرفون في ضلالكم وغيّكم ، حيث تتشاءمون بمن يجب التبرك به من رسل الله) ﴿ **وجاء من أقصى المدينة** ﴾ أي من أبعدها ﴿ **رجل يسعى** ﴾ أي يسرع ﴿ **قال يا قوم اتبعوا المرسلين** ﴾ حضّ قومه على اتباع الرسل الذين جاؤوهم ﴿ **اتبعوا من لا يسألكم أجراً** ﴾ أي على إبلاغ الرسالة ﴿ **وهم** ﴾ أي الرسل ﴿ **مهتدون** ﴾ فيما يدعونكم إليه من عبادة الله وحده لا شريك له ﴿ **وما لي لا أعبد الذي فطرني** ﴾ أي خلقني ﴿ **وإليه تُرجعون** ﴾ أي وإليه مرجعكم يوم القيامة ، فيجازيكم على أعمالكم ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ﴿ **أأتخذ من دونه آلهة** ﴾ هذا استفهام إنكار وتوبيخ وتقريع

﴿ **إن يردن الرحمن بضرّ** ﴾ أي مكروه ﴿ **لا تغن عني شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون** ﴾ أي هذه الآلهة التي تعبدونها من دون الله لا يملكون من الأمر شيئاً ، فإن الله تعالى لو أرادني بسوء فإن هذه الأصنام لا تستطيع كشفه ، ولا تملك دفع ذلك ولا منعه ، ولا ينقذونني مما أنا فيه ﴿ **إني إذاً لفي ضلال مبين** ﴾ أي ظاهر بيّن أي إن اتخذتها آلهة من دون الله ﴿ **إني آمنت بربكم فاسمعون** ﴾ هل هذا القول قاله للرسل ليشهدوا له ، أو قاله لقومه متحدّياً عندما أخذوا يقتلونه ؟ قولان ﴿ **قيل ادخل الجنة** ﴾ دلّ على أنهم قتلوه فكافأه الله عز وجل بالجنة . قال ابن كثير : فدخلها فهو يرزق فيها ، قد أذهب الله عنه سقم الدنيا وحزنها ونصبها . فلما رأى الثواب ﴿ **قال يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي** ﴾ أي بمغفرة ربي لي ﴿ **وجعلني من المكرَمين** ﴾ أي بالجنة بإيماني بربي ، وتصديقي المرسلين . قال ابن كثير : (ومقصوده أنهم لو اطّلعوا على ما حصل لي من هذا الثواب والجزاء ، والنعيم المقيم ؛ لقادهم ذلك إلى اتّباع الرسل ، فرحمه الله ورضي عنه ، فلقد كان حريصاً على هداية قومه) ﴿ **وما أنزلنا على قومه من بعده** ﴾ أي من بعد قتله ﴿ **من جند من السماء** ﴾ لتعذيبهم ونصر رسلنا ﴿ **وما كنا مُنزِلين** ﴾ أي وما كان يصح في حكمتنا أن ننزل في إهلاك قومه جنداً من السماء ، وذلك لأن الله تعالى أجرى هلاك كل قوم على بعض الوجوه دون بعض لحكمة اقتضت ذلك . قال ابن مسعود : أي ما كاثرناهم بالجموع ، الأمر كان أيسر من ذلك ﴿ **إن كانت إلا صيحة واحدة** ﴾ أي إن كانت الأخذة أو العقوبة إلا صيحة واحدة . قال ابن كثير : (قال المفسرون : بعث الله تعالى إليهم جبريل عليه الصلاة والسلام ، فأخذ بعضادتي باب بلدهم ، ثم صاح بهم صيحة ؛ فإذا هم خامدون عن آخرهم ، لم تبق بهم روح تتردد في جسد) ﴿ **فإذا هم خامدون** ﴾ قال النسفي : (أي ميّتون كما تخمد النّار) والمعنى : أن الله كفى أمرهم بصيحة ملك ، ولم ينزل لإهلاكهم جنداً من جنود السماء كما فعل يوم بدر والخندق ﴿ **يا حسرة على العباد** ﴾ أي يا ويل العباد . وقال قتادة أي يا حسرة العباد على أنفسهم على ما ضيّعت من أمر الله ، وفرَّطت في جنب الله . وقال النسفي : الحسرة : شدة الندم ، وهذا نداء الحسرة عليهم ، كأنما قيل لها تعالي يا حسرة ، فهذه من أحوالك التي حقّك أن تحضري فيها وهي حال استهزائهم بالرسل ، والمعنى : أنّهم أحقّاء أن يتحسّر عليهم المتحسّرون ويتلهف على حالهم المتلهفون ، أو هم متحسر عليهم من جهة الملائكة والمؤمنين من الثقلين . وقال ابن كثير : ومعنى هذا يا حسرتهم وندامتهم يوم القيامة ، إذا عاينوا العذاب كيف كذّبوا رسل الله ، وخالفوا

أمر الله لقد كان المكذبون منهم في الدار الدنيا ﴿ **ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزؤون** ﴾ أي يكذبونه ويستهزؤون به ، ويجحدون ما أرسل به من الحق . وبهذا انتهى المقطع الأول .

نـقـل :

بمناسبة قوله تعالى على لسان الكافرين للرسل ﴿ **إنا تطيّرنا بكم** ﴾ قال صاحب الظلال : (فالقول بالتشاؤم من دعوة أو من وجه هو خرافة من خرافات الجاهلية . والرسل يبينون لقومهم أنها خرافة ؛ وأن حظهم ونصيبهم من خير ومن شر لا يأتيهم من خارج نفوسهم . إنما هو معهم . مرتبط بنواياهم وأعمالهم ، متوقف على كسبهم وعملهم . وفي وسعهم أن يجعلوا حظهم ونصيبهم خيراً أو أن يجعلوه شراً . فإن إرادة الله بالعبد تنفذ من خلال نفسه ، ومن خلال اتجاهه ، ومن خلال عمله . وهو يحمل طائره معه . هذه هي الحقيقة الثابتة القائمة على أساس صحيح . أما التشاؤم بالوجوه ، أو التشاؤم بالأمكنة ، أو التشاؤم بالكلمات ... فهو خرافة لا تستقيم على أصل مفهوم !) .

كلمة في السياق :

ضرب الله عز وجل هذا المثل بعد أن ذكر موقف كافري هذه الأمة من الإنذار ، وبعد أن ذكر من هم الذين يستفيدون من الإنذار ، فكان هذا المثل إنذاراً للمعرضين ، وتبشيراً للمستجيبين . وعرفنا به سنة من سنن الله عز وجل في نصرة رسله ، وعرفنا طريقة من طرق الأداء عن الله ، ومظهراً من مظاهر الإيمان الصادق بالرسل عليهم الصلاة والسلام ، واتصال المقطع بمحور السورة وهو قوله تعالى : ﴿ **وإنك لمن المرسلين** ﴾ واضح ؛ فالرسول عليه الصلاة والسلام واحد من المرسلين الذين أرسلهم الله ليبلغوا عنه ، ومن خالف هؤلاء الرسل فإن عقابه آتيه في الدنيا قبل الآخرة .

....

فـوائـد :

١ – من فقه الدعوة في هذه القصة أن تكليف ثلاثة في شأن الدعوة غاية في القوة . فقد أرسل الله أولاً اثنين لأهل القرية ، كما أرسل موسى وهارون إلى فرعون . ثم

عزّز بثالث هنا ، ومن ثَمَّ نفهم أن تكليف ثلاثة في مهمّة دعوية أقوى ، مع تحديد الأمير .

٢ – من قوله تعالى : ﴿ **وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى** ﴾ فهم بعضهم أن أطراف المدينة أقرب إلى الفطرة ، ومن ثَمَّ فهم أدعى إلى الاستجابة ، وبعضهم يقول إن الحادثة تدل على أن وسط المدينة أكثر تمسكاً بما ورثوه من عقائد ، وهذا كما ينطبق على عقائد باطلة ، ينطبق على عقائد حق ، وبالتالي يختلف هذا باختلاف ما إذا كان البلد إسلامياً أو لا .

٣ – بمناسبة قوله تعالى على لسان مؤمن (يس) ﴿ **يا ليت قومي يعلمون** ﴾ قال ابن كثير : (قال قتادة : لا تلقى المؤمن إلا ناصحاً لا تلقاه غاشاً . لما عاين ما عاين من كرامة الله تعالى ﴿ **قال يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين** ﴾ تمنى والله أن يعلم قومه بما عاين من كرامة الله ، وما هجم عليه ، وقال ابن عباس نصح قومه في حياته بقوله ﴿ **يا قوم اتبعوا المرسلين** ﴾ وبعد مماته في قوله ﴿ **يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين** ﴾ رواه ابن أبي حاتم ، وقال سفيان الثوري عن عاصم الأحول عن أبي مجلز ﴿ **بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين** ﴾ بإيماني بربي ، وتصديق المرسلين ، ومقصوده : أنهم لو اطلعوا على ما حصل لي من الثواب والجزاء ، والنعيم المقيم ، لقادهم ذلك إلى اتباع الرسل ، فرحمه الله ورضي عنه ، فلقد كان حريصاً على هداية قومه . روى ابن أبي حاتم ... عن عبد الملك – يعني ابن عمير – قال : قال عروة بن مسعود الثقفي رضي الله عنه للنبي ﷺ : ابعثني إلى قومي أدعوهم إلى الإسلام ، فقال رسول الله ﷺ : « إني أخاف أن يقتلوك » فقال لو وجدوني نائماً ما أيقظوني ، فقال له رسول الله ﷺ : « انطلق » فانطلق فمرَّ على اللات والعزى فقال : لأصبّحنك غداً بما يسوءك فغضبت ثقيف ، فقال يا معشر ثقيف إن اللات لا لات وإن العزى لا عزى أسلموا تسلموا ، يا معشر الأحلاف ، إن العزى لا عزى ، وإن اللات لا لات ، أسلموا تسلموا ، قال ذلك ثلاث مرات فرماه رجل فأصاب أكحله فقتله ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال : « هذا مثله كمثل صاحب يس » ﴿ **قال يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين** ﴾ . وروى محمد بن إسحاق ... عن كعب الأحبار أنه ذكر له حبيب ابن زيد بن عاصم أخو بني مازن بن النجار الذي كان مسيلمة الكذاب قطعه باليمامة

حين جعل يسأله عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فجعل يقول له : أتشهد أن محمداً رسول الله ؟ فيقول نعم ثم يقول أتشهد أني رسول الله فيقول لا أسمع فيقول له مسيلمة لعنه الله : أتسمع هذا ولا تسمع ذاك ؟ فيقول نعم ، فجعل يقطعه عضواً عضواً ، كلما سأله لم يزده عن ذلك ، حتى مات في يديه ، فقال كعب حين قيل له اسمه حبيب : وكان والله صاحب يس اسمه حبيب) .

٤ - ما اسم هذه القرية ؟ لا توجد روايات عن رسولنا عليه الصلاة والسلام في هذا الشأن وإنما هناك روايات مرجعها أهل الكتاب تلقاها الكثير بالقبول ، وهي محل نظر ، ولا يترتب على الأمر عمل ، وإلا لكان الله عز وجل أو رسوله ﷺ سمى لنا ذلك . وقد حقق ابن كثير في أمر اسم القرية فقال : (وقد تقدم عن كثير من السلف أن هذه القرية هي أنطاكية ، وأن هؤلاء الثلاثة كانوا رسلاً من عند المسيح عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام ، كما نص عليه قتادة وغيره ، وهو الذي لم يذكر عن واحد من متأخري المفسرين غيره ، وفي ذلك نظر من وجوه (أحدها) أن ظاهر القصة يدل على أن هؤلاء كانوا رسل الله عز وجل ، لا من جهة المسيح عليه السلام ، كما قال تعالى : ﴿ **إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون** ﴾ إلى أن قالوا ﴿ **ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون * وما علينا إلا البلاغ المبين** ﴾ ولو كان هؤلاء من الحواريين لقالوا عبارة تناسب أنهم من عند المسيح عليه السلام ، والله تعالى أعلم ، ثم لو كانوا رسل المسيح لما قالوا لهم ﴿ **إن أنتم إلا بشر مثلنا** ﴾ . (الثاني) أن أهل أنطاكية آمنوا برسل المسيح إليهم وكانوا أول مدينة آمنت بالمسيح ، ولهذا كانت عند النصارى إحدى المدائن الأربعة اللاتي فيهن بتاركة وهنّ (القدس) لأنها بلد المسيح و (أنطاكية) لأنها أول بلد آمنت بالمسيح عن آخر أهلها و (الإسكندرية) لأن فيها اصطلحوا على اتخاذ البتاركة والمطارنة والأساقفة والقساوسة والشمامسة والرهابين . ثم (رومية) لأنها مدينة الملك قسطنطين الذي نصر دينهم وأوطده ، ولما ابتنى القسطنطينية نقلوا البترك من رومية إليها ، كما ذكره غير واحد ممن ذكر تواريخهم ، كسعيد بن بطريق وغيره من أهل الكتاب والمسلمين . فإذا تقرر أن أنطاكية أول مدينة آمنت فأهل هذه القرية ذكر الله تعالى أنهم كذبوا رسله ، وأنه أهلكهم بصيحة واحدة أخمدتهم والله أعلم . (الثالث) أن قصة أنطاكية مع الحواريين أصحاب المسيح بعد نزول التوراة ، وقد ذكر أبو سعيد الخدري رضي الله عنه وغير واحد من السلف أن الله تبارك وتعالى بعد إنزاله التوراة لم يهلك أمة من الأمم عن آخرهم بعذاب يبعثه عليهم ، بل أمر المؤمنين بعد ذلك

بقتال المشركين ، ذكروه عند قوله تبارك وتعالى ﴿ **ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى** ﴾ [القصص : ٤٣] فعلى هذا يتعين أن هذه القرية المذكورة في القرآن قرية أخرى غير أنطاكية ، كما أطلق ذلك غير واحد من السلف أيضاً . أو تكون أنطاكية إن كان لفظها محفوظاً في هذه القصة مدينة أخرى غير هذه المشهورة المعروفة ، فإن هذه لم يعرف أنها أهلكت لا في الملة النصرانية ، ولا قبل ذلك ، والله سبحانه وتعالى أعلم ، فأما الحديث الذي رواه الحافظ أبو القاسم الطبراني ... عن مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : « السبق ثلاثة : فالسابق إلى موسى عليه الصلاة والسلام يوشع بن نون ، والسابق إلى عيسى عليه الصلاة والسلام صاحب يس ، والسابق إلى محمد ﷺ علي بن أبي طالب رضي الله عنه » فإنه حديث منكر ، لا يعرف إلا من طريق حسين الأشقر وهو شيعي متروك ، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب) .

هذا تحقيق ابن كثير في اسم القرية . والذي يبدو لي أن من أسلم من علماء أهل الكتاب قرأوا في كتبهم أن أنطاكية ذهب إليها ثلاثة من تلاميذ المسيح ؛ فظنوا أن القصة يراد بها هذه الحادثة ، وتابعهم الكثير على ذلك ، وهذا من ضعف التحقيق ، فإنه لا يكفي أن تكون صلة ما بين شيء وشيء حتى نحكم أن هذا الشيء هو هو ، والذي يبدو أنّ اسم مؤمن (يس) من هذا الباب ؛ إذ إن الغالب في اسمه أنه منقول عن أهل الكتاب ، وليسوا حجة قاطعة .

قال ابن كثير : (قال ابن اسحاق فيما بلغه عن ابن عباس رضي الله عنهما وكعب الأحبار ووهب بن منبه أن أهل القرية همّوا بقتل رسلهم ، فجاءهم رجل من أقصى المدينة يسعى أي لينصرهم من قومه قالوا وهو حبيب ، وكان يعمل الحرير ، وهو الحباك ، وكان رجلاً سقيماً قد أسرع فيه الجذام ، وكان كثير الصدقة يتصدق بنصف كسبه ، مستقيم الفطرة ، وقال ابن إسحاق عن رجل سماه عن الحكم عن مقسم أو مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : اسم صاحب يس حبيب ، وكان الجذام قد أسرع فيه . وقال الثوري عن عاصم الأحول عن أبي مجلز كان اسمه حبيب ابن سري ، وقال شبيب بن بشر عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : اسم صاحب يس حبيب النجار ، فقتله قومه وقال السدي كان قصاراً ، وقال عمر بن الحكم كان إسكافاً ، وقال قتادة كان يتعبد في غار هناك) .

من هذه النقول ندرك أن تسمية مؤمن (يس) باسم (حبيب) مرجعه في الغالب

كلام أهل الكتاب الذين أعطونا تصوراً أن الرسل الثلاثة هم رسل عيسى عليه السلام ، أو من تلاميذه حتى إن بعضهم سماهم فقال هم شمعون ، ويوحنا ، والثالث بولس . وهذا كلام بعيد عن التحقيق ، فالله عز وجل أعلم أين وقعت الحادثة فإن رسل الله عز وجل كثيرون ، ولم تخل أمة من رسول ، وفي هذا العالم بلاد كثيرة عذّبت لم يشر القرآن إليها بأعيانها ، ولكن آثار عذابها لا زالت باقية شاهدة ، والقاعدة العامة هي أن كل مدينة عذبت لم تعذب إلا بعد إقامة الحجة عليها . قال تعالى : ﴿ **وما كان ربك ليهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولاً يتلو عليهم آياتنا وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون** ﴾ [القصص : ٥٩] .

فهذه بيروت يقال إنها بيروت السابعة بمعنى أن الله عز وجل زلزل بها ست مرات ، وفي كل مرة يعاد بناؤها ، وهذه (بومبي) في إيطاليا التي أهلكها الله عز وجل ببركان فيزوف المجاور ، وهي الآن عجب من العجب فعلى بابها كما حدثني من شاهد ذلك تمثال لرجل يضع الذّكر في كفة ميزان ، وفي الكفة الأخرى يوجد الذهب ، مما يدل على أن رمز المدينة القديم : الشهوة ، والمال ، وقد يرمز التمثال إلى شيء آخر ، وقد خلّف لنا البركان هياكل بشرية متحجّرة تدل على الحال الذي نزل عليها العذاب ، فهناك جسد رجل متحجّر وهو يجامع امرأة وغير ذلك من مناظر الاعتبار . أقول هذا ليعلم أن المدن التي نزل بها العذاب كثيرة . ففي سوريا مثلاً تجد أفاميا ، وتجد كثيراً من البلدان المندثرة تكشف عنها الحفريات ، وكلها مظنة عذاب ، فأن نحمل قصة المرسلين الثلاثة على أن المراد بها بلد بعينها من دون دليل بل الدليل على خلاف ذلك ، فإن هذا تسرُّع لا ينبغي أن نتعامل به مع كتاب الله عز وجل .

٥ - نادراً ما تجد خيراً أو قدوة عليا في أمة من الأمم إلا وتجد في أمتنا مثله ، فهذا عروة بن مسعود الثقفي الذي نقلنا قصته من قبل يشبه حاله حال مؤمن يس .

٦ - من قصة مؤمن يس ندرك ضلال من يظن أن القتل في سبيل الله علامة على خطأ السير أو علامة على تهوّر صاحبه ، إن القتل في سبيل الله له مردوده الكبير في العمل الإسلامي ، إنْ في نفسية الظالمين أو في نفسية المؤمنين في الدنيا والآخرة على الشهيد وعلى المسلمين بل على العالم كله .

....

ولننتقل إلى المجموعة الأولى من المقطع الثاني .

المقطع الثاني

المجموعة الأولى من المقطع الثاني

وتمتدّ من الآية (٣١) إلى نهاية الآية (٧٠) وهذه هي :

أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا
جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا
فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ
﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ
ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَءَايَةٌ
لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ
لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ
ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ
فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾
وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ
يُنقَذُونَ ۙ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ
أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ
إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ

كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ
(٤٧) وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ (٤٨) مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً
وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ (٤٩) فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ
يَرْجِعُونَ (٥٠) وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ (٥١)
قَالُوا۟ يَـٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَـٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ (٥٢)
إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ (٥٣) فَٱلْيَوْمَ لَا
تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٥٤) إِنَّ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ
ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَـٰكِهُونَ (٥٥) هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَـٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ
(٥٦) لَهُمْ فِيهَا فَـٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ (٥٧) سَلَـٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ (٥٨)
وَٱمْتَـٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ (٥٩) * أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن
لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَـٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٦٠) وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ
(٦١) وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ (٦٢) هَـٰذِهِۦ جَهَنَّمُ
ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٦٣) ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (٦٤) ٱلْيَوْمَ
نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ (٦٥)
وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ (٦٦)

وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَن
نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي ٱلْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَّمْنَاهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓ
إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى
ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾

ملاحظة في السياق :

تبدأ هذه المجموعة بقوله تعالى : ﴿ **ألم يروا** ﴾ وسنرى أن المجموعة الثانية تبدأ بـ ﴿ **أو لم يروا** ﴾ مما يشير إلى أن المجموعة الثانية معطوفة على الأولى ، ثم نرى أن المجموعة الثالثة مبدوءة بقوله تعالى : ﴿ **أو لم ير الإنسان ...** ﴾ مما يدل على أنها معطوفة على سياق الأولى والثانية . وهذا الذي جعلنا نعتبر أن ما بقي من السورة يشكّل مقطعاً واحداً ، وهذا يفيد أن الضمير في قوله تعالى : ﴿ **ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون** ﴾ يعود على العباد عامة الوارد ذكرهم في قوله تعالى : ﴿ **يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزؤون** ﴾ وهي الآية الآتية مباشرة قبل المقطع الثاني .

....

إن الهدف من السياق هم المخاطبون من هذه الأمة ، وهم الذي ورد من أجلهم قوله تعالى : ﴿ **واضرب لهم مثلاً ...** ﴾ والآن يخاطَبون بقوله تعالى : ﴿ **ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون ...** ﴾ فبعد أن بيّن المقطع الأول أن محمداً ﷺ من المرسلين ، وأنه يدعو إلى صراط الله المستقيم ، وأن الأكثرين يرفضون هذه الدعوة ، وأن الأقلّين يقبلونها ، وهم الذين اتبعوا الذكر وخافوا الله . أمر الله رسوله ﷺ أن يضرب لهم مثلاً يبعث على الخشية . والآن يخاطبهم بما يبعث الخشية ، وبما تقوم به الحجة ، وبما يبعث على العمل الذي يؤدي إلى السير . فكما أن سورة فاطر ركّزت على نقطة البداية في السّير ، فإنّ سورة (يس) تكمّل هذا الموضوع .

....

تفسير الفقرة الأولى

﴿ **ألم يروا** ﴾ أي ألم يعلم هؤلاء المرسَل إليهم ﴿ **كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لا يرجعون** ﴾ قال النسفي : (أي) ألم يروا كثرة إهلاكنا القرون من قبلهم كونهم غير راجعين إليهم . وقال ابن كثير : (أي ألم يتعظوا بمن أهلك الله قبلهم من المكذّبين للرّسل ، كيف لم يكن لهم إلى هذه الدنيا كرَّة ولا رجعة) . أقول : وفي هذا ردّ واضح على القائلين بالتناسخ أو بالدور ﴿ **وإن** ﴾ أي وما ﴿ **كلٌّ** ﴾ أي جميع الأمم الماضية والآتية ﴿ **لمَّا** ﴾ أي إلا ﴿ **جميع لدينا محضرون** ﴾ أي وما كلهم إلا محشورون مجموعون محضرون للحساب أو معذّبون . قال ابن كثير : (أي وإن جميع الأمم الماضية والآتية ستحضر للحساب يوم القيامة بين يدي الله عز وجل ، فيجازيهم بأعمالهم كلها ، خيرها وشرها .

كلمة في السياق :

بدأ المقطع الثاني بالإنذار ، وذلك بالتذكير بهلاك السابقين ، وعدم عودتهم ، وبالتذكير برجوع الخلق كلهم إلى الله عز وجل . وبعد هذه الفقرة الخالصة في التذكير ، تأتي الآن ثلاث فقرات كل منها مبدوءة بقوله تعالى : ﴿ **وآية لهم** ... ﴾ وفي ذكر الآيات في هذا السياق تدليل على قدرته تعالى على الإهلاك وعلى البعث ، كما أن في ذكر الآيات في سياق السورة ما يقوم به الدليل على الإرسال من عدة نواح سنراها .

☆ ☆ ☆

تفسير الفقرة الثانية

﴿ **وآية لهم الأرض الميتة أحييناها** ﴾ أي وعلامة تدل على أن الله يبعث الموتى إحياء الأرض اليابسة ، أو ودلالة لهم على وجود الصانع وقدرته التامة وإحيائه الموتى إحياء الأرض الهامدة ، التي لا شيء فيها من النبات ﴿ **وأخرجنا منها** ﴾ من الأرض ﴿ **حبّاً فمنه** ﴾ أي من الحب ﴿ **يأكلون** ﴾ أي جعلناه رزقاً لهم ولأنعامهم وقد قدم الجار والمجرور (فمنه) ليدل على أن جنس الحب هو الشيء الذي يتعلّق به معظم العيش ، ويقوم بالأرزاق منه صلاح الإنس ، وإذا قلّ جاء القحط ، ووقع الضرّ ، وإذاً فقد حضر الهلاك ونزل البلاء ﴿ **وجعلنا فيها** ﴾ أي في الأرض ﴿ **جنات** ﴾ أي بساتين ﴿ **من نخيل وأعناب** ﴾ لمّا امتنّ على خلقه بإيجاد الزروع لهم ، عَطَفَ بذكر الثّمار وتنوّعها ، وأصنافها بذكر أهمّها ﴿ **وفجّرنا فيها من العيون** ﴾ أي وجعلنا في الأرض أنهاراً سارحة ، وآباراً ثابتة ﴿ **ليأكلوا من ثمره** ﴾ أي ليأكلوا من ثمر الله ، أو ليأكلوا من ثمر ما مرّ ﴿ **وما عملته أيديهم** ﴾ قال ابن كثير : (أي وما ذاك كله إلا من رحمة الله تعالى بهم لا بسعيهم ولا كدّهم ، ولا بحولهم وقوتهم) . وعلى هذا فإن ابن كثير يعتبر أنّ (ما) في الآية نافية ، ورجّح غيره أن (ما) اسم موصول والتقدير ليأكلوا من ثمره ومن الذي عملته أيديهم من الغرس والسّقي والتلقيح ، وغير ذلك من الأعمال ، ليبلغ الثمر منتهاه ، يعني أن الثمر في نفسه فعل الله وخلقه ، وفيه آثار من كدّ بني آدم ﴿ **أفلا يشكرون** ﴾ الله على نعمه باتّباع رسله ﴿ **سبحان الذي خلق الأزواج كلها** ﴾ أي الأصناف كلها ﴿ **مِمّا تنبت الأرض** ﴾ أي من زروع وثمار ونبات ﴿ **ومن أنفسهم** ﴾ أي الأولاد ذكوراً وإناثاً ﴿ **ومما لا يعلمون** ﴾ أي ومن أزواج لم يطلعهم الله عليها ، ولا توصّلوا إلى معرفتها . وبهذا انتهت الفقرة الثانية من المجموعة .

نقل :

بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون** ﴾ قال صاحب الظلال :

(وهذه التسبيحة تنطلق في أوانها وفي موضعها ؛ وترتسم معها حقيقة ضخمة من حقائق هذا الوجود . حقيقة وحدة الخلق .. وحدة القاعدة والتكوين .. فقد خلق الله الأحياء أزواجاً . النبات فيها كالإنسان . ومثل ذلك غيرهما .. ﴿ **مما لا يعلمون** ﴾ . وإن هذه الوحدة لتشي بوحدة اليد المبدعة . التي توجد قاعدة التكوين مع اختلاف

الأشكال والأحجام والأنواع والأجناس ، والخصائص والسمات ، في هذه الأحياء التي لا يعلم علمها إلا الله .. ومن يدري فربما كانت هذه قاعدة الكون كله حتى الجماد ! وقد أصبح معلوماً أن الذرة - أصغر ما عرف من قبل من أجزاء المادة - مؤلفة من زوجين مختلفين من الإشعاع الكهربي ، سالب وموجب يتزاوجان ويتحدان ! كذلك شوهدت ألوف من الثنائيات النجمية . تتألف من نجمين مرتبطين يشد بعضهما بعضاً ، ويدوران في مدار واحد كأنما يوقعان على نغمة رتيبة !) .

كلمة في السياق :

يلاحظ أنه في آخر سياق الآيات قال تعالى : ﴿ **أفلا يشكرون سبحان الذي خلق الأزواج كلها** ﴾ وهذا يشير إلى أن الآية التي ذكرت في ابتداء الفقرة إنّما ذكرت لاستخراج الشكر وتنزيه الله ، وهذا فحوى كل رسالة ابتعث الله عز وجل بها رسله . فالفقرات الثلاث التي تعرض لنا آيات ثلاثاً كباراً تعرّفنا على الله عز وجل ، وعلى ضرورة شكره ، ثم إن عرض هذه الآيات في سياق هذه السورة يشير إلى أن الله عز وجل الذي فعل هذا كله للإنسان لم يفعله سدى ، ولن يترك عباده سدى ، ومن ثَمَّ أرسل الرسل الذين تحدّث عنهم في المقطع الأول من السّورة .

☆ ☆ ☆

تفسير الفقرة الثالثة

﴿ **وآية لهم الليل نسلخ منه النهار** ﴾ أي نخرج منه النهار إخراجاً لا يبقى معه شيء من ضوء النهار ، أو ننزع عنه الضوء نزع القميص الأبيض فيعرى ، أو نصرفه منه فيذهب فيقبل الليل ﴿ **فإذا هم مظلمون** ﴾ أي داخلون في الظلام . ﴿ **والشمس تجري لمستقر لها** ﴾ أي وآية لهم الشمس تسير لمستقر لها . قال الألوسي : (أي لحد معيّن تنتهي إليه من فلكها في آخر السّنة) وقال النسفي : (أو لانتهاء أمرها عند انقضاء الدنيا) ﴿ **ذلك** ﴾ أي الجري على ذلك التقدير والحساب الدقيق ﴿ **تقدير العزيز** ﴾ أي الغالب بقدرته على كل مقدور ﴿ **العليم** ﴾ بكل معلوم فهو الذي قدّر ذلك ووقّته على منوال لا اختلاف فيه ولا تعاكس ﴿ **والقمر قدَّرناه منازل** ﴾ قال ابن كثير : (أي جعلناه يسير سيراً آخر يستدل به على مضي الشهور ، كما أنّ الشمس يعرف بها الليل والنهار) . وتعرف بها السنة الشمسية . والمعنى : والقمر قدّرنا نوره منازل فيزيد وينقص ، أو قدّرنا مسيره منازل . قال النسفي : (وهي ثمانية وعشرون منزلاً ينزل القمر كل ليلة في واحد منها ، لا يتخطاه ، ولا يتقاصر عنه ، على تقدير مستوٍ يسير فيها من ليلة المستهل ، إلى الثامنة والعشرين ، ثم يستتر ليلتين ، أو ليلة إذا نقص الشهر ﴿ **حتى عاد كالعرجون القديم** ﴾ أي فإذا كان آخر منازل القمر دقّ واستقوس حتى عاد كقضيب النّخل إذا يبس واعوجّ وتقادم . قال النسفي : (إذا قدم دق وانحنى واصفر ، فشبّه القمر به من ثلاثة أوجه) ﴿ **لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر** ﴾ قال النسفي : (أي لا يتسهل لها ولا يصح ولا يستقيم أن تدرك القمر فتجتمع معه في وقت واحد وتداخله في سلطانه فتطمس نوره . لأن لكل واحد من النيّرين سلطاناً على حياله ؛ فسلطان الشمس بالنهار ، وسلطان القمر بالليل) قال قتادة في الآية : يعني أن لكل منهما سلطاناً فلا ينبغي للشمس أن تطلع بالليل ﴿ **ولا الليل سابق النهار** ﴾ قال الضحاك : لا يذهب الليل من ههنا حتى يجيء النهار من ههنا . وقال مجاهد : يطلبان حثيثين يسلخ أحدهما من الآخر . قال ابن كثير : (والمعنى في هذا : أنه لا فترة بين الليل والنهار ، بل كل منهما يعقب الآخر بلا مهلة ، ولا تراخ ؛ لأنهما مسخّران دائبان ، يتطالبان طلباً حثيثاً) ﴿ **وكل في فلك يسبحون** ﴾ قال ابن كثير : (يعني الليل والنهار ، والشمس والقمر ، كلهم يسبحون أي يدورون في فلك السماء ، قاله ابن عباس وعكرمة والضحاك والحسن وقتادة وعطاء الخراساني) . وقال النسفي في ﴿ **يسبحون** ﴾ أي يسيرون .

نقول :

١ - قال صاحب الظلال عند قوله تعالى ﴿ **وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون** ﴾ : (ومشهد قدوم الليل ، والنور يختفي والظلمة تغشى .. مشهد مكرور يراه الناس في كل بقعة في خلال أربع وعشرين ساعة (فيما عدا بعض المواقع التي يدوم فيها النهار كما يدوم فيها الليل أسابيع وأشهراً قرب القطبين في الشمال والجنوب) وهو مع تكراره اليومي عجيبة تدعو إلى التأمل والتفكير .

والتعبير القرآني عن هذه الظاهرة - في هذا الموضع - تعبير فريد . فهو يصور النهار ملتبساً بالليل ؛ ثم ينزع الله النهار من الليل فإذا هم مظلمون . ولعلنا ندرك شيئاً من سر هذا التعبير الفريد حين نتصور الأمر على حقيقته . فالأرض الكروية في دورتها حول نفسها في مواجهة الشمس تمر كل نقطة منها بالشمس ؛ فإذا هذه النقطة نهار ؛ حتى إذا دارت الأرض وانزوت تلك النقطة عن الشمس ، انسلخ منها النهار ولفها الظلام - وهكذا تتوالى هذه الظاهرة على كل نقطة بانتظام ، وكأنما نور النهار ينزع أو يسلخ فيحل محله الظلام . فهو تعبير مصور للحقيقة الكونية أدق تصوير) .

....

٢ - وقال صاحب الظلال عند قوله تعالى : ﴿ **والشمس تجري لمستقر لها** ﴾ :

والشمس تدور حول نفسها ، وكان المظنون أنها ثابتة في موضعها الذي تدور فيه حول نفسها ، ولكن عرف أخيراً أنها ليست مستقرة في مكانها ، إنما هي تجري فعلاً ، تجري في اتجاه واحد في الفضاء الكوني الهائل بسرعة حسبها الفلكيون باثني عشر ميلاً في الثانية . والله ربها الخبير بها وبجريانها وبمصيرها يقول : (إنها تجري لمستقر لها) . هذا المستقر الذي ستنتهي إليه لا يعلمه إلا هو سبحانه ولا يعلم بوعده سواه .

وحين نتصور أن حجم هذه الشمس يبلغ نحو مليون ضعف لحجم أرضنا هذه وأن هذه الكتلة الهائلة تتحرك وتجري في الفضاء لا يسندها شيء ، ندرك طرفاً من صفة القدرة التي تصرف هذا الوجود عن قوة وعن علم . ﴿ **ذلك تقدير العزيز العليم** ﴾ .

....

٣ - وقال صاحب الظلال عند قوله تعالى : ﴿ **والقمر قدّرناه منازل حتى عاد**

كالعرجون القديم ﴾ :

(والعباد يرون القمر في منازله تلك . يولد هلالاً . ثم ينمو ليلة بعد ليلة حتى يستدير بدراً . ثم يأخذ في التناقص حتى يعود هلالاً مقوساً كالعرجون القديم . والعرجون : هو العذق الذي يكون فيه البلح من النخلة .

والذي يلاحظ القمر ليلة بعد ليلة يدرك ظل التعبير القرآني العجيب : ﴿ **حتى عاد كالعرجون القديم** ﴾ .. وبخاصة ظل ذلك اللفظ ﴿ **القديم** ﴾ فالقمر في لياليه الأولى هلال . وفي لياليه الأخيرة هلال .. ولكنه في الأولى يبدو وكأن فيه نضارة وفتوة . وفي الأخيرة يطلع وكأنما يغشاه سهوم ووجوم ، ويكسوه شحوب وذبول . ذبول العرجون القديم ! فليست مصادفة أن يعبر القرآن الكريم عنه هذا التعبير الموحي العجيب !

والحياة مع القمر ليلة بعد ليلة تثير في الحس مشاعر وخواطر ندية ثرية موحية عميقة . والقلب البشري الذي يعيش مع القمر دورة كاملة ، لا ينجو من تأثرات واستجابات ، ومن سبحات مع اليد المبدعة للجمال والجلال ؛ المدبرة للأجرام بذلك النظام . سواء كان يعلم سر هذه المنازل والأشكال القمرية المختلفة أو لا يعلم . فالمشاهدة وحدها كفيلة بتحريك القلب ، واستجاشة الشعور ، وإثارة التدبر والتفكير) .

٤ – وقال صاحب الظلال في الآية الأخيرة من الفقرة :

(وأخيراً يقرر دقة النظام الكوني الذي يحكم هذه الأجرام الهائلة ، ويرتب الظواهر الناشئة عن نظامها الموحد الدقيق :

﴿ **لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار ، وكلٌّ في فلك يسبحون** ﴾ . ولكل نجم أو كوكب فلك ، أو مدار ، لا يتجاوزه في جريانه أو دورانه . والمسافات بين النجوم والكواكب مسافات هائلة . فالمسافة بين أرضنا هذه وبين الشمس تقدر نحو ثلاثة وتسعين مليوناً من الأميال . والقمر يبعد عن الأرض بنحو أربعين ومئتي ألف من الأميال .. وهذه المسافات على بعدها ليست شيئاً يذكر حين تقاس إلى بعد ما بين مجموعتنا الشمسية وأقرب نجم من نجوم السماء الأخرى إلينا . وهو يقدر بنحو أربع سنوات ضوئية . وسرعة الضوء تقدر بستة وثمانين ومئة ألف من الأميال في الثانية الواحدة ! (أي إن أقرب نجم إلينا يبعد عنا بنحو مئة وأربعة مليون

مليون ميل !) .

وقد قدر الله خالق هذا الكون الهائل أن تقوم هذه المسافات الهائلة بين مدارات النجوم والكواكب . ووضع تصميم الكون على هذا النحو ليحفظه بمعرفته من التصادم والتصدع - حتى يأتي الأجل المعلوم - فالشمس لا ينبغي لها أن تدرك القمر . والليل لا يسبق النهار ، ولا يزحمه في طريقه ، لأن الدورة التي تجيء بالليل والنهار لا تختل أبداً فلا يسبق أحدهما الآخر أو يزحمه في الجريان ! .

﴿ **وكلٌّ في فلك يسبحون** ﴾ . وحركة هذه الأجرام في الفضاء الهائل أشبه بحركة السفين في الخضم الفسيح . فهي مع ضخامتها لا تزيد على أن تكون نقطاً سابحة في ذلك الفضاء المرهوب .

وإن الإنسان ليتضاءل ويتضاءل ، وهو ينظر إلى هذه الملايين التي لا تحصى من النجوم الدوارة ، والكواكب السيارة . متناثرة في الفضاء ، سابحة في ذلك الخضم ، والفضاء من حولها فسيح فسيح وأحجامها الضخمة تافهة في ذلك الفضاء الفسيح !!) .

* * *

كلمة في السياق :

عرض علينا ربنا في هذه الفقرة ما يستوجب شكره وتنزيهه ، وعليهما مدار دعوة الرسل عليهم الصلاة والسلام . فالسورة كلها تستحث الإنسان ليتّبع رسل الله ﷺ . فالله عز وجل الذي فعل هذا كله للإنسان ينبغي أن يطاع بطاعة رسله واتّباعهم .

☆ ☆ ☆

تفسير الفقرة الرابعة

﴿ **وآية لهم أنّا حملنا ذريّتهم في الفلك المشحون** ﴾ أي المملوء والمراد بالذرية الأولاد ، ومن يهمّهم حمله ﴿ **وخلقنا لهم من مثله** ﴾ أي من مثل الفلك ﴿ **ما يركبون** ﴾ في البر ﴿ **وإن نشأ نغرقهم** ﴾ في البحر ﴿ **فلا صريخ** ﴾ أي مغيث أو فلا إغاثة ﴿ **لهم ولا هم ينقذون** ﴾ أي ينجون مما أصابهم ﴿ **إلا رحمة منا ومتاعاً إلى حين** ﴾ أي إلّا لرحمة منا ولتمتيع بالحياة إلى انقضاء الأجل ، قال ابن كثير : (ولكن برحمتنا نسيّركم في البرّ والبحر ونسلمكم إلى أجل مسمّى) وبهذا انتهت الفقرات الثلاث التي عرضت ثلاث آيات كبار من آيات الله عزّ وجلّ .

....

كلمة في السياق :

لنتذكر محور السورة : ﴿ **تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين** ﴾ لاحظ الصلة بين قوله تعالى : ﴿ **تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق** ﴾ وبين قوله تعالى ههنا : ﴿ **وآية لهم** ﴾ ﴿ **وآية لهم** ﴾ ﴿ **وآية لهم** ﴾ وإذا تذكرنا الطاسينات الثلاث ، نجد أن الكلام عن الآيات فيها واضح ، فمثلاً لاحظنا أن قوله تعالى : ﴿ **إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين** ﴾ قد تكرّر مراراً في سورة الشعراء وفي سورة النّمل وورد ذكر الآيات أكثر من مرة ﴿ **إن في ذلك لآية لقوم يعلمون** ﴾ . ﴿ **إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون** ﴾ . وقد بدأت الطاسينات كلها بذكر الآيات وهكذا نجد كل سورة محورها الآية المذكورة في سورة البقرة تحدثنا عن الآيات ، وتعطينا نماذج جديدة من آيات الله عز وجل التي يتلوها علينا في هذا القرآن وهذه سورة يس تذكّرنا بثلاث كبار من آيات الله عز وجل ، كل آية منها تنطوي على آيات . فإذا تذكّرنا آية المحور ﴿ **تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين** ﴾ ندرك أنّ لذكر الآيات صلة بموضوع الرسالة ، وهو الشيء الذي يشهد له السياق . فالله عز وجل بعد أن قرر في المقطع الأول رسالة رسولنا عليه الصلاة والسلام ، وحذّر من مخالفته فإنّه يذكّر بهذا المقطع بما يدعو إلى الإيمان به وبما يوصل إلى الإيمان برسوله وقبول نذارته ، يدلّ على هذا الفقرة اللاحقة من هذه المجموعة إذ تقول : ﴿ **وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم لعلكم ترحمون * وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين** ﴾ فبعد أن ذكرت في الفقرات الثلاث الماضية

الآيات المذكورة بيّن الله عز وجل أنهم مع كل هذه الآيات إذا دعوا إلى التقوى لا يستجيبون ... فلنر الفقرة الخامسة في المجموعة .

تفسير الفقرة الخامسة

﴿ **وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم** ﴾ أي اتقوا ما تقدم من ذنوبكم وما تأخّر ، أو اتقوا من مثل الوقائع التي ابتليت بها الأمم المكذّبة بأنبيائها وما خلفكم من أمر الساعة ، أو اتقوا عذاب الله في الدنيا والآخرة ﴿ **لعلكم ترحمون** ﴾ أي لعلَّ الله – باتقائكم ذلك – يرحمكم ويؤمّنكم من عذابه ﴿ **وما تأتيهم من آية من آيات ربهم** ﴾ الدالّة على التوحيد ، وصدق الرسل ﴿ **إلا كانوا عنها معرضين** ﴾ أي لا يتأملونها ولا يقبلونها ولا ينتفعون بها . أي دأبهم الإعراض عن كل آية وموعظة ، دلّت الآية على أنّهم قابلوا الدّعوة إلى التقوى بالإعراض ﴿ **وإذا قيل لهم** ﴾ أي للكافرين ﴿ **أنفقوا مما رزقكم الله** ﴾ أي تصدّقوا على الفقراء ﴿ **قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه** ﴾ يقولون : أيفقره الله ونطعمه نحن . قال ابن كثير : (أي هؤلاء الذين أمرتمونا بالإنفاق عليهم ، لو شاء الله لأغناهم ، ولأطعمهم من رزقه ، فنحن نوافق مشيئة الله تعالى فيهم) ﴿ **إن أنتم إلا في ضلال مبين** ﴾ أي في أمركم لنا بذلك ﴿ **ويقولون متى هذا الوعد** ﴾ أي وعد البعث والقيامة ﴿ **إن كنتم صادقين** ﴾ أيها المؤمنون .

كلمة في السياق :

من مجيء هذه الفقرة بعد الفقرات الثلاث المصدرة كل منها بقوله تعالى : ﴿ **وآية لهم** ﴾ نعلم أنّ رؤية الآيات المذكورة يقتضي تقوى ، ويقتضي إنفاقاً ، ويقتضي إيماناً باليوم الآخر . ولكن الكافرين يرفضون التقوى مع التذكير بها ، ويرفضون الإنفاق مع التذكير به ، ويستبعدون في كل حال موضوع اليوم الآخر ، عرفنا ذلك من مجيء الفقرة الأخيرة بعد الفقرات الثلاث . ومن السّياق نعرف أن رؤية آيات الله من قبل المؤمنين تجعلهم يأمرون غيرهم بالتقوى ، والإنفاق ، والإيمان باليوم الآخر . فرؤيتهم للآيات جعلتهم يؤمنون ويدعون غيرهم للإيمان . فالتذكير بالآيات يستتبع – عند المؤمنين – سلوكاً ، والكافرون لا يرفعون بشيء من ذلك رأساً ، ولا يفقهون قولاً ، وها هو السياق فيما يأتي يذكّر هؤلاء وغيرهم بمشاهد من يوم القيامة ثم تختم المجموعة بالعودة إلى موضوع الرسول والإنذار . فلنعرض ما بقي من المجموعة .

﴿ **ما ينظرون** ﴾ أي ما ينتظرون ﴿ **إلا صيحة واحدة** ﴾ قال النسفي : هي النفخة الأولى ﴿ **تأخذهم وهم يخصِّمون** ﴾ قال النسفي : والمعنى : تأخذهم وبعضهم يخصم بعضاً في معاملاتهم ﴿ **فلا يستطيعون توصية** ﴾ أي أن يوصوا في شيء من أمورهم ﴿ **ولا إلى أهلهم يرجعون** ﴾ أي ولا يقدرون على الرجوع إلى منازلهم . ويرى ابن كثير أن هذه هي نفخة الفزع ، ثم تكون نفخة الصعق ، ثم تكون نفخة البعث ﴿ **ونفخ في الصور** ﴾ قال النسفي : هي النفخة الثانية . وقال ابن كثير : هذه النفخة الثالثة وهي نفخة البعث والنشور للقيام من الأجداث والقبور ﴿ **فإذا هم من الأجداث** ﴾ أي القبور ﴿ **إلى ربهم ينسلون** ﴾ أي يعْدون ، قال ابن كثير : والنّسلان : هو المشي السريع ﴿ **قالوا** ﴾ أي الكفار ﴿ **يا ويلنا من بعثنا** ﴾ أي من أنشرنا ﴿ **من مرقدنا** ﴾ أي مضجعنا . قال ابن كثير : (وهذا لا ينفي عذابهم في قبورهم ، لأنه بالنسبة إلى ما بعده في الشدة كالرّقاد . قال أُبيّ بن كعب رضي الله عنه ، ومجاهد والحسن وقتادة : ينامون نومة قبل البعث . قال قتادة : وذلك بين النفختين فلذلك يقولون ﴿ **من بعثنا من مرقدنا** ﴾ فإذا قالوا ذلك أجابهم المؤمنون ، قاله غير واحد من السلف) ﴿ **هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون** ﴾ . قال ابن كثير : (وقال الحسن إنما يجيبهم بذلك الملائكة ولا منافاة إذ الجمع ممكن والله سبحانه وتعالى أعلم . وقال عبد الرحمن بن زيد : الجميع من قول الكفار ... نقله ابن جرير واختار الأول وهو أصح) .

كلمة في السياق :

في قوله تعالى : ﴿ **هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون** ﴾ ما يشير إلى أن السياق الرئيسي للسورة يصب في موضوع تصديق الرسل ، وقد ذكرنا أن محور السورة هو قوله تعالى : ﴿ **وإنك لمن المرسلين** ﴾ .

....

﴿ **إن كانت إلا صيحة واحدة** ﴾ قال النسفي : النفخة الأخيرة ﴿ **فإذا هم جميع لدينا محضرون** ﴾ للحساب .

كلمة في السياق :

نلاحظ أن الآية الثانية من هذه المجموعة هي قوله تعالى : ﴿ **وإن كلٌّ لما جميع لدينا محضرون** ﴾ وههنا جاء قوله تعالى : ﴿ **إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون** ﴾ فكأن الشيء الذي ذكر في مقدمة المجموعة يأخذ الآن مداه في التفصيل ، وما بين ذلك ورد قوله تعالى : ﴿ **وآية لهم** ﴾ ... ﴿ **وإذا قيل لهم** ... ﴾ ليكون ما ذكر في الوسط تدليلاً على وقوع ما سيقع وإقامة حجة .

....

﴿ **فاليوم لا تظلم نفس شيئاً** ﴾ . قال ابن كثير : أي من عملها ﴿ **ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون** ﴾ هذه قاعدة الحساب ﴿ **إن أصحاب الجنة اليوم** ﴾ أي يوم القيامة ﴿ **في شُغُل** ﴾ عن غيرهم بما هم فيه من النعيم المقيم والفوز العظيم ﴿ **فاكهون** ﴾ قال النسفي : الفاكه والفكه : المتنعم المتلذذ ، وشغل أهل الجنة فسره النسفي فقال : وهو افتضاض الأبكار على شط الأنهار تحت الأشجار ، أو ضرب الأوتار أو ضيافة الجبار . قال ابن كثير : (يخبر تعالى عن أهل الجنة أنهم يوم القيامة إذا ارتحلوا من العرصات فنزلوا في روضات الجنات أنهم في شغل عن غيرهم بما هم فيه من النعيم المقيم والفوز العظيم) ﴿ **هم وأزواجهم** ﴾ قال مجاهد : أي وحلائلهم ﴿ **في ظلال** ﴾ قال ابن كثير : أي في ظلال الأشجار ﴿ **على الأرائك متكئون** ﴾ فهم في غاية المتعة واللذة والراحة ﴿ **لهم فيها فاكهة** ﴾ من جميع الأنواع ﴿ **ولهم ما يدّعون** ﴾ قال ابن كثير : أي مهما طلبوا وجدوا من جميع أصناف الملاذّ ﴿ **سلام قولاً من رب رحيم** ﴾ قال النسفي : والمعنى أن الله يسلّم عليهم بواسطة الملائكة أو بغير واسطة تعظيماً لهم وذلك متمنّاهم ، ولهم ذلك لا يمنعونه وأما الكافرون فيقال لهم ﴿ **وامتازوا اليوم أيها المجرمون** ﴾ أي وانفروا عن المؤمنين وكونوا على حدة ﴿ **ألم أعهد إليكم يا بني آدم** ﴾ فيما ركزته فيكم من أدلة العقل ، وأنزلته عليكم من دلائل السمع ﴿ **ألا تعبدوا الشيطان** ﴾ أي ألا تطيعوه فيما يوسوس به إليكم ، ويزيّنه لكم ﴿ **إنه** ﴾ أي الشيطان ﴿ **لكم عدو مبين** ﴾ أي واضح العداوة ظاهرها ﴿ **وأن اعبدوني** ﴾ أي وحّدوني وأطيعوني ﴿ **هذا** ﴾ أي طاعة الرحمن ومعصية الشيطان ﴿ **صراط مستقيم** ﴾ أي صراط بليغ في استقامته ولا صراط أقوم منه ﴿ **ولقد أضل منكم جِبلاً كثيراً** ﴾ أي خلقاً كثيراً ﴿ **أفلم تكونوا تعقلون** ﴾ هذا استفهام تقريع على

تركهم الانتفاع بالعقل . دلّ هذا على أن من لم يصل إلى الإيمان لا يكون مستعملا عقله استعمالاً صحيحاً ﴿ **هذه جهنم التي كنتم توعدون** ﴾ بها . أي هذه التي حذّرتكم الرسل فكذبتموهم ﴿ **اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون** ﴾ أي ادخلوها بكفركم وإنكاركم لها ﴿ **اليوم نختم على أفواههم** ﴾ أي نمنعهم من الكلام ﴿ **وتكلّمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون** ﴾ قال ابن كثير : (هذه حال الكفار والمنافقين يوم القيامة ، حين ينكرون ما اجترموه في الدنيا ، ويحلفون ما فعلوه ، فيختم الله على أفواههم ، ويستنطق جوارحهم بما عملت) ﴿ **ولو نشاء لطمسنا على أعينهم** ﴾ أي لأعميناهم وأذهبنا أبصارهم ﴿ **فاستَبقُوا الصراط** ﴾ أي فاستبقوا إلى الصراط ﴿ **فأنّىٰ يبصرون** ﴾ أي فكيف يبصرون حينئذ ، وقد طمسنا أعينهم . وهل هذه الآية استمرارٌ للكلام عن الآخرة ، أو انتقل الكلام إلى خطابهم في الدنيا ؟ لم يذكر ابن كثير إلا الثاني فهي خطاب لهم في الدنيا . وعلى هذا فالمراد بالصراط : الحق ، وعلى هذا يكون معنى الآية : ولو نشاء لأضللناهم عن الهدى ، فكيف يهتدون ﴿ **ولو نشاء لمسخناهم** ﴾ قردة أو خنازير أو حجارة ﴿ **على مكانتهم** ﴾ أي على مكانهم . أي لمسخناهم في منازلهم حيث يجترحون المآثم ﴿ **فما استطاعوا مُضِيّاً** ﴾ أمامهم ﴿ **ولا يرجعون** ﴾ خلفهم أي فلم يقدروا على ذهاب ولا مجيء ﴿ **ومن نعمِّره ننكّسه في الخلق** ﴾ أي نقلبه فيه . بمعنى من أطلنا عمره نكّسنا خلقه فصار بدل القوة ضعفاً ، وبدل الشباب هرماً ، وذلك أنا خلقناه على ضعف في جسده وخلو من عقل وعلم ، ثم جعلناه يتزايد إلى أن يبلغ أشده ويستكمل قوته ويعقل ويعلم ماله وما عليه ، فإذا انتهى نكّسناه في الخلق ، فجعلناه يتناقص حتى يرجع إلى حال شبيهة بحال الصبيّ في ضعف جسده ، وقلّة عقله ، وخلوّه من العلم ﴿ **أفلا يعقلون** ﴾ أن من قدر على أن ينقلهم من الشباب إلى الهرم ، ومن القوّة إلى الضعف ، ومن رجاحة العقل إلى الخرف ، وقلة التمييز ، قادر على أن يطمس على أعينهم ، ويمسخهم على مكانتهم ، ويبعثهم بعد الموت ﴿ **وما علَّمناه الشعر** ﴾ أي وما علمنا النبي ﷺ أن يقول الشعر ﴿ **وما ينبغي له** ﴾ أي وما يصح له ، ولا يليق بحاله ، وبالتالي فإن القرآن ليس من جنس الشعر ﴿ **إن هو** ﴾ أي القرآن ﴿ **إلا ذكر** ﴾ من الله يوعظ به الإنس والجن ﴿ **وقرآن مبين** ﴾ أي بيّن واضح جلي لمن تدبّره وتأمّله . قال النسفي : (وما هو إلا قرآن كتاب سماوي يقرأ في المحاريب ، ويتلى في المتعبدات ، وينال بتلاوته والعمل به فوز الدارين ، فكم بينه وبين الشعر) ﴿ **لينذر** ﴾ القرآن أو الرسول ﷺ ﴿ **من كان حيّاً** ﴾ أي

عاقلاً متأمّلاً - لأن الغافل كالميّت - أو حياً بالقلب ﴿ **ويحق القول** ﴾ أي وتجب كلمة العذاب ﴿ **على الكافرين** ﴾ الذين لا يتأمّلون وهم في حكم الأموات . قال ابن كثير : أي هو رحمة للمؤمنين وحجّة على الكافرين .

كلمة في السياق :

١ - نلاحظ أن آخر هذه المجموعة هو قوله تعالى : ﴿ **إن هو إلا ذكر وقرآن مبين * لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين** ﴾ ونلاحظ أنه قبل قوله تعالى : ﴿ **واضرب لهم مثلاً** ﴾ من المقطع الأول ورد قوله تعالى : ﴿ **وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون * إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب فبشره بمغفرة وأجر كريم * إنا نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم وكل شيء أحصيناه في إمام مبين** ﴾ وهذا يفيد أن ما ورد بين هذه الآيات كان إنذاراً ، وقد شمل هذا الإنذار فقرة ضرب المثل ، وشمل فقرة ﴿ **أو لم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون ...** ﴾ وشمل فقرات ﴿ **وآية لهم** ﴾ وشمل فقرة ﴿ **ما ينظرون ...** ﴾ وشمل فقرة ﴿ **ولو نشاء لطمسنا على أعينهم** ﴾ مما يشير إلى أن أنواع الإنذار لا تفيد مع الكافرين الذين توافرت فيهم صفات معينة فههنا قد ذكر من أنواع الإنذار الكثير ، الإنذار بضرب المثل ، والإنذار بذكر العبر من التاريخ ، والإنذار بذكر الآيات ، والإنذار بالأمر العملي المباشر ، والإنذار بعرض مشاهد اليوم الآخر ، والإنذار ببأس الله وعقابه ، واستقرّ السياق على أن غير الأحياء لا يستفيدون .

٢ - إن مجيء قوله تعالى في آخر المجموعة الأولى من المقطع الأول : ﴿ **إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب فبشّره بمغفرة وأجر كريم** ﴾ ومجيء قوله تعالى : ﴿ **لتنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين** ﴾ في آخر المجموعة الأولى من المقطع الثاني يدلنا على أن إحدى الآيتين تفسر الأخرى ؛ فالحي هو من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب . قال ابن كثير : (وإنما ينتفع بنذارته من هو حي القلب مستنير البصيرة ، وقال قتادة : حي القلب حي البصيرة) ومن ثَمَّ فعلى الذين يشتغلون بالتربية أن يبدأوا بإحياء القلب فذلك الذي يجعل الإنسان يتّبع القرآن وعندئذ تبدأ التربية الكاملة على كل معاني الكتاب والسنة . وقد رأيت الناس في عصرنا قسمين : قسم يربون ويعتبرون أن مهمتهم تنتهي عند تربية القلب وإحيائه ، ولا يعطون تعليم الكتاب والسنة الشريفة بعد ذلك الأهمية التي تستحقها ، وقسم لا يعرفون شيئاً عن موضوع

إحياء القلب ويشتغلون في تعليم الفقه أو غيره ، وينتهي دورهم عند هذا الحد . وهذا وهذا قصور عن التربية القرآنية والطريقة المحمدية . راجع كتاب (تربيتنا الروحية) .

٣ - نلاحظ أنه بعد قوله تعالى في نهاية المقطع الأول : ﴿ **إنما تنذر من اتّبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب فبشِّره بمغفرة وأجر كريم** ﴾ ورد قوله تعالى : ﴿ **إنا نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدّموا وآثارهم وكل شيء أحصيناه في إمام مبين** ﴾ ثمّ استقرّ السياق على قوله تعالى : ﴿ **لينذر من كان حياً** ﴾ وهذا يفيد ضمناً أنّ إحياء القلوب على الله ، والله يتولاه ، ولكن لا بدّ من الأسباب : المنذِر بنذارته ، والمنذَر ببذل الجهد ، والله عزّ وجل هو الذي يتولّى عملية الإحياء ، ومن ثمّ فإن على الدعاة إلى الله أن يلاحظوا هذا ، فيعقدوا حلقات الوعظ ، ويدعوا الناس إليها ، وعلى الناس أن يحضروا ، وعلى الدعاة ألا يهملوا الوعظ أبداً في كل حال ، وعلى الناس أن يسمعوا . والتقصير في هذا يؤدي إلى فقدان حياة القلوب وبالتالي إلى ضعف الإسلام .

٤ - فيما يتعلق بصلة المجموعة الأخيرة بمحور السورة أصبحت واضحة فالمحور يقول : ﴿ **تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين** ﴾ والمجموعة ترسم الطريق للاستجابة إلى المرسلين من خلال الإنذار والتبشير ، فهي تعليم للمرسلين ، وإنذار للمرسل إليهم ، وتبشير للمستجيبين .

٥ - لنلاحظ أخيراً أن بداية المجموعة كانت : ﴿ **ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لا يرجعون * وإن كل لما جميع لدينا محضرون** ﴾ .

وأن نهاية المجموعة كانت : ﴿ **ولو نشاء لطمسنا على أعينهم فاستبقوا الصراط فأنى يبصرون * ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم فما استطاعوا مضياً ولا يرجعون * ومن نعمِّره ننكِّسه في الخلق أفلا يعقلون** ﴾ .

ذكّرهم أولاً بهلاك القرون الخالية ، ثم ذكّرهم أخيراً بقدرته على طمس أعينهم ومسخهم ، وذكر لهم ما يعتبرون به وهو أن من عُمِّر نكّس في الخلق ، مما يدل على قدرته جل شأنه على أن يفعل بهم ما هددهم به ، وما بين البداية والنهاية كانت جولات في التذكير ، وإقامة الحجة ، حتى إذا نضج القلب الحي في التذكير ، انصب الكلام عن الرسول ﷺ والقرآن فجاء قوله تعالى : ﴿ **وما علّمناه الشعر** ... ﴾ تأمّل صلة ذلك ببداية السورة : ﴿ **إنك لمن المرسلين** ﴾ ﴿ **لتنذر قوماً** ... ﴾ إنّ الصّلة على أشدّها بين

المحور والسورة كلها ، وبين السورة ومقاطعها ومجموعاتها وفقراتها ، وقد بقيت معنا مجموعتان من المقطع الثاني ، ونؤثر أن نؤخر الكلام عنهما إلى ما بعد ذكر بعض فوائد المجموعة الأولى من المقطع الثاني .

فوائد :

١ - في قوله تعالى : ﴿ **سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون** ﴾ معجزة من معجزات هذا القرآن الكثيرة ؛ إذ تتحدث عن معنى يستحيل على أحد من البشر أن يتكلم فيه ساعة نزول هذا القرآن ، مما يدلّ دلالة قطعية على أن هذا القرآن من عند الله عز وجل .

٢ - رأينا أن قوله تعالى : ﴿ **والشمس تجري لمستقر لها** ﴾ معناه تجري إلى يوم القيامة ، وهناك قراءة أخرى ذكرها ابن كثير قال : (وقرأ ابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهما (والشمس تجري لا مستقر لها) أي لا قرار لها ولا سكون ، بل هي سائرة ليلاً ونهاراً لا تفتر ولا تقف كما قال تبارك وتعالى : ﴿ **وسخّر لكم الشمس والقمر دائبين** ﴾ أي لا يفتران ولا يقفان إلى يوم القيامة) .

أقول : وفي هذه القراءة الثانية كذلك معجزة من معجزات القرآن ، فالحديث عن الشمس والقمر حديث علم محيط لا يمكن أن يكون إلا من المحيط علماً بكل شيء .

٣ - بمناسبة الكلام عن الشمس والقمر في السورة نجد كلاماً كثيراً للمفسرين ، منه الخطأ ومنه الصواب ، لأن المفسّرين يفسرون هذا القرآن بقدر ثقافتهم من ثقافة عصرهم ، ولا شك أن ثقافة أي عصر تتقاصر عن أن تسع هذا القرآن ، وفي هذا المقام ذكر ابن كثير حديث أبي ذر في موضوع سجود الشمس واستئذانها ، وطلوعها من مغربها قبل يوم القيامة وهو موضوع حققناه في آخر سورة الأنعام ، فلا نعود إليه ، وتحدثنا في أكثر من مكان في هذا التفسير عن موضوع سير الشمس وحركتها ، وعن موضوع دوران الأرض وحركتها ، وأن دوران الأرض لا يعني ثبوت الشمس ، كما صوّره بعضهم ، وتحدّثنا بأن للشمس ثلاث حركات : حركة مع مجرتها ، وحركة حول نفسها ، وحركة نحو كوكبة الجاثي هي ومجموعتها الشمسية ولعلها هي المرادة هنا بقوله تعالى : ﴿ **والشمس تجري لمستقر لها** ﴾ وإنّ في قوله تعالى : ﴿ **لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون** ﴾ ما يدل على

أن الشمس والقمر والأرض - التي هي محل الليل والنهار - كل هذه الأشياء في حالة حركة .

٤ - في قوله تعالى : ﴿ **ولا الليل سابق النهار** ﴾ إشارة إلى تعاقبهما واستحالة انعدام واحد منهما في نظام هذا الكون ، فتقرير هذا المعنى هنا ، وتقرير أن الليل يطلب النهار في سورة الأعراف يؤكد ما ذهبنا إليه هناك وبرهنّا عليه ، بأن في آية الأعراف إشارة إلى موضوع دوران الأرض .

٥ - في قوله تعالى : ﴿ **وآية لهم أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون وخلقنا لهم من مثله ما يركبون** ﴾ مظهر من مظاهر الإعجاز القرآني بل من هذا النّص ندرك كيف أن الإعجاز القرآني يسع العصور ، فالفلك هي السفن ، والسفن تصنع من خشب وحديد ، أو من حديد فقط ، ومما يشبه السفن من وسائل حديثة تسير في البر السيارات والقطارات والدبابات والطائرات وهي لم تكن موجودة في زمن نزول الوحي ، وقد أشار النص القرآني إليها بقوله ﴿ **من مثله** ﴾ أي من مثل السفن ، ومن ثَمَّ قال تعالى : ﴿ **حملنا ذريتهم** ﴾ فذرية المخاطبين الأول في القرآن هي التي اجتمع لها ركوب السفن ، وركوب المثل الكامل لها وهي وسائل النقل الحديثة في عصرنا ، ومما يؤكد أن المراد بذلك هو وسائل النقل الحديثة هو أن التصريح بالمركوبات القديمة سيأتي فيما بعد في المجموعة الثانية ، إذ يحدثنا الله عز وجل عن الأنعام فيقول : ﴿ **فمنها ركوبهم ومنها يأكلون** ﴾ .

وعلى هذا فالآية فيها معجزة غيبية ، وفيها ما يدلّ على أنّ منزِّل هذا القرآن هو الذي وسع علمه الزمان والمكان . وقد يقول قائل إن قوله عز وجل ﴿ **وخلقنا** ﴾ يدل على المضي نقول : إن الماضي قد يراد به المستقبل في القرآن للدلالة على تأكيد وقوعه كقوله تعالى : ﴿ **أتى أمر الله** ﴾ ثم الوسائل المعاصرة ستكون ماضية بالنسبة لما يأتي من الزمن . ثم إن النص القرآني جاء بصيغة يرى فيها أهل كل عصر آية ، فالمخاطبون الأوائل في القرآن حملوا النص على المراد به الإبل والخيل ، وأمثال ذلك إذ المثلية متحققة من وجه من الوجوه ، هو وجه الركوب ، وهذا مظهر من مظاهر استيعاب النص القرآني للزمان والمكان وهكذا نلاحظ أنّ الله عز وجل في الفقرات الثلاثة التي حدّثنا فيها عن آياته ﴿ **وآية لهم** ﴾ ﴿ **وآية لهم** ﴾ ﴿ **وآية لهم** ﴾ قد عرض لنا آياته في الكون في صيغة هي في نفسها آيات ، فتأمّل هذه الظاهرة وصلتها بقوله تعالى في محور السورة

﴿ **تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين** ﴾ .

٦ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله . قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه إن أنتم إلا في ضلال مبين** ﴾ نقول : دل هذا النص على أن الكفر معدن الشحّ ، وأنّ الحياة البشرية بدون إيمان لا يمكن أن يقوم فيها نظام اقتصادي متراحم متعاطف . ومن ثَمَّ نلاحظ في كل من النظامين العالميين الحاليين الشيوعي والرأسمالي أن التكافل لا يقوم إلا بسيف القانون ، أما في النظام الإسلامي فسيف التشريع قائم ، ومع ذلك فللتراحم البشري وللتعاطف محله ، وبدون ذلك لا تستقيم الحياة البشرية ، فسيف القانون لا يطول كلّ الأحوال ، والتراحم والتعاطف لا يكفيان في كل الحالات .

٧ - ذكرنا أن ابن كثير حمل قوله تعالى : ﴿ **ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون** ﴾ على أن المراد بذلك النفخة الأولى وهي واحدة من ثلاث نفخات كائنات قال : (والله أعلم وهذه نفخة الفزع ، ينفخ في الصور نفخة الفزع والناس في أسواقهم ومعايشهم يختصمون ويتشاجرون على عادتهم ، فبينما هم كذلك إذ أمر الله عز وجل إسرافيل فنفخ في الصور نفخة ، يطولها ويمدها ، فلا يبقى أحد على وجه الأرض إلا أصغى ليتاً ، ورفع ليتاً - وهي صفحة العنق - ؛ يتسمّع الصوت من قبل السماء ، ثم يساق الموجودون من الناس إلى محشر يوم القيامة بالنار ، تحيط بهم من جوانبهم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ **فلا يستطيعون توصية** ﴾ أي على ما يملكونه ، الأمر أهم من ذلك ﴿ **ولا إلى أهلهم يرجعون** ﴾ وقد وردت ههنا آثار وأحاديث ذكرناها في موضع آخر ، ثم يكون بعد هذه نفخة الصعق التي تموت بها الأحياء كلهم ما عدا الحي القيوم ثم بعد ذلك نفخة البعث) .

٨ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **لهم فيها فاكهة ولهم ما يدّعون** ﴾ . قال ابن كثير : (روى ابن أبي حاتم ... عن كريب أنه سمع أسامة بن زيد رضي الله عنهما يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : « ألا هل مشمر إلى الجنة ؟ فإن الجنة لا خطر لها هي ورب الكعبة نور كلها يتلألأ ، وريحانة تهتز ، وقصر مشيد ؛ ونهر مطرد ، وثمرة نضيجة ، وزوجة حسناء جميلة ، وحلل كثيرة ، ومقام في أبد في دار سلامة ، وفاكهة خضرة ، وخيرة ونعمة ، في محلة عالية بهية » قالوا : نعم يا رسول الله نحن المشمرون لها . قال ﷺ : « قولوا إن شاء الله » فقال القوم : إن شاء الله ، وكذا

رواه ابن ماجه في كتاب الزهد من سننه من حديث الوليد بن مسلم عن محمد ابن مهاجر به) .

٩ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **ألم أعهد إليكم يا بني آدم ...** ﴾ قال ابن كثير : (روى ابن جرير عن محمد بن كعب القرظي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إذا كان يوم القيامة أمر الله تعالى جهنم فيخرج منها عنق ساطع مظلم يقول : ﴿ **ألم أعهد إليكم يا بني آدم ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين * وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم * ولقد أضل منكم جِبِلاً كثيراً أفلم تكونوا تعقلون * هذه جهنم التي كنتم توعدون** ﴾ ﴿ **وامتازوا اليوم أيها المجرمون** ﴾ فيتميز الناس ويجثون ، وهي التي يقول الله عز وجل : ﴿ **وترى كل أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون** ﴾ » [الجاثية : ٢٨]) .

١٠ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **اليوم نختم على أفواههم وتكلّمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون** ﴾ قال ابن كثير : (روى ابن أبي حاتم عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : كنا عند النبي صلى الله عليه وآله وسلم فضحك حتى بدت نواجذه ثم قال ﷺ : « أتدرون مم أضحك ؟ » قلنا : الله ورسوله أعلم ، قال ﷺ : « من مجادلة العبد ربه يوم القيامة ، يقول : رب ألم تجرني من الظلم ؟ فيقول : بلى ، فيقول لا أجيز علي إلا شاهداً من نفسي ، فيقول : كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً ، وبالكرام الكاتبين شهوداً ، فيختم على فيه ، ويقال لأركانه : انطقي بعمله ، ثم يخلى بينه وبين الكلام ، فيقول : بعداً لكنَّ وسحقاً ، فعنكنّ كنت أناضل » وقد رواه مسلم والنسائي كلاهما ... عن سفيان هو الثوري به . ثم قال النسائي لا أعلم أحداً روى هذا الحديث عن سفيان غير الأشجعي وهو حديث غريب والله تعالى أعلم . كذا قال . وقد تقدم من رواية أبي عامر عن عبد الملك بن عمرو الأسدي وهو العقدي عن سفيان . وروى عبد الرزاق عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : « إنكم تدعون مفدماً على أفواهكم بالفدام ، فأول من يسئل عن أحدكم فخذه وكفاه » رواه النسائي عن محمد بن رافع عن عبد الرزاق به ، وروى سفيان ابن عيينة عن أبيه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ في حديث القيامة الطويل قال فيه : « ثم يلقى الثالث فيقول ما أنت ؟ فيقول : أنا عبدك آمنت بك وبنبيك وبكتابك ، وصمت وصليت وتصدقت ، يثني بخير ما استطاع » قال : « فيقال

له : « ألا نبعث عليك شاهدنا ؟ » قال : « فيفكر في نفسه من الذي يشهد عليه فيختم على فيه ، ويقال لفخذه انطقي » قال : « فينطق فخذه ولحمه وعظامه بما كان يعمل ، وذلك المنافق ، وذلك ليعذر من نفسه ، ذلك الذي يسخط الله تعالى عليه » رواه مسلم وأبو داود من حديث سفيان بن عيينة به بطوله) .

١١ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وما علّمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين** ﴾ كتب ابن كثير تحقيقاً حول موضوع الشعر في حياة الرسول ﷺ ، وختمه بالإشارة إلى كون الشعر منه المباح ، ومنه المندوب ، وهذا هو كلام ابن كثير في هذا المقام :

(﴿ **وما علّمناه الشعر وما ينبغي له** ﴾ أي ما هو في طبعه فلا يحسنه ولا يحبه ، ولا تقتضيه جبلته ، ولهذا ورد أنه ﷺ كان لا يحفظ بيتاً على وزن منتظم ، بل إن أنشده زحّفه ، أو لم يتمّه ، وروى أبو زرعة الرازي ... إسماعيل بن مجالد عن أبيه عن الشعبي أنّه قال : ما ولد عبد المطلب ذكراً ولا أنثى إلا يقول الشعر ، إلا رسول الله ﷺ . ذكره ابن عساكر في ترجمة عتبة بن أبي لهب الذي أكله الأسد بالزرقاء . روى ابن أبي حاتم ... عن الحسن هو البصري قال : إن رسول الله ﷺ كان يتمثل بهذا البيت : (كفى بالإسلام والشيب للمرء ناهياً) . فقال أبو بكر رضي الله عنه : يا رسول الله : (كفى الشيب والإسلام للمرء ناهياً) . قال أبو بكر أو عمر رضي الله عنهما أشهد أنك رسول الله ، يقول تعالى : ﴿ **وما علّمناه الشعر وما ينبغي له** ﴾ وهكذا روى البيهقي في الدلائل أن رسول الله ﷺ قال للعباس بن مرداس السلمي رضي الله عنه أنت القائل : (أتجعل نهبي ونهب العبيد بين الأقرع وعيينة) . فقال : إنما هو بين عيينة والأقرع . فقال ﷺ : « الكل سواء » يعني في المعنى ، صلوات الله وسلامه عليه والله أعلم . وقد ذكر السهيلي في الروض الأنف لهذا التقديم والتأخير الذي وقع في كلامه ﷺ في هذا البيت مناسبة أغرب فيها ، حاصلها شرف الأقرع بن حابس على عيينة بن بدر الفزاري لأنه ارتد أيام الصديق رضي الله عنه ، بخلاف ذلك والله أعلم ، وهكذا روى الأموي في مغازيه أن رسول الله ﷺ جعل يمشي بين القتلى يوم بدر وهو يقول : « نفلق هاماً » فيقول الصديق رضي الله عنه متمماً للبيت :

.... من رجال أعزة　　　علينا وهم كانوا أعق وأظلما

وهذا لبعض شعراء العرب في قصيدة له وهي في الحماسة . وروى الإمام أحمد ...

عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ إذا استراب الخبر تمثل فيه ببيت طرفة : (ويأتيك بالأخبار من لم تزود) وهكذا رواه النسائي في اليوم والليلة من طريق إبراهيم بن مهاجر عن الشعبي عنها . ورواه الترمذي والنسائي أيضاً من حديث المقدام ابن شريح بن هانىء عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها كذلك ثم قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح . وروى الحافظ أبو بكر ... عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان رسول الله ﷺ يتمثل من الأشعار : (ويأتيك بالأخبار من لم تزود) ثم قال : ورواه غير زائدة عن سماك عن عطية عن عائشة رضي الله عنها وهذا في شعر طرفة بن العبد في معلقته المشهورة وهذا المذكور عجز بيت منها أوله :

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً ويأتيك بالأخبار من لم تزود
ويأتيك بالأخبار من لم تبع له بتاتاً ولم تضرب له وقت موعد

وقال سعيد بن عروة عن قتادة قيل لعائشة رضي الله عنها هل كان رسول الله ﷺ يتمثل بشيء من الشعر ؟ قالت رضي الله عنها : كان أبغض الحديث إليه ، غير أنه ﷺ كان يتمثل ببيت أخي بني قيس ، فيجعل أوله آخره وآخره أوله ، فقال أبو بكر رضي الله عنه : ليس هذا هكذا يا رسول الله ، فقال رسول الله ﷺ : « إني والله ما أنا بشاعر وما ينبغي لي » رواه ابن أبي حاتم وابن جرير وهذا لفظه وقال معمر عن قتادة : بلغني أن عائشة رضي الله عنها سئلت هل كان رسول الله ﷺ يتمثّل بشيء من الشعر ؟ فقالت رضي الله عنها : لا إلا بيت طرفة :

ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً ويأتيك بالأخبار من لم تزود

فجعل ﷺ يقول : « من لم تزود بالأخبار » فقال أبو بكر ليس هذا هكذا فقال ﷺ : « إني لست بشاعر ولا ينبغي لي » وروى الحافظ أبو بكر البيهقي بسنده عن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت : ما جمع رسول الله ﷺ بيت شعر قط إلا بيتاً واحداً :

تفاءل بما تهوى يكن فقلما يقال لشيء كان إلا تحققا

سألت شيخنا الحافظ أبا الحجاج المزي عن هذا الحديث فقال هو منكر ، ولم يعرف شيخ الحاكم ولا الضرير (وهما من رجال إسناده) وثبت في الصحيح أنه ﷺ تمثّل يوم حفر الخندق بأبيات عبد الله بن رواحة رضي الله عنه ، ولكن تبعاً لقول

أصحابه رضي الله عنهم ، فإنهم كانوا يرتجزون وهم يحفرون فيقولون :

لاهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينة علينا وثبت الأقدام إن لاقينا
إن الأولى قد بغوا علينا إذا أرادوا فتنة أبينا

ويرفع ﷺ صوته بقوله أبينا ويمدها وقد روى هذا بزحاف في الصحيحين أيضاً . وكذا ثبت أنه ﷺ قال يوم حنين وهو راكب البغلة يقدم بها في نحور العدو :

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب

لكن قالوا هذا وقع اتفاقاً من غير قصد لوزن شعر ، بل جرى على اللسان من غير قصد إليه ، وكذلك ما ثبت في الصحيحين عن جندب بن عبد الله رضي الله عنه قال : كنا مع رسول الله ﷺ في غار فنكبت أصبعه فقال ﷺ :

هل أنت إلا أصبع دميت وفي سبيل الله ما لقيت

وسيأتي عند قوله تعالى ﴿ **إلا اللمم** ﴾ إنشاد :

إن تغفر اللهم تغفر جماً وأي عبد لك ما ألما

وكل هذا لا ينافي كونه ﷺ ما علم الشعر ، ولا ينبغي له ؛ فإن الله تعالى إنما علمه القرآن العظيم ﴿ **الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد** ﴾ وليس هو بشعر كما زعمه طائفة من جهلة كفار قريش ، ولا كهانة ، ولا مفتعل ، ولا سحر يؤثر ، كما تنوعت فيه أقوال الضلال وآراء الجهال ، وقد كانت سجيته ﷺ تأبى صناعة الشعر طبعاً وشرعاً ، كما رواه أبو داود عن عبد الرحمن بن رافع الفتوحي قال : سمعت عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما أبالي ما أوتيت إن أنا شربت ترياقاً ، أو تعلقت تميمة ، أو قلت الشعر من قبل نفسي » تفرد به أبو داود ، وروى الإمام أحمد رحمه الله ... عن أبي نوفل قال : سألت عائشة رضي الله عنها هل كان رسولُ الله ﷺ بسائغ عنده الشعر ؟ فقالت : قد كان أبغض الحديث إليه وقال : عن عائشة رضي الله عنها كان رسول الله ﷺ يعجبه الجوامع من الدعاء ، ويدع ما بين ذلك ، وروى أبو داود ... عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ : « لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحاً خير له من أن يمتلىء شعراً » انفرد به من هذا الوجه ، وإسناده على شرط الشيخين ولم يخرجاه . وروى

الإمام أحمد عن أبي الأشعث عن شداد بن أوس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من قرض بيت شعر بعد العشاء الآخرة لم تقبل له صلاة تلك الليلة » وهذا حديث غريب من هذا الوجه ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة ، والمراد بذلك نظمه لا إنشاده والله أعلم ، على أن الشعر فيه ما هو مشروع وهو هجاء المشركين الذي كان يتعاطاه شعراء الإسلام ، كحسان بن ثابت رضي الله عنه ، وكعب بن مالك ، وعبد الله بن رواحة ، وأمثالهم وأضرابهم رضي الله عنهم أجمعين ، ومنه ما فيه حِكَم ومواعظ وآداب ، كما يوجد في شعر جماعة من الجاهلية ومنهم : أمية بن أبي الصلت الذي قال فيه رسول الله ﷺ : « آمن شعره وكفر قلبه » وقد أنشد بعض الصحابة رضي الله عنهم للنبي ﷺ مائة بيت يقول ﷺ عقب كل بيت « هيه » يعني يستطعمه فيزيده من ذلك ، وقد روى أبو داود من حديث أبي بن كعب وبريدة بن الخصيب وعبد الله بن عباس رضي الله عنهم أن رسول الله ﷺ قال : « إن من البيان سحراً وإن من الشعر حكماً ») .

١٢ - رأينا أثناء الكلام عن السياق الصلة بين قوله تعالى : ﴿ **إنا نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدّموا وآثارهم** ... ﴾ وبين قوله تعالى : ﴿ **لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين** ﴾ إذ قلنا : إن في ذكر إحياء الله الموتى في سياق السورة إشارة إلى إحيائه القلوب . قال ابن كثير : (وفيه إشارة إلى أن الله تعالى يحيي قلب من يشاء من الكفار ، الذين قد ماتت قلوبهم بالضّلالة فيهديهم بعد ذلك إلى الحق ، كما قال تعالى بعد ذكر قسوة القلوب ﴿ **اعلموا أن الله يحيي الأرض بعد موتها قد بيّنّا لكم الآيات لعلّكم تعقلون** ﴾) .

١٣ - إن علينا أن نلاحظ أثناء قراءتنا لكتب التفسير صلة كلام المفسرين بتصوراتهم وثقافاتهم ، وثقافات عصورهم ، فإن كلامهم أحياناً لا يخلو عن خطأ في بعض المواطن ، وخاصة عندما يتحدثون عن الكون بمناسبة ذكر القرآن لمظهر من مظاهر الكون ، إذ ثقافة عصورهم المحدودة تجعلهم يفهمون بعض النصوص على ضوء ثقافة عصرهم ، ولو كان خطأ ، وقد رأينا أكثر من مرّة كيف يسع النص القرآني الزمان والمكان ، وكيف أن فيه من مظاهر الإعجاز ما لا يحاط به ، وإنما نقول هذا ليتنبه القارىء على أنّ أقوال النّاس ليست حجة على كتاب الله ، بل كتاب الله عز وجل هو الحجة على أقوال الناس ، والحاكم عليها . وفي عصرنا يحاول الكثيرون من الكافرين أن

يشككوا بكتاب الله عز وجل ، من خلال عرض ما قاله هذا المفسر أو ذاك ، فيستدلون بخطأ المفسر على خطأ القرآن ، لعنهم الله عز وجل .

وبهذه المناسبة نقول : إنه لا يجوز أن نتردد إطلاقاً في فهم النص القرآني على ضوء الحقيقة العلمية ، على شرط أن تكون حقيقة علمية ، أما الفرضيات والنظريات فعلينا أن نحتاط في حمل النّص القرآني عليها .



المجموعة الثانية من المقطع الثاني

وتمتدّ من الآية (٧١) إلى نهاية الآية (٧٦) وهذه هي :

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾
وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ
وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ
﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ
إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾

ملاحظة في السياق :

ذكرنا من قبل أن المجموعة الأولى من المقطع الثاني بدأت بقوله تعالى : ﴿ **ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لا يرجعون** ﴾ .

وأن المجموعة الثانية مبدوءة بقوله تعالى : ﴿ **أو لم يروا** ﴾ لاحظ الواو العاطفة ، فالمجموعة الثانية معطوفة على المجموعة الأولى ، ومكمّلة لها ، إلا أن المجموعة الأولى يغلب عليها استثارة الخوف ، وهذه يغلب عليها استثارة الشكر ، وهما نقطتا البداية في السير إلى الله .

....

التفسير :

﴿ **أو لم يروا** ﴾ أي أو لم ير العباد ﴿ **أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا** ﴾ أي مما تولينا نحن إحداثه ، ولم يقدر على توليه غيرنا ﴿ **أنعاماً فهم لها مالكون** ﴾ أي خلقناها لأجلهم فملّكناها إياهم فهم متصرّفون فيها تصرّف الملّاك ، مختصّون بالانتفاع بها ، أو فهم لها ضابطون قاهرون ﴿ **وذلّلناها لهم** ﴾ أي وصيّرناها منقادة لهم ، فتمّت

الاستفادة منها بتذليله سبحانه وتعالى وتسخيره ﴿ **فمنها ركوبهم** ﴾ أي ما يركب ﴿ **ومنها يأكلون** ﴾ أي سخّرناها لهم ليركبوا ظهرها ويأكلوا لحمها . قال ابن كثير : (جعلهم يقهرونها وهي ذليلة لهم لا تمتنع منهم . بل لو جاء صغير إلى بعير لأناخه ، ولو شاء لأقامه وساقه وذاك ذليل منقاد معه ، وكذا لو كان القطار مائة بعير أو أكثر لسار الجميع بسير الصغير) . وهي مع هذا للركوب والأكل ﴿ **ولهم فيها منافع** ﴾ من الجلود والأوبار وغير ذلك ﴿ **ومشارب** ﴾ أي : من ألبانها طازجة ومخثرة ﴿ **أفلا يشكرون** ﴾ الله فيوحّدونه ويتّبعون رسله ويعملون بأمره ويجتنبون نهيه بدلاً من أن يشركوا ﴿ **واتخذوا من دون الله آلهة لعلّهم ينصرون** ﴾ أي لعل آلهتهم تنصرهم إذا حزبهم أمر ﴿ **لا يستطيعون نصرهم** ﴾ قال ابن كثير : (أي لا تقدر الآلهة على نصر عابديها ، بل هي أضعف من ذلك وأقلّ وأذلّ وأحقر وأدحر ، بل لا تقدر على الاستنصار لأنفسها ولا الانتقام ممن أرادها بسوء لأنها جماد لا تسمع ولا تعقل) ﴿ **وهم لهم جند محضرون** ﴾ قال قتادة : والمشركون يغضبون للآلهة في الدنيا وهي لا تسوق إليهم خيراً ولا تدفع عنهم شراً . إنما هي أصنام . أي إن المشركين أعطوا الأصنام الجندية الكاملة ؛ متصورين أن هذه الآلهة تنصرهم وليس الأمر كذلك ، فلو أنهم أعطوا هذه الجندية الكاملة لله الذي يملك النصر ويملك النّفع والضرّ لكان هذا هو الصراط المستقيم . قال النسفي في الآية : (أي الكفار للأصنام أعوان وشيعة يخدمونهم ويذبّون عنهم ، أو اتخذوهم لينصروهم عند الله ، ويشفعوا لهم ، والأمر على خلاف ما توهّموا حيث هم يوم القيامة جند معدّون لهم محضرون لعذابهم ، لأنهم يجعلون وقود النار) ﴿ **فلا يحزنك قولهم** ﴾ أي تكذيبهم لك وكفرهم بالله . قال النسفي : يعني فلا يهمّك تكذيبهم وأذاهم وجفاؤهم ﴿ **إنا نعلم ما يسرُّون** ﴾ من عداوتهم ﴿ **وما يعلنون** ﴾ وإنا مجازوهم عليه فحق مثلك أن يتسلّى بهذا الوعيد ، ويستحضر في نفسه صورة حاله وحالهم في الآخرة ، حتى ينقشع عنه الهمّ ولا يرهقه الحزن . قال ابن كثير : (أي نحن نعلم جميع ما هم فيه وسنجزيهم وصفهم ، ونعاملهم على ذلك ، يوم لا يفقدون من أعمالهم جليلاً ولا حقيراً ، ولا صغيراً ولا كبيراً . بل يعرض عليهم جميع ما كانوا يعملون قديماً وحديثاً) .

كلمة في السياق :

بعد أن وعظهم الله عز وجل وذكّرهم في المجموعة الأولى بمجموعة أمور كما رأينا .

تأتي هذه المجموعة فتذكّرهم بنعم الله عليهم استخراجاً لشكرهم ، إلا أن السياق بيّن لنا أنهم مع هذا يشركون شركاً بيّن الخطأ ، ظاهر الخطل ، ومع ذلك يخلصون له كامل الإخلاص ، وأمام هذا الخطل الكبير ، أمر الله رسوله ﷺ ألا يحزن على ذلك لأن الله مطّلع عليهم وسيجازيهم .

فائدتان :

١ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **إنا نعلم ما يسرّون وما يعلنون** ﴾ يتحدث النسفي عن موضوع هو : لو أن إنساناً فتح همزة (إنا) هل تبطل صلاته . يذهب النسفي : إلى أنه لا تبطل صلاته راداً على من زعم ذلك ، لأنها في هذه الحالة يمكن أن تفيد التعليل أو غير ذلك من الأوجه التي لا تبطل معها الصلاة .

٢ - الظاهر من قوله تعالى : ﴿ **أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً** ﴾ أن الأنعام مخلوقة مباشرة بيد الله عز وجل ، مما يشير إلى بطلان نظرية التطور في مثل هذا .

☆ ☆ ☆

المجموعة الثالثة والأخيرة من المقطع الثاني

وتمتدّ من الآية (٧٧) إلى نهاية السورة أي إلى نهاية الآية (٨٣) وهذه هي :

أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ۖ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾

التفسير :

﴿ **أو لم ير الإنسان** ﴾ الذي ينكر البعث . قال ابن كثير : للجنس يعم كل منكر للبعث ﴿ **أنّا خلقناه من نطفة** ﴾ حقيرة ضعيفة مهينة ﴿ **فإذا هو خصيم مبين** ﴾ أي بيّن الخصومة . قال النسفي : (أي فهو على مهانة أصله ، ودناءة أوّله ، يتصدّى لمخاصمة ربه ، وينكر قدرته على إحياء الميت ، بعد ما رمّت عظامه ، ثم يكون خصامه في ألزم وصف وألصقه به ، وهو كونه منشأً من موات ، وهو ينكر إنشاءه من موات ، وهو غاية المكابرة) . قال ابن كثير : (أي أو لم يستدل من أنكر البعث بالبدء على الإعادة ؛ فإن الله ابتدأ خلق الإنسان من سلالة من ماء مهين ، فخلقه من شيء حقير ضعيف مهين ... فالذي خلقه من هذه النطفة الضعيفة أليس بقادر على إعادته بعد موته) ﴿ **وضرب لنا** ﴾ أي هذا الإنسان الكافر المنكر للبعث ﴿ **مثلاً** ﴾ بفتّه العظم واستبعاده أن يعيد الله خلق الإنسان بعد تفرقه ﴿ **ونسي خلقه** ﴾ من المني فهو أغرب

من إحياء العظم ﴿ **قال من يحيي العظام وهي رميم** ﴾ الرميم : اسم لما بلي من العظام . قال ابن كثير : (أي استبعد إعادة الله تعالى ذي القدرة العظيمة التي خلقت السمٰوات والأرض للأجساد والعظام الرميمة ، ونسي نفسه ، وأن الله تعالى خلقه من العدم إلى الوجود ، فعلم من نفسه ما هو أعظم مما استبعده وأنكره وجحده) . ولهذا قال عز وجل : ﴿ **قل يحييها الذي أنشأها** ﴾ أي خلقها ﴿ **أوّل مرّة** ﴾ أي ابتداءً ﴿ **وهو بكل خلق** ﴾ أي مخلوق ﴿ **عليم** ﴾ لا يخفى عليه شيء ، ومن ذلك أجزاء الحي بعد موته ، فإنها - وإن تفرقت في البر والبحر - يجمعه الله ويعيده كما كان . قال ابن كثير : أي يعلم العظام في سائر أقطار الأرض وأرجائها ، أين ذهبت ، وأين تفرَّقت وتمزقت ﴿ **الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون** ﴾ قال قتادة : الذي أخرج هذه النار من هذه الشجرة ، قادر على أن يبعثه ، وقال ابن كثير : (أي الذي بدأ خلق هذا الشجر من ماء حتى صار خضراً نضراً ، ذا ثمر وينع ، ثم أعاده إلى أن صار حطباً يابساً توقد به النار ، كذلك هو فعّال لما يشاء ، قادر على ما يريد ، لا يمنعه شيء) . ثم بيَّن تعالى أن من قدر على خلق السمٰوات والأرض مع عظم شأنهما فهو على إعادة خلق الأناسي أقدر ﴿ **أو ليس الذي خلق السمٰوات والأرض بقادرٍ على أن يخلق مثلهم** ﴾ قال ابن كثير : أي مثل البشر فيعيدهم كما بدأهم ﴿ **بلى** ﴾ أي قُل : بلى ﴿ **وهو الخلّاق** ﴾ أي الكثير المخلوقات ﴿ **العليم** ﴾ أي الكثير المعلومات ﴿ **إنما أمره** ﴾ أي شأنه ﴿ **إذا أراد** ﴾ أن يكوِّن ﴿ **شيئاً أن يقول له كن فيكون** ﴾ أي فيحدث . قال ابن كثير : (أي إنما يأمر بالشيء أمراً واحداً ، لا يحتاج إلى تكرار وتأكيد) . قال النسفي : (أي فهو كائن موجود لا محالة) . ثم ختم الله عز وجل السورة بقوله : ﴿ **فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء** ﴾ أي ملك كل شيء ﴿ **وإليه ترجعون** ﴾ أي تعادون بعد الموت بلا فوت . قال ابن كثير : (أي تنزيه وتقديس وتبرئة من السوء للحي القيوم الذي بيده مقاليد السموات والأرض ، وإليه يرجع الأمر كله وله الخلق والأمر ، وإليه ترجع العباد يوم المعاد ، فيجازي كل عامل بعمله ، وهو العادل المنعم المتفضل) .

نقل :

قال صاحب الظلال عند قوله تعالى : ﴿ **أو ليس الذي خلق السمٰوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ؟ بلى وهو الخلّاق العليم** ﴾ :

(والسماوات والأرض خلق عجيب هائل دقيق .. هذه الأرض التي نعيش عليها ويشاركنا ملايين الأجناس والأنواع ، ثم لا نبلغ نحن شيئاً من حجمها ، ولا شيئاً من حقيقتها ، ولا نعلم عنها حتى اليوم إلا القليل .. هذه الأرض كلها تابع صغير من توابع الشمس التي تعيش أرضنا الصغيرة على ضوئها وحرارتها .. وهذه الشمس واحدة من مئة مليون في المجرة الواحدة التي تتبعها شمسنا ، والتي تؤلف دنيانا القريبة ! وفي الكون مجرات أخرى كثيرة . أو دنييات كدنيانا القريبة . عد الفلكيون حتى اليوم منها مئة مليون مجرة بمناظيرهم المحدودة . وهم في انتظار المزيد كلما أمكن تكبير المناظير والمراصد . وبين مجرتنا أو دنيانا والمجرة التالية لها نحو خمسين وسبع مئة ألف سنة ضوئية (السنة الضوئية تقدر بستة وعشرين مليون مليون من الأميال !) .. وهناك كتل ضخمة من السدم التي يظن أنه من نثارها كانت تلك الشموس . وهذا هو الجزء الذي يدخل في دائرة معارفنا الصغيرة المحدودة !

تلك الشموس التي لا يحصيها العد . لكل منها فلك تجري فيه . ولمعظمها توابع ذات مدارات حولها كمدار الأرض حول الشمس .. وكلها تجري وتدور في دقة وفي دأب . لا تتوقف لحظة ولا تضطرب . وإلا تحطم الكون المنظور واصطدمت هذه الكتل الهائلة السابحة في الفضاء الوسيع .

هذا الفضاء الذي تسبح فيه تلك الملايين التي لا يحصيها العد ، كأنها ذرات صغيرة . لا نحاول تصويره ولا تصوره .. فذلك شيء يدير الرؤوس !

﴿ **أو ليس الذي خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ؟** ﴾ .

وأين الناس من ذلك الخلق الهائل العجيب ؟ ﴿ **بلى ! وهو الخلاق العليم** ﴾) .

كلمة في سياق المجموعة والمقطع :

انصبّ الكلام في المجموعة الأخيرة على إقامة الدليل على مجيء اليوم الآخر ، لأن الإنذار والقيام بالتكليف ، والقيام بالشكر ، مرجعه كله إلى الإيمان باليوم الآخر ، كما فصّلت ذلك سورة سبأ من قبل ، وبهذا تكامل الإنذار في المقطع الثاني . بدأ المقطع الثاني بلفت النظر إلى هلاك الماضين ، ثم ثنّى في سياقه الرئيسي بلفت النظر إلى النعمة ، ثم ثلّث بلفت النظر إلى ما يوجب الإيمان باليوم الآخر . ومن ثَمَّ كانت بداية المجموعات :

﴿ **ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لا يرجعون** ﴾ .

﴿ **أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً فهم لها مالكون** ﴾ .

﴿ **أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين ...** ﴾ .

فوائد :

١ - في سبب نزول المجموعة الأخيرة قال ابن كثير :

(قال مجاهد وعكرمة وعروة بن الزبير والسدي وقتادة : جاء أُبَي بن خلف - لعنه الله - إلى رسول الله ﷺ وفي يده عظم رميم ، وهو يفته ، ويذروه في الهواء ، وهو يقول : يا محمد أتزعم أن الله يبعث هذا ؟ قال صلى الله عليه وآله وسلم : « نعم يميتك الله تعالى ثم يبعثك ثم يحشرك إلى النار » ونزلت هذه الآيات من آخر يس ﴿ **أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة** ﴾ إلى آخرهن ، وروى ابن أبي حاتم بسنده عن سعيد ابن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : إن العاص بن وائل أخذ عظماً من البطحاء ففتَّه بيده ، ثم قال لرسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم : أيحيي الله هذا بعد ما أرى ؟ فقال رسول الله ﷺ : « نعم يميتك ثم يحييك ثم يدخلك جهنم » قال : نزلت الآيات من آخر يس ، ورواه ابن جرير من غير طريق ابن عباس رضي الله عنهما) .

٢ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين** ﴾ قال ابن كثير : (روى الإمام أحمد في مسنده ... عن بشر بن جحاش قال : إن رسول الله ﷺ بصق يوماً في كفه فوضع عليها أصبعه ثم قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم : « قال الله تعالى يا بني آدم أنى تعجزني وقد خلقتك من مثل هذه ، حتى إذا سوّيتك وعدلتك مشيت بين برديك وللأرض منك وئيد ، فجمعت ومنعت ، حتى إذا بلغت التراقي قلت : أتصدق وأنىٰ أوان الصدقة ؟ » ورواه ابن ماجه) .

٣ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **قل يحييها الذي أنشأها أول مرة** ﴾ قال ابن كثير : (روى الإمام أحمد بسنده أنه قال عقبة بن عمرو لحذيفة رضي الله عنهما : ألا تحدثنا ما سمعت من رسول الله ﷺ فقال : سمعته صلى الله عليه وآله وسلم يقول : « إن رجلاً حضره الموت فلما يئس من الحياة أوصى أهله إذا أنا مت فاجمعوا لي حطباً كثيراً جزلاً ، ثم

أوقدوا فيه ناراً ، حتى إذا أكلت لحمي ، وخلصت إلى عظمي فامتحشت ، فخذوها فدقّوها فذروها في اليم ، ففعلوا فجمعه الله تعالى إليه ثم قال له : لم فعلت ذلك ؟ قال من خشيتك ، فغفر الله عز وجل له » فقال عقبة بن عمرو : وأنا سمعته صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم يقول ذلك وكان نباشاً . وقد أخرجاه في الصحيحين من حديث عبد الملك بن عمير بألفاظ كثيرة منها أنه أمر بنيه أن يحرقوه ، ثم يسحقوه ، ثم يذروا نصفه في البر ، ونصفه في البحر في يوم رائح - أي كثير الهواء - ففعلوا ذلك ، فأمر الله تعالى البحر فجمع ما فيه ، وأمر البر فجمع ما فيه ، ثم قال له : كن فإذا هو رجل قائم ، فقال له ما حملك على ما صنعت ؟ قال : مخافتك وأنت أعلم ؛ فما تلافاه أن غفر له) .

٤ - هناك اتجاه آخر غير الذي ذكرناه في قوله تعالى : ﴿ **الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً** ﴾ ذكره ابن كثير ووجه على ضوئه النسفي الآية . قال ابن كثير : (وقيل المراد بذلك شجر المرخ والعفار ينبت في أرض الحجاز فيأتي من أراد قدح نار وليس معه زناد فيأخذ منه عودين أخضرين ، ويقدح أحدهما بالآخر ، فتتولد النار من بينهما كالزناد سواء ، وروي هذا عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وفي المثل : لكل شجر نار واستمجد المرخ والعفار ، وقال الحكماء في كل شجر نار إلا العناب) .

قال النّسفي :

(ذكر من بدائع خلقه انقداح النار من الشجر الأخضر مع مضادة النار للماء ، وانطفائها به ، وهي الزناد التي توري بها الأعراب ، وأكثرها من المرخ والعفار وفي أمثالهم في كل شجر نار ، واستمجد المرخ والعفار ،لأن المرخ :شجر سريع الورى ، والعفار شجر تقدح منه النار ، يقطع الرجل منهما غصنين مثل السواكين ، وهما خضراوان ، يقطر منهما الماء فيسحق المرخ - وهو ذكر - على العفار - وهي أنثى - فتنقدح النار بإذن الله ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما : ليس من شجرة إلا وفيها النار ، إلا العناب لمصلحة الدق للثياب ، فمن قدر على جمع الماء والنار في الشجر قدر على المعاقبة بين الموت والحياة في البشر ، وإجراء أحد الضدين على الآخر بالتعقيب أسهل في العقل من الجمع معاً بلا ترتيب) .

أقول : العنّاب لا نار فيه بمعنى : أنك مهما حككته ببعضه لا يتولّد منه نار وليس

المعنى أنّه لا يحترق ، بدليل ما نقله النسفي في شأنه (إلا العتاب لمصلحة الدّق للثياب) .

٥ – يفرق الصوفية في مصطلحاتهم بين الملك والملكوت . فيريدون بالملك عالم الحس ، ويريدون بالملكوت عالم المعنى وهو مصطلح خاص بهم ، أما لفظتا الملك والملكوت في الكتاب والسنة فلا فارق بينهما ، إلا من حيث إن زيادة الواو والتاء تفيد المبالغة كما قال النسفي ، وقد حقق ابن كثير هذا المقام فقال :

(فالملك والملكوت واحد في المعنى كرحمة ورحموت ، ورهبة ورهبوت ، وجبر وجبروت ، ومن الناس من زعم أن الملك هو عالم الأجسام ، والملكوت هو عالم الأرواح ، والصحيح الأول ، وهو الذي عليه الجمهور من المفسرين وغيرهم ، روى الإمام أحمد عن حذيفة رضي الله عنه قال : قمت مع رسول الله ﷺ ذات ليلة فقرأ السبع الطوال في سبع ركعات ، وكان ﷺ إذا رفع رأسه من الركوع قال : « سمع الله لمن حمده » ثم قال : « الحمد لله ذي الملكوت والجبروت والكبرياء والعظمة » وكان ركوعه مثل قيامه ، وسجوده مثل ركوعه ، فانصرف وقد كادت تنكسر رجلاي . وقد روى أبو داود والترمذي في الشمائل والنسائي ... عن حذيفة رضي الله عنه أنه رأى رسول الله ﷺ يصلي من الليل وكان يقول : « الله أكبر – ثلاثاً – ذي الملكوت والجبروت ، والكبرياء والعظمة » ثم استفتح فقرأ البقرة ثم ركع فكان ركوعه نحواً من قيامه ، وكان يقول في ركوعه : « سبحان ربي العظيم » ثم رفع رأسه من الركوع فكان قيامه نحواً من ركوعه وكان يقول في قيامه : « لربي الحمد » ثم سجد فكان سجوده نحواً من قيامه ، وكان يقول في سجوده : « سبحان ربي الأعلى » ثم رفع رأسه من السجود وكان يقعد فيما بين السجدتين نحواً من سجوده ، وكان يقول : « رب اغفر لي رب اغفر لي » فصلى أربع ركعات فقرأ فيهن : البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، أو الأنعام – شك شعبة – هذا لفظ أبي داود . وقال النسائي : أبو حمزة عندنا طلحة ابن يزيد ، وهذا الرجل يشبه أن يكون ابن عم حذيفة كما هو مذكور في رواية الإمام أحمد والله أعلم . وأما رواية صلة بن زفر عن حذيفة رضي الله عنه فإنها في صحيح مسلم ولكن ليس فيها ذكر الملكوت والجبروت والكبرياء والعظمة . وروى أبو داود ... عن عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه قال : قمت مع رسول الله ﷺ ليلة فقام فقرأ سورة البقرة ، لا يمر بآية رحمة إلا وقف وسأل ، ولا يمر بآية عذاب

إلا وقف وتعوّذ ، قال : ثم ركع بقدر قيامه ، يقول في ركوعه « سبحان ذي الجبروت والملكوت ، والكبرياء والعظمة » ثم سجد بقدر قيامه ثم قال في سجوده مثل ذلك ثم قام فقرأ بآل عمران ، ثم قرأ سورة سورة ، ورواه الترمذي في الشمائل والنسائي من حديث معاوية بن صالح به) .

نقل :

قال الألوسي في خواتيم كلامه عن سورة (يس) :

(وقد اشتملت هذه السورة الكريمة على تقرير مطالب عليّة ، وتضمنت أدلة جليلة جلية ، ألا ترى أنه تعالى أقسم على كونه صلى الله تعالى عليه وسلم أكمل الرسل ، وأن طريقه أوضح السبل ، وأشار سبحانه إلى أن المقصود ما ذكر بقوله تعالى ﴿ **لتنذر** ﴾ الخ ثم بينه إجمالاً أنه اتباع الذكر وخشية الرحمن بالغيب وتمّمه بضرب المثل مدمجاً فيه التحريض على التمسك بحبل الكتاب ، والمنزل عليه ، وتفضيلهما على الكتب والرسل ، والتنبيه عليه ثانياً بأنه عبادة مَنْ إليه الرجعى وحده ، ثم أخذ في بيان المقدمات بذكر الآيات ، وأوثر منها الواضحات الدالة على العلم والقدرة والحكمة والرحمة وضمّن فيه أن العبادة شكر المنعم وتلقي النعمة بالصرف في رضاه والحذر من الركون إلى من سواه ، ثم في بيان المتمم بذكر الوعد والوعيد ، بما ينال في المعاد ، وأدرج فيه حديث من سلك ومن ترك ، وذكر غايتهما ، ولخّص فيه أن الصراط المستقيم هو عبادة الله تعالى بالإخلاص عن شائبتي الهوى والرياء ، حيث قدّم على الأمر بعبادته تعالى التجنب عن عبادة الشيطان ، وضمّن فيه أن أساسها التوحيد ، وكما أنه ذكر الآيات لئلا يكون الكلام خطابياً في المقدمات ، ختم بالبرهان على الإعادة ليكون على منواله في المتممات ، وجعل سبحانه ختام الخاتمة أنه عز وجل لا يتعاظمه شيء ، ولا ينقص خزائنه عطاء ، وأنه لا يخرج عن مملكته من قربه قبول أو بعده إباء تحقيقاً لكل ما سلف على الوجه الأتم ، ولما كان كلاماً صادراً عن مقام العظمة والجلال وجب أن يراعى فيه نكتة الالتفات في قوله تعالى ﴿ **وإليه ترجعون** ﴾ ليكون إجمالاً لتوضيح التفصيل . كذا قرره صاحب الكشف . والله تعالى يقول الحق وهو يهدي السبيل) .

كلمة أخيرة في سورة يس ومجموعتها :

ذكرت سورة يس رسالة الرسول ﷺ ، وأظهرت حكمتها ، وذكرت مضمونها ، وحدّدت موقف الناس منها ، ونوعية الذين يستجيبون لها ويقبلونها . وبالتالي من لا يستجيب لها ولا يقبلها .

....

وحدّدت صفات الذين يستجيبون بأنهم الذين يتبعون الذكر ويخشون الله . وذكّرت بكل ما يوصّل إلى ذلك ، وأقامت الحجة على الآخرين ، وهي بذلك تكون قد أكملت البناء الذي ابتدأته سورة فاطر ، إذ حدّدت سورة فاطر نقطة البداية في السير : وهي خشية الله ، وإقام الصلاة .

قالت سورة فاطر : ﴿ **إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة** ﴾ .

وقالت سورة يس : ﴿ **إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب** ﴾ فاجتمع من السورتين أن الذي يقبل الإنذار هو الخائف من الله ، المصلي المتّبع لكتاب الله ، وبالتالي فهو الحي كما قالت سورة (يس) : ﴿ **لتنذر من كان حيّاً** ﴾ فسورة فاطر ذكرت بداية الطريق ، وأكملت هذه البداية سورة يس ؛ فذكرت الأساس الذي يقوم عليه تلقي دعوة الرسول ﷺ ، ومن قبل ذكرت سورة سبأ الأسس العامة للقيام بالتكليف ، فلو رجعنا إلى سورة سبأ فإننا نلاحظ أنّها ذكّرت بالشروط اللازمة لقضية الشكر التي هي القيام بالتكليف ، ثم جاءت سورتا فاطر ويس ، فذكّرتا ببداية السير العملي ، وبهذا تكاملت السور الثلاث في تبيان الهدف ، ونقطة البداية فيه ، والطريق إليه ، فإذا تذكرنا السور الأربع : العنكبوت ، والروم ، ولقمان ، والسجدة ، التي فصّلت في قضية الإيمان العملي والنظري ، وتذكرنا سورة الأحزاب ، التي رسمت الطريق للتحقق ، نعلم كيف تكاملت مواضيع المجموعة ، وكيف أدّت كل سورة محلها في هذا التكامل .

....

فالسور الأربع الأولى حدّدت خريطة الإيمان النظري والعملي ، وسورة الأحزاب حددت الطريق للتحقق بذلك . وجاءت سورة سبأ لتبيِّن ماهية الشكر الذي هو مجموع ما ورد في السور الخمس السابقة ، وتبين كل الشروط اللازمة للتحقق به ، ثم جاءت

سورة فاطر لتبيّن نقطة البداية فيه ، وجاءت سورة يس لتكمّل قضية الأساس في قبول الإسلام كله ، ومن ثم نفهم كيف أن كل مجموعة من مجموعات القرآن لها تكاملها ، ولها دورها في بناء قضية الإسلام لرب العالمين .

....

ومن المعنى السابق ندرك خطأ الذين يتصورون أنّ فهم شيء من القرآن - حتى ولو كان سورة البقرة - يغني عن فهم كل آية من آيات القرآن ؛ لأن كل آية ، وكل سورة ، وكل مجموعة ، لها غناؤها ، وفيها فقهها الخاص بها ، ولها دورها في بناء النفس البشرية ، والأمّة الإسلامية ، وفي تفصيل القضايا النفسية ، أو الشروط النفسية ، أو غير ذلك مما يلزم عملية البناء ، صحيح أنّ كل مجموعة من المجموعات ، أو كل قسم من الأقسام ، يذكّر بالقضايا الرئيسية ، بل قد تجد سوراً قصيرة تذكّر بالمعاني الرئيسية ، إلا أن التذكير شيء ، وفهم الإسلام كله شيء آخر . لقد جعل الله كتابه فيه تبيان كل شيء ﴿ **ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء** ﴾ [النحل : ٨٩] ومن ثَمَّ فلا يتعرف الإنسان تعرفاً كاملاً على القضايا كلها إلا من خلال فهم الكتاب كله .

....

وإذ أدركنا من خلال المجموعة المارّة كيف تتكامل كل مجموعة من المجموعات ندرك صلة الآيات التي تشكّل محاور هذه المجموعات من سورة البقرة مع بعضها ، وهو موضوع تحدّثنا عنه من قبل فلا نعيده ، ولكنا هنا نقول : إن تفصيل المجموعات لسورة البقرة يأخذ كل مرة منحى جديداً ، وطابعاً جديداً ، وأسلوباً جديداً ، بحيث يوجد عندنا في كل مرة ، وبكل مجموعة موضوع متكامل يؤدي دوره في بناء الشخصية المسلمة والأمة المسلمة ، ومن الملاحظ أن بعض آيات سورة البقرة يتكرر تفصيلها في كل مجموعة ، بينما لا يتكرر تفصيل بعض الآيات ، ولذلك صلته باحتياجات النفس البشرية لتكرار بعض المعاني ، أو لاحتياج معنى من المعاني إلى تفصيلات كثيرة .

وبهذا ننهي الكلام عن المجموعة الأولى من قسم المثاني ولله الحمد والمنة .

☆ ☆ ☆

المجموعة الثانية

من القسم الثالث من أقسام القرآن
المسمَّى بقسم المثاني
وتشمل سورتي :
(الصافات ، وصٓ)

كلمة في هذه المجموعة :

هذه المجموعة تتألف من سورتين فقط ، وإنما دلنا على أن هذه المجموعة تتألف من هاتين السورتين هو ابتداء سورة الصافات بالقسم ، وهي علامة من الآن فصاعداً على بداية المجموعات كما سنرى ﴿ **والذاريات** ﴾ . ﴿ **لا أقسم بيوم القيامة** ﴾ ﴿ **والنازعات غرقاً** ﴾ ﴿ **والفجر** ... ﴾ ﴿ **والتين والزيتون** ... ﴾ ﴿ **والعاديات ضبحاً** ﴾ . ﴿ **والعصر** ﴾ ، وأن السورة الثانية مبدوءة بالحرف (ص) وهي علامة على نهاية مجموعة منذ سورة مريم . فسورة مريم فيها (صاد) فهي نهاية مجموعة ، وهذه كذلك نهاية مجموعة .

....

وممّا يدلّنا على أنّ سورة الصافات بداية مجموعة كون (يس) قبلها كانت نهاية مجموعة ، وكون سورة الزمر بعد (ص) بداية مجموعة كما سنرى ، فتعيّن أنّ الصافات وصاد مجموعة واحدة في هذا القسم – قسم المثاني – وسنرى في هذا القسم كثرة المجموعات وكيف أنّ أكثرها يفصّل في أوائل سورة البقرة ولعلّ لهذا صلة بتسمية هذا القسم بالمثاني .

....

وتكاد سورة الصافات تمثل في معنى من معاني الآيات الأولى من سورة البقرة والواردة في صفات المتقين ، وتكاد سورة (ص) تفصّل في معنى من معاني الآيات الآتية بعدها والواردة في صفات الكافرين .

فسورة الصافات تفصّل في معان مستكنّة في قوله تعالى : ﴿ **الٓمٓ ◦ ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ◦ الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ◦ والذين يؤمنون بما أُنزل إليك وما أُنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون ◦ أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون** ﴾ . وكذلك سورة (ص) تفصّل في معان مستكنّة في قوله تعالى : ﴿ **إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ◦ ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم** ﴾ .

وكما أن كل مجموعة لها تكاملها ، ولها روحها ، ولها كذلك دورها الخاص بها ، فإن هاتين السورتين كذلك ، فهما تبرزان معنى من المعاني المستكنة في مقدمة سورة البقرة بشكل بارز لا نراه في غيرهما . كما أن كل سورة منهما على حدة تبرز معاني من محورها وتفصلها بشكل لا نراه على كماله وتمامه كما هو في هاتين السورتين ، وكل ذلك سنراه بالتفصيل إن شاء الله تعالى .

....

وإذ كانت السورتان تفصلان في حيز واحد هو مقدمة سورة البقرة ، فإننا نجد بينهما تداخلاً ، كما أن الكلام في المقدمة متداخل ، إذ الكلام عن المؤمنين يحوي في طياته كلاماً عن الكافرين . والكلام عن الكافرين يحوي في طياته كلاماً عن المتقين ، فمن خلال تقريرك لصفات الكافرين تكون قد حددت بعض خصائص المؤمنين ، ومن خلال تقريرك لصفات المؤمنين تكون قد حددت بعض خصائص الكافرين ، وإذا كانت السورتان تتحدثان في هاتين الدائرتين فمن ثَمَّ نجد فيهما تكاملاً وتداخلاً مع احتفاظ كل منهما بدوره في تفصيل محوره الرئيسي .

....

وبمناسبة ذكر الاستكنان نقول :

إنك تجد معاني كثيرة مستكنة في آية من آيات القرآن ، فتجد سورة كاملة تفصّل هذا الاستكنان ، كما رأينا ذلك في كثير من آيات سورة البقرة ، إذ تأتي سورة وسور كاملة من أجل أن تفصّل ما استكنّ فيها . إنك لتجد كثيراً من سور القرآن تفصّل تفصيلاً نورانياً لمحورها ، فمثلاً سورة الأنعام تفصيل لآيتين من سورة البقرة . وسورتا سبأ وفاطر تفصيل جديد لهاتين الآيتين ، ولكنه تفصيل يراعي التفصيل الأول ، إن أول تفصيل لمقدمة سورة البقرة يأتي في سورة آل عمران ، ثم يأتي تفصيل ثانٍ لبعضها في سورة يونس ، مراعىً فيه التفصيل الأول . ثم تأتي سورة الحجر لتفصّل في بعض المقدمة تفصيلاً ثالثاً ، مراعىً فيه التفصيلين السابقين ، ثم تأتي سورة طه والأنبياء فتفصلان بعض المقدمة تفصيلاً رابعاً ، مراعى فيه التفصيلات السابقة . ثم تأتي زمرة (الٓمٓ) في هذه المجموعة لتفصّل في مقدمة سورة البقرة تفصيلاً خامساً ، مراعى فيه التفصيلات السابقة ، ومن ثَمَّ تجد معنى في تفصيل سابق قد فُصّل في تفصيل لاحق .

وهكذا تجد معاني فُصّلت مرة بعد مرة ، وكل التفصيلات اللاحقة مستكنة في آيات المحور .

وسنرى هذا بشكل بارز في سورتي هذه المجموعة فمثلاً : أن لا إله إلا الله مستكنة في قوله تعالى : ﴿ **الذين يؤمنون بالغيب** ﴾ وستجد كيف أن سورة الصافات تبرز هذا المستكنّ هناك ، وهي تفصّل من جديد في مقدمة سورة البقرة .

ولنبدأ عرض سورتي المجموعة الثانية من قسم المثاني .

سورة الصافات

وهي السورة السابعة والثلاثون بحسب الرسم القرآني
وهي السورة الأولى من المجموعة الثانية من قسم المثاني
وآياتها مائة واثنتان وثمانون آية
وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحَمْدُ لِلَّهِ، وَالصَّلاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ وَآلِهِ وَأَصْحَابِهِ

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا، إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ

كلمة في سورة الصافات ومحورها :

تبدأ سورة الصافات بقوله تعالى : ﴿ **والصافات صفاً * فالزاجرات زجراً * فالتاليات ذكراً * إن إلهكم لواحد** ﴾ وإذن فالسورة تبدأ بقسم ، وجواب للقسم ، ومن جواب القسم نعلم موضوع السورة الرئيسي وهو وحدانية الله عز وجل ، ثم تسير السورة حتىٰ تصل إلى قوله تعالى : ﴿ **فاستفتهم أهم أشد خلقاً أم من خلقنا إنا خلقناهم من طين لازب** ﴾ .

ثم تستمر السورة حتى تصل إلى قوله تعالى :

﴿ **فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون** ﴾ [الآية : ١٤٩] مما يدل على أن التعريف على الله وما تستلزمه هذه المعرفة هو الشيء الذي يصب فيه سياق السورة الرئيسي .

فإذ وصلنا إلى آياتها الأخيرة نجد قوله تعالى : ﴿ **سبحان ربك رب العزّة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين** ﴾ ومن خلال البداية والنهاية ، ومن خلال الاستفتائين اللذين يشكلان نقطتي علام في السورة ، ندرك المصبّ الرئيسي الذي يصبّ فيه سياق السورة وهو- كما قلنا - التعريف على الله عز وجل ، وما تستلزمه تلك المعرفة ، وهو الموضوع الأول من مواضيع الإيمان بالغيب ، والذي يستتبع الإيمان بالغيب كله ، ومن ثَمَّ فمن خلال السياق الرئيسي للسورة تُعرض بعض المعاني التي لها علاقة بالآخرة والرسل والملائكة والكتاب ، كما سنرىٰ .

ونلاحظ أن قوله تعالى :

﴿ **سبحان الله عما يصفون** ﴾ يتكرر في السورة أكثر من مرة مما يشير كذلك إلى الموضوع الرئيسي في السورة ، وهو التعريف على الله وتنزيهه وتوحيده .

....

إنه من المعلوم بديهة أن كلمة التوحيد هي كلمة التقوىٰ ، وهي نقطة الارتكاز في هذا الدين ، وهي نقطة البداية في دعوة الرسل عليهم الصلاة والسلام ، وأنها تحوي كل عقائد الإسلام ، وإليها ترجع هذه العقائد ، فإذا عرفنا أن هذا هو مضمون السورة أدركنا محل سورة الصافات في تفصيل قوله تعالى : ﴿ **الٓمٓ * ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين * الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ***

والذين يؤمنون بما أُنزل إليك وما أُنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون * أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون ﴾ إنها تفصّل في موضوع التوحيد ومستلزماته .

....

تتألف السورة بشكل واضح من مقدمة تستمر حتى نهاية الآية العاشرة ، تتحدث عن التوحيد ، وعن أدلته ، وعن حفظ الوحي .

ثم يأتي مقطعان كل منهما مبدوء بقوله تعالى ﴿ **فاستفتهم** ﴾ .

المقطع الأول مبدوء بقوله تعالى : ﴿ **فاستفتهم أهم أشد خلقاً أم مّن خلقنا إنا خلقناهم من طين لازب** ﴾ ويستمر حتى نهاية الآية (١٤٨) .

والمقطع الثاني مبدوء بقوله تعالى : ﴿ **فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون** ﴾ ويستمر حتى نهاية السورة أي حتىٰ نهاية الآية (١٨٢) .

ويندمج الكلام في المقطع الأول عن التوحيد ، واليوم الآخر ، والرسل كمواضيع متلازمة ، إذ يرتبط الإيمان بالله بالإيمان باليوم الآخر ، بل إنّ أكثر كفر الكافرين سببه الكفر باليوم الآخر ، ويرتبط الإيمان بالله بالإيمان بالرسل عليهم الصلاة والسلام ؛ إذ هم الذين يعرفونه حق المعرفة ، ويُعرِّفون عليه حقّ التعريف ، ومن ثَمَّ يقول تعالى في السورة ﴿ **سبحان الله عما يصفون * إلا عباد الله المخلصين** ﴾

ويندمج الكلام في المقطع الثاني عن الله عز وجل والملائكة والرسل والمؤمنين بشكل عجيب سنراه .

ومن ثَمَّ فإن السورة إذ تعرض التوحيد تعرض معه قضايا الإيمان كلها ، لأن التصور السليم عن موضوع التوحيد مرتبط بالتصور السليم عن قضايا الإيمان كلها .

....

ولأول مرة في السياق القرآني نجد سورة مبدوءة بقَسَم مباشر ، فما قبل سورة الصافات نجد قسماً في بداية السورة ، ولكنه مسبوق بشيء مثل (يس) في سورة (يس) إذ مطلعها ﴿ **يس والقرآن الحكيم** ﴾ .

ومن الآن فصاعداً سنجد سوراً كثيرة مبدوءة بقَسَم مباشر ، بل نجد في المجموعة

الواحدة مجموعة سور كلها مبدوءة بقَسَم مباشر .

فمجموعة الذاريات فيها ثلاث سور متوالية مبدوءة بقَسَم مباشر هي : ﴿ **والذاريات** ﴾ ﴿ **والطور** ﴾ ﴿ **والنجم** ﴾ وفي مجموعة الفجر تجد خمس سور مبدوءة بقَسَم مباشر هي : ﴿ **والفجر** ﴾ ، ﴿ **لا أقسم بهذا البلد** ﴾ ﴿ **والشمس وضحاها** ﴾ ﴿ **والليل** ﴾ ﴿ **والضحى** ﴾ .

وكما كانت سورة الصافات المبدوءة بقَسَم مباشر بداية المجموعة ، فسنجد أن القَسَم المباشر في بداية سورة علامة على أن مجموعة جديدة قد بدأت .

فلنبدأ بعرض سورة الصافات ، وقبل أن نبدأ بعرضها فلنذكر فائدة صدّر بها ابن كثير الكلام عن سورة الصافات ولننقل بعض النقول حول السورة :

....

قال ابن كثير : روى النسائي ... عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : كان رسول الله ﷺ يأمرنا بالتخفيف ويؤمنا بالصافات ، تفرد به النسائي .

أقول :

كأنّ ابن عمر يريد من هذه الرواية أن التخفيف لا يعني القراءة القليلة ، والذي عليه الفقهاء أن الإمام يراعي حال المأمومين ، واستعدادهم ، وهذا يختلف باختلاف الأمكنة ، والأزمنة ، والبيئات ، وأحوال الناس ؛ فالعامل أثناء العمل ، والمسافر أثناء السفر ، والمبتدئون بالصلاة ، والمشغولون بحادث يطرأ ، والمعتادون على الصلاة القصيرة ، كل من هؤلاء يراعي حاله ، وحكمة الإمام في هذه الأمور هي التي تقدر ، ولقد رأيت أئمة يطيلون قليلاً عما ألفه الناس - وهو قليل - فيؤدّي ذلك إلى فتنة ، أو قطع صلاة ، وحتى إلى كلمة كفر ، فلا بدّ للإمام أن يراعي هذا ، وإذا اقتصر في بعض المواطن على الفاتحة وآيات قصار معدودة فلا بأس .

نقول :

١ - قدّم الألوسي لسورة الصافات بقوله :

(مكية ولم يحكوا في ذلك خلافاً ، وهي مائة وإحدى وثمانون آية عند البصريين ، ومائة واثنتان وثمانون عند غيرهم ، وفيها تفصيل أحوال القرون المشار إلى إهلاكها

في قوله تعالى في السورة المتقدمة ﴿ **ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لا يرجعون** ﴾ وفيها من تفصيل أحوال المؤمنين ، وأحوال أعدائهم الكافرين يوم القيامة ، ما هو كالإيضاح لما في تلك السورة من ذلك ، وذكر فيها شيء مما يتعلق بالكواكب لم يذكر فيما تقدم ، ولمجموع ما ذكر ذكرت بعدها ، وفي البحر مناسبة أول هذه السورة لآخر سورة يس أنه تعالى لما ذكر المعاد وقدرته سبحانه على إحياء الموتى ، وأنه هو منشئهم ، وأنه إذا تعلقت إرادته بشيء كان ، ذكر عز وجل هنا وحدانيته سبحانه إذ لا يتم ما تعلقت به الإرادة إيجاداً وإعداماً إلا بكون المريد واحداً ، كما يشير إليه قوله تعالى : ﴿ **لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا** ﴾) .

٢ - ومن تقديم صاحب الظلال لسورة الصافات ما يلي :

(هذه السورة المكية - كسابقتها - قصيرة الفواصل ، سريعة الإيقاع ، كثيرة المشاهد والمواقف ، متنوّعة الصور والظلال ، عميقة المؤثرات ، وبعضها عنيف الوقع ، عنيف التأثير . وهي تستهدف - كسائر السور المكية - بناء العقيدة في النفوس ، وتخليصها من شوائب الشرك في كل صوره وأشكاله . ولكنها - بصفة خاصة - تعالج صورة معينة من صور الشرك التي كانت سائدة في البيئة العربية الأولى . وتقف أمام هذه الصورة طويلاً ؛ وتكشف عن زيفها وبطلانها بوسائل شتى .. تلك هي الصورة التي كانت جاهلية العرب تستسيغها ، وهي تزعم أن هناك قرابة بين الله - سبحانه - وبين الجن . وتستطرد في تلك الأسطورة فتزعم أنه من التزواج بين الله - تعالى - والجنة ولدت الملائكة . ثم تزعم أن الملائكة إناث . وأنهن بنات الله !

هذه الأسطورة تتعرض لحملة قوية في هذه السورة ؛ تكشف عن تهافتها وسخفها . ونظراً لأنها هي الموضوع البارز الذي تعالجه السورة ، فإنها تبدأ بالإشارة إلى طوائف من الملائكة : ﴿ **والصافات صفاً * فالزاجرات زجراً * فالتاليات ذكراً** ﴾ .. ويتلوها حديث عن الشياطين المَرَدَة ، وتعرضهم للرجم بالشهب الثاقبة كي لا يقربوا من الملأ الأعلى . ولا يتسمّعوا لما يدور فيه ؛ ولو كانوا حيث تزعم لهم أساطير الجاهلية ما طوردوا هذه المطاردة ! كذلك يشبّه ثمار شجرة الزقوم التي يعذب بها الظالمون في جهنم بأنها كرؤوس الشياطين في معرض التقبيح والتفظيع ! وفي نهاية السورة تأتي الحملة المباشرة على تلك الأسطورة المتهافتة : ﴿ **فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون * أم خلقنا الملائكة إناثاً وهم شاهدون * ألا إنهم من إفكهم ليقولون * ولد الله وإنهم**

لكاذبون * أصطفى البنات على البنين * ما لكم كيف تحكمون * أفلا تذكّرون * أم لكم سلطان مبين * فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين * وجعلوا بينه وبين الجِنّة نسباً ولقد علمت الجن إنهم لمحضرون ... سبحان الله عما يصفون ! ﴾ .

وإلى جانب علاج هذه الصورة الخاصة من صور الشرك الجاهلية تتناول السورة جوانب العقيدة الأخرى التي تتناولها السور المكية . فتثبت فكرة التوحيد مستدلة بالكون المشهود : ﴿ **إن إلهكم لواحد * رب السماوات والأرض وما بينهما ورب المشارق** ﴾ .. وتنص على أن الشرك هو السبب في عذاب المعذّبين في ثنايا مشهد من مشاهد القيامة : ﴿ **فإنهم يومئذ في العذاب مشتركون * إنا كذلك نفعل بالمجرمين * إنهم كانوا إذا قيل لهم : لا إله إلا الله يستكبرون * ويقولون : أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون * بل جاء بالحق وصدق المرسلين * إنكم لذائقوا العذاب الأليم * وما تجزون إلا ما كنتم تعملون** ﴾ ..

كذلك تتناول قضية البعث والحساب والجزاء ﴿ **وقالوا : إن هذا إلا سحر مبين * أإذا مِتْنا وكنا تراباً وعظاماً أإنا لمبعوثون * أو آباؤنا الأولون * قل نعم وأنتم داخرون** ﴾ .. ثم تعرض بهذه المناسبة مشهداً مطولاً فريداً من مشاهد القيامة الحافلة بالمناظر والحركات والانفعالات والمفاجآت !

وتعرض لقضية الوحي والرسالة الذي ورد من قولهم : ﴿ **أإنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون ؟** ﴾ والرد عليهم : ﴿ **بل جاء بالحق وصدّق المرسلين** ﴾ .

وبمناسبة ضلالهم وتكذيبهم تعرض سلسلة من قصص الرسل : نوح وإبراهيم وبنيه . وموسى وهارون . وإلياس . ولوط . ويونس . عليهم السلام . تتكشّف فيها رحمة الله ونصره لرسله وأخذه للمكذبين بالعذاب والتنكيل : ﴿ **ولقد ضل قبلهم أكثر الأولين * ولقد أرسلنا فيهم منذرين * فانظر كيف كانت عاقبة المنذرين * إلا عباد الله المخلصين** ﴾ .

وتبرز في هذا القصص قصة إبراهيم خاصة مع ابنه إسماعيل . قصة الذبح والفداء ، وتبرز فيها الطاعة والاستسلام لله في أروع صورها وأعمقها وأرفعها ؛ وتبلغ الذروة التي لا يبلغها إلا الإيمان الخالص الذي يرفع النفوس إلى ذلك الأفق السامق الوضيء .

* * *

والمؤثرات الموحية التي تصاحب عرض موضوعات السور وقضاياها ، تتمثل بشكل واضح في : مشهد السماء وكواكبها وشهبها ورجومها : ﴿ **إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب * وحفظاً من كل شيطان مارد * لا يسمَّعون إلى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب * دحوراً ولهم عذاب واصب * إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب** ﴾ .

وفي مشاهد القيامة ومواقفها المثيرة ، ومفاجآتها الفريدة ، وانفعالاتها القوية . والمشاهد التي تحويها هذه السورة ذات طابع فريد حقاً سنلمسه عند استعراضه تفصيلاً في مكانه من السورة .

وفي القصص ومواقفه وإيحاءاته . وبخاصة في قصة إبراهيم وولده الذبيح إسماعيل – عليهما السلام – ، وترتفع المؤثرات الموحية هنا إلى الذروة التي تهزّ القلوب هزّاً عميقاً عنيفاً .

ذلك إلى الإيقاع الموسيقي في السورة ، وهو ذو طابع مميّز يتّفق مع صورها وظلالها ومشاهدها ومواقفها وإيحاءاتها المتلاحقة العميقة) .

مقدمة السورة

وتمتدّ من الآية (١) إلى الآية (١٠) وهذه هي :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ﴿٣﴾ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ
لَوَاحِدٌ ﴿٤﴾ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ ﴿٥﴾ إِنَّا زَيَّنَّا
السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾
لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ
وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾

التفسير :

﴿ **والصافات صفاً * فالزاجرات زجراً * فالتاليات ذكراً** ﴾ هذا قَسَم بالملائكة فإنها تصف في صلاتها صفاً ، وتزجر عما نهى الله عنه زجراً ، وتتلو ذكر الله . قال النسفي : (أقسم الله سبحانه وتعالى بطوائف الملائكة ، أو بنفوسهم الصافات أقدامها في الصلاة ، فالزاجرات السحاب سوقاً ، أو عن المعاصي بالإلهام ، فالتاليات لكلام الله من الكتب المنزلة وغيرها) ولم يذكر ابن كثير إلا هذا الوجه الذي نقلناه عن النسفي ، إلا أن النسفي يذكر وجهين آخرين في معنى الآيات فيقول : (أو بنفوس العلماء العمّال الصافات أقدامها في التهجد ، وسائر الصلوات ، فالزاجرات بالمواعظ والنّصائح ، فالتاليات آيات الله ، والدارسات شرائعه ، أو بنفوس الغزاة في سبيل الله ، التي تصف الصفوف ، وتزجر الخيل للجهاد ، وتتلو الذكر مع ذلك ...) والفاء تدل على ترتيب الصفات في التفاضل ، فتفيد الفضل للصف ، ثم للزجر ، ثم للتلاوة ، أو على العكس ، والآيات تفيد فضيلة الصف لله أو في سبيل الله ، وفضيلة الزجر في الله ، أو في سبيل الله ، وفضيلة تلاوة القرآن والذكر ﴿ **إن إلهكم لواحد** ﴾ هذا هو

المقسَم عليه أنه تعالى لا إله إلا هو ﴿ **رب السمٰوات والأرض وما بينهما** ﴾ من المخلوقات ﴿ **ورب المشارق** ﴾ أي والمغارب قال ابن كثير : واكتفى بذكر المشارق عن المغارب لدلالتها عليه .

وبعد أن عرفنا الله عز وجل على أنه رب كل شيء وأنّه وحده الإله يعرفنا على مظاهر من فعله لنا ، ومن أجلنا فقال : ﴿ **إنا زيَّنا السماء الدنيا** ﴾ أي القربىٰ منكم ﴿ **بزينة الكواكب** ﴾ قال النسفي : والمعنىٰ : إنا زينا السماء الدنيا بالكواكب ﴿ **وحفظاً** ﴾ قال ابن كثير : تقديره : وحفظناها حفظاً ﴿ **من كل شيطان مارد** ﴾ قال ابن كثير : (يعني المتمرّد العاتي إذا أراد أن يسترق السمع أتاه شهاب ثاقب فأحرقه) فالمارد : هو الخارج عن الطاعة قال النسفي : المعنى : إنا خلقنا الكواكب زينة للسماء ، وحفظاً من الشياطين ﴿ **لا يسَّمَّعون** ﴾ أي الشياطين ﴿ **إلى الملأ الأعلى** ﴾ قال ابن كثير : (أي لئلا يصلوا إلى الملأ الأعلى - وهي السمٰوات ومن فيها من الملائكة - إذا تكلموا بما يوحيه الله تعالى مما يقوله من شرعه وقدره) وفسّر النسفي : (الملأ الأعلى بالملائكة لأنهم يسكنون السمٰوات وقال : والإنس والجن هم الملأ الأسفل لأنهم سكان الأرض) ﴿ **ويقذفون من كل جانب** ﴾ أي ويُرمَوْن بالشهب من جميع جوانب السماء ، من أي جهة صعدوا للاستراق ﴿ **دحوراً** ﴾ أي يقذفون للدحور ، أو مدحورين ، والدحور : هو الطرد . قال ابن كثير : (أي رجماً يدحرون به ، ويزجرون ، ويمنعون من الوصول إلى ذلك ، ويرجمون) ﴿ **ولهم عذاب واصب** ﴾ أي دائم ، قال النسفي : (أي أنهم في الدنيا مرجومون بالشهب ، وقد أُعِدّ لهم في الآخرة نوع من العذاب دائم غير منقطع) قال ابن كثير : (أي في الدار الآخرة لهم عذاب دائم موجع مستمر) ﴿ **إلا من خطف الخطفة** ﴾ أي سلب السلبة يعني أخذ شيئاً من كلام الملائكة بسرعة ﴿ **فأتبعه** ﴾ أي لحقه ﴿ **شهاب ثاقب** ﴾ أي مضيء مستنير ، فالله عز وجل الذي فعل هذا كله هو الرب ، وهو وحده المستحق للإلهية والعبادة ، وفي الكلام عن رجم الشياطين إذا صعدوا إلى السماء ، وفي ذكر الملائكة في ابتداء السورة ، وكونهم يتلون الذكر إشارة إلى حفظ الله وحيه ، وهكذا تحدّثت مقدمة السورة عن التوحيد والملائكة والوحي ، وفي ذلك كلام عن الرسل ضمناً ؛ إذ هم الذين ينزل عليهم وحي الله عز وجل ، وبذلك تجد مقدمة السورة تحدّثت - صراحة أو ضمناً - عن أركان الإيمان كلها ، بما في ذلك الإيمان باليوم الآخر ، إذ ورد قوله تعالى عن الشياطين ﴿ **ولهم عذاب واصب** ﴾ .

فوائد :

١ - رأينا أن النسفي ذكر ثلاثة أقوال في تفسير الصّافات ، والزّاجرات ، والتّاليات ، بينما لم يذكر ابن كثير إلا قولاً واحداً ، والذي أراه أن سياق السورة لا يحتمل إلا الوجه الأول ، إلا أن الملائكة قدوة في الطاعة ، فمن تحقق بما وصف الله به الملائكة دخل في ما استحقوه من تشريف ، ومن ثَمَّ سنجد في سياق السورة ما يدل على أن رسول الله ﷺ كان يحرص على أن يتأسى المسلمون بالملائكة ، وفي الفائدة التالية بيان .

٢ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **والصافات صفاً** ﴾ قال ابن كثير :

(روى مسلم عن حذيفة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم : « فضلنا على الناس بثلاث : جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة ، وجعلت لنا الأرض مسجداً ، وجعل لنا ترابها طهوراً إذا لم نجد الماء » وقد روى مسلم أيضاً وأبو داود والنسائي وابن ماجه من حديث الأعمش ... عن جابر ابن سمرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم : « ألا تُصفّون كما تُصَفّ الملائكة عند ربهم ؟ » قلنا : وكيف تصف الملائكة عند ربهم ؟ قال ﷺ : « يتمون الصفوف المتقدمة ، ويتراصون في الصف ») .

٣ - نقلنا من قبل عن ابن كثير : أن أجزاءً من الكواكب هي التي يرمىٰ بها ، فعندما يذكر الله عز وجل أن الكواكب يُرمىٰ بها إنما يريد أجزاءها ، وليس كلها ، وهذه قضية مهمة ، فمن المعلوم أنّ النيازك التي تصطدم في جو الأرض ، والتي بها يتمّ الرمي ، إنما هي أجزاء من النجوم والكواكب ، وذكر الجزء وإرادة الكلّ أسلوب معروف في كلام العرب ، فقد يذكر الكل ويراد به الجزء ، وقد يذكر الجزء ويراد به الكل ، وقد يذكر العام ويراد به الخاص ، ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « الحج عرفة » ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ **الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم ...** ﴾ [آل عمران : ١٧٣] .

٤ - ولم يفهم ابن كثير من كون السماء الدنيا مزينة بالكواكب أن هذه الكواكب دون السماء الدنيا في المكان ، ومن ثَمَّ قال : (فالكواكب السيارة والثوابت يثقب ضوؤها جرم السماء الشفاف ، فتضيء لأهل الأرض) وهذا يرجّح ما ذكرناه في

تفسير سورة البقرة ، إذ ذكرنا أن السمٰوات السبع – المنصوص عليها بالقرآن – سمٰوات مغيّبة عنا ، وأنها قريبة ، فهي أقرب من نجوم غير المجموعة الشمسية ، ويؤكد هذا القرب النسبي أن النيازك إنما يظهر ضوؤها الثاقب إذا اصطدمت في جو الأرض ، مما يشير إلى أن المكان الذي يصاب به الجن هو جو الأرض ، وبالتالي فهم لا يصعدون بعيداً لسماع نبأ السماء والوحي .

٥ – للمفسرين كلام كثير ومختلف في موضوع النجوم ، والأرض ، والسمٰوات ، والشمس ، والقمر ، واختلاف الكلام يدلّ على أن للاجتهاد وللتحقيق فيه نصيب ، فمن تصورات بعضهم ما نقله الألوسي بقوله : (خلق الله سبحانه السمٰوات السبع ، وجعل في كل منها كوكباً ، وهي الجواري) ومن تصورات بعضهم أن الشمس في السماء الرابعة ، ومن القديم ذهب بعض المفسرين إلى أنه يوجد بعد العرش نجوم ، فالآراء في هذا كثيرة وقسم كبير منها ظني .

والذي أرجحه : أن السمٰوات السبع والعرش من الأمور الغيبية ، وأن المجموعة الشمسية في وسط السماء الدنيا ، وأن الكواكب السيارة دونها ، ولا أستبعد أن يكون ذلك هوالمراد بقوله تعالى : ﴿ **إنَّا زيَّنا السماء الدنيا بزينة الكواكب** ﴾ [الصافات : ٦] فالكواكب السيارة بعض زينة السماء الدنيا ، هذا إذا لم يكن المراد بالسماء الدنيا السماء اللغوية ، وأتصور أن هناك نسبة ثابتة بين الأرض والسمٰوات السبع والعرش ، وأن السمٰوات السبع والعرش والمجموعة الشمسية في حالة حركة واحدة ، لتبقى النسبة ثابتة ، وهذه كلها موجودة ضمن الكون الكبير في مجرّاته الواسعة وسيمرّ في هذا التفسير ما يوضّح الكثير عن هذه الأمور .

٦ – ذكر القرآن مشرقاً ومغرباً واحداً ، وذكر مشرِقَين ومغربين ، وذكر مشارق ومغارب ، فقال مرة ﴿ **رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلاً** ﴾ [المزمل : ٩] وقال ﴿ **رب المشرقين ورب المغربين** ﴾ [الرحمن : ١٧] وقال ﴿ **فلا أقسم برب المشارق والمغارب** ﴾ [المعارج : ٤٠] وقال ههنا في سورة الصافات ﴿ **ورب المشارق** ﴾ وحاول بعض المفسرين أن يذكر تعليلاً لذلك والذي يبدو لي أن التعليل الوحيد لذلك هو : أن الإنسان في أي مكان من الأرض يرىٰ شروقاً واحداً للشمس ، وغروباً ، والغروب في حقه شروق في حق غيره من الجهة الثانية من الأرض ، والشروق في حقه غروب في حق غيره ، ومن ثَمَّ كان مشرقان ومغربان ،

ولكنه في الحقيقة ما من لحظة من اللحظات إلا وفيها شروق وغروب بالنسبة لجزء من أجزاء الكرة الأرضية ، ومن ثَمَّ كانت مشارق ومغارب ، فأن يذكر القرآن هذا المعنى فذلك من معجزاته الكثيرة وفي ذكر المشارق والمغارب إشارة إلى كروية الأرض ، لأنه لا يمكن أن يكون مشارق ومغارب إلا إذا كانت الأرض كروية ، وفي ذلك كذلك معجزة قرآنية إذا نظرنا إلى معارف الجزيرة العربية في عصر نزول القرآن .

قال صاحب الظلال عند قوله تعالى :

﴿ **ورب المشارق** ﴾ . (ولكل نجم مشرق ، ولكل كوكب مشرق ، **فهي** مشارق كثيرة في كل جانب من جوانب السماوات الفسيحة .. وللتعبير دلالة أخرى دقيقة في التعبير عن الواقع في هذه الأرض التي نعيش عليها كذلك . فالأرض في دورتها أمام الشمس تتوالى المشارق على بقاعها المختلفة - كما تتوالى المغارب - فكلما جاء قطاع منها أمام الشمس كان هناك مشرق على هذا القطاع ، وكان هناك مغرب على القطاع المقابل له في الكرة الأرضية . حتى إذا تحركت الأرض كان هناك مشرق آخر على القطاع التالي ، ومغرب آخر على القطاع المقابل له وهكذا ... وهي حقيقة ما كان يعرفها الناس في زمان نزول القرآن الكريم ؛ ولكن خبَّرهم بها الله في ذلك الزمان القديم !

وهذا النظام الدقيق في توالي المشارق على هذه الأرض . وهذا البهاء الرائع الذي يغمر الكون في مطالع المشارق .. كلاهما جدير بأن يوقع في القلب البشري من التأثرات الموحية ، ما يهتف به إلى تدبّر صنعة الصانع المبدع ، وإلى الإيمان بوحدانية الخالق المدبِّر ، بما يبدو من آثار الصنعة الموحدة التي لا اختلاف في طابعها الدقيق الجميل) .

كلمة في السياق :

رأينا أنّ مقدمة السورة انصب سياقها الرئيسي على موضوع التوحيد والتعريف على الله عز وجل ، وما يستلزمه ذلك من استحقاق الله وحده للألوهية ، ومن ثَمَّ يبتدىء المقطع الأول في السورة بقوله تعالى : ﴿ **فاستفتهم أَهُم أشدّ خلقاً أمّن خلقنا** ... ﴾ .

وفي هذا الابتداء ما يوحي باستمرار السورة في سياقها الرئيسي في الكلام عن موضوع التوحيد ، ومع أن ذلك هو السياق الرئيسي فإنّ المقدّمة تحدّثت بشكل عرضي عن الملائكة ، والوحي ، والقرآن ، واليوم الآخر ، أي عن أركان الإيمان ، وسنرى أنّ

المقطع الأول كذلك يتحدث عن هذه القضايا ، وصلة ذلك بالآيات الأولى لسورة البقرة واضحة ﴿ **الذين يؤمنون بالغيب** ﴾ ﴿ **والذين يؤمنون بما أُنزل إليك وما أُنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون * أولئك على هدىً من ربهم وأولئك هم المفلحون** ﴾ فلنر المقطع الأول .

☆ ☆ ☆

المقطع الأول

ويمتدّ من الآية (١١) إلى نهاية الآية (١٤٨) وهذا هو :

فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾ بَلْ
عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ
﴿١٤﴾ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ
﴿١٦﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ
وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ
ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ * ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟
يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم
مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾ وَأَقْبَلَ
بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟
بَل لَّمْ تَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ ۖ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا
طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ ۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ
﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ
﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا

لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾
إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ
ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ ۖ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِى جَنَّٰتِ
ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍۭ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ
لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ
عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾
قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا
مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ
فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى
لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ
بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ
﴿٦١﴾ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾
إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ
لَأَكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾
ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَوْاْ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ

عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ يُهۡرَعُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَقَدۡ ضَلَّ قَبۡلَهُمۡ أَكۡثَرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا
فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ
ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٧٤﴾ وَلَقَدۡ نَادَىٰنَا نُوحٞ فَلَنِعۡمَ ٱلۡمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥ مِنَ
ٱلۡكَرۡبِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلۡبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي
ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٖ فِي ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ
﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ ﴿٨٢﴾ * وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ
لَإِبۡرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذۡ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلۡبٖ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَاذَا تَعۡبُدُونَ
﴿٨٥﴾ أَئِفۡكًا ءَالِهَةٗ دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ
نَظۡرَةٗ فِي ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٞ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ مُدۡبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ
ءَالِهَتِهِمۡ فَقَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمۡ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيۡهِمۡ ضَرۡبَۢا بِٱلۡيَمِينِ
﴿٩٣﴾ فَأَقۡبَلُوٓاْ إِلَيۡهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعۡبُدُونَ مَا تَنۡحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ
﴿٩٦﴾ قَالُواْ ٱبۡنُواْ لَهُۥ بُنۡيَٰنٗا فَأَلۡقُوهُ فِي ٱلۡجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ
ٱلۡأَسۡفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبۡ لِي مِنَ
ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرۡنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٖ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ
إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ

سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ
أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا
لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾
سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ
﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن
ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾
وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ
﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ
﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى
ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ
﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ
﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا
عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾
إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ وَإِنَّ
لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ

﴿ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ (١٣٦) وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٣٨) وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٩) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١٤٠) فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (١٤١) فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (١٤٢) فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤) * فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ (١٤٥) وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ (١٤٦) وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (١٤٧) فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ (١٤٨) ﴾

التفسير :

﴿ **فاستفتهم** ﴾ أي استخبر الكافرين ﴿ **أهم أشدّ خلقاً** ﴾ أي أقوى أو أصعب وأشق ﴿ **أم مَّن خلقنا** ﴾ من الملائكة والسموٰات والأرض وما بينهما قال النسفي : (وجيء بمَنْ تغليباً للعقلاء على غيرهم) ﴿ **إنا خلقناهم من طين لازب** ﴾ أي لاصق أو لازم . ومعنى الآية : أن من هان عليه خلق هذه الخلائق العظيمة ، ولم يصعب عليه اختراعها ، كان خلق البشر عليه أهون ، وذكر خلقهم من طين احتجاج عليهم بأنّ الطين اللازب الذي خلقوا منه تراب ، فمن أين استنكروا أن يخلقوا من تراب قال ابن كثير : (يقول تعالى : فسل هؤلاء المنكرين للبعث أيما أشد خلقاً هم أم السموٰات والأرض ، وما بينهما من الملائكة والشياطين والمخلوقات العظيمة ... ؟ فإنّهم يقرّون أنّ هذه المخلوقات أشدّ خلقاً منهم ، وإذا كان الأمر كذلك فلم ينكرون البعث ؟ وهم يشاهدون ما هو أعظم ممّا أنكروا ... ثم بيّن أنهم خلقوا من شيء ضعيف هو الطين اللازب أي الجيّد الذي يلزق بعضه ببعض) .

كلمة في السياق :

هذه الآية جسر للانتقال إلى موضوع اليوم الآخر وهي جسر يبيّن أنّ موضوع اليوم الآخر مرتبط بموضوع الإيمان بالله ، فالسياق أشعرنا أنّ مجرد معرفة أن الله هو

الخالق لما ذكر فهذا يقتضي إيماناً بالبعث ، والسّياق أشعرنا أنّ الكافرين لا يعطون هذا اللازم حقه ، ومن ثَمَّ أمر الله رسوله ﷺ أن يوجه لهم هذا السؤال ليقيم عليهم الحجة من خلاله ، ومن هذا نفهم أنّ الذي لا يؤمن باليوم الآخر ليس مؤمناً بالله أصلاً ، ومن ثَمَّ ندرك كيف أن السورة مع أنها تصبُّ في سياقها الرئيسي في موضوع التوحيد فهي تتعرض لموضوع اليوم الآخر ، وغيره من المواضيع الإيمانية ، وما ذلك إلا لأن التوحيد الكامل يدخل فيه موضوع الإيمان باليوم الآخر والرسل ، فمن لا يؤمن باليوم الآخر يتصوَّر أن هذا الكون خلقه الله سدىً وعبثاً ، ومن لم يؤمن بالرسل يتصور أن الله عز وجل يهمل ويترك عباده بلا هداية ، وكل ذلك يتنافى مع التصور الصحيح لموضوع الألوهية ، وبالتالي فهو يتنافى مع التوحيد الحق الخالص ، ولنمض في التفسير :

....

﴿ **بل عجبت ويسخرون** ﴾ قال ابن كثير : (أي : بل عجبت يا محمد من تكذيب هؤلاء المنكرين للبعث ، وأنت موقن مصدِّق بما أخبر الله تعالى من الأمر العجيب ، وهو إعادة الأجسام بعد فنائها ، وهم بخلاف أمرك من شدة تكذيبهم يسخرون ممّا تقول لهم من ذلك) أي أنت تعجب من تكذيبهم لأن الأمر في غاية الوضوح عندك ، وهم يسخرون منك ، ومن تعجبك فالبعد بين الموقفين واضح ، كالبعد بين الموقف العقلي الحاسم الجازم ، والموقف النفسي الهازل ﴿ **وإذا ذُكِّروا لا يذكرون** ﴾ أي ودأبهم إذا وُعظوا لا يتعظون ، فهم مع موقفهم الهازل الساخر المكذّب ليس عندهم استعداد للسماع ولا للتذكُّر ﴿ **وإذا رأوا آية** ﴾ أي معجزة ، أو دلالة واضحة على صدق ما جئت به ﴿ **يَسْتَسْخِرون** ﴾ أي يبالغون في الاستهزاء منها ، أو يستدعي بعضهم بعضاً أن يسخر منها ، فلا الآيات تنفع لهم ، ولا التذكير ينفع بهم ، ولا عقل يخضعون لحكمه ، وأبشع من هذا كله أنهم يعتبرون الحقّ القطعي سحراً ﴿ **وقالوا إن** ﴾ أي ما ﴿ **هذا إلا سحر مبين** ﴾ أي ظاهر وما هو الذي سمُّوه سحراً ؟ إنّه البعث ﴿ **أئذا مِتنا وكنَّا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون** ﴾ يتساءلون سؤال إنكار ، أنُبعث إذا كنا تراباً وعظاماً ؟ ﴿ **أو آباؤنا الأوّلون** ﴾ أي أيبعث أيضاً آباؤنا الأقدمون ، ويعنون أنهم أقدم ، فبعثهم أبعد وأبطل ، وهكذا عرفنا لِمَ أمر الله عز وجل رسوله ﷺ أن يستفتي هؤلاء الكافرين الاستفتاء السابق ، ويوجّه لهم ذلك السؤال ، عرفنا أن ذلك من أجل هذا الموقف الذي وضّحه السياق فيما بعد ، وإنّما أخّره ليربط

بين موضوع الإيمان بالله والإيمان باليوم الآخر ، وليجعل ما قبل السؤال حجة في ردّ ما زعموه ، وفي تقرير أن اليوم الآخر لازم من لوازم الإيمان بالله ، وإذ قامت الحجة عليهم من قبل فإنّ الجواب على سؤالهم الاستنكاري ، يأتي الآن بشكل جواب تقريري ، وعرض لما سيكون ، قال تعالى : ﴿ **قل نعم وأنتم داخرون** ﴾ أي صاغرون. ذليلون قال ابن كثير : (أي قل لهم يا محمد نعم تبعثون يوم القيامة ، بعد ما تصيرون تراباً وعظاماً ، وأنتم داخرون : أي حقيرون تحت القدرة العظيمة ...) ﴿ **فإنّما هي زجرة واحدة** ﴾ أي صيحة واحدة والتقدير : إذا كان الأمر كما ذكر فما هي إلا صيحة واحدة ﴿ **فإذا هم ينظرون** ﴾ أي فإذا هم أحياء بصراء ينظرون إلى سوء أعمالهم ، أو ينتظرون ما يحل بهم قال ابن كثير : (أي فإنما هو أمر واحد من الله عز وجل يدعوهم دعوة واحدة أن يخرجوا من الأرض ، فإذا هم قيام بين يديه ينظرون إلى أهوال يوم القيامة ، عندئذ يرجعون على أنفسهم بالملامة ، ويعترفون بأنهم كانوا ظالمين لأنفسهم في الدار الدنيا ، فإذا عاينوا أهوال القيامة ندموا كل الندم ؛ حيث لا ينفعهم الندم ﴿ **وقالوا يا ويلنا هذا يوم الدين** ﴾ أي اليوم الذي ندان فيه ، أي نجازىٰ بأعمالنا ، والويل كلمة يقولها القائل وقت الهلكة ، قال ابن كثير : فتقول لهم الملائكة والمؤمنون ﴿ **هذا يوم الفصل** ﴾ أي يوم القضاء ، والفرق بين فِرَق الهدىٰ والضلال ﴿ **الذي كنتم به تكذبون** ﴾ يقال لهم هذا على وجه التقريع والتوبيخ ، قال ابن كثير : (ويأمر الله تعالى الملائكة أن تميّز الكفار من المؤمنين في الموقف ، في محشرهم ومنشرهم) ولهذا قال تعالى : ﴿ **احشروا الذين ظلموا** ﴾ أي : كفروا ، والخطاب للملائكة ﴿ **وأزواجهم** ﴾ أي أشباههم وأمثالهم وإخوانهم وقرناءهم ﴿ **وما كانوا يعبدون من دون الله** ﴾ أي من الأصنام والأنداد ، تحشر معهم في أماكنهم ﴿ **فاهدوهم إلى صراط الجحيم** ﴾ أي : فارشدوهم إلى طريق جهنم ، أي : دلّوهم إلى طريق النار ﴿ **وقفوهم** ﴾ أي احبسوهم ﴿ **إنهم مسؤولون** ﴾ عن أقوالهم وأفعالهم قال ابن عباس : يعني احبسوهم إنّهم محاسبون وقال ابن كثير : أي : قفوهم حتىٰ يسألوا عن أعمالهم وأقوالهم التي صدرت عنهم في الدار الدنيا ... ثم يقال لهم على سبيل التقريع والتوبيخ ﴿ **ما لكم لا تناصرون** ﴾ أي : لا ينصر بعضكم بعضاً ، وهذا توبيخ لهم بالعجز عن التناصر ، بعد ما كانوا متناصرين في الدنيا ﴿ **بل هم اليوم مستسلمون** ﴾ أي منقادون لأمر الله ، لا يخالفونه ولا يحيدون عنه قال النسفي : (أو قد أسلم بعضهم بعضاً ، وخذله عن عجز ، فكلّهم مستسلم غير منتصر) .

كلمة في السياق :

صوّر الله لنا حال الكافرين في الدنيا حيث يسخرون من رسول الله ﷺ ودعوته ، وينأون عن التذكير ، ويستسخرون من الآيات إذا رأوها ، ويستنكرون أن يكون هناك يوم آخر ، ثم صوّر لنا حالهم في الآخرة ، إذ ينقلب هذا كله ذلة واستسلاماً ، ومن تأمّل مثل هذا الإبداع في التصوير والتعبير - تصوير العناد في الدنيا وانقلابه استسلاماً في الآخرة - أدرك - بما لا يقبل الشك - أن مثل هذا التعبير جل عن طوق البشر ؛ إذ كيف يأتي التعبير بمثل هذه البلاغة والإحاطة في قضية ليست مطروقة إطلاقاً في كلام العرب ! ألَا إن الذين يكابرون في كون هذا القرآن من عند الله لجاهلون جهلاً فظيعاً .

....

﴿ **وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون** ﴾ أي : يتخاصمون ، والسياق يدل على أن هذا الخصام والتلاوم كان بين الأتباع والمتبوعين في عرصات القيامة ﴿ **قالوا** ﴾ أي الأتباع للمتبوعين ﴿ **إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين** ﴾ أي : عن القوة والقهر ، قال النسفي : إذ اليمين موصوفة بالقوة ، وبها يقع البطش ، أي : إنكم كنتم تحملوننا على الضلال ، وتقسروننا عليه قال ابن عباس : يقولون : كنتم تقهروننا بالقدرة منكم علينا ، لأنّا كنّا أذلاء ، وكنتم أعزاء ﴿ **قالوا** ﴾ أي : القادة والرؤساء من الجن والإنس للأتباع ﴿ **بل لم تكونوا مؤمنين** ﴾ أي : بل أبيتم أنتم الإيمان ، وأعرضتم عنه مع تمكّنكم منه ، مختارين له على الكفر ، غير ملجئين ، قال ابن كثير : (أي : ما الأمر كما تزعمون ، بل كانت قلوبكم منكرة للإيمان ، قابلة للكفر والعصيان) ﴿ **وما كان لنا عليكم من سلطان** ﴾ أي من تسلّط نسلبكم به تمكّنكم واختياركم ، قال ابن كثير : أي :من حجّة على صحة ما دعوناكم إليه ﴿ **بل كنتم قوماً طاغين** ﴾ أي بل كنتم قوماً مختارين للطغيان قال ابن كثير : (أي : بل كان فيكم طغيان ومجاوزة للحق ، فلهذا استجبتم لنا ، وتركتم الحق الذي جاءكم به الأنبياء ، وأقاموا لكم الحجج على صحة ما جاؤوكم به فخالفتموهم) ﴿ **فحق علينا قول ربنا** ﴾ أي فلزمنا جميعاً وعيد الله ﴿ **إنا لذائقون** ﴾ أي بأنا لذائقون لعذابه لا محالة ؛ لعلمه بحاله ، قال ابن كثير : يقول الكبراء للمستضعفين : حقت علينا كلمة الله : إنّا من الأشقياء الذائقين للعذاب يوم القيامة ﴿ **فأغويناكم** ﴾ أي : فدعوناكم إلى الضلالة والغي ﴿ **إنّا كنا غاوين** ﴾ أي : فأردنا إغواءكم لتكونوا مثلنا ، أي : فدعوناكم إلى ما نحن فيه فاستجبتم لنا قال الله تعالى

مقرّراً ما يستحقه الجميع ﴿ **فإنهم** ﴾ أي : الأتباع والمتبوعين ﴿ **يومئذ** ﴾ أي : يوم القيامة ﴿ **في العذاب مشتركون** ﴾ كما كانوا مشتركين في الغواية قال ابن كثير : أي : الجميع في النار كل بحسبه ﴿ **إنا كذلك** ﴾ أي : مثل ذلك الفعل ﴿ **نفعل بالمجرمين** ﴾ أي : بالمشركين أي : بكل مجرم ﴿ **إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون** ﴾ أي : إذا سمعوا بكلمة التوحيد استكبروا وأبوا إلا الإشراك قال ابن كثير : أي : يستكبرون أن يقولوها كما يقولها المؤمنون ﴿ **ويقولون أئنا لتاركوا آلهتنا لِشَاعر مجنون** ﴾ أي : أنحن نترك عبادة آلهتنا وآلهة آبائنا عن قول هذا الشاعر المجنون ، يصفون رسول الله ﷺ بذلك ، وحاشاه ، قال الله تعالى تكذيباً لهم ورداً عليهم ﴿ **بل جاء** ﴾ أي : محمد ﷺ ﴿ **بالحق** ﴾ في كل ما جاء به من الأخبار والطلب ﴿ **وصَدَّق المرسلين** ﴾ قال ابن كثير : (أي صدّقهم فيما أخبروا عنه من الصفات الحميدة ، والمناهج السديدة ، وأخبر عن الله تعالى في شرعه وأمره كما أخبروا ...) .

....

كلمة في السياق :

١ - لقد علل الله عز وجل لما أصاب الكافرين في الآخرة بقوله ﴿ **إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون * ويقولون أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون** ﴾ مما يدل على أن أصل البلاء ومشكلته الكبرىٰ هو الشرك ، وأن الداء الذي ينبع عنه كل شر هو الشرك ؛ فعنه ينبثق الكفر باليوم الآخر ، وعنه ينبثق الكفر بالرسل عليهم الصلاة والسلام ، ومن ثَمَّ قلنا إن السياق الرئيسي للسورة يصب في موضوع التوحيد ، والمواضيع الأخرىٰ التي تتحدث عنها السورة كلها تتفرّع عن هذا الأصل .

٢ - من السياق نعلم أن هناك موضوعين رئيسيين متفرّعين عن قضية التوحيد ، هما : قضية اليوم الآخر ، وقضية بعثة الرسل ، ومن ثَمَّ نلاحظ أن هذا المقطع كله يتحدّث عن موضوع الإيمان باليوم الآخر ، والرسل عليهم الصلاة والسلام ، ولذلك فقد جاء في وسط الكلام عن اليوم الآخر قوله تعالى ﴿ **بل جاء بالحق وصدَّق المرسلين** ﴾ وذلك بعد ذكر الشرك مباشرة .

٣ - وفي هذا السياق مَرّ معنا قول السادة للأتباع ﴿ **بل لم تكونوا مؤمنين** ﴾ فإذا تذكرنا أن (لا إله إلا الله) هي أساس الإيمان ، وإذا كان السياق كله في موضوع

(لا إله إلا الله) نعرف صلة السورة بالآيات الأولى من سورة البقرة ، وخاصة في قوله تعالى ﴿ **يؤمنون بالغيب ... يؤمنون بما أُنزل إليك وما أُنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون** ﴾ ولنمض في التفسير ملاحظين أن السياق لازال يحدّثنا عن مشاهد يوم القيامة :

....

﴿ **إنكم لذائقو العذاب الأليم** ﴾ أي عذاب النار ﴿ **وما تجزون إلا ما كنتم تعملون** ﴾ فليس عقابكم وتعذيبكم ظلماً ﴿ **إلا عباد الله المخلَصين** ﴾ فهؤلاء مستثنون من العذاب قال ابن كثير : (أي ليسوا يذوقون العذاب الأليم ، ولا يناقشون في الحساب ، بل يتجاوز عن سيئاتهم إن كان لهم سيئات ، ويجزون الحسنة بعشر أمثالها ، إلى سبعمائة ضعف ، إلى أضعاف كثيرة ، إلى ما يشاء الله من التضعيف) ﴿ **أولئك لهم رزق معلوم** ﴾ يعني الجنة ثمّ فسّره بقوله : ﴿ **فواكه وهم مكرمون** ﴾ أي يُخدمون ويُرَفهون وينعمون ﴿ **في جنات النعيم** ﴾ أي وهم منعَّمون في جنات النعيم ، فهم في الجنة مكرمون مرزوقون قال النّسفي : (فسّر الرزق المعلوم بالفواكه وهي كل ما يتلذذ به ، ولا يتقوّت لحفظ الصحة ، يعني أن رزقهم كله فواكه ، لأنهم مستغنون عن حفظ الصحة بالأقوات ، لأن أجسادهم محكمة مخلوقة للأبد ، فما يأكلونه للتلذذ ، ويجوز أن يراد رزق معلوم منعوت بخصائص خلق عليها من طيب طعم ورائحة ولذة وحسن منظر ، وقيل معلوم الوقت كقوله : ﴿ **ولهم رزقهم فيها بكرةً وعشياً** ﴾ [مريم : ٦٢] والنفس إليه أسكن) ﴿ **على سرر متقابلين** ﴾ قال مجاهد : (أي) لا ينظر بعضهم إلى قفا بعض وقال النسفي : التقابل أتم للسرور والأنس ﴿ **يُطَاف عليهم بكأس من معين** ﴾ أي من شراب مَعِين ، أو من نهر معين : وهو الجاري على وجه الأرض ، الظاهر للعيون ، ووصف بما وصف به الماء لأنه يجري في الجنة كما يجري الماء كما سنرىٰ في سورة محمد ﷺ والكأس : هي الزّجاجة إذا كان فيها الخمر ، وتسمّىٰ الخمر نفسها كأساً قال ابن كثير : (أي بخمر من أنهار جارية لا يخافون انقطاعها ولا فراغها) ﴿ **بيضاء لذّة للشاربين** ﴾ أي لونها مشرق حسن بهي ، لا كخمر الدنيا في منظرها البشع الرديء ، من حمرة أو سواد ، أو اصفرار ، أو كدورة ، إلى غير ذلك مما ينفّر الطبع السليم ، ووصفت بأنّها لذة للشاربين بمعنىٰ : أنها ذات لذّة ، أو أنها اللذة عينها قال ابن كثير : (أي طعمها طيّب كلونها ، وطيب الطعام دليل على طيب الريح ، بخلاف خمر الدنيا في ذلك كله) ﴿ **لا فيها غول** ﴾ أي لا تغتال عقولهم كخمر الدنيا

﴿ **ولا هم عنها ينزفون** ﴾ أي يسكرون قال مجاهد : لا تذهب عقولهم قال ابن كثير : (وقال الضحاك عن ابن عباس : في الخمر أربع خصال : السُّكر ، والصداع ، والقيء ، والبول ، فذكر الله تعالى خمر الجنة فنزَّهها عن هذه الخصال) كما ذكر في سورة الصافات ﴿ **وعندهم قاصرات الطرف** ﴾ أي عفيفات لا ينظرن إلى غير أزواجهن قال النسفي : أي قصرن أبصارهن على أزواجهن ، لا يمددن طرفاً إلى غيرهم ﴿ **عين** ﴾ جمع عيناء أي نجلاء واسعة العين ، أي حسان الأعين ، قال ابن كثير : (وهي النجلاء العيناء ، فوصف عيونهن بالحسن والعفة) ﴿ **كأنهنّ بيض مكنون** ﴾ أي مصون ، شبّهه ببيض النّعام المكنون في الصفاء ، وبها تُشبّه العرب النساء وتسمّيهن بيضات الجذور قال ابن كثير : (وصفهنّ بترافة الأبدان بأحسن الألوان) .

كلمة في السياق :

قال تعالى في الآيات المارّة ﴿ **إنكم لذائقو العذاب الأليم * وما تجزون إلا ما كنتم تعملون * إلا عباد الله المخلصين * أولئك لهم رزق معلوم ...** ﴾ ثم وصف تعالى الرزق المعلوم ، لاحظ كلمة ﴿ **أولئك** ﴾ وتذكر ما ختم الله تعالى به الآيات الأولى من سورة البقرة ﴿ **أولئك على هدىً من ربهم وأولئك هم المفلحون** ﴾ فكأن الآيات هنا تصف فلاحهم فتقول ﴿ **أولئك لهم رزق معلوم * فواكه وهم مكرمون * في جنّات النّعيم * على سرر متقابلين * يطاف عليهم بكأس من معين * بيضاء لذّة للشاربين * لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون * وعندهم قاصرات الطرف عين * كأنهن بيض مكنون** ﴾ فإذا كان تحديدنا محور السورة صحيحاً ، وإذا كانت هذه الآيات تفصيلاً لفلاح المتقين ، فإن عباد الله المخلَصين إذن هم المتقون الذين ورد تحديد صفاتهم في أول سورة البقرة ، وعلى هذا فقوله تعالى ﴿ **إلا عباد الله المخلَصين** ﴾ له صلة وارتباط بقوله تعالى : ﴿ **ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين * الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون * والذين يؤمنون بما أُنزل إليك وما أُنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون * أولئك على هدىً من ربهم وأولئك هم المفلحون** ﴾ ويستمر السياق في السورة مكمّلاً وصف حال أهل الجنة ، فيصف الآن مشهداً من مشاهد جلساتهم .

....

﴿ **فأقبل بعضهم** ﴾ يعني أهل الجنة ﴿ **على بعض يتساءلون** ﴾ جاء هذا بعد قوله

تعالى فيما مَرّ ﴿ **يُطاف عليهم بكأس من معين** ﴾ فالمعنى : أنهم يشربون ويتحادثون على الشراب كعادة الشّراب ، فيقبل بعضهم على بعض يتساءلون عما جرى لهم وعليهم في الدنيا قال ابن كثير : (يخبر تعالى عن أهل الجنة أنّه أقبل بعضهم على بعض يتساءلون ، أي عن أحوالهم ، وكيف كانوا في الدنيا ، وماذا كانوا يعانون فيها ، وذلك من حديثهم على شرابهم ، واجتماعهم في تنادمهم ، ومعاشرتهم في مجالسهم ، وهم جلوس على السرر ، والخدم بين أيديهم ، يسعون ويجيئون بكل خير عظيم ، من مآكل ومشارب وملابس وغير ذلك ، ممّا لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر) ﴿ **قال قائل منهم إني كان لي قرين** ﴾ قال ابن عباس : هو الرجل المشرك يكون له صاحب من أهل الإيمان في الدنيا ﴿ **يقول** ﴾ المشرك للمؤمن ﴿ **أئنك لمن المصدّقين** ﴾ أي بيوم الدين قال ابن كثير : (أي أأنت تصدّق بالبعث والنّشور ، والحساب والجزاء ؟! يعني يقول ذلك على وجه التعجّب والتكذيب والاستبعاد والكفر والعناد) ﴿ **أئذا متنا وكُنّا تراباً وعظاماً أئنا لمدينون** ﴾ أي لمحاسبون ومجزيّون بأعمالنا ﴿ **قال** ﴾ ذلك القائل ﴿ **هل أنتم مطّلعون** ﴾ إلى النار لأريكم ذلك القرين ﴿ **فاطّلع** ﴾ المسلم ﴿ **فرآه** ﴾ أي قرينه ﴿ **في سواء الجحيم** ﴾ أي في وسطها ﴿ **قال** ﴾ المؤمن ﴿ **تالله إن** ﴾ أي إنه ﴿ **كدت لَترْدِين** ﴾ أي لتهلكني لو أطعتك ﴿ **ولولا نعمة ربي** ﴾ أي عصمته وتوفيقه في الاستمساك بعروة الإسلام ﴿ **لكنتُ من المحضرين** ﴾ أي من الذين أحضروا العذاب كما أحضرته أنت وأمثالك قال ابن كثير : (أي ولولا فضل الله عليّ لكنتُ مثلك في سواء الجحيم ، حيث أنت ، محضر معك في العذاب ، ولكنّه تفضّل عليّ ورحمني فهداني للإيمان ، وأرشدني إلى توحيده ..) ﴿ **أفما نحن بميِّتين إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعذَّبين** ﴾ قال ابن كثير :

(هذا من كلام المؤمن مغتبطاً نفسه بما أعطاه الله تعالى من الخلد في الجنة ، والإقامة في دار الكرامة ، بلا موت فيها ولا عذاب) قال النسفي : (وهذا قوله يقوله المؤمن تحدّثاً بنعمة الله ، بمسمع من قرينه ، ليكون توبيخاً له ، وزيادة تعذيب) ، يقرّعه على اعتقاده في الدنيا أن لا بعث ولا عذاب ، وما ثَمَّ إلا الموتة الأولى ثم قال المؤمن لقرينه ﴿ **إنّ هذا** ﴾ أي الأمر الذي نحن فيه ﴿ **لهو الفوز العظيم** ﴾ .

....

كلمة في السياق :

١ - لاحظ الصلة بين قوله تعالى في محور السورة من سورة البقرة ﴿ **وبالآخرة هم يوقنون * أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون** ﴾ وبين قوله تعالى ﴿ **إن هذا لهو الفوز العظيم** ﴾ فالسياق ههنا يحدّثنا عن مظهر ثان من مظاهر فلاح أهل الإيمان .

٢ - جاء في أوائل المقطع الذي نحن فيه قوله تعالى : ﴿ **بل عجبت ويسخرون ... أئذا متنا وكُنّا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون** ﴾ لاحظ صلة ذلك بالمشهد الذي نحن فيه ﴿ **تالله إن كدت لتردين ... أفما نحن بميّتين * إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعذّبين** ﴾ .

إنّ للمقطع وحدته ضمن سياق السّورة ، وللسورة وحدتها ضمن الوحدة القرآنية العامّة ، من حيث ارتباطها بما قبلها ، وبما بعدها ، ومن حيث ارتباطها بمحورها من سورة البقرة .

....

وبعد أن قصّ الله علينا حال أهل الجنة وفوزهم وفلاحهم حثّنا على العمل فقال ﴿ **لمثل هذا فليعمل العاملون** ﴾ أي لمثل هذا النعيم ، وهذا الفوز ، فليعمل العاملون في الدنيا ليصيروا إليه في الآخرة ﴿ **أذلك** ﴾ أي نعيم الجنة وما فيها من اللذات ، والطعام والشراب ﴿ **خير نزلاً** ﴾ النُزُل : ما يُقدّم للنازل بالمكان من الرزق ﴿ **أم شجرة الزقّوم** ﴾ خير نزلاً ؟! يقول ابن كثير : (يقول الله تعالى : أهذا الذي ذكره من نعيم الجنة وما فيها من مآكل ومشارب ومناكح وغير ذلك من الملاذ ، خير ضيافة وعطاءً ، أم شجرة الزقوم أي التي في جهنم) ﴿ **إنا جعلناها فتنة للظالمين** ﴾ أي محنة وعذاباً لهم في الآخرة ، أو ابتلاءً لهم في الدنيا ، وذلك أنهم قالوا : كيف يكون في النّار شجرة والنار تحرق الشجر ؟ فكذّبوا . قال ابن كثير : (ومعنى الآية : إنما أخبرناك يا محمد بشجرة الزقوم ؛ اختباراً تختبر به الناس ، من يصدّق منهم ممّن يكذب ...) ﴿ **إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم** ﴾ قال ابن كثير : أي أصل منبتها في قرار النار ﴿ **طلعها** ﴾ أي ثمرها ﴿ **كأنه رؤوس الشياطين** ﴾ قال ابن كثير : (تبشيع لها ، وتكريه لذكرها ... وإنّما شبّهها برؤوس الشياطين - وإن لم تكن معروفة عند

المخاطبين - لأنه قد استقر في النفوس أن الشياطين قبيحة المنظر) وقال النسفي : (وشبّه (أي طلعها) برؤوس الشياطين للدلالة على تناهيه في الكراهة ، وقبح المنظر ، لأن الشيطان مكروه ، مستقبح في طباع الناس ؛ لاعتقادهم أنه شر محض) ﴿ **فإنهم لآكلون منها** ﴾ أي من طلعها ﴿ **فمالئون منها البطون** ﴾ أي فمالئون منها بطونهم لما يغلبهم من الجوع الشديد ﴿ **ثم إن لهم عليها لشَوْباً** ﴾ أي لخلطاً ولمزاجاً ﴿ **مَن حميم** ﴾ أي من ماء حار يشوي وجوههم ، ويقطّع أمعاءهم قال النسفي والمعنى : (ثم إنهم يملئون البطون من شجرة الزقوم : وهو حار يحرق بطونهم ، ويعطشهم فلا يسقون إلا بعد مليّ ؛ تعذيباً لهم بذلك العطش ، ثم يسقون ما هو أحرّ ، وهو الشراب المشوب بالحميم) وقد فسر بعضهم الشوب بأنه مزيج من الحميم والصّديد والغَسّاق مما يسيل من فروجهم وعيونهم ﴿ **ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم** ﴾ قال النسفي : (أي أنهم يذهب بهم عن مقارّهم ومنازلهم في الجحيم ، وهي الدركات التي أسكنوها ، إلى شجرة الزقوم فيأكلون إلى أن يمتلئوا ، ويسقون بعد ذلك ، ثم يرجعون إلى دركاتهم) ثمّ علّل استحقاقهم للوقوع في تلك الشدائد بتقليد الآباء في الدّين ، واتّباعهم إياهم في الضلال ، وترك اتّباع الدليل فقال تعالى : ﴿ **إنهم ألْفَوا آباءهم ضالين * فهم على آثارهم يهرعون** ﴾ الإهراع : الإسراع الشديد ، كأنّهم يحثون حثاً قال ابن كثير : (أي إنما جازيناهم بذلك لأنهم وجدوا آباءهم على الضلالة فاتّبعوهم فيها بمجرد ذلك من غير دليل ولا برهان) ﴿ **ولقد ضل قبلهم** ﴾ أي قبل كفار هذه الأمة ﴿ **أكثر الأوّلين** ﴾ أي أكثر الأمم الخالية بالتقليد ، وترك النظر ، والتأمّل ﴿ **ولقد أرسلنا فيهم منذرين** ﴾ أي أنبياء حذّروهم العواقب ﴿ **فانظر كيف كانت عاقبة المنذَرين** ﴾ أي الذين أُنذروا وحُذّروا ﴿ **إلا عباد الله المخلَصين** ﴾ أي الذين أخلصهم الله لدينه ، فهؤلاء نجّاهم ونصرهم وظفّرهم .

....

كلمة في السياق :

١ - تكرّر قوله تعالى ﴿ **إلا عباد الله المخلَصين** ﴾ حتى الآن مرتين :

المرة الأولى : جاءت في سياق قوله تعالى ﴿ **إنكم لذائقو العذاب الأليم * وما تجزون إلا ما كنتم تعملون * إلا عباد الله المخلصين** ﴾ .

والمرة الثانية : ههنا في سياق قوله تعالى ﴿ **ولقد أرسلنا فيهم منذِرين * فانظر كيف كان عاقبة المنذَرين * إلا عباد الله المخلَصين** ﴾ .

وفي المرة الأولى بيّن أنّهم ناجون من عذاب يوم القيامة ؛ وفي المرة الثانية بيّن أنهم ناجون من عذاب الاستئصال في الدنيا ، فإذا تذكّرنا محور السورة من سورة البقرة ، وتذكّرنا قوله تعالى ﴿ **أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون** ﴾ ، عرفنا أن فلاح المتقين كائن في الدنيا ؛ إذ ينجّيهم الله من عذابه ، وفي الآخرة إذ ينجيهم الله من عذابه ، ومن قبل ذكرنا أن المخلَصين هم المتقون ، أخذنا ذلك من صلة السورة بمحورها . وبعد هذا البيان والتقرير يأتي دور التمثيل في المقطع ، فيعرض الله علينا مثلاً من نوح وإبراهيم وموسىٰ وهارون وإلياس ولوطاً ويونس عليهم الصلاة والسلام ، وكأن المقطع ينقسم إلى مجموعتين رئيسيتين : مجموعة تقرّر المعاني ، وأخرى تضرب الأمثال .

٢ - لقد جاء فيما مرّ معنا من السورة قوله تعالى ﴿ **بل جاء بالحق وصدّق المرسلين** ﴾ وجاء قوله تعالى ﴿ **ولقد ضل قبلهم أكثر الأولين * ولقد أرسلنا فيهم منذِرين * فانظر كيف كان عاقبة المنذَرين** ﴾ والآن يأتي دور التمثيل لكيفية كون دعوة الرسل واحدة ، ولتصديق محمد ﷺ للمرسلين السابقين ، ودعوتهم الحق القائمة على التوحيد ، وتكذيب الأكثرية لذلك ، وبماذا عوقبوا ، والتمثيل لمواقف الرسل الإيمانية التي هي القدوة العليا ، وغير ذلك مما تحتاجه المعاني السابقة من أمثلة قائمة ، وسنرىٰ ذلك ، وصلته بسياق المقطع ، وسياق السورة ، وصلة ذلك بالمحور ، وقبل أن نبدأ عرض المجموعة الثانية من المقطع فلننقل بعض الفوائد المتعلّقة بما مَرَّ .

فوائد :

١ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وقفوهم إنهم مسئولون** ﴾ قال ابن كثير : (وروى ابن أبي حاتم عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أيما داع دعا إلى شيء كان موقوفاً معه إلى يوم القيامة ، لا يغادره ولا يفارقه وإن دعا رجل رجلاً » ثم قرأ ﴿ **وقفوهم إنهم مسؤولون** ﴾ ورواه الترمذي من حديث ليث ابن أبي سليم ، ورواه ابن جرير عن يعقوب بن إبراهيم عن معتمر عن ليث عن رجل عن أنس رضي الله عنه مرفوعاً ، وقال عبد الله بن المبارك سمعت عثمان بن زائدة يقول : إن أول ما يسئل عنه الرجل جلساؤه) .

٢ - اعتمدنا في قوله تعالى ﴿ **إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين** ﴾ أن المراد باليمين القوة والقهر ، إلا أننا نحب أن نسجل هنا ملاحظة وهي أن المفسرين في هذا المقام كثر كلامهم ، ولا يكون الأمر كذلك إلا لأن النص يحتمل ، ولا يأتي أحد بما يقطع ، وقد عرض ابن كثير أقوال المفسرين ، ولنا في الأخير كلمة نقولها قال ابن كثير : (قال الضحاك عن ابن عباس يقولون كنتم تقهروننا بالقدرة منكم علينا ، لأنا كنا أذلاء ، وكنتم أعزاء ، وقال مجاهد يعني : عن الحق والكفار تقوله للشياطين . وقال قتادة قالت الإنس للجن : إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين ، قال من قِبَل الخير فتنهونا عنه ، وتبطّئونا عنه ، وقال السدي : تأتوننا من قِبَل الحق ، وتزيِّنوا لنا الباطل ، وتصدّونا عن الحق . وقال الحسن في قوله تعالى ﴿ **إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين** ﴾ أي والله يأتيه عند كل خير يريده فيصدّه عنه ، وقال ابن زيد معناه : تحولون بيننا وبين الخير ، ورددتمونا عن الإسلام والإيمان والعمل بالخير الذي أمرنا به . وقال يزيد : الشك من قِبَل لا إله إلا الله ، وقال خصيف : يعنون من قِبَل ميامنهم ، وقال عكرمة ﴿ **إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين** ﴾ قال : من حيث نأمنكم) .

أقول : في عصرنا طرح موضوع اليمين واليسار ، وأصبح اليسار يعتبر عند بعض الناس علامة على الرغبة في التقدم والتخلّص من عراقيل الماضي ، وأصبحت من أكبر الشتائم أن تقول لإنسان أنت يميني ، واتفق اليسار على أن يعتبر المتديِّنين جميعاً يمينيّين ، وأصبح كثير من الناس يفرون من التدين خوفاً من أن يتهموا بأنّهم يمينيون رجعيون ، فهل تحتمل الآية - من جملة ما تحتمل - الإشارة إلى هؤلاء الناس الذين يصرفون الناس عن الإسلام بدعوى أنّ الإسلام يمينيّ ، فيكون معنىٰ الآية : إنكم كنتم تأتوننا عن طريق مهاجمة اليمين لتصرفونا عن الإسلام ، لا نزعم أن الآية تعني هذا قطعاً ، ولكن التعبير يحتمله ، وذلك من مظاهر الإعجاز القرآني ، إذ يعطي التعبير فيه في كل عصر عبيراً خاصاً . والله أعلم .

٣ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون** ﴾ قال ابن كثير : (روى ابن أبي حاتم عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أُمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فمن قال لا إله إلا الله فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله عز وجل » وأنزل الله في كتابه العزيز ، وذكر قوماً استكبروا فقال تعالى ﴿ **إنهم كانوا إذا قيل لهم**

لا إله إلا الله يستكبرون ﴾ وروى ابن أبي حاتم أيضاً عن أبي العلاء قال : يؤتى باليهود يوم القيامة فيقال لهم : ما كنتم تعبدون ؟ فيقولون : نعبد الله وعزيراً فيقال لهم : خذوا ذات الشمال ، ثم يؤتى بالنصارى فيقال لهم : ماذا كنتم تعبدون ؟ فيقولون : نعبد الله والمسيح ، فيقال لهم خذوا ذات الشمال ، ثم يؤتى بالمشركين فيقال لهم : لا إله إلا الله فيستكبرون ، ثم يقال لهم : لا إله إلا الله فيستكبرون ، ثم يقال لهم : لا إله إلا الله فيستكبرون ، فيقال لهم : خذوا ذات الشمال . قال أبو نضرة : فينطلقون أسرع من الطير ، قال أبو العلاء : ثم يؤتى بالمسلمين فيقال لهم : ما كنتم تعبدون ؟ فيقولون : كنا نعبد الله تعالى ، فيقال لهم : هل تعرفونه إذا رأيتموه ؟ فيقولون : نعم ، فيقال لهم : وكيف تعرفونه ولم تروه ؟ فيقولون : نعلم أنه لا عِدْلَ له ، قال : فيتعرَّف لهم تبارك وتعالى وتقدس وينجي الله المؤمنين) .

٤ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **كأنهن بيض مكنون** ﴾ قال ابن كثير : (وروى ابن أبي حاتم عن الربيع بن أنس عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أنا أول الناس خروجاً إذا بعثوا ، وأنا خطيبهم إذا وفدوا ، وأنا مبشرهم إذا حزنوا ، وأنا شفيعهم إذا حبسوا ، لواء الحمد يومئذ بيدي ، وأنا أكرم ولد آدم على الله عز وجل ولا فخر ، يطوف عليّ ألف خادم كأنهن البيض المكنون - أو اللؤلؤ المكنون - » والله أعلم بالصواب) .

٥ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **أذلك خير نزلاً أم شجرة الزقوم** ﴾ قال ابن كثير : (وقد يحتمل أن يكون المراد بذلك جنس شجر يقال له الزقوم كقوله تعالى : ﴿ **وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للآكلين** ﴾ [المؤمنون : ٢٠] يعني الزيتونة ، ويؤيد ذلك قوله تعالى ﴿ **ثم إنكم أيها الضالون المكذبون * لآكلون من شجر من زقوم** ﴾ [الواقعة : ٥١ ، ٥٢] وقوله عز وجل ﴿ **إنا جعلناها فتنة للظالمين** ﴾ قال قتادة : ذكرت شجرة الزقوم فافتتن بها أهل الضلالة ، وقالوا صاحبكم ينبئكم أن في النار شجرة ، والنار تأكل الشجر ، فأنزل الله تعالى ﴿ **إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم** ﴾ غذيت من النار ومنها خلقت . وقال مجاهد ﴿ **إنا جعلناها فتنة للظالمين** ﴾ قال أبو جهل - لعنه الله - : إنما الزقوم التمر والزبد أتزقمه (قلت) : ومعنى الآية إنما أخبرناك يا محمد بشجرة الزقوم اختباراً نختبر به الناس ، من يصدق منهم ممن يكذب ، كقوله تبارك وتعالى ﴿ **وما جعلنا الرؤيا التي**

أريناك إلا فتنة للناس * والشجرة الملعونة في القرآن ونخوّفهم فما يزيدهم إلا طغياناً كبيراً ﴾ [الإسراء : ٦٠]) .

وبمناسبة الكلام عن الزقوم قال ابن كثير : (روى ابن أبي حاتم رحمه الله عن مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية وقال : « اتقوا الله حق تقاته ، فلو أن قطرة من الزقوم قطرت في بحار الدنيا لأفسدت على أهل الأرض معايشهم ، فكيف بمن يكون طعامه ؟ » ورواه الترمذي والنسائي وابن ماجه من حديث شعبة وقال الترمذي : حسن صحيح) .

٦ - بمناسبة قوله تعالى ﴿ **ثم إن لهم عليها لشوباً من حميم** ﴾ قال ابن كثير : (وروى ابن أبي حاتم عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه كان يقول : « يقرب - يعني إلى أهل النار - ماء فيتكرهه فإذا أدنى منه شوى وجهه ووقعت فروة رأسه فيه فإذا شربه قطع أمعاءه حتى تخرج من دبره » وروى ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال :إذا أهل النار استغاثوا بشجرة الزقوم فأكلوا منها فاختلست جلود وجوههم فلو مارّاً مرّ بهم يعرفهم لعرفهم بوجوههم فيها ثم يصب عليهم العطش فيستغيثون فيغاثوا بماء كالمهل وهو الذي قد انتهى حره فإذا أدنوه من أفواههم اشتوى من حره لحوم وجوههم التي قد سقطت عنها الجلود ويصهر ما في بطونهم فيمشون أمعاءهم وتتساقط جلودهم ثم يضربون بمقامع من حديد فيسقط كل عضو على حياله يدعون بالثبور) .

٧ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **ثم إن مرجعهم لإلى الجحيم** ﴾ قال ابن كثير : (أي ثم إن مردهم بعد هذا الفصل لإلى نار تتأجج ، وجحيم تتوقد ، وسعير تتوهج ، فتارة في هذا ، وتارة في هذا ، كما قال تعالى ﴿ **يطوفون بينها وبين حميم آن** ﴾ [الرحمن : ٤٤] هكذا تلا قتادة هذه الآية وهو تفسير حسن قوي ، وقال السدي في قراءة عبد الله رضي الله عنه (ثم إن مقيلهم لإلى الجحيم) وكان عبد الله رضي الله عنه يقول : والذي نفسي بيده لا ينتصف النهار يوم القيامة حتى يقيل أهل الجنة في الجنة ، وأهل النار في النار ، ثم قرأ ﴿ **أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلاً** ﴾ [الفرقان : ٢٤] وروى الثوري عن عبد الله رضي الله عنه قال : لا ينتصف النهار يوم القيامة حتى يقيل هؤلاء ، ويقيل هؤلاء قال سفيان أراه ثم قرأ ﴿ **أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلاً** ﴾ ثم إن مقيلهم لإلى الجحيم (قلت) : على هذا التفسير

تكون ثم عاطفة لخبر على خبر) .

ولنعد إلى التفسير :

﴿ **ولقد نادانا نوح** ﴾ أي دعانا ﴿ **فلنعم المجيبون** ﴾ أي فوالله لنعم المجيبون نحن ، والجمع دليل العظمة والكبرياء والمعنى : أنا أجبناه أحسن الإجابة ، ونصرناه على أعدائه ، وانتقمنا منهم بأبلغ ما يكون ﴿ **ونجيناه وأهله** ﴾ أي ومن آمن به من الناس ومن أولاده ﴿ **من الكرب العظيم** ﴾ وهو الغرق أو التكذيب والأذى ﴿ **وجعلنا ذريّته هم الباقين** ﴾ من قومه أو من الناس كافة ﴿ **وتركنا عليه في الآخرين** ﴾ من الأمم هذه الكلمة وهي ﴿ **سلام على نوح** ﴾ يعني يسلّمون عليه تسليماً ، ويدعون له ﴿ **في العالمين** ﴾ أي ثبّت هذه التحيّة فيهم جميعاً ، ولا يخلو أحد منهم منها ، وكأنه قيل ثبّت الله التّسليم على نوح وأدامه في الملائكة والثقلين يسلّمون عليه من آخرهم ، ثم علّل مجازاته بتلك التكرمة السنيّة بأنّه كان محسناً ﴿ **إنا كذلك نجزي المحسنين** ﴾ أي هكذا نجزي من أحسن من العباد في طاعة الله تعالى ، نجعل له لسان صدق يذكر به بعده بحسب مرتبته في ذلك قال النّسفي : (ثمّ علّل كونه محسناً بأنّه كان عبداً مؤمناً ليريك جلالة محل الإيمان ، وأنه القصارى من صفات المدح والتّعظيم) ﴿ **إنّه من عبادنا المؤمنين** ﴾ أي المصدّقين الموحّدين الموقنين ﴿ **ثم أغرقنا الآخرين** ﴾ أي الكافرين أهلكناهم فلم تبق منهم عين تطرف ، ولا ذكر ولا أثر ، ولا يعرفون إلا بهذه الصفة القبيحة .

كلمة في السياق :

١ - قلنا : إنّ المقطع الأول من سورة الصافات ينقسم إلى مجموعتين : الأولى للتقرير ، والثانية للتمثيل ، وقد جعل الله بين ذلك جسراً انتقل به السياق من التقرير إلى التمثيل ، وهو قوله تعالى : ﴿ **ولقد أضل قبلهم أكثر الأوّلين * ولقد أرسلنا فيهم منذِرين * فانظر كيف كان عاقبة المنذَرين * إلا عباد الله المخلَصين** ﴾ ثم بدأ التمثيل بقوله تعالى ﴿ **ولقد نادانا نوح ...** ﴾ قال النسفي : (لما ذكر إرسال المنذرين في الأمم الخالية ، وسوء عاقبة المنذَرين ، أتبع ذلك ذكر نوح عليه السلام ، ودعاءه إياه حين أيس من قومه) وقال ابن كثير : (لما ذكر تعالى عن أكثر الأولين أنهم ضلوا عن سبيل النجاة ، شرع يبين ذلك مفصّلاً ؛ فذكر نوحاً عليه الصلاة والسلام ، وما لقي من

قومه من التكذيب ، وأنه لم يؤمن منهم إلا القليل ، مع طول المدة ، لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً ، فلما طال عليه ذلك ، واشتد عليه تكذيبهم ، وكلما دعاهم ازدادوا نفرة ؛ فدعا ربه أني مغلوب فانتصر ، فغضب الله تعالى لغضبه ...) .

٢ - في التمثيل بقصة نوح عليه السلام في سياق السورة توضيح لنجاة عباد الله المخلصين ، من عذاب الدنيا ، وتوضيح لقيمة الإيمان ، ونموذج على إرسال الله الرسل للإنذار ، ونموذج على أن هؤلاء الرسل هم المثل الأعلى للأخلاق الربانية من إحسان وإيمان .

٣ - في قوله تعالى عن نوح عليه السلام ﴿ **إنه من عبادنا المؤمنين** ﴾ إشارة إلى كون نوح عليه السلام من المّوحدين المؤمنين ، ومن ثم فإن قصة نوح خدَمت سياق السورة من عدة نواحٍ ، أولاً : في موضوع التوحيد ، ثانياً : في موضوع بعثة الرسل جميعاً بالتوحيد ، ثالثاً : في موضوع إنجاء الله المؤمنين من العذاب ، رابعاً : في إبراز قيمة الإيمان في موازين الله عز وجل ، وصلة ذلك كله بمحور السورة من سورة البقرة وخاصة قضية الإيمان واضحة .

﴿ **والذين يؤمنون بالغيب ... والذين يؤمنون بما أُنزل إليك وما أُنزل من قبلك ...** ﴾ إن نوحاً عليه السلام هو نموذج من النماذج العليا للإيمان ﴿ **إنه من عبادنا المؤمنين** ﴾ .

....

فوائد :

- بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وجعلنا ذريّته هم الباقين** ﴾ قال ابن كثير : (قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما يقول : لم تبق إلا ذرية نوح عليه السلام ، وقال سعيد بن أبي عروبة عن قتادة في قوله تبارك وتعالى ﴿ **وجعلنا ذريته هم الباقين** ﴾ قال : الناس كلهم من ذرية نوح عليه السلام ، وقد روى الترمذي وابن جرير وابن أبي حاتم من حديث سعيد بن بشير عن قتادة عن الحسن عن سمرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ في قوله تعالى ﴿ **وجعلنا ذريته هم الباقين** ﴾ قال : سام وحام ويافث . وروى الإمام أحمد عن الحسن عن سمرة رضي الله عنه أن نبي الله ﷺ قال : « سام أبو العرب ، وحام أبو الحبش ، ويافث أبو الروم » ورواه الترمذي ، قال الحافظ

أبو عمرو بن عبد البر : وقد روي عن عمران بن حصين رضي الله عنه عن النبي ﷺ مثله ، والمراد بالروم هههنا : هم الروم الأول ، وهم اليونان المنتسبون إلى رومي ابن ليطي بن يونان بن يافث بن نوح عليه السلام ثم روي من حديث إسماعيل بن عياش ابن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب قال : ولد نوح عليه السلام ثلاثة : سام ، ويافث ، وحام ، وولد كل واحد من هؤلاء الثلاثة ثلاثة : فولد سام العرب ، وفارس والروم ، وولد يافث الترك والصقالبة ، ويأجوج ومأجوج ، وولد حام القبط والسودان والبربر ، وروي عن وهب بن منبه نحو هذا والله أعلم) .

وفي سفر التكوين الإصحاح العاشر حديث عن أبناء نوح ، ومن تفرّعَ عنهم وهذا هو ننقله للاستئناس :

(وهذه مواليد بني نوح . سام وحام ويافث . وولد لهم بنون بعد الطوفان . بنو يافث جومر وماجوج وماداي وياوان وتوبال وما شك وتيراس . وبنو جومر أشكناز وريفات وتوجرمة . وبنو ياوان أليشة وترشيش وكتيم ودودانيم . من هؤلاء تفرقت جزائر الأمم بأراضيهم كل إنسان كلسانه حسب قبائلهم بأممهم .

وبنو حام كوش ومصرايم وفوط وكنعان . وبنو كوش سبأ وحويلة وسبتة ورعمة وسبتكا . وبنو رعمة شبا وددان . وكوش ولد نمرود الذي ابتدأ يكون جباراً في الأرض . الذي كان جبار صيدٍ أمام الرب . لذلك يقال كنمرود جبار صيدٍ أمام الرب . وكان ابتداء مملكته بابل وأرك وأكد وكلنة في أرض شنعار . من تلك الأرض خرج أشعور وبني نينوى ورحوبوت عَيْر وكالح ورسن بين نينوى وكالح . هي المدينة الكبيرة . ومصرايم ولد لوديم وعناميم ولهابيم ونفتوحيم وفتروسيم وكسلوحيم . الذين خرج منهم فلشتيم وكفتوريم . وكنعان ولد صيدون بكره وحثاً واليبوسي والأموري والجرجاشي والحوي والعرقي والسيني والأروادي والصماري والحماتي . وبعد ذلك تفرقت قبائل الكنعاني . وكانت تخوم الكنعاني من صيدون حينما تجيء نحو جرار إلى غزة وحينما تجيء نحو سدوم وعمورة وأدمة وصبوييم إلى لاشع . هؤلاء بنو حام حسب قبائلهم كألسنتهم بأراضيهم وأممهم .

وسام أبو كل بني عابر أخو يافث الكبير ولد له أيضاً بنون . بنو سام عيلام وأشور وأرفكشاد ولود وأرام . وبنو أرام عوص وحول وجاثر وماش . وأرفكشاد ولد شالح وشالح وكالح ولد عابر . ولعابر ولد ابنان . اسم الواحد فالج لأن في أيامه قسمت

الأرض . واسم أخيه يقطان . ويقطان ولد الموداد وشالف وحضرموت ويارح وهدورام وأوزال ودقلة وعوبال وأبيمايل وشبا وأوفير وحويلة ويوباب . جميع هؤلاء بنو يقطان . وكان مسكنهم من ميشا حينما تجيء نحو سفار جبل المشرق . هؤلاء بنو سام حسب قبائلهم كألسنتهم بأراضيهم حسب أممهم .

هؤلاء قبائل بني نوح حسب مواليدهم بأممهم . ومن هؤلاء تفرقت الأمم في الأرض بعد الطوفان) .

ولنعد إلى التفسير :

﴿ **وإن من شيعته** ﴾ أي من شيعة نوح عليه السلام أي ممن شايعه على أصول الدين ، أو شايعه على التصلّب في دين الله ، ومصابرة المكذبين ﴿ **لإبراهيم** ﴾ .

كلمة في السياق :

مَرّ معنا من قبل قوله تعالى عن رسولنا عليه الصلاة والسلام ﴿ **بل جاء بالحق وصدّق المرسلين** ﴾ وقد رأينا قصة نوح عليه السلام ، وكيف أنّه جاء بعدهما مباشرة قوله تعالى ﴿ **وإن من شيعته لإبراهيم** ﴾ وفي ذلك إشارة إلى أن الرسل جميعاً أسرة واحدة ، طريقهم واحد ، فالآية الأولى من قصة إبراهيم عليه السلام تخدم في سياق السورة هذا المعنى ، كما تخدم معاني أخرى سنراها .

....

﴿ **إذ جاء** ﴾ إبراهيم عليه السلام ﴿ **ربّه بقلب سليم** ﴾ من الشرك وآفات القلوب ، وهذه الآية تفسير لما في الشيعة في الآية السابقة من معنى المشايعة على الدين والتقوى ، فهذه الآية تبيّن نوع المشايعة الربانية الصحيحة أن يواطىء القلبُ القلبَ في الاعتقاد والصفاء ، ومعنى مجيء إبراهيم عليه السلام ربّه بقلب سليم : أنه أخلص لله قلبه ، وعلم الله ذلك منه ﴿ **إذ قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون** ﴾ أنكر عليهم عبادة الأصنام والأنداد ﴿ **أئفكاً آلهة دون الله تريدون** ﴾ أي أتريدون آلهة من دون الله إفكاً أي كذباً ﴿ **فما ظنّكم بربّ العالمين** ﴾ قال قتادة : يعني ما ظنّكم أنّه فاعل بكم إذا لقيتموه وقد عبدتم معه غيره وقال النسفي : (أي أيّ شيء ظنكم برب العالمين وأنتم تعبدون غيره ... أو فما ظنكم به ماذا يفعل بكم وكيف يعاقبكم وقد عبدتم غيره ،

وعلمتم أنه المنعم الحقيقي ، فكان حقيقاً بالعبادة ؟) وهذه الآية تفسّر القلب السليم بأنه القلب الموحّد ، النّافر من الشّرك ، المنكر على أهله .

كلمة في السياق :

من ذكر أن إبراهيم عليه السلام من شيعة نوح عليه السلام ، ومن ذكر إنكار إبراهيم عليه السلام على قومه الشرك نعلم أن إبراهيم ونوحاً كليهما بعثا بالتوحيد ، فإذا تذكّرنا قوله تعالى عن أهل النار ﴿ **إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون * ويقولون أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون * بل جاء بالحق وصدّق المرسلين** ﴾ إذا تذكّرنا هذا نعرف كيف أنّ هذا الجزء من المقطع تمثيل لما ورد في المجموعة الأولى ، فالرسل بعثوا بالتوحيد جميعاً ، ومحمد ﷺ مصدّق لهم في ذلك ، وصلة ذلك كله بالسياق الرئيسي للسورة ﴿ **إن إلهكم لواحد** ﴾ واضحة .

....

﴿ **فنظر** ﴾ إبراهيم عليه السلام ﴿ **نظرة في النجوم** ﴾ قال النسفي : (أي نظر في النجوم رامياً ببصره إلى السماء ، متفكّراً في نفسه كيف يحتال لإصلاح اعتقادهم ، أو أراهم أنه ينظر في النجوم لاعتقادهم علم النجوم ، فأوهمهم أنه استدلّ بأمارة على أنّه يسقم ﴿ **فقال إني سقيم** ﴾ أي ضعيف أو مشارف للسقم قال ابن كثير : (إنما قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام لقومه ذلك ليقيم في البلد إذا ذهبوا إلى عيدهم ، فإنه كان قد أزف خروجهم إلى عيد لهم ، فأحب أن يختلي بآلهتهم ليكسّرها ، فقال لهم كلاماً هو حق في نفس الأمر ، فهموا منه أنّه سقيم على مقتضىٰ ما يعتقدونه) ﴿ **فتولوا عنه مدبرين** ﴾ أي فأعرضوا عنه مولّين الأدبار ، وقد فهم بعضهم من هذا أنه ذكر لهم مرضاً يخافونه ، قال ابن عباس : فقالوا له وهو في بيت آلهتهم : اخرج فقال : إني مطعون ، فتركوه مخافة الطاعون ﴿ **فراغ إلى آلهتهم** ﴾ أي مال إليها سرّاً قال ابن كثير : (أي ذهب إليها بعد ما خرجوا في سرعة واختفاء) ﴿ **فقال** ﴾ للأصنام استهزاءً ﴿ **ألا تأكلون** ﴾ قال ابن كثير : وذلك أنهم كانوا قد وضعوا بين أيديها طعاماً قرباناً لتبرّك لهم فيه ﴿ **ما لكم لا تنطقون * فراغ عليهم ضرباً باليمين** ﴾ أي فأقبل ومال عليهم ضرباً بيمينه ، لأنّها أقوى الجارحتين ، وأشدّهما ، أو ضربهم بسبب اليمين الذي حلفه في قوله ﴿ **وتالله لأكيدن أصنامكم** ﴾ [الأنبياء : ٥٧] ﴿ **فأقبلوا إليه يزفّون** ﴾ أي يسرعون قال ابن كثير : (وهذه القصة ههنا مختصرة وفي سورة الأنبياء مبسوطة فإنّهم

لمّا رجعوا لم يعرفوا مِن أوّل وهلة من فعل ذلك حتىٰ كشفوا واستعلموا ، فعرفوا أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام هو الذي فعل ذلك ، فلمّا جاؤوا ليعاتبوه أخذ في تأنيبهم وعيبهم) ﴿ **قال أتعبدون ما تنحتون** ﴾ أي بأيديكم ﴿ **والله خلقكم وما تعملون** ﴾ أي الله خالقكم وخالق أعمالكم ، فلِمَ تعبدون غيره ؟ فعند ذلك لما قامت عليهم الحجة ، عدلوا إلى أخذه باليد والقهر على طريقة الظالمين المستكبرين ، إذ قامت عليهم الحجة ﴿ **قالوا ابنوا له بنياناً فألقوه في الجحيم** ﴾ أي في النّار الشّديدة ﴿ **فأرادوا به** ﴾ أي بإلقائه في النار ﴿ **كيداً** ﴾ أي أن يكيدوه ﴿ **فجعلناهم الأسفلين** ﴾ أي فجعلناهم المقهورين عند الإلقاء ، ونجّاه الله من النار ، وأظهره عليهم ، وأعلى حجته ونصرها .

....

كلمة في السياق :

في إنجاء الله عز وجل إبراهيم عليه السلام من النار نموذج ثان على إنجاء الله عز وجل عباده المخلَصين ، وهي إحدىٰ المعاني الرئيسية ، التي تمثل لها قصص هذه المجموعة من المقطع ؛ فلقد سبقت هذه المجموعة بقوله تعالى ﴿ **ولقد أرسلنا فيهم منذِرين * فانظر كيف كان عاقبة المنذَرين * إلا عباد الله المخلَصين** ﴾ .

....

﴿ **وقال** ﴾ إبراهيم عليه السلام بعد نجاته من النار ، وبعد ما نصره الله تعالى على قومه ، وأيس من إيمانهم بعد ما شاهدوا من الآيات العظيمة ﴿ **إني ذاهب إلى ربي** ﴾ أي مهاجر إلى المكان الذي أمرني ربي بالذهاب إليه ﴿ **سيهدين** ﴾ أي سيرشدني إلى ما فيه صلاحي في ديني ويعصمني ويوفّقني ﴿ **رب هب لي من الصالحين** ﴾ أي بعض الصالحين ، يريد الولد لأنّ لفظ الهبة غلب في الولد قال ابن كثير : (يعني أولاداً مطيعين يكونون عوضاً من قومه وعشيرته الذين فارقهم) ﴿ **فبشّرناه بغلام حليم** ﴾ هو إسماعيل عليه السلام قال النسفي : (انطوت البشارة على ثلاث : على أن الولد غلام ذكر ، وأنه يبلغ أوان الحلم ؛ لأن الصبي لا يوصف بالحلم ، وأنّه يكون حليماً ، وأي حلم أعظم من حلمه حين عرض عليه أبوه الذبح فاستسلم لذلك) ﴿ **فلما بلغ معه السعي** ﴾ أي بلغ أن يسعى مع أبيه في أشغاله وحوائجه ، أي فلمّا بلغ الحدّ الذي يقدر فيه على السّعي مع أبيه بمعنى : كبر وترعرع وشبّ وارتحل ، وأطاق ما يفعله أبوه من

السّعي والعمل ﴿ **قال** ﴾ إبراهيم عليه السلام ﴿ **يا بني إني أرىٰ في المنام** ﴾ أي في الرؤيا، ورؤيا الأنبياء حق ﴿ **أني أذبحك فانظر ماذا ترىٰ** ﴾ أي ما هو رأيك قال النسفي: (ولم يشاوره ليرجع إلى رأيه ومشورته، ولكن ليعلم أيجزع أم يصبر) ﴿ **قال يا أبت افعل ما تؤمر** ﴾ أي امض إلى ما أمرك الله من ذبحي ﴿ **ستجدني إن شاء الله من الصابرين** ﴾ أي على الذبح، أي سأصبر وأحتسب ذلك عند الله عزّ وجلّ، وصدق صلوات الله وسلامه عليه فيما وعد ﴿ **فلمّا أسلما** ﴾ أي انقادا لأمر الله وخضعا ﴿ **وتلّه للجبين** ﴾ أي صرعه على وجهه ليذبحه من قفاه، ولا يشاهد وجهه عند ذبحه؛ ليكون أهون عليه، أي أكبّه على وجهه ﴿ **وناديناه أن يا إبراهيم قد صدّقت الرؤيا** ﴾ أي قد حصل المقصود من رؤياك بإضجاعك ولدك للذبح، أي حقّقت ما أمرناك به في المنام من تسليم الولد للذبح ﴿ **إنا كذلك نجزي المحسنين** ﴾ قال النسفي: (هذا) تعليل لتخويل ما خوّلهما من الفرج بعد الشدّة ﴿ **إنّ هذا لهو البلاء المبين** ﴾ أي الاختبار البيّن الذي يتميّز فيه المخلصون من غيرهم قال ابن كثير: (أي الاختبار الواضح الجليّ، حيث أمر بذبح ولده، فسارع إلى ذلك مستسلماً لأمر الله تعالى، منقاداً لطاعته) ﴿ **وفديناه بِذبح عظيم** ﴾ الذِّبح: هو ما يذبح، والمراد به هنا كبش ضخم الجثة، سمين وهو السنّة في الأضاحي ﴿ **وتركنا عليه في الآخرين سلام على إبراهيم** ﴾ فما من أمّة بعد إبراهيم عليه السلام إلا وهي تسلّم على إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه ﴿ **كذلك نجزي المحسنين** ﴾ بأن نبارك لهم في الذكر الحسن قال النسفي: ولم يقل (إنا كذلك) هنا كما في غيره؛ لأنه قد سبق في هذه القصة، فاكتفى بذكره مرّة عن ذكره ثانية ﴿ **إنه من عبادنا المؤمنين** ﴾ هذا تعليل لكونه محسناً، بأنه كان عبداً مؤمناً ليريك - كما قال النسفي من قبل - جلالة محلّ الإيمان، وأنه القصارىٰ من صفات المدح والتعظيم ﴿ **وبشّرناه بإسحاق نبياً** ﴾ أي وبشّرناه بوجود إسحاق مقدّرة نبوته ﴿ **من الصالحين** ﴾ وكل نبي صالح، وفي ذكر الصلاح هنا ثناء عليه قال ابن كثير: (لمّا تقدّمت البشارة بالذبيح - وهو إسماعيل عليه السلام - عطف بذكر البشارة بأخيه إسحاق) ﴿ **وباركنا عليه وعلى إسحاق** ﴾ أي أفضنا عليهما بركات ﴿ **ومن ذريتهما محسن** ﴾ أي مؤمن ﴿ **وظالم لنفسه** ﴾ أي كافر ﴿ **مبين** ﴾ أي ظاهر أو محسن إلى الناس وآخر ظالم لنفسه بتعديه حدود الشرع قال النسفي: (وفيه تنبيه على أنّ الخبث والطيب لا يجري أمرهما على العرف والعنصر، فقد يلد البَرُّ الفاجرَ، والفاجر البر، وهذا مما يهدم أمر الطبائع والعناصر، وعلى أن الظلم في أعقابهما لم يعد

بعيب ولا نقيصة ، وأن المرء إنما يعاب بسوء فعله ، ويعاقب على ما اجترمت يداه ، لا على ما وجد من أصله وفرعه) .

....

نقل :

قال صاحب الظلال في الجزء الأخير الذي مرّ معنا من قصة إبراهيم عليه السّلام :

(هذا إبراهيم الشيخ . المقطوع من الأهل والقرابة . المهاجر من الأرض والوطن . ها هو ذا يرزق في كبرته وهرمه بغلام . طالما تطلّع إليه . فلما جاءه جاء غلاماً ممتازاً يشهد له ربه بأنه حليم . وها هو ذا ما يكاد يأنس به ، وصباه يتفتّح ، ويبلغ معه السعي ، ويرافقه في الحياة . ها هو ذا ما يكاد يأنس ويستروح بهذا الغلام الوحيد ، حتى يرى في منامه أنه يذبحه . ويدرك أنها إشارة من ربه بالتضحية . فماذا ؟ إنه لا يتردد ، ولا يخالجه إلا شعور الطاعة ، ولا يخطر له إلا خاطر التسليم .. نعم إنها إشارة . مجرد إشارة . وليست وحياً صريحاً ، ولا أمراً مباشراً . ولكنها إشارة من ربه .. وهذا يكفي .. هذا يكفي ليلبي ويستجيب . ودون أن يعترض . ودون أن يسأل ربه .. لماذا يا ربي أذبح ابني الوحيد ؟!

ولكنه لا يلبي في انزعاج ، ولا يستسلم في جزع ، ولا يطيع في اضطراب .. كلا إنما هو القبول والرضى والطمأنينة والهدوء . يبدو ذلك في كلماته لابنه وهو يعرض عليه الأمر الهائل في هدوء وفي اطمئنان عجيب : ﴿ **قال : يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك . فانظر ماذا ترى** ﴾ .

فهي كلمات المالك لأعصابه ، المطمئن للأمر الذي يواجهه ، الواثق بأنه يؤدي واجبه . وهي في الوقت ذاته كلمات المؤمن ، الذي لا يهوله الأمر فيؤديه في اندفاع وعجلة ليخلص منه وينتهي ، ويستريح من ثقله على أعصابه !

والأمر شاق – ما في ذلك شك – فهو لا يطلب إليه أن يرسل بابنه الوحيد إلى معركة . ولا يطلب إليه أن يكلفه أمراً تنتهي به حياته .. إنما يطلب إليه أن يتولى هو بيده . يتولى ماذا ؟ يتولى ذبحه .. وهو – مع هذا – يتلقّى الأمر هذا التلقي ، ويعرض على ابنه هذا العرض ؛ ويطلب إليه أن يتروى في أمره ، وأن يرى فيه رأيه !

إنه لا يأخذ ابنه على غرّة لينفذ إشارة ربه . وينتهي . إنما يعرض الأمر عليه كالذي

يعرض المألوف من الأمر . فالأمر في حسّه هكذا . ربه يريد . فليكن ما يريد . على العين والرأس . وابنه ينبغي أن يعرف . وأن يأخذ الأمر طاعة وإسلاماً ، لا قهراً واضطراراً . لينال هو الآخر أجر الطاعة ، وليسلم هو الآخر ويتذوّق حلاوة التسليم ! إنه يحب لابنه أن يتذوّق لذة التطوّع التي ذاقها ؛ وأن ينال الخير الذي يراه هو أبقى من الحياة وأقنى ..

فماذا يكون من أمر الغلام ، الذي يعرض عليه الذبح ، تصديقاً لرؤيا رآها أبوه ؟

إنه يرتقي إلى الأفق الذي ارتقى إليه من قبل أبوه :

﴿ **قال : يا أبت افعل ما تؤمر . ستجدني – إن شاء الله – من الصابرين** ﴾ .

إنه يتلقى الأمر لا في طاعة واستسلام فحسب . ولكن في رضى كذلك وفي يقين ..

﴿ **يا أبت** ﴾ .. في مودة وقربى . فشبح الذبح لا يزعجه ولا يفزعه ولا يفقده رشده . بل لا يفقده أدبه ومودته .

﴿ **افعل ما تؤمر** ﴾ .. فهو يحسّ ما أحسّه من قبل قلب أبيه . يحسّ أن الرؤيا إشارة . وأن الإشارة أمر . وأنها تكفي لكي يلبي وينفذ بغير لجلجة ولا تمحل ولا ارتياب . ثم هو الأدب مع الله ، ومعرفة حدود قدرته وطاقته في الاحتمال ؛ والاستعانة بربه على ضعفه ونسبة الفضل إليه في إعانته على التضحية ، ومساعدته على الطاعة :

﴿ **ستجدني إن شاء الله من الصابرين** ﴾ .

ولم يأخذها بطولة . ولم يأخذها شجاعة . ولم يأخذها اندفاعاً إلى الخطر دون مبالاة . ولم يظهر لشخصه ظلاً ولا حجماً ولا وزناً .. إنما أرجع الفضل كله لله إن هو أعانه على ما يطلب إليه ، وأصبره على ما يراد به : ﴿ **ستجدني – إن شاء الله – من الصابرين** ﴾ .

يا للأدب مع الله ! ويا لروعة الإيمان . ويا لنبل الطاعة . ويا لعظمة التسليم !

ويخطو المشهد خطوة أخرى وراء الحوار والكلام .. يخطو إلى التنفيذ :

﴿ فلما أسلما وتلّه للجبين ﴾ .

ومرة أخرى يرتفع نبل الطاعة . وعظمة الإيمان . وطمأنينة الرضى وراء كل ما تعارف عليه بنو الإنسان ..

إن الرجل يمضي فيكب ابنه على جبينه استعداداً . وإن الغلام يستسلم فلا يتحرك امتناعاً . وقد وصل الأمر إلى أن يكون عياناً .

لقد أسلما .. فهذا هو الإسلام . هذا هو الإسلام في حقيقته . ثقة وطاعة وطمأنينة ورضى وتسليم .. وتنفيذ .. وكلاهما لا يجد في نفسه إلا هذه المشاعر التي لا يصنعها غير الإيمان العظيم .

إنها ليست الشجاعة والجراءة . وليس الاندفاع والحماسة . لقد يندفع المجاهد في الميدان ، يَقتل ويُقتل . ولقد يندفع الفدائي وهو يعلم أنه قد لا يعود . ولكن هذا كله شيء والذي يصنعه إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام هنا شيء آخر .. ليس هنا دم فاغر ولا حماسة دافعة ، ولا اندفاع في عجلة تخفي وراءها الخوف من الضعف والنكوص ! إنما هو الاستسلام الواعي المتعقّل القاصد المريد ، العارف بما يفعل ، المطمئن لما يكون . لا بل هنا الرضى الهادىء المستشعر المتذوق للطاعة وطعمها الجميل !

وهنا كان إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام قد أدّيا . كانا قد أسلما . كانا قد حققا الأمر والتكليف . ولم يكن باقياً إلا أن يذبح إسماعيل ، ويسيل دمه ، وتزهق روحه .. وهذا أمر لا يعني شيئاً في ميزان الله ، بعد ما وضع إبراهيم وإسماعيل في هذا الميزان من روحهما وعزمهما ومشاعرهما كل ما أراده منهما ربهما ..

كان الابتلاء قد تم . والامتحان قد وقع . ونتائجه قد ظهرت . وغاياته قد تحقَّقت . ولم يعد إلا الألم البدني . وإلا الدم المسفوح . والجسد الذبيح . والله لا يريد أن يعذّب عباده بالابتلاء . ولا يريد دماءهم وأجسادهم في شيء . ومتى خلصوا له واستعدوا للأداء بكلّياتهم فقد أدوا ، وقد حققوا التكليف ، وقد جاوزوا الامتحان بنجاح .

وعرف الله إبراهيم وإسماعيل صدقهما . فاعتبرهما قد أدّيا وحققا وصدقا :

﴿ وناديناه أن يا إبراهيم قد صدّقت الرؤيا * إنا كذلك نجزي المحسنين * إن هذا

هو البلاء المبين * وفديناه بذبح عظيم ﴾ .

قد صدّقت الرؤيا وحققتها فعلاً . فالله لا يريد إلا الإسلام والاستسلام بحيث لا يبقى في النفس ما تكنّه عن الله أو تعزّه عن أمره ، أو تحتفظ به دونه ، ولو كان هو الابن فلذة الكبد . ولو كانت النفس والحياة . وأنْت – يا إبراهيم – قد فعلت . جدت بكل شيء . وبأعز شيء . وجدت به في رضى وفي هدوء وفي طمأنينة وفي يقين . فلم يبق إلا اللحم والدم . وهذا ينوب عنه ذبح . أي ذبح من دم ولحم ! ويفدي الله هذه النفس التي أسلمت وأدّت . يفديها بذبح عظيم . قيل : إنه كبش وجده إبراهيم مهيأ بفعل ربه وإرادته ليذبحه بدلاً من إسماعيل !

وقيل له : ﴿ **إنا كذلك نجزي المحسنين** ﴾ .. نجزيهم باختيارهم لمثل هذا البلاء . ونجزيهم بتوجيه قلوبهم ورفعها إلى مستوى الوفاء . ونجزيهم بإقدارهم وإصبارهم على الأداء . ونجزيهم كذلك باستحقاق الجزاء !

ومضت بذلك سنة النحر في الأضحى ، ذكرى لهذا الحادث العظيم الذي يرتفع منارة لحقيقة الإيمان . وجمال الطاعة . وعظمة التسليم . والذي ترجع إليه الأمة المسلمة لتعرف فيه حقيقة أبيها إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، الذي تتبع ملته ، والذي ترث نسبه وعقيدته . ولتدرك طبيعة العقيدة التي تقوم بها أو تقوم عليها ، ولتعرف أنها الاستسلام لقدر الله في طاعة راضية واثقة ملبية لا تسأل ربها لماذا ؟ ولا تتلجلج في تحقيق إرادته عند أول إشارة منه وأول توجيه . ولا تستبقي لنفسها في نفسها شيئاً ، ولا تختار فيما تقدمه لربها هيئة ولا طريقة لتقديمه إلا كما يطلب هو إليها أن تقدم !

ثم لتعرف أن ربها لا يريد أن يعذبها بالابتلاء ؛ ولا أن يؤذيها بالبلاء ، إنما يريد أن تأتيه طائعة ملبية وافية مؤدّية . مستسلمة لا تقدم بين يديه ، ولا تتألى عليه ، فإذا عرف منها الصدق في هذا أعفاها من التضحيات والآلام . واحتسبها لها وفاء وأداء . وقبل منها وفدّاها . وأكرمها كما أكرم أباها .. ﴿ **وتركنا عليه في الآخرين** ﴾ .

فهو مذكور على توالي الأجيال والقرون . وهو أمة . وهو أبو الأنبياء . وهو أبو هذه الأمة المسلمة . وهي وارثة ملته . وقد كتب الله لها وعليها قيادة البشرية على ملة إبراهيم . فجعلها الله عقباً ونسباً إلى يوم الدين . ﴿ **سلام على إبراهيم** ﴾ .

أي سلام عليه من ربه . سلام يسجل في كتابه الباقي . ويرقم في طوايا الوجود الكبير .

﴿ **كذلك نجزي المحسنين** ﴾ .. كذلك نجزيهم بالبلاء . والوفاء . والذكر . والسلام . والتكريم .

﴿ **إنه من عبادنا المؤمنين** ﴾ .. وهذا جزاء الإيمان . وتلك حقيقته فيما كشف عنه البلاء المبين . ثم يتجلى عليه ربه بفضله مرة أخرى ونعمته فيهب له إسحاق في شيخوخته . ويباركه ويبارك إسحاق . ويجعل إسحاق نبياً من الصالحين :

﴿ **وبشّرناه بإسحاق نبياً من الصالحين * وباركنا عليه وعلى إسحاق** ﴾ .

وتتلاحق من بعدهما ذريتهما . ولكن وراثة هذه الذرية لهما ليست وراثة الدم والنسب ، إنما هي وراثة الملة والمنهج : فمن اتبع فهو محسن . ومن انحرف فهو ظالم لا ينفعه نسب قريب أو بعيد :

﴿ **ومن ذرّيتهما محسن وظالم لنفسه مبين** ﴾) .

كلمة في السياق :

١ – ذكرنا من قبل أنّ في إنجاء الله تعالى إبراهيم عليه السلام من النار نموذجاً على إنجاء المؤمنين ، ونلاحظ أن في ذكر إنجاء الله إسماعيل من الذبح نموذجاً آخر على أن في تنفيذ أمر الله الخير كل الخير ، وأنه مهما كان في ظاهره فيه شدّة فإنّ الخير فيه ، وأن اليسر هو عاقبته ، ولذلك اتبع الله عز وجل موضوع الذبح بقوله تعالى ﴿ **إنا كذلك نجزي المحسنين** ﴾ قال ابن كثير : (أي هكذا نصرف عمّن أطاعنا المكاره والشدائد ، ونجعل لهم من أمرهم فرجاً ومخرجاً ، كقوله تعالى ﴿ **ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب** ... ﴾ [الطلاق : ٢ ، ٣] وقد جعل الله في هذه الحادثة سنة خالدة للمسلمين في شعيرة الأضحية ، تذكيراً لما فعل إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام إذ أسلما هذا الإسلام العجيب الخالد .

٢ – في قصة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام نموذج على التوحيد الخالص ، الذي ترافقه الطاعة الكاملة والاستسلام الكامل لله ، وفي ذلك تمثيل جديد لما يخدم قضية التوحيد ، وهو الموضوع الرئيسي في السورة كما رأينا .

٣ - في ثناء الله عز وجل على إبراهيم عليه السلام بقوله تعالى ﴿ **إنه من عبادنا المؤمنين** ﴾ إشارة إلى ما يفعله الإيمان الخالص في القلوب الصادقة ، وما يتركه من آثار ، فالقصة إذن نموذج من نماذج المواقف الإيمانية العالية الراقية ، وفي ذلك كذلك انسجام مع الموضوع الرئيسي في السورة موضوع الإيمان .

٤ - في ذكر إبراهيم وإسماعيل وإسحاق عليهم الصلاة والسلام وثلاثتهم من رسل الله في سياق السّورة ما يذكّرنا بكون محمد ﷺ مصدّقاً لدعوتهم ، ومصدقاً لهم ﴿ **بل جاء بالحق وصدّق المرسلين** ﴾ .

وهكذا نجد أن قصة إبراهيم عليه السلام قد خدمت السياق العام للسورة في أكثر من جانب .

....

فوائد :

١ - بمناسبة قوله تعالى عن إبراهيم عليه السلام ﴿ **إذ جاء ربه بقلب سليم** ﴾ قال ابن كثير في تفسير القلب السليم : (قال ابن عباس رضي الله عنهما : يعني شهادة أن لا إله إلا الله . وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا أبو أسامة عن عوف قلت لمحمد بن سيرين : ما القلب السليم ؟ قال : يعلم أن الله حق ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من في القبور ، وقال الحسن : سليم من الشرك ، وقال عروة : لا يكون لعّاناً) .

٢ - بمناسبة قول إبراهيم عليه السلام لقومه ﴿ **إني سقيم** ﴾ قال ابن كثير : (فأما الحديث الذي رواه ابن جرير ههنا عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لم يكذب إبراهيم عليه الصلاة والسلام غير ثلاث كذبات : ثنتين في ذات الله ، قوله ﴿ **إني سقيم** ﴾ وقوله ﴿ **بل فعله كبيرهم هذا** ﴾ وقوله في سارة هي أختي » فهو حديث مخرج في الصحاح والسنن من طرق ولكن ليس هذا من باب الكذب الحقيقي الذي يذم فاعله ، حاشا وكلا ولما ، وإنما أطلق الكذب على هذا تجوزاً وإنما هو من المعاريض في الكلام لمقصد شرعي ديني كما جاء في الحديث « إن في المعاريض لمندوحة من الكذب » وروى ابن أبي حاتم عن سعيد رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ في كلمات إبراهيم عليه الصلاة والسلام الثلاث التي قال ما منها

كلمة إلا ما حل بها عن دين الله تعالى ﴿ **فقال إني سقيم** ﴾ وقال ﴿ **بل فعله كبيرهم هذا** ﴾ وقال للملك حين أراد امرأته هي أختي) .

٣ - في قوله تعالى ﴿ **والله خلقكم وما تعملون** ﴾ قال ابن كثير : (يحتمل أن تكون (ما) مصدرية فيكون الكلام : خلقكم وعملكم ، ويحتمل أن تكون بمعنى الذي تقديره : والله خلقكم ، والذي تعملونه وكلا القولين متلازم ، والأول أظهر لما رواه البخاري في كتاب أفعال العباد عن حذيفة رضي الله عنه مرفوعاً قال « إن الله تعالى يصنع كل صانع وصنعته ») .

٤ - بمناسبة الكلام عن الذبيح قال ابن كثير : (وهذا الغلام هو إسماعيل عليه السلام ، فإنه أول ولد بشر به إبراهيم عليه السلام ، وهو أكبر من إسحاق باتفاق المسلمين ، وأهل الكتاب ، بل في نص كتابهم إن إسماعيل عليه السلام ولد ولإبراهيم عليه السلام ست وثمانون سنة ، وولد إسحاق وعمر إبراهيم عليه الصلاة والسلام تسع وتسعون سنة ، وعندهم أن الله تبارك وتعالى أمر إبراهيم أن يذبح ابنه وحيده وفي نسخة أخرى بكره فأقحموا ههنا كذباً وبهتاناً إسحاق ، ولا يجوز هذا لأنه مخالف لنص كتابهم ، وإنما أقحموا إسحاق لأنه أبوهم ، وإسماعيل أبو العرب ؛ فحسدوهم فزادوا ذلك وحرفوا وحيدك ، بمعنى الذي ليس عندك غيره ، فإن إسماعيل كان ذهب به وبأمه إلى مكة ، وهو تأويل وتحريف باطل ، فإنه لا يقال وحيدك إلا لمن ليس له غيره ، وأيضاً فإن أول ولد له معزّة ما ليس لمن بعده من الأولاد فالأمر بذبحه أبلغ في الابتلاء والاختبار) .

أقول : ما ذكره ابن كثير هنا موجود في سفر التكوين ، فيما بين الإصحاح السادس عشر ، والإصحاح الثالث والعشرين ، وفي الإصحاح الثاني والعشرين (فقال : (خذ ابنك وحيدك الذي تحبه إسحاق) إن إسحاق ليس هو الابن الوحيد لإبراهيم عليه السلام ، لأنّه الابن الثاني ، فالتحريف واضح في النّص ، وهذا الذي أشار إليه ابن كثير .

٥ - بمناسبة قوله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام : ﴿ **إني أرىٰ في المنام أني أذبحك** ﴾ قال ابن كثير : (قال عبيد بن عمير : رؤيا الأنبياء وحي ، ثُمّ تلا هذه الآية : ﴿ **قال يا بنيّ إني أرىٰ في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى** ﴾ وقد روى ابن أبي حاتم عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله

ﷺ : « رؤيا الأنبياء في المنام وحي » قال ابن كثير : (ليس هو في شيء من الكتب الستة من هذا الوجه) أقول : معناه صحيح .

٦ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وفديناه بذبح عظيم** ﴾ قال ابن كثير : (وقد استدلّ بهذه الآية والقصة جماعة من علماء الأصول على صحة النّسخ قبل التمكّن من الفعل ، خلافاً لطائفة من المعتزلة ، والدلالة من هذه ظاهرة لأن الله تعالى شرع لإبراهيم عليه السلام ذبح ولده ثمّ نسخه عنه ، وصرفه إلى الفداء ، وإنما كان المقصود من شرعه أولاً إثابة الخليل عليه السلام على الصبر على ذبح ولده ، فسارع إلى ذلك مستسلماً لأمر الله ، منقاداً لطاعته) .

٧ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وفديناه بذبح عظيم** ﴾ قال ابن كثير : (وقد روى الإمام أحمد عن صفية بنت شيبة قالت : أخبرتني امرأة من بني سليم ولّدت عامّة أهل دارنا أرسل رسول الله ﷺ إلى عثمان بن طلحة رضي الله عنه ، وقالت مرة إنها سألت عثمان لِمَ دعاك النبي ﷺ ؟ قال : قال لي رسول الله ﷺ : « إني كنت رأيت قرني الكبش حين دخلت فنسيت آمرك أن تخمرهما فخمِّرهما ، فإنه لا ينبغي أن يكون في البيت شيء يشغل المصلي » قال سفيان لم يزل قرنا الكبش معلقين في البيت حتى احترق البيت فاحترقا ، وهذا دليل مستقل على أنه إسماعيل عليه الصلاة والسلام فإن قريشاً توارثوا قرني الكبش الذي فدى به إبراهيم خلفاً عن سلف ، وجيلاً بعد جيل إلى أن بعث الله رسوله ﷺ) .

٨ - عقد ابن كثير فصلاً عنوانه (فصل في ذكر الآثار الواردة عن السلف في أن الذبيح من هو) ثم ذكر من قال هو إسحاق عليه الصلاة والسلام ، ثم ذكر الآثار الواردة بأنه إسماعيل عليه الصلاة والسلام وقال وهو الصحيح المقطوع به ، ونحن نضرب عن ذكر القسم الأول لتأكد خطئه ونذكر القسم الثاني قال :

ذكر الآثار الواردة بأنه إسماعيل عليه الصلاة والسلام وهو الصحيح المقطوع به

قال سعيد بن جبير وعامر الشعبي ويوسف بن مهران ومجاهد وعطاء وغير واحد عن ابن عباس رضي الله عنهما هو إسماعيل عليه الصلاة والسلام . وروى

ابن جرير ... عن ابن عباس أنه قال المفدى إسماعيل عليه السلام وزعمت اليهود أنه إسحاق وكذبت اليهود ، وقال إسرائيل عن ثور عن مجاهد عن ابن عمر رضي الله عنهما قال الذبيح إسماعيل وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد : هو إسماعيل عليه السلام وكذا قال يوسف بن مهران وقال الشعبي : هو إسماعيل عليه الصلاة والسلام وقد رأيت قرني الكبش في الكعبة . وقال محمد بن إسحاق عن الحسن بن دينار وعمرو بن عبيد عن الحسن البصري أنه كان لا يشك في ذلك أن الذي أمر بذبحه من ابني إبراهيم : إسماعيل عليه السلام قال ابن إسحاق وسمعت محمد بن كعب القرظي وهو يقول : إن الذي أمر الله تعالى إبراهيم بذبحه من ابنيه إسماعيل ، وإنا لنجد ذلك في كتاب الله تعالى ، وذلك أن الله تعالى حين فرغ من قصة المذبوح من ابني إبراهيم قال تعالى ﴿ **وبشّرناه بإسحاق نبياً من الصالحين** ﴾ ويقول الله تعالى ﴿ **فبشّرناه بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب** ﴾ [هود : ٧١] يقول بابن وابن ابن فلم يكن ليأمره بذبح إسحاق وله فيه من الموعد بما وعده وما الذي أمر بذبحه إلا إسماعيل قال ابن إسحاق سمعته يقول ذلك كثيراً ، وقال ابن إسحاق عن بريدة بن سفيان الأسلمي عن محمد بن كعب القرظي أنه حدثهم أنه ذكر ذلك لعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه وهو خليفة إذ كان معه بالشام فقال له عمر : إن هذا لشيء ما كنت أنظر فيه وإني لأراه كما قلت ثم أرسل إلى رجل كان عنده بالشام كان يهودياً فأسلم وحسن إسلامه ، وكان يرى أنه من علمائهم فسأله عمر ابن عبد العزيز رضي الله عنه عن ذلك قال محمد بن كعب وأنا عند عمر بن عبد العزيز فقال له عمر : أي ابني إبراهيم أمر بذبحه ؟ فقال : إسماعيل والله يا أمير المؤمنين ، وإن اليهود لتعلم بذلك ، ولكنهم يحسدونكم معشر العرب على أن يكون أباكم الذي كان من أمر الله فيه ، والفضل الذي ذكر الله تعالى منه لصبره لما أمر به فهم يجحدون ذلك ، ويزعمون أنه إسحاق ، لأن إسحاق أبوهم والله أعلم أيهما كان ، وكل قد كان طاهراً طيباً مطيعاً لله عز وجل ، وقال عبد الله بن الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله سألت أبي عن الذبيح هل هو إسماعيل أو إسحاق ؟ فقال : هو إسماعيل . ذكره في كتاب الزهد . وقال ابن أبي حاتم وسمعت أبي يقول : الصحيح أن الذبيح إسماعيل عليه الصلاة والسلام قال وروي عن علي وابن عمر وأبي هريرة وأبي الطفيل وسعيد بن المسيب وسعيد بن جبير والحسن ومجاهد والشعبي ومحمد بن كعب القرظي وأبي جعفر محمد بن علي وأبي صالح رضي الله عنهم أنهم قالوا : الذبيح إسماعيل . وقال البغوي في تفسيره وإليه ذهب عبد الله ابن عمر وسعيد بن المسيب والسدي والحسن البصري ومجاهد والربيع بن أنس ومحمد

ابن كعب القرظي والكلبي وهو رواية عن ابن عباس وحكاه أيضاً عن أبي عمرو ابن العلاء . وقد روى ابن جرير في ذلك حديثاً غريباً ... عن عبد الله بن سعيد عن الصنابحي قال كنا عند معاوية بن أبي سفيان فذكروا الذبيح إسماعيل أو إسحاق ؟ فقال : على الخبير سقطتم ، كنا عند رسول الله ﷺ فجاءه رجل فقال : يا رسول الله عد علي مما أفاء الله عليك يا ابن الذبيحين فضحك رسول الله ﷺ فقيل له يا أمير المؤمنين وما الذبيحان ؟ فقال : إن عبد المطلب لما أمر بحفر زمزم نذر لله إن سهل الله له أمرها عليه ليذبحن أحد ولده قال : فخرج السهم على عبد الله فمنعه أخواله وقالوا افد ابنك بمائة من الإبل ففداه بمائة من الإبل ، والثاني إسماعيل . وهذا حديث غريب جداً وقد رواه الأموي في مغازيه عن عبد الله بن سعيد حدثنا الصنابحي قال حضرنا مجلس معاوية رضي الله عنه فتذاكر القوم إسماعيل أو إسحاق وذكره ، كذا كتبته من نسخة مغلوطة والله أعلم) .

٩ - من الملاحظ أن سياق قصة إبراهيم عليه السلام أشعرنا أن البشارة بإسحاق كانت بعد أن قام بتنفيذ ما رآه في الرؤيا ، فكأن السياق أراد أن يرينا أنه لما نوى أن يذبح ابنه لله أنقذ ابنه وزاده ابناً آخر مباركاً .

١٠ - في قصة إبراهيم عليه السلام دروس كثيرة من دروس التوحيد أحدها أن مقتضى التوحيد طاعة الله في كل أمر مهما كان ظاهره صعباً وشاقّاً ، فمن فهم أن الإسلام راحة ، وأن التوحيد لا يرافقه تكليف ، أو لا يرافقه امتحان ، فقد أخطأ ؛ فالتوحيد والامتحان متلازمان .

١١ - ذكر النسفي عن ابن عباس أنه لو تمّت تلك الذبيحة لصارت سنة ، وذبح الناس أبناءهم وبمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وفديناه بذبح عظيم** ﴾ قال النّسفي مفسّراً الذبح العظيم : (ضخم الجثة سمين وهي السنة في الأضاحي وروي أنه هرب من إبراهيم عند الجمرة فرماه بسبع حصيات حتى أخذه ، وبقيت سنة في الرمي وروي أنه لما ذبحه قال جبريل : الله أكبر الله أكبر ، فقال الذبيح لا إله إلا الله والله أكبر ، فقال إبراهيم : الله أكبر ولله الحمد فبقي سنة ، وقد استشهد أبو حنيفة رضي الله عنه بهذه الآية فيمن نذر ذبح ولده أنه يلزمه ذبح شاة ، والأظهر أن الذبيح إسماعيل وهو قول أبي بكر وابن عباس وابن عمر وجماعة من التابعين رضي الله عنهم لقوله عليه السلام « أنا ابن الذبيحين » فأحدهما جده إسماعيل والآخر أبوه عبد الله وذلك أن عبد المطلب نذر إن بلغ

بنوه عشرة أن يذبح آخر ولده تقرباً وكان عبد الله آخراً ففداه بمائة من الإبل ولأن قرني الكبش كانا منوطين في الكعبة في أيدي بني إسماعيل إلى أن احترق البيت في زمن الحجاج وابن الزبير وعن الأصمعي أنه قال : سألت أبا عمرو بن العلاء عن الذبيح فقال : يا أصمعي أين عزب عنك عقلك ، ومتى كان إسحاق بمكة ؟ وإنما كان إسماعيل بمكة وهو الذي بنى البيت مع أبيه والمنحر بمكة) .

أقول : المشهور أن إبراهيم عليه السلام رمى الشيطان بالحصيات ، (روى الإمام أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : لما أُمر إبراهيم عليه الصلاة والسلام بالمناسك عرض له الشيطان عند السعي ، فسابقه فسبقه إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، ثم ذهب به جبريل عليه الصلاة والسلام إلى جمرة العقبة ، فعرض له الشيطان فرماه بسبع حصيات حتى ذهب ، ثم عرض له عند الجمرة الوسطى فرماه بسبع حصيات ، ثم تلّه للجبين وعلى إسماعيل عليه الصلاة والسلام قميص أبيض ، فقال له : يا أبت إنه ليس لي ثوب تكفنني فيه غيره فاخلعه حتى تكفنني فيه ، فعالجه ليخلعه فنودي من خلفه ﴿ **أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا** ﴾ فالتفت إبراهيم فإذا بكبش أبيض أقرن أعين قال ابن عباس لقد رأيتنا نتتبع ذلك الضرب من الكباش) .

....

﴿ **ولقد مننا** ﴾ أي أنعمنا ﴿ **على موسىٰ وهارون** ﴾ بالنبوة ﴿ **ونجيناهما وقومهما** ﴾ بني إسرائيل ﴿ **من الكرب العظيم** ﴾ أي من الغرق أو من سلطان فرعون وقومه وغشمهم ﴿ **ونصرناهم** ﴾ أي موسى وهارون وقومهما ﴿ **فكانوا هم الغالبين** ﴾ على فرعون وقومه ﴿ **وآتيناهما الكتاب المستبين** ﴾ أي البليغ في بيانه وهو التوراة ﴿ **وهديناهما الصراط المستقيم** ﴾ أي في الأقوال والأفعال وهي صراط أهل الإسلام ﴿ **وتركنا عليهما في الآخرين** ﴾ أي أبقينا لهما من بعدهما ذكراً جميلاً وثناءً حسناً ثمّ فسّره بقوله تعالى ﴿ **سلام على موسى وهارون * إنا كذلك** ﴾ أي مثل ذلك الجزاء ﴿ **نجزي المحسنين** ﴾ الذين أحسنوا الاعتقاد والعمل ﴿ **إنهما من عبادنا المؤمنين** ﴾ وذلك أصل كل خير .

....

كلمة في السياق :

تحدّثت هذه الفقرة عن موسى وهارون عليهما السلام بما يخدم سياق السورة في ثلاث قضايا :

١ - قضية نجاة عباد الله المخلَصين من عذاب الله في الدنيا .

٢ - قضية وحدة الرسالات .

٣ - قضية أنّ أصل كلّ حسن وخير الإيمان ، وكل ذلك يخدم الموضوع الرئيسي للسورة .

....

﴿ **وإن إلياس** ﴾ سنعطيك خبراً عنه في الفوائد ﴿ **لمن المرسلين** ﴾ الذين جاء محمد ﷺ يصدّقهم والذين بعثوا بالتوحيد والحقّ ﴿ **إذ قال لقومه ألا تتقون** ﴾ أي ألا تخافون الله ﴿ **أتدعون بعلاً** ﴾أي أتعبدون بعلاً : وهو الصنم الذي كان يعبده أهل الشام في عصره ، وتسرّبت عبادته إلى بني إسرائيل ، وإليه نسبت بعلبك المدينة المعروفة في بلاد الشام ﴿ **وتذرون أحسن الخالقين** ﴾ أي وتتركون عبادة الله الذي هو أحسن المقدّرين ﴿ **الله ربكم ورب آبائكم الأولين** ﴾ إسحاق ويعقوب وإبراهيم أي هو المستحق للعبادة وحده لا شريك له ﴿ **فكذّبوه فإنّهم لمحضرون** ﴾ أي للعذاب يوم الحساب ﴿ **إلا عباد الله المخلَصين** ﴾ من قومه أي الموحّدين منهم ﴿ **وتركنا عليه في الآخرين** ﴾ أي ثناءً جميلاً ﴿ **سلام على إلياسين** ﴾ أي على إلياس كما يقال طور سيناء وطور سينين كذلك يقال إلياس وإلياسين ﴿ **إنا كذلك** ﴾ أي مثل ذلك الجزاء الحسن في إبقاء الذكر الجميل ﴿ **نجزي المحسنين** ﴾ في القول والعمل والاعتقاد ﴿ **إنه من عبادنا المؤمنين** ﴾ وذلك علّة إحسانه .

....

كلمة في السياق :

إن قصة إلياس تخدم سياق السورة في ثلاثة جوانب : في كون إلياس من المرسلين الذين صدّقهم رسول الله ﷺ ، وفي كونه دعا إلى التوحيد ، وذلك دعوة جميع الرسل ، وفي كونه من المؤمنين ، فهو نموذج إيماني يقتدي به المؤمنون في كل زمان ومكان .

فوائد :

يلاحظ أن العرب لم يكن عندهم تصور ما عن إلياس عليه السلام حتى ذهب ابن مسعود إلى أنه إدريس ، والتصور الأول الذي وصلهم عن غير القرآن كان عن وهب بن منبه ، فأن يذكر القرآن إلياس بجانب الكلام عن بعل فهذا من معجزات القرآن العظيمة يعرف ذلك من درس الكتب السابقة ، إن أسفار العهد القديم تتحدّث بإسهاب عن إلياس وتلميذه وخليفته اليسع الذي سيذكر اسمه في سورة (ص) .

فمن الإصحاح السابع عشر في سفر الملوك الأول إلى نهاية هذا السفر إلى الإصحاح الثالث من سفر الملوك الثاني يستمر الكلام عن إلياس وها نحن ناقلون فقرات مما ورد في هذين السفرين :

في الإصحاح السادس عشر من سفر الملوك الأول :

(وعمل أخآب بن عمري الشَّرَّفي عيني الرب أكثر من جميع الذين قبله . وكأنه كان أمراً زهيداً سلوكه في خطايا يربعام بن نباط حتى اتخذ إيزابل ابنةَ أثبعل ملك الصيدونيين امرأة وسار وَعبَدَ البعل وسجد له . وأقام مذبحاً للبعل في بيت البعل الذي بناه في السامرة . وعمل أخآب سواري وزاد أخآب في العمل لإغاظة الرب إله إسرائيل أكثر من جميع ملوك إسرائيل الذين كانوا قبله) .

وفي الإصحاح الثامن عشر من سفر الملوك الأول :

(ولمّا رأى أخآب إيليا (إلياس) قال له أخآب أأنت هو مكدّر إسرائيل ؟ فقال لم أُكدر إسرائيل بل أنت وبيت أبيك بترككم وصايا الرب وبسيرك وراء البعليم . فالآن أرسل واجمع إلي كل إسرائيل إلى جبل الكرمل وأنبياء البعل أربع المئة والخمسين وأنبياء السواري أربع المئة الذين يأكلون على مائدة إيزابل . فأرسل أخآب إلى جميع بني إسرائيل وجمع الأنبياء إلى جبل الكرمل . فتقدم إيليا إلى جميع الشعب وقال حتى متى تعرجون بين الفرقتين . إن كان الرب هو الله فاتبعوه وإن كان البعل فاتبعوه . فلم يجبه الشعب بكلمة . ثم قال إيليا للشعب أنا بقيت نبياً للرب وحدي وأنبياء البعل أربع مئةٍ وخمسون رجلاً . فليعطونا ثورين فيختاروا لأنفسهم ثوراً واحداً ويقطعوه ويضعوه على الحطب ولكن لا يضعوا ناراً وأنا أُقرب الثور الآخر وأجعله على الحطب ولكن لا أضع ناراً . ثم تدعون باسم آلهتكم وأنا أدعو باسم الرب . والإله الذي يجيب بنار فهو الله . فأجاب

جميع الشعب وقالوا الكلام حسن . فقال إيليا لأنبياء البعل اختاروا لأنفسكم ثوراً واحداً وقربوا أولاً لأنكم أنتم الأكثر وادعوا باسم آلهتكم ولكن لا تضعوا ناراً . فأخذوا الثور الذي أُعطي لهم وقربوه ودعوا باسم البعل من الصباح إلى الظهر قائلين يا بعل أجبنا . فلم يكن صوت ولا مجيب . وكانوا يرقصون حول المذبح الذي عمل . وعند الظهر سخر بهم إيليا وقال ادعوا بصوت عالٍ لأنه إله . لعله مستغرق أو في خلوة أو في سفر أو لعله نائم فيتنبه . فصرخوا بصوت عالٍ وتقطعوا حسب عادتهم بالسيوف والرماح حتى سال منهم الدم . ولما جاز الظهر وتنبأوا إلى حين إصعاد التقدمة ولم يكن صوت ولا مجيب ولا مصغ . قال إيليا لجميع الشعب تقدموا إلي . فتقدم جميع الشعب إليه . فرمم مذبح الرب المنهدم . ثم أخذ إيليا اثني عشر حجراً بعدد أسباط بني يعقوب الذي كان كلام الرب إليه قائلاً إسرائيل يكون اسمك . وبنى الحجارة مذبحاً باسم الرب وعمل قناة حول المذبح تسع كيلتين من البزر . ثم رتّب الحطب وقطع الثور ووضعه على الحطب وقال املأوا أربع جرات ماء وصبوا على المحرقة وعلى الحطب . ثم قال ثنوا فثنوا وقال ثلثوا فثلثوا . فجرى الماء حول المذبح وامتلأت القناة أيضاً ماء . وكان عند إصعاد التقدمة أن إيليا النبي تقدم وقال أيها الرب إله إبراهيم وإسحاق وإسرائيل ليعلم اليوم أنك أنت الله في إسرائيل وأني أنا عبدك وبأمرك قد فعلت كل هذه الأمور . استجبني يا رب استجبني ليعلم هذا الشعب أنك أنت الرب الإله وأنك أنت حولت قلوبهم رجوعاً . فسقطت نار الرب وأكلت المحرقة والحطب والحجارة والتراب ولحست المياه التي في القناة . فلما رأى جميع الشعب ذلك سقطوا على وجوههم وقالوا الرب هو الله الرب هو الله . فقال لهم إيليا أمسكوا أنبياء البعل ولا يفلت منهم رجل . فأمسكوهم فنزل بهم إيليا إلى نهر قيشون وذبحهم هناك) .

وفي الإصحاح الثاني من سفر الملوك الثاني :

(وفيما هما يسيران (اليسع وإلياس) ويتكلّمان إذا مركبة من نار وخيل من نار ففصلت بينهما فصعد إيليّا في العاصفة إلى السماء) .

أقول : إن هذا النّقل هو مرجع ما يذكره بعض المفسرين أنّ إيليّا رفع إلى السماء والله أعلم بصحة ذلك ، فهم يجعلونه كالمسيح عليه السّلام ، لكنّ المسيح قد نصّ القرآن على رفعه ، وليس في إلياس نص .

....

﴿ **وإنّ لوطاً لمن المرسلين** ﴾ الذين بعث محمد ﷺ مصدّقاً لهم والذين دعوا إلى التوحيد ﴿ **إذ نجّيناه وأهله أجمعين** ﴾ كسُنّتنا في إنجاء عباد الله المخلصين ﴿ **إلا عجوزاً في الغابرين** ﴾ أي في الباقين الهالكين وهي زوجته ، وقد مرّت قصتها في أكثر من مكان في القرآن ﴿ **ثم دمّرنا الآخرين** ﴾ أي أهلكناهم كسنة الله عز وجل في المنذَرين المكذبين ﴿ **وإنّكم لتمرون عليهم** ﴾ يا أمة محمد ﷺ ﴿ **مصبحين وبالليل** ﴾ أي ليلاً ونهاراً ﴿ **أفلا تعقلون** ﴾ أي : أفما فيكم عقول تعتبرون بها ؟ قال النسفي : (وإنما لم يختم قصة لوط ويونس بالسلام كما ختم قصة من قبلهم لأن الله تعالى قد سلّم على جميع المرسلين في آخر السورة ، فاكتفىٰ بذلك عن ذكر كل واحد منفرداً بالسلام) .

....

كلمة في السياق :

خدمت قصة لوط سياق السورة في قضيتين : قضية إهلاك المكذبين للرسل ، وقضية إنجاء عباد الله المخلَصين من عذاب الله في الدنيا ، ومحل ذلك في السياق لا يخفىٰ ؛ فقد سُبقت هذه النماذج كلها بقوله تعالى ﴿ **فانظر كيف كان عاقبة المنذَرين * إلا عباد الله المخلَصين** ﴾ ومحل ذلك في قضية التوحيد واضح ، فالرسل الذين بعثوا بالتوحيد أيّدهم الله ، بأن عذّب من خالفهم ، ونجىٰ من وافقهم واتّبعهم .

....

﴿ **وإن يونس** ﴾ بن متىٰ ﴿ **لَمن المرسلين** ﴾ الذين جاء محمد ﷺ مصدّقاً لهم ﴿ **إذ أبق** ﴾ أي هرب ﴿ **إلى الفلك المشحون** ﴾ أي المملوء ﴿ **فساهم** ﴾ أي فقارعهم عندما هاج البحر فيمن يلقي نفسه من السفينة ﴿ **فكان من المدحضين** ﴾ أي المغلوبين بالقرعة ﴿ **فالتقمه الحوت وهو مُليم** ﴾ أي فابتلعه الحوت وهو داخل في الملامة ﴿ **فلولا أنه كان من المسبِّحين** ﴾ أي من الذاكرين الله كثيراً بالتسبيح ، أو من القائلين لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ، أو من المصلّين ﴿ **للبث في بطنه** ﴾ أي في بطن الحوت ﴿ **إلى يوم يبعثون** ﴾ أي إلى يوم البعث ﴿ **فنبذناه بالعراء** ﴾ أي فألقيناه بالمكان الخالي الذي لا شجر فيه ولا نبات ﴿ **وهو سقيم** ﴾ أي عليل مما ناله من التقام الحوت ﴿ **وأنبتنا عليه شجرة من يقطين** ﴾ أي من قرع ﴿ **وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون** ﴾ أي بل يزيدون ﴿ **فآمنوا** ﴾ به وبما أرسل به ﴿ **فمتّعناهم إلى حين** ﴾ أي إلى منتهىٰ آجالهم .

كلمة في السياق :

خدمت قصة يونس سياق السورة بأن بيّنت أنّ يونس عليه السلام من الرسل الذين جاء محمد ﷺ لتصديقهم في الدعوة إلى التوحيد ، كما خدمت السياق في تبيان أن الإيمان وحده مئنّة النّجاة من عذاب الله ، وأن أحداً لا ينجو من المحاسبة إذا أخلّ ؛ فهذا يونس عليه السلام تصرّف قبل الإذن فكان له هذا العقاب ، وفي ذلك درس من دروس التوحيد الخالص سنراه في الفوائد .

نقل :

بمناسبة الكلام عن يونس عليه السّلام في سورة الصافات قال صاحب الظلال :

(وتذكر الروايات أن يونس ضاق صدراً بتكذيب قومه . فأنذرهم بعذاب قريب . وغادرهم مغضباً آبقاً . فقاده الغضب إلى شاطىء البحر حيث ركب سفينة مشحونة . وفي وسط اللجة ناوأتها الرياح والأمواج . وكان هذا إيذاناً عند القوم بأن من بين الركاب راكباً مغضوباً عليه لأنه ارتكب خطيئة . وأنه لابد أن يلقى في الماء لتنجو السفينة من الغرق . فاقترعوا على من يلقونه من السفينة . فخرج سهم يونس – وكان معروفاً عندهم بالصلاح . ولكن سهمه خرج بشكل أكيد فألقوه في البحر . أو ألقى هو نفسه . فالتقمه الحوت وهو (مليم) أي مستحق للوم ، لأنه تخلى عن المهمة التي أرسله الله بها ، وترك قومه مغاضباً قبل أن يأذن الله له . وعندما أحس بالضيق في بطن الحوت سبَّح الله واستغفره وذكر أنه كان من الظالمين . وقال : ﴿ **لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين** ﴾ . فسمع الله دعاءه واستجاب له . فلفظه الحوت . ﴿ **فلولا أنه كان من المسبّحين للبث في بطنه إلى يوم يبعثون** ﴾ . وقد خرج من بطن الحوت سقيماً عارياً على الشاطىء . ﴿ **فأنبتنا عليه شجرة من يقطين** ﴾ . وهو القرع . يظلله بورقه العريض ويمنع عنه الذباب الذي يقال إنه لا يقرب هذه الشجرة . وكان هذا من تدبير الله ولطفه . فلما استكمل عافيته رده الله إلى قومه الذين تركهم مغاضباً . وكانوا قد خافوا ما أنذرهم به من العذاب بعد خروجه ، فآمنوا ، واستغفروا ، وطلبوا العفو من الله فسمع لهم ولم ينزل بهم عذاب المكذبين : ﴿ **فآمنوا فمتَّعناهم إلى حين** ﴾ وكانوا مئة ألف يزيدون ولا ينقصون . وقد آمنوا أجمعين) .

فوائد :

١ - إن في قصة يونس عليه السلام درساً بليغاً من دروس التوحيد ، إذ ميزان الله دقيق والالتزام بأوامره ينبغي أن يكون بحذافيره ، فهذا يونس - وهو رسول - ترك مكانه دون إذن فعوقب هذا العقاب الشديد ، فلا يفر أحد من تنفيذ أمر الله خوفاً من شيء ، بل عليه أن يخاف إذا لم ينفذ أمر الله .

٢ - قال ابن كثير بمناسبة الكلام عن يونس عليه السلام : (قد تقدمت قصة يونس عليه الصلاة والسلام في سورة الأنبياء ، وفي الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم أنه قال : « ما ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متى » ونسبه إلى أمه وفي رواية إلى أبيه) .

٣ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **إذ أبق إلى الفلك المشحون * فساهم فكان من المدحضين** ﴾ أي فقارع فكان من المغلوبين قال ابن كثير : (وذلك أن السفينة تلعبت بها الأمواج من كل جانب وأشرفوا على الغرق فساهموا على من تقع عليه القرعة يلقى في البحر لتخف بهم السفينة فوقعت القرعة على نبي الله يونس عليه الصلاة والسلام ثلاثة مرات وهم يضنّون به أن يُلقىٰ من بينهم فتجرّد من ثيابه ليلقي نفسه وهم يأبون عليه ذلك ، وأمر الله تعالى حوتاً من البحر الأخضر أن يشق البحار ، وأن يلتقم يونس عليه السلام ، فلا يهشم له لحماً ، ولا يكسر له عظماً ، فجاء ذلك الحوت وألقى يونس عليه السلام نفسه ، فالتقمه الحوت ، وذهب به فطاف به البحار كلها ، ولما استقر يونس في بطن الحوت حسب أنه قد مات ، ثم حَرّك رأسه ورجليه وأطرافه ، فإذا هو حي فقام فصلى في بطن الحوت ، وكان من جملة دعائه : يا رب اتخذت لك مسجداً في موضع لم يبلغه أحد من الناس . واختلفوا في مقدار ما لبث في بطن الحوت فقيل ثلاثة أيام قاله قتادة ، وقيل سبعة قاله جعفر الصادق رضي الله عنه ، وقيل أربعين يوماً قاله أبو مالك ، وقال مجاهد عن الشعبي : التقمه ضحى ولفظه عشية ، والله تعالى أعلم بمقدار ذلك) .

٤ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **فلولا أنّه كان من المسبّحين * للبث في بطنه إلى يوم يبعثون** ﴾ قال ابن كثير : (روى ابن أبي حاتم عن أنس بن مالك رضي الله عنه - ولا أعلم إلا أن يرفع أنس الحديث إلى رسول الله ﷺ « أن يونس النبي عليه الصلاة

والسلام حين بدا له أن يدعو بهذه الكلمات وهو في بطن الحوت فقال : اللهم لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ، فأقبلت الدعوة تحن بالعرش ، قالت الملائكة : يا رب هذا صوت ضعيف معروف ، من بلاد بعيدة غريبة ، فقال الله تعالى : أما تعرفون ذلك ؟ قالوا : يا رب ومن هو ؟ قال عز وجل : عبدي يونس ، قالوا : عبدك يونس الذي لم يزل يُرفع له عمل متقبَّل ودعوة مستجابة ؟ قالوا يا رب أو لا ترحم ما كان يصنع في الرخاء فتنجيه من البلاء ؟ قال : بلى فأمر الحوت فطرحه بالعراء » ورواه ابن جرير عن يونس عن ابن وهب به) .

٥ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وأنبتنا عليه شجرة من يقطين** ﴾ قال ابن كثير : (وذكر بعضهم في القرع فوائد منها سرعة نباته ، وتظليل ورقه لكبره ، ونعومته ، وأنّه لا يقربها الذباب ، وجودة تغذية ثمره ، وأنّه يؤكل نيئاً ومطبوخاً بلبه وقشره أيضاً ، وقد ثبت أن رسول الله ﷺ كان يحبّ الدّبّاء ويتتبعه من حواشي الصفحة) .

٦ - هناك سفر من أسفار العهد القديم اسمه سفر (يونان بن متاب) خاص بالكلام عن يونس عليه السلام ، يتألف من أربعة إصحاحات ، وهو كبقية أسفار أهل الكتاب ، قد اختلط فيه الحق بالباطل .

(يتحدّث هذا السفر عن يونس ، وأنه من بني إسرائيل ، وأن الله كلّفه بالرسالة إلى أهل نينوىٰ ، فخشي التكليف ، وأراد أن يفرّ إلى ترشيش ، فركب السفينة ، وحدث هيجان شديد في البحر ، فاقترعوا فيمن يلقى في البحر ، فوقعت القرعة على يونس ، فألقوه في البحر ، فسكن البحر والتقم الحوت يونس ، فبقي في جوفه ثلاثة أيام وثلاث ليال ، وصلّى يونس في جوف الحوت ، فأمر الربّ الحوت فقذف يونس إلى البر ، ثم كرر الله عز وجل الأمر إلى يونس بالذهاب إلى نينوىٰ ، فذهب وأنذر أهل نينوىٰ أن الله عز وجل سيقلب نينوىٰ بعد أربعين يوماً ، فآمن أهل نينوىٰ فرفع الله العذاب عنهم ، فاغتمّ يونس لأن الله لم يعذبهم ، فأنبت الله اليقطينة عليه ، ثمّ أماتها ليضرب له مثلاً من حرصه عليها على حرص الله على خلقه ، ويذكر السفر أن عدد أهل نينوىٰ كان مئة وعشرين ألفاً) .

وكما ترى فالأخطاء في السفر كثيرة ، فاليقطينة نبتت بعد الإلقاء من بطن الحوت ، وليس كما زعم السفر ، والإنذار لأهل نينوىٰ كان قبل هرب يونس ، والغمّ الذي أصاب يونس كان بعد الإنذار الأول ، مما ترتب عليه الهرب ، والظاهر أن ما في السفر قد

سرىٰ إلى بعض المفسّرين ، فحاول أن يحمل النّص القرآني عليه فأخطأ .

٧ - هل تستطيع أن تستفيد من قوله تعالى ﴿ **وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون** ﴾ أن كل مائة ألف من السكان ينبغي أن يتفرغ لشأنهم في أمر الدعوة إلى الله عز وجل وارث نبوّة كامل ؟ .

كلمة في المقطع الأول :

نلاحظ أنه بعد قصة يونس عليه السلام مباشرة يأتي قوله تعالى : ﴿ **فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون** ﴾ وقد فطن النسفي للصلة بين بداية المقطع الجديد وبداية المقطع الأول فقال عن (فاستفتهم) الثانية في المقطع الثاني : معطوف على مثله في أول السورة ، أي على ﴿ **فاستفتهم أهم أشد خلقاً** ﴾ وإن تباعدت بينهما المسافة . أمر رسول الله باستفتاء قريش عن وجه إنكار البعث أولاً ، ثم ساق الكلام موصولاً بعضه ببعض ، ثم أمره باستفتائهم عن وجه القسمة الضيزى التي قسموها ؛ حيث جعلوا لله تعالى الإناث ، ولأنفسهم الذكور في قولهم الملائكة بنات الله مع كراهتهم الشديدة لهن ، ووأدهم واستنكافهم من ذكرهن) .

من كلام النسفي هذا ندرك أن المقطع الأول يشكّل وحدة متكاملة ، ومن انتهاء المقطع كله بقصة يونس ، ثم الانتقال مباشرة إلى قوله تعالى ﴿ **فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون** ﴾ ندرك أن قصة يونس بانتهائها ينتهي سياق المقطع ، فإذا تذكّرنا ما قلناه من قبل أن المقطع ينقسم إلى قسمين رئيسيين : قسم للتقرير ، وقسم للتمثيل ، ندرك أن التمثيل انتهىٰ بقصة يونس عليه السلام فبها ينتهي ما أراد الله عز وجل أن يعمّقه من معان مرتبطة في قضية التوحيد .

لقد قررت مقدّمة السورة التوحيد ، وجاء المقطع الأول ليعمّق قضية التوحيد ، وليبين ما يدخل في قضية التوحيد من معان ، فاليوم الآخر وإرسال الرسل ، كل ذلك فرع عن قضية التوحيد ، وقد عمّق المقطع الأول هذه المعاني كلها من خلال التقرير والتمثيل كما رأينا .

والآن يأتي مقطع ثان في السّورة ليبلور قضية التوحيد والتنزيه والإيمان ، وما يتعلق بذلك ، والمقطع الجديد يشكل خاتمة السورة فلنره .

المقطع الثاني والأخير

ويمتدّ من الآية (١٤٩) إلى نهاية الآية (١٨٢) أي إلى نهاية السورة وهذا هو :

المجموعة الأولى

فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ
شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾
أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾
أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ
ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾
إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾

المجموعة الثانية

فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ
ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾

المجموعة الثالثة

وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ
ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾

المجموعة الرابعة

وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾

المجموعة الخامسة

وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٢﴾

تفسير المجموعة الأولى من المقطع الثاني

﴿ **فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون** ﴾ أي سلهم على سبيل الإنكار كيف ينسبون إلى الله تعالى القسم الذي لا يختارونه لأنفسهم ، أليس هذا منتهى الحماقة والجهل ، وسوء التقدير ﴿ **أم خلقنا الملائكة إناثاً وهم شاهدون** ﴾ أي كيف حكموا على الملائكة أنهم إناث وما شاهدوا خلقهم قال النسفي في تفسير قوله تعالى ﴿ **شاهدون** ﴾ حاضرون ثم قال : تخصيص علمهم بالمشاهدة استهزاء بهم ، وتجهيل لهم لأنهم كما لم يعلموا ذلك مشاهدة ، لم يعلموه بخلق الله علمه في قلوبهم ، ولا بإخبار صادق ، ولا بطريق استدلال ، أو معناه أنهم يقولون ذلك عن طمأنينة نفس ، لإفراط جهلهم ، كأنهم شاهدوا خلقهم ﴿ **ألا إنهم من إفكهم** ﴾ أي من كذبهم ﴿ **ليقولون ولد الله** ﴾ أي صدر منه الولد ﴿ **وإنهم لكاذبون** ﴾ في قولهم قال ابن كثير : (ذكر

الله تعالى عنهم في الملائكة ثلاثة أقوال في غاية الكفر والكذب : فأولاً جعلوهم بنات الله ، فجعلوا لله ولداً - تعالى وتقدّس - ، وجعلوا ذلك الولد أنثى ، ثم عبدوهم من دون الله - تعالى وتقدّس - وكل منها كاف للتخليد في نار جهنم ثم قال تعالى منكراً عليهم ﴿ **أصطفى البنات على البنين** ﴾ قال ابن كثير : (أي أي شيء يحمله على أن يختار البنات دون البنين) قال النسفي : (وهو استفهام توبيخ) ﴿ **ما لكم كيف تحكمون** ﴾ هذا الحكم الفاسد أي أما لكم عقول تتدبرون بها ما تقولون ﴿ **أفلا تذكّرون** ﴾ فترون في تذكركم أنكم بهذا تجعلون لله المقام الأدنىٰ ، ولأنفسكم المقام الأعلى ، على حسب تصوراتكم وقيمكم ﴿ **أم لكم سلطان مبين** ﴾ أي حجة ظاهرة على ما تقولونه قال النسفي : (أي) أم لكم حجة نزلت عليكم من السماء بأن الملائكة بنات الله ؟! ﴿ **فأتوا بكتابكم** ﴾ الذي أنزل عليكم ﴿ **إن كنتم صادقين** ﴾ في دعواكم قال ابن كثير : (أي هاتوا برهاناً على ذلك يكون مستنداً إلى كتاب منزل من السماء عن الله تعالى أنه اتخذ ما تقولونه ، فإن ما تقولونه لا يمكن استناده إلى عقل ، بل لا يجوّزه العقل بالكلية ﴿ **وجعلوا بينه وبين الجِنَّة نسباً** ﴾ الجنة هنا إما المراد بها الملائكة لاستتارهم ، أو المراد بهم الجن على الحقيقة ، فإذا كان المراد بهم الملائكة فهو استكمال لعرض موضوع كفرهم السابق ، وإذا كان المراد به الجن فإنه يحتمل وجهين : الأول أن يكون المراد أن الجن هم أمهات الملائكة ، وهم بالتالي أزواج الله - على قائل ذلك لعنة الله - ، والثاني أن المراد بذلك ما يذهب إليه بعضهم من كون إبليس أخاً لله عز وجل - تعالى الله عن ذلك - هذا مجمل ما ذكره النسفي وابن كثير في هذا المقام ، وسنراه في الفوائد ﴿ **ولقد علمت الجِنَّة** ﴾ أي الذين نسبوا هم ذلك ﴿ **إنهم لمحضرون** ﴾ أي إن الذين قالوا ذلك لمحضرون في العذاب يوم الحساب لكذبهم في ذلك ، وافترائهم ، وقولهم الباطل بلا علم ، ثم نزّه الله عز وجل ذاته عما يصفه به الخلق أجمعون ، إلا عباد الله المخلَصين فإنهم يصفونه بما هو له قال تعالى ﴿ **سبحان الله عَمّا يصفون** ﴾ نزّه نفسه عن الصاحبة والولد والنّسب ﴿ **إلا عباد الله المخلَصين** ﴾ فإنّهم بُرءاء من أن يصفوه إلا بما هو أهله .

....

كلمة في السياق :

١ - بدأت السورة بتقرير وحدانية الله عز وجل ، ثم ناقش المقطع الأول

الكافرين في استبعادهم اليوم الآخر ، وبيّن لنا المقطع أنّ أصل الكفر باليوم الآخر هو رفض التوحيد الذي بُعث به محمد ﷺ والذي بعث به كل رسول ، وسار المقطع الأول كما رأينا ، حتى إذا جاء المقطع الثاني بدأ بمناقشة الكافرين في قضايا مخلّة بالتوحيد ، كالزعم أن لله ولداً وزوجة وأخاً ، ثم نزّه الله عز وجل ذاته في نهاية المجموعة الأولى من المقطع الثاني عما يصفه به الكافرون .

٢ - مَرّ معنا في المقطع الأول أكثر من مرة قوله تعالى ﴿ **إلا عباد الله المخلَصين** ﴾ :

(أ) ﴿ **إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون * ويقولون أئِنا لتاركو آلهتنا لشاعر مجنون * بل جاء بالحق وصدّق المرسلين * إنكم لذائقو العذاب الأليم * وما تجزون إلا ما كنتم تعملون * إلا عباد الله المخلَصين** ﴾ .

(ب) ﴿ **ولقد أرسلنا فيهم منذِرين * فانظر كيف كان عاقبة المنذَرين * إلا عباد الله المخلَصين** ﴾ .

(ج) وفي قصة إلياس قال الله تعالى ﴿ **فكذبوه فإنهم لمحضرون * إلا عباد الله المخلَصين** ﴾ .

(د) وفي هذه المجموعة قال تعالى ﴿ **سبحان الله عَمّا يصفون * إلا عباد الله المخلَصين** ﴾ . ومن مجموع هذا نفهم أن عباد الله المخلَصين هم الموحِّدون ، وهم الرسل عليهم الصلاة والسلام وأتباعهم ، فهؤلاء الذين يصفون الله عز وجل بما هو أهله ، وهكذا نجد كيف أن سياق السورة كله يصبّ في موضوع التوحيد ، وما يدخل فيه ، وها هو السياق في المجموعة الثانية يتوجّه إلى المشركين في الخطاب :

☆ ☆ ☆

تفسير المجموعة الثانية من المقطع الثاني

﴿ **فإنكم** ﴾ أيها المشركون ﴿ **وما تعبدون** ﴾ أي ومعبودكم ﴿ **ما أنتم** ﴾ وهم ﴿ **عليه بفاتنين** ﴾ أي بمضلين ﴿ **إلا من هو صال الجحيم** ﴾ أي إنما ينقاد لمقالتكم وما أنتم عليه من الضلالة والعبادة الباطلة من هو أضلّ منكم ممّن ذرىء للنار ، فهذا الضرب من الناس هو الذي ينقاد لدين الشرك والكفر والضلالة . قال النسفي : أي لستم تضلون أحداً إلا أصحاب النار الذين سبق في علمه أنهم - بسوء أعمالهم - يستوجبون أن يصلوها ... وقال الحسن : فإنكم أيها القائلون بهذا القول والذي تعبدونه من الأصنام ما أنتم على عبادة الأوثان بمضلين أحداً ، إلا من قُدّر عليه أن يصلىٰ الجحيم أي يدخل النار وقيل : ما أنتم بمضلين إلا من أوجبت عليه الضلالة في السابقة .

....

كلمة في السياق :

بيّن الله عز وجل في هذه الآيات أن الدعاة إلى الشرك لا يفتنون إلا من استوجب النار ، وبهذا علمنا أن المستجيبين للرسل هم أهل الجنة ، لأنهم هم أهل التوحيد الذي بدونه لا يدخل أحد الجنة ، وبهذه الآيات عرفنا أن كل الكلام السابق من نسبة الولد والأخ والزوجة إلى الله كل ذلك مخلّ بالتوحيد وهو شرك ، ثم حدثنا الله عز وجل عن الملائكة الذين زعم المشركون أنهم بنات الله ما هو مقالهم وما هو فعلهم فقال على لسانهم :

☆ ☆ ☆

تفسير المجموعة الثالثة من المقطع الثاني

﴿ **وما منا** ﴾ أحد ﴿ **إلا له مقام معلوم** ﴾ في العبادة لا يتجاوزه قال ابن كثير : أي له موضع مخصوص في السمٰوات ومقامات العبادات لا يتجاوزه ولا يتعداه ﴿ **وإنا لنحن الصافُّون** ﴾ أي تصف أقدامنا في الصلاة ، أو تصفّ حول العرش ، داعين للمؤمنين ، قال ابن كثير : أي نقف صفوفاً في الطاعة كما تقدم عند قوله تبارك وتعالى ﴿ **والصافات صفاً** ﴾ ﴿ **وإنا لنحن المسبّحون** ﴾ أي المنزهون أو المصلون وقال ابن كثير : (نصطف فنسبّح الربّ ونمجّده ونقدّسه وننزّهه عن النقائص ، فنحن عبيد له ، فقراء إليه ، خاضعون لديه) .

....

كلمة في السياق :

١ - عرفنا من هذه الآيات ماهيّة مقام العبودية الكامل الذي يتحقق به الملائكة عليهم الرضوان ، وهو مقام جدير أن يُقتدىٰ به ، ولذلك فإنّ رسول الله ﷺ كان يُؤدّب المسلمين عليه كما سنرىٰ في الفوائد وهو مقام يتنافىٰ مع ما ينسبه المشركون للملائكة من معان .

٢ - نلاحظ حتىٰ الآن في السورة أنه قد كان حديث عن الله عز وجل ، وعن الرسل عليهم الصلاة والسلام ، وعن اليوم الآخر ، وعن الملائكة ، وكل ذلك من خلال عرض قضية التوحيد ، أي إنه حتىٰ الآن عرض علينا أربعة أركان من أركان الإيمان ، ومرَّ معنا ما يشير إلى موضوع القدر في قوله تعالى ﴿ **ما أنتم عليه بفاتنين إلا مَن هو صال الجحيم** ﴾ . وسيأتي معنا الآن أربعة آيات تتحدّث عن موضوع الإيمان بالكتاب ، وهكذا نجد السورة من خلال عرض قضية التوحيد قد عرضت لنا أركان الإيمان كلها ، وبهذا ندرك صلة السورة بمحورها وهو الآيات الأولى من سورة البقرة ﴿ **الذين يؤمنون بالغيب** ... ﴾ فلنر الآيات الأربعة التالية من سورة الصافات .

☆ ☆ ☆

تفسير المجموعة الرابعة من المقطع الثاني

﴿ **وإن كانوا ليقولون** ﴾ أي وإنّه كان مشركو قريش ليقولون قبل مبعثه عليه الصلاة والسلام ﴿ **لو أن عندنا ذكراً من الأولين** ﴾ أي كتاباً من كتب الأولين الذين نزل عليهم التوراة والإنجيل ﴿ **لكنّا عباد الله المخلَصين** ﴾ أي لأخلصنا العبادة لله ولما كذّبنا كما كذّبوا ، ولما خالفنا كما خالفوا قال ابن كثير : (أي قد كانوا يتمنّون قبل أن تأتيهم يا محمد لو كان عندهم من يذكّرهم بأمر الله ، وما كان من أمر القرون الأولى ، ويأتيهم بكتاب الله) قال النسفي : فجاءهم الذكر الذي هو سيّد الأذكار ، والكتاب الذي هو معجز من بين الكتب ﴿ **فكفروا به فسوف يعلمون** ﴾ مغبَّة تكذيبهم وما يحل بهم من الانتقام .

....

كلمة في السياق :

بعد أن بيّن الله عز وجل مواقف الكافرين المخلّة بالتوحيد ، وردّها ، ذكّر في الأربع الآيات السابقة بكتابه الذي يجب أن يؤمنوا به ، وذكّر هؤلاء الكافرين بأنهم من قبل كانوا يتمنّون أن ينزل عليهم ذكر ، وها هو قد نزل ، وكان المفروض أن يؤمنوا ويصححوا تصوراتهم وأفكارهم ، ويخلصوا لله العبادة والقول والاعتقاد ، وإذا بهم قد كفروا بهذا القرآن ، وبهذا تكون السورة قد أقامت الحجة على وجوب الإيمان بالله واليوم الآخر ، والكتب والرسل والملائكة والقدر ، وأعطتنا تصوراً صحيحاً عن أركان الإيمان كلها ، وعن صلة كل ركن من الأركان بقضية التوحيد ، وبيّنت لنا التصورات الخاطئة في أي قضية من هذه القضايا ، وأن كل تصور خاطىء ينعكس خطؤه على موضوع التوحيد بالذات ، فإذا استقرت هذه المعاني كلها تأتي الآن مجموعة هي خاتمة المقطع وخاتمة السورة ، فيها التبشير والإنذار ، وفيها التنزيه لله رب العالمين ، وفيها إشارة إلى موضوع القدر .

☆　☆　☆

تفسير المجموعة الخامسة من المقطع الثاني

﴿ **ولقد سبقت كلمتنا** ﴾ أي في اللوح المحفوظ ﴿ **لعبادنا المرسلين** ﴾ ثم فسّر الكلمة بقوله ﴿ **إنهم لهم المنصورون** ﴾ أي في الدنيا والآخرة ، وقد تقدَّم بيان نصرتهم على مَنْ كذّبهم وخالفهم ﴿ **وإن جندنا لهم الغالبون** ﴾ بأن تكون لهم العاقبة قال النسفي : (والمراد الموعد بعلوِّهم على عدوهم في مقام الحجاج ، وملاحم القتال في الدنيا ، وعلوِّهم عليهم في الآخرة ، وعن الحسن ما غلب نبي في حرب ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما إن لم ينصروا في الدنيا نصروا في العقبىٰ ، والحاصل أن قاعدة أمرهم وأساسه والغالب منه الظفر والنصرة ، وإن وقع في تضاعيف ذلك شوب من الابتلاء والمحنة والعبرة للغالب) .

وإذا كان الأمر كذلك ﴿ **فتول عنهم حتى حين** ﴾ أي فأعرض عنهم إلى مدة يسيرة أي اصبر على أذاهم لك ، وانتظر إلى وقت مؤجّل ، فإنا سنجعل لك العاقبة والنصرة والظفر ، وقد كان ذلك في بدر ، وفتح مكة ، وغيرها ﴿ **وأبصرهم** ﴾ أي أبصر ما ينالهم يومئذٍ ﴿ **فسوف يبصرون** ﴾ ذلك قال النسفي : وهو للوعيد دون التبعيد ، أو انظر إليهم إذا عذّبوا فسوف يبصرون ما أنكروا ، أو أعلمهم فسوف يعلمون . وقال ابن كثير : أي أنظرهم وارتقب ماذا يحل بهم من العذاب والنّكال بمخالفتك وتكذيبك ، ولهذا قال تعالى على وجه التهديد والوعيد ﴿ **فسوف يبصرون** ﴾ ﴿ **أفبعذابنا يستعجلون** ﴾ أي قبل حينه ﴿ **فإذا نزل** ﴾ العذاب ﴿ **بساحتهم** ﴾ أي بمحلتهم ودارهم ﴿ **فساء صباح المنذَرين** ﴾ صباحهم ﴿ **وتولّ عنهم حتى حين وأبصر فسوف يبصرون** ﴾ قال ابن كثير : تأكيد لما تقدم من الأمر بذلك . وقال النسفي : وإنما ثنّىٰ ليكون تسلية على تسلية ، وتأكيداً لوقوع الميعاد إلى تأكيد ، وفيه فائدة زائدة : وهي إطلاق الفعلين معاً عن التقييد بالمفعول ، وأنه يبصر وهم يبصرون ما لا يحيط به الذكر من صنوف المسرّة ، وأنواع المساءة ، وقيل : أريد بأحدهما عذاب الدنيا ، وبالآخر عذاب الآخرة ﴿ **سبحان ربك رب العزّة** ﴾ أي ذي العزّة التي لا ترام قال النسفي : (أضيف الرب إلى العزة لاختصاصه بها ، وكأنه قيل ذو العزة ... ويجوز أن يراد أنه ما من عزة لأحد إلا وهو ربها ومالكها) ﴿ **عمّا يصفون** ﴾ أي عن قول هؤلاء المعتدين المفترين من نسبتهم إليه تعالى الولد والصاحبة والشريك . قال ابن كثير : ينزّه تبارك وتعالى نفسه الكريمة ، ويقدّسها ويبرّئها عمّا يقول الظالمون

المكذّبون المعتدون ، تعالى وتنزّه وتقدّس عن قولهم علواً كبيراً ﴿ **وسلام على المرسلين** ﴾ قال ابن كثير : (أي سلام الله عليهم في الدنيا والآخرة لسلامة ما قالوه في ربهم ، وصحته وحقيقته) وقال النسفي : (عمّ الرسل بالسلام بعد ما خص البعض في السورة لأن في تخصيص كلٍ بالذكر تطويلاً) ﴿ **والحمد لله رب العالمين** ﴾ قال ابن كثير : أي له الحمد في الأولى والآخرة في كل حال . وقال النسفي : (أي) : والحمد لله على هلاك الأعداء ونصر الأنبياء . اشتملت السورة على ذكر ما قاله المشركون في الله ، ونسبوه إليه ، مما هو منزَّه عنه ، وما عاناه المرسلون من جهتهم ، وما خُوِّلوه في العاقبة من النصرة عليهم ، فختمها بجوامع ذلك من تنزيه ذاته عما وصفه به المشركون ، والتسليم على المرسلين والحمد لله رب العالمين على ما قيَّض لهم من حسن العواقب ، والمراد تعليم المؤمنين أن يقولوا ذلك ولا يخلّوا به ، ولا يغفلوا عن مُضمّنات كتابه الكريم ، ومودعات قرآنه المجيد .

....

نقل :

عند قوله تعالى : ﴿ **ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين * إنهم لهم المنصورون * وإن جندنا لهم الغالبون** ﴾ . قال صاحب الظلال :

(والوعد واقع وكلمة الله قائمة . ولقد استقرت جذور العقيدة في الأرض ؛ وقام بناء الإيمان ، على الرغم من جميع العوائق ، وعلى الرغم من تكذيب المكذّبين ، وعلى الرغم من التنكيل بالدعاة والمتبعين . ولقد ذهبت عقائد المشركين والكفار . وذهبت سطوتهم ودولتهم ؛ وبقيت العقائد التي جاء بها الرسل . تسيطر على قلوب الناس وعقولهم . وتكيف تصوراتهم وأفهامهم . وما تزال على الرغم من كل شيء هي أظهر وأبقى ما يسيطر على البشر في أنحاء الأرض . وكل المحاولات التي بذلت لمحو العقائد الإلهية التي جاء بها الرسل ، وتغليب أية فكرة أو فلسفة أخرى قد باءت بالفشل . باءت بالفشل حتى في الأرض التي نبعت منها . وحقّت كلمة الله لعباده المرسلين . إنهم لهم المنصورون وإن جنده لهم الغالبون .

هذه بصفة عامة . وهي ظاهرة ملحوظة . في جميع بقاع الأرض . في جميع العصور . وهي كذلك متحققة في كل دعوة لله ، يخلص فيها الجند ، ويتجرّد لها

الدعاة . إنها غالبة منصورة مهما وضعت في سبيلها العوائق ، وقامت في طريقها العراقيل . ومهما رصد لها الباطل من قوى الحديد والنار ، وقوى الدعاية والافتراء ، وقوى الحرب والمقاومة . وإن هي إلا معارك تختلف نتائجها . ثم تنتهي إلى الوعد الذي وعده الله لرسله . والذي لا يخلف ولو قامت قوى الأرض كلها في طريقه . الوعد بالنصر والغلبة والتمكين .

هذا الوعد سُنَّة من سنن الله الكونية . سُنَّة ماضية كما تمضي هذه الكواكب والنجوم في دوراتها المنتظمة ؛ وكما يتعاقب الليل والنهار في الأرض على مدار الزمان ؛ وكما تنبثق الحياة في الأرض الميتة ينزل عليها الماء .. ولكنها مرهونة بتقدير الله ، يحققها حين يشاء . ولقد تبطىء آثارها الظاهرة بالقياس إلى أعمار البشر المحدودة . ولكنها لا تخلف أبداً ولا تتخلف وقد تتحقق في صورة لا يدركها البشر لأنهم يطلبون المألوف من صور النصر والغلبة ، ولا يدركون تحقق السُنَّة في صورة جديدة إلا بعد حين !

ولقد يريد البشر صورة معينة من صور النصر والغلبة لجند الله وأتباع رسله . ويريد الله صورة أخرى أكمل وأبقى . فيكون ما يريده الله . ولو تكلف الجند المشقة وطول الأمد أكثر مما كانوا ينتظرون .. ولقد أراد المسلمون قبيل غزوة بدر أن تكون لهم عير قريش وأراد الله أن تفوتهم القافلة الرابحة الهينة ؛ وأن يقابلوا النفير وأن يقاتلوا الطائفة ذات الشوكة ، وكان ما أراده الله هو الخير لهم وللإسلام ، وكان هو النصر الذي أراده الله لرسوله وجنده ودعوته على مدى الأيام . ولقد يهزم جنود الله في معركة من المعارك وتدور عليهم الدائرة ويقسو عليهم الابتلاء لأن الله يعدّهم للنصر في معركة أكبر ، ولأن الله يهيىء الظروف من حولهم ليؤتي النصر يومئذ ثماره في مجال أوسع وفي خط أطول وفي أثر أدوم . لقد سبقت كلمة الله ومضت إرادته بوعده وثبتت سنته لا تتخلّف ولا تحيد : ﴿ **ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين * إنّهم لهم المنصورون * وإن جندنا لهم الغالبون** ﴾ .

كلمة في السياق والمقطع الثاني :

نلاحظ أنه في المقطع الأول بعد قوله تعالى ﴿ **فاستفتهم أهم أشد خلقاً** ... ﴾ سار السياق إلى أن أوصلنا إلى قوله تعالى ﴿ **ولقد ضل قبلهم أكثر الأولين * ولقد أرسلنا فيهم منذِرين * فانظر كيف كان عاقبة المنذَرين * إلا عباد الله المخلَصين** ﴾ ثم تحدث السياق عن الرسل مباشرة .

وفي المقطع الثاني بعد أن ناقش الله عز وجل المشركين جاء قوله تعالى : ﴿ **ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين** ... ﴾ .

فكما أن المقطع الأول أوصل إلى قوله تعالى ﴿ **ولقد** ... ﴾ .

فالمقطع الثاني أوصل إلى قوله تعالى ﴿ **ولقد** ... ﴾ .

وجاءت المجموعة الأخيرة المبدوءة بقوله تعالى ﴿ **ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين** ﴾ لتبني على ما مرّ في السورة ، ولتؤكّد ما مرّ من معان ، ولتجمّل معاني السورة فتقرّر التنزيه ، وتذكر بعثة الرسل ، ونصرتهم وخذلان أعدائهم وهكذا أكمل المقطع الثاني بناء قضية التوحيد ، وقضية الإيمان وختم بتبيان نوع من أنواع فلاح المؤمنين الذي أشارت إليه الآيات الأولىٰ من سورة البقرة ، والتي هي محور سورة الصافات ﴿ **وأولئك هم المفلحون** ﴾ وفي الكلمة الأخيرة عن السورة زيادة بيان عن السياق .

....

فوائد :

١ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وجعلوا بينه وبين الجِنَّة نسباً** ﴾ قال ابن كثير : (قال مجاهد : قال المشركون : الملائكة بنات الله تعالى ، فقال أبو بكر رضي الله عنه : فمن أمهاتهن ؟ قالوا بنات سروات الجنّة ، وكذا قال قتادة وابن زيد ، وقال العوفي عن ابن عباس : قال زعم أعداء الله أنّه تبارك وتعالى هو وإبليس أخوان حكاه ابن جرير) .

أقول : ويشبه ما ذكره ابن عباس ما يقوله المجوس الذين يقولون بالثنوية أي بإلهين : إله للنور وإله للظلام .

٢ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وما منَّا إلا له مقام معلوم * وإنا لنحن الصافُّون** ﴾ قال ابن كثير : (وقال ابن عساكر في ترجمته لمحمد بن خالد بسنده إلى عبد الرحمن بن العلاء بن سعد عن أبيه - وكان ممن بايع يوم الفتح - أن رسول الله ﷺ قال يوماً لجلسائه : « أطت السماء وحُقَّ لها أن تئط ؛ ليس فيها موضع قدم إلا عليه ملك راكع أو ساجد » ثم قرأ صلى الله عليه وسلم ﴿ **وما منا إلا له مقام**

معلوم * وإنا لنحن الصافّون * وإنا لنحن المسبحون ﴾ وقال الضحاك في تفسيره ﴿ **وما منا إلا له مقام معلوم** ﴾ قال : كان مسروق يروي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « ما من السماء الدنيا موضع إلا عليه ملك ساجد أو قائم » فذلك قوله تعالى ﴿ **وما منا إلا له مقام معلوم** ﴾ .

وقال الإمام الأعمش عن أبي إسحاق عن مسروق عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : إن في السموٰات لسماء ما فيها موضع شبر إلا عليه جبهة ملك ، أو قدماه ، ثم قرأ عبد الله رضي الله عنه قال ﴿ **وما منا إلا له مقام معلوم** ﴾ وكذا قال سعيد بن جبير وقال قتادة : كانوا يصلون الرجال والنساء جميعاً حتى نزلت ﴿ **وما منا إلا له مقام معلوم** ﴾ فتقدم الرجال وتأخر النساء ﴿ **وإنا لنحن الصافّون** ﴾ أي نقف صفوفاً في الطاعة كما تقدم عند قوله تبارك وتعالى ﴿ **والصافات صفّاً** ﴾ قال ابن جريج عن الوليد بن عبد الله بن أبي مغيث قال : كانوا لا يصفون في الصلاة حتى نزلت ﴿ **وإنا لنحن الصافّون** ﴾ فصفّوا ، وقال أبو نضرة : كان عمر رضي الله عنه إذا أقيمت الصلاة استقبل الناس بوجهه ، ثم قال أقيموا صفوفكم ، استووا قياماً يريد الله تعالى بكم هدي الملائكة ثم يقول ﴿ **وإنا لنحن الصافون** ﴾ تأخر يا فلان ، تقدم يا فلان ، ثم يتقدم فيكبر . رواه ابن أبي حاتم وابن جرير ، وفي صحيح مسلم عن حذيفة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « فضّلنا على الناس بثلاث : جعلت صفوفنا كصفوف الملائكة ، وجعلت لنا الأرض مسجداً ، وتربتها طهوراً » الحديث . ﴿ **وإنا لنحن المسبّحون** ﴾ أي نصطف فنسبّح الرب ، ونمجّده ، ونقدّسه ، وننزّهه عن النقائص ، فنحن عبيد له فقراء إليه خاضعون لديه ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد ﴿ **وما منا إلا له مقام معلوم** ﴾ الملائكة ﴿ **وإنا لنحن الصافّون** ﴾ الملائكة ﴿ **وإنا لنحن المسبّحون** ﴾ الملائكة تسبح الله عز وجل . وقال قتادة ﴿ **وإنا لنحن المسبّحون** ﴾ يعني المصلين يثبتون بمكانهم من العبادة كما قال تبارك وتعالى ﴿ **وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون * لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون * يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون * ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين** ﴾ (الأنبياء : ٢٦ - ٢٩) .

٣ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **فإذا نزل بساحتهم فساء صباح المنذَرين** ﴾ قال

ابن كثير : (ثبت في الصحيحين عن أنس رضي الله عنه قال : صبَّح رسول الله ﷺ خيبر فلما خرجوا بفؤوسهم ومساحيهم ورأوا الجيش رجعوا وهم يقولون : محمد والله ، محمد والخميس ، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « الله أكبر ، خربت خيبر ، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذَرين » ورواه البخاري من حديث مالك عن حميد عن أنس رضي الله عنه . وروى الإمام أحمد عن أنس بن مالك عن أبي طلحة رضي الله عنه قال : لما صبَّح رسول الله ﷺ خيبر وقد أخذوا مساحيهم ، وغدوا إلى حروثهم وأرضيهم ، فلما رأوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم نكصوا مدبرين ، فقال نبي الله ﷺ : « إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذَرين » لم يخرجوه من هذا الوجه وهو صحيح على شرط الشيخين) .

٤ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **سبحان ربك رب العزَّة عما يصفون * وسلام على المرسلين * والحمد لله رب العالمين** ﴾ قال ابن كثير : (ولما كان التسبيح يتضمن التنزيه والتبرئة من النقص بدلالة المطابقة ، ويستلزم إثبات الكمال - كما أن الحمد يدل على إثبات صفات الكمال مطابقة ويستلزم التنزيه من النقص - قرن بينهما في هذا الموضع وفي مواضع كثيرة من القرآن ، ولهذا قال تبارك وتعالى ﴿ **سبحان ربك رب العزة عما يصفون * وسلام على المرسلين * والحمد لله رب العالمين** ﴾ وقال سعيد بن أبي عروبة عن قتادة قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا سلمتم عليّ فسلِّموا على المرسلين ؛ فأنا رسول من المرسلين » هكذا رواه ابن جرير وابن ابي حاتم من حديث سعيد عنه كذلك ، وقد أسنده ابن أبي حاتم رحمه الله ... عن قتادة قال حدثنا أنس ابن مالك عن أبي طلحة رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا سلَّمتم عليّ فسلِّموا على المرسلين » وروى الحافظ أبو يعلى عن أبي سعيد رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه كان إذا أراد أن يسلّم قال : ﴿ **سبحان ربك رب العزة عما يصفون * وسلام على المرسلين * والحمد لله رب العالمين** ﴾ ثم يسلم . إسناده ضعيف . وروى ابن أبي حاتم عن أبي إسحاق عن الشعبي قال : قال رسول الله ﷺ : « من سرَّه أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة فليقل آخر مجلسه حين يريد أن يقوم ﴿ **سبحان ربك رب العزة عما يصفون * وسلام على المرسلين * والحمد لله رب العالمين** ﴾ » وروي من وجه آخر متّصل موقوف على عليّ رضي الله عنه روى أبو محمد البغوي في تفسيره ... عن الأصبغ بن نباتة عن علي رضي الله عنه قال : من أحب أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة فليكن آخر كلامه في مجلسه ﴿ **سبحان**

ربك رب العزة عما يصفون * وسلام على المرسلين * والحمد لله رب العالمين ﴾ وروى الطبراني من طريق عبد الله بن صخر بن أنس عن عبد الله بن زيد بن أرقم عن أبيه عن رسول الله ﷺ أنه قال : « من قال دبر كل صلاة : سبحان ربك رب العزة عما يصفون ، وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين - ثلاث مرات - فقد اكتال بالجريب الأوفى من الأجر » وقد وردت أحاديث في كفارة المجلس : سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك) .

كلمة أخيرة في سورة الصافات :

قلنا من قبل : إنّ سورة ما عندما تفصّل في محور من سورة البقرة فإنّها تفصّل فيه ، وفي امتدادات معانيه من سورة البقرة نفسها .

ولقد رأينا كيف أن سورة الصافات قد فصّلت في محورها من سورة البقرة ؛ ففصّلت في الآيات الأولى من سورة البقرة وخاصة في قوله تعالى ﴿ **الذين يؤمنون بالغيب** ﴾ فلقد فصّلت السورة في أركان الإيمان ، حتى لم يبق ركن من هذه الأركان إلا وقد أصابه نوع تفصيل ، وكل ذلك ضمن سياق السّورة الرئيسي ، الذي انصب الكلام فيه على التوحيد .

....

لنتذكر الآن ما يلي :

تألّفت سورة البقرة من مقدّمة ، وثلاثة أقسام ، وخاتمة ، وتحدّثت المقدّمة عن المتقين ، والكافرين ، والمنافقين ، ثمّ جاء القسم الأول فدعا الناس جميعاً أن يكونوا من المتقين ، ولقد انتهى القسم الأول بقوله تعالى :

﴿ **وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم** ﴾ [الآية : ١٦٣] .

﴿ **إن في خلق السمٰوات والأرض ...** ﴾ [الآية : ١٦٤] .

﴿ **ومن الناس من يتّخذ من دون الله أنداداً ...** ﴾ [الآية : ١٦٥] .

﴿ **إذ تبرّأ الذين اتُّبعوا من الذين اتَّبعوا ...** ﴾ [الآية : ١٦٦] .

﴿ **وقال الذين اتّبعوا لو أن لنا كرّة فنتبرّأ منهم ...** ﴾ [الآية : ١٦٧] .

إن هذه المعاني التي ختم بها القسم الأول من أقسام سورة البقرة ترتبط بشكل مباشر بمقدّمتها أي بالكلام عن المتقين والكافرين .

....

لاحظ صلة هذه المعاني بسورة الصافات :

﴿ **إن إلهكم لواحد * رب السمٰوات والأرض وما بينهما ورب المشارق** ﴾ [الآيتين : ٤ ، ٥] .

﴿ **وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون * قالوا إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين * قالوا بل لم تكونوا مؤمنين * وما كان لنا عليكم من سلطان ...** ﴾ [الآيات : ٢٧ - ٣٠]

﴿ **فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون * قال قائل منهم إني كان لي قرين * ..** ﴾ [الآيتين : ٥٠ ، ٥١] .

....

وهكذا نجد أن سورة الصافات تفصّل في محورها مع امتدادات معانيه ضمن سياقها الخاص بها ، وهذا كله مع تكاملها مع سورة (ص) التي تشكّل معها المجموعة الثانية من قسم المثاني .

وكنموذجٍ على هذا التكامل : إنّك تجد في سورة الصافات كلمة (المخلَصين) قد تكررت كثيراً ، وتجد في سورة (ص) ذكراً لما به أُخلصوا : ﴿ **إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار** ﴾ .

☆ ☆ ☆

سورة صٓ

وهي السورة الثامنة والثلاثون بحسب الرسم القرآني
وهي السورة الثانية والأخيرة من المجموعة الثانية من
قسم المثاني ، وآياتها ثمان وثمانون آية
وهي مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه

ربنا تقبل منا، إنك أنت السميع العليم

نقول في سورة (ص) :

قدّم الألوسي لسورة (ص) بقوله : (مكية كما روي عن ابن عباس وغيره ، وقيل مدنية وليس بصحيح كما قال الداني . وهي ثمان وثمانون آية في الكوفي وست وثمانون في الحجازي والبصري والشامي ، وخمس وثمانون في عد أيوب بن المتوكل وحده ، قيل ولم يقل أحد إن (ص) وحدها آية كما قيل في غيرها من الحروف في أوائل السور ، وفيه بحث . وهي كالمتممة لما قبلها من حيث إنه ذكر فيها ما لم يذكر في تلك من الأنبياء عليهم السلام ، كداود وسليمان ، ولما ذكر سبحانه فيما قبل عن الكفار أنهم قالوا ﴿ **لو أن عندنا ذكراً من الأولين لكنا عباد الله المخلَصين** ﴾ وأنهم كفروا بالذكر لمّا جاءهم بدأ عز وجل في هذه السورة بالقرآن ذي الذكر ، وفصّل ما أجمل هناك من كفرهم ، وفي ذلك من المناسبة ما فيه ، ومن دقّق النظر لاح له مناسبات أخر والله تعالى الموفق) .

ومن تقديم صاحب الظلال لسورة (ص) :

(وهذه الأشواط ... التي تجري بموضوعات السورة هذا المجرى ، تجول بالقلب البشري في مصارع الغابرين ، الذين طغوا وتجبروا واستعلوا على الرسل والمؤمنين ، ثم انتهوا إلى الهزيمة والدمار والخذلان : ﴿ **جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب * كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وفرعون ذو الأوتاد * وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة أولئك الأحزاب * إن كل إلا كذّب الرسل فحقّ عقاب** ﴾ .

تعرض على القلب البشري هذه الصفحة . صفحة الهزيمة والدمار والهلاك للطغاة المكذبين . ثم تعرض بإزائها صفحة العز والتمكين والرحمة والرعاية لعباد الله المختارين ، في قصص داود وسليمان وأيوب .

هذا وذلك في واقع الأرض .. ثم تطوف بهذا القلب في يوم القيامة وما وراءه من صور النعيم والرضوان . وصور الجحيم والغضب . حيث يرى لوناً آخر مما يلقاه الفريقان في دار البقاء . بعد ما لقياه في دار الفناء .

والجولة الأخيرة في قصة البشرية الأولى وقصة الحسد والغواية من العدو الأول ، الذي يقود خطى الضالين عن عمد وعن سابق إصرار . وهم غافلون .

كذلك ترد في ثنايا القصص لفتة تلمس القلب البشري وتوقظه إلى الحق الكامن

في بناء السماء والأرض . وأنه الحق الذي يريد الله بإرسال الرسل أن يقره بين الناس في الأرض . فهذا من ذلك : ﴿ **وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً** ﴾ .. وهي لفتة لها في القرآن نظائر . وهي حقيقة أصيلة من حقائق هذه العقيدة التي هي مادة القرآن المكي الأصيلة ..) .

كلمة في سورة (ص) ومحورها :

قلنا من قبل : إن محور سورة (ص) هو قوله تعالى من مقدمة سورة البقرة ﴿ **إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون * ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم** ﴾ .

ومن ثَمَّ نجد في أول السورة قوله تعالى : ﴿ **صۤ والقرآن ذي الذكر * بل الذين كفروا في عِزَّة وشقاق** ﴾ .

ثم نجد بعد آية قوله تعالى : ﴿ **وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب** ﴾ .

ثم نجد في أعماق السورة : ﴿ **قل إنما أنا منذر وما من إله إلا الله الواحد القهار * رب السموٰات والأرض وما بينهما العزيز الغفار** ﴾ .

ثم نجد بعد آية : ﴿ **إن يوحى إليّ إلا أنما أنا نذير مبين** ﴾ .

ثم نجد ختام السورة : ﴿ **قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلّفين * إن هو إلا ذكر للعالمين * ولتعلمنّ نبأه بعد حين** ﴾ .

....

ونلاحظ أن السورة تبدأ بمقدمة ثم تنتقل منها بقوله تعالى : ﴿ **اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أوّاب** ﴾ .

ونجد في السورة بعد ذلك : ﴿ **واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أني مسني الشيطان بنصب وعذاب** ﴾ .

ونجد : ﴿ **واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولي الأيدي والأبصار** ﴾ .

ونجد : ﴿ **واذكر إسماعيل واليسع وذا الكفل وكل من الأخيار** ﴾ .

فكأن السورة تعطي دروساً للنذير .

....

وتكثر في السورة الأوامر (قل) مما يشير إلى أنّ القرآن يلقّن النّدير حجّته أمام المواقف الجاحدة الكافرة .

....

وتعرض السورة مظاهر من العذاب العظيم الذي أعدَّه الله للكافرين .

وتعرض السورة آداباً كثيرة للرسل الذين يقومون بواجب النذارة عن الله عز وجل ، وارتباط كل ذلك بالمحور واضح ، سنراه أثناء عرضنا للسورة .

....

والسورة تكمّل سورة الصافات ، ومن ثَمَّ نجد الكلام عن التوحيد منذ البداية : ﴿ **أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب** ﴾ .

وإذا حدّثتنا سورة الصافات عن إلياس ، فإن سورة (ص) تذكر اسم خليفته (اليسع) وإذا حدّثتنا سورة الصافات عن عباد الله المخلَصين ، فسورة (ص) تحدّثنا عن الطريق ﴿ **إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار** ﴾ .

....

ولأنّ سورتي الصافات وصّ تفصّلان في مقدمة سورة البقرة ، فإننا نلاحظ تداخلاً ؛ فسورة الصافات تحدّثنا عن الكافرين في معرض الكلام عن التوحيد ، وسورة (ص) تحدثنا عن المتقين في سياق الإنذار .

....

وكما فصّلت سورة الصافات في الآيات الأولى من سورة البقرة مع امتداد معانيها في سورة البقرة كلها ، فإن سورة (ص) تفصّل آيتي سورة البقرة في وصف الكافرين مع امتداد معانيها في سورة البقرة أيضاً .

لاحظ ما يلي :

جاءت في سورة البقرة قصة إبليس ، وهي مرتبطة بموضوع الكفر ، وجاء في

سورة البقرة قوله تعالى ﴿ **فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإنّما هم في شقاق** ﴾ [الآية : ١٣٧] .

وجاء في سورة البقرة قوله تعالى : ﴿ **ذلك بأن الله نزّل الكتاب بالحق وإن الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد** ﴾ [الآية : ١٧٦] .

وجاء في سورة البقرة قوله تعالى : ﴿ **وإذا قيل له اتق الله أخذته العزّة بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد** ﴾ [الآية : ٢٠٦] .

لاحظ كلمتي الشقاق والعزّة ثمّ لاحظ أن سورة (ص) تبدأ بقوله تعالى ﴿ **صٓ والقرآن ذي الذكر * بل الذين كفروا في عزّة وشقاق** ﴾ .

والملاحظ كذلك أن سورة (ص) تنتهي بقصة إبليس عليه اللعنة ، وهذا يؤكّد ما ذكرناه من أنّ سورة (ص) تفصّل في محورها ، وفي امتدادات هذا المحور من سورة البقرة .

....

وإذا كانت آيتا المحور في سورة البقرة قد أجملتا موضوع عدم استفادة الكافرين من الإنذار ، فإن سورة (ص) ستفصّل لنا حرفيات مواقفهم التي أوصلتهم إلى هذه النتيجة وتردّ عليها .

....

تتألف سورة (ص) من مقدمة تمتد حتى نهاية الآية (١٦) .

ومن مقطع أول يمتد حتى نهاية الآية (٦٤) ، ومن مقطع ثان يمتد حتى نهاية السورة . فلنر السورة .

مقدمة السورة

وتمتدّ من الآية (١) حتى نهاية الآية (١٦) وهذه هي :

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾ كَمْ أَهْلَكْنَا
مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾ وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ
مِّنْهُمْ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ
هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ إِنَّ
هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴿٧﴾
أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ﴿٨﴾
أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ
وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴿١٠﴾ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ
﴿١١﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ
وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ
﴿١٤﴾ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا
قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾

التفسير :

﴿ **صٓ والقرآن ذي الذكر** ﴾ أي : القرآن المشتمل على ما فيه ذكر للعباد ، ونفع لهم في المعاش والمعاد ، أو القرآن ذي الشرف ، أي : ذي الشأن والمكانة . قال ابن كثير : (ولا منافاة بين القولين فإنه كتاب شريف ، مشتمل على التذكير ، والإعذار والإنذار) واختلفوا في جواب هذا القسم فقال قتادة جوابه : ﴿ **بل الذين كفروا في عزَّة وشقاق** ﴾ . واختاره ابن جرير ، وقيل جوابه ما تضمّنه سياق السورة بكمالها . وذكر النسفي أكثر من وجه . أحدهما : (ص والقرآن ذي الشرف إنه لكلام معجز ، وأيا ما كان التقدير ففي القسم بالقرآن وخاصيّة من خواصّه ، وهي التذكير إشعار بأنّ الحجة قائمة على الكافرين فكتاب اشتمل على التذكير فيه دليل إعجازه ، وأنّه من عند الله ، وسنرى في السورة نماذج من كون هذا القرآن ذكراً ، مما يؤكّد ما ذهبنا إليه أن في القَسَم إشعاراً بأن الحجة على الكافرين قائمة ، وسياق السورة الذي يبيّن خاصيّة هذا القرآن في كونه ذكراً يقيم الحجة على الكفر وأهله من خلال هذه الخاصية لكتاب الله عز وجل . فالسورة تبيّن أن الحجة على الكافرين قائمة ، ومع ذلك فإن الكافرين مصرون على كفرهم وعنادهم وكبرهم ... ﴿ **بل الذين كفروا في عِزَّة** ﴾ أي تكبّر عن الإذعان لذلك والاعتراف بالحق ﴿ **وشقاق** ﴾ أي خلاف لله ولرسوله ﷺ . قال النسفي : (والتنكير في عزة وشقاق للدلالة على شدتهما وتفاقمهما) . وقال ابن كثير : (أي إن في هذا القرآن لذكرى لمن يتذكّر ، وعبرة لمن يعتبر ، وإنّما لم ينتفع به الكافرون لأنّهم في عزّة أي استكبار عنه وحميّة ، وشقاق أي ومخالفة له ومعاندة ومفارقة) ثمّ خوّفهم الله ما أهلك به الأمم المكذّبة قبلهم بسبب مخالفتهم للرسل ، وتكذيبهم للكتب المنزلة من السماء فقال تعالى ﴿ **كم أهلكنا من قبلهم من قرن** ﴾ أي من أمّة مكذّبة ﴿ **فنادَوا** ﴾ أي حين جاءهم العذاب استغاثوا وجأروا إلى الله تعالى ﴿ **ولاتَ حين مناص** ﴾ أي وليس ذلك بمجدٍ عنهم شيئاً . والتقدير : وليس الحين حين مناص ، أي منجى وفرار وذهاب ﴿ **وعجبوا** ﴾ أي وعجب الكافرون ﴿ **أن جاءهم منذِرٌ** ﴾ أي رسول ﴿ **منهم** ﴾ أي من أنفسهم ينذرهم يعني : استبعدوا أن يكون النبي من البشر ﴿ **وقال الكافرون هذا ساحر كذَّاب** ﴾ اتهموا الرسول ﷺ بالسّحر والكذب - عليهم من الله ما يستحقون - وقد علّل النّسفي لقوله تعالى : ﴿ **وقال الكافرون** ﴾ وعدم قوله وقالوا . فقال : (ولم يقل : وقالوا : إظهاراً للغضب عليهم ، ودلالة على أن هذا القول لا يجسر عليه إلا الكافرون المتوغّلون في الكفر ، المنهمكون .

في الغيّ ؛ إذ لا كفر أبلغ من أن يسمّوا مَنْ صدَّقه الله كاذباً ساحراً ، ويتعجَّبوا من التوحيد ، وهو الحقّ الأبلج ، ولا يتعجبوا من الشّرك وهو باطل لجلج) . ﴿ **أجعل الآلهة** ﴾ أي أصيّرهم ﴿ **إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب** ﴾ أي بليغ في العجب . قال ابن كثير : (أي أزعم أن المعبود واحد لا إله إلا هو ؟ أنكر المشركون ذلك - قبّحهم الله تعالى - وتعجّبوا من ترك الشرك بالله ، فإنّهم كانوا قد تلقّوا عن آبائهم عبادة الأوثان ، وأشربته قلوبهم ، فلمّا دعاهم رسول الله ﷺ إلى خلع ذلك من قلوبهم ، وإفراد الإله بالوحدانية أعظموا ذلك وتعجّبوا) ﴿ **وانطلق الملأ منهم** ﴾ أي سادتهم وقادتهم ورؤساؤهم وكبراؤهم قائلين ﴿ **أنِ امشوا** ﴾ أي استمروا على دينكم ﴿ **واصبروا على** ﴾ عبادة ﴿ **آلهتكم** ﴾ ولا تستجيبوا لما يدعوكم إليه محمد ﷺ من التوحيد ﴿ **إن هذا لشيء يُرَاد** ﴾ . أي : (إن هذا الذي يدعونا إليه محمد ﷺ من التوحيد لشيء يريد به الشرف عليكم والاستعلاء ، وأن يكون له منكم أتباع ، ولسنا نجيبه إليه) ذكره ابن جرير . ﴿ **ما سمعنا بهذا** ﴾ أي بالتوحيد ﴿ **في الملّة الآخرة** ﴾ أي في ملة عيسى التي هي آخر الملل ، لأن النصارى مثلِّثة غير موحّدة ، أو في ملة قريش التي أدركنا عليها آباءنا . قال ابن عباس : قالوا : لو أن هذا القرآن حق لأخبرتنا به النصارى ﴿ **إن** ﴾ أي : ما ﴿ **هذا إلا اختلاق** ﴾ أي : كذب اختلقه ﴿ **أأُنزل عليه** ﴾ أي : على محمد ﷺ ﴿ **الذكر** ﴾ أي القرآن ﴿ **من بيننا** ﴾ يعني أنهم يستبعدون تخصيصه بإنزال القرآن عليه من بينهم كلهم . قال النسفي : أنكروا أن يختصّ بالشرف من بين أشرافهم ، وينزل عليه الكتاب من بينهم حسداً ﴿ **بل هم في شك من ذكري** ﴾ أي : من القرآن ﴿ **بل لمّا يذوقوا عذاب** ﴾ هذا بداية الردِّ على مواقفهم . أي : بل أنهم لا يصدّقون به إلّا أن يمسهم العذاب فيصدقوا حينئذ . قال ابن كثير : (أي : إنما يقولون هذا لأنهم ما ذاقوا - إلى حين قولهم ذلك - عذاب الله تعالى ونقمته ، سيعلمون غب ما قالوا وما كذبوا به يوم يدعُّون إلى نار جهنم دعّاً) ثم قال تعالى مبيّناً أنه المتصرِّف في ملكه ، الفعال لما يشاء ، الذي يعطي من يشاء ما يشاء ، ويعز من يشاء ، ويذل من يشاء ، ويهدي من يشاء ، ويضل من يشاء ، وينزل الروح من أمره على من يشاء من عباده ، ويختم على قلب من يشاء ، فلا يهديه أحد من بعد الله ، وأن العباد لا يملكون شيئاً من الأمر ، وليس إليهم من التصرف في الملك ولا مثقال ذرة ، وما يملكون من قطمير ، ولهذا قال تعالى منكراً عليهم ﴿ **أم عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب** ﴾ أي : العزيز الذي لا يرام جنابه ، الوهاب الذي يعطي ما يريد

لمن يريد . قال النسفي : يعني ما هم بمالكي خزائن الرحمة حتى يصيبوا بها من شاؤوا ، ويصرفوها عمّن شاؤوا ، ويتخيَّر للنبوة بعض صناديدهم ، ويترفّعوا بها عن محمد ﷺ وإنّما الذي يملك الرحمة وخزائنها العزيز القاهر على خلقه . الوهّاب الكثير المواهب ، المصيب بها مواقعها ، الذي يقسمها على ما تقتضيه حكمته ، ثم رشح هذا المعنى فقال : ﴿ **أم لهم ملك السموات والأرض وما بينهما** ﴾ حتى يتكلّموا في الأمور الربانية ، والتدابير الإلهية التي يختص بها رب العزة والكبرياء ﴿ **فليرتقوا في الأسباب** ﴾ قال ابن كثير : أي : إن كان لهم ذلك فليصعدوا في الأسباب . قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة وغيرهم يعني : طرق السماء ﴿ **جند ما** ﴾ من الجنود المرتقين في الأسباب ﴿ **هنالك مهزوم** ﴾ أي : مكسور هنالك أي في السماء ﴿ **من الأحزاب** ﴾ المكذّبين . ثم أخبر تعالى عن القرون الماضية ، وما حلّ بهم من العذاب والنّكال والنّقمات في مخالفة الرّسل ، وتكذيب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ﴿ **كذبت قبلهم** ﴾ أي : قبل هذه الأمة ﴿ **قوم نوح** ﴾ كذّبوا نوحاً ﴿ **وعاد** ﴾ كذّبوا هوداً ﴿ **وفرعون ذو الأوتاد** ﴾ كذب موسى وسمّي ذا الأوتاد إمّا لأنّه كان يربط بالأوتاد سجناءه ومعذّبيه ، وإمّا لتمكّن جذوره في الأرض ﴿ **وثمود** ﴾ كذبت صالحاً ﴿ **وقوم لوط** ﴾ كذبوا لوطاً ﴿ **وأصحاب الأيكة** ﴾ أي : الغيضة كذبوا شعيباً ﴿ **أولئك الأحزاب** ﴾ قال النسفي : أراد بهذه الإشارة الإعلام بأن الأحزاب الذين جعل الجند المهزوم منهم هم هم ، وأنهم الذين وجد منهم التكذيب . وقال ابن كثير : أي : كانوا أكثر منكم وأشد قوة وأكثر أموالاً وأولاداً ، فما دافع ذلك عنهم من عذاب الله من شيء لمّا جاء أمر ربك ، ولهذا قال عز وجل ﴿ **إنْ كلّ إلا كذّب الرسل فحقَّ عقاب** ﴾ جعل علّة إهلاكهم تكذيبهم بالرّسل ، فليحذر المخاطَبون من ذلك أشدّ الحذر . قال النسفي : (ذكر أن كل واحد من الأحزاب كذب جميع الرسل لأن في تكذيب الواحد منهم تكذيب الجميع لاتحاد دعوتهم ...) ومعنى ﴿ **فحق عقاب** ﴾ أي : فوجب لذلك أن أعاقبهم حق عقابهم ﴿ **وما ينظر هؤلاء** ﴾ أي : المكذبون من هذه الأمة ﴿ **إلا صيحة واحدة** ﴾ أي : النفخة الأولى وهي الفزع الأكبر ﴿ **ما لها من فواق** ﴾ أي : ما لها من توقف مقدار فواق ، وهو ما بين حلبتي الحالب . أي : إذا جاء وقتها لم تستأخر هذا القدر من الزمان ، أو مالها من رجوع وترداد ، أي : إنها نفخة واحدة فحسب ، لا تثنّى ولا تُردّد ﴿ **وقالوا ربنا عَجّل لنا قطّنا قبل يوم الحساب** ﴾ أي : عجِّل لنا حظّنا ونصيبنا من الخير أو الشر في الدنيا . قال النسفي : أي : حظنا من الجنة

لأنه عليه السلام ذكر وعد الله للمؤمنين الجنة . فقالوا على سبيل الهزء : عجِّل لنا نصيبنا منها أو نصيبنا من العذاب الذي وعدته كقوله : ﴿ **ويستعجلونك بالعذاب** ﴾ وهو كلام لا يستأهل ردّاً ولذلك لم يجب الله عليه ، وإنما أمر رسوله ﷺ بالصبر كما سنرى . وبهذا الذي ذكرناه انتهت المقدمة .

نقل :

بمناسبة قوله تعالى حكاية عن موقف الكافرين من رسول الله ﷺ : ﴿ **ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة إنْ هذا إلا اختلاق * أأنزل عليه الذكر من بيننا** ﴾ قال صاحب الظلال :

(وكانت عقيدة التثليث قد شاعت في المسيحية . وأسطورة العزير قد شاعت كذلك في اليهودية فكبراء قريش كانوا يشيرون إلى هذا وهم يقولون : ﴿ **ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة** ﴾ .. ما سمعنا بهذا التوحيد المطلق لله . الذي جاء به محمد ﷺ فما يقول إذن إلا اختلاقاً !

ولقد حرص الإسلام حرصاً شديداً على تجريد عقيدة التوحيد وتخليصها من كل ما علق بها من الأساطير والأوشاب والانحرافات التي طرأت على العقائد التي سبقته . حرص هذا الحرص لأن التوحيد حقيقة أولية كبيرة يقوم عليها هذا الوجود كله ؛ ويشهد بها هذا الوجود شهادة واضحة أكيدة . ولأن هذا التوحيد في الوقت ذاته قاعدة لا تصلح الحياة البشرية كلها في أصولها وفروعها إلا إذا قامت عليها .

ويحسن ونحن نستعرض مقاومة قريش لهذه العقيدة ودهشتها وعجبها من جعل الآلهة إلهاً واحداً . ومقاومة المشركين قبل قريش على مدار القرون ومدار الرسالات لهذه الحقيقة كذلك . وإصرار كل رسول عليها ، وقيام كل رسالة على أساسها . والجهد الضخم الذي بذل في إقرار هذه الحقيقة في نفوس البشر على مدار الزمان .. يحسن أن نتوسَّع قليلاً في بيان قيمة هذه الحقيقة .

إنها حقيقة أولية كبيرة يقوم عليها الوجود ، ويشهد بها كل ما في الوجود .

إن وحدة النواميس الكونية التي تتحكم في هذا الكون الذي نراه واضحة ؛ وناطقة بأن الإرادة التي أنشأت هذه النواميس لا بد أن تكون واحدة .. وحيثما نظرنا إلى هذا الكون واجهتنا هذه الحقيقة . حقيقة وحدة النواميس . وحدة تشي بوحدة الإرادة .

كل ما في هذا الكون في حركة دائمة منتظمة .. الذرة الصغيرة وهي الوحدة الأولى لكل ما في الكون من شيء – حي أو غير حي – في حركة مستمرة . فهي مؤلفة من الكترونات تتحرك حول النواة المؤلفة من بروتونات . وكما تدور الكواكب حول الشمس في المجموعة الشمسية . وكما تدور المجرة المؤلفة من مجموعات شمسية ومن كتل سديمية حول نفسها .. واتجاه الدورة في الكواكب وفي الشمس وفي المجرة اتجاه واحد من الغرب إلى الشرق . عكس دورة الساعة ! (١) .

والعناصر التي تتكون منها الأرض وبقية الكواكب السيارة واحدة . وعناصر النجوم هي كذلك من عناصر الأرض . والعناصر مؤلفة من ذرات . والذرات مؤلفة من الكترونات وبروتونات ونيوترونات .. كلها مؤلفة من هذه اللبنات الثلاث بلا استثناء ..

« وفي الوقت الذي ترد فيه المادة إلى ثلاث لبنات . يرد العلماء (القوى) إلى أصل واحد : الضوء والحرارة ، الأشعة السينية ، الأشعة اللاسلكية ، الأشعة الجيمية . وكل إشعاع في الدنيا .. كلها صور متعددة لقوة واحدة . تلك القوة المغناطيسية الكهربائية . إنها جميعاً تسير بسرعة واحدة ، وما اختلافها إلا اختلاف موجة » .

« المادة ثلاث لبنات . والقوى موجات متأصلات » .

« ويأتي أينشتين وفي نظريته النسبية الخاصة ، يكافىء بين المادة والقوى ؛ ويقول : إن المادة والقوى شيء سواء . وتخرج التجارب تصدّق دعواه . وخرجت تجربة أخيرة صدّقت دعواه بأعلى صوت تسمعه الدنيا . ذلك انفلاق الذرة في القنبلة اليودينوتية » .

« المادة والقوى إذن شيء سواء » (١) .

هذه هي الوحدة في تكوين الكون كما عرفها الإنسان أخيراً في تجاربه المحسوسة .. وهناك الوحدة الظاهرة في نظام الكون كما أشرنا إلى قانون الحركة الدائبة . ثم هي الحركة المنظمة المنسقة التي لا يشذ فيها شيء في هذا الكون . ولا يضطرب فيها شيء .. توازن هذه الحركة في جميع الكائنات بحيث لا يعطّل بعضها بعضاً ولا يصدم بعضها بعضاً . وأقرب مثل هذه الكواكب والنجوم والمجرات الضخمة التي تسبح في الفضاء : ﴿ **وكل في فلك يسبحون** ﴾ .. والتي تشهد بأن مجريها في هذا الفضاء ، المنظم

---

(١) عن كتاب : مع الله في السماء للدكتور أحمد زكي ، المدير السابق لجامعة القاهرة .

لحركتها وأبعادها ومواقعها واحد لا يتعدد ، عارف بطبيعتها وحركتها . مقدر لهذا كلها في تصميم هذا الكون العجيب .

ونكتفي بهذه اللمحة الخاطفة في تتبع حقيقة الوحدة التي ينطق بها نظام هذا الكون ويشهد بها كل ما فيه .

وهي حقيقة لا يستقيم أمر هذه البشرية إلا عليها . فوضوح هذه الحقيقة في الضمير البشري ذو أهمية بالغة في تصور البشر للكون من حولهم ، ولموضعهم هم في هذا الكون ، ولعلاقتهم بكل ما فيه من أشياء وأحياء . ثم في تصوّرهم لله الواحد ولحقيقة ارتباطهم به ، وبما عداه ومن عداه في هذا الوجود .. وكل ذلك ذو أهمية بالغة في تكييف مشاعر البشر وتصورهم لكل شؤون الحياة .

والمؤمن بالله الواحد ، المدرك لمعنى هذه الوحدانية ، يكيِّف علاقته بربه على هذا الأساس ، ويضع علاقته بمن عدا الله وبما عداه ، في موضعها الذي لاتتعداه . فلا تتوزع طاقاته ومشاعره بين آلهة مختلفة الأمزجة ! ولا بين متسلطين عليه غير الله ممن خلق الله !

والمؤمن بأن الله الواحد هو مصدر هذا الوجود الواحد يتعامل مع الوجود ومن فيه وما فيه على أساس من التعارف والتعاون والألفة والمودة ، يجعل للحياة طعماً وشكلاً غير ما لها في نفس من لا يؤمن بهذه الوحدة ، ولا يحسها بينه وبين كل ما حوله ومن حوله .

والمؤمن بوحدة الناموس الإلهي في الكون يتلقى تشريعات الله له وتوجيهاته تلقياً خاصاً ، لينسق بين القانون الذي يحكم حياة البشر والناموس الذي يحكم الكون كله ؛ ويؤثر قانون الله . لأنه هو الذي ينسق بين حركة البشر وحركة الكون العام .

وعلى الجملة فإن إدراك هذه الحقيقة ضروري لصلاح الضمير البشري واستقامته واستنارته وتصالحه مع الكون من حوله . وتنسيق حركته مع الحركة الكونية العامة . ووضوح الارتباطات بينه وبين خالقه . ثم بينه وبين الكون حوله . ثم بينه وبين كل ما في الكون من أحياء ومن أشياء ! وما يتبع هذا من تأثرات أخلاقية وسلوكية واجتماعية وإنسانية عامة في كل مجال من مجالات الحياة .

ومن ثَمَّ كان هذا الحرص على إقرار عقيدة التوحيد . وكان هذا الجهد الموصول المكرور مع كل رسالة وكل رسول . وكان هذا الإصرار من الرسل - صلوات الله

عليهم - على كلمة التوحيد بلا هوادة .

وفي القرآن الكريم يتضح الحرص والجهد والإصرار في تكرار عرض قضية التوحيد ومقتضياتها في السور المكية على وجه التخصيص وفي السور المدنية كذلك في صور تناسب طبيعة الموضوعات التي تعالجها السور المدنية .

وهذه هي الحقيقة التي كان المشركون يعجِّبون ذلك العجب من إصرار محمد ﷺ عليها ويحاورونه فيها ويداورونه ، ويعجبون الناس منه ومنها ، ويصرفونهم عنها بكل وسيلة .

وقد مضوا بعد هذا يعجبون من اختياره ﷺ ليكون رسولاً : ﴿ **أأُنزل عليه الذكر من بيننا** ﴾ ..

وما كان في هذا من غرابة . ولكنه كان الحسد . الحسد الذي يدعو إلى العناد والمكابرة والشقاق .

قال ابن إسحاق : وحدثني محمد بن مسلم بن شهاب الزهري ، أنه حدث ، أن أبا سفيان بن حرب وأبا جهل بن هشام ، والأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفي حليف بني زهرة ، خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله - ﷺ - وهو يصلي من الليل في بيته . فأخذ كل رجل منهم مجلساً يستمع فيه ، وكل لا يعلم بمكان صاحبه فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق ؛ فتلاوموا ، وقال بعضهم لبعض : لا تعودوا فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئاً . ثم انصرفوا حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه ، فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرّقوا ، فجمعهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوه أول مرة . ثم انصرفوا . حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض : لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود فتعاهدوا على ذلك . ثم تفرقوا .. فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه ، ثم خرج حتى أتى أبا سفيان في بيته ، فقال : أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد . فقال : يا أبا ثعلبة والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها ، وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد بها . قال الأخنس : وأنا والذي حلفت به كذلك ! قال : ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل فدخل عليه في بيته ، فقال : يا أبا الحكم ، ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟ فقال : ماذا سمعت ؟ تنازعنا نحن

وبنو عبد مناف الشرف : أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تحاذينا على الركب ، وكنا كفرسي رهان ، قالوا : منا نبي يأتيه الوحي من السماء ، فمتى ندرك هذه ؟ والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه ! فقام عنه الأخنس وتركه ..

فهو الحسد كما نرى . يقعد بأبي جهل عن الاعتراف بالحق الذي غالب نفسه عليه فغلبته ثلاث ليال ! هو الحسد أن يكون محمد قد بلغ إلى ما لا مطمع فيه لطامع . وهو السر في قولة من كانوا يقولون : ﴿ **أأنزل عليه الذكر من بيننا ؟** ﴾ .

وهم الذين كانوا يقولون : ﴿ **لولا أنزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم** ﴾ .. يقصدون بالقريتين مكة والطائف ، وفيهما كان كبراء المشركين وعظماؤهم الحاكمون المسودون ؛ الذين كانوا يتطلعون إلى السيادة عن طريق الدين ، كلما سمعوا أن نبياً جديداً قد أطل زمانه . والذين صدموا صدمة الحسد والكبر حينما اختار الله – على علم – نبيه محمد ﷺ وفتح له من أبواب رحمته وأفاض عليه من خزائنها ما علم أنه يستحقه دون العالمين) .

كلمة في السياق :

١ – رأينا أن محور سورة (ص) هو قوله تعالى من سورة البقرة :

﴿ **إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون** ﴾ .

وقد رأينا في مقدمة سورة (ص) كيف أن الإنذار لا ينفع في هؤلاء الكافرين ؛ بدليل أن الله عز وجل بعد أن عرض علينا مواقفهم ختمها بقولهم : ﴿ **وقالوا ربنا عَجِّل لنا قطَّنا قبل يوم الحساب** ﴾ فنهاية المطاف أنهم استعجلوا العذاب ، ومن قبل ذلك قصّ الله علينا عنهم ﴿ **وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذّاب** ﴾ .

ومن استعراضنا لمجموع صفاتهم في المقدمة نعرف الحالة التي إذا وجدت لم يعد الإنذار ينفع :

(١) العزة . (٢) المشاقّة لله والرسول . (٣) تكذيب الرسل واتّهامهم . (٤) استبعاد التوحيد . (٥) التآمر من أجل الاستمرار على الكفر . (٦) الاحتجاج بما عليه الكافرون الآخرون . (٧) الحسد . (٨) استعجال المتاع الدنيوي أو استعجال

العذاب الذي يدل على عدم خوف الله عز وجل .

٢ - من مظاهر التكامل بين ما عرضته سورة الصافات وسورة (ص) . أن سورة الصافات عرضت في سياقها الرئيسي موضوع التوحيد ، وتحدثت عن الرسل ، وههنا نرى استبعاد الكافرين لموضوع التوحيد ، وتكذيبهم للرسل عليهم الصلاة والسلام .

فوائد :

١ - بمناسبة قوله تعالى حكاية عن تعجب الكافرين من دعوة رسول الله ﷺ : ﴿ **أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب * وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشيء يراد** ... ﴾ قال ابن كثير : (ذكر سبب نزول هذه الآيات الكريمات) قال : (قال السّدّي : إن ناساً من قريش اجتمعوا فيهم أبو جهل بن هشام والعاص بن وائل والأسود بن عبد المطلب والأسود بن عبد يغوث في نفر من مشيخة قريش فقال بعضهم لبعض انطلقوا بنا إلى أبي طالب فلنكلمه فيه ، فلينصفنا منه ، فليكف عن شتم آلهتنا وندعه وإلهه الذي يعبده ، فإنا نخاف أن يموت هذا الشيخ فيكون منا إليه شيء فتعيّرنا به العرب ، يقولون تركوه حتى إذا مات عنه تناولوه ، فبعثوا رجلاً منهم يقال له المطلب ، فاستأذن لهم على أبي طالب فقال : هؤلاء مشيخة قومك وسراتهم يستأذنون عليك ، قال : أدخلهم ، فلما دخلوا عليه قالوا : يا أبا طالب أنت كبيرنا وسيدنا ، فأنصفنا من ابن أخيك فمره فليكف عن شتم آلهتنا وندعه وإلهه ، وقال : فبعث إليه أبو طالب ، فلما دخل عليه رسول الله ﷺ قال : يا ابن أخي هؤلاء مشيخة قومك وسراتهم وقد سألوك أن تكف عن شتم آلهتهم ، ويدَعوك وإلهك ، قال صلى الله عليه وآله وسلم : « يا عم أفلا أدعوهم إلى ما هو خير لهم ؟ » قال : وإلامَ تدعوهم ؟ قال ﷺ : « أدعوهم أن يتكلّموا بكلمة يدين لهم بها العرب ، ويملكون بها العجم » فقال أبو جهل - لعنه الله - من بين القوم : ما هي وأبيك لنعطينكها وعشر أمثالها ؟ قال صلى الله عليه وآله وسلم : « تقولون لا إله إلا الله » فنفروا ، وقالوا : سلنا غيرها ، قال ﷺ : « لو جئتموني بالشمس حتى تضعوها في يدي ما سألتكم غيرها » فقاموا من عنده غضاباً ، وقالوا : والله لنشتمنّك وإلهك الذي أمرك بهذا ﴿ **وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشيء يراد** ﴾ ورواه ابن أبي حاتم وابن جرير وزاد فلما خرجوا دعا رسول الله صلى الله

تعالى عليه وآله وسلم عمه إلى قول لا إله إلا الله فأبى ، وقال بل على دين الأشياخ ونزلت ﴿ **إنك لا تهدي من أحببت** ﴾ . وروى أبو جعفر ابن جرير ... عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لما مرض أبو طالب دخل عليه رهط من قريش فيهم أبو جهل فقالوا : إن ابن أخيك يشتم آلهتنا ، ويفعل ويفعل ، ويقول ويقول ، فلو بعثت إليه فنهيته ، فجاء إليه النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فدخل البيت وبينهم وبين أبي طالب قدر مجلس رجل ، قال : فخشي أبو جهل – لعنه الله – إن جلس إلى جنب أبي طالب أن يكون أرقّ له عليه ، فوثب فجلس في ذلك المجلس ، ولم يجد رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم مجلساً قرب عمه ، فجلس عند الباب ، فقال له أبو طالب : أي ابن أخي مالقومك يشكونك ، يزعمون أنك تشتم آلهتهم ، وتقول وتقول ؟ قال وأكثروا عليه من القول ، وتكلم رسول الله ﷺ فقال : « يا عم إني أريدهم على كلمة واحدة يقولونها ، تدين لهم بها العرب ، وتؤدّي إليهم بها العجم الجزية » ففزعوا لكلمته ولقوله فقال القوم كلمة واحدة نعم وأبيك عشراً ، فقالوا وما هي ، وقال أبو طالب وأي كلمة هي يا ابن أخي ؟ قال ﷺ : « لا إله إلا الله » فقاموا فزعين ينفضون ثيابهم وهم يقولون ﴿ **أجعل الآلهة إلهاً واحداً ؟ إن هذا لشيء عجاب** ﴾ قال نزلت من هذا الموضع إلى قوله ﴿ **بل لما يذوقوا عذاب** ﴾ رواه الإمام أحمد والنسائي ، ورواه الترمذي وابن أبي حاتم وابن جرير أيضاً . وقال الترمذي حسن) .

٢ – رأينا أن قوله تعالى : ﴿ **أم لهم ملك السموات والأرض وما بينهما فليرتقوا في الأسباب * جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب** ﴾ آت في معرض الردّ على استنكارهم واستبعادهم أن ينزل الله عز وجل على محمد ﷺ القرآن ﴿ **أأنزل عليه الذكر من بيننا بل هم في شك من ذكري ...** ﴾ وقد رأينا محل الآيات في الرد إذ المعنى : فليصعدوا إلى السماء حتى يدبروا أمر العالم ، وملكوت الله ، وينزلوا الوحي إلى من يختارون . فالآية آتية في أداء هذا المعنى ، ولكنها حوت معجزة من معجزات القرآن التي تثبت أن القرآن وحي ، وأنه فوق الشك ، وذلك أن قوله تعالى : ﴿ **فليرتقوا في الأسباب * جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب** ﴾ أشعر أن عملية الارتقاء في الأسباب الموصلة إلى السماء كائنة ، وأن أكثر من طرف داخل في عملية السباق هذه ، وأن أحد الأطراف سيهزم ، وأن جميع الأطراف كافرة ، بدليل قوله تعالى بعد ذلك ﴿ **كذّبت**

قبلهم قوم نوح ... ﴾ وهذا الذي أفهمنا إياه النص هو الذي رأيناه في عصرنا ، إذ حدث السباق في الارتقاء في الأسباب إلى السماء بين أمريكا وروسيا ، فسبقت أمريكا - حتى كتابة هذه السطور - في هذا الارتقاء ، وأنزلت بشراً على القمر وهي ماضية في برامجها .

ولننتقل إلى المقطع الأول .

☆ ☆ ☆

المقطع الأول

ويمتد من الآية (١٧) إلى نهاية الآية (٦٤) وهذا هو :

اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ ۖ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ
مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾
وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴿٢٠﴾ * وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ
الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا لَا تَخَفْ ۖ
خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ
الصِّرَاطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا
وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا
مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ۚ
وَقَلِيلٌ مَا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾
۩ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٢٥﴾ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ
خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ
سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ
الْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ

كَفَرُواْۚ فَوَيۡلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ
ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلۡمُفۡسِدِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلۡمُتَّقِينَ كَٱلۡفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَٰبٌ
أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٢٩﴾ وَوَهَبۡنَا لِدَاوُۥدَ
سُلَيۡمَٰنَۚ نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذۡ عُرِضَ عَلَيۡهِ بِٱلۡعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلۡجِيَادُ
﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ ﴿٣٢﴾
رُدُّوهَا عَلَيَّۖ فَطَفِقَ مَسۡحَۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلۡأَعۡنَاقِ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدۡ فَتَنَّا سُلَيۡمَٰنَ وَأَلۡقَيۡنَا عَلَىٰ
كُرۡسِيِّهِۦ جَسَدٗا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ
بَعۡدِيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرۡنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦ رُخَآءً حَيۡثُ أَصَابَ
﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٖ وَغَوَّاصٖ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا
عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ
﴿٤٠﴾ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾
ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم
مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنَّا وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثٗا فَٱضۡرِب بِّهِۦ
وَلَا تَحۡنَثۡۗ إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗاۚ نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ ﴿٤٤﴾ وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ
وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى

ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذْكُرْ إِسْمَـٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ
وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ هَـٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾
جَنَّـٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَـٰكِهَةٍ
كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ * وَعِندَهُمْ قَـٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَـٰذَا مَا تُوعَدُونَ
لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَـٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾ هَـٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّـٰغِينَ لَشَرَّ
مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَـٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ
﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَـٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ
صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ
﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَـٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا
نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَـٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ
ٱلْأَبْصَـٰرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾

ملاحظة في السياق :

يلاحظ أن المقطع بدىء بقوله تعالى : ﴿ **اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ...** ﴾ فبعد أن تبيّن في المقدمة أن الإنذار لا ينفع بالكافرين ، فالسورة تتوجّه بالخطاب إلى رسول الله ﷺ ، آمرة إياه بالصبر والذكر ، فتأمره أن يذكر داود ، ثم أيوب ، ثم إبراهيم وإسحق ويعقوب ، ثم إسماعيل واليسع وذا الكفل عليهم الصلاة والسلام مما يشير إلى أن على الرسول ﷺ أن يأخذ دروساً من هؤلاء عليهم السلام . فالسورة بعد أن بيّنت انعدام فائدة الإنذار في هذا الصنف من الكافرين ، بدأت تعطي

دروساً للنذير ، من خلال أمره أن يذكرهؤلاء المذكورين ، ثم تأتي في نهاية المقطع مجموعة مبدوءة بقوله تعالى : ﴿ **هذا ذكر** ﴾ مما يشير إلى أن المقطع يعطينا نماذج على كون القرآن ذكراً ، وهي الصفة التي وصف بها القرآن في أول السورة : ﴿ **ص والقرآن ذي الذكر** ﴾ فالمقطع إذن برهان عملي على أن القرآن ذكر ، وفي ذلك إقامة حجة على الكافرين ، فإذا كان القرآن الذي هو ذكر من الله ، وتذكير للإنسان ، لم ينفع فيهم ، بل شكّوا فيه وأعرضوا عنه ورفضوه ، فإنّ أمثال هؤلاء ما عاد ينفع فيهم شيء ، وليس لهم إلا العذاب .

التفسير :

﴿ **اصبر على ما يقولون** ﴾ من أقوال كافرة فاجرة شاكّة ناقدة . قال النّسفي : (أي) اصبر على ما يقولون فيك ، وصن نفسك أن تزلّ فيما كلّفت من مصابرتهم ، وتحمّل أذاهم ﴿ **واذكر عبدنا داود** ﴾ لتأخذ من هذا الذكر دروساً وعبراً ، ومن ذلك أنّه مع كرامته على الله زل تلك الزّلة اليسيرة ، فلقي من عتاب الله ما لقي ﴿ **ذا الأيد** ﴾ أي ذا القوة في الدين ، أو ذا القوة في العلم والعمل . وقال قتادة : أعطي داود عليه الصلاة والسلام قوة في العبادة ، وفقهاً في الإسلام ﴿ **إنه أوّاب** ﴾ أي رجّاع إلى الله عزّ وجلّ في جميع أموره وشؤونه . قال النسفي : وهو تعليل لذي الأيد ﴿ **إنا سخّرنا الجبال معه** ﴾ أي ذلّلناها معه ﴿ **يسبِّحن بالعشي والإشراق** ﴾ قال ابن كثير : أي أنه تعالى سخّر الجبال تسبّح معه عند إشراق الشمس وآخر النهار . قال النسفي : واختار (يسبحن) على مسبحات ليدلّ على حدوث التسبيح من الجبال شيئاً بعد شيء ، وحالاً بعد حال ... والعشي : وقت العصر إلى الليل ، والإشراق : وقت الإشراق ، وهو حين تشرق الشمس أي تضيء ، وهو وقت الضحى ﴿ **والطير محشورة** ﴾ أي وسخّرنا الطير مجموعة من كل ناحية ، تسبّح بتسبيحه وترجّع بترجيعه ﴿ **كلّ له أوّاب** ﴾ أي مطيع مسبّح ، لأنها كانت تسبّح لتسبيحه ، ووضع الأوّاب موضع المسبّح لأنّ الأوّاب وهو التّواب الكثير الرجوع إلى الله وطلب مرضاته من عادته أن يكثر ذكر الله ، ويديم تسبيحه وتقديسه . وقيل الضمير لله . أي كل من داود والجبال والطير لله أوّاب أي مسبّح مرجّع للتسبيح ﴿ **وشددنا ملكه** ﴾ أي قوّيناه . قال ابن كثير : أي جعلنا له ملكاً كاملاً من جميع ما يحتاج إليه الملوك . قال ابن أبي نجيح عن مجاهد : كان أشدّ أهل الدنيا سلطاناً ﴿ **وآتيناه**

الحكمة ﴾ قال النسفي : (أي : الزبور وعلم الشرائع ، وقيل : كل كلام وافق الحق فهو حكمة . وقال مجاهد : يعني الفهم والعقل والفطنة ، وقال مرة : العدل ، وقال مرة : الصواب . وقال قتادة : كتاب الله واتباع ما فيه . وقال السّدّي : النبوة) . وكل ذلك أوتيه داود عليه السلام ﴿ **وفصل الخطاب** ﴾ قال النسفي : (أي : علم القضاء ، وقطع الخصام ، والفصل بين الحق والباطل ، والفصل : هو التمييز بين الشيئين ... ، وفصل الخطاب : البين من الكلام الملخص يتبينه من يخاطب به لا يلتبس عليه ... والمراد بفصل الخطاب : الفاصل من الخطاب الذي يفصل بين الصحيح والفاسد ، والحق والباطل ، وهو كلامه في القضايا والحكومات ، وتدابير الملك والمشورات) . وقال مجاهد : هو الفصل في الكلام وفي الحُكم . قال ابن كثير : وهو المراد . واختاره ابن جرير .

....

كلمة في السياق :

نلاحظ أن الله عز وجل وصف داود عليه السلام بالقوة والأوبة ، وهما مطلوبان من كل مسلم أن يكون قوياً رجّاعاً إلى الله عز وجل ، وهاتان الصفتان في سياق السورة تبيّنان أن المسلم يجابه الكفر بالصبر والقوة ، والرجوع إلى الله ، وذكرت لنا الآيات ما أعطى الله عز وجل داود بهاتين الصفتين : من تسبيح الجبال ، والطير معه ، ومن تقوية ملكه ، وإيتائه الحكمة ، وإعطائه فصل الخطاب في القول إذا تكلم ، فكأنّ الله عز وجل يقول للمسلم : أيها المسلم كن صابراً قوياً ، أوّاباً ، وسأعطيك الكثير كما أعطيت داود عليه السلام . هذا هو الدرس الأول من ذكر قصة داود عليه السلام في سياق هذه السورة . والآن يقصّ الله علينا حادثة عن داود عليه السلام يتبيّن لنا فيها كيف أنّ داود عليه السلام كان أوَّاباً ، وفيها مثل على حكمة داود وعلى إعطائه الحكمة وفصل الخطاب . فالحادثة تخدم قصة داود عليه السلام في جوانب متعددة .

....

﴿ **وهل أتاك** ﴾ يا محمد ﴿ **نبأ الخصم** ﴾ أي خبر الخصماء . قال النسفي : ظاهر الاستفهام ومعناه الدلالة على الأنباء العجيبة ﴿ **إذ تسوَّروا المحراب** ﴾ أي تصعّدوا سوره ونزلوا إليه ، والسور : الحائط المرتفع ، والمحراب : الغرفة أو المسجد ، أو صدر المسجد ﴿ **إذ دخلوا على داود فَفزِع منهم** ﴾ قال ابن كثير : (إنما كان ذلك لأنه كان

في محرابه وهو أشرف مكان في داره ، وكان قد أمر أن لا يدخل عليه أحد ذلك اليوم ، فلم يشعر إلا شخصين قد تسوّرا عليه المحراب ، أي احتاطا به يسألانه عن شأنهما) ﴿ **قالوا** ﴾ الضمير يعود على الخصم ، ولذلك جمع مع أنهما كانا اثنين . والظاهر أنهما ملكان في صورة إنسانين ﴿ **لا تخف خصمان** ﴾ أي نحن خصمان ﴿ **بغى بعضنا على بعض** ﴾ أي تعدّى بعضنا على بعض وظلم ﴿ **فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط** ﴾ أي ولا تجر أي لا تتجاوز الحدّ ولا تتخطّى الحقّ ﴿ **واهدنا إلى سواء الصراط** ﴾ أي وأرشدنا إلى وسط الطريق ومحجّته ، والمراد عين الحق ومحضه ﴿ **إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة** ﴾ المراد بالأخوّة هنا أخوَّة الدنيا ، أو أخوّة الصداقة والألفة ، أو أخوّة الشركة والخلطة ﴿ **فقال أكفلنيها** ﴾ أي ملّكنيها . أي اجعلني أكفلها كما أكفل ما تحت يدي ، أو اجعلها كفلي أي نصيبي ﴿ **وعزّني في الخطاب** ﴾ أي وغلبني في الخصومة . أي إنه كان أقدر على الاحتجاج مني ﴿ **قال** ﴾ داود عليه السلام حاكماً بينهما ﴿ **لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه** ﴾ قال النسفي : (وإنما ظلم الآخر بعد ما اعترف به خصمه ، ولكنّه لم يحك في القرآن لأنّه معلوم) . وعقّب على حكمه بقاعدة عظيمة من قواعد التعايش والخلطة فقال : ﴿ **وإن كثيراً من الخلطاء** ﴾ أي الشركاء والأصحاب ، والمتخالطين مع بعضهم في بيت أو سجن أو دائرة ﴿ **ليبغي بعضهم على بعض** ﴾ أي ليظلم بعضهم بعضاً ﴿ **إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم** ﴾ فهذا القليل الصالح وحده لا يظلم بعضه بعضاً في الخلطة ﴿ **وظنّ داود** ﴾ أي علم وأيقن ﴿ **أنّما فتنّاه** ﴾ أي اختبرناه وابتليناه ، وأنّه المراد بهذا المثل ﴿ **فاستغفر ربه وخرَّ راكعاً** ﴾ أي سقط على وجهه ساجداً لله ﴿ **وأناب** ﴾ أي ورجع إلى الله بالتوبة ﴿ **فغفرنا له ذلك** ﴾ أي ما ظنّ داود أنّه وقع فيه ، ومن أجل ذلك اختصم إليه الملكان ﴿ **وإن له عندنا لزلفى** ﴾ أي لقربة ﴿ **وحسن مآب** ﴾ أي مرجع وهو الجنة . قال ابن كثير في قوله تعالى : ﴿ **فغفرنا له ذلك** ﴾ : (أي ما كان منه مما يقال فيه إن حسنات الأبرار سيئات المقربين) وسنرى في الفوائد ما هي القضية التي تنسب لداود عليه السلام وعوتب فيها . وقد فهمنا من الحادثة نموذجاً من حكمة داود عليه السلام ، ونموذجاً من إيتائه فصل الخطاب ، ونموذجاً من أوبته إلى الله وهي - والله أعلم - المقاصد الرئيسية من عرض الحادثة في هذا السياق . ثم خاطب الله عزّ وجلّ داود عليه السلام خطاباً هو درس لكل من ولّاه الله عز وجل شأناً من شؤون الأمة ﴿ **يا داود إنا جعلناك**

خليفة في الأرض ﴾ قال النسفي : (أي استخلفناك على الملك في الأرض ، أو جعلناك خليفة ممن كان قبلك من الأنبياء القائمين بالحق) وفيه دليل على أن حاله بعد التوبة بقيت على ما كانت عليه لم تتغيّر ﴿ **فاحكم بين الناس بالحق** ﴾ قال النسفي : أي بحكم الله إذ كنت خليفته ، أو بالعدل ﴿ **ولا تتّبع الهوى** ﴾ أي هوى النفس في قضائك وحكمك ﴿ **فيضلّك** ﴾ الهوى ﴿ **عن سبيل الله** ﴾ أي عن دينه وشرعه وطريقه ﴿ **إن الذين يضلّون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب** ﴾ أي بنسيانهم يوم الحساب . قال السّدّي : (أي) لهم عذاب شديد بما تركوا أن يعملوا ليوم الحساب . قال ابن كثير : (هذه وصية من الله عز وجل لولاة الأمور ، أن يحكموا بين الناس بالحق المنزَّل من عنده تبارك وتعالى ، ولا يعدلوا عنه ؛ فيضلّوا عن سبيل الله ؛ وقد توعّد تبارك وتعالى من ضلّ عن سبيله وتناسى يوم الحساب بالوعيد الأكيد والعذاب الشديد) .

....

كلمة في السياق :

نلاحظ أنه بعد الأمر لداود عليه السلام بالحكم بالحق ، وترك اتباع الهوى ، تأتي الآن ثلاث آيات تفصل بين الكلام عن داود وسليمان عليهما السلام ، فكأن هذه الآيات تعلّل للأمر بالحكم بالحق ، وللنهي عن اتباع الهوى ، وتعلّل لمجيء اليوم الآخر والحساب .

....

﴿ **وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما** ﴾ من الخلق ﴿ **باطلاً** ﴾ أي خلقاً باطلاً أي ما خلقناهما وما بينهما للعبث واللعب ، ولكن للحق المبين ، وهو أنا خلقنا نفوساً أودعناها العقل ، ومنحناها التمكين ، وأزحنا عللها ، ثمّ عرّضناها للمنافع العظيمة بالتكليف ، وأعددنا لها عاقبة وجزاءً على حسب أعمالهم . قال ابن كثير : (يخبر تعالى أنه ما خلق الخلق عبثاً ، وإنّما خلقهم ليعبدوه ويوحّدوه ، ثمّ يجمعهم يوم الجمع فيثيب المطيع ويعذّب الكافر) ثم أخبر تعالى أن خلق السموات والأرض باطلاً ظن الكافرين قال تعالى : ﴿ **ذلك ظنُّ الذين كفروا** ﴾ أي الذين لا يرون بعثاً ولا معاداً ، وإنما يعتقدون أن ليس إلّا هذه الدار فقط . قال النسفي : (أي خلقُها للعبث لا للحكمة

هو مظنون الذين كفروا ، وإنما جعلوا ظانين أنه خلقها للعبث لا للحكمة مع إقرارهم بأنه خالق السموات والأرض وما بينهما لقوله ﴿ **ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله** ﴾ لأنه لما كان إنكارهم للبعث والحساب والثواب والعقاب مؤدياً إلى أن خلقها عبث وباطل جعلوا كأنهم يظنون ذلك ويقولونه ؛ لأن الجزاء هو الذي سيقت إليه الحكمة في خلق العالم ، فمن جحده فقد جحد الحكمة في خلق العالم) . ﴿ **فويل للذين كفروا من النار** ﴾ أي ويل لهم يوم معادهم ونشورهم من النار المعدّة لهم . ثم بيّن تعالى أنّه عزّ وجلّ من عدله وحكمته لا يساوي بين المؤمنين والكافرين فقال تعالى : ﴿ **أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض * أم نجعل المتقين كالفجار** ﴾ الاستفهام في الآية للإنكار . قال النّسفي : والمراد أنه لو بطل الجزاء - كما يقول الكافرون - لاستوت أحوال من أصلح وأفسد واتقى وفجر ، ومن سوّى بينهم كان سفيهاً ولم يكن حكيماً . وقال ابن كثير في الآية : أي لا نفعل ذلك (وهي التسوية بين المؤمنين والكافرين والمتقين والفجار) ولا يستوون عند الله ، وإذا كان الأمر كذلك فلا بد من دار أخرى يثاب فيها المطيع ، ويعاقب فيها هذا الفاجر ، وهذا الإرشاد يدلّ العقول السليمة والفطر المستقيمة على أنّه لا بدّ من معاد وجزاء ؛ فإنا نرى الظالم الباغي يزداد ماله وولده ونعيمه ويموت كذلك ، ونرى المطيع المظلوم يموت بكمده ، فلا بدّ في حكمة الحكيم العليم العادل ، الذي لا يظلم مثقال ذرة ، من إنصاف هذا من هذا ، وإذا لم يقع هذا في هذه الدار . فتعيَّن أن هناك داراً أخرى لهذا الجزاء والمواساة ، ولما كان القرآن يرشد إلى المقاصد الصحيحة ، والمآخذ العقلية الصريحة ، قال تعالى : ﴿ **كتاب أنزلناه إليك مبارك** ﴾ أي هذا كتاب أنزلناه إليك يعني القرآن ﴿ **ليدَّبروا آياته** ﴾ أي ليتدبَّروا آياته ومعناه : ليتفكّروا فيها فيقفوا على ما فيه ، ويعملوا به ﴿ **وليتذكر أولو الألباب** ﴾ أي وليتعظ بالقرآن أولو العقول . قال الحسن البصري : والله ما تدبُّره بحفظ حروفه وإضاعة حدوده ، حتى إن أحدهم ليقول قرأت القرآن كله ، ما يرى له القرآن في خلق ولا عمل . رواه ابن أبي حاتم .

....

كلمة في السياق :

ذكرنا أن هذه الآيات الثلاث جاءت في وسط الكلام عن داود وسليمان عليهما السلام وارتباطها بالسياق القريب واضح كما رأينا . فبعد أن ذكر الله عز وجل نهيه داود

عليه السلام عن اتّباع الهوى ، وأمره إياه بالحكم بالحق ، وتبيانه جزاء الضالين يوم القيامة ، جاءت الآيتان التاليتان لذلك لتبيّنا ضرورة وجود اليوم الآخر وحكمته ، واقتضى هذا أن تأتي الآية الثالثة لتبيّن حكمة نزول القرآن ، إذ ما دام هناك يوم آخر فلا بدّ من وحي ، وكان هذا الوحي في الرسالة الخاتمة هو القرآن الذي أنزله الله للتدبُّر والتذكّر ، فإذا اتضح هذا فلنتساءل ما محل هذه الآيات في سياق السورة والمقطع ؟

لاحظنا أن المقطع بدأ بقوله تعالى : ﴿ **اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود** ... ﴾ فالمقطع يبدأ بالأمر بذكر داود عليه السلام مما يوحي أنّ المقطع يأتي من أجل تبيان نماذج من كون هذا القرآن ذكراً ؛ فهو يذكّر من خلال القصة والحادثة ، ويذكّر من خلال التقرير ، ويذكّر من خلال العرض ، وقد ذكّرَنا في قصّة داود عليه السلام من خلال القصة ، وذكَّرنا في الآيات الثلاث في الوسط من خلال التقرير ، وختم الآيات بتبيان وتأكيد كون القرآن مذكّراً ﴿ **وليتذكّر أولو الألباب** ﴾ وصلة ذلك ببداية السورة ﴿ **والقرآن ذي الذكر** ﴾ واضحة . فالسّورة نموذج على كون القرآن ذكراً .

ومجيء الآيات الثلاث بعد قوله تعالى : ﴿ **يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض** ... ﴾ فيه إشارة إلى أهمية ما ورد في الآية ، حتى جاءت ثلاث آيات بعدها لتعضّد مضمونها ، فالحكم بالحق وترك اتباع الهوى من أعظم المقاصد في هذه الشريعة ، وفي ختم الآيات الثلاث بقوله تعالى : ﴿ **كتاب أنزلناه إليك** ... ﴾ فيه إشارة إلى أن القرآن هو ميزان الحق ، وميزان عدم اتباع الهوى ، وفي ختم الآية الأخيرة بقوله تعالى : ﴿ **ليدَّبروا آياته وليتذكّر أولو الألباب** ﴾ ما يفيد أن في السياق من العبر ما يحتاج إلى تدبّر ، وتذكّر كبيرين ، وبعد هذا الفاصل الذي خدم سياق السورة القريب والعام خدمات كثيرة يعود السياق إلى الحديث عن داود عليه السلام .

....

﴿ **ووهبنا لداود سليمان** ﴾ وفي ذكر هبة الله داود سليمان عليهما السلام في هذا المقام ما يشير إلى أنّ هذه الهبة مكافأة لداود عليه السلام على ما مرّ ، ممّا يشير إلى أنه قد قام بحق الاستخلاف ، وحكم بالحق ، وترك اتباع الهوى ﴿ **نعم العبد** ﴾ أي سليمان ﴿ **إنه أوّاب** ﴾ هذا تعليل لاستحقاقه الثناء ، والأواب : هو الكثير الرجوع إلى الله تعالى ، فكما كان أبوه أوّاباً فهو أوّاب ، وكما أعطي أبوه ما أعطي ، فقد أعطي هو الكثير ؛ مكافأة له على أوّابيته ، وكما عرض الله عز وجل حادثة تدل على أوّابيَّة داود عليه

السلام ، فإنه الآن يقصّ علينا حادثة تدلّ على أوّابيّة سليمان عليه السلام ، وتخصيص سليمان عليه السلام بالذكر بأنّه هبة الله إلى داود - مع أن داود كان له بنون غيره - يدلّ على أنّ المراد بهذه الهبة جعله سليمان نبياً ﴿ **إذ عرض عليه** ﴾ أي على سليمان عليه السلام ﴿ **بالعشي** ﴾ أي بعد الظهر ﴿ **الصافنات** ﴾ هي الخيل التي تقف على ثلاث ، وطرف حافر الرابعة ﴿ **الجياد** ﴾ أي السراع ، جمع جواد لأنه يجود بالركض . قال النسفي : (وصفها بالصفون لأنه لا يكون في الهجان ، وإنّما هو في العراب ، وقيل وصفها بالصفون والجودة ليجمع لها بين الوصفين المحمودين ، واقفة وجارية ، يعني إذا وقفت كانت ساكنة مطمئنة في مواقفها ، وإذا جرت كانت سراعاً خفافاً في جريها وقيل الجياد الطوال الأعناق من الجيد ...) ﴿ **فقال إني أحببت حب الخير** ﴾ أي المال أي الخيل ﴿ **عن ذكر ربي** ﴾ أي عن صلاتي ﴿ **حتى توارت** ﴾ الشمس ﴿ **بالحجاب** ﴾ قال النسفي : (والذي دلّ على أنّ الضمير للشمس مرور ذكر العشي ، ولا بد للضمير من جري ذكر أو دليل ذكر ، أو الضمير للصافنات أي حتى توارت بحجاب الليل يعني الظلام ﴿ **ردّوها عليّ** ﴾ أي ردّوا الصافنات عليّ ﴿ **فطفق** ﴾ أي فجعل ﴿ **مسحاً** ﴾ أي يمسح السيف ﴿ **بالسوق والأعناق** ﴾ أي يقطّعها لأنّها منعته عن الصلاة ، وكانت الخيل مأكولة في شريعته ، فلم يكن إتلافاً . وسنرى في الفوائد كلام ابن كثير في هذا المقام .

....

كلمة في السياق :

تبيّن لنا هذه الحادثة أوابيّة سليمان عليه السلام ، إذ رأينا سليمان عليه السلام قد أشغله الاستعراض عن ذكر الله ، ففعل ما فعل معاقبة لنفسه ، وغضباً لله ، بأن قتل ما شغله عن ذكر الله عزّ وجلّ ، وفي ذلك درس لكل حاكم مسلم ألا تشغله الاستعراضات عن ذكر الله عز وجل ، وألا يستغرقه شأن عن واجباته تجاه ربه عز وجل ، وبعد أن ذكر الله عز وجل هذه الحادثة التي دلّتنا على أوّابية سليمان عليه السلام ، ذكر حادثة أخرى تدلّ على ذلك :

....

﴿ **ولقد فتنّا سليمان** ﴾ أي اختبرناه ﴿ **وألقينا على كرسيّه** ﴾ أي : على سرير ملكه ﴿ **جسداً** ﴾ أي : لا روح فيه ، أي لا إيمان كامل فيه ، أو جسد ميّت عزيز

عليه ؛ عتاباً له على حرصه عليه حرصاً كبيراً استغرق قلبه عن التوكل ﴿ ثم أناب ﴾ أي : رجع إلى الله وتاب ، فهو أوّاب في كل حال ، في حال الغفلة عن الشكر ، أو في حال الاختبار والابتلاء .

....

نقل :

سننقل فيما بعد بعض كلام المفسّرين حول الخيل ، وحول الجسد في قصة سليمان عليه السّلام ، وههنا ننقل ما ذكره صاحب الظلال في ذلك ، قال رحمه الله :

(والإشارتان الواردتان هنا عن الصافنات الجياد وهي الخيل الكريمة . وعن الجسد الذي ألقي على كرسي سليمان .. كلتاهما إشارتان لم تسترح نفسي لأي تفسير أو رواية مما احتوته التفاسير والروايات عنهما . فهي إما إسرائيليات منكرة ، وإما تأويلات لا سند لها . ولم أستطع أن أتصور طبيعة الحادثين تصوّراً يطمئن إليه قلبي ، فأصوره هنا وأحكيه . ولم أجد أثراً صحيحاً أركن إليه في تفسيرهما وتصويرهما سوى حديث صحيح . صحيح في ذاته ولكن علاقته بأحد هذين الحادثين ليست أكيدة . هذا الحديث هو ما رواه أبو هريرة - رضي الله عنه - عن رسول الله ﷺ وأخرجه البخاري في صحيحه مرفوعاً . ونصه : « قال سليمان : لأطوفن الليلة على سبعين امرأة . كل واحدة تأتي بفارس يجاهد في سبيل الله . ولم يقل : إن شاء الله . فطاف عليهن فلم يحمل إلا امرأة واحدة جاءت بشق رجل . والذي نفسي بيده ، لو قال إن شاء الله لجاهدوا في سبيل الله فرساناً أجمعون » .. وجائز أن تكون هذه هي الفتنة التي تشير إليها الآيات هنا . وأن يكون الجسد هو هذا الوليد الشق . ولكن هذا مجرد احتمال .. أما قصة الخيل فقيل : إن سليمان - عليه السلام - استعرض خيلاً له بالعشي . ففاته صلاة كان يصليها قبل الغروب . فقال : ردّوها عليّ . فردوها عليه فجعل يضرب أعناقها وسيقانها جزاء ما شغلته عن ذكر ربه . ورواية أخرى أنه إنما جعل يمسح سوقها وأعناقها إكراماً لها لأنها كانت خيلاً في سبيل الله .. وكلتا الروايتين لا دليل عليهما . ويصعب الجزم بشيء عنها .

ومن ثَمَّ لا يستطيع متثبّت أن يقول شيئاً عن تفصيل هذين الحادثين المشار إليهما في القرآن .

وكل ما نخرج به هو أنه كان هناك ابتلاء من الله وفتنة لنبي الله سليمان - عليه السلام - في شأن يتعلّق بتصرفاته في الملك والسلطان كما يبتلي الله أنبياءه ليوجّههم ويرشدهم ، ويبعد خطاهم عن الزلل . وأن سليمان أناب إلى ربه ورجع ، وطلب المغفرة ؛ واتجه إلى الله بالدعاء والرجاء) .

كلمة في السياق :

إن ذكر ابتلاء سليمان عليه السلام في هذا المقام يؤدي دوره الرئيسي في السياق في تبيان أوّابيّة سليمان عليه السلام ، ولكنّه يشعرنا - لوروده بعد حادثة غفلة - أن هذا الامتحان كان عقوبة له على تلك الغفلة ، مما يعطينا درساً في أصول التعامل مع الله عز وجل ، في ألا يفرط الإنسان ، لأنه لا تفريط إلا وتعقبه عقوبة بشكل من الأشكال . فليحذر الإنسان سخط الله عز وجل . وسنذكر في الفوائد ما يذكره المفسرون عن فتنة سليمان عليه السلام هذه . ولنعد إلى التفسير لنرى دعاء سليمان عليه السلام ، وما أعطاه الله عزّ وجلّ مكافأة له على أوّابيّته :

....

﴿ **قال** ﴾ سليمان عليه السلام ﴿ **ربِّ اغفر لي وهب ملكاً لا ينبغي** ﴾ أي لا يكون ﴿ **لأحد من بعدي** ﴾ قدّم الاستغفار على استيهاب الملك جرياً على عادة الأنبياء - عليهم السلام - والصالحين في تقديم الاستغفار على السؤال . قال النسفي : (وإنما سأل بهذه الصفة ليكون معجزة له لا حسداً ، وكان قبل ذلك لم يسخّر له الريح والشياطين ، فلمّا دعا بذلك سخّرت له الريح والشياطين ، ولن يكون معجزة حتى يخرق العادات) ﴿ **إنك أنت الوهّاب** ﴾ تهب من تشاء ما تشاء ﴿ **فسخَّرنا له الريح تجري بأمره** ﴾ أي بأمر سليمان عليه السلام ﴿ **رخاءً** ﴾ أي ليّنة طيّبة ﴿ **حيث أصاب** ﴾ أي حيث أراد وقصد ﴿ **والشياطين** ﴾ أي وسخّرنا له الشياطين ﴿ **كلّ بنّاء** ﴾ يبني له من الأبنية الهائلة من المحاريب والتماثيل والجفان إلى غير ذلك من الأعمال الشاقّة التي لا يقدر عليها البشر ﴿ **وغوّاص** ﴾ أي : ويغوصون له في البحر ، يستخرجون ما بها من اللآلىء والأشياء النفيسة التي لا توجد إلا فيها ﴿ **وآخرين** ﴾ من الشياطين ﴿ **مقرَّنين في الأصفاد** ﴾ قال ابن كثير : (أي موثوقون في الأغلال والأكبال ممّن تمرد وعصى وامتنع من العمل وأبى ، أو قد أساء في صنيعه واعتدى) ﴿ **هذا**

عطاؤنا ﴾ أي : هذا الذي أعطيناك من الملك والمال والبسطة عطاؤنا ﴿ **فامنُن** ﴾ أي : فأعط منه ما شئت من المنّة وهي العطاء ﴿ **أو أمسك** ﴾ عن العطاء . قال النّسفي : (وكان إذا أعطى أُجر ، وإن منع لم يأثم بخلاف غيره) ﴿ **بغير حساب** ﴾ أي : هذا عطاؤنا جمّاً كثيراً ، لا يكاد يقدر على حصره ، أو بغير حساب ، أي : لا حساب عليك في ذلك . قال ابن كثير : (أي هذا الذي أعطيناك من الملك التام ، والسلطان الكامل كما سألتنا ، فأعط من شئت ، واحرم من شئت ، لا حساب عليك ، أي : مهما فعلت فهو جائز لك . احكم بما شئت فهو صواب) ثمّ نبّه الله عز وجل على أنّ سليمان عليه السلام ذو حظ عظيم عند الله يوم القيامة أيضاً . ومن ثَمَّ قال : ﴿ **وإن له عندنا لَزُلفىٰ** ﴾ أي : لقربى ﴿ **وحسن مآب** ﴾ أي : وحسن مرجع . أي : في الدار الآخرة .

....

كلمة في السياق :

١ - نلاحظ أنّ قصّة داود وسليمان عليهما السلام بدأت بقوله تعالى : ﴿ **واذكر عبدنا داود ...** ﴾ والآن تأتي قصة أيُّوب عليه السلام مبدوءة بقوله تعالى : ﴿ **واذكر عبدنا أيُّوب** ﴾ فالسياق كله في موضوع الذكر والتذكير ، وذلك شأن المقطع كله ، الذكر والتذكير للمنذَر والنذير ، فهي دروس للنذير الذي يقابله الكافرون بالإعراض ، ليطمئنّ إلى رعاية الله وعطائه ، وهي دروس للمنذَرين الذين يستفيدون من الإنذار .

٢ - نلاحظ أنّ الأوّابيّة هي الدرس الأعظم الذي قدّمه لنا السّياق في قصة داود وسليمان عليهما السلام ، وهو الدرس الرئيسي الذي نجده في قصة أيوب عليه السلام . فلنر قصة أيوب عليه السلام في السورة :

....

﴿ **واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه** ﴾ أي : دعاه ﴿ **أنّي مسّني الشيطان بنُصْبٍ** ﴾ أي : بتعب ومشقّة ﴿ **وعذاب** ﴾ يريد مرضه ، وما كان يقاسي فيه من أنواع الوصب ، فعندما دعا الله عز وجل بهذا الدعاء استجاب له أرحم الراحمين ، وأمره أن يقوم من مقامه ، وأن يركض الأرض برجله ، ففعل ، فأنبع الله تعالى عيناً ، وأمره أن

يغتسل منها ، فأذهبت جميع ما كان في بدنه من الأذى . قال ابن كثير : (ثم أمره فضرب الأرض في مكان آخر ، فأنبع له عيناً أخرى ، وأمره أن يشرب منها ، فأذهبت جميع ما كان في باطنه من السوء ، وتكاملت العافية ظاهراً وباطناً) ولهذا قال تبارك وتعالى : ﴿ **اركض برجلك هذا مغتسل باردٌ وشراب** ﴾ اضرب برجلك الأرض ، فضربها ، فنبعت عين فقيل له : هذا مغتسل بارد وشراب . قال النسفي : (أي هذا ماء تغتسل به وتشرب منه فيبرأ باطنك وظاهرك وقيل : نبعت له عينان فاغتسل من إحداهما وشرب من الأخرى ، فذهب الداء من ظاهره وباطنه بإذن الله تعالى) . ﴿ **ووهبنا له أهله ومثلهم معهم** ﴾ قال ابن كثير : (قال الحسن وقتادة : أحياهم الله تعالى له بأعيانهم وزادهم مثلهم معهم) ﴿ **رحمةً منا** ﴾ أي به على صبره وثباته وإنابته وتواضعه واستكانته ﴿ **وذكرى لأولي الألباب** ﴾ أي ولتذكير أولي الألباب ، لأنهم إذا سمعوا بما أنعمنا به عليه - لصبره وأوّابيّته - رغّبهم ذلك الصبر والأوّابيّة ليعلموا أن عاقبة الصبر الفرج ، والمخرج والرحمة ﴿ **وخذ بيدك ضِغْثاً** ﴾ أي : حزمة صغيرة من حشيش ، أو ريحان أو غير ذلك ﴿ **فاضرب به** ﴾ زوجتك ﴿ **ولا تحنث** ﴾ أي : بيمينك ، قال ابن كثير : (وذلك أن أيوب عليه الصلاة والسلام كان قد غضب على زوجته ، ووجد عليها في أمر فعلته ، وقيل : باعت ضفيرتها بخبز فأطعمته إيّاه فلامها على ذلك ، وحلف إن شفاه الله تعالى ليضربنّها مائة جلدة ، وقيل لغير ذلك من الأسباب ، فلما شفاه الله عز وجل وعافاه ما كان جزاؤها مع هذه الخدمة التامة ، والرحمة والشفقة والإحسان أن تقابَل بالضرب ، فأفتاه الله عز وجل أن يأخذ ضِغثاً : وهو الشمراخ ، فيه مائة قضيب ، فيضربها به ضربة واحدة ، وقد برَّت يمينه ، وخرج من حنثه ، ووفى بنذره . وهذا من الفرج والمخرج لمن اتقى الله تعالى وأناب إليه) . وقال النسفي : (وكان حلف في مرضه ليضربن امرأته مائة إذا برأ ، فحلل الله يمينه بأهون شيء عليه وعليها ؛ لحسن خدمتها إياه ، وهذه الرخصة باقية ، ويجب أن يصيب المضروب كل واحدة من المائة ، والسبب في يمينه أنها أبطأت عليه ذاهبة في حاجة ، فحرج صدره ، وقيل باعت ذؤابتيها برغيفين وكانتا متعلق أيوب عليه السلام إذا قام) . ﴿ **إنا وجدناه** ﴾ أي : علمناه ﴿ **صابراً** ﴾ أي : على البلاء ، صحيح أنّه قد شكا إلى الله ما به واسترحمه ، لكن الشكوى إلى الله لا تسمى جزعاً بل هي محض العبودية ، ثم أثنى الله تعالى عليه ومدحه بقوله ﴿ **نعم العبد** ﴾ أيوب ﴿ **إنه أوّاب** ﴾ أي : رجّاع منيب .

نقل :

بمناسبة الكلام عن أيوب عليه السلام قال صاحب الظلال :

(وقصة ابتلاء أيوب وصبره ذائعة مشهورة ؛ وهي تضرب مثلاً للابتلاء والصبر . ولكنها مشوبة بإسرائيليات تطغى عليها . والحد المأمون في هذه القصة هو أن أيوب - عليه السلام - كان - كما جاء في القرآن - عبداً صالحاً أوّاباً ؛ وقد ابتلاه الله فصبر صبراً جميلاً ، ويبدو أن ابتلاءه كان بذهاب المال والأهل والصحة جميعاً . ولكنه ظل على صلته بربه ، وثقته به ، ورضاه بما قسم له .

وكان الشيطان يوسوس لخلصائه القلائل الذين بقوا على وفائهم له ، ومنهم زوجته ، بأن الله لو كان يحب أيوب ما ابتلاه . وكانوا يحدثونه بهذا فيؤذيه في نفسه أشد مما يؤذيه الضر والبلاء . فلما حدّثته امرأته ببعض هذه الوسوسة حلف لئن شفاه الله ليضربنها عدداً عَيَّنه - قيل : مئة .

وعندئذ توجه إلى ربه بالشكوى مما يلقى من إيذاء الشيطان ، ومداخله إلى نفوس خلصائه ، ووقع هذا الإيذاء في نفسه :

﴿ **أني مسَّني الشيطان بنُصْب وعذاب** ﴾ .

فلما عرف ربه منه صدقه وصبره ، ونفوره من محاولات الشيطان ، وتأذيه بها ، أدركه برحمته . وأنهى ابتلاءه ، ورد عليه عافيته . إذ أمره أن يضرب الأرض بقدمه فتتفجر عين باردة يغتسل منها ويشرب فيشفى ويبرأ :

﴿ **اركض برجلك . هذا مغتسَل بارد وشراب** ﴾ .

ويقول القرآن الكريم : ﴿ **ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لأولي الألباب** ﴾ . وتقول بعض الروايات : إن الله أحيا له أبناءه ووهب له مثلهم ، وليس في النص ما يحتم أنه أحيا له من مات . وقد يكون معناه أنه بعودته إلى الصحة والعافية قد استرد أهله الذين كانوا بالنسبة إليه كالمفقودين . وأنه رزقه بغيرهم زيادة في الإنعام والرحمة والرعاية . مما يصلح ذكرى لذوي العقول والإدراك) .

كلمة في السياق :

١ - إن قصة أيوب عليه السلام في هذا السياق هي الشيء الثاني الذي أمر الله

رسوله ﷺ أن يذكره ؛ لما فيها من دروس للنذير ، ولأولي العقول من البشر في فضيلة الأوبة إلى الله ، والصبر على بلائه . ويلاحظ أن قصة أيوب عليه السلام تأتي هنا عقب قصة سليمان عليه السلام كما هي في سورة الأنبياء ، وفي ذلك إشارة إلى أن الله عز وجل يبتلي بالنعمة ، كما يبتلي بالمحنة ، ومهمة العبد أن ينجح في الابتلاءين ، ومن السياق هنا نعلم أنّ الأوّابيّة هي الصّفة المرشح أهلها للنّجاح في الامتحانات الإلهية .

٢ - رأينا أن سورة الأنبياء كانت تفصيلاً لقوله تعالى في سورة البقرة : ﴿ **إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون** ﴾ وقد آن لنا أن نلاحظ الشبه الكبير بين سورة الأنبياء ، وسورة (صٓ) سواء في مقدمتها ، أو في ذكر بعض النماذج والأمثلة فيها ، مما يؤكد ما ذهبنا إليه من أن محور سورة (صٓ) هو نفس محور سورة الأنبياء .

٣ - نلاحظ أن قصة أيوب عليه السلام ورد فيها قوله تعالى : ﴿ **وذكرى لأولي الألباب** ﴾ ، ونلاحظ أنه في وسط قصة داود وسليمان عليهما السلام ورد قوله تعالى في القرآن ﴿ **وليتذكّر أولو الألباب** ﴾ مما يشير إلى أن المقطع كله بيان لكون القرآن ذكراً ، وعلى هذا فهو يعرض في سياقه نماذج تؤكّد أنه ذكر . وصلة ذلك بقوله تعالى : ﴿ **صٓ والقرآن ذي الذكر** ﴾ واضحة . إنّ في تبيان أن القرآن ذكر ، وإقامة الدليل على ذلك في سياق السورة التي تتحدّث عن عدم استفادة الكافرين من الإنذار دليلاً على أن العلة في الكافرين ، والحجة قائمة عليهم ، وسيتّضح هذا في الأمرين القادمين الآتيين بصيغة (واذكر) :

....

﴿ **واذكر عبادنا إبراهيم وإسحق ويعقوب أولي الأيدي** ﴾ . قال ابن عباس : أي : أولي القوة ﴿ **والأبصار** ﴾ أي : الفقه في الدين . قال ابن كثير : (يعني بذلك العمل الصالح ، والعلم النافع ، والقوة في العبادة ، والبصيرة النافذة) . قال النسفي : أي : (أولي الأعمال الظاهرة ، والفكر الباطنة) ﴿ **إنا أخلصناهم** ﴾ أي جعلناهم لنا خالصين ﴿ **بخالصة** ﴾ أي : بخَصْلة صالحة ، لا شوب فيها ﴿ **ذكرى الدار** ﴾ أي : هي ذكر الدار ، أو يعني ذكر الدار الآخرة . قال النسفي : (يعنى : جعلناهم لنا خالصين بأن جعلناهم يذكّرون النّاس الدار الآخرة ، ويزهّدونهم في الدنيا ، أو معناه : أنّهم يكثرون ذكر الآخرة ، والرّجوع إلى الله ، وينسون ذكر الدنيا) . قال مجاهد : أي : جعلناهم

يعملون للآخرة ليس لهم همٌّ غيرها ﴿ **وإنهم عندنا لمن المصطفين** ﴾ أي : المختارين من بين أبناء جنسهم ﴿ **الأخيار** ﴾ جمع خيِّر . قال ابن كثير : (أي المختارين المجتبين الأخيار ، فهم أخيار مختارون .

....

كلمة في السياق :

يلاحظ أنه سبحانه وتعالى قال عن داود عليه السلام : ﴿ **واذكر عبدنا داود ذا الأيد** ﴾ وههنا قال عن إبراهيم وإسحاق ويعقوب : ﴿ **أولي الأيدي والأبصار** ﴾ وفي ذلك درس للنذير وأمته . وفي قوله تعالى : ﴿ **إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار** ﴾ تبيان لطريق السير إلى أن يكون الإنسان من المخلَصين . وفي ذلك درس ثان للنذير وأمته . وفي الأمر بذكر الرّسل عليهم الصّلاة والسّلام إشعار بأن لله رسلاً قبل محمد ﷺ قد بعثوا بالتوحيد والإنذار ، فليس محمد ﷺ ببدع من الرسل ، فعجب الكافرين الذي ذكره الله عز وجل لنا في أوّل السورة في غير محله . ﴿ **بل عجبوا أن جاءهم منذِر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب** ﴾ يدلّنا على هذا الآية الآتية ، إذ ليس فيها إلا الأمر بذكر مجموعة من الرسل عليهم الصلاة والسلام .

﴿ **واذكر إسماعيل واليسع** ﴾ وهو خليفة إلياس في قومه بني إسرائيل ﴿ **وذا الكفل** ﴾ نقل الألوسي عن وهب بن منبه : (أن الله بعث بعد أيوب عليه السلام شرف بن أيوب نبياً وسمّاه ذا الكفل) والاختلاف في شأن ذي الكفل عليه السلام كثير ﴿ **وكلٌّ** ﴾ أي : وكلهم ﴿ **من الأخيار** ﴾ .

كلمة في السياق :

١ - بالآية الأخيرة تنتهي الأوامر بصيغة ﴿ **واذكر** ﴾ الآتية في هذا المقطع وفي السورة ، ويأتي بعد هذا مباشرة - كما سنرى - قوله تعالى : ﴿ **هذا ذكر** ﴾ قال ابن كثير : (أي هذا فصل فيه ذكر لمن يتذكّر وقال السدي : يعني : القرآن العظيم) . مِمَّا يدلّ على ما ذكرناه من قبل أن في هذا المقطع نموذجاً على كون هذا القرآن ذكراً يذكِّر بالله عز وجل ، وصفاته وأفعاله ، وإنعامه واختباره ، وعطائه وشرعه وسننه وغير ذلك . وكون القرآن على مثل هذا الكمال في الذكر فذلك وحده دليل على أنّه من عند الله ، وإلا فمَنْ مِن البشر قادر على أن يأتي بكتاب فيه كل شيء ، وهو ذكر كله ؟ وفي

هذا إقامة حجّة على الكافرين الذين لا يستفيدون من الإنذار إذ لم يبق لهم ما يتعلّقون به بعد هذا القرآن ، ولئن كان المقطع أدى دوره في هذا الموضوع فهو يؤدي دوره كذلك في تعليم النّذير وأمّته ما ينبغي أن يكونوا عليه من الكمال ، غير ملتفتين إلى أقوال الكافرين ومواقفهم .

٢ - لقد رأينا في هذا المقطع كيف أن هذا القرآن ذكر من خلال تذكيره بفعل الله برسله ، ومن خلال ذكره لكمال رُسُله وهديهم ، ومن خلال تقريره للحجج القاطعة كما رأينا نموذج ذلك في الآيات الآتية في وسط الكلام عن داود وسليمان عليهما السلام ، وسنرى الآن المجموعة الأخيرة في المقطع كنموذج على كون القرآن ذكراً من خلال عرضه ما أعد الله عز وجل للمتقين وللظالمين . فلنر المجموعة الأخيرة :

....

﴿ **هذا ذكر** ﴾ قال ابن كثير : (أي هذا فصل فيه ذكر لمن يتذكّر . وقال السدي يعني القرآن العظيم) ﴿ **وإن للمتقين لَحُسْنَ مآب** ﴾ أي لحسن مرجع ومنقلَب .

....

كلمة في السياق :

قد وجّه النسفي هذه الآية على الشكل التالي : قال : (أي : هذا شرف وذكر جميل ، يُذكَرون فيه أبداً ، وإنّ لهم مع ذلك لحسن مرجع ، يعني : يذكرون في الدنيا بالجميل ، ويرجعون في الآخرة إلى مغفرة رب جليل) . وعلى هذا فالنسفي يفهم أن المراد بالمتقين في الآية هم المذكورون من قبل ، وأن المراد بالأوامر السابقة ﴿ **واذكر** ... ﴾ التعريف على شرف هؤلاء الرّسل ، فيكون على هذا الدرس الرئيسي في المقطع كله : هو أن الذين يتّقون الله لهم شرف الدنيا والآخرة ، فكن أيها الإنسان منهم ، ولا تكن من الكافرين الذين عرض الله لهم في أول السورة ، وسيعرض الله علينا ما أعدّ لهم من عذاب في آخر هذه المجموعة ، وهو توجيه حسن ، ولكنّ التوجيه الذي وجهناه نحن ، والذي يعضده عرض ابن كثير قد يكون أكثر انسجاماً مع السّياق - والله أعلم - . وعلى توجيهنا يكون المعنى : إن هذا القرآن مهمته التذكير ، فمن اتقى فجزاؤه كذا ، ومن طغىٰ فجزاؤه كذا ، فكانت الصيغة المؤدية لهذا المعنى :

﴿ **هذا ذكر وإن للمتقين لحسن مآب ... هذا وإن للطاغين لشر مآب ...** ﴾ ولنعد إلى التفسير .

....

فقد فسر الله عز وجل حسن المآب الذي أعده للمتقين بقوله : ﴿ **جنات عدن** ﴾ أي : جنات إقامة ﴿ **مفتَّحة لهم الأبواب** ﴾ أي : مفتحة لهم أبوابها أي : إذا جاؤوها فتحت لهم أبوابها ﴿ **متّكئين فيها** ﴾ أي : جلستهم المفضّلة هي الاتّكاء ، وهي أكثر أنواع الجلوس راحة ﴿ **يدعون فيها بفاكهة كثيرة** ﴾ أي : مهما طلبوا وجدوا ، وأحضر كما أرادوا ﴿ **وشراب** ﴾ أي : من أي أنواعه شاؤوا أتتهم به الخدّام ﴿ **وعندهم قاصرات الطرف** ﴾ أي : عن غير أزواجهن فلا يلتفتن إلى غير بعولتهن ﴿ **أتراب** ﴾ أي : متساويات في السنّ والعمر . قال النسفي : (أي : لِدات أسنانهنّ كأسنانهم ، لأنّ التحابّ بين الأقران أثبت) ﴿ **هذا ما توعدون** ﴾ أيها المتقون ﴿ **ليوم الحساب** ﴾ أي : ليوم تجزى كل نفس بما عملت قال ابن كثير : (أي : هذا الذي ذكرنا من صفة الجنّة هي التي وعدها لعباده المتقين التي يصيرون إليها بعد نشورهم وقيامهم من قبورهم وسلامتهم من النار) . ثم أخبر تبارك وتعالى عن الجنة أنه لا فراغ لها ولا زوال ولا انقضاء ولا انتهاء . فقال تعالى : ﴿ **إن هذا لرزقُنا ما له من نفاد** ﴾ أي : من انقطاع ، ولما ذكر الله تعالى مآل السعداء ، ثنّى بذكر حال الأشقياء ، ومرجعهم ومآبهم في دار معادهم وحسابهم فقال : ﴿ **هذا** ﴾ أي : الأمر هذا ، أو هذا كما ذكر ﴿ **وإن للطّاغين** ﴾ أي : الخارجين عن طاعة الله عزّ وجلّ ، المخالفين لرسل الله ﷺ ﴿ **لشرّ مآب** ﴾ أي : لسوء منقلب ومرجع . ثمّ فسّره بقوله : ﴿ **جهنّم يصلونها** ﴾ أي : يدخلونها فتغمرهم من جميع جوانبهم ﴿ **فبئس المهاد** ﴾ شبّه ما تحتهم من النّار بالمهاد الذي يفترشه النائم ﴿ **هذا فليذوقوه حميم وغَسَّاق** ﴾ أي : هذا حميم وغَسَّاق فليذوقوه . قال ابن كثير : (أما الحميم : فهو الماء الذي قد انتهى حره ، وأما الغساق : فهو ضدّه ، وهو البارد الذي لا يستطاع من شدة برده المؤلم) . ولهذا قال عز وجل : ﴿ **وآخر من شكله أزواج** ﴾ أي : وأشياء من هذا القبيل ، الشيء وضده يعاقبون بها . قال الحسن البصري : ألوان من العذاب . وقال غيره : كالزمهرير ، والسّموم ، وشرب الحميم ، وأكل الزّقوم ، والصعود والهوي ، إلى غير ذلك من الأشياء المختلفة المتضادّة ، والجميع مما يعذّبون به ، ويهانون بسببه ﴿ **هذا فوج**

مقتحم معكم ﴾ هذا إخبار من الله تعالى عن قيل أهل النار بعضهم لبعض ، أي : هذا جمع كثيف قد اقتحم معكم النار ، أي : دخل النار في صحبتكم ، والاقتحام : الدخول في الشيء بشدة ، والمراد بالفوج : أتباعهم الذين اقتحموا معهم الضلالة ، فيقتحمون معهم العذاب ﴿ **لا مرحباً بهم** ﴾ هذا دعاء منهم على أتباعهم ﴿ **إنهم صالوا النار** ﴾ أي : داخلوها ، هذا تعليل لاستيجابهم الدّعاء عليهم . وقيل : ﴿ **هذا فوج مقتحم معكم** ﴾ كلام الخزنة لرؤساء الكفرة في أتباعهم ﴿ **لا مرحباً بهم إنهم صالوا النار** ﴾ كلام الرؤساء ، وقيل هذا كله كلام الخزنة ، والقول الأوّل أقوى بدليل ما يأتي ﴿ **قالوا** ﴾ أي : الأتباع ﴿ **بل أنتم لا مرحباً بكم** ﴾ أي : الدعاء الذي دعوتم به علينا أنتم أحق به ، وعلّلوا ذلك ﴿ **أنتم قدّمتموه لنا** ﴾ أي : أنتم قدّمتم العذاب ، أو دخول النار لنا ، أي : إنكم دعوتمونا إليه فكفرنا باتّباعكم ﴿ **فبئس القرار** ﴾ النار ﴿ **قالوا** ﴾ أي : الأتباع ﴿ **ربّنا من قدّم لنا هذا فزده عذاباً ضعفاً** ﴾ أي : مضاعفاً ﴿ **في النار** ﴾ يطلبون أن يزيد الله عذاب زعمائهم بأن يكون ضعفي عذابهم ﴿ **وقالوا** ﴾ أي : رؤساء الكفرة ﴿ **ما لنا لا نرى رجالاً** ﴾ يعنون فقراء المسلمين ﴿ **كُنّا نعدُّهم** ﴾ في الدنيا ﴿ **من الأشرار** ﴾ أي : من الأرذال الذين لا خير فيهم ولا جدوى ﴿ **أتَّخذناهم سخريّاً** ﴾ هذا استفهام ينكرون به على أنفسهم استهزاءهم بالمؤمنين في الدنيا ﴿ **أم زاغت** ﴾ أي : مالت ﴿ **عنهم الأبصار** ﴾ أي : أزاغت عنهم أبصارنا فلا نراهم ، وهم فيها ؟ قسَّموا أمرهم بين أن يكونوا من أهل الجنة فلاموا أنفسهم على استهزائهم بهم في الدنيا ، وبين أن يكونوا من أهل النار ، إلا أنه خفي عليهم مكانهم . قال ابن كثير : (يسلون أنفسهم بالمحال يقولون : أو لعلّهم معنا في جهنم ، ولكن لم يقع بصرنا عليهم) ﴿ **إن ذلك لحقٌّ تخاصم أهل النار** ﴾ أي : إن هذا الذي أخبرناك به يا محمد من تخاصم أهل النار بعضهم في بعض ، ولعن بعضهم لبعض ، لحق لا مِرْية فيه ولا شك . وبهذا انتهى المقطع .

كلمة في المقطع الأول وسياقه :

١ - نلاحظ أن هذا المقطع الذي مَرّ معنا قد جاء في وسط السورة وما قبله كلام عن موقف الكافرين من رسول الله ﷺ ، وما بعده مباشرة سيأتي قوله تعالى : ﴿ **قل إنما أنا منذر وما من إله إلا الله الواحد القهار** ﴾ ... مما يؤكد أن المقطع يخدم موضوع السورة الرئيسي ، المتمثّل في محورها : ﴿ **إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون** ﴾ وهذه الخدمة رأيناها ، إنّ في توجيه النذير ، أو في

تبيان أنّ هذا القرآن ذكر ، أو في تبيان أنّ محمّداً ﷺ ليس بدعاً من الرسل .

٢ - نلاحظ أن المجموعة الأخيرة عرضت ما أعد الله للمتقين ، وما أعد للكافرين ، وهو تفصيل لمعانٍ موجودة في مقدّمة سورة البقرة ، إنْ في وصف المتقين ، أو في الكلام عن الكافرين ، ومن قبل قلنا : إنّ الموضوعين متداخلان ، ومن ثَمَّ عُرِضا في سورة البقرة ضمن حيِّز واحد .

٣ - نلاحظ التكامل بين سورة الصافات وبين سورة (صٓ) من خلال معانٍ وردت في المقطع ؛ فسورة الصافات ذكرت إلياس أستاذ اليسع عليهما السلام ، ولم تذكر اليسع ، وسورة (صٓ) ذكرت اليسع خليفة إلياس ، ولم تذكر إلياس ، وسورة الصافات عرضت لتخاصم الكافرين قبل دخولهم النار ، وسورة (صٓ) عرضت لتخاصم الكافرين في النار ، وسورة الصافات عرضت لتساؤل المؤمنين عن الكافرين ، وسورة (صٓ) عرضت لتساؤل الكافرين عن المؤمنين .

٤ - في محور سورة (صٓ) نجد قوله تعالى : ﴿ **ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم** ﴾ ونجد في آخر المقطع الذي مَرّ معنا تفصيلاً للعذاب العظيم الذي سيصيب الكافرين .

٥ - بقي معنا الآن في السورة مقطع واحد ، مجموعاته مصدّرة بقوله تعالى لرسوله عليه الصلاة والسلام ﴿ **قل** ﴾ كما سنرى . وعلى هذا فالسورة في سياقها الرئيسي عرضت مواقف الكافرين من رسول الله ﷺ ، ثم أمرت الرسول ﷺ بالصبر والذكر ، وحدَّدت له ما يذكره في المقطع الأول . ويأتي المقطع الثاني - والأخير - ليحدِّد للرسول ﷺ ما يقوله أمام هذا العناد المتكبّر ، وقبل أن نعرض المقطع الأخير . فلنذكر بعض الفوائد المتعلّقة بالمقطع الأول .

فوائد :

١ - بمناسبة الكلام عن داود عليه السلام ، قال ابن كثير : (في الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : « أحب الصلاة إلى الله تعالى صلاة داود ، وأحب الصيام إلى الله عز وجل صيام داود ؛ كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه ، وينام سدسه ، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً ، ولا يفر إذا لاقى وإنه كان أوّاباً ») .

٢ - بمناسبة قوله تعالى عن داود عليه السلام : ﴿ **إنا سخّرنا الجبال معه يسبّحن**

بالعشي والإشراق ﴾ قال ابن كثير : (روى ابن جرير ... عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه بلغه أن أم هانىء رضي الله عنها ذكرت أن رسول الله ﷺ يوم فتح مكة صلى الضحى ثمان ركعات ، فقال ابن عباس رضي الله عنهما : قد ظننت أن لهذه الساعة صلاة بقول الله عز وجل ﴿ **يسبّحن بالعشي والإشراق** ﴾ . ثم رواه من حديث سعيد ابن أبي عروبة عن أبي المتوكل عن أيوب عن صفوان عن مولاه عبد الله بن الحارث ابن نوفل أن ابن عباس رضي الله عنهما كان لا يصلي الضحى ، فأدخلته على أم هانىء رضي الله عنها ، فقلت : أخبري هذا ما أخبرتيني ، فقالت : دخل عليّ رسول الله ﷺ يوم الفتح في بيتي ، ثم أمر بماء صبّ في قصعة ، ثم أمر بثوب فأخذ بيني وبينه فاغتسل ثم رشَّ ناحية البيت ، فصلى ثمان ركعات ، وذلك من الضحى قيامهن وركوعهنّ وسجودهنّ وجلوسهن سواء ، قريب بعضهن من بعض ، فخرج ابن عباس رضي الله عنهما وهو يقول : لقد قرأت ما بين اللوحين ما عرفت صلاة الضحى إلا الآن ﴿ **يسبّحن بالعشي والإشراق** ﴾ وكنت أقول أين صلاة الإشراق وكان بعد يقول صلاة الإشراق) .

٣ - رأينا ماذا تعنى كلمة ﴿ **فصل الخطاب** ﴾ الذي أعطيه داود عليه السلام ، غير أن المفسرين يذكرون نماذج لفصل الخطاب في قضايا القضاء . والمراد بما أعطيه داود عليه السلام أوسع مما يذكرونه . فلنر نماذج من أقوالهم ومحلها بالنسبة للآية . قال ابن كثير : ﴿ **وفصل الخطاب** ﴾ (قال شريح القاضي والشعبي : فصل الخطاب الشهود والأيْمان ، وقال قتادة : شاهدان على المدعي ، أو يمين المدعىٰ عليه ، وهو فصل الخطاب الذي فصل به الأنبياء والرسل ، أو قال المؤمنون والصالحون وهو قضاء هذه الأمة إلى يوم القيامة ، وكذا قال عبد الرحمن السلمي ، وقال مجاهد والسدي : هو إصابة القضاء وفهم ذلك ، وقال مجاهد أيضاً هو الفصل في الكلام وفي الحكم ، وهذا يشمل هذا كله ، وهو المراد ، واختاره ابن جرير ، وروى ابن أبي حاتم ... عن أبي موسى رضي الله عنه قال : أول من قال : أما بعد : داود عليه السلام وهو فصل الخطاب ، وكذا قال الشعبي فصل الخطاب : أما بعد) .

٤ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوّروا المحراب ...** ﴾ قال ابن كثير : (وقد ذكر المفسرون ههنا قصة أكثرها مأخوذ من الإسرائيليات ، ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتباعه ، ولكن روى ابن أبي حاتم هنا حديثاً

لا يصح سنده لأنه من رواية يزيد الرقاشي عن أنس رضي الله عنه ويزيد – وإن كان من الصالحين – لكنه ضعيف الحديث عند الأئمة ، فالأولى أن يقتصر على مجرد تلاوة هذه القصة وأن يرد علمها إلى الله عز وجل فإن القرآن حق وما تضمّن فهو حق أيضاً) .

أقول : في الإصحاح الحادي عشر والثاني عشر من سفر صموئيل الثاني تذكر قصة فيها بعض كلمات القصة القرآنية ، وفيها رجاسات اليهود ، إذ يذكر الإصحاح الحادي عشر أن داود زنى بامرأة (أوريَّا) قائده في حياة أوريّا ، ودفع بأوريّا ليقتل . ثم يذكر الإصحاح الثاني عشر ضمّ داود زوجة أوريا إليه ، وعتاب ناثان النبي له على ذلك . ويذكر الإصحاح هنا فكرة النعجة الواحدة والنعاج الكثيرة . وكثير مِمّا ذكر في كتب العهد القديم أو الجديد كلام لا قيمة له من الناحية العلمية ؛ إذ يخالف الحقّ الذي أنزله الله في القرآن ، ويكفي لرفضه ، ومعرفة قيمته الخسيسة ، ذكر أن داود عليه السلام زنى بامرأة أوريا في حياة زوجها ، وزوجها يقاتل في سبيل الله ، ممّا لا يفعله أخسّ الخلق – فعليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين – بما يفترون على رسل الله . وقد حاول النسفي أن يستشف ما يمكن أن تكون الحادثة في إطارها اللائق في حق الأنبياء وسننقل كلامه فيما بعد ، ونكتفي هنا بأن ننقل خاتمة كلامه :

قال رحمه الله :

(وما يحكى أنه بعث مرة بعد مرة أوريا إلى غزوة البلقاء وأحب أن يُقْتل ليتزوجها ، فلا يليق من المتّسمين بالصلاح من أفناء المسلمين فضلاً عن بعض أعلام الأنبياء ، وقال علي رضي الله عنه : من حدّثكم بحديث داود عليه السلام – على ما يرويه القصاص – جلدته مائة وستين ، وهو حد الفرية على الأنبياء ، وروي أنه حدّث بذلك عمر بن عبد العزيز ، وعنده رجل من أهل الحق ، فكذّب المحدّث به وقال : إن كانت القصة على ما في كتاب الله ، فما ينبغي أن يلتمس خلافها ، وأعظِم بأن يقال غير ذلك ، وإن كانت على ما ذكرت ، وكفّ الله عنها ستراً على نبيه ، فما ينبغي إظهارها عليه ، فقال عمر : لَسَمَاعي هذا الكلام أحب إلي مما طلعت عليه الشمس ، والذي يدل عليه المثل الذي ضربه الله بقصته عليه السلام ليس إلا طلبه إلى زوج المرأة أن ينزل له عنها فحسب ، وإنما جاءت على طريق التمثيل والتعريض دون التصريح ؛ لكونها أبلغ في التوبيخ من قبل أن التأمل إذا أداه إلى الشعور بالمعرّض به كان أوقع في نفسه ، وأشد تمكناً من قلبه ، وأعظم أثراً فيه ، مع مراعاة حسن الأدب بترك المجاهرة) .

من كلام النسفي يفهم أنه يمكن أن يكون داود عليه السلام قد طلب من أوريّا أن يتنازل له عن زوجته ، ويبدو أنّ هذا كان سائغاً في شريعتهم ، ويمكن أن يكون داود عليه السلام قد همّ أن يتزوجها لو حدث لزوجها حادث ، فلمّا قتل زوجها تزوّجها دون أن يكون رغب في قتل زوجها ، أو دفعه إلى موقف يقتل فيه حاشاه عليه السلام . فعاتبه الله عز وجل على مدّه بصره إلى ملك الآخرين والله أعلم .

ولنتذكر دائماً ما يقوله النقاد الغربيون أنفسهم من أن أسفار العهد القديم لا يوجد فيها سفر يصمد على النقد إلا سفر إرميا ، ونحن نشكك حتى في سفر إرميا لأنه لم يرد إلينا بسند صحيح .

٥ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **وظن داود أنما فتنّاه فاستغفر ربه وخر راكعاً وأناب** ﴾ نقول : ههنا سجدة من السجدات القرآنية عند أبي حنيفة ومالك ، وبمناسبة الآية قال ابن كثير :

(وقد اختلف الأئمة في سجدة (صٓ) هل هي من عزائم السجود ؟ على قولين الجديد مذهب الشافعي رضي الله عنه أنها ليست من عزائم السجود ، بل هي سجدة شكر . والدليل على ذلك ما رواه الإمام أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في السجدة : (صٓ) ليست من عزائم السجود ، وقد رأيت رسول الله ﷺ يسجد فيها ، ورواه البخاري وأبو داود والترمذي والنسائي في تفسيره من حديث أيوب به وقال الترمذي : حسن صحيح . وروى النسائي أيضاً عند تفسير هذه الآية عن سعيد ابن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : إن النبي ﷺ سجد في (صٓ) وقال : « سجدها داود عليه السلام توبة ، ونسجدها شكراً » تفرّد بروايته النسائي ، ورجال إسناده كلهم ثقات . وقد أخبرني شيخنا الحافظ أبو الحجاج المزي قراءة عليه وأنا أسمع ... عن الحسن بن محمد بن عبيد الله بن أبي يزيد قال : قال لي ابن جرير يا حسن حدّثني جدّك عبيد الله بن أبي يزيد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله إني رأيت فيما يرى النائم كأني أصلي خلف شجرة ، فقرأت السجدة فسجدت ، فسجدت الشجرة بسجودي ، فسمعتها تقول وهي ساجدة : اللهم اكتب لي بها عندك أجراً ، واجعلها لي عندك ذخراً ، وضع بها عني وزراً ، واقبلها مني كما قبلتها من عبدك داود . قال ابن عباس رضي الله عنهما فرأيت النبي ﷺ قام فقرأ السجدة ثم سجد فسمعته يقول وهو ساجد كما حكى الرجل من

كلام الشجرة ، رواه الترمذي عن قتيبة وابن ماجه عن أبي بكر بن خلاد كلاهما عن محمد بن يزيد بن خنيس نحوه ، وقال الترمذي غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه . وروى البخاري عند تفسيرها عن العوام قال سألت مجاهداً عن سجدة (صٓ) فقال : سألت ابن عباس رضي الله عنهما من أين سجدت فقال أوَ ما تقرأ ﴿ **ومن ذريته داود وسليمان** ﴾ ﴿ **أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده** ﴾ فكان داود عليه الصلاة والسلام ممن أُمر نبيكم ﷺ أن يقتدي به ، فسجدها داود عليه الصلاة والسلام ، فسجدها رسول الله ﷺ . وروى الإمام أحمد ... أن أبا سعيد الخدري رضي الله عنه رأى رؤيا أنه يكتب (صٓ) فلما بلغ إلى الآية التي يسجد بها رأى الدواة والقلم وكل شيء بحضرته انقلب ساجداً قال : فقصها على النبي ﷺ فلم يزل يسجد بها بعد ، تفرد به أحمد ، وروى أبو داود ... عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قرأ رسول الله ﷺ وهو على المنبر (صٓ) فلما بلغ السجدة نزل فسجد ، وسجد الناس معه ، فلما كان يوم آخر قرأها فلما بلغ السجدة تشزن الناس للسجود فقال ﷺ : « إنما هي توبة نبي ولكني رأيتكم تشزنتم » فنزل وسجد ، تفرد به أبو داود وإسناده على شرط الصحيح) .

٦ — بمناسبة قوله تعالى عن داود عليه السلام ﴿ **وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب** ﴾ قال ابن كثير : (كما جاء في الصحيح : « المقسطون على منابر من نور عن يمين الرحمن وكلتا يديه يمين الذين يقسطون في أهليهم وما ولوا » وروى الإمام أحمد ... عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أحب الناس إلى الله يوم القيامة وأقربهم منه مجلساً إمام عادل ، وإن أبغض الناس إلى الله يوم القيامة وأشدهم عذاباً إمام جائر » ورواه الترمذي ، وروى ابن أبي حاتم عن جعفر بن سليمان قال : سمعت مالك ابن دينار في قوله تعالى ﴿ **وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب** ﴾ قال يقام داود يوم القيامة عند ساق العرش ، ثم يقول يا داود مجّدني اليوم بذلك الصوت الحسن الرخيم الذي كنت تمجدني به في الدنيا فيقول وكيف وقد سلبتهُ ؟ فيقول الله عز وجل إني أردّه عليك اليوم ، قال فيرفع داود عليه الصلاة والسلام بصوت يستفرغ نعيم أهل الجنان) .

٧ — بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض** ﴾ قال ابن كثير : (روى ابن أبي حاتم بسنده عن إبراهيم أبي زرعة — وكان قد قرأ الكتاب — أن الوليد بن عبد الملك قال له : أيُحاسب الخليفة ؟ فإنك قد قرأت الكتاب

الأول ، وقرأت القرآن ، وفقهت ؛ فقلت : يا أمير المؤمنين أقول ؟ قال : قل في أمان الله ، قلت : يا أمير المؤمنين أنت أكرم على الله أو داود عليه الصلاة والسلام ، إن الله تعالى جمع له النبوة والخلافة ، ثم توعّده في كتابه فقال تعالى : ﴿ **يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله** ﴾ الآية) .

٨ - لا نجد في أسفار العهد القديم شيئاً يشير إلى موضوع استعراض الخيل من قِبل سليمان عليه السلام حتى نستأنس نوع استئناس بشيء إذا وافق الحق الذي نعلمه ، وهيهات أن تجد فيها الكثير ، بل إنك لتجد فيها الكذب الكثير ، حتى إنك لتجد في الإصحاح الحادي عشر (الملوك الأول) اتهام سليمان عليه السلام بأن نساءه أمالت قلبه وراء آلهة أخرى ... ومما يقوله هذا الإصحاح : (فذهب سليمان وراء عشتورت إلاهة الصيدونيين وملكوم رجس العمونيين وعمل سليمان الشر في عيني الرب) . وحاشاه عليه السلام ، ولكنهم اليهود أجرأ خلق الله على الأنبياء عليهم السلام . وأمام سكوت أسفار العهد القديم فليس أمامنا إلا الفهم من ألفاظ النّص القرآني ضمن القواعد العامة . قال ابن كثير : (وقوله تبارك وتعالى : ﴿ **فقال إني أحببت حبّ الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب** ﴾ . ذكر غير واحد من السلف والمفسرين أنه اشتغل بعرضها حتى فات وقت صلاة العصر ، والذي يقطع به أنه لم يتركها عمداً ، بل نسياناً ، كما شغل النبي ﷺ يوم الخندق عن صلاة العصر حتى صلاها بعد الغروب ، وذلك ثابت في الصحيحين من غير وجه ، من ذلك عن جابر رضي الله عنه قال : جاء عمر رضي الله عنه يوم الخندق بعد ما غربت الشمس ، فجعل يسبّ كفار قريش ، ويقول : يا رسول الله ، والله ما كدت أصلي العصر حتى كادت الشمس تغرب ، فقال رسول الله ﷺ : « والله ما صليتها » فقال : فقمنا إلى بطحان فتوضأ نبي الله ﷺ للصلاة ، وتوضأنا لها ، فصلى العصر بعدما غربت الشمس ، ثم صلى بعدها المغرب . ويحتمل أنه كان سائغاً في ملتهم تأخير الصلاة لعذر الغزو والقتال ، والخيل تُراد للقتال ، وقد ادعى طائفة من العلماء أن هذا كان مشروعاً فنسخ ذلك بصلاة الخوف ، ومنهم من ذهب إلى ذلك في حال المسايفة والمضايقة حيث لا تمكن صلاة ولا ركوع ولا سجود ، كما فعل الصحابة رضي الله عنهم في فتح تستر ، وهو منقول عن مكحول والأوزاعي وغيرهما ، والأول أقرب لأنه قال بعده ﴿ **ردّوها عليّ فطفق مسحاً بالسوق والأعناق** ﴾ قال الحسن البصري : قال : لا والله لا تشغليني عن عبادة ربي آخر ما عليك ، ثم أمر بها

فعقرت ، وكذا قال قتادة ، وقال السّدّي ضرب أعناقها وعراقيبها بالسيوف ، وقال علي ابن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما : جعل يمسح أعراف الخيل وعراقيبها حباً لها ، وهذا القول اختاره ابن جرير ، قال لأنه لم يكن ليعذب حيواناً بالعرقبة ، ويهلك مالاً من ماله بلا سبب ، سوى أنه اشتغل عن صلاته بالنظر إليها ، ولا ذنب لها ، وهذا الذي رجّح به ابن جرير فيه نظر ؛ لأنه قد يكون في شرعهم جواز مثل هذا ، ولا سيما إذا كان غضباً لله تعالى بسبب أنه اشتغل بها حتى خرج وقت الصلاة ، ولهذا لما خرج عنها لله تعالى عوَّضه الله عز وجل ما هو خير منها ، وهو الريح التي تجري بأمره رخاء حيث أصاب ، غدوُّها شهر ورواحها شهر ، فهذا أسرع وخير من الخيل . روى الإمام أحمد ... عن أبي قتادة وأبي الدهماء - وكان يكثران السفر نحو البيت - قالا : أتينا على رجل من أهل البادية فقال لنا البدوي أخذ بيدي رسول الله ﷺ فجعل يعلمني مما علمه الله عز وجل وقال : « إنك لا تدع شيئاً اتقاء لله تعالى إلا أعطاك الله عز وجل خيراً منه ») .

٩ - بمناسبة ذكر الخيل في قصة سليمان عليه السلام ذكر ابن كثير حديثاً قال : (وروى أبو داود ... عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن عائشة رضي الله عنها قالت : قدم رسول الله ﷺ من غزوة تبوك - أو خيبر - وفي سهوتها ستر ، فهبَّت الريح ، فكشفت ناحية الستر عن بنات لعائشة رضي الله عنها لعب ، فقال ﷺ : « ما هذا يا عائشة ؟ » قالت رضي الله عنها : بناتي ورأى بينهن فرساً له جناحان من رقاع فقال ﷺ : « ما هذا الذي أرى وسطهن ؟ » قالت رضي الله عنها : فرس ، قال رسول الله ﷺ : « ما هذا الذي عليه ؟ » قالت رضي الله عنها : جناحان قال رسول الله ﷺ : « فرس له جناحان ؟ » قالت رضي الله عنها : أما سمعت أن سليمان عليه الصلاة والسلام كانت له خيل لها أجنحة ، قالت رضي الله عنها : فضحك رسول الله ﷺ حتى رأيت نواجذه) .

أقول : وقد أخطأ من فهم من الحديث أن خيل سليمان عليه السلام لها أجنحة . فليس في الحديث ما يدل على ذلك . والحديث دليل على أن لعب الأطفال متسامح بها .

١٠ - لا نجد في أسفار العهد القديم ما يشير إلى الجسد الذي ألقي على كرسي سليمان ، ولكنا نجد أن أخاه نافسه على الملك ، وحاول أن يصل إلى الملك في حياة أبيه . ثم فشّل ذلك داود ، وآل الأمر إلى سليمان ولا ندري إذا كان المراد بهذا هو

المشار إليه في النّص . وينقل المفسرون في هذا المقام كلاماً الله أعلم بحقيقته ، ومرجعه كله أهل الكتاب ، ولا نرى أن نتعب به القارىء .

١١ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهّاب** ... ﴾ قال ابن كثير : (والصحيح أنه سأل من الله تعالى ملكاً لا يكون لأحد من بعده من البشر مثله ، وهذا هو ظاهر السياق من الآية ، وبذلك وردت الأحاديث الصحيحة من طرق عن رسول الله ﷺ .

وروى البخاري عند تفسير هذه الآية ... عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « إن عفريتاً من الجن تفلّت عليّ البارحة - أو كلمة نحوها - ليقطع عليّ الصلاة ، فأمكنني الله تبارك وتعالى منه ، وأردت أن أربطه إلى سارية المسجد ، حتى تصبحوا وتنظروا إليه كلكم ، فذكرت قول أخي سليمان عليه الصلاة والسلام ﴿ **رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي** ﴾ » قال روح (وهو من رجال سنده) فرده خاسئاً وكذا رواه مسلم والنسائي من حديث شعبة به . وروى مسلم في صحيحه عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال قام رسول الله ﷺ يصلي فسمعناه يقول : « أعوذ بالله منك - ثم قال - ألعنك بلعنة الله » ثلاثاً وبسط يده كأنه يتناول شيئاً ، فلما فرغ من الصلاة قلنا : يا رسول الله سمعناك تقول في الصلاة شيئاً لم نسمعك تقوله قبل ذلك ، ورأيناك بسطت يدك ، قال ﷺ : « إن عدو الله إبليس جاء بشهاب من نار ليجعله في وجهي ، فقلت : أعوذ بالله منك - ثلاث مرات - ثم قلت ألعنك بلعنة الله التامة فلم يتأخر - ثلاث مرات - ثم أردت أن آخذه ، والله لولا دعوة أخينا سليمان لأصبح موثقاً يلعب به صبيان أهل المدينة » وروى الإمام أحمد ... عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قام يصلي صلاة الصبح وهو خلفه ، فقرأ فالتبست عليه القراءة ، فلما فرغ من صلاته قال : « لو رأيتموني وإبليس فأهويت بيدي فما زلت أخنقه حتى وجدت برد لعابه بين أصبعي هاتين - الإبهام والتي تليها - ولولا دعوة أخي سليمان لأصبح مربوطاً بسارية من سواري المسجد يتلاعب به صبيان المدينة ، فمن استطاع منكم أن لا يحول بينه وبين القبلة أحد فليفعل » وقد روى أبو داود منه « من استطاع منكم أن لا يحول بينه وبين القبلة أحد فليفعل » . وروى الإمام أحمد بسنده عن ربيعة بن يزيد بن عبد الله الديلمي قال : دخلت على عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما وهو في حائط له بالطائف يقال له الرهط ، وهو محاصر فتى من قريش

يزني ويشرب الخمر ، فقلت بلغني عنك حديث أنه « من شرب شربة من الخمر لم يقبل الله عز وجل له توبة أربعين صباحاً ، وأن الشقي من شقي في بطن أمه ، وأنه من أتى بيت المقدس لا ينهزه إلا الصلاة فيه خرج من خطيئته مثل يوم ولدته أمه » فلما سمع الفتى ذكر الخمر اجتذب يده من يده ثم انطلق ، فقال عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما : إني لا أحل لأحد أن يقول عليّ ما لم أقل ، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من شرب من الخمر شربة لم تقبل له صلاة أربعين صباحاً ، فإن تاب تاب الله عليه ، فإن عاد لم تقبل له صلاة أربعين صباحاً ، فإن تاب تاب الله عليه – قال : فلا أدري في الثالثة أو الرابعة قال – فإن عاد كان حقاً على الله تعالى أن يسقيه من طينة الخبال يوم القيامة » قال : وسمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله عز وجل خلق خلقه في ظلمة ، ثم ألقى عليهم من نوره ، فمن أصابه من نوره يومئذ اهتدى ، ومن أخطأه ضل ، فلذلك أقول جف القلم على علم الله عز وجل » وسمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن سليمان عليه السلام سأل الله تعالى ثلاثاً فأعطاه اثنتين ، ونحن نرجو أن تكون لنا الثالثة ، سأله حكماً يصادف حكمه ، فأعطاه إياه ، وسأله ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده ، فأعطاه إياه ، وسأله أيما رجل خرج من بيته لا يريد إلا الصلاة في هذا المسجد خرج من خطيئته كيوم ولدته أمه ، فنحن نرجو أن يكون الله عز وجل قد أعطانا إياها » وقد روى هذا الفصل الأخير من هذا الحديث النسائي وابن ماجه من طرق عن عبد الله بن فيروز الديلمي عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « إن سليمان عليه الصلاة والسلام لما بنى بيت المقدس سأل ربه عز وجل خلالاً ثلاثاً » وذكره ، وقد روي من حديث رافع بن عمير رضي الله عنه بإسناد وسياق غريبين . وروى الطبراني ... عن رافع بن عمير قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : « قال الله عز وجل لداود عليه الصلاة والسلام ابن لي بيتاً في الأرض ، فبنى داود بيتاً لنفسه قبل البيت الذي أُمر به ، فأوحى الله إليه يا داود نصبت بيتك قبل بيتي . قال يا رب هكذا قضيت مَنْ ملك استأثر ، ثم أخذ في بناء المسجد فلما تم السور سقط ثلاثاً ، فشكا ذلك إلى الله عز وجل ، فقال : يا داود إنك لا تصلح أن تبني لي بيتاً ، قال ولم يا رب ؟ قال لما جرى على يديك من الدماء ، قال : يا رب أو ما كان ذلك في هواك ومحبتك ؟ قال : بلى ولكنهم عبادي وأنا أرحمهم ، فشق ذلك عليه ، فأوحى الله إليه لا تحزن فإني سأقضي بناءه على يدي ابنك سليمان ، فلما مات داود أخذ سليمان في بنائه ، ولما تم قرَّب القرابين ، وذبح الذبائح ، وجمع بني إسرائيل ، فأوحى الله إليه قد

أرى سرورك ببنيان بيتي فسلني أعطك ، قال : أسالك ثلاث خصال : حكماً يصادف حكمك ، وملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي ، ومن أتى هذا البيت لا يريد إلا الصلاة فيه خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه – قال رسول الله ﷺ – أما الثنتان فقد أعطيهما ، وأنا أرجو أن يكون قد أعطي الثالثة » . وروى الإمام أحمد عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال : ما سمعت رسول الله ﷺ دعا إلا استفتحه « سبحان الله ربي العلي الأعلى الوهاب » وقد قال أبو عبيد عن صالح بن مسمار قال لما مات نبي الله داود عليه السلام أوحى الله تبارك وتعالى إلى ابنه سليمان عليه الصلاة والسلام أن سلني حاجتك ، قال : أسألك أن تجعل لي قلباً يخشاك كما كان قلب أبي ، وأن تجعل قلبي يحبك كما كان قلب أبي ، فقال الله عز وجل : أرسلت إلى عبدي وسألته حاجته فكانت حاجته أن أجعل قلبه يخشاني ، وأن أجعل قلبه يحبني ، لأهبن له ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده . قال الله جلت عظمته ﴿ **فسخّرنا له الريح تجري بأمره رخاءً حيث أصاب** ﴾ والتي بعدها ، قال : فأعطاه ما أعطاه وفي الآخرة لا حساب عليه . هكذا أورده أبو القاسم بن عساكر في ترجمة سليمان عليه الصلاة والسلام في تاريخه . وروي عن بعض السلف أنه قال بلغني عن داود عليه الصلاة والسلام أنه قال : إلهي كن لسليمان كما كنت لي ، فأوحى الله عز وجل إليه : أن قل لسليمان أن يكون لي كما كنتَ لي ، أكنْ له كما كنتُ لك .

وقوله تبارك وتعالى ﴿ **فسخّرنا له الريح تجري بأمره رخاءً حيث أصاب** ﴾ قال الحسن البصري رحمه الله : لما عقر سليمان عليه الصلاة والسلام الخيل غضباً لله عز وجل ، عوّضه الله تعالى ما هو خير منها وأسرع ، الريح التي غدوّها شهر ورواحها شهر . وقوله جل وعلا ﴿ **حيث أصاب** ﴾ أي حيث أراد من البلاد وقوله جل جلاله ﴿ **والشياطين كل بناء وغوّاص** ﴾ أي منهم ما هو مستعمل في الأبنية الهائلة من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات ، إلى غير ذلك من الأعمال الشاقة التي لا يقدر عليها البشر ، وطائفة غوّاصون في البحار يستخرجون ما فيها من اللآلىء والجواهر والأشياء النفيسة التي لا توجد إلا فيها ﴿ **وآخرين مقرّنين في الأصفاد** ﴾ أي موثوقون في الأغلال والأكبال ممن قد تمرّد وعصى ، وامتنع من العمل وأبى ، أو قد أساء في صنيعه واعتدى . وقوله عز وجل ﴿ **هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب** ﴾ أي هذا الذي أعطيناك من الملك التام ، والسلطان الكامل كما سألتنا فأعط من شئت ، واحرم من شئت ، لا حساب عليك ، أي مهما فعلت فهو جائز لك ، احكم بما شئت فهو صواب ، وقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم لما خُيِّر

بين أن يكون عبداً رسولاً - وهو الذي يفعل ما يؤمر به وإنما هو قاسم يقسم بين الناس كما أمره الله تعالى به - وبين أن يكون نبياً ملكاً ، يعطي من يشاء ، ويمنع من يشاء بلا حساب ولا جناح ، اختار المنزلة الأولى بعد ما استشار جبريل عليه الصلاة والسلام فقال له : تواضع فاختار المنزلة الأولى ، لأنها أرفع قدراً عند الله عز وجل ، وأعلى منزلة في المعاد وإن كانت المنزلة الثانية وهي النبوة مع الملك عظيمة أيضاً في الدنيا والآخرة ، ولهذا لما ذكر تبارك وتعالى ما أعطى سليمان عليه الصلاة والسلام في الدنيا نبّه تعالى على أنه ذو حظ عظيم عند الله يوم القيامة أيضاً فقال تعالى ﴿ **وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب** ﴾ أي في الدنيا والآخرة) .

١٢ - ونختم الكلام عن داود وسليمان عليهما السلام بذكر أن الذي نافس سليمان عليه السلام على الملك هو أدونيَّا أخوه الأكبر ، وقصة ذلك مذكورة في الإصحاح الأول والثاني من سفر الملوك الأول ، ونلاحظ في السفر الثاني ملاحظة : هو أن أدونيّا يطلب من أم سليمان أن تتوسط لدى سليمان أن يعطي سليمان أدونيا أبيشبح الشونمية امرأة له ، والظاهر أن أبيشبح الشونمية كانت امرأة لسليمان عليه السلام ، وقد غضب سليمان - فيما ذكر الإصحاح - لهذا الطلب ، وأمر بقتل أخيه . فإذا صحّ أن أبيشبح كانت زوجة لسليمان ، وصح توسّط أم سليمان عند سليمان في ذلك ، فإنّ ذلك يدلّ على أنّه من المتعارف عندهم أن يتنازل بعضهم لبعض عن زوجاتهم . ومن ثَمَّ فإن قصة داود عليه السلام كانت من هذا القبيل . وهذا الذي خرّج عليه النسفي الحادثة وهو تخريج مبني على الظن ، وأظن أنه لا حرج لو نقلنا ما قاله النسفي هنا بعد معرفة حدوده . قال النسفي : (روي أن أهل زمان داود عليه السلام كان يسأل بعضهم بعضاً أن ينزل له عن امرأته فيتزوجها إذا أعجبته ، وكان لهم عادة في المواساة بذلك ، وكان الأنصار يواسون المهاجرين بمثل ذلك ، فاتفق أن داود عليه السلام وقعت عينه على امرأة أوريا فأحبها ، فسأله النزول له عنها ، فاستحيى أن يرده ففعل ، فتزوجها وهي أم سليمان ، فقيل له : إنك مع عظم منزلتك وكثرة نسائك لم يكن ينبغي لك أن تسأل رجلاً ليس له إلا امرأة واحدة للنزول عنها لك ، بل كان الواجب عليك مغالبة هواك ، وقهر نفسك ، والصبر على ما امتحنت به ، وقيل خطبها أوريا ثم خطبها داود ، فآثره أهلها ، فكانت زلته أن خطب على خطبة أخيه المؤمن مع كثرة نسائه) .

١٣ - في أسفار العهد القديم سفر اسمه سفر أيوب وهو سفر واضح الصنعة ،

وواضح أنه موضوع ، وأنه مصنوع ، وإن كان لا يخلو من نَفَس حق ، ولكنّه لا يصلح للاعتماد ، وقد ذكر فيه بلاء أيوب ، ولكن فيه على لسان أيوب اعتراضات ، وشكاوى على الله - وحاشاه - وإنما هو دأب اليهود - عليهم لعائن الله - في تشويه سمعة الأنبياء عليهم السلام . وللمفسرين كلام كثير يبالغون فيه في بلاء أيوب مبالغة يرفضها علماء التوحيد . وفي مثل هذه الأحوال فالموقف الأصح هو الوقوف عند النص ، وأن نفهمه ضمن القواعد العامة ، وأن نذكر ما أُثر عن رسولنا ﷺ في هذا المقام . ويذكر ابن كثير حديثين لهما علاقة بأيوب عليه السلام فلننقلهما :

(روى ابن جرير وابن أبي حاتم جميعاً ... عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : إن رسول الله ﷺ قال : « إن نبي الله أيوب عليه الصلاة والسلام لبث به بلاؤه ثماني عشرة سنة ، فرفضه القريب والبعيد ، إلا رجلين كانا من أخص إخوانه به ، كانا يغدوان إليه ويروحان ، فقال أحدهما لصاحبه : تعلم والله لقد أذنب أيوب ذنباً ما أذنبه أحد من العالمين ، قال له صاحبه وما ذاك ؟ قال : منذ ثماني عشرة سنة لم يرحمه الله تعالى ، فيكشف ما به ، فلما راحا إليه لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك له ، فقال أيوب عليه الصلاة والسلام : لا أدري ما تقول غير أن الله عز وجل يعلم أني كنت أمرُّ على الرجلين يتنازعان فيذكران الله تعالى فأرجع إلى بيتي فأكفّر عنهما كراهية أن يُذكَر الله تعالى إلا في حق ، قال : وكان يخرج إلى حاجته فإذا قضاها أمسكت امرأته بيده حتى يبلغ فلما كان ذات يوم أبطأ عليها ، فأوحى الله تبارك وتعالى إلى أيوب عليه الصلاة والسلام أن ﴿ **اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب** ﴾ فاستبطأته فالتفتت تنظر ، فأقبل عليها قد أذهب الله ما به من البلاء ، وهو على أحسن ما كان ، فلما رأته قالت : أي بارك الله فيك هل رأيت نبي الله هذا المبتلى ؟ فوالله على ذلك ما رأيت رجلاً أشبه به منك إذ كان صحيحاً ، قال : فإني أنا هو ، قال وكان له أندران : أندر للقمح ، وأندر للشعير ، فبعث الله سحابتين ، فلما كانت إحداهما على أندر القمح أفرغت فيه الذهب حتى فاض ، وأفرغت الأخرى في أندر الشعير حتى فاض ، هذا لفظ ابن جرير رحمه الله .

وروى الإمام أحمد ... عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « بينما أيوب يغتسل عرياناً خرَّ عليه جراد من ذهب ، فجعل أيوب عليه الصلاة والسلام يحثو في ثوبه ، فناداه ربه عز وجل : يا أيوب ألم أكن أغنيتك عما ترى ؟ قال عليه

الصلاة والسلام : بلى يا رب ولكن لا غنى بي عن بركتك » انفرد بإخراجه البخاري من حديث عبد الرزاق به) .

١٤ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار** ﴾ نقول إن هذه الآية من أهم ما ينبغي الانتباه إليه ، مما له علاقة في السلوك إلى الله ، فالحسن البصري يقول : الناس هلكى إلا العالمون ، والعالمون هلكى إلا العاملون ، والعاملون هلكى إلى المخلصون ، والمخلصون على خطر عظيم ، فإذا كان المخلصون على خطر عظيم فمن هم الذين ليسوا كذلك ، لا شك أنهم هم المخُلَصون . وقد رسمت الآية الطريق للوصول إلى أن يصبح الإنسان مخلَصاً ، وهو ذكرى الدار الآخرة ، فلنكثر من ذكرها .

١٥ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **جنات عدن مفتَّحة لهم الأبواب** ﴾ قال ابن كثير : (روى ابن أبي حاتم ... عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « إن في الجنة قصراً يقال له عدن ، حوله البروج والمروج ، له خمسة آلاف باب ، وعند كل باب خمسة آلاف حبرة لا يدخله - أو لا يسكنه - إلا نبي أو صديق أو شهيد أو إمام عدل » وقد ورد في ذكر أبواب الجنة الثمانية أحاديث كثيرة من وجوه عديدة) .

....

ولننتقل إلى المقطع الثاني في السورة وهو المقطع الأخير .

☆ ☆ ☆

المقطع الثاني

ويمتدّ من الآية (٦٥) إلى نهاية السورة . أي إلى نهاية الآية (٨٨) وهذا هو :

المجموعة الأولى

قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾

المجموعة الثانية

قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ
إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ
إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ
سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ
وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ
أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ
مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ
﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾
إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ
مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ

مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾

المجموعة الثالثة

قُلْ مَآ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ
﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾

ملاحظة :

نلاحظ أن كلمة (قل) تكررت في المقطع ثلاث مرات ، ومن ثَمَّ فالمقطع يتألّف من ثلاث مجموعات ، كل مجموعة تؤدي دورها في عملية الإنذار وإقامة الحجة ضمن سياق السورة . وبما يخدم محورها .

* * *

تفسير المجموعة الأولى

﴿ **قل** ﴾ يا محمد للكافرين ﴿ **إنما أنا منذر وما من إله إلا الله** ﴾ أي ما أنا إلا رسول منذر ، أنذركم عذاب الله تعالى ، وأقول لكم إن دين الحق توحيد الله ، وأن تعتقدوا أن لا إله إلا الله ﴿ **الواحد** ﴾ بلا ندّ ولا شريك ﴿ **القهّار** ﴾ لكل شيء فهو قد قهر كل شيء وغلبه ﴿ **رب السموات والأرض وما بينهما** ﴾ أي هو مالك جميع ذلك ومتصرّف فيه . قال النسفي : (أي) له الملك والربوبية في العالم كله ﴿ **العزيز** ﴾ الذي لا يغلب إذا عاقب ﴿ **الغفّار** ﴾ لذنوب من التجأ إليه .

....

كلمة في السياق :

أمر الله عز وجل رسوله ﷺ في هذه المجموعة أن يعلن أنه رسول ، وأن لله وحده الألوهية والربوبية في العالم كله . وكأن السياق بعد أن عرض مواقف الكافرين المتعنّتة وعرض ما به تقوم الحجة يبيّن لرسوله عليه الصلاة والسلام أن نور الحق لا بد من إظهاره ، وأن الرسالة لا بد من تبليغها ، وأن أسس الدعوة ينبغي الجهر بها على كل حال ، وأن الرسول عليه الصلاة والسلام في واقع الأمر وحقيقة الحال منذر ، قَبِل الناسُ إنذارَه أو رفضوه ، استفادوا من ذلك أو لم يستفيدوا ، وإذ يتقرر الإعلان هذا يأتي أمر جديد فيه إعلان عن قيمة الإعلان الأول ، وفيه إقامة حجة جديدة عليهم ، فالملاحقة ينبغي أن تستمر حتى يلقي الكفر سلاحه .

☆ ☆ ☆

تفسير المجموعة الثانية

﴿ **قل** ﴾ يا محمد ﴿ **هو نبأ عظيم** ﴾ أي هذا الذي أنبأتكم به من كوني رسولاً منذراً وأن الله وحده لا شريك له ﴿ **نبأ عظيم** ﴾ أي خبر عظيم وشأن بليغ وهو إرسال الله تعالى إياي إليكم لا يعرض عن مثله إلا غافل شديد الغفلة . ثم ﴿ **أنتم عنه معرضون** ﴾ أي غافلون . وقال مجاهد والسدي وشريح القاضي في تفسير النبأ العظيم : بأنه القرآن ، وأنه هو المعرض عنه . وقال الحسن : يوم القيامة . وأيا ما كان النبأ فالمضمون الذي أعرضوا عنه هو الإنذار ، وصلة ذلك بمحور السورة ﴿ **إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون** ﴾ واضحة . ﴿ **ما كان لي من علم بالملأ الأعلى إذ يختصمون** ﴾ أمره أن يحتج لصحة نبوته بأن ما ينبيء به عن الملأ الأعلى واختصامهم ، أمر ما كان له به علم قط ، ولم يسلك الطريق الذي يسلكه الناس في علم ما لم يعلموا ، وهو الأخذ من أهل الكتاب فعلم أن ذلك لم يحصل له إلا بالوحي من الله تعالى . قال ابن كثير في الآية : (أي لولا الوحي من أين كنت أدري باختلاف الملأ الأعلى ؟ يعني في شأن آدم عليه السلام وامتناع إبليس من السجود له ، ومحاجّته ربه في تفضيله عليه) . وهذا الاختصام قد فسّر بعد هذا بآية أثناء الكلام عن قصة آدم عليه السلام . كما ذكر ذلك ابن كثير ﴿ **إن يوحى إليّ إلا أنما أنا نذير مبين** ﴾ أي ما يوحى إلي إلا للإنذار ، أو ما يوحى إلا هذا وهو أن أبلّغ وأنذر ، ولا أفرّط في ذلك . أي ما أُمر إلا بهذا الأمر وحده ، وليس لي غير ذلك . قال النسفي : (والمراد بالملأ الأعلى أصحاب القصة (أي الآتية) الملائكة وآدم وإبليس ، لأنهم كانوا في السماء ، وكان التقاول بينهم) . والآن تعرض السورة قصة الاختصام :

﴿ **إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من طين فإذا سوَّيته** ﴾ أي فإذا أتممت خلقه وعدّلته ﴿ **ونفخت فيه من روحي** ﴾ أي من الروح التي خلقتها وأضفتها إلى ذاتي تشريفاً لهذه الروح والمعنى : أحييته وجعلته حساساً متنفساً ﴿ **فقعوا له ساجدين** ﴾ أي اسقطوا على الأرض له . أي اسجدوا له . قال النسفي : (قيل كان انحناءً يدلّ على التواضع ، وقيل كان سجدة لله (وهو كالقبلة) أو كان سجدة التحية) . والسجود أو الانحناء لغير الله في شريعتنا محرّم فهو حكم منسوخ في شريعة الله الخاتمة . ﴿ **فسجد الملائكة كلهم أجمعون** ﴾ أفاد التعبير أنهم سجدوا عن آخرهم جميعهم في وقت واحد غير متفرقين في أوقات ﴿ **إلا إبليس استكبر** ﴾ أي تعظّم عن السجود ﴿ **وكان من**

الكافرين ﴾ أي وصار من الكافرين بإباء الأمر ﴿ **قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي** ﴾ أي بلا واسطة ، أي ما منعك عن السجود امتثالاً لأمري ، وإعظاماً لخطابي لمن خلقته بلا واسطة ، وفي ذلك دليل على بطلان نظرية التطور في شأن خلق آدم عليه السلام ﴿ **أستكبرت أم كنت من العالين** ﴾ هذا استفهام إنكار . أي هل الكبر أم العلو هو الذي جعلك ترفض السجود ﴿ **قال** ﴾ إبليس ﴿ **أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين** ﴾ . قال النسفي : يعني : لو كان مخلوقاً من نار لما سجدت له ، لأنه مخلوق مثلي فكيف أسجد لمن هو دوني ؟ لأنه من طين ، والنار تغلب الطين وتأكله ﴿ **قال** ﴾ الله عز وجل ﴿ **فاخرج منها** ﴾ أي من الجنة أو من السموٰات ﴿ **فإنك رجيم** ﴾ أي مرجوم أي مطرود . قال النسفي : (تكبَّر إبليس أن يسجد لمن خلق من طين ، وزلّ عنه أن الله أمر به ملائكته واتبعوا أمره إجلالاً لخطابه ، وتعظيماً لأمره ، فصار مرجوماً ملعوناً بترك أمره) ﴿ **وإن عليك لعنتي** ﴾ أي إبعادي من كلّ الخير ﴿ **إلى يوم الدين** ﴾ أي إلى يوم الجزاء . قال النسفي : (ولا يظن ظانّ أن لعنته غايتها يوم الدين ثم تنقطع ، لأن معناه أن عليه اللعنة في الدنيا وحدها ، فإذا كان يوم الدين اقترن بها العذاب ، فينقطع الانفراد أو لما كان عليه اللعنة في أوان الرحمة ، فأولى أن تكون عليه في غير أوانها ، وكيف تنقطع وقد قال الله تعالى : ﴿ **فأذَّن مؤذّن بينهم أن لعنة الله على الظالمين** ﴾ . ﴿ **قال** ﴾ إبليس ﴿ **رب فأنظرني** ﴾ أي فأمهلني ﴿ **إلى يوم يبعثون * قال فإنك من المنظرين * إلى يوم الوقت المعلوم** ﴾ أي الوقت الذي تقع فيه النفخة الأولى ، ويومه اليوم الذي وقت النفخة جزء من أجزائه ومعنى (المعلوم) أنه معلوم عند الله ، معيّن لا يتقدم ولا يتأخر ﴿ **قال فبعزّتك لأغوينَّهم أجمعين** ﴾ أقسم بعزة الله : وهي سلطانه وقهره أن يغويهم جميعاً ﴿ **إلا عبادك منهم المخلَصين** ﴾ أي الذين أخلصتهم واستخلصتهم ﴿ **قال** ﴾ الله عز وجل ﴿ **فالحق** ﴾ أي الحق قسمي أو أنا الحق ﴿ **والحق أقول** ﴾ أي وأقول الحق الذي هو نقيض الباطل ﴿ **لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين** ﴾ أقسم الله عز وجل أن يملأ جهنم بإبليس وجنسه من الشياطين وأتباعه من ذرية آدم أي لأملأن جهنم من المتبوعين والتابعين أجمعين لا أترك منهم أحداً .

....

نقول :

١ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **قل هو نبأ عظيم * أنتم عنه معرضون** ﴾ قال صاحب الظلال : (وإنه لأمر أعظم بكثير من ظاهره القريب . إنه أمر من أمر الله في هذا الوجود كله . وشأن من شؤون هذا الكون بكامله . إنه قدر من قدر الله في نظام هذا الوجود . ليس منفصلاً ولا بعيداً عن شأن السماوات والأرض ، وشأن الماضي السحيق والمستقبل البعيد .

ولقد جاء هذا النبأ ليتجاوز قريشاً في مكة ، والعرب في الجزيرة ، والجيل الذي عاصر الدعوة في الأرض . ليتجاوز هذا المدى المحدود من المكان والزمان ؛ ويؤثّر في مستقبل البشرية كلها في جميع أعصارها وأقطارها ؛ ويكيِّف مصائرها منذ نزوله إلى الأرض إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . ولقد نزل في أوانه المقدر له في نظام هذا الكون كله ، ليؤدي دوره هذا في الوقت الذي قدّره الله له .

ولقد حول خط سير البشرية إلى الطريق الذي خطته يد القدر بهذا النبأ العظيم . سواء في ذلك من آمن به ومن صدّ عنه . ومن جاهد معه ومن قاومه . في جيله وفي الأجيال التي تلته . ولم يمر بالبشرية في تاريخها كله حادث أو نبأ ترك فيها من الآثار ما تركه هذا النبأ العظيم .

ولقد أنشأ من القيم والتصورات ، وأرسى من القواعد والنظم في هذه الأرض كلها ، وفي أجيال البشرية جميعها ، ما لم يكن العرب يتصورونه ولو في الخيال !

وما كانوا يدركون في ذلك الزمان أن هذا النبأ إنما جاء ليغيّر وجه الأرض ؛ ويوجّه سير التاريخ ؛ ويحقق قدر الله في مصير هذه الحياة ؛ ويؤثّر في ضمير البشرية وفي واقعها ؛ ويصل هذا كله بخط سير الوجود كله ، وبالحق الكامن في خلق السماوات والأرض وما بينهما . وأنه ماض كذلك إلى يوم القيامة . يؤدي دوره في توجيه أقدار الناس وأقدار الحياة .

والمسلمون اليوم يقفون من هذا النبأ كما وقف منه العرب أول الأمر . لا يدركون طبيعته وارتباطها بطبيعة الوجود ؛ ولا يتدبرون الحق الكامن فيه ليعلموا أنه طرف من الحق الكامن في بناء الوجود ؛ ولا يستعرضون آثاره في تاريخ البشرية وفي خط سيرها الطويل استعراضاً واقعياً ، يعتمدون فيه على نظرة مستقلة غير مستمدة من أعداء هذا

النبأ الذين يهمهم دائماً أن يصغّروا من شأنه في تكييف حياة البشر وفي تحديد خط التاريخ .. ومن ثَمَّ فإن المسلمين لا يدركون حقيقة دورهم سواء في الماضي أو الحاضر أو المستقبل . وأنه دور ماض في هذه الأرض إلى آخر الزمان ..) .

٢ - وبمناسبة قوله تعالى : ﴿ **ونفخت فيه من روحي** ﴾ قال صاحب الظلال رحمه الله : (ونحن نجهل كنه هذه النفخة ؛ ولكننا نعرف آثارها . فآثارها هي التي ميزت هذا الكائن الإنساني عن سائر الخلائق في هذه الأرض . ميزته بخاصية القابلية للرقي العقلي والروحي . هي التي جعلت عقله ينظر تجارب الماضي ، ويصمم خطط المستقبل . وجعلت روحه يتجاوز المدرك بالحواس والمدرك بالعقول ، ليتصل بالمجهول للحواس والعقول .

وخاصية الارتقاء العقلي والروحي خاصية إنسانية بحتة ، لا يشاركه فيها سائر الأحياء في هذه الأرض . وقد عاصر مولد الإنسان الأول أجناس وأنواع شتى من الأحياء . ولم يقع في هذا التاريخ الطويل أن ارتقى نوع أو جنس - ولا أحد أفراده - عقلياً أو روحياً . حتى مع التسليم بوقوع الارتقاء العضوي .

لقد نفخ الله من روحه في هذا الكائن البشري ، لأن إرادته اقتضت أن يكون خليفة في الأرض ؛ وأن يتسلّم مقاليد هذا الكوكب في الحدود التي قدرها له . حدود العمارة ومقتضياتها من قوى وطاقات .

لقد أودعه القدرة على الارتقاء في المعرفة . ومن يومها وهو يرتقي كلما اتصل بمصدر تلك النفخة ، واستمد من هذا المصدر في استقامة . فأما حين ينحرف عن ذلك المصدر العلوي فإن تيارات المعرفة في كيانه وفي حياته لا تتناسق ، ولا تتجه الاتجاه المتكامل المتناسق المتجه إلى الأمام ؛ وتصبح هذه التيارات المتعارضة خطراً على سلامة اتجاهه . إن لم تقده إلى نكسة في خصائصه الإنسانية ، تهبط به في سلم الارتقاء الحقيقي . ولو تضخّمت علومه وتجاربه في جانب من جوانب الحياة .

وما كان لهذا الكائن الصغير الحجم ، المحدود القوة ، القصير الأجل ، المحدود المعرفة .. ما كان له أن ينال شيئاً من هذه الكرامة لولا تلك اللطيفة الربانية الكريمة .. وإلا فمن هو ؟ إنه ذلك الخلق الصغير الضئيل الهزيل الذي يحيا على هذا الكوكب الأرضي مع ملايين الأنواع والأجناس من الأحياء . وما الكوكب الأرضي إلا تابع

صغير من توابع أحد النجوم . ومن هذه النجوم ملايين الملايين في ذلك الفضاء الذي لا يدري إلا الله مداه .. فماذا يبلغ هذا الإنسان لتسجد له ملائكة الرحمان ؛ إلا بهذا السر اللطيف العظيم ؟ إنه بهذا السر كريم كريم . فإذا تخلى عنه أو انفصم منه ارتد إلى أصله الزهيد .. من طين !) .

كلمة في السياق :

١ - جاءت قصة آدم عليه السلام لتؤدي مقصداً رئيسياً في السورة ، وهو إقامة الحجة على الكافرين بأن محمداً ﷺ ما كان ليعلم مثل هذه القصة لولا الوحي ، فهذا دليل من أدلة رسالته عليه الصلاة والسلام ، ولكنها في سياقها أدّت خدمات أخرى ، منها إعلام هؤلاء الكافرين الذين يأبون اتباع محمد ﷺ أنهم سائرون على قدم إبليس ، ومنها تعريف هؤلاء بعاقبتهم إن استمروا على ما هم عليه ، ومنها تعريف الراغبين بالحق بطريق الخلاص ، وهو أن يُخلَصَ لله رب العالمين ، وكل هذه المعاني واضحة الصلة بسياق السورة وبمحورها العام .

٢ - نلاحظ الصلة بين قوله تعالى : ﴿ **إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار** ﴾ وبين قوله تعالى هنا ﴿ **إلا عبادك منهم المخلَصين** ﴾ كما نلاحظ الصلة بين ذكر عباد الله المخلَصين هنا ، وذكر عباد الله المخلَصين أكثر من مرة في سورة الصافات ، مما يشير إلى التكامل بين سورتي الصافات وصّ .

والآن يأتي التوجيه الأخير للنذير عليه الصلاة والسلام أن يقول لهؤلاء المعرضين الفارّين المستكبرين الطاغين الظالمين المتعجّبين الكلام الأخير .

☆ ☆ ☆

تفسير المجموعة الثالثة

﴿ **قل** ﴾ يا محمد ﴿ **ما أسألكم عليه** ﴾ أي : على القرآن أو الوحي أو الإنذار ﴿ **من أجر** ﴾ أي : ما أسألكم على هذا البلاغ ، وهذا النصح أجراً تعطونيه من عرض الحياة الدنيا ؛ حتى تظنوا بي الظنون ﴿ **وما أنا من المتكلّفين** ﴾ أي : من الذين يتصنَّعون ويتحلَّوْن بما ليسوا من أهله ، وما عرفتموني قط متصنِّعاً ولا مدّعياً بما ليس عندي ؛ حتى أنتحل النّبوة ، وأتقوَّل القرآن ، أمره أن يلفت نظرهم إلى خصائصه الذاتية التي تدل - وحدها - على أنّه لا يمكن أن يكون إلا رسولاً صادقاً لله . ثم أمره أن يلفت نظرهم إلى خصائص القرآن ﴿ **إن هو إلا ذكر للعالمين** ﴾ أي : ما القرآن إلا ذكر من الله للثقلين أُوحيَ إلي ، فأنا أبلغه ﴿ **ولتعلَمُنَّ نبأه** ﴾ أي : خبر القرآن وما فيه من الوعد والوعيد ، وذكر البعث والنشور ﴿ **بعد حين** ﴾ أي : بعد الموت أو يوم القيامة . قال صاحب الظلال رحمه الله :

(إنها الدعوة الخالصة للنجاة ، بعد كشف المصير وإعلان النذير . الدعوة الخالصة التي لا يطلب صاحبها أجراً . وهو الداعية السليم الفطرة ، الذي ينطق بلسانه ، لا يتكلّف ولا يتصنَّع ، ولا يأمر إلا بما يوحي منطق الفطرة القريب . وإنه للتذكير للعالمين أجمعين فقد ينسون ويغفلون . وإنه للنبأ العظيم الذي لا يلقون بالهم إليه اليوم ، وليعلمن نبأه بعد حين . نبأه في الأرض - وقد علموه بعد سنوات من هذا القول - ونبأه في اليوم المعلوم . عندما يحق وعد الله اليقين : ﴿ **لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين** ﴾ .

إنه الختام الذي يتناسق مع افتتاح السورة ومع موضوعها والقضايا التي تعالجها . وهو الإيقاع المدوي العميق ، الموحي بضخامة ما سيكون : ﴿ **ولتعلَمُنّ نبأه بعد حين** ﴾) .

كلمة في السياق والمقطع :

١ - نلاحظ أن المجموعة الأخيرة لفتت نظرهم إلى مجموعة الأمور التي لو تأمّلوها لآمنوا بمحمد ﷺ وقبلوا إنذاره ، ومن جملة ذلك كون القرآن ذكراً وهو المعنى الذي بدأت به السورة ، وتوسّطت به ، وانتهت به ﴿ **صٓ والقرآن ذي الذكر** ﴾ ﴿ **هذا ذكر وإن للمتقين لحسن مآب** ﴾ . ﴿ **إن هو إلا ذكر**

للعالمين ﴾ . وهذا يفيد أن هذه الخاصية في القرآن كافية لأن تقيم الحجة على صحة رسالة الرسول ﷺ وعلى صحة كون هذا القرآن من عند الله ، ومن ثَمَّ تقيم الحجة على المنذَرين ، فإذا رفضوا الإيمان مع وجود هذه الخاصية فالعلة في قلوبهم وأسماعهم وأبصارهم .

٢ - ونلاحظ أن المقطع الأخير بمجموعه قد أتم صرح السورة في تبيان أن الكافرين لا يقبلون الإنذار ، وفي تبيان العذاب العظيم المعَدّ لهم ، وفي تبيان ما ينبغي أن يفعله رسول الله ﷺ في مقابل إعراضهم من ذكر وتذكر ، وإقامة حجة ولفت نظر .

....

فوائد :

١ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **ما كان لي من علم بالملأ الأعلى إذ يختصمون** ﴾ ذكر ابن كثير حديثاً ليس له علاقة بالآية ، ولكن لمجرد ذكر الملأ الأعلى فيه ونحن نذكره تبرّكاً ، لا على أنه تفسير للآية . قال ابن كثير :

(فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد ... عن معاذ رضي الله عنه قال : احتبس علينا رسول الله ﷺ ذات غداة من صلاة الصبح حتى كدنا نتراءى قرن الشمس ، فخرج ﷺ سريعاً فثوّب بالصلاة ، فصلى وتجوَّز في صلاته ، فلما سلّم قال ﷺ : « كما أنتم » ثم أقبل إلينا فقال : « إني قمت من الليل فصلّيت ما قدر لي ، فنعست في صلاتي حتى استيقظت ، فإذا أنا بربي عز وجل في أحسن صورة ، فقال : يا محمد أتدري فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ قلت : لا أدري يا رب - أعادها ثلاثاً - فرأيته وضع كفه بين كتفي حتى وجدت برد أنامله بين صدري فتجلى لي كل شيء ، وعرفت ، فقال : يا محمد فيم يختصم الملأ الأعلى ؟ قلت : في الكفارات . قال : وما الكفارات ؟ قلت : نقل الأقدام إلى الجماعات ، والجلوس في المساجد بعد الصلوات ، وإسباغ الوضوء عند الكريهات ؟ قال : وما الدرجات ؟ قلت : إطعام الطعام ، ولين الكلام ، والصلاة والناس نيام ، قال : سل ، قلت : اللهم إني أسألك فعل الخيرات ، وترك المنكرات ، وحب المساكين ، وأن تغفر لي وترحمني ؛ وإذا أردت فتنة بقوم فتوفني غير مفتون ، وأسألك حبك ، وحب من يحبك ، وحب عمل يقربني إلى حبك » وقال رسول الله ﷺ : « إنها حق فادرسوها وتعلّموها » فهو حديث المنام المشهور ، ومن

جعله يقظة فقد غلط ، وهو في السنن من طرق ، وهذا الحديث بعينه قد رواه الترمذي من حديث جهضم بن عبد الله اليماني به ، وقال : حسن صحيح وليس هذا الاختصام هو الاختصام المذكور في القرآن فإن هذا قد فسر) .

٢ - بمناسبة ذكر قصة آدم عليه السلام في سورة (صٓ) قال ابن كثير :

(هذه القصة ذكرها الله تبارك وتعالى في سورة البقرة ، وفي أول سورة الأعراف ، وفي سورة الحجر ، وسبحان ، والكهف وههنا ، وهي أن الله سبحانه وتعالى أعلم الملائكة قبل خلق آدم عليه الصلاة والسلام بأنه سيخلق بشراً من صلصال من حمأ مسنون ، وتقدم إليهم بالأمر ، متى فرغ من خلقه وتسويته فليسجدوا له إكراماً وإعظاماً واحتراماً وامتثالاً لأمر الله عز وجل ؛ فامتثل الملائكة كلهم ذلك سوى إبليس ، ولم يكن منهم جنساً . كان من الجن ، فخانه طبعه وجبلته أحوج إليه فاستنكف عن السجود لآدم ، وخاصم ربه عز وجل فيه ، وادّعى أنه خير من آدم ، فإنه مخلوق من نار ، وآدم خلق من طين ، والنار خير من الطين في زعمه ، وقد أخطأ في ذلك وخالف أمر الله تعالى ، وكفر بذلك ، فأبعده الله عز وجل ، وأرغم أنفه ، وطرده عن باب رحمته ، ومحل أنسه ، وحضرة قدسه ، وسماه إبليس إعلاماً له بأنه قد أبلس من الرحمة ، وأنزله من السماء مذموماً مدحوراً إلى الأرض فسأل الله النظرة إلى يوم البعث ، فأنظره الحليم الذي لا يعجل على من عصاه . فلما أمن الهلاك إلى القيامة تمرد وطغى وقال ﴿ **فبعزّتك لأغوينهم أجمعين * إلا عبادك منهم المخلَصين** ﴾ كما قال عز وجل ﴿ **أرأيتك هذا الذي كرّمت عليّ ، لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلاً** ﴾ وهؤلاء هم المستثنون في الآية الأخرى ، وهي قوله تعالى ﴿ **إن عبادي ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلاً** ﴾ [الإسراء : ٦٥] .

٣ - بمناسبة قوله تعالى : ﴿ **قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلّفين** ﴾ قال النسفي : (للمتكلف ثلاث علامات : ينازع من فوقه ، ويتعاطى ما لا ينال ، ويقول ما لا يعلم) وأذكر بمناسبة هذه الآية قوله عليه الصلاة والسلام :

« أنا وصالحو أمتي براء من التكلف » ، وفي الصحيحين أن ابن مسعود قال : أيها الناس من علم منكم علماً فليقل به ، ومن لم يعلم فليقل الله أعلم ، قال الله تعالى لرسوله ﷺ ﴿ **قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلّفين** ﴾ .

٤ - بمناسبة قوله تعالى حكاية عن قسم إبليس : ﴿ **فبعزّتك لأغوينهم أجمعين * إلا عبادك منهم المخلَصين** ﴾ نتذكر ما أثبتناه في فوائد المقطع الأول عند قوله تعالى : ﴿ **إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار** ﴾ من أجل أن نعمل على السير إلى طريق الاستخلاص ، وهو كما حددته الآية : ذكر الدار الآخرة ، والتذكير به - وحبذا لو وقف الإنسان عند الآيات المذكرة بالآخرة - وكانت له جلسة تفكر في الآخرة كل يوم ، قال تعالى : ﴿ **اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدّمت لغد** ﴾ [الحشر : ١٨] .

....

كلمة أخيرة في سورة (صٓ) ومجموعتها :

لاحظ قوله تعالى في سورة (صٓ) ﴿ **واذكر عبادنا إبراهيم وإسحق ويعقوب أولي الأيدي والأبصار** ﴾ وتذكر ما فسّر به المفسرون قوله تعالى : ﴿ **والأبصار** ﴾ بأنه البصر في الدين والفقه فيه . وتذكّر الآن محور السورة من سورة البقرة :

﴿ **إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون * ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم** ﴾ .

فالكافرون على أبصارهم غشاوة ، والرسل عليهم الصلاة والسلام أصحاب الأبصار ، هذا نموذج على الصلة الدقيقة بين سورة (صٓ) ومحورها من سورة البقرة . وقد رأينا كيف أن مقدّمة سورة (صٓ) أرتنا كيف أن الكافرين لا ينفع معهم الإنذار ، كما رأينا كيف أن المقطع الأول أعطى دروساً للنذير من خلال الأمر بالصبر والذكر ، ثم رأينا كيف أن المقطع الثاني أمر رسول الله ﷺ أن يقول المعاني الأخيرة الفاصلة القاطعة التي تقيم الحجج النهائية على الكافرين ، وقد رأينا كيف أن عدم انتفاع الكافرين بالإنذار قد عُرِض في السورة بما تقوم به الحجة على الكافرين قياماً كاملاً ، من خلال ذكر خصائص القرآن ، وخصائص الرسول عليه الصلاة والسلام .

....

وسورة (صٓ) والصافات عالجت كل منهما معاني رئيسية لمحور محدد ، ولكن كون السورتين عالجتا مقدمة سورة البقرة فإنك تجد تداخلاً بين السورتين ، بحيث تجد سورة الصافات قد تعرضت لمواقف الكافرين ، وبحيث تجد سورة (صٓ) قد تعرَّضت للكلام عن المتقين ، ولكن في نفس الوقت انصبَّ الكلام الرئيسي في سورة الصافات على

تفصيل معان في إطار الآيات الأربعة الأولى من سورة البقرة ، وانصبَّ الكلام انصباباً رئيسياً في سورة (صٓ) عن الآيتين اللاحقتين .

....

وقد رأينا من خلال عرضنا لسورة (صٓ) كيف يظهر التكامل بينها وبين سورة الصافات ، على اعتبار أنهما تشكلان مجموعة واحدة ، فكما أن التكامل قائم بين محوريهما فكذلك نرى التكامل على امتداد السورتين . فمقدمة سورة الصافات تقرر ﴿ **إن إلهكم لواحد** ﴾ ومقدمة سورة (صٓ) يرد فيها قوله تعالى على لسان الكافرين : ﴿ **أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب** ﴾ .

وسورة (صٓ) تتحدّث عن اختصام الكافرين مع بعضهم في النار ، وسورة الصافات تستثني عباد الله المخلَصين مرات . وسورة (صٓ) تذكر الطريق إلى هذا الاستخلاص ، وتستثنيهم من الوقوع في غواية الشيطان . وسورة الصافات تذكر المرسلين وإنذارهم ودعوتهم ، وسورة (صٓ) تتحدّث كذلك عن الرسل . وهكذا نجد السورتين تتداخلان ، وتتكاملان لتؤديا دوراً واحداً في بناء قضية الإيمان والسلوك الإيماني ، وفضح الكفر والسلوك الكافر .

....

نلاحظ في سورة الصافات أنها لم تتحدّث عن داود وسليمان وأيوب عليهم السلام ، بينما تحدّثت عنهم سورة (صٓ) . وتحدّثت سورة الصافات عن نوح وإلياس وموسى وهارون ولوط ويونس عليهم الصلاة والسلام ولم تتحدّث عنهم سورة (صٓ) . وتحدثت سورة الصافات عن إلياس عليه السلام . وتحدّثت سورة (صٓ) عن خليفته اليسع عليه السلام . وتحدّثت سورة الصافات بشيء من الإسهاب عن إبراهيم وإسماعيل وإسحق عليهم الصلاة والسلام بينما ذكرتهم ذكراً فقط سورة (صٓ) . وكل ذلك من مظاهر التكامل بين السورتين .

....

ويلاحظ أن سورة (صٓ) تحدّثت عن خاصية من خواص القرآن وهو أنه (**ذو الذكر**) ونحب أن نذكر هنا أن هذه الخاصية التي تحدّثت عنها سورة (صٓ) خاصية فريدة وعجيبة ومعجزة . وهي وحدها تدل على أن هذا القرآن من عند الله .

فكتاب تحدّث عن كل شيء ، وفصّل كل شيء مما يحتاجه الإنسان ، وكان فيه الأمر والنهي ، والخبر والقصّة ، والعظة والزجر ، والترغيب والترهيب وغير ذلك ، فأن يكون هذا كله فيه مذكّراً بالله عز وجل ، إن كتاباً على مثل هذا الكمال ، وفيه مثل هذه الخاصية الظاهرة من أوله إلى آخره ، لا يمكن أن يكون من عند بشر .

فهرس المجلد الثامن

﴿ سورة الروم ﴾ ٤٢٤٣





☆ ☆ ☆

☆ ☆ ☆

☆ ☆ ☆



☆ ☆ ☆

﴿ سورة الصافات ﴾ ٤٦٧٧